تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب

القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار

للداعي إدريس عماد الدين

المتوفى سنة 1488/872

تحقيق

محمد اليعلاوي



دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
1985

دار الغرب الإسلامي
ص.ب: ٥٧٨٧/١١٣
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ اهتمامنا بالفترة الفاطميّة من تاريخ المغرب العربيّ كان متّجهاً بادىء ذي بدء إلى الآثار الأدبية، فخصّصنا أطروحة الدكتوراه للشاعر محمّد بن هانىء المَغربيّ الأندلسيّ، شاعر المعزّ لدين الله[1] بعد أن نشرنا جملة من قصائده ومقطوعاته المجهولة، اكتشفناها في بعض مخطوطات الديوان المحفوظة بالمكتبة الوطنيّة بتونس[2].

فجرّنا الحديث عن ابن هانىء إلى البحث عن شعراء إفريقيّين آخرين، ممّن عاصروا الخلفاء الأربعة: المهديّ فالقائم فالمنصور فالمعزّ، فوالَوهم في دولتهم أو ناوؤوهم في دعوتهم. فاستخرجنا من المظانّ السنيّة كرياض النفوس لأبي بكر المالكيّ[3] ومعالم الإيمان للدبّاغ/ ابن ناجي، والشيعيّة كافتتاح الدعوة للقاضي

---

(1) نشرت الرسالة بالفرنسيّة سنة 1976 بتونس، ضمن مشورات كليّة الآداب. ونشرت بالعربيّة سنة 1985 عن دار الغرب الإسلاميّ ببيروت.

(2) نشرنا هذه المجموعة من شعر ابن هانىء بمجلّة «حوليّات الجامعة التونسيّة»، العدد 6، سنة 1969 والعدد 9 لسنة 1972.

(3) صدر أخيراً في طبعة محقّقة كاملة مفهرسة عن دار الغرب الإسلاميّ في ثلاثة أجزاء، بتحقيق البشير البكّوش، بيروت، 1981 - 1983. وكنّا اعتمدنا نسخة خطيّة من الجزء الثاني.

النعمان، وسيرة الأستاذ جوذر وعيون الأخبار للداعي إدريس - وهو الكتاب الذي نقدّمه اليوم - طائفة صالحة من الشعر المناصر والمناهض، سعياً إلى تصنيف مدوّنة أوّليّة تجمع ما أمكن العثور عليه من الشعر المذهبّي الخاصّ بالنصف الأوّل من القرن الرابع الهجريّ / العاشر الميلاديّ، ونشرنا هذه الحصيلة من الشعر الإفريقيّ المعاصر للدولة الفاطميّة في مجموعتين(4).

ودراستنا لهذه الآثار زادتنا اقتناعاً بأنّ الشعر السياسيّ، أو الاجتماعيّ بوجه عامّ، لا يفهم حقّ الفهم إلّا إذا وُضع في الإطار التاريخيّ الذي نظم فيه، وأُرجع إلى البيئة الاجتماعيّة والحظيرة العقائديّة التي نشأ فيها قائلوه. فطمحنا إلى أن نجد في كتاب القاضي النعمان، «المجالس والمسايرات»، شيئاً ممّا يَعِدُنا به العنوان: أي، معلومات عن الأحداث التاريخيّة التي عرفها مؤلّفه، إمّا بالممارسة والمشاهدة، وإمّا بالسماع والرواية عن المعزّ في مجالسه وأثناء مصاحبته له في تنقّلاته، وتفاصيل عن الحروب والانتفاضات، وإرشادات عن الحياة العامّة وموقف المجتمع من هذه الدولة التي عدّها جانب كبير من المغاربة دولة دخيلة مبتدعة، بل مارقة، بمقولاتها وطقوسها وشعاراتها الغريبة عن معتقد السنّة والجماعة. فنشرنا هذا الكتاب(5)، رغم أنّه لم يحقّق ما أملنا منه: فالنعمان لا يدقّق التواريخ ولا يصرّح بالأسماء ولا يتبع التسلسل الطبيعيّ، ولكنّه يفيدنا كثيراً لمعرفة «الجوّ العامّ» في القيروان

---

(4) حوليّات الجامعة التونسيّة، العدد 1973/10 والعدد 1979/17.

(5) كتاب المجالس والمسايرات، من منشورات كليّة الآداب كذلك، تونس 1978. وكان التحقيق بالاشتراك مع الدكتور الحبيب الفقي المختص في الفلسفة الإسلاميّة والدراسات الإسماعيلية، وبمساهمة من الأستاذ إبراهيم شبوح المختص في الآثار الإسلاميّة.

وأعمالها، والاطّلاع على المكانة الخاصّة التي توليها الدعوة للإمام والصفات المتميّزة التي تكاد تخرجه عن طينة البشر.

وفي الأثناء، لفت انتباهنا ما نقله الداعي إدريس في السبع الخامس من كتابه هذا، من خطب المهديّ والقائم والمنصور ورسائلهم، فأعجبنا بأسلوبها الرفيع الذي يجعلها جديرة بأن تُلحق برسائل البلغاء وتدرج في مدوّنات الخطابة العربيّة، هذا علاوة على ما تسلّطه من أضواء على أحداث ووقائع تردُ عند المؤرّخين مقتضبة، أو مبهمة مضطربة. فنشرناها أيضاً[6] بعد أن بذلنا الجهد في تصحيحها وتحقيقها كما فعلنا بالقصائد والأبيات التي أشرنا إليها.

وكنّا ظفرنا بنسخة مصوّرة من مخطوط السبع الخامس لهذا الكتاب، الذي يؤرّخ للخلفاء الثلاثة الأُوَل ـ وهي نسخة من مخطوطة المكتبة المحمّديّة الهمدانيّة، أمدّنا بها الباحث الكبير والمحقّق القدير الدكتور إحسان عبّاس[7] ـ فاكتشفنا فيها معلومات جديدة هامّة عن فترتَي القائم والمنصور، ولا سيّما عن ثورة أبي يزيد صاحب الحمار، في تفاصيلها وأطوارها وتسلسلها والطوائف المشاركة فيها وأسماء ضحاياها وأبطالها. فعزمنا على تحقيق هذا السبع الخامس ونشره، عملاً بما بسطناه آنفاً من وجوب الاستعانة بالتاريخ لفهم الأدب، وضرورة الاستعانة بالأدب لإضاءة التاريخ. فاستقدمنا نسخة أخرى من هذا السبع الخامس[8] وأخذنا في العمل، وتقدّمنا فيه

---

(6) نشرنا هذه الخطب والرسائل في مجلّة «الحياة الثقافيّة» بتونس سنة 1979.

(7) وصلتنا هذه المصوّرة عن طريق الزميل إبراهيم شبّوح، فنجدّد الشكر له وللدكتور إحسان عبّاس.

(8) أمدّنا بهذه المصوّرة الثانية ـ نسخة «ر» ـ الدكتور محمّد رحمة الله رئيس جمعيّة الدراسات الإسماعيليّة بباريس.

خطوات، حتى طالعتنا طبعة الدكتور مصطفى غالب[9] فأخذتنا الخيبة وذهبت النفس حسرات.

أخذتنا الحسرة، لا لأنّ المجهود الذي بذلناه ذهب سدى بظهور الكتاب. فهذه المفاجآت كثيراً ما وقعت في السابق، ويكفي أن نذكر مثال «افتتاح الدعوة» للقاضي النعمان، الذي عمل على تحقيقه ونشره كلّ من الدكتورة وداد القاضي في بيروت، والدكتور فرحات الدشراوي بتونس، فظهرت منه طبعتان صالحتان، وكانت الواحدة منهما تكفي لسدّ الفراغ وإرضاء حاجة الباحثين. ولعلّ ما يقوم به اليوم معهد المخطوطات العربيّة التابع للمنظّمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم، في دوريّته «أخبار التراث العربيّ»، من إعلام بما أُنجز وتنبيه إلى ما يُنجز، لعلّه ينقص في المستقبل من هذا التقابل في العمل والازدواج في المجهود.

بل سبب خيبتنا أنّ الكتاب الذي «حقّقه وكتب مقدّمته الدكتور مصطفى غالب» لا يستحقّ صفة التحقيق من قريب ولا من بعيد: فالطبعة تحتاج إلى إصلاح بل إصلاحات في كلّ صفحة لأغلاطها المتعدّدة المتنوّعة، وما هي بالأغلاط المطبعيّة[10]، وتفتقر إلى ضبط حقيقيّ للنصّ وتعريف بالأعلام والمواضع، ومقابلة رواية الداعي للأحداث برواية بقيّة المؤرّخين، ولا سيّما مؤلّفي الجانب الغربيّ كابن حمّاد وابن عذاري وابن خلدون، ومناقشة التواريخ والأحكام التي يثبتها المؤلّف ويتبنّاها، وتبرير الاختيار بين قراءتين ممكنتين،

---

(9) «عيون الأخبار وفنون الآثار»، السبع الخامس، بيروت د. ت،. ولكنّ مقدّمة المحقّق مؤرّخة بشباط/ فيفري 1975.

(10) مثلاً، في ص 129، الآية: ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ لا ينتبه إلى أنّها قرآن وتكتب الكلمة «دحلها» ويقترح علينا في الهامش «رحلها». وفي ص 145، «ضيق المجاز» يصبح ضيق المجاذر.

ما دام الناشر يعتمد نسختين مختلفتين(11). كما يحتاج التحقيق إلى صنع فهارس مفصّلة مدقّقة مرتّبة ترتيباً محكماً يوفّر الوقت للقارىء، الباحث عن عَلَم بعينه أو موقع مخصوص(12). وكنّا ننتظر من المحقّق، وهو ممّن ينتسب إلى الإسماعيليّة ويدّعي فيها الاختصاص، أن تكون معرفته بأصول المذهب وبتاريخ رجاله، ولا سيّما المهديّ، والقائم، معرفة صحيحة ثابتة واسعة. ولكن هيهات! فالتعليقات الهزيلة القليلة التي تذيّل بعض الصفحات إنّما هي منقولة عن المقريزيّ في «اتّعاظ الحنفاء» أو عن «افتتاح الدعوة» للنعمان(13)، وأغلبها مكرّر ومتضارب أو مضحك في غرابة خطئه(14).

وعلى الرغم من نقائص هذه الطبعة التي شوّهت الكتاب إلى حدّ أنّ قراءة المخطوط مباشرة كانت تبدو أضمن للفهم الصحيح، أحجمنا عن مواصلة العمل في تحقيق الكتاب حتى لا نتّهم باستثمار مجهود الغير، وأسلمنا أمرنا إلى الله راجين، في خاتمة الكلمة التي قدّمنا بها للخطب والرسائل، «أن لا يطلع علينا السبع السادس في صورة من الإهمال والاستخفاف مماثلة لحال السبع الخامس». وما كنّا آنذاك نأمل أن نحصل على نسخة من السبع السادس، رغم محاولاتنا العديدة لدى من يتّصلون بطائفة البهرة وشيوخ الإسماعيليّة

---

(11) وقد كتم خبر المخطوط الثاني «حرصاً على سلامة الشيخ الفاضل والإنسان المؤمن» الذي أسعفه به.

(12) لكنّ فهارس الدكتور غالب يندرج فيها الوليد وبعده المغيرة ضمن قائمة الهمزة، ويأتي أحمد بعد أفلح، ومحمّد بعد منصور، وسجلماسة بعد سلميّة.

(13) يقول عن الافتتاح: «مخطوط في مكتبتي الخاصّة»، ولا خبر عن طبعة وداد القاضي وقد صدرت قبل تحقيقه بخمس سنوات.

(14) مثلاً: تعريفان مختلفان لمدينة سوسة ص 84 و 197 وفي ص 318: سبيطلة تكتب في المتن: سبطيلة وفي التعليق: سبطة.

بالهند واليمن، وهم، والحقّ يقال، لايزالون يضنّون بمخطوطاتهم ويغارون عليها ويحرمون منها الباحثين، إلاّ من ادّعى الانتساب إليهم أو الاختصاص فيهم.

وفي سنة 1981 ظهرت بتونس طبعة لمقتطفات من السبع الخامس بتحقيق الدكتور فرحات الدشراوي[15] الذي تخصّص في تاريخ الدولة الفاطميّة بالمغرب. انتقى الناشر هذه الفقرات من نسخة أمدّه بها المستشرق شتارن، ومهّد لها بمقدّمة مفيدة تبيّن ما لهذه الرواية الشيعيّة للأحداث من قيمة، وذلك بإكمالها وتوضيحها وتنقيحها لرواية المصادر السنّيّة، خاصّة في تفاصيل ثورة أبي يزيد. وكان هو أيضاً عازماً على نشر الكتاب فعدل عن المشروع حين تعذّر عليه الحصول على نسخ خطّيّة أخرى فاقتصر على فقرات من أخبار القائم والمنصور معرضاً عن خبر بداية الدولة لأنّه مذكور بالتفصيل في افتتاح الدعوة للنعمان.

وبكتاب الدشراوي خفّت خيبتنا بعض الشيء: فالنصّ في معظمه محقّق مفهوم، بل مشكول في مواضع كثيرة. ولئن وقعت فيه بعض الهنات، فمرجعها إمّا إلى قلّة اعتناء عند تصحيح التجارب[16] وإمّا إلى اضطرار الناشر إلى الاعتماد على نسخة وحيدة، فإذا وقع سقوط، لم يستطع تداركه[17]. وكان يمكن للمحقّق أن يعتمد النصّ

---

(15) ظهرت هذه المقتطفات بعنوان «تاريخ الدولة الفاطميّة بالمغرب»، مطبعة الاتّحاد العامّ التونسيّ للشغل.

(16) من الأغلاط المتكرّرة: ضمّ جزء من كلمة إلى كلمة موالية، وسقوط حرف أو أكثر من كلمة، وزيادة حرف أو كلمة اعتباطاً، وسقوط كلمة أو أكثر من السياق: ص 200: فلمّا وصل الكتاب إلى تحركوا... ص 241: وتحصين أمّة رسولك في اللهمّ وافتح لي...

(17) وفي هذه الحال، ينبغي تنبيه القارىء إليه والسعي إلى سدّ الفراغ.

المطبوع - على علاّته - مخطوطاً ثانياً لو انتبه إلى ظهوره بالسوق. والهوامش كثيرة متنوّعة، إلاّ أنّها أخّرت إلى ذيل الكتاب فأتعبت القارىء بالتنقّل الدائم بين متن الكتاب وصفحاته الأخيرة. ثمّ إنّ الإحالات تكتفي بذكر المرجع المشارُ إليه وتعيين صفحاته، دون تلخيص للمعلومة التي يستشهد بها، ممّا يضطرّ القارىء إلى بحث جديد في كتب أخرى قد لا تتوفّر لديه. لكنّ النقص الأكبر في هذه الطبعة هو فقدان الفهارس، فلا الأعلام رتّبت في آخر الكتاب، ولا الأماكن، ولا القوافي، فضلاً عن آي القرآن الكريم التي يسهو عنها هو الآخر[18] فلا يميّزها عن كلام المؤلّف.

وفي سنة 1983، آقتنينا من الدكتور رحمة الله نسخة مصوّرة من السبع السادس الذي يتضمّن أخبار المعزّ فالعزيز فالحاكم فالظاهر. فعاودنا العزم عند ذاك على نشر الكتاب بمادّته المتضمّنة لأخبار الخلفاء الأربعة المغاربة، أي أن نضمّ إلى السبع الخامس قسماً من السبع السادس فيتناول تحقيقنا كامل الفترة المغربيّة من تاريخ الخلافة الفاطميّة، ابتداء من البذرة الأولى التي زرعها أبو عبد الله الداعي وانتهاء بهجرة المعزّ إلى القاهرة ووفاته بها. فاستأنفنا العمل، وحاولنا أن نحصل على نسخة ثانية من السبع السادس فلم نفلح، فأقدمنا على تحقيق نصّه من مخطوط واحد، يشجّعنا على ذلك وفرة النقول عن كتب مطبوعة متوفّرة لدينا، كالمجالس والمسايرات، وديوان ابن هانىء وسيرة جوذر.

فرغنا من العمل في الصائفة الماضية، وعندما صرنا إلى دفعه للطبع طالعَنا السبع السادس مطبوعاً محقّقاً أيضاً بعناية الدكتور

---

(18) مثلاً، ص 230، الفقرة 75: ﴿وظنّوا أنّهم مانعتهم حصونهم﴾ (الحشر، 2).

غالب[19]. فاضطررنا إلى مراجعة عملنا على ضوء عمله هذا الثاني، علّنا نجد فيه من جدّ التحقيق وثبات المعلومات ما يثنينا بدون ندامة عن نشر كتابنا.

ولكنّ هذا السبع السادس لا يختلف كثيراً عَن سابقه في قلّة الضبط وسطحيّة التحقيق، بل هو دون السابق، إذ يخلو من الفهارس تماماً. أمّا الخطأ في القراءة، أمّا السقط في السياق، أمّا الجهل بالأوزان[20] فمتواصل مستمرّ مثلما كان متواصلاً مستمرّاً في السبُعَين الرابع والخامس. فلذلك لم نحجم ولم نتحرّج، فدفعنا الكتاب إلى المطبعة، ولكن بعد أن أضفنا إليه الإحالات إلى المطبوع الجديد كما فعلنا بالمطبوع السابق، حتى يتمكّن القارىء من الوقوف على الفروق في القراءات والتعاليق ويفهم منهجنا في التحقيق.

منهجنا في التحقيق:

قلنا إنّ هذا الكتاب ينتظم السبع الخامس وجزءاً من السبع السادس من عيون الأخبار، فمادّته تتكوّن إذن من أخبار الخلفاء الفاطميّين الأربعة الأول، وتنتهي بوفاة المعزّ لدين الله، مع انصراف ضروريّ إلى شيء من أخبار المشرق كنشوء الدعوة باليمن وخروج المهديّ من الشام، وفتح جوهر لمصر وحروبه مع القرامطة.

واعتمدنا في تحقيق السبع الخامس، الذي ينتهي بوفاة المنصور بالله، على نسختين مصوّرتين:

ـ نسخة «هـ»: وهي نسخة المكتبة المحمّديّة الهمدانيّة التي

---

(19) دار الأندلس، بيروت، 1984، الطبعة الثانية، ولا ندري متى صدرت الطبعة الأولى. ومقدّمة المحقّق مؤرّخة بماي 1978.

(20) مثلاً، في ص 80: أن يرسل أساطيل في البحر إلى طرابلس للأندلس. وفي ص 161: غداة أتت الإنفاق عصابة، عوض: إلاّ نفاقاً. والشطر من الطويل.

اتّخذناها أصلاً للتحقيق، وأثبتنا أرقام صفحاتها في الطرّة فأحلنا في كلّ هوامشنا وكلّ الفهارس إلى هذه الأرقام الجانبيّة.

- نسخة «ر»: وهي التي أمدّنا بها الدكتور رحمة الله.

نسخة «هـ» تتركّب من 265 ورقة، أي 530 صفحة، كلّ صفحة تتضمّن 17 سطراً. والكتابة فيها واضحة غالباً، مسترسلة بدون تهوئة ولا توقّف، إلاّ في بعض العناوين التي تفصل خلافة عن أخرى، فقد كتبت، على ما يبدو، بخطّ أغلظ وبمداد مغاير انطمست به الحروف عند التصوير.

نسخة «ر» دون الأولى في الجودة: فالسقط فيها كثير، دون تنبّه من الناسخ إلى انقطاع السياق، ورسم الكلمات وإعجامها مختلّ، كأنّ الناسخ لا يفهم ما ينقل، والخطّ متفاوت في الغلظه والدقّة، فصارت الصفحات تتراوح بين 17 و 22 سطراً للصفحة الواحدة، وتشتمل النسخة على 203 صفحات رَمَزنا إليها بحرف «ر» ورقّمناها بالوجه والظهر، باستعمال حرفي «أ» و«ب»، وأدرجنا علامة الصفحة بين قوسين داخل المتن حتى نفرد الطرّة بأرقام النسخة الأصل كما قلنا.

وأشرنا إلى المطبوع كذلك، فأحلنا إلى صفحاته مسبوقة بحرف «ط» وأدرجناها كذلك في متن الكتاب.

بقيت مقتطفات الدشراوي. فنظراً لاقتصارها على قسم فقط من الكتاب، ألحقنا الإحالة إليها بالطرّة، مسبوقة برمز «دش»، ونبّهنا إليها في المتن بنجمة (*).

هذا في خصوص السبع الخامس. أمّا السبع السادس، فمعُتمَدُنا فيه هو النسخة الوحيدة التي أمدّنا بها الدكتور رحمة الله. ونظراً لانفرادها؛ لم نرَ فائدة في تمييزها بحرف خاصّ. لكن

قابلناها أيضاً بالمطبوع وأدرجنا الإحالة إلى المطبوع في متن الكتاب، تاركين الطرّة لأرقام المخطوط المعتمد، وقد ميّزناها عن أرقام السبع الخامس بعلامة: 2/، متبوعة برقم الورقة لا الصفحة.

هذه النسخة تشتمل على 247 ورقة، والصفحة منها على 15 سطراً، وتوقّفنا عند الورقة 139 التي بها تنتهي أخبار المعزّ لدين الله.

وخطّها واضح على الجملة، إلّا أنّ هوامشها تأتي أحياناً مثقلة بالتصحيحات والتعاليق والشروح - ولعلّها إضافات من صاحب المخطوط - مستقاة غالباً من كتب التراجم كالوفيات، أو القواميس ودواوين الشعراء، خاصّة شرح زاهد عليّ لديوان ابن هانيء، ممّا يشعر، مع النقول عن منجد الأب معلوف، بأنّ صاحب هذه الهوامش هو قارىء معاصر.

هذا، وقد حاولنا أن نقدّم للقارىء نصّاً واضحاً مفهوماً، فقابلنا لهذا الغرض رواية المؤلّف برواية غيره، ولا سيّما ما ينقل منه مباشرة ككتب النعمان وديوان ابن هانىء وسيرة جوذر. والنقول كما أسلفنا كثيرة جدّاً، وربّما طغت في السبع السادس على كلام المؤلّف نفسه، وهذا من عيوب الكتاب، وإن كان له من جهة أخرى فائدة غير منتظرة: وهي أنه يُساعدنا على تصحيح كثير من قراءاتنا في المجالس والمسايرات، وقراءات غيرنا في سيرة الأستاذ جوذر مثلاً. ونبّهنا إلى الاختلاف إذا كان هامّاً بدرجة أن يغيّر القصد. أمّا الفروق البسيطة كتعويض أداة بأخرى، أو كلمة بمرادفها، أو اختصار عبارة التصلية هنا وبسطها هناك، فرأينا أن لا نثقل بها الهوامش، وهي بعد غزيرة طويلة. وكلما استعصى علينا فهم جملة وتصويب سياق، نبّهنا القارىء إلى ذلك حتى يُعمل رأيه معنا.

وفي مقابلة الروايات للحدث التاريخيّ، بين مصادر شيعيّة وأخرى سنّيّة مثلاً، لم نكتف بوضع الخصمين وجهاً لوجه، بل تجاسرنا على إبداء الرأي فانتقدنا غلوّ هذا وتحامل ذاك.

وبذلنا مجهوداً كبيراً في التعريف بالأشخاص والأماكن، معتمدين على ما أمكن الحصول عليه من مراجع قديمة ومعاصرة، وما لم نوفّق إلى ضبطه والتعريف به، نبّهنا إليه كذلك. وكذلك الأمر في تخريج الحديث النبويّ والأبيات، فقد وفّقنا في البعض ووقفنا في البعض الآخر.

الداعي إدريس عماد الدين مؤلّف الكتاب:

هو داع يمنيّ تقلّد رتبة «الداعي المطلق» في الدعوة الفاطميّة في فترتها اليمنيّة بعد انقراض الدولة من مصر. تولّى زعامة المذهب من سنة 1428/832 إلى وفاته سنة 1468/872. فهو متأخّر بالنظر إلى الفترة التي يؤرّخ لها، فلا غرابة أن ينقل صراحة أو تصرّفاً عن مصادر فاطميّة قديمة، من شائع معروف كرسالة استتار الإمام وسيرة جعفر الحاجب وسيرة جوذر الأستاذ، وافتتاح الدعوة والمجالس والمسايرات، أو مخزون مجهول كتاريخ القاضي النعمان الذي سمّاه «أخبار الدولة»[21]. وربّما نقل أيضاً عن مصادر مفقودة كأحد التواريخ المغربيّة التي تنسب إلى الرقيق القيروانيّ، وابن الجزّار الطبيب، وابن شدّاد الصنهاجيّ.

---

(21) وقد أشار النعمان إلى هذا الكتاب في «المجالس والمسايرات» ص 117، لا بهذا العنوان، وافترضنا أن يكون، إمّا كتاب افتتاح الدعوة، وإمّا كتاب «شرح الأخبار عن الأئمة الأطهار» الذي ذكره أيفانوف في ثبته تحت رقم 78 (وذكره بوناوالا ص 60 رقم 22 بعنوان: شرح الأخبار في فضائل الأئمّة الأطهار)، وذكره الداعي إدريس في إحصائه لكتب النعمان (ص 31/2).

يقول إسماعيل قربان بوناوالا في الترجمة التي خصّصها له إنّه كان، إلى جانب كونه مؤلّفاً في فنون متنوّعة، رجل سياسة ورجل حرب، فقاوم الزيديّة باليمن وافتكّ منهم كثيراً من الحصون والقلاع. كما وجّه اهتمامه إلى الهند ومهّد لتحويل مراكز الدعوة الإسماعيليّة إليها. وكان مولده سنة 1392/794 بقلعة شبام من جبل الحراز باليمن، وهي من معاقل الدعوة الإسماعيليّة، وقد خلف عمّه الداعي علي بن عبد الله، فكان هو الداعي المطلق التاسع عشر[22].

وذكر له من المؤلّفات «عيون الأخبار» هذا، وحلّل محتوى كلّ سبع من أجزاءه السبعة.

- و «نزهة الأفكار.. فيمن قام باليمن من الملوك الكبار والدعاة الأخيار». قال بوناوالا: هو تاريخ سياسيّ لليمن من سقوط دولة الصليحيّين إلى سنة 853، ويعتبر الكتاب «أهمّ مصدر لتاريخ الدعوة باليمن في قرونها الثلاثة». وهو لا يزال مخطوطاً.
- «روضة الأخبار.. في حوادث اليمن الكبار». وهو مواصلة للكتاب السالف الذكر، يعرض فيه المؤلّف للفترة بين سنة 853 و 870. مخطوط أيضاً.
- «زهر المعاني»، وهو كتاب هامّ في علم الباطن والحقائق، لا يزال مخطوطاً.

إلى جملة من المؤلّفات الأخرى في الفقه، والفتاوى والأجوبة عن أسئلة في الدعوة، والردّ على الخصوم في المذاهب، مثل:

- «رسالة إيضاح الإعلام.. في كمال عدّة الصيام، في أنّ الصيام بالحساب لا بالرؤية وأنّ شهره ثلاثون يوماً»..

(22) بوناوالا: بيبليوغرافيا... ص 169.

وكتاب «عيون الأخبار وفنون الآثار في ذكر النبيّ المصطفى المختار ووصيّة الكرّار وآلهما الأطهار» يقع في سبعة أجزاء، سمّاها المؤلّف أسباعاً. وعدد سبعة له شأن خاصّ عند الشيعة الإسماعيليّة ـ وهم يسمَّون أيضاً «الشيعة السبعيّة» انطلاقاً من إمامهم السابع محمّد بن إسماعيل ـ ولذلك قال المؤلّف في تعريف المعزّ: «وهو سابع أسبوعين من أئمّة دور النبيّ محمّد القائمين بعد الوصيّ عليّ، ورابع أئمّة الظهور»[23]. وقد حلّل بوناوالا محتوى الأسباع فقال: السبع الأوّل: في سيرة النبيّ (ﷺ).

السبعان الثاني والثالث: في سيرة عليّ بن أبي طالب ووقائع الجمَل وصفّين والنهروان.

الأسباع الرابع والخامس والسادس (هي التي نشرها مصطفى غالب، وننشر اليوم قسماً منها).

السبع السابع: يعرض لخلافة المستنصر والمستعلي والآمر واستتار الطيّب، ثمّ لدعوة الصليحيّين والدعوة المستعلية الطيّبيّة باليمن.

وقيمة الكتاب تتمثّل، فيما يخصّ تاريخ المغرب، فيما ينقله المؤلّف عن مصادر مفقودة لا نستبعد أن تكون مصادر سنّيّة أو على الأقلّ معتدلة في تشيّعها إن كانت شيعيّة. وعرضه لثورة أبي يزيد في تماسكه وتسلسله هو إلى حدّ الساعة أوفى رواية لهذه الفتنة العظمى التي كادت تقضي على الدولة الجديدة. يكفي أن نشير إلى وفرة التفاصيل في خصوص محاصرة المهديّة، ومحاصرة المنصور للثائر بجبال المعاضيد بعد ملاحقة طويلة مضنية، أو إلى

(23) ص 1/2 من الكتاب.

المناظرة المؤثّرة ـ وإن كانت مزيّنة مفتعلة في بعض فقراتها ـ بين الثائر المغلوب والخليفة المنتصر، أو إلى التصدّع والتهيّب الذي حلّ في صفوف كتامة الأنصار الأوّلين السابقين، أو إلى الاحتياط والتكتّم الذي يبديه كلّ إمام جديد عند وفاة الإمام السابق له، لمعرفة نواحي الجدّة والطرافة في هذا الكتاب.

كما نستفيد منه أيضاً في ذكره لمصادر تاريخيّة لم نسمع بها من قبل، فتقوى رغبتنا في العثور عليها والاستفادة منها: مثل السيرة الكتاميّة لحيدرة بن محمّد بن إبراهيم الكتامي (33/2 و 131)، و «كنز الأخيار في السير والأخبار» لإدريس بن عليّ الحسنيّ (ص 232) و «سيرة جوهر» للحسن بن زولاق (96/2) وتاريخ جهور بن عليّ الهمداني (132/2) الذي ينقل عنه دون أن يعرّفه.

وفي الكتاب مع ذلك نقائص: منها الإفراط في النقول كما بيّنا، والاضطراب في ذكر التواريخ: فتارة يدقّقها بعناية كبيرة وتارة ينساها، أو يذكرها خاطئة، خصوصاً إذا سمّى اليوم ولم يكتف بذكر رقمه من الشهر. ومنها طغيان اللهجة الخطابيّة والنفَس الملحميّ المفتعل إذا ما ذكر انتصاراً للأئمّة. ومنها إغراقه في السجع الركيك وإرهاقه السياق حتى يوافق القافية المطلوبة، وهو عيب معروف عند المتأخّرين من كتّاب العربيّة، خصوصاً إذا لم تكن الكتابة الديوانيّة مهنتهم الأصليّة.

ولكنّنا لا نطلب من كتّاب التاريخ، ولا سيّما من مؤرّخ متمذهب، أن يكتب مثل الجاحظ أو أبي حيّان. إنّما نرتجي منه أن يكشف الغطاء عَن مجاهل الأحداث والأشخاص والأماكن والعقليّات، وهذا ما نجد منه نصيباً محترماً في كتاب عيون الأخبار للداعي إدريس.

ورجاؤنا في الختام أن نكون بعملنا هذا أسدينا خدمة للباحثين والدارسين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

جندوبة 6 جمادى الثانية 26/1405 فيفري 1985

محمّد اليعلاوي

السبع الخامس من عيون الأخبار في ذكر النبي المصطفى المختار ووصيه الكرار والأئمة الأطهار عليهم صلوات الله العزيز الغفار

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله على عميم نعمائه ومتوالي آلائه المانّ على خلقه بجعل أصفيائه وظهور أوليائه وصلى الله على خير رسله وخاتم أنبيائه محمد رسول الله إلى كافة العالمين بوحيه وأنبائه وعلى علي وصيه المنصوص بنصه وإخائه وعلى الأئمة الطاهرين المصطفين من أبنائه وعلى بقيتهم صاحب العصر والأوان المفروض أكيد ولايته ذكر ما جاء من البشارات والإشارات بظهور أمير المؤمنين أبي محمد عبد الله المهدي بالله صلوات الله عليه وانتشار الدعوة وإعلام بعض ما جاء من الأخبار في أيامه أما ما جاء من البشارات بظهور الإمام المهدي بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين فمن ذلك ما جاء عن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله صلعم يقول أبشروا بالمهدي فإنه يبعث على اختلاف من الناس

السبع الخامس: الصفحة الأولى من نسخة «هـ»

الناس شاءيل ويملا بل يملا الارض قسطا وعدلا كما مليت
جورا وظلما ترضى عنه ساكن السماء وساكن الارض ويلا
الله الكملة من عباده سرورا ويسعهم عدله وعن رسول الله
صلعم انه قال المهدي من نسلي من ولد فاطمة سيدة نساء هذه
الامة طالت الايام مقربة يخرج فيملا الارض قسطا وعدلا
كما مليت جورا وظلما قيل ومتى يخرج واين يخرج يا رسول الله
قال اذا لانت زلازل في اطراف الارض وارتشت القضاة وخرجت
الامة يخرج من المغرب في ساحة تهامة وبين كتفيه شامة قرطه
مرعيا قيل وكيف يكون غريبا يا رسول الله قال لانه ينزع من
اهله ويتغرب من وطنه قال القاضي النعمن بن محمد بن حيون
التميمي يعني وكذلك المهدي بالله تغرب في هجرته من وطنه
وانفرد من اهله وقيل كانت قبل نبا مدة منذ الازل وكانت فيه
الشامة التي وصفها رسول الله صلعم ... وعن رسول الله صلعم انه
قال الابد من قائم من اولاد فاطمة يقوم من المغرب بين الحشر
الى النسمة يكسر شوكة المبتدعين ويقتل الضالين وكذلك كان
ظهور المهدي بالله عم فانه ظهر من المغرب وكان ظهوره من
سجلماسة سنة ست وتسعين ومائتين ووصل الى مملكة بالنبي

الصفحة الثانية من نسخة «هـ»

هذا كتاب السبع الخامس من كتاب عيون الاخبار
لسيدنا ومولانا ادريس بن الحسن [illegible] القرشي
الذي قدس الله روحه المتوفي في ذي القعدة سنة [illegible]

الحمد لله على عميم نعمائه ومتوالي الائه المان على خلقه بعلو
اصفيائه وظهور اوليائه وصلى الله على خير رسله وخاتم
انبيائه محمد رسول الله الى كافة العالمين بوحيه وانبائه
وعلى علي وصيه المخصوص بنصره واخائه وعلى الائمة الطاهرين
المصطفين من ابنائه وعلى بقيتهم صاحب العصر والاوان
المفروض اكيد ولائه ذكر ما جاء من البشارة
بظهور امير المؤمنين عبدالله ابي محمد المهدي بالله
وانتشار دعوته واعلامه وبعض ما كان من الاخبار في ايامه
اما ما جاء من البشارات بظهور الامام المهدي بالله امير
المؤمنين صلع وعلى ابائه الطاهرين وابنائه الاكرمين

من ذلك

السبع الخامس: الصفحة الأولى من نسخة «ر»

الفصل الأول

البشارات والإشارات بظهور المهدي

باسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين.

الحمد لله على عميم نَعْمائه، ومتوالي آلائـه، المانّ على خَلْقه بعلوّ أصفيائه وظهور أوليائه. وصلّى الله على خير رسله وخاتَم أنبيائه محمّد، رسول الله إلى كافّة العالمين بوحيه وإنبائه، وعلى عليّ وصيّه المخصوص بنصره وإخَائـه، وعلى الأئمّة الطاهرين المصطَفين من أبنائـه، وعلى بقيّتِهم صاحِب العصر والأوان، المفروضِ أكيدُ ولائه[1].

---

(1) الرموز: «هـ»· مخطوط المكتبة المحمّديّة الهمدانيّة التي اعتمدناها أصلاً.
«ر: أ/ب»:مخطوط مكتبة شوهوتولخمي التي أمدّنا بها الدكتور رحمة الله، وجه الورقة وظهرها
(ط): المطبوع من عيون الأخبار: السبع الخامس والسبُع السادس، نشر مصطفى غالب.
(دش): المطبوع من السبع الخامس، مقتطفات نشرها فرحات الدشراوي.
(ص، صلع) صلى الله عليه، عليهما، عليهم، صلوات الله عليه، عليهما، عليهم.
(قس): قدّس الله روحه.
(عم) عليه السلام.
(عج): عزّ وجلّ.
(تع): تعالى.

ذكر ما جاء من البشارات والإشارات بظهور أمير المؤمنين عبد الله أبي محمد المهديّ بالله، صلوات الله عليه، وانتشار أَلْوِيته وأعلامه [و] بعض ما كان من الأخبار في أيّامه.

أمّا ما جاء من البشارات بظهور الإمـام المهديّ بـالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، فمن ذلك (ر2أ):

ما جاء عن أبي سعيد الخدري[2] قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: أبشِروا بالمهديّ، فـإنّه يبعث على اختـلافٍ من/ 2 الناس شديد وبلابلَ، يملأ الأرض قِسطاً وعدلاً، كما مُلئت جَوراً وظلماً، ويرضى عنه ساكن السماء وساكنُ الأرض، ويملأ الله به قلوبَ عباده سروراً ويسَعُهم عدلُـه.

وعن رسول الله (ﷺ) انّه قال: المهديّ من نسلي من وَلَد فاطمةَ سيّدةِ نساء هذه الأمّة طالت الأيّامُ أم قصرت، يخرج فيملأ الأرضَ قِسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً. قيل: ومتى يخرج وأين يخرج يا رسولَ الله؟ قال: إذا كانت زلازلُ في أطراف الأرض وارتشتِ القضاةُ وفَجَرتِ الأمّة، خرج من المغرب، في ساقه شامة، وبين كتفَيْه شامةٌ، فرداً غريبـاً. قيل: وكيف يكون فرداً غريباً يا رسول الله؟ قال: لأنّـه ينفرد عن أهله ويتغرّب عن وطنه[3].

---

(2) أبو سعيد الخدري: صحابيّ روى كثيراً من الحديث النبويّ، وهو معدود عند الشيعة من أصحاب علي (أسد الغابة، رقم 2035 و5954، ورجال البرقيّ، 2). والحديث لم نجده في المصادر المعروفة.

(3) في الجامع الصغير للسيوطي ج 187/2: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة» لا غير. وقال: انه حديث صحيح. وجاء أيضاً بهذا اللفظ في سنـن أبي داود، رقم 4284.

قال القاضي النعمان بن محمّد بن حيّون التميمي (رضي الله عنه): وكذلك المهديّ بالله، تغرّب في هجرته عن وطنه وانفرد عن أهله. وقيل كانت قبل قيامه (عم) زلازل، وكانت فيه الشامات التي وصفها رسول الله (ﷺ).

تنبّؤ الرسول (ﷺ) بظهور المهديّ

وعن رسول الله (ﷺ) أنّه قال: (ر2ب) لا بدّ من قائم من أولاد فاطمة يقوم من المغرب بين الخمسة إلى التسعة، يكسِر شوكة المبتدعين، ويقتل الضالّين[4].

وكذلك كان ظهور المهديّ بالله (عم)، فإنّه ظهر من المغرب، وكان ظهوره من سجلماسة سنة ستّ وتسعين ومائتين، ووصل إلى مملكته بالمغرب/ بإفريقيّة سنة سبع وتسعين، فذلك بين الخمسة والتسعة. 3

وروى ابن وهب[5] بإسناده، ويرفعه إلى رسول الله (ﷺ) أنّه قال: «يخرج ناس بالمشرق يعطون المهديّ سلطانه».

وكان ذلك للإمام المعزّ من ذريّة المهديّ (عم).

وقد قال بعض الأئمّة عليهم السلام: كلّنا مهديّ، وكلّنا قائم، فظهرت دعوة المعزّ (عم) بالشرق، فملك مصر، وأظهر فيها دعوة الحقّ كما نذكره فيما يأتي ذكره.

ودعوته هي دعوة المهديّ (صلع) التي أقامها وأبان سننها وأعلامها. وكذلك فإنّ داعي اليمن[6] الذي دعا إلى المهديّ بالله

(4) لم نجد هذا الحديث في المصادر المعروفة.

(5) ابن وهب: صحابيّ، من أشراف قريش (أسد الغابة، 2508). والحديث غير معروف.

(6) داعي اليمن هو الحسن بن فرح بن حوشب الملقّب «مَنصور اليمن» وسيأتي خبره في الفصل الثاني.

(صلع) وداعي المغرب[7]، هما من المشرق قصدا، وإلى حيث أصدر أوردا، وهما من أسباب ظهور دعوة المهديّ (صلع)، وعنهما كان ابتداء ظهور الدعوة إليه.

وروي عن أبي بصير[8] أنّه قال: سمعت الصادق[9] جعفر بن محمّد (صلع) يروي قول رسول الله: إنّ الإسلام بدأ غريباً، وسيعود (ر 3أ) غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء[10]. قال أبو بصير: فقلت: اشرح لي هذا، جُعلتُ فداك يا ابن رسول الله. قال: يستأنف الداعي منّا دعاءً جديداً كما دعا رسول الله (ﷺ).

قال القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه): وكذلك استأنف المهديّ بالله (صلع) دعاءً جديداً إلى الله (عج) لمّا غُيِّرت السنن، وكثرت البدع، وتغلّب أئمّة الضلال، وانطمس واندرس ذكر أئمّة الحقّ الذين افترض الله (عج)/ طاعتهم على العباد، وأقامهم للدعاء إليه والدلالة بآياته عليه، ونُسِيَ ذكرهُم، وانقطع خبرهُم لغلَبة أئمّة الجَور. فلمّا أنجز الله للأئمة ما وعدهم من ظهور مهديّهم، احتاج أن يدعوهم دعاءً جديداً كما ابتدأهم رسول الله (ﷺ) بالدعاء إليه أوّلاً.

4

وروي عن سفيان الثوريّ يرفعه إلى رسول الله (ﷺ) أنّه قال:

---

(7) داعي المغرب: وكذلك يأتي خبر أبي عبد الله الشيعيّ الصنعانيّ.

(8) أبو بصير: هو إمّا ليث بن البختريّ: جعله الحلّي، 384 في الطبقة العليا من الصحابة. وإمّا عتبة بن أسيد، أحد المستضعفين المحتبسين في قريش (انظر: سيرة ابن هشام، 323/2 وأسد الغابة، 5727).

(9) جعفر الصادق هو الإمام السادس، كان عالماً محدّثاً. والحديث المنقول هنا ذكره السيوطيّ في الجامع الصغير، 78/1.

(10) ورد في الجامع الصغير 77/1 بهذا اللفظ وقال إنه حديث صحيح.

المهـديّ من ولدي، أرى وجهه كالكـوكب الدرّيّ، اللون لـون عربيّ، والجسم جسم إسرائيليّ[11].

قال القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه): وكذلك كان المهديّ بالله صلوات الله عليه، وسِيماً من أجمل الرجال، وجهه كالكوكب الدرّيّ كما قال رسول الله (ﷺ) في صفته.

والكوكب الدرّيّ هو المضيءُ من الكواكب، (ر 3 ب) وَجمعها دراريّ. وكذلك كان وجه المهديّ عليه السلام مشرقاً مضيئاً كأنّما لَهُ نُور يلوح لمن نظر إليه. وقوله: «اللون لون عربيّ»، كذلك كان لونه (عم) كلون رسول الله (ﷺ) سيِّدِ العرب والعجم، أبلج الوجه تَشُوبـه حمرة، وهو الذي يقول له أهل المعرفة بالحَلْي من العرب «الرقيق السمرة». ولا يقولون «أبيض» في ألوان النـاس[12]. وهذا اللون أفضل ألوان الناس عند العرب، وهو أكثر ألوان أشرافهم. وقوله «والجسم جسم إسرائيليّ»، فأجسام بني إسرائيل أجسام جسيمة، وهم في الأكثر والأغلب/ أجسم من العرب. (قال): وكذلك كان المهديّ بالله (صلع) وسيماً جسيماً لا يكاد أحد يماشيه إلاّ قصُر عنه وصغُر إلى جانبه. وكذلك كان من صارت الإمامة إليه من بعده، قد أتاهم الله الفضل والجمال والكمال. ولقد حاول المهديّ بالله (صلع) في حين استتاره أن يُخفي نفسَه ويُخمِلها، فما قدر على ذلك، وكان حيثما مرّ ورآه من يُحَصِّل أمرَه يقول: والله ما هذا إلاّ ملك من الملوك، وما هذا سوقة ولا تاجر كما يقولون[13].

5

وسامة المهديّ

(11) سفيان الثوريّ «أمير المؤمنين في الحديث». وهذا الحديث جاء مختصراً في الجامع الصغير، 187/2.

(12) «إذا كان الرجل خالص البياض، قيل: هو أمهق» (الثعالبيّ، فقه اللغة، 66)

(13) إنّـه ـ أي المهديّ ـ رجل هاشميّ شريف تاجر من وجوه التجّار (سيرة جعفر الحاجب، 113).

وكذلك حاول الإمام المنصور بالله (ر4أ) (صلع) مراراً أن يخفي نفسه لبعض من أراد أن يسمع كلامه فتزيّى بغير زيّه، ولبس خلاف لباسه، ودخل في جماعة تقدّم إليهم في اطّراح إجلاله وتبجيله، وأن يُحِلّوه محلّ أحدهم ففعلوا، فما خفيَ عمّن رآه. وفعَل ذلك في أسفاره ودخل بعض حصون المرابطين في بعض الأطراف، وبها من لم يره قطّ، فما خفي عليهم. وفعل ذلك لمّا ظفر بمخلد اللعين، وقد صار في أسره[14]، ومعبد [بن محمّد] بن خزر[15] لمّا صار في الأسر أيضاً، فما خفي عن واحد منهما، بل عرفاه، وما كانا قبل ذلك رأياه[16]. والعرب تقول في بعض أمثالها: هيهات لا يخفى القمر[17].

هذا قول النعمان (قس).

6 ونقول: انّ بني إسرائيل كان منهم أنبياء الله الذين اختارهم/ وأرسلهم. فليست أمّة من الأمم أكثر من بني إسرائيل أنبياء. وشرّف الله العرب وخصّهم بأن جعل محمّداً (ﷺ) منهم، الذي جمع الله له فضائل النبيّين، وجعله ذا قوّة عنده[18] وفضل مبين، وشرّفه على جميع الآدميّين. وعسى أن يكون النبيّ (ﷺ) شبّه المهديّ (صلع)

(14) مخلد: هو أبو يزيد مخلد بن كيداد صاحب الحمار، وسيأتي خبره مفصّلاً في خلافة القائم ثمّ المنصور، ولكن لا ذكر لتنكّر المنصور في لقائه معه، ولا مع ابن خزر.

(15) معبد بن محمّد بن خزر: أحد رؤوس زناتة المناهضين للفاطميّين. ورئيس زناتة في كامل فترتنا هو أبوه محمّد بن خزر الذي تقلب كثيراً في ولائه بين الفاطميّين والأمويّين بالأندلس.

(16) لقي المنصور أبا يزيد قبل ذلك، حسب رواية المؤلّف نفسه (انظر ص 372).

(17) «هل يخفى على الناس القمر؟» (مجمع الأمثال، رقم 4600).

(18) تضمين للآية الكريمة. ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، ذِي قُوَّةٍ، عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ (التكوير، 19). وقد عزا الزمخشري والبيضاوي هذه الصفات، لا إلى الرسول (ﷺ) بل إلى جبريل.

بكونه خير العرب، وهو من ذرّيته، وبأنبياء بني إسرائيل تفضيلاً له، وتعظيماً لقدره، وإشهاراً لما آتاه الله من عظيم أمره.

وفي حديث عن قتادة يرفعه إلى النبيّ (ﷺ) أنّه قال: «المهديّ (ر4ب) أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً»[19].

وكذلك كانت صفة المهديّ بالله (صلع)، على ما قاله القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه): وكان أقنى أجلى. وهاتان الصفتان من أحسن صفات الجباه والأنوف، وملأ عدلُه ما وصل إليه سلطانُه من الأرض، وملأ باقيَها من أتى من الأئمّة من بعدِه من وَلَده، وهو الذي ابتدأ ذلك. وعدلُهم معروف موصوف عند أهل السيَر لا ينسبون إليهم ما يُنسب إلى بني أمّية وبني العبّاس من الفجور، وشرب الخمور. بل حرّموا ذلك في الأقطار التي ملّكهم الله إيّاها، وآتاهم سلطانَه فيها، ونهَوا عنها أشدّ النهي. ولذلك نفرت منهم سفهاء الأمّة وشَنَأَهُم أهل الشَّنْآنِ فخرجوا من نور عدلهم إلى الظلمة/ إذ كانوا قد اعتادوا شرب الخمور، والفجورَ، واعتاد قضاتهم الرُّشَى، وشهودُهم الشهادةَ بالإفك والزور. فلمّا لم يجدوا في دعوة الأئمّة (صلع) رخصة في شيء ممّا حرّم الله في كتابه، ولا هوادةً في فعل المنكر وارتكابه، نفروا عنهم وعادَوْهم (ر5أ) وأنكروا فضلهم وعاندوهم. وقد قيل في المثل: المرء عدوّ ما جهل[20].

الأئمّة يحرّمون الخمر والرشوة

7

(19) في الجامع الصغير، 187/2، أُسند الحديث كاملاً إلى عليّ بن أبي طالب. ورجل أقنى: مرتفع قصبة الأنف. والأجلى: قليل الشعر في مقدّم رأسه (اللسان. جلا وقنا).

وقتادة بن دعامة (ت 118)، هو المحدّث والنسّابة الضرير.

(20) جاء هذا المثل في نهج البلاغة 381/2 و447، وفي شرح النهج 941/5 رقم 530، وبلفظ مغاير في المجالس والمسايرات، 381

وممّا رفع إلى عبد الله بن مسعود[21] ممّا أثره عن رسول الله (ﷺ) أنّه قال: إنّكم معشر هذه الأمّة تصيرون أربع أمم:

أمّة قائمة على الحقّ لا ينقصون منه شيئاً. قيل: ولا يقاتَلون؟ قال: بلى، ويُزلْزَلون زَلزالاً شديداً.

وأمّة على الباطل ليسوا من الحقّ على شيء ممّا حرّم الله. قيل: وهم يُصلّون؟ قال: نعم، وتكون صلاتهم عليهم شهيداً.

وأمّة يريدون الحقّ فيخطئونه، يمرُقون من الدين كما يمرُق السهم من الرميّة، ولا يعودون فيه حتّى يعود السهم على فُوقِه.

وأمّة يقولون: هؤلاء أهدى، بل هؤلاء أهدى، فيلبثون في ذلك ما شاء الله أن يلبثوا، ثمّ يوشك الإسلام أن يعود إلى الباب الذي خرج منه. قيل: إلى أين يا [أبا] عبد الرحمان؟ قال: إلى بني عبد المطّلب. فالأمّة التي على الحقّ هم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (صلع) والأئمّة الذين اختارهم الله من ولده.

وقد قال الباقر[22] (عم) في قوله: (عج): ﴿[وَكَذَٰلِكَ] جَعَلْنَاكُم أمّة (ر 5 ب) وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ / الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شهيدا﴾ (البقرة: 143)، قال: نحن الأمّة الوسط، وإيّانا عنى بذلك، 8

والتابعون لهم مِنْهُمْ بدليل قوله تعالى على لسان نبيّه (ﷺ). ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ (إبراهيم، 36).

وقد قوتل أمير المؤمنين عليّ (صلع)، وأصحابه الذين اتّبعوه واتّبعوا الأئمّة من آله، وزلزلوا زلزالاً شديداً، فظهرت لهم الأحقاد

---

(21) عبد الله بن مسعود: صحابيّ جليل، خدم الرسول (ﷺ). والشيعة يروون عنه كثيراً (أسد الغابة / 3177). والحديث المرويّ هنا لا يوجد في مصادرنا.

(22) محمد الباقر (ت 114): هو الإمام الخامس.

الأُحُديّة البَدْريّة، ونالوا من الذرّيّة الطاهرة ما ناله منهم ـ وهم في شركهم ـ محمّد خير البريّة.

والذين مرقوا من الدين هم المارقون من الخوارج الذين خرجوا على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (صلع). وقد عُرفوا بذلك الاسم، وقامت الدلائل على أنّهم المعنيّون بقول رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم أنّهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة.

والذين قالوا: هؤلاء أهدى، بل هؤلاء أهدى، هم الذين نصبوا لهم أئمّةً باختيارهم، لم يأمرهم الله ورسوله بنصبهم، واتّبعوهم على غيّهم، ونسبوا [إلى] العلم من لم يجر في ميدان العلم قدمه، ولا أفتتح بقول الحقّ فمه، فاختلفوا في القضايا والأحكام، (ر 6 أ) وقدّموا وأخّروا بغير أمر من الله ورسوله في الإسلام، فلبثوا في ذلك ما شاء الله.

ولمّا قام المهديّ بالله (عم) عاد الإسلام إلى الباب الذي منه خرج، كما قال رسول الله [صلى الله] عليه، بما أظهره المهديّ بالله، والأئمّة من ذرّيّته حيث أظهر الله سلطانهم، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر/، وإن جحد ذلك من فضلهم من ضلّ واستكبر. 9

وعن عبد الله بن مسعود أنّه قال: سمعت رسول الله يقول: «لا تنقضي الدنيا حتى يليها رجل من عِترتي أهلِ بيتي، يحكم بما أنزل الله»[23].

فكان ذلك المهديّ بالله (صلع) ومن قام من ذرّيّة رسول الله (ﷺ).

---

(23) لم نجد هنا الحديث في مراجعنا.

ومن رواية عبد الرزّاق[24] يرفعه إلى أبي سعيد الخدري أنّه قال: ذكر رسول الله بلاء يصيب هذه الأمّة حتى لا يجد الرجل ملجأ يلجأ إليه من الظلم. ثمّ قال: ثمّ يبعث الله (عج) رجلاً من عترتي فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً، (ر6ب) يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض، لا تُبقي السماء من قَطرها شيئاً إلاّ صبّته مدراراً، ولا الأرض من نباتها شيئاً إلاّ أخرجته حتّى يتمنّى الأحياء للأموات.

وعن أبي الملاح يرفعه إلى ابن المسيّب عن أمّ سلمة[25] أنّها قالت: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: المهديّ من عترتي من ولد فاطمة ابنتي.

وممّا يروى عن ابن نسحة[26] يرفعه إلى رسول الله (ﷺ) أنّه قال: اني رأيت بني أميّة على منابر الأرض يملكونكم، فتجدونهم أربابَ سوء، فانتظروا فيهمُ اختلافَ سفهائهم. فإذا اختلف سفهاؤهم ارتدّوا على أعقابهم، ولا يرتُقون فتقاً إلاّ فتق الله عليهم أعظم منه، ثمّ يكون بعدهم غلبةُ الجَور حتى يخرجَ مهديُّنا.

10 ومن رواية يحيى بن سلاّم[27] يرفعه إلى عبد الله بن/ مسعود أنّه قال: قال لي رسول الله (ﷺ) يوماً: انطلق معي يا ابن مسعود،

(24) عبد الرزّاق: لعلّه عبد الرزّاق بن همّام الصنعاني الضرير (ت 211) انظر: نكت الهميان للصفديّ، 191. وقد ذكره ابن القيّم (إعلام المُوَقّعين، 28/1) من جملةِ فقهاء اليمن.

(25) أبو الملاح: لم نقف على ترجمته.
سعيد بن المسيّب: هو سيد التابعين وأحد فقهاء المدينة السبعة
أمّ سلمة هند بنت أبي أميّة: إحدى أزواج النبيّ (ﷺ). انظر أسد الغابة 7464.
والحديث في الجامع الصغير، 187/2.

(26) ابن نسحة: لم نضبط اسمه ولا ترجمته.

(27) «يحيى بن سلام صاحب التفسير» (124 - 200هـ). هكذا سيسمّيه المؤلّف بعد قليل. فهو إذن غير يحيى بن محمّد بن سلاّم كما جاء في المخطوط. وانظر طبقات أبي العرب، 37 - 39 وأعلام الزركليّ

فمضيت معه حتى أتينا بيتاً قد غصّ ببني هاشـم، فقال لهم رسول الله (ﷺ): مـن كان معكم من غيركم، فليقم. فقام من كان معهم من غيرهم حتى لم يبق إلاّ بنو هاشم خاصّة، بنو عبد (ر7أ) المطّلب وبنو العبّاس. فقال لهم النبيّ (ﷺ): ماذا تلقَـون من بعدي؟ فقال له عليّ عليه السلام: أخبرنـا يا رسول الله. فقال له رسول الله (ﷺ): أخبرنـي جبرائيل أنّك مقتول بعدي، فأردت أن أراجع فيك ربّي فأبى عليّ. ثمّ قال: كـأن قد وليَتْكم ولاةُ بني أميّة يقصدون بكم الضرورة ويلتمسون بكم المشقّة، ثمّ تكون دولة لبني العبّاس يعملون فيها عملَ الجبّارين، فالويل لعترتي ولبني أميّة ممّا يلقَوْن من بني العبّاس! ويهرب من بني أميّة رجال فيلحقون بأقصى المغرب فيستحلّون فيها المحارم زماناً. ثمّ يخرج من عترتي رجل غضبان لما لقي أهل بيتي وعترتي، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، يسقيه الله من صوب الغمام. فقال نـاس من بني العبّاس: أيكون هذا، ونحن أحياء؟ فنظر رسول الله (ﷺ) إليهم كالماقت لهم ثمّ قال: والذي نفسي بيده، لَمَن في أصلاب فارس والروم أرجى عندي لأهل بيتي من بني العبّاس.

الرسول (ﷺ) يتنبّأ بمقتل عليّ. . .

. . . ويجور بني العبّاس

11

وقد ذكرنا رواية يحيى بن سلاّم هذه في ما/ قبل[28]، ولكنّا أعدناها بياناً للقول، ولما فيها من ذكر المهديّ (عم) وظهوره بعد بني العبّاس (ر7ب) وبني أميّة، لما فيه من البيان وواضح البرهان لأنّه قام بعد تغلّب بني العبّاس على بني أميّة. فأظهر العدل، ونفى الجور، وعزّت به ذرّية الرسول، ولم تزل قبلُ في الخمول، ورُفع عنهمُ السيف الذي لم يزل فيهم مسلولاً مذ وليَ بنو أميّة. وكان بنـو العبّاس أنكى لهم وأفتكَ بهم حتّى أظهر الله المهديّ من عتـرة نبيّه، فارتفع الجَور، وظهر العدل، وعزّت الذرّية النبويّة، فلم ينلهم

(28) في السبع الرابع، 312، تحت اسم يحيى بن سلام. وفي «ر»: فيما قيل.

أحد بالمكروه من بني العبّاس ولا بني أميّة.

وروي عن رسول الله (ﷺ) أنّه قال: لا يثبت العدل إلّا قليلاً حتّى ينقطع[29]، وكلّما انقطع من العدل شيءٌ، حلّ من الجَور مثلُه حتّى يولدَ في الجور من لا يَعرف غيرَه. ثمّ يأتي الله بالعدل، فكلّما جاء من العدل شيء ذهب من الجَور مثله حتى يولدَ في العدل من لا يعرف الجور. فقيل له: يا رسول الله، مَن أهلُ الجور؟ قال: بنـو عمّنا إذا سلِمت لهم الدنيـا. قيل: فمن أهل العدل؟ قال: نحن أهلَ البيت.

وكان المهديّ بالله (صلع) أوّل من أظهر العدل بعد الجور، وجرى ذلك أيّام سلطان الأئمّة من ذرّيّته دهراً طويلاً بعد الجور من بني العبّاس وبني أميّة. وظهر الجور بعد استتار الأئمّة (ر 8 أ) عليهم السلام، وسيظهر العدل، ولا يزال تعاقب/ السّتر والظهورِ كتعاقب الظلمة والنور حتى يرث الله الأرضَ ومن عليهـا، ويظهـر القائم بالعدل والتوحيد، ويكـون الدين كله للّه، فتـزول الظلمـة وتُفتحُ القيـامة، وتُختم الـدنيا، وتُستقبَـل الآخرة، ويكـون الجـزاء على الأعمال: فبين مُثاب يتبوّأ جنّاتِ الخلود ومعاقَبٍ يردُ جهنّم، ﴿وَبِئْسَ الوِرْدُ المَوْرُودُ﴾ (هود، 98).

12

علِيّ يتنبّأ بظهور المهديّ

وعن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (صلع) أنّه قال: لا يزال الناس ينقصون حتى لا يقال «الله» إلّا خفية. فإذا كان ذلك بعث الله يعسوب الدين، فيضرب بذَنَبه فيجتمعون إليه كما يجتمع قَزَعُ الخريف. إنّي لأعلم آسم أميرهم، ومنازل رجالهم[30].

---

(29) لم نجد هذا الحديث أيضاً.

(30) نهج البلاغة، 258. وفي اللسان، مادة عسب، نقل لكلام عليّ وشرح مطوّل لكلمة «يعسوب». وفي مادّة «قزع» شرح «قزع الخريف» بقطع السحاب المتفرّقة، مع الإشارة إلى يعسوب الدين في كلمة علي.

وعنه (صلع) أنّه قال: بنـا يُبْتِرُ الله الكذب، وبنا يدرك ثأره المؤمنُ، وبنا تنخلع ربقة الذلّ من أعناقكـم.

وروي عن سليمـان بن جعفر[31] حـديث يرفعـه إلى أميـر المؤمنين عليّ بن أبي طالب أنّه ذكر أمر القائم من آل محمّد، وما يكون على يديه من الأمر فقال: صاحب هذا الأمر الطريد الشريد، والفريد الوحيد.

وكذلك كان المهديّ بالله (صلع)، فإنّه لمّا فشت (ر 8 ب) دعـوتُهُ، وكثـرت الدعـاة إليه والمستجيبـون له، طلبـه أعداء الله وأعداؤه، فلم يزل شريداً طريداً وحيداً حتى رفع الله أمره وأعلى ذكره.

وعن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (صلع) أنّه خطب الناس بالكوفة فندبهم إلى الجهاد وحذّرهم الفشل/ وما يخشى من سوء 13 عواقبه، فلمّا فرغ من خطبته قام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، من ذا يرومنا ومن ذا يُطيقنا، وأنت فينا أخو رسول الله (ﷺ) وابن عمّـه وصهره، ومعنـا لواء رسـول الله (ﷺ) ورايته، ومعنـا أبنـاء رسول الله (ﷺ) الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة عليهما السلام، فلو اجتمعت الانس والجنّ علينا ما أطاقوا. فقال له عليّ (صلع): وكيف يكون ذلك، ولم يشتدّ البلاء، وتـظهر الحميّـة، وتُسْبَ[32] الذرّيّة، وتطحَنْكم الفتنة طحنَ الرحى بثقالها، حتى لا يبقى [منكمُ] إلاّ نافع لهم أو غيرُ ضارّ. فإذا كان ذلك بعث الله (عج) ابن خير هذه الأمّة ـ أو قال: البريّة ـ فيقتلهُم هَرْجاً هَرْجاً حتى يرضى الله (عج) حتى تقول قريش والعرب: لو كان هذا من آل محمّد لرحِمنا، ويتمَنّون أنّهم رأوني ساعة من نهار فأشفع لهم إليه. فقام

(31) لا نعرف سليمان بن جعفر بالتدقيق، ولعلّه واحد من الخطباء، ذكره الجاحظ في البيان والتبيين 333/1، ولم يذكر في أصحاب الحديث.

(32) في المخطوط والمطبوع: وتسبى، فعطفنا على المضارع المنجزوم والخطبة في شرح نهج البلاغة، 614/2 مع قراءاتٍ مختلفة

إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، (ر9أ) متى يبلغ رضى الله؟ قال: يقذف الله في قلبه الرحمة فيرفع السيفَ عنهم. فقال: متى يكون ذلك؟ قال: إذا شاء الله.

فهذا قول أمير المؤمنين (صلع). وقد قام المهديّ بالله بعد أن اشتدّ البلاء على الشيعة، واستتر الأئمّة، وخفيَ النور، وظهرت الظلمة، وقُتل الإمام الحسينُ بن عليّ (عم) وسبت بنو أميّة ذرّيّة رسول الله (ﷺ).

14 وقَتَلَ الإمامُ العزيز بالله أهل الشام لمّا توجّه إلى دمشق/ وكذلك وضع الإمام الحاكم[33] بأمر الله سلام الله عليه السيف في المفسدين إلى أن ألقى الله (عج) الرحمة في قلبه.

الأئمّة سيثأرون لآل البيت

وأكثر ذلك يكون في المستقبل، فإنّ الظلمة قد عمّت، والبلاء قد اشتدّ على شيعة أولياء الله سلام الله عليهم، وسيعقُب الظلمة النورُ، ويكون بعد السّتر الظهور، ويظهر أولياء الله بعد غيبتهم، ويخرجون من كهف سَترِهم وتقيّتهم، ويكون كلُّ ما وعد به أمير المؤمنين (صلع)، فهو الصادق الذي وعدُه حقٌّ، وقوله صدق.

وفي رواية ابن سلّام بإسناده عن أمير المؤمنين عليّ (عم) أنّه قال لبعض شيعته، وقد ذكروا (ر9ب) تغلّب أهل الباطل: يا معشر شيعتنا، صلُّوا مع الجماعات، وأدّوا إليهم الأمانات، فإذا جاء التمْييزُ، وقامت الحرب على ساق، فمعنا أهلَ البيت باب من أبواب الجنّة، من اتّبعه كان محسناً، ومن تخلّف عنه مُمْحِقاً، ومن لحق به لحق بالحقّ، ألاَ وإنّ الدينَ بنا فُتح، وبنا يُختم، ولو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم واحد لولاّه الله رجلاً منّا يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً.

(33) العزيز والحاكم: الخامس والسادس من الخلفاء الفاطميّين

وبالإسناد عن عبد الله بن جبلة بإسناده عن عليّ (صلع) أنّه قال: ليخرجنّ الإسلام نادّاً من أيدي الناس كأنّه البعير الشارد من الإبل لا يردّ [هُ] الله إلّا برجل منّا[34].

15 ومن رواية أبي غسّان[35] بإسناده عن أمير المؤمنين عليّ بن/ أبي طالب سلام الله عليه أنّه قال: احذروا على دينكم ثلاثةً: رجلاً آتاه الله القرآن، وكان ردءاً للإسلام، غيّر بذلك ما شاء الله، ثمّ انسلخ ونبذه وراء ظهره، وسلّ سيفه على جاره ورماه بالإشراك. قالوا: يا أمير المؤمنين، فأيّهما أولى به؟ قال: [الرامي] القرآن. ورجلاً استخفّته الأحاديث، فكلّما وضع أحدوثةَ كذبٍ وانقطعت، أبطلها بأطول منها، إنْ يدرِكِ الدّجّال (ر 10 أ) يتبَعْه، ورجلاً هو كأحدكم آتاه الله سلطانا، فقال: من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني، فقد عصى الله، فكذَب! ليس لمخلوق طاعة في معصية الخالق. ألا وإنّه لا بدّ من رحى سلطان يقوم على ضلالة، فإذا قامت طحنت، وإنّ لطحنها رَوقاً، ورَوقها حدّتها، وعلى الله فكّها. ألا وإنّ أطايب ذرّيّتي وأبرار عترتي أحلمُ الناس صِغاراً، وأعلمُ الناس كباراً، بنا يَبْتُر الله الزمانَ الكلِب، ومنّا يُبترُ الكذِب. وإنّا أهلَ البيت، من حُكمِ الله حَكَمْنا، ومن صدق قولٍ سمِعْنا، فإن تَتَّبِعُوا آثارنا تهتدوا ببصائرنا، وإن تحيدوا عنّا تهلَكوا بأيدينا أو بما شاء الله. ويحٌ للفروخ، فروخ آل محمد، من خليفة غير مستخلف، يقتل خلَفي وخلَف الخلَف! ووالله لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد لطوّله الله حتّى يخرُجَ منّا رجل يقال له المهديّ يملؤها قسطاً وعدلاً كما مُلئت جوراً وظلماً/ . 16

(34) عبد الله بن جبلة الكنانيّ. فقيه اماميّ، له كتاب في الرحال توفيّ سنة 219 (انظر رجال الحلّيّ، 200)

(35) أبو غسّان: مالك بن إسماعيل، روى عنه الدغشيّ. والحديث في النهج، 163.

وعن أبي غسّان بإسناده وعن عليّ (صلع) أنّه قال: يخرج منّا (ر 10 ب) رجلان [يسبق] أحدُهُما الآخر يقال لأحدهما المهديّ، والآخر المرتضى.

فالمهديّ قد ظهر وظهرت الأئمّة من ذرّيّته عليهم السلام والصلاة، ثمّ وقع السّتر، ولم يسمّ أحد من أئمّة الظهور عليهم السلام المرتضى، ولكنّه الذي يُنتظر ظهوره، وهو من المهديّ وذرّيّته كما قال أمير المؤمنين عليّ (صلع)، وقوله الحقُّ المبين.

وفي رواية أخرى عن عليّ (صلع) أنّه قال: كأنّي أنظر إلى دينكم مولّياً يخضخض بذنَبه، ليس بأيديكم منه شيء حتى يردّه الله (عج) عليكم برجل منّي.

وعنه صلوات الله عليه وعلى الطاهرين من ذرّيّته أنّه قال: والذي فلق الحبّة وبرى النسمة، لو لم يبق من الدنيا غير يوم واحد لطوّل الله ذلك اليومَ حتى يملِك فيه رجل منّي، فإذا رأيتم ذلك اليومَ، لم يرمِ رامٍ بسهمٍ ولا حجر، ولا يطعنُ برمح، فاحمدوا الله. فإن ابتُليتم فاصبروا فـ ﴿ إِنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِيْن ﴾ [هود، 49].

(ط 22) وروي عن الصادق جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه عليّ بن الحسين[36] عليه السلام أنّه سئل عن المهديّ فقال: هو من ولدي.

وقد قيل لبعض الأئمّة الماضين عليهم السلام: أنت المهدي؟ قال: كيف أكون المهديّ (ر 11 أ)، وقد بلغت من السنّ ما ترون؟ وأخذ ساعده فمدّ جلده، وقال: / المهديّ لا يؤخذ له بالركاب. قيل: وكذلك كان صلّى الله عليه.

17

وعن الصادق جعفر بن محمّد أنّه قال: لو قد قام قائمنا ما

---

(36) علي زين العابدين رابع الأئمّة.

أقام الناس على الطلاق إلاّ بالسيف. ولو قد كان ذلك، لم تكن إلاّ سيرة عليّ بن أبي طالب (صلع). وكذلك كان الأمر لمّا قام الإمام المهديّ بالله سلام الله عليه والأئمّة من ولده: أقاموا الناس على طلاق العِدّة والسنّة، على ما نصّه الله تعالى في كتابه وسنّهُ رسولُه (ﷺ)، وقطعوا طلاق البِدعة، وكلّ ما ابتدعه المبتدعون في الدين والأحكام، والحلال والحرام، وأقاموا الناس بالسيف على سيرة عليّ ابن أبي طالب، صلّى الله عليه وعليهم، التي سار بها في الأمّة على ما عهد إليه رسول الله (ﷺ). ونسب ذلك للمهديّ بالله (صلع) إذ كان أوّلَ من أقام ذلك، وقام به، وأقامه الأئمّة من نسله عليهم السلام، وقفوا أثره، وسلكوا جَدده.

تنبّؤ الأئمّة من بعد عليّ

وقد ذكرنا عن الصادق جعفر بن محمّد (صلع) عن رسول الله حيث قال: يرفع لآل جعفر بن أبي طالب[37] راية ضالّة. ثمّ يرفع لآل العبّاس راية أضلّ منها وأشرّ. ثمّ ترفع لآل الحسن بن عليّ عليه السلام رايات ليست بشَيْءٍ. ثمّ يرفع (ر 11 ب) لولد الحسين (عم) راية فيها الأمر.

فكان كما ذكر: فقام عبد الله بن جعفر[38] في أيّام بني أميّة، ثمّ ارتفعت بعد ذلك راية بني العبّاس، وكلّما قام من أولاد الحسن (عم) قائم/ لم ترفع رايته، ولم تثبت آيته، وصاروا بين قتيل بالمهنّد، أو حبيس مقيّد، أو طريد مشرّد، حتّى قام المهديّ بالله صلّى الله عليه وآله من ذرّية الحسين (عم) فاتّضحت معالمه،

18

(37) هو جعفر الطيّار. استشهد في وقعة مؤتة سنة 8 فقطعت يداه فقيل: ذوالجناحين. والحديث غير معروف.

(38) عبد الله بن جعفر بن أبي طالب: لم تذكر له حركة ضدّ بني أميّة. ولعلّ المؤلّف خلط بينه وبين أبنائه الذين ناهضوهم فقتلوا: انظر مقاتل الطالبيّين، 62 - 63 و87 والكامل لابن الأثير، 75/4.

وقامت به مناهج الحقّ ومراسمه، وملك الأئمّـة من آله الشـرقَ والغرب، وظهرت دعاتُهم في كلّ أفق، حتى وقع الاستتار، ولا بدّ من أوبة بعد المغيب، وظهور يظهر به كلّ أمر عجيب.

وقد جاء عن رسول الله (ﷺ) أنّه قـال: «من حبس نفسه لداعينا، وكان منتظراً لقائمنا، كان كالمتشحّط بدمه بين سيفه وتُرسه في سبيل الله»[39].

وروي عن الإمام الباقر أنّه قال: إذا قام قائمنا أهلَ البيت، نُزع البخلُ والجبن عن قلوب شيعتنا، ولقي الرجل المائة فلا يُفَلّ بهم، ويشرفُ [أهل] هذا الأمر، ويُحفظ نسلُهم، حتى تنقضي الدنيا، ويتقرّب الناس إلى الإمام بزيارة قبور (ر 12 أ) المؤمنين، ويزار قبر كلّ مؤمن من عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، في مشارق الأرض ومغاربهـا، ويقف المؤمن على قبر المؤمن فيقول: يا أخي، قد وددت أنّك كنتَ باقياً حتى تشهدَ هذه الدولة، فقد كنتَ توالي أهلها، وتناصب عدوّها، فبارك الله لك فيما أنت فيه، وثبّتَنا على ما كنتَ عليه!

وقد كان ذلك في أيّام المهديّ بالله (صلع) والأئمّة من ذرّيّته، وظهر المؤمنون، وعزّ دين الله ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصفّ، 9] وتمنّوا لو كان إخوانهم الماضون أحياء ليشفوا غيظ قلوبهم بمشاهدة ظهور/ أمر أولياء الله، وعلوّ كلمتهم، وظهورهم على عدوّهم، كما تمنّى ذلك القاضي النعمان بن محمّد رضوان الله عليه في قصيدته المختارة[40] (رجز): 19

فلهف نفسي، ثمّ لهْفَ نفسي على الذين انقَرَضُوا بالأمسِ

(39) الحديث: لم نجده في المصادر التي بين أيدينا

(40) القصيدة المختارة للنعمان. هي منظومة عرفت بالأرجوزة المختارة.

لم يبلُغوا ذلك من إخواني لكنّهُمْ في حوزة الجِنان
قد بلغوا من المنى آمالَهم أَنالَنا اللهُ الذي أنالَهُمْ

وكذلك يكون. فإنّه، وإن طالت على المؤمنين المحنة، وعمّت الظلمة، واستتر أولياء الله الأئمّة، لا بدّ من ظهور أمر أولياء الله، وعلوّ كلمتهم، وسموّ دولتهم. وكما قال داود نبيّ الله (عم) (ر 12 ب): مثل ما كان سيكون، ومثل ما عُلمَ سيُعلَم، وما تحت الشمس شيء بجَديد[41].

وقد روي عن رسول الله (ﷺ) أنّه ذكر المهديّ بالله (عم) فقال: من رآه فليبايعه، ولو حبواً على الثلج والنار، فإنّه خليفة الله في أرضه[42].

فالدلائل واضحة، والبراهين لائحة، ولكنّ الجاحدين لفضل أولياء الله أبوْا إلاّ تكبّراً على الله وعتوّا، «وجَحَدُوا بِهَا، وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ، ظُلْماً وعلوّاً» (النمل: 14).

تنبّؤ علماء السنّة بالمهديّ:

وعن عبد الله بن العبّاس[43] أنّه قال: لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم وليلة لخرج فيها المهديّ.

وعن ابن سيرين[44] أنّه قال: المهديّ يعدل نبيّاً.

---

(41) هذه القولة: Nihil novı sub sole (Eccl. 1/10) منسوبة في التوراة إلى سليمان وهي قولة محبّبة عند الإسماعيليّين، يدعمون بها نظريّة «الدوريّة» في التاريخ. انظر: الحبيب الفقي: التأويل في المذهب الإسماعيلي، 1.

(42) الحديث عند ابن ماجة، 4082 و 4084، وانظر المجالس والمسايرات، 458 هامش 1

(43) عبد الله بن عبّاس: سُمّيَ «حبر الأمة» لعلمه الغزير في التفسير والحديث والسيَر (أسد الغابة، 3035).

(44) محمّد بن سيرين: تابعيّ محدّث فقيه، ينسب إليه كتاب في تعبير الرؤيا (ت 110).

ابن سيرين وطاوس. . .

وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال: كان داود نبيّ الله (عم) يتمنّى أن يلحق المهديّ ويكون من أصحابه.

وقال إبراهيم بن ميسرة قلت لطاوس[45]: إنّ قوماً يقولون: إنّ عمر بن عبد العزيز هو المهدّي. قال طاوس: ليس كما يقولون: إنّ المهديّ إذا كان زاد/ المحسنُ في إحسانه، وزاد المسيءُ في إساءته، والمهديّ جواد بالمال، شديدٌ على العُمّال، رحيمٌ بالمساكين.

20

وعن مجاهد[46] بإسناده يرفعه، وذكر أخباراً (ر13أ) بما يكون، ثمّ قال: يُبعَثُ قائم آل محمّد في عصابة، لَهُمْ أدقّ في أعين الناس من الكُحل، يفتح الله عليه مشارقَ الأرض ومغاربَها. ألا وهم المؤمنون حقّاً. ألا وإنّ خير الجهاد في آخر الزّمان.

وروي عن عبد الرحمان بن بكّار[47] أنّه قال: حججت فدخلت المدينة فأتيت مسجد رسول الله (ﷺ) فرأيت الناس مجتمعين على مالك بن أنس يسألونه ويفتيهم، فقصدت نحوه، فإذا أنا برجل وسيم حاضر في المسجد وحوله حفدتُه يدفعون الناس عنه. فقلت لبعض مَن حوله: من هذا؟ قالوا: موسى بن جعفر[48] فتركت مالكاً، وتبعته، ولم أزل أتلطّفُ حتى لصقت به فقلت: يا ابن رسول الله، إنّي رجل من المغرب من شيعتكم وممّن يدين الله

(45) طاوس هو ذكوان بن كيسان الجنَدي، تابعي محدّث (ت 106) وذكره الأميني في الغدير، 66/1. وجعله ابن القيّم (اعلام، 22/1) من فقهاء اليمن.

أمّا إبراهيم بن ميسرة فلم نعرفه.

(46) مجاهد بن جبر: تابعي محدّث ومفسّر (ت 104).

(47) عبد الرحمن بن بكار: لم نهتد إليه ويظهر من الخبر أنّه مغربيّ من القرن الثاني.

(48) موسى بن جعفر: هو موسى الكاظم، سابع الأئمّة عند الاثني عشريّة. انظر مقاتل الطالبيّين، 263.

بوَلايتكم. قال لي: إليك عنّي يا رجل، فإنّه قد وُكّل بنا حَفَظة أخافهم عليك. قلت: يُسلِمُ الله، وإنّما أردت أن أسألك. فقال: سل عمّا تريد. قلت: إنّا قد روينا عن المهديّ منكم، فمتى يكون قيامه؟ وأين يقوم؟ قال: إنّ مثَل من سألتَ عنه كمثل عمود سقط من السماء رأسه في المغرب وأصله (ر13ب) في المشرق، فمن أين ترى العمودَ يقومُ إذا أقيم؟ قلت: من قِبَل رأسه. قال: فحسبك! من المغرب يقوم/ وأصله من المشرق، وهناك يستوي قيامه ويتمّ أمره. 21

وكذلك كان أصل الإمام المهدي بالله (عم) بالمشرق، وقيامه من المغرب.

ومن رواية أبي غسّان عن عبد الله بن العبّاس أنّ رجلاً سأله عن السماء،ممّ هي؟، وعن البرق،ممّ هو؟ وعن أوّل شيء عاذ بالبيت، وعن المهديّ، ممّن هو؟ فقال له ابن عبّاس: لقد سألت عن عظيم، وهو في علم الله يسير: أمّا السماء، فهي ماء مكفوف. وأمّا البرق فهو من الماء. وأمّا أولّ شيء عاذ بالبيت فإنّ الحيتان الكبارَ أكلْن الصغارَ منهنّ في زمن الطوفان فاستعذن بالبيت فأعاذهنّ الله. وأمّا المهديّ فإنّه من أهل بيتٍ أكرمكمُ الله بأوّلهم، ويستنقذكم بآخرهم.

... وابن عبّاس...

فأهل البيت الذين أكرم الله الخلق بأوّلهم هم ذرّيّة رسول الله (ﷺ)، وأوّلهم رسول الله (ﷺ) الذي أكرم الله به الخلقَ، والمهديّ منهم، وبآخرهم يكرم الله المؤمنين ويستنقذهم من الظالمين، ويهلك الله الشياطين. وهو قائم آل محمّد المنتظر الآتي بين يدي الساعة، فبه يُظهِرُ الله دينَ (ر14أ) محمّد على كلّ دين، ويُهلك جميع الظالمين، ويكون لله وحده الدين.

ومن حديث عبد الرزّاق بن معمر بن سعيد بن أبي عروة عن

قتادة[49]، قال: قلت لسعيد: المهديّ حقّ؟ قال: حقّ. قلت: ممّن؟ قال: من قريش. قلت: من أيّ قريش؟ قال: من بني هاشم. قلت: من أيّ بني هاشم؟ قال: من بني عبد المطّلب. قلت/: من أيّ بني عبد المطّلب؟ قال: من ولد فاطمة. 22

قال القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه): ولو سأله من أيّ ولد فاطمة هو، لأخبره أنّه من ولد الحسين لأنّه قد روّي ذلك، ولم يقل سعيد هذا برأيه، ولكّنه سماعٌ سمِعَهُ.

وقد روى زاذان عن سلمان الفارسيّ (رضي الله عنه) أنّه قال: لا بدّ من قائم من ولد فاطمة يقوم من المغرب فيكسر شوكة المبتدعين ويقتل الضالّين[50].

وكذلك قام المهديّ بالله من المغرب، وهو من ولد فاطمة. ولمّا جاءت الرواية في ذلك في زمن بني العبّاس خافوا من إدريس ابن [عبد الله بن] الحسن[51] لمّا صار في المغرب، وقد ذكرنا من قصّته في هذا الكتاب، فدسّوا عليه بالسّمّ كما ذكرنا (ر 14ب) وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ، وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ﴾ [التوبة، 32].

---

(49) قتادة: انظر التعليق 19. ولا نعرف عبد الرزّاق بن معمر.

(50) زاذان «بالزاي والذال المعجمة، أبو عمرو الفارسي»: من أصحاب عليّ (رجال الحلّي، 192)، وأرّخ الأميني: الغدير، 64/1 وفاته سنة 82. وهو من فقهاء الكوفة حسب ابن القيّم (إعلام 25/1).

وسلمان الفارسي صحابيّ مفضّل عند الشيعة لقول الرسول (ﷺ): سلمان منّا أهلَ البيت.

(51) إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب: إدريس الأوّل مؤسّس دولة الأدارسة بالمغرب. انظر: اتّعاظ الحنفاء، 11، وعيون الأخبار، السبع الرابع، 344، ودائرة المعارف الإسلامية.

... وعبد الله بن عمر

ومن رواية يحيى بن سلّام يرفعه إلى عبد الله بن عمر[52] أنّه قال: أبشروا، فتوشك أيّام الجبّارين أن تنقطع، ثمّ يكون بعدهم الجبّار الذي يجبر به الله أمّة محمّد: المهديّ ثمّ المنصور.

قال القاضي النعمان بن محمّد رضوان الله عليه: ثمّ عدّد أئمّة مهديّين، وهذا ممّا لم يقله عبد الله إلاّ من رسول الله (ﷺ) ممّا سمعه أو بلغه عنه، لأنّ ذلك من أخبار ما يكون، ولا يقول ذلك إلاّ من جاءه فيه علم من عند الله (عج).

وقد كان المهديّ والمنصور (صلع)، وكان بعدهما أئمّة مهديّون إلى أن وقع سَترهم، ولا بدّ أن يظهر بعد/ سترهم أئمّة مهديّون يوضح الله بهم برهانَه، ويقيم حجّته، ويُنقِذ أمّة نبيّه (ﷺ). 23

ومن رواية الدغشي يرفعه إلى أبي الجارود[53] أنّه قال: يكون المهديّ وسبعة[54] من بعده ـ يعني ولده ـ كلّهم صالح لم يرَ مثلهم.

وهذا أيضاً ممّا انتهى إليه من رسول الله (ﷺ) الذي لا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى (ر 15أ) ﴿ إنْ هُوَ إلاّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم، 3] فهذا ما أخبرت به الثقات، وأثبته الرواة عن الأئمّة (صلع) وعن غيرهم من علماء العامّة[55] من ذكر المهديّ (صلع) وقيامه، والبشارة بما كان في أيّامه. ولم يأخذوا ذلك إلاّ عن رسول الله (ﷺ) وممّا أوحي إليه.

---

(52) الحديث المرويّ هنا أسنده النعمان إلى جعفر الصادق في الافتتاح، (تونس ص 3/بيروت ص 33)

(53) الدغشيّ: لعله محمد بن علي الدغشي الذي روى عن جعفر الصادق ترجم أبو العرب (طبقات، 99 و 111) لابنه عبد الله واتهمه بالمناكير وانظر رياض النفوس، 394/1. وأبو الجارود الأعمى هو زياد بن المنذر من أصحاب الباقر. انظر رجال البرقيّ، 13.

(54) في «هـ»: وشيعته. واخترنا قراءة «ر» لما يمتاز به عدد سبعة من تقدير عند الإسماعيليّة. (انظر التعليق 65 الآتي)

(55) العامّة مصطلح شيعيّ يطلقونه على أهل السنّة.

فظهر الأئمّة عليهم السلام برهة من الزمان، ثمّ وقع السُّتر ثانياً كما كان أوّلاً، وكانت الفَترة، واستتر الطاهرون من العترة لعلم الله الذي أودعه أولياءه، ليبتلي الله المؤمنين ويمحق الكافرين، ولا بدّ أن يؤيّد الله أولياءه فيصبحوا ظاهرين. وسوف نذكر إذا انتهينا إليه ما روي عن الرسول (ﷺ) وأتت به الرواة وأثبته الثقات من الدلالة على ظهور آل محمّد، وعلوّ أمر الطاهرين ائمّة الهدى صلوات الله عليهم، ممّا لم يكن، وهو لا شكّ كائن. فإنّ ما ورد عن أولياء الله هو اليقين، وقول الله تعالى حقّ، وقد قال تعالى: ﴿ وَالعَاقِبَةُ لِلمُتَّقِينَ ﴾ [القصص، 83].

وقد روى يحيى بن سلّام صاحب التفسير حديثاً رفعه إلى رسول الله (ﷺ) أنّه قال: تطلع/ الشمس من مغربها على رأس الثلاثمائة من هجرتي[56]

24

طلوع الشمس من المغرب..

وهذا حديث مأثور مشهور، ولم تطلع من مغربها في هذا الوقت[57]، ولا قبله ولا بعده. وإنّما عنى بذلك قيام المهديّ من ذرّيّته، فوعد (ﷺ) بظهوره من المغرب وعلوّ دولته، وقد سمّى الله (عج) رسوله محمّداً (ﷺ) سراجاً، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ [وَ] سِرَاجاً مُنِيراً ﴾ [الأحزاب: 45] وسمّى الله (عج) الشمس سراجاً فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴾ [النبأ: 13]، وقد سمّى العرب الرجل الفاضل شمساً. قال الشاعر:

---

(56) هذا الحديث ساقه الترمذيّ، 34/9 في معنى قيام الساعة. وانظر المجالس والمسايرات، 477

(57) أي في القرن التاسع، عصر المؤلّف.

(طويل):

إنّك شمسٌ، والملوك كواكب   إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ منهنّ كَوْكَبُ[58]

وكان المهديّ بالله سلام الله عليه هو الشمس التي ذكر رسول الله (ﷺ) أنّها تطلع من المغرب على رأس الثلاثمائة من هجرته (ﷺ). وكذلك طلع عليه السلام في سنة سبع وتسعين ومائتين، واستقرّ قراره في دار ملك المغرب على رأس الثلاثمائة.

.. كناية عن ظهور المهديّ

ومن قول النبيّ (ﷺ) هذا، قال الفهريّ[59] في قصيدة له يبشّر بظهور المهديّ ودنوّ أوانه:

(هزج):

فَعِنْدَ السِّتّ والتسعيـ   ـنَ قَطْعُ القولِ والعُذْرِ (ر 16 أ)

لأمرٍ ما يقول النا   سُ بيعَ الدرُّ بالبَعْرِ

وصارَ الجوهرُ المَخزو   نُ عِلقاً غيرَ ذي قَدْرِ

يتيمٌ كان خلفَ البا   بِ، فانقضّ على الوَكْرِ/ 25

ففي سنة ستّ وتسعين غلب الحُسينُ بن أحمد بن زكريا أبو عبد الله، الداعي إلى المهديّ بالله سلام الله عليه بالغرب، بني الأغلب وشرّدهم عن ملكهم، وملك إفريقيّة، وأقام بها دعوة المهديّ بالله صلوات الله عليه (ط 28).

قال القاضي النعمان (رضي الله عنه): وقول الفهريّ «يتيم

---

(58) البيت للنابغة الذبيانيّ في ديوانه، نشر الشيخ ابن عاشور، 56.

(59) الفهريّ: لعلّه الشاعر ابن هرمة كما قال الدشراوي في الافتتاح، 4. وقد انقطع ابن هرمة للطالبيّين كما جاء في ترجمة الزركليّ له. ومن جهة أخرى، تمثّل منصور اليمن بهذا الشعر في السيع الرابع، 396، ومنصور اليمن لم يدخل إفريقيّة. وبهذا قد يخرج الفهريّ عن أن يكون إفريقيّاً.

كان خلف الباب» يعني المهديّ (عم): مات أبوه وهو صغير، وكذلك كان رسول الله (ﷺ)[60].

ومن ذلك قول التونسيّ[61]، وكان ممّن يُعْنى بعلم الحَدَثان، فقال يخاطب إبراهيم بن أحمد من ملوك بني الأغلب، صاحب إفريقيّة، وقد سأله أن يخبره ما عنده في أمر دولتهم وغاية ملكهم، من قصيدة أوّلها:

تنبّؤ الشعراء بالمهديّ:

(طويل):

أقـول، وأسلمتُ القريضَ لأهلِه	وعشتُ زماناً، وهو خيرُ مكاعِبِ
أمِن بعد تسعِين السنينَ أَعُدُّهـا	وأربعـةٍ من بعـد ذاك رواتبِ
أزاحمُ أهلَ الشعر بالشعر ناجزاً	أبى الله هذا بعدَ أن جُبَّ غارِبي
ولكِنَّني أرجـو مـن الله عفـوَهُ	بـأوبةِ مـأمونِ السريـرةِ تـائبِ
5 وآمُـل غفـرانـا بفضـل تـلاوة	أردِّدُها ليلاً بفكرة آئب (ر 16 ب)
صرفتُ أموري للّذي أنـا عبدُه	إلاهي، إلاهِ العرش مُعطي الرغائب
فلستُ، حياتي، سائلاً غيرَ ذي العلا	وإلّا، فجبّت من يميني رواجبي[62]
ألا يـا أمينَ الله، وابنَ أمينـه	وعاشِرَ ساداتِ الملوك الأغالب[63]
وجـدتُ كتابـاً قد تقـادم عهـدُه	روايـةَ أشياخٍ كـرامِ المناسب/ 26
10 روايةَ وهب عن سطيـحٍ ودنيل	مشايخ علم صادقٍ غيرِ كاذب:[64]

الفهريّ والتونسيّ..

---

(60) افتتاح الدعوة، طبعة تونس، 4، وطبعة بيروت، 34. وقد نقل النعمان تسعة أبيات من شعر الفهريّ وتبعه الداعي إدريس في السبع الرابع.

(61) التونسيّ الشاعر. لا نخاله عليّاً الإياديّ، للأسباب التي ذكرناها في الحوليّات، 1979/17 ص 3.

(62) الرواجب: المفاصل في أصول الأصابع.

(63) المخاطب بهذا الشعر هو إبراهيم الثاني، تاسع الأمراء الأغالبة (من 261 إلى 289) كما نبّه الدشراوي في الافتتاح، 64.

(64) وهب بن منبّه الصنعانيّ (ت 114). هو الذي تنسب إليه معظم الإسرائيليّات في كتب التفسير والحديث.

تَتَابَعُ راياتٌ من الشرق سبعة إلى الغرب، سودٌ، خافقاتُ الذوائب[65]
يسيرُ بها خُزرُ العيون تراهمُ بهاليلَ شمطاً، من طِوالِ الشوارِب[66]

ويقول فيها:

ولاةُ بني العبّاسِ عشرون والياً تَدِينُ لهم بالرغم أرضُ المغارب[67]
وفي الستّ والتسعين تهبِط رايةٌ من الغرب في جمعٍ كثير المواكب
15 يمزّق أرضَ البربريّة جمعُهم بخيلٍ كأمثالِ القطا المتسارب
وتطلُع شمسُ الله من غرب أرضه فلا توبةٌ ترجى هناك لتائب
ويظهَر من أبناء فاطمةَ امرؤ تقيٌّ، نقيُّ العِرض، جمُّ المواهب
سميّ نبيّ الله، وابنُ وصيّه وأكرمُ مولود، وأشرفُ طالب
فيملأ أرضَ اللّهِ عدلاً ورحمةَ بأيّامِ صدقٍ طيّباتِ المكاسب
20 وبالأعوَرِ الدجّال ينهدُّ جمعُه سوى عُصبةٍ في باذخ الطَّوْدِ راتب

= وسطيح بن ربيعة: هو الكاهن الجاهليّ المعروف، وقد استخدم حافظ ابراهيم الاسم والرمز في قصته: ليالي سطيح.
أمّا دنيل أو دنيال، فقد ورد ذكره في التوراة: تألّب عليه الكهنة في زمن بختنصر فرموا به في «جبّ الأسود» فلم تصبه الأسود بضرر. وكانت تنسب إليه تنبُّؤات في الملاحم والحدثان. وروى ابن خلدون في المقدّمة، 382 حكاية طريفة عن ورّاق في بغداد كان يكتب الملاحم الزائفة يتقرب بها إلى رجال الدولة، وعرف هذا الرجل بالدنيالي.

(65) الرايات السبعُ. لعدد سبعة عند الإسماعيلية - وهم الشيعة السبعيّة - شأن كبير: مثلاً، يجعلون للدعوة سبع مراتب يسمّونها «الحدود السبعة» (انظر: الحبيب الفقي: التأويل، 59). والقاضي النعمان قسّم العبادات إلى سبع، أوّلها الولاية وآخرها الجهاد. والإمام جعفر الصادق يجيب مستفتيه بأجوبة سبعة، وبسبعين إذا شاء. وصاحبنا إدريس قسم كتابه هذا إلى سبعة أسباع، الخ.

(66) البهلول هنا هو السيّد الجامع لكلّ فضل.

(67) ولاة إفريقية لبني العبّاس، ابتداء بمحمّد بن الأشعث الخزاعي، وانتهاء بزيادة الله الأغلبيّ الثالث، يتجاوز عددهم العشرين وإذا اقتصرنا على الأغالبة، فهم أحد عشر والياً. انظر ابن عذاري: البيان المغرب، 317/1 وفصل الأغالبة في دائرة المعارف الإسلاميّة

ويقتلُه من بعد ذاك ابنُ مريم بقدرة ربٍّ ما له من مُغالب (ر 17 أ)
ومن بعدِها موتُ ابنِ مريم مُقْضِياً إلى الله في حُكمٍ من الله واجب[68]

وقوله في قصيدته «سمّي نبيّ الله»، فذلك القائم عليه السلام محمد ابن عبد الله لأنّه ظهر مع أبيه عليهما السلام يوم ظهوره في المغرب، وهو الذي أشار إليه النبيّ صلّى الله عليه وآله بقولِهِ: «اسمه كاسمي واسم أبيه كاسم/ أبي»، والى القائم بعد السّتر من ولده (صلع)، الماضين منهم والمنتظَرين. وفي أيّام القائم عليه السلام كان ظهور الدجّال مخلد بن كيداد، وابن مريم الذي قتله هو إسماعيل بن محمّد، المنصور، سلام الله عليه. وسنذكر القصّة إذا انتهينا إليها في هذا الكتاب، والله الموفّق للصواب، والهادي لخير الأسباب.

27

ومن هذا المعنى قول ابن عقبة:

(سريع):

... وابن عقبة...

قد قلتُ لمّا طار عنّي الكرى حتّى متى يا ليلُ لا تُصبِحُ؟
عذّبَني الوجدُ وفقد الكرى كلاهما أقسَمَ لا يَبْرَحُ
وكيفَ لا يحزُن من لا يرى بأنّه يبلُغ يا مسطح
دهراً يُرى فيه إمامُ الهدى بالله للمغرب يَسْتَفْتِح
5 ويبتني البيضاءَ في لجّة خضراءَ فيها نونُها يسبح
ينجو من الأهوال سكّانُها والأرضُ منها كلُّها تُفتَح (17 ب)
لو مدّ من عمري إلى وقته لكنتُ في القرن الذي يُفْلِح
هيهاتَ، ما ذا العمرُ ممّا أرى، فيما أرى، الموتَ به يسمح[69]

---

(68) هذه الأبيات في الافتتاح، 63 (تونس) / 84 (بيروت).

(69) لا نعرف ابن عقبة الشاعر. وافترض الدشراوي. افتتاح، 67 أنّه «يحيى بن عبد =

فعنى بالبيضاء المهديّة التي ابتناها المهديّ بالله (صلع) على شاطىء البحر. وقوله: «ينجو من الأهوال سكّانها»، فكذلك نجوا من أهوال فتنة الدجّال.

ومن ذلك قول محمد بن رمضان(70) ـ وكان من الشيعة ـ يرثي (ط 30) أهله، وكان إبراهيم بن الأغلب أوقع بهم وقتل ألفاً منهم/ غدراً، وذكر دنوّ الفرج بقيام المهديّ بالله سلام الله عليه حيث يقول: 28

(بسيط):

جلّ المصابُ لئن كان الذي ذكرُوا	ممّـا أتَتْنَـا بـه الأنبـاءُ والخَبَـرُ
عن ألف أروعَ كالآساد قد قُتِلوا	بساعةٍ في سواد الليل إذ غُدِروا
لو كان من بيّت الآسادَ أيقظَهُم	حلّت به منهُمُ الأحداثُ والغِيَر
قل لابن أحمدِ إبراهيم مألُكَـةً	عن الخبير بما يـأتِي وما يَـذَرُ .. وابن رمضان
5 اعلم بأنّ شِرارَ النـاس أطولُهم	يداً بمكروهِ غدرٍ إن هُمُ غَدَروا
لاسيّما الجارُ والضيفُ القريبُ، ومن	أعطَوْه ذمّتَهم من قبلِ ما خفروا
فما اعتذارُك عن عـارٍ ومنقصَةٍ	أتيتَهـا عامـداً إن قمتَ تعتـذِر؟
جرّعتَ ضيفَك كأساً أنتَ شاربُها	عمّـا قليـلٍ، وأمـرُ الله يُنْتَـظَر
فدولةُ القائم المهديّ قد أزِفَتْ	أيّامُها في الذي أنبَا بِهِ الأثَرُ (ر 18 أ)

= الله بن أبي عقب الليثي» المذكور في البيان والتبيين، 228/2، إلّا أن هذا الشاعر جعله الجاحظ من النوكى. وكذلك ذكر ابن خلدون، المقدّمة، 381، صاحب ملاحم سمّاه «ابن عقب»، وليس في كلامه ما يرجّح أنه شاعرنا هذا.

(70) محمّد بن رمضان: جاء في الافتتاح، 90/74: شاعر من أهل نفطة كان شيعيّاً. ونفطة مدينة من قسطيلية، أي الجريد التونسي، وكانت تسمّى «الكوفة الصغيرة» إمّا لتشيّع أهلها، وإمّا لنفاق العلم بها، وإمّا للأمرين معاً. احتمى هذا الشاعر من جور الأغالبة فالتجأ إلى بني مالك في بلزمة فانتقم الأغلبي من مجيريه بأن صنع لهم وليمة وغدر بهم. والخبر مفصّل في البيان المغرب، 123/1 تحت سنة 280.

وحين تغلّب الفاطميّون عيّنه المهديّ على قضاء ميلة وبقي بها قاضياً حتى وفاته

10 عن النبيّ، وفيه قطع دولتِكُم يا آل أغلبَ، فارجوا ذاك وانتظِروا
وقطعُ أمر بني العبّاس بعدكمُ وقطعُ أمر بني مروانَ إذ بطِروا

وقال أيضاً محمد بن رمضان من قصيدة:

(طويل):

كأنّي بشمس الأرض قد طلَعَتْ لنا من الغرب مقروناً إليها هلالُها
فيملأ أرضَ الله قِسطاً بعدله بما ضَمَّ منها، سهلُها وجبالُها
29 وآمن فيها ما أخافُ وأتّقي وأظفَر بالزلفى به وأنالُها/[71]

فشمس الأرض عنى بها المهديّ، والهلال وليّ عهده القائم من بعده.

ولو تقصّينا ما ورد من ذكر فضائل الأئمّة وظهور عدلهم، واشتهار فضلهم، لطال ذلك واتّسع، وبعُد أمدُه وشسع. وإنّما أتينا في هذا الكتاب بفنون من الأخبار، ونُبذٍ من الآثار، ومِلنا فيه إلى الاختصار، عن الإسهاب والإكثار، وكلّ ما قلناه ونقوله بعون الواحد القهّار، ونعمة أوليائه الأئمّةِ الأطهارِ، عليهم صلوات الله العزيز الغفّار.

(71) في الافتتاح، 90/74، سبقت هذه الأبيات الثلاثة ستّة أخر.

الفصل الثاني

ظهور دعوة المهدي باليمن والمغرب

وأمّا الخبر فيما كان من ظهور دعوة المهديّ بالله (صلع) باليمن والمغرب، وما أظفر الله أولياءه، وأظهر لهم من الظفر والغلب [فـ] ـنقول:

انّا قد ذكرنا[1] في كتابنا هذا من أمر أبي القاسم - وهو الحسن ابن فرح بن حوشب بن زادان الكوفيّ المعروف بمنصور اليمن بن الفرح صاحب دعوة اليمن، وهو من ذرّيّة مسلم بن عقيل بن (ر18 ب) أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم رحمه الله - ووصوله إلى أمامه صلوات الله عليه وما هداه الله من الاتصال به والوصول إليه، وما كان من أمره حتى بعثه إلى اليمن داعياً مبشّراً بظهور المهديّ بالله من ولد رسول الله (ﷺ) قائماً في إشادة دعوته وساعياً، فقال له: أنت لليمن، وأنت المنصور فيه، وكان الداعي أبو القاسم رضي الله عنه، إذا قيل له: أنت المنصور المبشّر به، يقول: إنّ المنصور من آل محمّد، أما سمعتم قول القائل/: (طويل) 30

إذَا ظَهَرَ المنصورُ من آل أحمدٍ فقُلْ لبني العبّاس: قوموا على رِجْلِ

قيل: وكان الأمر كذلك: لمّا قام الإمام المنصور بالله اسماعيل بن محمد بن عبد الله اختلّت دولة بني العباس، ووهن من

---

(1) السبع الرابع، 396.

أمـر ملكهم الأساس، فصـاروا بين مقتول ومخلوع، ومصفّـد في السجن قد عاد بعد التكبّر إلى الخضوع[2].

وقد روي عن رسول الله (ﷺ) أنّه قال: يقوم رجل من ولدي على مقدّمته رجل يقال له المنصور يوطّىء له ـ أو قال: يمكّن له ـ واجب على كلّ مؤمن (ر 19 أ) نصرته ـ أو قال: إجـابته ـ وهـذا الحديث ممّا رواه عبد الرزّاق بإسناده عن النبيّ (ﷺ).

خروج ابن حوشب إلى اليمن

وفيما أتى عن الداعي أبي القاسم ابن فرح بن حوشب بن زادان (رضي الله عنه) قال: ولمّا سرت من عند الإمام عليه السلام مودّعاً للأهل والأحبّة، ومتشوّقاً إلى انقطاع الغربة، توجّهت. فلمّا خرجت من القادسيّة أوجست خيفة، فـأصغيت إلى قول أسمعـه لأتفاءل به، فسمعت حادياً يقول:

يـا حاديَ العِيس مليحَ الزَّجْـرِ بَشِّـر مـطايـاك بضَـوء الفَجْـرِ

(قال): فسررت به واستحسنت ذلك المقال لمّا سمعته. ووافيت مكّة مع الحجّاج، فحججت وقضيت مناسكي. وسمعت من حجيج اليمن أنّ محمّد بن يعفر[3] ملك صنعاء قد أظهر التوبة والنسك، وتخلّى عن الملك وردّ ما اقتطع من الناس إليهم/، وأنصف من الظلامات، وذلك لأمر تقدّمت فيه الروايات أنّ ملكه سيزول من يديه، وأنّ داعي المهديّ يغلب عليه، فخلع نفسه ونزع من ملكه وأهله وفرّق الأموال، فيقال إنّه ردّ في يومٍ ألفَ ألفٍ حتّى قام من شعرائه في أهل بيته، وقد اجتمعوا، قائل فقال: (رجز)

31

(2) بدأت صولة الحدم والقوّاد الأتراك على خلفاء بغداد بمقتل المتوكّل سنة 247.

(3) محمّد بن يعفر الحوالي أو اليعفريّ. انظر صفة جزيرة العرب، تحقيق الأكوع، 152 وطبقات فقهاء اليمن تحقيق فؤاد السيّد، 77. هو صاحب صنعاء وفي كتاب «الصليحيّون. ، 333 أنّه قتل سنة 370 وخلفه حفيده أسد بن إبراهيم بن أحمد. ودامت دولة اليعافرة من 230 إلى 389

(ر19ب) بني حوالٍ، يا مصابيح الأُفُقْ ... ويا مبـاذيـل العـطايـا تنـدفق

من خالص العِقيان سَحّا، والوَرَق: ... تـداركـوا مـلكَكُـمُ لا ينفتـق

فتـطلبـون رتق مـا لا يـرتتق ... إلّا بـأطراف الشمـاريـخ الشّهق

والناس فوضى، والنفوس تزدهق ... كغنـم الـذئب تَجَرَّعْنَ العَـلَق

5 فـالـرأس لا يصلح إلّا بعنـق ... ولـن تـقـوم قـدم عـلى زلـق

ليس عتيق البـرّ كـالبـرّ الشفَق ... وليس أمـلاك الرعـايا كـالسُّوَق

هـذا أبو يعفـر فيكم قـد لحِق ... كالجبل الشـامخ والليث النـزِق

فأيّكم قامَ بها فقد سبق

في أرجوزة طويلة. فقام ابن أخيه، فتدارك الأمر وقد وهى وتفرّق أكثره وتمزّقت المملكة وكان ذلك من صنع الله (عج) لأوليائه.

وقضى الناس حجّهم وانصرفوا إلى اليمن. وتوجّه أبو القاسم ومعه عليّ بن فضل[4]، فدخلا اليمن في أوّل سنة ثماني وستين ومائتين، فجاء طريق الحسن بن الفرح على مخلاف[5] بني طريف من نـاحية صعـدة[6] ثم الظاهـر، ووصل رأس نقيـل عجيب[7]،

---

(4) في خصوص الداعي عليّ بن الفضل الجدَني الجيشانيّ - وهو يمني، وجيشان مدينة يمنيّة - انظر: الصليحيون، 28 - 48، وسيرة جعفر الحاجب ترجمة ماريوس كانار - L'autobiographie d'un chambellan ص 294 هامش 1 و2، وطبقات فقهاء اليمن، 75 هامش 2، وافتتاح الدعوة، 157 (تونس). ملك هذا الداعي صنعاء وزبيد ثمّ انفصل عن الدعوة فحاربه ابن حوشب، فلم يقدر عليه ومات سنة 303 مسموماً، سمّه مبعوث من المهديّ في قول، ومن العبّاسيّ في قول آخر، وذلك بأن فصده بمبضع دُهن بمادّة قاتلة.

هذا وإنّ المؤلّف يتحدّث الآن عن منصور اليمن بضمير الغائب.

(5) المخلاف: «هو عند اليمن كالرستاق» (اللسان): فهو الجهة والإقليم، وأيضاً المحجّة والطريق.

(6) صعدة: مخلاف ومدينة شماليّ صنعاء وغربيّها، بينهما ستّون فرسخاً (ياقوت). وصعدة قريبة من نجران وجيزان الواقعتين اليوم في المملكة العربيّة السعوديّة.

(7) «النقيل بلغة أهل اليمن: العقبة. وعجيب: موضع باليمن في مقاطعة ذي رعين» (ياقوت، وصفة جزيرة العرب، 157).

32 فانقطعت هناك نعله/ فمال إلى صخرة وجلس عليها ليصلح نعله، فأقبل إليه شيخ فقال: ممّن الشيخ؟ فقال: رجل غريب. فقال: أعندك علم من المهديّ؟ فقال له المنصور: ومن المهديّ، أيّها الشيخ؟ (ر 20أ) فقال الشيخ: إنّه مأثور عندنا أنّ داعي المهديّ تنقطع نعله، فيقف على هذه الصخرة ليصلحها. فقال له المنصور: كلام الناس كثير. (قال): ولم أجد فيه انتباهاً.

وسار المنصور حتى دخل صنعاء يوم الجمعة، فدخل المسجد الجامع والخطيب قد فرغ من خطبته، وعمد إلى أسطوانة خضراءَ فاتّكأ عليها بظهره، ورفع إحدى رجليه على الأخرى بعد أن صلّى ركعتين عند الأسطوانة.

قال المنصور فيما روي عنه: فأتاني شيخ فرفسني برجله وقال لي: قم! وانتهرني. فقلت له: ما لي أيّها الشيخ أُقصد دون سائر الناس، وهذا كثير منهم منضجع في المسجد؟ فقال: لم أنكر انضجاعك، ولكن هذه أسطوانة يروى أنّ داعي المهديّ إذا دخل صنعاء، أتى إليها فصلّى ركعتين واستلقى على ظهره عندها فرفع إحدى رجليه على الأخرى. فإنّما أنكرت عليك التشبّه به. قلت: وما أنا وهذا؟ فقام إليه بعض من سمعه فقال: ما أعجب أمرك، وكأنّ هذا هو داعي المهديّ. قال: ما هو هو، ولكن أنفت أن يتشبّه به غيره ـ وكأنّه إنّما رأى أنّ داعي المهديّ يدخل ويعمل ذلك (ر 20 ب) بعد ظهوره ـ/. (قال): ومضى عنّي فقمت فتسلّلت[8]. 33

بحثه عن الأنصار

فخرج الداعي المنصور من صنعاء وهو يريد عدن أبين لأنّ الإمام (عم) أوصاه أن يقصد عدن لاعة/[9]، فسأل عنه فلم يسمع

---

(8) يلازم الداعي إدريس رواية الافتتاح، 48/20 في هذا الخبر، وفي غيره كما سيأتي.

(9) أبين: مخلاف مشهور بجنوب اليمن، على ساحل المحيط الهنديّ، ومنه عدن، =

إلاّ بعدن أبين، فلذلك قصده. فلمّا صار بالمخلاف ووصل نقيل البردان نظر إلى عسكر ابن يعفر الكرنديّ[10]. وقد أقبل يريد حرب المذيخرة[11]. فعمد المنصور إلى كهف في الجبل مخافة لمعرة العسكر. فلمّا دخل ذلك الكهف، إذا هو بشيخ كبير قد دخل عليه من باب ذلك الكهف، فسلّم عليه وجلس بين يديه، وجرى بينهما كلام، بعد أن سأله الشيخ عن حاله وبلده ومراده.

ثمّ انّ الشيخ سأل الداعي عن شيء من الحلال والحرام، والقضايا والأحكام، فأجابه في ذلك بما شفاه وكفَاه. (قال الداعي): فلمّا أجبتُه بما أجبته، نظرتُ إليه وقد ملأ عينيه منّي وهَمَلَتا دموعاً، ثمّ قام إليّ فجعل يقبّل رأسي ورجلي ويقول لي: إنّ رسول الله (ﷺ) أرسلني إليك لتستنقذني وتأخذ بيدي وتخلّصني. قلت: وكيف هذا أيّها الرجل؟ قال: نعم، كنت رجلاً أرى في منامي رسول الله (ﷺ) في ليلة معروفة (ر 21 أ) في كلّ عام فكنت أتأهّب لتلك الليلة فلاتحرم رؤياي، فلمّا كان/ في هذا العام لم 34

= الميناء المعروف وعاصمة للجمهورية اليمنيّة الشعبيّة اليوم. وقديماً كانت أبين قرية أيضاً على الساحل بين عدن غرباً ولحج شرقاً (صفة، 67).

لاعة: مدينة قرب صنعاء في جبل صبر، وبجانبها قرية لطيفة يقال لها: عدن لاعة (ياقوت). فعدن لاعة جبليّة في قلب اليمن. والداعي ابن حوشب قادم من الكوفة، أي من الشمال، فطبيعيّ أن يمرّ بصنعاء بعد مروره بصعدة، ثمّ بالجَنَد في طريقه إلى عدن أبين.

(10) آل الكرندي: ملوك جهة المعافر: (الحجريّة اليوم). دامت دولتهم إلى منتصف القرن الخامس فأزالها الصليحيّون (طبقات فقهاء اليمن، 87، هامش 5 و6).

(11) المذيخرة: «قلعة حصينة قريبّة من عدن في رأس جبل صبر» (ياقوت). وعلى سفح هذا الجبل من جهة الشمال تقع مدينة تعز (صفة، 100). وجاء في طبقات فقهاء اليمن، 76: أنّ عليّ بن الفضل «القرمطيّ» قتل جعفر بن إبراهيم المناخي وملك المذيخرة «أنفس مدائن اليمن في ذلك الوقت» وملك مع حليف له يسمّى الحسـ[ـيـ]ـن بن زادان صنعاء على بني الحوالي.

أره، ومضت مدّة فكنت في أكثر الغمّ من ذلك. فلمّا نمت البارحة رأيته (ﷺ)، فجعلت أقول: يا رسول الله طال شوقي إليك وإلى رؤيتك، وقطعت عنّي ما عوّدتني من ذلك. فقال لي: أبشّرك وأخبرك أنّ داعي المهديّ في بلدك وبين ظهراني قومك، فبادر إليه وخذ بحظّك منه. قلت: وكيف لي به يا رسول الله؟ قال: أنت واجده غداً في كهف كذا وكذا ـ وذكر لي هذا الكهف ـ قلت: إنّي أخاف أن أجد غيره. فوصف لي صفتك وقال: ومع هذا فاسأله عن كذا وكذا ـ وذكر لي هذه المسائل ـ فإن أجابك بكذا وكذا ـ وذكر لي جوابك ـ فهو صاحبك.

قال أبو القاسم: فأدركتني خشية وعبرة، فقلت: ما عسى أن أقول لمن أرسله إليّ رسول الله؟ وبسطت يدي ثمّ أخذت عليه[12].

قال القاضي النعمان بن محمّد رضوان الله عليه: وكان هذا الرجل في اليمن يذكر ذلك ويحدّث به.

قال الداعي السلطان الأجلّ حاتم بن إبراهيم بن الحسين الحامديّ[13] (ر 21 ب) رضي الله عنه: وكان ذلك الرجل من كبار الدعاة وأهل الخير فيهم.

قال الداعي المنصور أبو القاسم قدّس الله روحه: ولمّا انتهيت إلى الجَنَد[14] دخلتها وأنا متستّر، فقصدت المسجد/ 35

---

(12) مصطلح بمعنى: أخذت عليه العهد بخدمة الدعوة وميثاقاً في الولاء لها.

(13) الداعي حاتم الحامديّ: هو الداعي المطلق الثالث بعد الذؤيب بن موسى الوادعيّ (520 - 536) وإبراهيم بن الحسين الحامديّ أبيه (536 - 557). انظر ترجمته في كتاب «الصليحيون 273 وإيفانوف، أدب، 61 وبوناوالا، 151 والحبيب الفقي: الآراء الفلسفيّة . . .,126.

وقد تفرّغ للتأليف بقلعة الخطيب بالحراز، وتوفّي سنة 596.

(14) الجَنَد بفتحتين تقع على نحو ستّين فرسخاً جنوب صنعاء، وهي قريبة من تعز، التي تقع جنوبها.

الجامع، فصلّيت به الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثمّ قلت لبعض من فيه: أيبيت ههنا أحد؟ فإنّي رجل غريب أردت المبيت في المسجد. فقال: نعم، كلّ من ترى من الغرباء فيه يبيتون. فلمّا صلّينا العشاء تحلّقوا حلقتين، إحداهما شيعة والأخرى حشويّة[15] فتناظروا ساعة من الليل. ثمّ انصرف الشيعة، وقام الآخرون لينصرفوا، فقال رجل منهم: اجلسوا قليلاً، فجلسوا. وجعل ينظر إلى أولئك الشيعة حتى انصرف آخرهم، فعطف على أصحابه فقال لهم: أتعرفون خبر هذه الليلة؟ قالوا: وما خبرها؟ قال: أليست ليلة كذا من شهر كذا في سنة كذا؟ قالوا: نعم. فاستخرج كتاباً من كمّه فقال: أو ليس هذا كتاباً رواه فلان من هؤلاء الفَعَلة - يعني الشيعة -؟ فنظروا الكتاب، فقالوا: نعم، هو معروف لهم. فاستخرج منه حديثاً فقرأهُ عليهم: إنّ بعض الأئمّة (ر 22 أ) عليهم السلام قال لصاحب ذلك الكتاب: من أدرك سنة كذا من أهل بلدك فليلتمس داعي المهديّ في ليلة كذا - يعني تلك الليلة - فإنّه يبيت في مسجدها. قالوا: سمعنا هذا الحديث. فقال: ترون هؤلاء انصرفوا، فما منهم من ذكر هذا ولا عرفه، فهلمّوا بنا نبطل قولهم ونكذّبهم، فنخرج جميع مَن في المسجد الليلة فلا يبيت فيه/ أحد لنبطل روايتهم. قالوا: نعم.

36

فقام قائم منهم فقال: يا معشر الغرباء، انصرفوا، فليس يبيت أحد منكم الليلة في المسجد على كلّ حال، فإنّ لهذا قصّة لا يمكن معها مبيت أحدكم فيه.

---

(15) الحشويّة: كلمة استهجان تطلق عادة على المشبّهة أو المجسّمة في قضيّة الصفات الإلاهيّة، وأيضاً على نَقَلة الحديث بدون تمحيص. وكأنّها تعني هنا عموم أهل السنّة. يقول ابن حوقل، المنسوب إلى الشيعة، في خصوص سكّان السوس الأقصى بالمغرب: «والمالكيّون فيه هم من الفظّاظ الحشويّة» (صورة الأرض، 90). وانظر فصل «الحشويّة» في دائرة المعارف الإسلاميّة.

قال الداعي المنصور: فرأيت كلّ واحد منهم يضمّ ما كان معه ويخرج. فلم أدرِ إلى أيّ موضعٍ أخرج، وقصدت زاوية من زوايا المسجد فجلست فيه وقلت: لعلّ رجلاً يجيء يمضي بي إلى بيته. وافترقوا يخرجون الناس ويطفئون القناديل. فأتى إليّ رجل منهم وقد أطفىء أكثرها، فقال لي: قم يا رجل! فقمت وقلت: إنّي رجل غريب ولا أعرف موضعاً أقصد إليه، فلعلّك /إن تمضي بي الليلة فتأوي بي (ر 22 ب) إلى محلّك. قال: والله ما عندي موضع. فقلت: سبحان الله، تخرجني من بيت الله وتمنعني بيتك؟ وكأنّه استحيى، ونظر إلى الناس قد خرجوا، فانصرف وتركني، وأغلقوا أبواب المسجد.

فبتّ بليلة طويلة، وخفت أن يُختَبَر المسجدُ من غد. فلم يكن ذلك. وأصبحوا، ففتحوا الأبواب، ودخل الناس وصلّوا وما نظروا في شيء من ذلك.

37

الداعي ابن حوشب يتزيّى بزيّ التجّار

قال الداعي أبو القاسم المنصور رضوان الله عليه: وسألت كلّ من لقيت من أهل اليمن عن عدن لاعة، وكلّ يقول: أمّا لاعة، فموضع معروف، ولكن لا نعرف عدن لاعة، وإنّما نعرف عدن أبين/. فقصدت عدن أبين إذ لم أجد أحداً يخبرني عن عدن لاعة، الموضع الذي وجّهت إليه. فأصبت بعدن أبين قوماً من الشيعة يعرفون ببني موسى، وكنت أخبرت أنّ عدن أبين هي فرضة الهند وأمّ البلدان، وسألت ما الّذي يُحمَل إليها ـ قبل أن أدخلها ـ فقيل: القطن. فاشتريت منه شيئاً يسيراً جعلته معي ليُرى أنّي تاجر، ودخلت مع صاحبي[16] فسألنا عن مكان بيعه، فدُللنا عليه واكترينا حانوتاً في سوقه (ر 23 أ) وجلسنا فيه نبيعه.

---

(16) لم يذكر لنا المؤلف هٰذا الصاحب سابقاً. وهو هنا ينقل الافتتاح 50/15 مع شيء =

فإنّي لجالس يوماً إذ استهلّت السماء بمطر وابل. فإنّي لكذلك إذ نظرت إلى رجال قبالتي في الصفّ ينظرون إليّ ويتحدّثون. ثم قام أحدهم إليّ فوقف وقال: أترى أن تدخل بنا إلى داخل الحانوت؟ فقمت معه. فقال: ما أظنّ هذا وجه بيّاع عُطب[17] يعني القطن. قلت: وكيف ذلك؟ قال: أمَعك علم من علم آل بيت محمّد؟ قلت: أنا رجل تاجر، دعني من هذا. قال: لعلّك تسمع ببني موسى؟ قلت: نعم. قال: نحن منهم، ونحن شيعة، وهذا أوان ننتظر فيه دخول داعي المهديّ إلينا، وإنّا لنجد صفته فيك، فهات ما عندك فنحن اخوانك.

ولم يزل بي إلى أن كشفت الأمر له، وما برح حتّى أخذت عليه العهد. فقام فأتاني بأصحابه فأخذت عليهم. ونقلوني إلى محلّهم، فكنت عندهم. فقالوا: إنّ لنا اخواناً/ من الشيعة بعدن لاعة. قلت: وثَمّ عدن لاعة؟ قالوا: نعم. قلت: وإليها أُرسِلتُ ولم أجد مخبراً عنها.

38

... ويستقرّ عند بني موسى...

فأرسلوا إليها، فأتاني رجال منهم وأخذت عليهم العهد وسرت معهم فأصبت داراً للشيعة. وأخبروني عن رجل منهم يقال له أحمد ابن خليع[18] كان له علم فيهم، وأنّه كان ينتظر قدومي ويقول: في هذا العام يقدم ويدخل بلدنا. فأعدّ (ر 23 ب) سلاحاً لذلك أتوني به.

وكان ابن خليع المذكور هو الداعي في اليمن، واتّصل بابن

= من التقديم والتأخير. وبنو موسى: من شيعة عدن لاعة (ابن خلدون في ترجمة دي سلان، 506/2).

(17) العُطُب بضمّتين: القطن وفي الحديث: لا زكاة في العطب (اللسان).

(18) أحمد بن خليع (من بني موسى): في كتاب الصليحيّون، 32 - 33 اسمه أحمد بن عبد الله بن خليع وأنّه مات في حبس اليعفريّ سنة 268 قبيل قدوم منصور اليمن.

أبي يعفر أمره، فأرسل من أتاه به وحبسه، فمات في الحبس منذ قريب رحمة الله عليه.

قال الداعي المنصور: فأنزلوني في دار من دوره.

.. ويوزّع الدعاة على الجزر: الهيثم إلى السند..

وتزوّج أبو القاسم بعد ذلك ابنة أحمد بن خليع رحمة الله عليه، وبعث بابن أخيه الهيثم[19] بعد ذلك داعياً إلى السند واستجاب له كثير من أهلها.

وأرسل الداعي أبو القاسم أبا محمّد عبد الله بن العبّاس[20]، وكان من أجلّ الدعاة من أهل اليمن، وهو الذي استخلفه على الدعوة بعده، إلى مصر.

.. وابن عبّاس الى مصر

وفيما أتى من الأخبار عن عبد الله بن العبّاس المذكور قال: أرسلني الداعي أبو القاسم إلى ناحية مصر أدعو، فأتيت حيّاً من أحياء العرب، فأصبتهم في جماعة يهنِئون[21] إبلهم، فلمّا رأوني مقبلاً تركوا ما هم عليه وأقبلوا عليّ وقالوا: ممّن الرجل؟ قلت: رجل غريب. قالوا: / ما أردت إلينا؟ قلت: التعليم. قالوا: انزل على الرحب والسعة. وأخذ بيدي شيخ منهم فمضى بي إلى منزلهم وأنزلني عنده وأخلى لي خيمة، وفرش لي فرشاً وأتاني بطعام فأكلت. فلمّا كان من الليل تحدّث (ر 24 أ) معي طويلاً. فلمّا مضى هويّ[22] من الليل قال لي: أناشدك الله لما كشفت لي ما أنت عليه. قلت: أو لم أخبرك أنّي معلّم؟ قال: ما يقع هذا بقلبي.

39

فلم أكشف له شيئاً. وأقام أيّاماً وليالي يسألني سؤالَ من عنده

---

(19) الهيثم. لا نعرف عنه سوى هذا

(20) أبو محمّد ابن العبّاس: ذكره صاحب كتاب الصليحيّون ولم يرد على كلام إدريس.

(21) هنأ الإبل (بوزن نصر وضرب): طلاها بالقطران.

(22) الهويّ من الليل بالفتح أو الضمّ: الهزيع منه.

علم، فما زدت له على ما ابتدأت به من أنّي معلّم. فجمع صبياناً من الذين في الموضع وجلست أعلّمهم. وهو في ذلك إذ جاءني، فقال لي مثل قوله الأوّل وما زال بي حتّى كشفت له الأمر وأخذت عليه البيعة. وكان مِن خير مَن دعوتُه. ودعوت هناك دعوة عظيمة. فكان يقول بعد ذلك: لكأنّما والله أنزل (ط 38) الله لك الهيبة والجلالة في قلبي، وكأنّك لم تأتِ إلاّ لهذا وكأنّ عندي منه علمَ سَبْقٍ.

ورجع هذا الداعي أبو محمد إلى اليمن بعد مدّة، وكان أجلّ الدعاة مع المنصور أبي القاسم، وهو الـذي استخلفه بعـده في الدعوة.

وكان أكثر الدعاة في الجزائر[23] أيّام المهديّ بالله عليه السلام من تحت يدي الداعي أبي القاسم، إشهاراً من وليّ الله لفضله، وتنويهاً بعالي محلّه. ومنهم من أرسله وليّ الله إليه وأمره أن يمتثل أمره فأصدر/ إلى حيث توجّه عن أمره ومن تحت يده وكان أحد الحجج[24] العظمـاء للأئمّـة (صلع) وعنه نشـأت الدعـوة، وكان للداعين إلى أولياء الله (ر 24 ب) القدوة. 40

ومن اليمن كان ظهور دعوة الإيمان، لقول النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «الكعبة يمانيّة والدين يمانيّ»[25].

وأقام الداعي أبو القاسم المنصور رضوان الله عليه عامين في التقيّة. ثمّ ظهرت الدعوة باليمن سنة سبعين ومائتين، فاستجاب له بشر كثير، وقوي أمره وعلا ذكره. وكان مقيماً بقرية من قرى مَسْوَر

---

(23) الجريرة ج جرائر وجزر: مقاطعة الدعوة، وكان للإسماعيليّة اثنتا عشرة جزيرة.

(24) الحجّة: اصطلاح أيضاً، يعيّن مرتبة ووظيفة دون الإمام وفوق الدعاة. انـظر المجالس والمسايرات ص 94

(25) حديث «الكعبة يمانيّة والدين يمانيّ»: لم نقف عليه في المسانيد المعروفة.

يقال لها الحيف[26]، فلم يشعر إلاّ وقد هجم عليه إسحاق بن طريف[27] بعسكر عظيم من ناحية جبل مسور، فقتل من أهل الحيف اثني عشر رجلاً كانوا في محرسها فوق الحيف. فلمّا أقبل بعسكره خرج الداعي المنصور من الحيف بمن معه، والعدوّ محيط بهم، وقد داخل من كان معه الاضطراب والفشل، وهو بينهم رابط الجأش غير مكترث، وكلّ من نظر إليه ثبت قلبه وذهب رعبه.

ونهب ابن طريف أهل تلك الناحية وأحرق القرى.

وسكن الداعي في التهام وعطوة[28] بين أهل الدعوة، فأقاموا بها وقتاً حتى ضاق عليهم الأمر وكثر فيهم الخوف، فاجتمع (ر 25 أ) إليه مشايخ من أهل الدعوة، وسألوهُ حسن النظر والتدبير لهم في أمر يفرّون به/ من عـدوّهم. فعرّفهم أنّ ذلـك لا يكون إلاّ بحصن يلجؤُون إليه ويمتنعون فيه. فعرضوا عليه حصون البلد فاختار منها موضعاً يقال له «عبر محرم»[29] فأمرهم أن يؤازروه لذلك بألف دينار، فأعانه بها خمسة رجال منهم وأحضروها إليه في أقلّ من سبعة أيّام، فأمر منها بشراء الحديد، وأمر بعمل آلة الحجارة والبناء، واشترى سلاحاً وعدداً (ط 39)

41

منصور اليمن (ابن حوشب) يستولي على وسط اليمن: عبر محرم...

ثمّ صعد إلى حصن عبر محرم وأمر ببناء دار له، وأسكن معه من وجوه أهل دعوته خمسين رجلاً، وأمر شيوخ أهل دعوته ببناء

(26) جبل مَسْوَر بسكون السين وفتح الواو. هو الذي يسمّى مسور المنتاب (صفة، 111 تنبيه 1) ومسور أيضاً: حصن من أعمال صنعاء (ياقوت)
أمّا الحيف فلم نجدها.

(27) إسحاق بن طريف: لعلّه ابن طريف بن ثابت مولى اليعفريّ الحوالي صاحب شبام.

(28) التهام: «بلدة من مسور كبيرة آهلة» (صفة، 349 تنبيه 2) وعطوة «مشهور معروف» لا غير.

(29) عبر محرم: يكتفي الهمدانيّ (الصليحيّون، 33) بالقول أنّ منصور اليمن تحصّن به بعد هجوم إسحاق بن طريف عليه. وجبل الجميمة: مجهول كذلك.

دروب الجبل[30]. وأقام وأصحابه فيه أيّاماً ثمّ جمع جمعاً وصعد إلى جبل الجميمة فاستولى عليه وعمره، وغزا بيت ريب - وهو رأس مسور - ثلاث مرّات، فاستولى عليه في المرّة الثالثة. واستقرّ حاله حين استولى على بيت ريب وملك جبل مسور.

... وبيت ريب

ثمّ حارب أهل المغرب قاطبة، واستولى على بلاد عَيَّان وبني شاور وحُمْلان[31]، ثمّ عاد لحرب بلاد حمير، واستولى على ذخار (ر 25 ب) وملك شبام حمير وجبلها الذي هو كوكبان[32].

... وعلى مغربه: شبام حمير وكوكبان

ونكث خراج بن محجن بيعته وغدر في جبل كوكبان فملك الجبل، وحاربه الداعي المنصور حتى نصره الله عليه[33].

وغزا دورم[34] وهي مدينة كانت بوادي صهر متّصلة بالقلعة بينها وبين أفيدة[35] فملكها/ عنوة وهي حصينة منيعة وأخزبها.

42

---

(30) هكذا في المخطوطين ولعلّها: ببناء دور بالجبل
وبيت ريب. حصن ذو عَرَقَة منقطعة عليها قصور لا مسلك لها غير باب واحد (صفة، 345) ولا يزال يحمل اسمه إلى هذا التاريخ (تعليق الأكوع). وفي ياقوت: حصن في جبل مسور

(31) يعني بالمغرب مغرب اليمن ولذلك جاء في عنوان هذا الفصل «ظهور دعوة المهديّ باليمن والمغرب». وقال ياقوت في التعريف بحُملان. موضع باليمن من قُدُم المغرب» وقال في عَيّان بالفتح والتشديد. «بلد باليمن من ناحية مخلاف جعفر». وفي صفة جزيرة العرب، 118 ذكر بلد بني شاور بدون تدقيق

(32) شبام حِمْير: «جبل عظيم صعب المرتقى ليس إليه إلّا طريق واحد، وفيه غيران وكهوف عظيمة جدّاً، ويسكنه ولد يعفر، ولهم فيه حصون عجيبة هائلة» (ياقوت نقلاً عن أحمد بن محمد بن إسحاق الهمدانيّ). وقال في كوكبان: «جبل قرب صنعاء، بينها وبينه يوم وليلة، وإليه يضاف شِبام كوكبان وقصر كوكبان». وفي الصفة، 109 و232. «وجبل ذخار مطلّ على شبام، وهو الجَبل الذي فيه حصن كوكبان» ويضيف صاحب «الصليحيّون»، 35: ويسمّى اليوم «صلع كوكبان».

(33) خراج بن محجن: لم نهتد إليه.

(34) دُورَم بضمّ الدال وفتح الراء: «هو حصن ضهَر من أرض اليمن، وضَهَر على ساعتين من صنعاء» (معجم ما استعجم).

(35) أَفِيدة: لم نجدها في مراجعنا.

وما زال يحوز المعاقل، ويملك مدن اليمن الجلائل، وأقبل الناس إليه طوعاً وكرهاً، ودَخل كثير من بني يعفر وملوك حمير في الدعوة، طائعين وكارهين. وقويت في أرض اليمن دعوته وعلت كلمته.

وصول أبي عبد الله الشيعيّ إلى اليمن

ووصل إليه الحسين بن أحمد بن زكريا صاحب الدعوة بالمغرب المكنّى «أبا عبد الله»، فأنزله عنده وقرّب مكانه، وأقام معه من وقت انصراف الحاجّ من مكّة إلى اليمن إلى وقت خروجهم في العام المقبل، وقد أمره إمامه أن يمتثل مثاله، ويحذو حذوه، ويتبع سيرته، ويقفوه في أعماله وأفعاله، ويأتمر بأمره في جميع أحواله.

فأرسله الداعي المنصور بأمر الإمام عليه السلام إلى بلد كتامة، وكان من أمره ما نحن نأتي في هذا (ر 27 أ) الكتاب بشيء من قصّته، ونشرح بعض جملته[35م].

قال الداعي أبو القاسم رضوان الله عليه: وكتبت إلى الإمام (ص) بما صار أمري إليه، وكانت كتبه ترد عليّ، فلم أزل في ضيق من الأمر، إلى أن ورد عليّ الكتاب بالعهد للمهديّ بالله (صلع) فاستقام الأمر لنا وأتانا الله بالنصر.

فما زالت الأحوال عند الداعي أبي القاسم مستقرّة، والدعوة منه إلى أولياء الله مستَمِرّة، والأولياء فرحين/ جذلين، وأعداؤهم خائفين مخذولين، وهو مقيم للعدل، شاهر لفضل أهل الفضل، آمر بالأعمال الشرعيّة غير مقصّر فيها، عامر للملّة الحنيفيّة في أداني الجزيرة اليمنيّة وأقاصيها، مقيم لفروضها وسننها، جار على واضح منهاجها وسَننها، فعمرت به الدعوة وظهرت، وعلت أخبارها واشتهرت، وأشرقت أيّامه وزهرت (ط 40). 43

ثمّ إنّ عليّ بن الفضل الجيشاني لعنه الله، الذي دخل مع

(35م) وقعت الورقة 26 بيصاء في مصوّرة «ر» فلذلك انتقلنا من 25 إلى 27 مباشرة

المنصور إلى اليمن، نكث عهده، وأراد الله بينه عن الحقّ وبُعده، فاستنزله الشيطان واستهواه، وأضلّه وأغواه، ففارق الدعوة، وخرج من الملّة، وباين (ر 27 ب) المتوجّهين إلى القبلة، وادّعى النبوّة، وافترى على الله وعلى أوليائه مقتدياً بالمضلّين من قبله فكانوا له شرّ أسوة. واستمال الجهّال والرعاع وكانوا له من الأنصار والأتباع، فارتكب المحارم، وأتى العظائم، ومال إلى الإباحات وترك الأعمال الصالحات، وكفر بعد إيمانه، وباء بلعنة الله لكفره وعدوانه، مقتدياً بالمغيرة وأبي الخطّاب الذين قدّمنا ذكرهما في قصّة الصادق والباقر[36] صلوات الله عليهما، فاعلاً كفعلهما في الضلال، مستنزلاً للأغمار والجهّال، مائلاً عن ذات اليمين إلى ذات الشمال. وليست أفعاله الخبيثة بمنسوبة إلى أهل دعوة الحقّ المبين، وأتباع أولياء الله المهتدين، وإنّما عليه عار ذلك وذنْبه العظيم الذي/ اجترحه وجرمه. وعجباً لمن ينسب إلى أهل الدعوة الهادية من أتباع الأئمّة صلوات الله عليهم أفعالَه، ويوهم لديهم ضلاله، وهم إلى الله وإلى أوليائه منه براء، ولا يفعلون ما يفعل، ولا يرون ما يرى، قائمون بالأعمال الشرعيّة من الطهارات والصلاة والصيام (ر 28 أ) مؤتون الزكاة حاجّون إلى بيت الله الحرام، مُتولُّونَ لمحمّد رسول الله، وعليّ وصيّه والأئمّة من ذرّيّته عليهم السلام، مجاهدون في سبيل الله مجتهدون، موفون في أعمالهم وأقوالهم مسدّدون، مجانبون لما حرّمت الشريعة الغرّاء، ملازمون لما فرض نبيّ الله محمّد خير الورى.

مروق عليّ بن الفضل عن الدعوة

44

---

(36) ورد خبر هذين الغاليّين في السبع الرابع، 247 و287. فالمغيرة بن سعيد العجليّ كان من أصحاب الباقر «فاستنزله الشيطان فزعم أنّ الإمام الباقر إلاه وأنّه هو رسوله». وكذلك فعل أبو الخطّاب محمّد بن أبي زينب الأجدع مع جعفر الصادق. ونسبت إليهما فرقتا المغيريّة والخطّابيّة. انظر الإحالات في المجالس والمسايرات، 84، هامش 3. وكذلك الفرق بين الفرق للبغدادي ص 238 و255، ومقالات الإسلاميّين للأشعري، 68/1 و75.

فما الذي يلزمهم من أفعال عليّ بن الفضل اللعين، وهم إلى الله يبرأون منه في دائم الأحقاب والسنين، يلعنونه مع اللاعنين، ويتبعون من دين نبيّهم محمد وآله خير دين؟

وإنّ إبليس قد كان مع الصافين المسبّحين العابدين لله تعالى من الملائكة المقرّبين، فحين كَفَرَ، [و] أخرجه الله من جنّته، وباء بغضب الله ولعنته، لم يلزم الملائكة شيء من أفعاله، ولم يكن منه إلاّ من اتّبعه فضلّ بإضلاله. وقد كفر من كفر من أبناء النبيّين، كقابيل بن آدم، وابن نوح، اللذَين ذكرَهُما [الله] في كتابه المبين/، فلم يلحق نوحاً وآدم شيء من أعمالهما، وبرّأهما الله من بغيهما ومحالهما (ط 41 ـ ر 28 ب).

45

والدين الذي ندين به هو العمل بما أتى به رسول الله صلّى الله عليه وآله، وفَرَضَهُ على المسلمين، لا نترك فريضة من الفرائض، ولا نستحلّ شيئاً ممّا حرّمه الله في ظاهر جليّ ولا سرّ غامض.

ونحن بحمد الله أكثر الناس قياماً بفرائض الإسلام لاتّباعنا من خصّهم الله تعالى بالفضل من إمام بعد إمام، حلالُنا من كتاب الله وحرامُنا، لا نأتي ببدعة ولا نرى في الدين بأهوائنا، وذلك معروف مشهور موصوف لا ينكره إلاّ من أراد البغي علينا والتحامل، ليستميل بذلك كلّ وغد جاهل، وينسب إلى الأفاضل أفعال الأراذل، يريد بذلك أن يصدّ عن السبيل، ويغوي من أراد اتّباع أهل الحقّ فيميل به إلى الضلال والتضليل.

ونقول في ذلك ما قاله الداعي الأجلّ المؤيّد في الدين[37]

(37) المؤيّد في الدين: هو الداعي هبة الله بن الحسين الشيرازيّ. كان داعياً بفارس ثمّ التحق بالمستنصر الفاطميّ بالقاهرة، وبها توفيّ سنة 470. له مؤلّفات عديدة

عصمة المؤمنين قدّس الله روحه: اللهمّ، وكلّ من دعا إلى الإمامة الإسماعيليّة، وانتمى إلى الدعوة الفاطميّة، فنقص واحداً من الرسل، وقدح في شيء من الشرائع والسبل، وأجاز في شيء من مناسك شريعة محمّد (ﷺ) (ر 29 أ): صلاتها وصومها وحجّها وزكاتها وجهادها، أقلّ شيءٍ من الرخصة، أو جوّز في ركن من أركانها أدنى نكتة من الفرصة، من ماضٍ وغابر، وغائب/ وحاضر، اللهمّ فاجعله موقع النقمات، وموضع اللعنات، من أهل الأرض والسماوات. اللهمّ إنّا نشهدك ونشهد ملائكتك أنّنا براء ممّن هذه سبيله، وأنه من المشركين، ﴿ وأَنَّ الله بَرِيءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولُه ﴾(التوبة، 3). اللهمّ، ومن نسب إلينا من ذلك ما لسنا بأهله، وافترى الكذب علينا بعناده وجهله، تدنيساً للأعراض المطهّرة، وتدليساً على الدعوة المنوّرة، فإنّه يا ربّ من المكذّبين بآياتك، المتقلّبين في لعناتك، من أهل أرضك وسماواتك. اللهمّ، فبحقّ كرام أوليائك، في أرضك وسمائك، إلاّ أخذته بالسمع والبصر، وجعلته في دنياه قبل أخراه محلاّ للعبر، كما قلتَ، وقَوْلك الحقّ المبين: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ العَذَابِ ٱلأَدْنَى دُونَ العَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة، 21].

46

الحرب بين منصور اليمن...

وتابع الرسلَ المنصورُ إلى ابن الفضل اللعين الزنديق يعظه (ر 29 ب) ويذكّره وينهاه عمّا أتاه وبالتوبة يأمره، ولسوء المصير في السعير يخوّفه. فحين تمادى في إنكاره، وتناهى في بغيه وإصراره، نابذه الداعي الحرب، وأخرجه من مدينة شِبام حميرَ. ثمّ سار ابن الفضل اللعين بنفسه حتى طلع أكمة تسمّى أكمة الظَلِمة ما بين جبل مَسْور

= منها «المجالس المستنصريّة» المسمّاة أيضاً المئات لأنّها ثمانية مجلّدات كلّ مجلّد يضمّ مائة مجلس. وله ديوان شعر نشره المرحوم محمّد كامل حسين. انظر: إيفانوف، 45 - 47 ومحمّد كامل حسين: في أدب مصر الفاطميّة ص 81.

والمصانع، [38] فلقيه هناك عسكر المنصور وكان بينهم القتال الشديد.

47 وأراد ابن الفضل أن يكون مركزه/ في عقبان فمرّوا إلى هنالك قاصدين، وحال بينه وبين ذلك من لقيه من عسكر المنصور، فصدقهم أصحاب المنصور القتال، فكبر ذلك من نفوس أصحاب ابن الفضل لقوّتهم، وقد ظنّوا أنّ أحداً لا يلقاهم ولا يقاتلهم بذلك. فصبروا لأصحاب المنصور رضوان الله عليه، وما زال بينهم القتال من أوّل النهار إلى آخره حتّى ردّ أصحاب ابن الفضل على الأعقاب، وقتل منهم رجال صاروا إلى أشدّ العذاب، واستشهد من أصحاب المنصور رجال قضى لهم الله بحميد الرجعى وكريم المآب.

... وابن الفضل المارق

ونزل اللعناء أصحاب اللعين ابن الفضل في الظّلِمة ولم يطيقوا جوازها إلى غيرها، فحطّوا أثقالهم (ر 30 أ) فيها، وأقاموا فيها أربعين يوماً، وانتقص أمرهم، وقطع أصحاب المنصور الميرة عنهم حتى أصابهم الجوع الشديد، وأكلوا لحم الحمير والجلود، وبلغ بهم الجهد كلّ مبلغ. وكان أصحاب المنصور يقتلونهم من حول مركزهم بين الشجر وعلى المياه، ويأخذون ما يظفرهم الله به من أمتعتهم. فلمّا رأى ذلك ابن الفضل اللعين وطال عليه، انصرف من الظلمة إلى المصانع، ثمّ إلى الضِّلِع فإلى الأغدار ثمّ إلى العضد فأقام بها أيّاماً، ثمّ انحدر إلى لاعة فأقام/ في موضع يسمّى أعجاز[39]، ثمّ جهّز 48

---

(38) المصانع: «مخلاف باليمن يسكنه آل ذي حوال» (ياقوت). أمّا الظّلِمة بفتح فكسر: بلدة عامرة في غربيّ مسور اتّخذها ابن الفضل قاعدة لمهاجمة منصور اليمن (تعليق الأكوع في ص 111 من الصفة).

(39) مواقع القتال بين منصور اليمن وعليّ بن الفضل ذكر بعضها بدون تدقيق وأهمل بعضها في كتاب صفة جزيرة العرب فجبال العضد مثلاً من أعمال شبام أقيان (ص 123). أمّا الأغدار والأعجاز فلا نعرفها.
وكذلك الجميمة والقبل والحجبة الآتية الذكر.

عسكراً إلى مغربة لاعة. فانتهى إلى المنصور رضوان الله عليه خبره، فكمن بعسكره في ثلاثة مواضع. فخرج أصحاب ابن الفضل، فحين صاروا إلى تلك المواضع الضيّقة بين المكمن غفل عنهم أصحاب المنصور حتى خرجوا من المضيق وثاروا بهم، فالتجأوا إلى جبل كان فوقهم فامتنعوا فيه، وانصرفت الكمن عنهم.

وأصبح ابن الفضل غادياً في أثرهم فصار إلى المغربة، ثمّ خرج منها بعد مدّة حتى صار إلى الجميمة (ر 30 ب)، فأقام بها مدّة أخرى، ثمّ إلى القبل، واجتمع أصحاب المنصور عليهم في قرية تسمّى حجبة فهزموهم، وولّى أصحاب ابن الفضل منهزمين، وكان ذلك بعد صلاة العصر ولم يزل أصحاب المنصور يتبعونهم بالقتل إلى نصف الليل، فقتلوا منهم بشراً كثيراً، وانصرف هؤلاء وهؤلاء، وكانت بينهم بعد ذلك وقائع كثيرة، تركنا ذكر ذلك اختصاراً، إذ لم يكن قصدنا إليه.

وحمى المنصور المغرب وأكثر الجهات من اللعين ابن الفضل. وقوي بعد ذلك أمر ابن الفضل وملك صنعاء، وكان ذلك وقد صار أمير المؤمنين المهديّ بالله في دار ملكه بإفريقيّة، وظهر أمره واشتهر فضله في البريّة. فلمّا بلغه صلى / الله عليه حال هذا اللعين، وأنه قد استفحل أمره، واجتمع إليه أتباعه اللعناء الكافرون، أمر رجلين من أهل دعوته وممّن في حضرته حتّى وصلا مدينة صنعاء، وتسمّيا أنّهما طبيبان حتّى دخل أحدهما على ابن الفضل لعنه الله ففصده وجعل في مفصده سمّاً (ر 31 أ) قاتلاً، وخرج من عنده وبادر الهرب هو وصاحبه. ومات ابن الفضل لعنه الله[40]، وعجّل الله بروحه إلى النار، ولحق بأمثاله من الكفّار والفجّار. وأخذ أصحاب ابن الفضل في

49
مقتل علي بن الفضل غيلة

(40) مات علي بن الفضل سنة 303 مسموماً كما ذكرنا (هامش 4 من هذا الفصل).

طلب الرجلين الذين فصداه، وما زالوا يتبعونهما ويسألون عنهما حتى انتهيا إلى موضع تحت نقيل صيد[41]، فأدركا هنالك وقتلا رحمة الله عليهما، وهناك قبراهما.

قال الداعي حاتم بن إبراهيم[42] رضوان الله عليه في بعض تآليفه: وقبراهما معروفان إلى هذا الأوان.

وانقطع أمر اللعين عليّ بن الفضل بعد موته وتفرّقت أتباعه من الغوغاء اللعناء، ولم يبق أحد على دينه، فلعنة الله عليه وعلى من ينسبنا إليه، فنحن نبرأ إلى الله تعالى من فعله، ونعوذ منه ومن أتباعه، ونتابع اللعنات عليه وعلى من سلك سبيله ممّن تهاون بالأعمال الشرعيّة وأخلّ بالأوامر النبويّة، في قديم الزمان وهلمّ جرّا إلى هذا الأوان.

50 واستقرّ أمر الداعي/ أبي القاسم قدّس الله روحه في اليمن بعد قتل هذا اللعين، وملك أكثر مدّة من السنين، واستخلف عبد الله بن العبّاس في الدعوة بعد موته ونقلته، وجعله خليفته في أهل دعوته.

هجرة جعفر بن منصور اليمن إلى المهدي بإفريقيّة

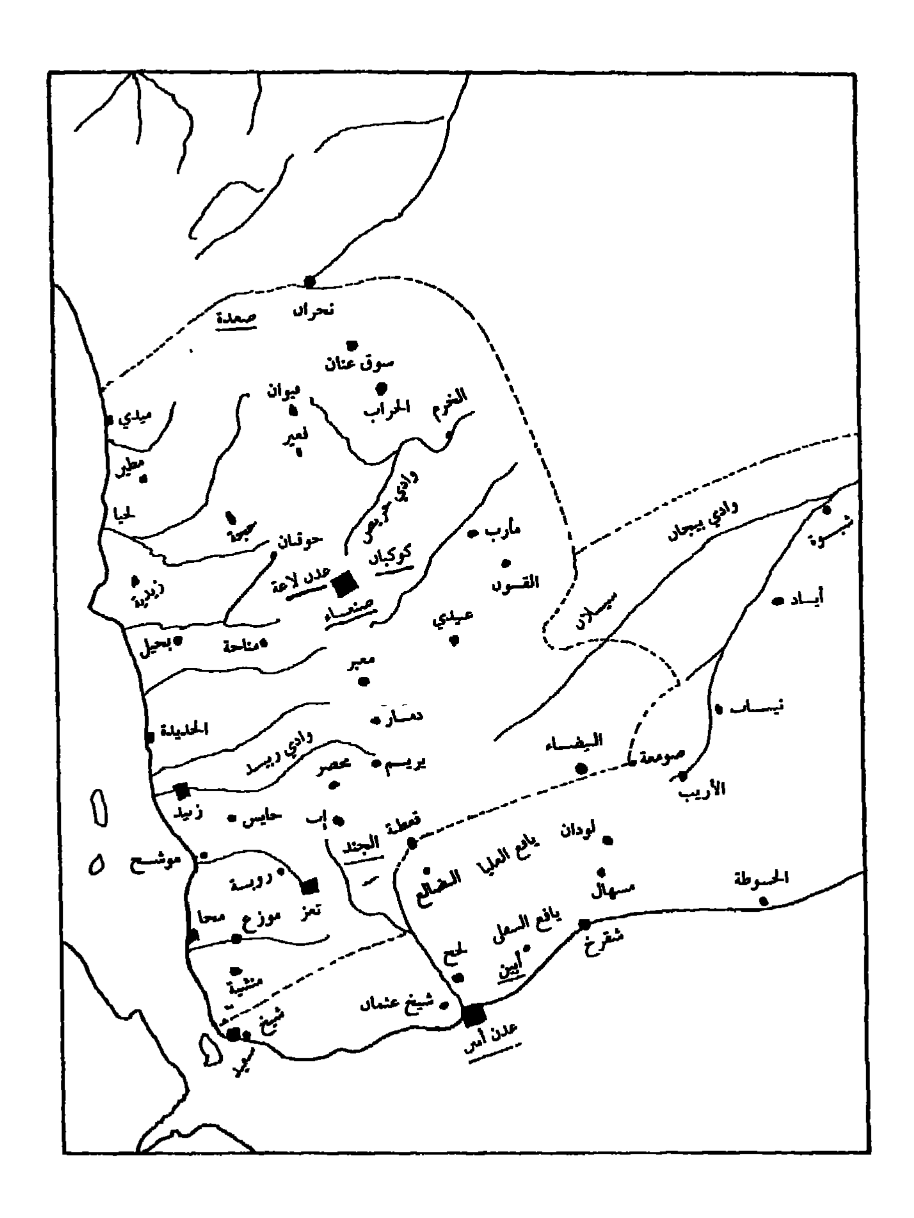
وهاجر ولده الداعي جعفر بن الحسن[43] قدّس الله روحه إلى الحضرة الشريفة النبويّة، وسكن في ظلّ الدوحة العلويّة، وانتهى إلى أن بلغ مبلغاً عظيماً عند الأئمّة (صلع)، وفضل الدعاة، وبلغ إلى مراتب الأبواب[44] الفائزين بعلوّ الدرجات. وسنذكر من قصّته إذا انتهينا إلى ذلك، وبالله نستعين وبمادّة أوليائه الطاهرين.

(41) نقيل صيد. بين الجَنَد جنوباً وصنعاء شمالاً، ويسمّى اليوم صيد سمارة (صفة، 344 هامش 2 والصليحيّون، 206).

(42) الداعي حاتم الحامديّ. انظر هامش 13 أعلاه.

(43) جعفر بن منصور اليمن الداعي ـ الشاعر. يخصّص له الداعي إدريس ترجمة في السبع السادس (34/2).

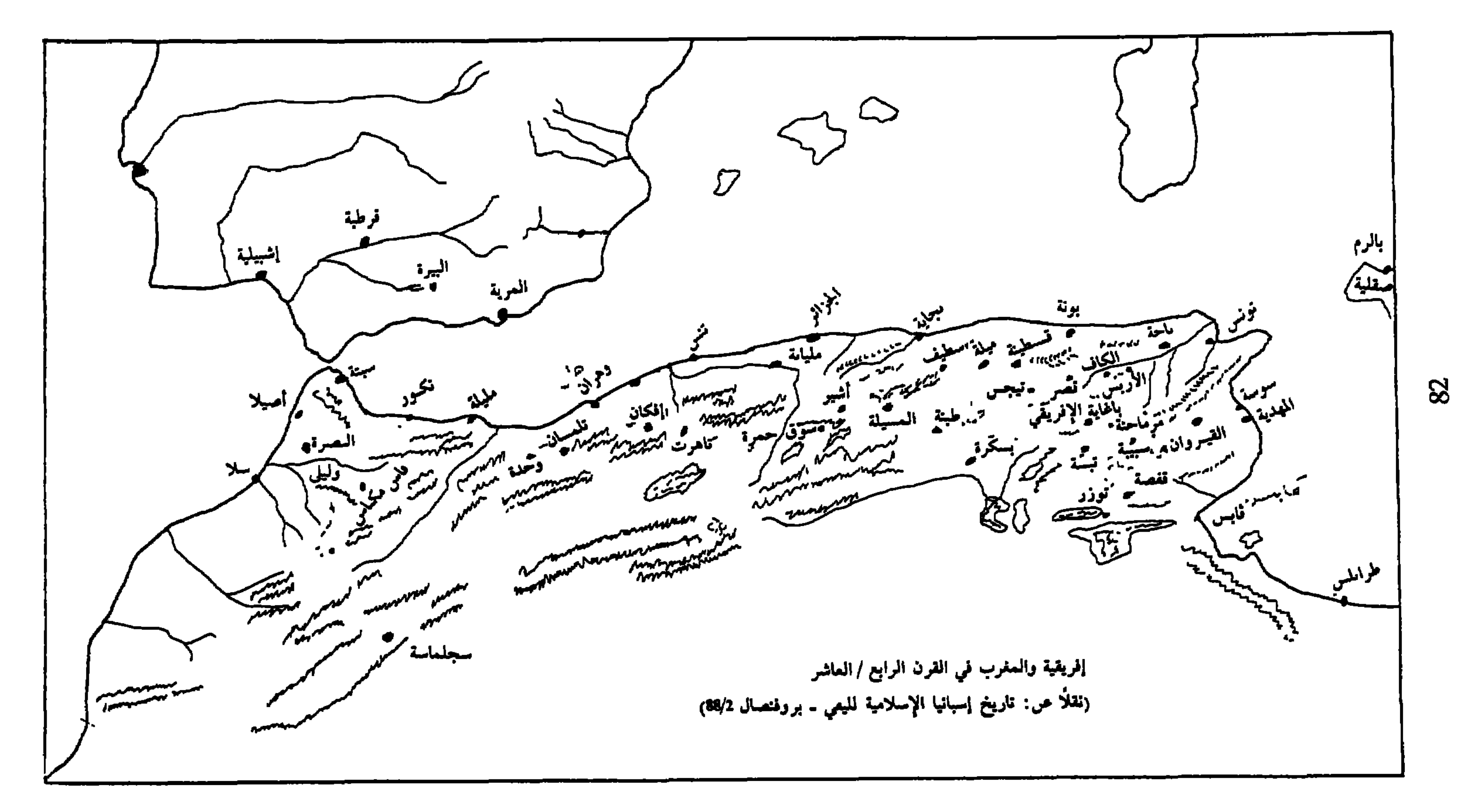
(44) الباب: مصطلح إسماعيليّ يدلّ على مرتبة من الدعوة: مرتبة داعي الدعاة.



دعوة منصور اليمن وعلي بن الفضل باليمن

الفصل الثالث

ظهور الدّعوة بالمغرب



إفريقية والمغرب في القرن الرابع / العاشر

(نقلاً عن: تاريخ إسبانيا الإسلامية لليفي - بروفنصال 88/2)

وأمّا ظهور الدعوة بالمغرب إلى أن ظهر المهديّ بالله (صلع)،

فإنّ أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن زكريا أُرسِل إلى اليمن، على ما قدّمنا ذكره، وقدِم على الداعي أبي القاسم منصور اليمن، فأدنى مكانه، ورفع منزلتَه، وأقام عندَهُ من انصراف الحجّ من مكّة إلى اليمن، إلى وقت خروجهم إلى الحجّ من العام المقبل، يشهد مجالسَه، ويخرج معه في غزواته فلا يفارقُه. فلمّا حضر وقت خروج الحاجّ من أهل اليمن إلى الحجّ، خرج أبو عبد الله إلى مكّة معهم، وأخرج الداعي أبو القاسم معه من قِبَله /رجلاً استصحبَهُ (ر 32 أ) إيّاه وآزرَهُ به، بحسَب ما جرت به سيرة الدعاة أن يكون مع الواحد منهم من يختصّه ويختارُهُ ليخلفَه إن حدث به حدَثٌ من أمر الله الذي لا محيصَ عنه ولا مفرّ منه[1].

أبو عبد الله يتعلّم طرق الدعوة عن منصور اليمن

51

وكان المنصور رضوان الله عليه إذا بعث أحداً لأمرٍ، لم يشعر

---

(1) أسقط إدريس من كلام النعمان (افتتاح، 60/31) هذه الفقرة: «فصحبه إلى أن وصل بلاد كتامة» فصار القارىء يتوهّم أن ابن أبي الملاحف صحب أبا عبد الله إلى مكّة لا غير.

ونلاحظ عرضاً أنّ محمّد الطالبيّ (الإمارة الأغلبيّة، 599 والترجمة العربية، 657) نقل من كلام النعمان فقرة لا توجد في طبعتي الافتتاح: «ولم يزل (ابن أبي الملاحف) يعلّم (أبا عبد الله) إلى أن وصل إلى بلد كتامة وقد تغيّرت الجملة في الترجمة.

به أحد من أهل ولا ولد، ولا يُدرى أين توجّه. وكان الذي سار مع أبي عبد الله (ط 45) [عبد الله] بن أبي الملاحف. وكانت له والدةٌ فقدت عقلَها لمّا فقدَته وخولِطت، فرقّ لها الداعي أبو القاسم فأرسل له فرجع إلى اليمن. وبعث إلى أبي عبد الله رجلاً يقال له إبراهيم بن إسحاق الزبيديّ[2] من أهل اليمن، ليكونَ معه عوضاً من ابن أبي الملاحف.

وقيل إن الداعي أبا عبد الله لمّا ودّع المنصور وخرج من عنده، نظر إليه وهو مُوَلٍّ عنه وقال: إنّ بين كتفَيه لنجاةَ خلقٍ عظيم.

اتّصال أبي عبد الله بالحجيج الكتاميّين

ولمّا وصل أبو عبد الله مكّة مع الحجيج، قضى حجّه في جُملتِهم. وجعل أبو عبد الله يمشي بِمنى، فمرّ على جماعةِ رجالٍ من كتامة ممّن حجّ تلك السنة، وهم في رحالهم، وفيهم من الشيعة الذين كانوا (ر 32 ب) تشيّعوا بأسباب الحلوانيّ، وقد قدّمنا ذكره[3]. فجلس أبو عبد الله إليهم، فسمِع منهم رجلَين، وهما حريث الجيملي، وموسى، يذكران لأصحابهما فضائل/ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عم)، فذكر شيئاً من ذلك معهما، فأقبل عليه جميعُهم، وحدّثهم طويلاً ثم نهضَ ليقوم، فقاموا معه ومشَوا بمشيه، وجاء بهم إلى رحله. ولمّا كان من غدهم، أتَوه فحدّثَهم وأوسع في الحديث فازدادوا فيه رغبةً وعليه إقبالاً. وكانوا يسمعون منه في كلّ يوم حديثاً لم يسمعوه فيما قبل ذلك. فازدادت إليه رَغبتُهم ومالت نحوَه

52

(2) يضيف النعمان: افتتاح، 61/32 أنّ إبراهيم هذا كان يعرف بالهواريّ «ويلقّب بالسيّد الصغير» ـ أمّا السيّد مطلقاً فهو أبو عبد الله ـ وأنّه زاغ عن الدعوة لما عاد إلى اليمن.

(3) في السبع الرابع، 324 - 325، خبر الداعيين أبي سفيان والحلوانيّ الذين أرسلهما جعفر الصادق إلى إفريقيّة سنة 145. وقد تعرّض محمّد الطالبيّ إلى نشاطهما بالتفصيل (الإمارة، 574 والترجمة العربيّة، 630).

قلوبُهم، وسار معهم حتى انتَهَى إلى مصر، فأظهر لهم الرغبة في المُقام هناك، فقالوا له: ما يقيمُكَ هُهُنا، وليست ببلدك، ولا نرى شيئاً من التجارة معـك؟ فقال: أطلب التعليم. فَـابتَهَجُوا لـذلك وقالوا: ما نرى بلداً واحداً أجدى عليـك في التعليم من بلَدِنا، وجعلوا يخبرونه [بـ] ـتعظيم أهل بلدهم للمعلّمين وقالوا: انظر ما تأمل أن تجمعه في كلّ سنة من أجرة التعليم، فنحن نزيد فيه على مالك، وندفع إليك منه الآن ما شئتَ من أجرة سنةٍ (ر 33 أ) وسنتين.

مسير أبي عبد الله إلى بلد كتامة

فأظهر لهم في ذلك أمراً بين الأمرين، وهم في ذلك يتطارحون عليه، ويزدادون رغبةً إليه حتى أجابهم إلى المسير معهم، فسرّوا بذلك سروراً عظيماً وقالوا: إنّا لنأتي إلى بلدنا بما يكون به الفخرُ لنا، ممّا لم يجـ[ـيء] به أحدٌ سوانا/. وقالوا: ما نراه (ط 46) يصلح إلا لتعليم الشيوخ دون الصبيان. وجمعوا له دنانيرَ حين أزمع معهم على المسير، فامتنع عليهم من أخذها، وحاولوه على ذلك بكلّ وجهٍ فأبى عليهم وقال: لم يكن منّي إليكم ما يوجب ذلك، فإذا كان، قبِلنا منكم. قالوا: فامنُن علينا بقبول هذا. فامتنع من ذلك في تلطّف وشكـر لهم. فعـظُمَ في أعينهم، وزادت هَيبتُـه في صـدورهم. فخرجـوا من مصر وأرادوا حمـلَ مؤنته فـأبى عليهم وسايرهم على ما كان عليه، وكلّ يوم يعظم أمره لديهم ويزداد جلالةً في أعينهم.

53

توقّفه عند سماتة

وكان طريقهم من طرابلس إلى قسطيلية لأنّها الجادّة، ولم يدخلوا إفريقيّة[4]، حتّى إذا ساروا إلى سوجمار[5] من أرض سماتة،

---

(4) إفريقيّة، أي القيروان. وكثيراً ما يختلط اسم البلاد باسم حاضرتها عند القدماء. وفي تنكّبه القيروان اختلاف. انظر تحقيقات وداد القاضي في طبعتها للافتتاح، 68 هامش 3.

(5) سوجمار: «غير بعيد من قسنطينة على وادي الرمل» حسب تحقيقات موسى لقبال =

تلقّاهم أهل الموضع فأنزلوهم عندهم (ر 33 ب) ولقِيهم حريث وموسى وأصحابهُما[6] فأخبروهم بخبر أبي عبد الله. ونظر السماتيّون إلى تعظيم الكتاميّين له فرغب كلّ واحدٍ منهم في مبيته معه حتّى رموا عليه بالسهام، فخرج في سهم أبي عبد الله الأندلسيّ[7] فنزل عنده. وأتاه أبو المفتّش وأبو القاسم الورفجوميّ[8] مع حريث وموسى من الليل، فتحدّثوا مليّاً عنده، ووجد لديهم من المعرفة والفهم أكثرَ ممّا رآه لمَن صحبَه، وأصاب عندهم من علم/ الشيعة وفضل أهل البيت (عم) أصْلاً قويّاً. فلمّا كان آخرُ مجلسهم وأرادوا القيامَ، نظر إليه أبو المفتّش فقال: «والله إنّي أظنّك صاحبَ البذر[9] الذي كان يذكره الحلوانيّ» وأخبره بخبره وقام. فقال أبو عبد الله لأبي عبد الله الأندلسيّ: «شيخ كويّس»[10]، يعني أبا المفتّش. وقال أبو المفتّش لأصحابه بعد أن خرج: «لولا واحدة كان الحلوانيّ يقولها، ما تخالجني الشكّ أنّ هذا الرجل هو الذي كان الحلوانيّ يذكره ويبشّر به». 54

قالوا: وما هو؟

= (دور كتامة. . .221، هامش 11). لكّن محمّد الطالبيّ (الإمارة، 575، هامش 3) يجعلها بين قالمة غرباً وبوشقوف شرقاً قرب منجم الناطور. وتساءل عن قرابتها من قرية سجرمة الحاليّة (ص 576 هامش 4). وانظر الترجمة العربيّة ص 632.

(6) موسى بن مكاد أو تكاد في الكامل وعند ابن خلدون. وابن مكارمة عند الطالبيّ، 600 والترجمة، 641 هامش 112.

(7) هو أبو عبد الله محمّد بن حمدون ابن الأندلسيّة، عمّ جعفر ويحيى أميرَي المسيلة زمن المعزّ.

(8) عند الطالبيّ، 586 هامش 4 والترجمة، 643، أبو حيّون بن المفتّش. أمّا أبو القاسم الورفجوميّ فغير معرّف.

(9) حديث البذر: ذكره الداعي إدريس في السبع الرابع، 325: «المغرب أرض بور، فاحرثاها إلى أن يأتي صاحب البذر فيبذر فيها».

(10) كويّس: تصغير تلطّف من كيّس (فُيَعل).

قال: إذا وصفه قال: في فيه إصبع.

فبلغ ذلك أبا عبد الله فتبسّم وقال: هذا ما لا يكون. (ط 47 ـ ر 34 أ).

ولمّا أخذ العهد على من سمع ذلك القول مِن أبي المفتّش واشترط [الكتمان]، وضع إصبعه على فيه وقال: هذا هو الإصبع الذي كان الحلوانيّ يقول: آمركم بالصمت والكتمان. أمّا رجلٌ يكون في فمه اصبع فلا.

دخول وجوه كتامة في الدعوة

قالوا: كذلك والله هو.

وبان لهم الأمر. ولمّا انصرف القوم بقِي أبو عبد الله الأندلسيّ، وكان ذا فهم وحدّة ومعرفة. فما زال أبو عبد الله يحدّثُه ويجدُ عندَه ما يريد حتى كشفَ له الأمرَ وأخذ عليه العهد. فيقال إنّه ما زال[11] الحديث بينهُما طولَ ليلتِهما حتّى صلّيَا/ الفجر بطهر انعِشاء الآخرة، وقال أبو عبد الله الأندلسيّ لأبي المفتّش: أظنّ الذي قلت في هٰذا أنّه صاحب البذر الذي ذكر الحلوانيّ. وكان أبو المفتّش ممّن أدرك الحلوانيّ وسمع حديثه وأخذ بعـ[ـهـ] ـده من رجاله. وقال أبو عبد الله الأندلسيّ: قد رأيت أن أصحبَ هٰذا الرجل ـ يعني أبا عبد الله ـ وأتعرّفَ ما عنده.

55

قال أبو القاسم الورفجومي: وأنا معك.

وكان أبو المفتّش قد كبر سنُّه وضعُف جسمُه فقال لهما: «إنني لا أستطيعُ السفرَ معكما (ر 34 ب)، لكن متى وقفتُما فيه على أمر كتبتُما إليَّ فتحمّلتُ إليه». ونظر حريث وموسى من رغبتِهِم فيه ما زادهُما غبطة به، وساروا جميعاً حتى دخلوا بلد كتامة.

---

(11) ما زال هنا تفتقر إلى خبر، او تعوّض بـ: دام. ويزيد المؤلّف على رواية النعمان ويغيّر فيقع في الرطانة.

فلمّا وصل بلد كتامة رغب كلٌّ في مُقامه عنده، وآل أمرُهم إلى أن يخيّروه. فقال لهم: في أيّ موضع منكم فجّ يسمّى فجّ الأخيار؟

فنظر بعضهم إلى بعضٍ كأنّهم يرونَه قد عرف ذلك وقالوا له: عند بني سكتان.

فقال: إليه نقصد، ثمّ نأتي كلّ قوم منكم إن شاء الله في مواضعهم ونزورهم في بيوتهم.

فسار أبو عبدالله ومعه أبو عبد الله الأندلسيّ وأبو القاسم الورفجومي وحريث وموسى حتى انتهَوا إلى فجّ الأخيار. فقال: هٰذا فجّ الأخيار؟

قالوا: نعم.

56 وقال / له موسى وحريث: من أين عرفتَ ذلك؟ فما علمنا أنّا ذكرناه لك؟

فقال لهم: البلدان توصفُ للناس ولم يرَوها.

وكان بعد ذلك يقول لهم: والله ما سمّيَ هٰذا الفجّ إلاّ بكُم. ولقد جاء في الأخبار أنّ المهديّ بالله (عم) تكون له هجرة ينبُو فيها عن الأوطان، في زمان محنةٍ وافتتان، ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان: قوم مشتقّة أسماؤهم (ر 35 أ) من الكتمان. فأنتم هم كتامة، وبخروجكم من هٰذا الفجّ سمّيَ فجّ الأخيار.

وصول الداعي إلى إيكجان

وكان وصول الداعي أبي عبد الله إلى بلد كتامة يوم الخميس للنصف من شهر ربيع الأوّل سنة ثمانين ومائتين[12] (جوان 893). ونزل أبو

---

(12) في سنة 288 حسب مصادر أخرى، منها ابن خلدون، 32/4. وانظر تحقيقات محمّد الطالبيّ: الإمارة، 588 هامش 3 والترجمة، 645 هامش 128، ووداد القاضي: افتتاح، 71، هاشم 3.

عبد الله في إيكجان[13] موضع بني سكتان. فأقبل الناس إليه من كلّ مكان. وجلس لهم وحدّثهم بظاهر علم الأئمّة (عم) في فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والأئمّة من ذرّيته صلوات الله عليهم، فإذا رأى الواحد منهم بعد الواحد قد لقن عنه، وأحسّ فيه ما يريده، أخذ عليه العهد. فأخذ على أبي القاسم الورفجوميّ وعلى حريث وموسى. وقال له حريث: ما كان أغفَلَنا عنك في طول سفرنا معك!

أبو عبد الله يعيّن الدعاة في فروع كتامة: ورفجومة وجيملة

وأتاه هارون بن يونس - وهو أبو موسى المسالتي الذي كان يقال له/ شيخ المشايخ - من مسالتة فدعّاه[14].

57

وجاء الحسن بن هارون الغشمي من غشمان تازروت، فأخذ عليه العهدَ واستجاب له. وكان شابّاً عاقلاً وسيماً كريم الأخلاق، من أهل الجِدَة واليسار، وكانت له أفعال جميلة وفضائل مذكورة.

.. وغشمان وإجّانة

وجاءه من اجانة[15] أبو يوسف ماكنون بن (ر 35 ب) ضبارة، وابنُ أخيه تمام ابن معارك أبو زاكي. ورأى من تمام بن معارك فطنة ونباهة ورغبةً في العلم وحرصاً عليه، فوقف بين يديه يخدمه لا يفارقُه، واشتهر أمره.

---

(13) إيكجان: حدّد موسى لقبال (دور كتامة، 154) موقعها بين قسنطينة جنوباً وميلة شمالاً وسطيف غرباً. وقرّبها كثير من الباحثين المعاصرين من مدينة سطيف. وقد ناقش محمّد الطالبي، ص 600، هامش 4 والترجمة، 657 هامش 169، مختلف النظريّات نقاشاً طويلاً، ورأى أن يقرّبها من قلعة ميلة. ولم يفته أن يقارن بين دعوة أبي عبد الله ودعوة الرسول (ﷺ) فسمّى إيكجان «مكّة» الدعوة وتازروت «مدينتها».

(14) شيخ المشايخ: هارون بن يونس كما جاء في الافتتاح، 73 (بيروت) وعند الطالبيّ، 660/603، إلاّ أنّه يسمّيه في ص 617: هارون بن يوسف.
ودعّاه بالتضعيف: جعله من الدعاة وهي قراءة الدشراوي في طبعته للافتتاح.

(15) في خصوص بطون كتامة، ينظر محمّد الطالبيّ: الإمارة الأغلبيّة، 595 - 596 والترجمة ص 650 وما يليها، فهو يلخّص قول ابن خلدون وغيره ويرجّح بين الآراء.

ثمّ عرضت له علّة حصاة كانت تعتريه فسار معه رجل من سكتان إلى ميلة يريد بها الحمّام، فقصد فندقاً فيها كان لفرجون مولى موسى بن عبّاس صاحب ميلة فنزل فيه. ويلغ موسى بن عبّاس خبرُه وأنّه قد نزل ميلة وأنه في فندق فرجون، وفرجون قائم بين يديه، وهو من جملة عبيده. وكان فرجون ذا همّة وأنفة، وله مَن يحميه من أولاده ـ قيل إنّه ركب في عشرين فارساً من أولاده ـ فقال له موسى مولاه: «اذهب فجئني بهٰذا الرجل من فندقِك!» فجاشت لذلك نفس فرجون مولى موسى بن عبّاس إذ كان ضيفه وقد نزل في جواره. فأمر مَن أعلم أبا عبد الله الداعي وأمره بالخروج عجِلاً/، فخرج خائفاً مترقّباً. ورجع فرجون إلى مولاه فقال: «إني وجدتُه قد خرج فرجع إلى إيكجان».

خروجه إلى حمّام ميلة للتداوي

58

وأقبل إليه الناس من كلّ ناحية ومكان، وتسامع الناس أنّه يدعو إلى دين باطن لا يعلمونه، وأنّ (ر 36 أ) من دخل في أمره لم يظهر ما عنده من باطنِه فإذا سأله أخصّ الناس به عن ذلك قال: «أَبلُغْ تُوقِنْ»! وكانت تلك هجّيراهم، إلّا أنّها ظهرت فيمن اتّبعَه أفعال حميدة من المحافظة على الشريعة والعفّة والأمانة وصلة الرحم وترك الظلم ومجانبة الحرام، وإقامة شرائع الإسلام. فازداد الناس إليه رغبةً وبه مِقَةً[16] وأقبلوا إليه من كلّ وجهٍ. وكلّ من جاءه دعّاه وانصرف إلى بلده واختلف إليه[17] وسمع منه، ورأى منه أهل بلَده الأفعال الحميدة من الإقبال على الصلاة والصيام وأعمال الخير وتجنب المعاصي وصلاح الأحوال، وكان قدوةً لكثير من أهل بلده. فدخل الناس في الدين ومالت إليه قلوبهم أجمعين.

---

(16) المقة من ومق: المحبّة.

(17) اضطراب في ترتيب الجمل هنا وكذلك في الافتتاح، 76/53. والصواب أن نؤخّر عبارة «وانصرف إلى قومه» حتى نربطها بحكم أهل بلده فيه.

وانتشرت الدعوة في بني سكتان وأخلَوا مجلساً للسماع وكانوا يقومون بضيافة مَن يأتيه ويرِد عليه وينفقـون في ذلك، رغبةً في الثواب، وتقرّباً إلى الله العزيز الوهّاب. وكان المؤمنون يحملون إليهم ما يستعينون في/ النفقة. يرجون بذلك الله سبحانَه. 59

وصار من وصل إلى الدعوة في قومهم كالنجوم في أفعال الخير يشار إليهم بالأصابع، وتعجّب الناس من حسن أحوالهم، وسوء حال كثير منهم قبل اتصالهم بالدعوة، وكيف صار بهم الحال بعد ذلك ديناً وعبادةً، وفضلاً وزهادةً.

صاحب ميلة يحاول القبض على الداعي

وعظم الأمر على موسى بن عبّاس[18] صاحب ميلة، وخاف من أبي عبد الله وحسده على إقبال كتامة عليه، ﴿وأَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾ (البقرة، 206)، فأرسل إلى بني سكتان وطلب منهم وصول[19] أبي عبد الله إليه، وزعم أنّه يريد أن يجمع العلماء إليه للمناظرة، وهو يضمر له المكر، ويروم به الغدر. فنفروا من ذلك وقالوا: «ما كنّا لِنُمَكِّنَه من ضيفنا ولا لنسلِمَه إليه!». فتلطّف بهم وخوّفهم عواقبَ الأمور، وأن ينتهي أمره إلى إبراهيم بن أحمد صاحب إفريقيّة[20] فيُنهضَ إليه العساكر وينالهم بالمكروه. فأغلظوا في الجواب.

فلمّا يئس منهم حاول أن يضربهم بغيرهم من كتامة، فأنفُوا أن يكون لصاحب ميلة يد على أهل بيوتاتهم، فلم يحصل له مرامُه منهم. (ر 37أ) وبلغ أمر أبي عبدالله إلى إبراهيم بن أحمد صاحب إفريقيّة فكتب إلى موسى بن عبّاس يسأله عن ذلك فضعّف موسى أمره،

---

(18) في مخطوطنا: عيّاش. وأخذنا بقراءة الافتتاح، وكذلك فعل محمد الطالبيّ.

(19) الفصيح: إيصال، والداعي إدريس كثيراً ما يستخدم المصدر في غير محلّه وفي الافتتاح: أن يرسلوا، وهو أحسن بكثير.

(20) هو إبراهيم الثاني الأغلبيّ (261 - 289) الذي ابتنى رقّادة.

وخاف، إن قَدِمَ إبراهيم بن أحمد أن يُوقِعَ به أو يعزلَهُ ففطن إبراهيم
60 ابن أحمد لأمر /موسى وعرف أنّه يتّقيه لذلك وأنّه خافه. فكتب إليه وبعث بابن المعتصم المنجّم وأمره أن يتلطّف ليوصله إلى أبي عبد الله الداعي وأمره أن يختبر أحوالَه ويأتيَه بصحّة من خبره وأوصاه بما أراد. فبعث موسى بآبن المعتصم سرّاً إلى أبي عبد الله على يد أحدِ بني سكتان كما أمره إبراهيم. فقرّبه أبو عبد الله الداعي وأقبل عليه. فقال له ابن المعتصم:

إنّ الأمير إبراهيم بن أحمد وجّهَني إليك. وأمرني أن أبلّغَك عنه. وأنا رسول، فإن أذنتَ لي في تأديةِ ما أرسلَني به إليك، أدّيتُ.

قال له أبو عبد الله: هاتِ ما عندك ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إلاَّ البَلاَغُ المُبِينُ ﴾ (النور، 54).

قال: وأنا آمِنٌ؟

قال: وأنت آمنٌ.

قال: يقول لك الأمير: ما حملك على التعرّض لسخطي، والتوثّب في ملكي، وإفساد رعيّتي، والخروج عليّ؟ إن كنتَ تبتغي عَرَضاً من أعراض الدنيا فإنّ ذلك ممّا تجده عندي، (ر 37ب) إن تلافيت نفسَك ورجعتَ عن غيّك. فاقدم إليّ فأنت آمن. فإن أَردتَ المُقامَ ببلدي أقمتَ، وإن أحببت الانصرافَ إلى الموقع الذي جئتَ منه، انصرفتَ. وإن كان قصدُك قصد من سوّلَت له نفسُه الخلافَ على

رسالة إبراهيم الثاني إلى أبي عبد الله.

61 الأئمّة، واستفساد جَهَلَةِ الأمّةِ، فقد لعلّك عرفتَ ما/ كانت عواقب مَن منته نفسُهُ أمنيَتَك، وسوّلَت له ما سوّلَتْ لك نفسك، من الهلاك العاجل قبلَ سوء المصير الآجل. فلا يغرّنّك إقبال هؤلاء الأوباش عليك واتّباعُهم إيّاك. فلو قد صَرفتُ وجهي إليك لأسلَمُوك وتبرّؤُوا منك. واعلم أنّي إنّما أردتُ الإعذارَ إليك لاستظهار الحجّة عليك،

وهٰذا أوّل كلامي لك وآخره، لن أقبل بعده لك توبةً ولا أُقِيل لك عثرةً، ولا أجعل جوابَ ما يكون منك إلاّ النهوضَ إليك بنفسِي بجميع أبطال رجالي(21) وأنصار دولتي وجملة أهل مملَكتِي. فعند ذلك تندم. وإن جَمَحْتَ الآن في الغيّ حين لا تنفعك الندامة، ولا تُقبل منك التوبة، فانظر في يومك لغدك، وقد أعذر مَن أنذر.

قال أبو عبد الله: قد قلتَ فاسمع (ر 38 أ)، وبلّغتَ فأبلغْ! قل له: أمّا ما ذكرتَه من التهديد والوعيد، فما أنا ممّن يُروَّع بالوعيد والإيعاد، ولا ممّن يهوله الإبراقُ والإرعاد. وأمّا تخويفك بأنصار دولتك ورجال مملكتك أبناء حُطام الدنيا، وذئاب طمعِها، الذين يرتاعون لكلّ بارقٍ، ويجيبون كلّ داعٍ وناعقٍ، فإنّي في أنصار الدين وحماةِ المؤمنين، الذين لا تردعهم كثرة/ أنصار الظالمين مع قول الله (تع)، وهو أصدق القائلين: ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ، واللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة، 49).

جواب أبي عبد الله . . .

62

فَأمّا ما أطمَعَ به من دنياه وعرَضه من حُطامها، فلستُ من أهل الطّمع فأميلَ إليه، ولا ممّن يرغب فيما عنده فآتيَه، وإنّما بُعثتُ لأمرٍ حُمَّ وقَرُب، وانتجاز وعدٍ من الله (عج) سبق، واللّٰهُ لا يُخلفُ الميعاد، ولا يظلم إلاّ مَن ظلمَ نفسَه من العباد. فإن سوّلَت له نفسُه ما توعّد به ودعَته إليه، فسوف يعلم أنّ الله من ورائه (ط 52)، ولن تُغنيَ عنه فئةٌ وإن كثُرت، والله مع المتّقين.

. . يدعو الأغلبي إلى الدخول في الدعوة

فهٰذا جواب ما جئت به فبلّغهْ! ثم تحمل رسالتي إليه، وأبلِغْهُ عنّي ما حمّلتُك إيّاه، وقل له: إنّي أدعو إلى الله، وإلى كتابه، وإلى إمام الهدى دعوَة مُحتجّ عليه وراغبٍ فيما ينجيه. فإن قبل عنّي رشد، وإن عنِد، فقد قدّمت العذر إليه. ولو كانَ صاحبي، لعجّلت

(21) في المخطوط: رجالي وأبطالي، والإصلاح من الافتتاح.

السيرَ نحوَه، ولكِنْ له ولمَن بعده متاعٌ إلى حين، حتّى إذا بلغ الأجل وحان الحَين فـ﴿ سَيَعْلَم الّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون ﴾ (الشعراء، 227).

ثمّ صرف أبو عبد الله الرسولَ أحسن انصرافٍ على أفضل حال، فبلّغ إبراهيمَ قولَه وأخبرَه عن صفتِه. فأضرب إبراهيمُ عن/ ذلك وعلم أنّه صاحبُ قطع دولتهم. وكان إبراهيم يُعنى بعلم الحدثان، وما يأتي في الزمان. وإنّما بعث إليه ليختبرَ أمرَه. فلمّا بلغه وَصْفُه أُسقط في يده، وعلم أن ملكه صائر إليه. وكان إذا ذُكر له في الملإ، أظهر التهاونَ به، وإذا ذكر له في الخلاءِ مع خاصته قال: «إنه والله لو دخل على هذه المدينة من باب لخرجت بين يديه من بابٍ آخر. والله لكأنّي أنظر إلى أكيسة أصحابه منشورة (ر 39 أ) على شرفات قصري هٰذا!». 63

أصل عبارة «مشارقة»

واشتهر أمر أبي عبد الله بإيكجان وسمّي «المشرقيّ» لقُدومه من المشرق، ونُسب إليه مَن اتّبعه فسُمّوا «المشارقة». وكان إذا دخل الواحد منهم في دعوته قيل «قد تشرّق».

ورأى الناس من صلاح مَن دخل في دعوته وإقبالهم على الصلاة والصيام وأعمال البرّ ونزوعهم عمّا كانوا عليه من الفساد، ما زادهم رغبة في أمره وحُسنَ ظنٍّ به، فسارع الناسُ إليه. وأطلق الدعوةَ لمَن ارتضاه منهم في قبائلهم.

بعض رؤساء كتامة يغارون من أبي عبد الله...

فلمّا نظر الرؤساء من القبائل ووُلاة البُلدان ذلك، ولم يرَوا نهضةً من إبراهيم بن أحمد في أمره، خافُوا زوال رِئاسَتِهم من أيديهم، وأن يغلب أمره عليهم، فكتب بعضهم إلى بعض وتراسلوا، فاجتمعوا وتعاقدوا. وكان ممّن تعاقد على ذلك:

موسى/ بن عبّاس صاحب ميلة، 64

وعلي بن عسلوجة صاحب سطيف (ط 53)[22].
وحيّ بن تميم صاحب بلّزمة،

وهؤلاء أمراء هذه المدن، عندهم العُدّة، وفيهم العَدد والنجدة. ووالاهم على ذلك:

... فيجمعون على مقاومته

فتح بن يحيى المسالتي، وكان يقال له «الأمير»، (ر 39ب)[23].
ومهدي بن أبي كناوة رأس لهيصة،
وفرح بن جيران رأس إجانة،[24].
وفحل بن نوح رئيس لطاية،
وزياد المتوسي رئيس متوسة،
وهؤلاء، مع رئاستهم، أبطال يعدِل كلّ واحدٍ منهم كتيبةً[25]

بنو سكتان يرفضون تسليم أبي عبد الله

فاجتمعوا فأداروا الآراء في الفتك بأبي عبد الله إذ رأوا أنّهم لا يتمكّنو[ن] أن يأخذُوه عَنوةً من بني سكتان. وقالوا: إن أغضبناهم قامت جيملة معهم، فكان ذلك أمنعَ له وأشدَّ لقوّته، وجعلنا له أنصاراً من قبائل كتامة مع الذين معه. فاجتمع رأيُهم أن يقصدوا في أمره بيان بن صقلان[26]، وهو يومئذٍ وجهُ بني سكتان - ولم يدخل في أمر أبي عبد الله - وأن يبذلوا له ليستميلوه. فأتَوه بكلّ وجهٍ وحيلة، فقال لهم بيان: «إن هٰذا الرجل قد نزل بين أظهرنا فصار ضيفاً عندنا، فلا ينبغي لنا أن نُسلمَه». وقال لهم بيان: «إنّ من الرأي أن نجمع العلماءَ لِيُناظروه/، فإن كان على حقٍّ فما أولانا وإياكم 65

(22) عند الطالبيّ، 665/608: علي بن حفص بن عسلوجة.
(23) في الجميع (المخطوطان والمطبوع): فتح بن موسى، وسيصحّح الاسم في ص 76.
(24) فرج بن حيران عند الطالبيّ، 665/608.
(25) في المخطوط: «يعدّ كلّ واحد نفسه لكتيبة»، والإصلاح من الافتتاح، 95/81.
(26) عند الطالبيّ، 665/608: بيان بن صقلان. وأخذنا بقراءة الافتتاح

جميعاً بنصره، وإن كان على باطل، عرف ذلك مَن اتّبعه فرجع عنه، وَوسِعنا وأمكَنَنا وإيّاكم ما أردتم من إخراجه (ر 40 أ) أو أخذه»، فانصرفوا على ذلك لمّا لم يجدوا عنده غيره.

ثمّ إنّهم قالوا: «إنّا نخشى أن تقوم حجّتُه فيكون ذلك أقوى لأمره وتزول رئاستنا بسببِه» فدبّروا أمرهم على أن يمضوا في جماعة ويُظهروا أنّهم أتَوا بالعلماء، فإذا خرج إليهم قبَضُوا عليه وانصرفوا. فاجتمعوا وساروا في جماعة عظيمة وعدّة قويّة. فلمّا رآهم بنو سكتان ثارت فيهم الصيحة، وركبوا خيلَهم، وأخرجوا رَجلَهم وعُدّتهم، وتلقّوهم. وتواقف الفريقان. فقالوا لبيان: إنّا أتيناك لما كان بيننا وبينك.

(ط 54) قال: ما كان هذا بيني وبينكم. وإنّما قلنا: تأتون بالعلماء فيناظرو[ن] الرجل. فنراكم جئتمونا تريدون أن تنتزعوه منّا بالغلبة والقهر.

المتآمرون يعودون إلى استدراج شيخ بني سكتان

66

وعلا الكلام بينهم، وكان فيهم جماعة من الأولياء فهجموا فيهم فالتحمَ القتال بينهم. وكان للأولياء في ذلك اليوم مَقام لم يُشاهد مثلُه، فانهزم الجمع وولّوا على أعقابهم مدبرين، وعادوا منهزمين. وخاف الأولياءُ على أبي عبد الله فاستتر. وعادت الجماعة فأداروا رأيهم فلم (ر 40 ب) يروا إلّا معاوَدة بيان، فأرسلوا إليه وقالوا: «إنا أخطأنا حين أتينا بالجمع، ولم يكن ذلك من قصدنا، وإنّما تسامع بنا الناس فأتْبَعُونا، وقد رجوناك في إصلاح جماعتِنا وحقن دمائنا، فقد عادى، من أجل هٰذا الرجلِ، الأخُ أخاه، والابنُ أباه، والقريبُ قريبَه. وهٰذه فتنة قد بدَت، وبليّةٌ قد عرت، فاكتسب الأجرَ، وأحْسِنِ النظرَ: فهٰذا رجل من أهل المشرق، وهم كما علمت، شياطين، وعلماؤنا بربرٌ لا يجدون حجّة، أفترانا نحن وآباءنا وأهل المشرق والمغرب على ضلال، وهٰذا وحدَه من بين

بيان بن صقلان يدعو قومه بني سكتان إلى ترك الداعي...

الناس على هدى؟ ومع هٰذا فإنّه يدعو إلى سرّ مكتوم، وأمر غيرِ معلوم، ولو كان حقّاً لأبداه، وأظهرَه، وما أخفاهُ». وجعلوا يكرّرون القولَ على بيان، ويعِدونه أن يكون المقدَّمَ عليهم والرئيسَ فيهم. فأصغى إليهم، ووعدهم أن يتلطّف في إخراجه. وجعل يكلّم أصحابه وأهل بيته، ويخوّفهم العواقبَ. وقال: «قد كانت واحدة لكم فيها الظفر، والحرب سجال، ولا تأمنون أن تكون الأخرى عليكم. فأخرجوا هٰذا الرجلَ عنكم من غير أن يصلَ إليه ضيم ولا إليكم!» (ر 41 أ).

67

واتّصل قول بيان بن صقلان بأبي عبد الله وبجماعة من المؤمنين، وعلم ذلك الحسن بن هارون الغشمي، وكان قد دخل في الدين، وفيه عقل، وله حُسن خلق وأدب، وهو ذو كرم نفس وهمّة، وطاعة في قومه. ومسكنه بتازروت. فأتى أبا عبد الله فذكر له ما اتّصل به، وسأله الكون بتازروت عنده، ورغب إليه في النقلة إلى مكانه، ووعدَه الذبَّ عنه والمدافعةَ دونَه بأهله وماله. فشاور الأولياء في ذلك فأشاروا به عليه، خلا بني سكتان: فإنّهُ عظم الأمرُ عليهم فقالوا: «نحن ندفع عنك بأنفسنا حتّى نُقتلَ جميعاً من دونك». فشكر لهم قولهم. ورأى له جماعة المؤمنين أنَّ كونَهُ عند الحسن بن هارون أعزّ للدين وللمؤمنين.

فيتكفّل به بنو غشمان

فخرج أبو عبد الله الداعي إلى تازروت، وخرج معه من المؤمنين من استطاع النقلة من بني سكتان. وهاجر إليه جماعة من المؤمنين، واستخلف على الضعفاء منهم، ومَن لم يستطع السيرَ معه، الحكم بن تماست[27]. وصار أبو عبد الله إلى تازروت فتلقّاه مَن

(27) في الافتتاح، 100/88 وعند الطالبيّ، 610 هامش 3: الحكم بن ناسب. وأبقينا على قراءة المخطوطين.

الهجرة من إيكجان إلى تازروت

بها من المؤمنين (ر 41 ب) وغيرهم. وأنزلوا مَن كان معه عندهم، وقام الغشمانيّون بمَن اجتمع إليه ومن معه. ورأى لديهم من الغبطة والسرور ما سرّه. وأقبل المؤمنون من كلّ ناحية إليهم، وجعل كلّ واحدٍ منهم يأتي بما يستطيعُه ويمكنُه، تَقْوِيَةً للمؤمنين، ووزراً لهم. وبذل الحسن/ بن هارون أموالاً ووسّع على المؤمنين.

68

وقرُب أبو عبد الله حين صار بتازروت من إجانة وملوسة ولهيصة ولطاية وجيملة، فتسارب إليه الناس، وظهر أمرُه وعزَّ جانبُه، واجتمعـ[ـت] غشمان على نصره ومنعه. وعظم شأن الحسن بن هارون بما فعل من ذلك، وعلا ذكرهُ.

وكان للحسن بن هارون أخ يقال له محمود، أسنّ منه، فوَجَدَ في نفسه لعلوّ أخيه عليه وانصراف الرئاسة نحوه، وكان قبلَ ذلك المقدّمَ لسنّه، المُطاعَ في قومه. فشقّ ذلك عليه وتكلّم فيه. وكان أخوه الحسن يداريه ويتلطّف به خوفاً أن يفرّق جماعة غشمان، ويدخل بينهم الشتات (ر 42 أ).

رؤساء الجبهة يستنجدون بابن أبي كناوة اللهيصيّ

فلمّا صار أبو عبد الله بتازروت وقوِي أمرُه، اجتمع الجماعةُ الذين اجتمعوا أوّلاً للحيلة في أمره وأتوا مهديّ بن [أبي] كناوة [اللهيصي] وكان أشدُّهم فيما عقدوا عليه. فذكروا له ما بلغهم عن محمود بن هارون وقالوا: «هو جارُك وصديقك، فلعلّك أن تستميله فيمكّننا ممّا نُريده». فركب مهديّ إلى محمود وقال له: «لقد أعجبَت أخاك نفسُه وترأّس عليك (ط 56) مع ما لك من الرئاسة والسنّ والتقدمة في قومك، وما نراه إلا وقد اغتصبك أمرَك ومالت إليه العيون وأعانه هٰذا الرجل المشرقيّ، وقد/ استراح منه بنو سكتان. فلو فعلتم كفعلهم لاسترحتُم وكانت لك رئاستُك دونَ أخيك».

69

فقال محمود: لا نجد السبيل إليه إلاّ أن نجمع العلماء

ليناظروه، فعسانا أن نجد منه المخرج إن قامت حُجَّتُهم عليه.

فانصرف مهدي إلى القوم فأخبرهم بذلك فقالوا: ومن ذا يناظره من علمائنا؟ أنت ترى الواحد من جُهّالنا إذا دخل في أمره ناظرهُم فقطعهم، فكيف به في ذات نفسه؟ (ر 42 أ).

جماعة الجبهة يحتالون على غشمان بتنظيم مناظرة مزعومة في الدين

فقال لهم مهديّ: لم أجد من محمود غير ذلك، وقد رأيتُ منه رغبةً في قتله، ومَيلاً إلى ما وعدناه من التقدمة، مع ما قد تداخله من حسد أخيه. وما علينا أن نأتيَ بالعلماء؟ فإذا أخرجوه قتلناه، فمتى فعلنا ذلك، كان بعدَه ما عسى أن يكون، وقد قطعنا أصْلَ الداء.

فاجتمع على ذلك رأيهم وأرسلوا في طلب العلماء في جميع النواحي واختاروا من أبطال الرجال وحُماتِهم مَن يكون مع العلماء، وقالوا: «لا نجيءُ في احتفال كما جئنا إلى بني سكتان فيكونَ من ذلك مثل ما كان».

الداعي ينصح بملاينة محمود الغشميّ 70

واتصلت أخبارهم بالحسن بن هارون وبأبي عبد الله. فقال له أبو عبد الله: «يجتمع جماعة بني غشمان على محمود فيذكرون له ما اتّصل بهم ويحذّرونه، في ذلك، العارَ والنقصَ وسوءَ العواقب، ويقدّمونه عليهم، ويرفعون من شأنه ما قدروا». ففعلوا ذلك وأتوه وأثاروا حميّته وخوّفوه العارَ، وقدّموه عليهم وأرضَوه بما ركن إليه منهم.

وأقبلت الجماعة على ما أبرموه، في عدّة وعدد (ر 43 أ) وقد أجمعُوا بينهم أن يمكروا بالداعي أبي عبد الله. فلمّـا رآهم محمود أمـر غشمان فاستعدّوا وركبوا خيلهم، وقال أبو عبد الله للمؤمنين: «اركبوا معهم، وإن قدرتم أن تلقحوا الحرب فافعلوا!». فلمّا التقَوا، قالت الجماعة لمحمود: «هؤلاء العلماء، قد جئنا بهم»، وعزلوهم ناحيةً.

فقال محمود: نجمع بينهم وبين الرجل مع عشَرة من وجوهكم وخياركم لننظر ما يكون من أمورهم.

فانحلّ ما عقدوه، وانتكث ما أبرموه وقالوا: وما عليك أن تخرجه إلينا حتى يشاهدَ الجماعةُ منّا أمرَه وأمرَ العلماء، فيكونُ ذلك أشهر في الناس وأظهر، ويطّلعَ الجميعُ على الخبر؟

قال لهم محمود: إنّا نخشى غدركم، هذا لا يكون منّا إليكم ولا نفعلُه لكم.

... فينقلب محمود على المتآمرين ويقاتلهم فيقتل

فارتفع اللغط بينَهم، وظهر لمحمود مكرُهم. فحمل فيهم وحمل الأولياء والتحمَ القتال. وغضب محمود، وقاتل الأولياءُ قتالاً لم يرَ مثله، وجرح محمود فماتَ. وسرَّ ذلك الأولياءَ وأظهروا (ر 43 ب) الطلب بثأره وصفت الرئاسة لأخيه الحسن بن هارون واجتمعت غشمان عليه فصاروا إلباً واحداً[28]، ودخل في الدعوة عامّتُهم[29]

71 واشتعلت الحرب ما بين غشمان ولهيصة بسبب قتل محمود بن هارون. وأظهر أبو عبد الله نفسَه، وكان يشهد الحرب ويباشرها. وكان جميع المؤمنين من كتامة أنصاراً لغشمان، وقام الجميع من القبائل مع لهيصة[30].

بطش مهدي بن أبي كناوة بالأولياء...

وكان مهدي بن أبي كناوة من الأبطال المشهورين في الحرب أولي النكاية، وكانت الجماعة تقدّمه على كافّة قبائلها لِمَا يعرفون من شجاعته ونكايته. وكان أخوه أبو مديني قد دخل الدعوة وهاجر إلى أبي عبد الله وكانت له بصيرة ونيّة صالحة. وكان مهديّ أشدّ

---

(28) الألب: الأحلاف على عدوّ مشترك.

(29) أي: من لم يدخلوا في الدعوة من قبل

(30) في الافتتاح، 106/95 . [كان] الجماعة المخالفون أنصار لهيصة. وهو أوفق للمعنى، ولعلّها: المتحالفون.

فارس في عصره وأهوله منظراً. روى القاضي النعمان بن محمد قال: «يقال انّه كان أشعَرَ البدن كلّه، هائل المنظر، شديد الضربة. فيقال إنّ الأولياء احتالوا عليه في بعض تلك الحروب وقد زحف إليهم واشتدّ القتال، (ر 44 أ) وفي موضع القتال مقبرة فيها قبور محجور عليها فأدخلوا فيها له رجّالةً من أشدِّ ما قدروا عليه، وقدّموا إليه فارساً ليجرّه إليهم، فشتمه وأَغْضَبَه فحمل عليه فانهزم له الفارس إلى موضع الرجّالة، فرماه مهديّ برمح فأصابه وأنفذه وسقط الرمح بين يدي الفارس فظنوا أنّه أخطأه وما علموا أنّه أصابه حتى رأوه سقط عن (ط 58) دابته وخرج الرجّالة على مهديّ فأخذوا عنانه وأحاطوا به وحملت الخيل فضرب في الرجالة ففرّقهم ومنع نفسه من الخيل وخلص منهنّ. وكان أمرُه ذلك اليومَ أعجوبةً لم يرَ الناس مثلها. وإنّما يكون مثل هٰذا ويعجب منه في الرمي بالنبل: فإنما تنفذ الرميّة ويخرج النبل منها لا يصيبه الدم لشدّة الضربة وسرعة خروج السهم عن القوس.

72

... يحملهم على الاحتيال لقتله...

وفي الحديث عن النبيّ (ﷺ) في الخوارج قال: «يمرقون كما يمرق السهم من الرميّة»، أي: لا يتعلّقون منه بشيء كما لا يعلق السّهم بشيءٍ من الدم. فأمّا رمح (ر 44 ب) يخرج من كفّ رجلٍ فينتهي إلى مثل ما ذكر فهذا شيءٌ ما سمع به في الغابرين من الأوّلين والآخِرين[31].

وطالت الحرب بين القوم، ولقِي المؤمنون من مهدي بن أبي كناوة الأذى وأكثر منهم القتل، ولم يستطع فارس أن يلقاه ويردّ

... لكنّه ينجو في كلّ مرّة...

(31) هنا ينتهي النقل المباشر عن الافتتاح، 106/96. ولا ندري لماذا صرّح الداعي إدريس بالنقل عن القاضي النعمان في هذه المناسبة، مع أنّ روايته للأحداث تلازم دائماً رواية الافتتاح ولا تختلف عنها إلّا ببعض التقديم والتأخير أو الحذف والتغيير.

بأسه. فلمّا رأى[32] أبو مديني إلى تمادي أخيه في البغي وسدوره في ثوب الغيّ، اغتمّ لذلك وساءه، وكان ربّما يواقفه فيعظه ويذكّره، ويدعوه إلى الله ويحذّره، فلم يزده ذلك إلاّ غيّاً وبُعداً وتمادياً. فلمّا رآه لا ينصرف عن ذلك، دبّر في قتله، وأن يحتال في ذلك حتى يُخلّص الأولياءَ من شرّه، ويدفع عنهم عظيم بأسه ومكره. فاجتمع معه فتى من لهيصة[33] كان قد دخل في الدعوة وهاجر إلى تازروت فيمن هاجر من المؤمنين، فأجمعا على أن يمكرا به ويخدعاه ـ والحرب خدعة ـ وتعاقدا على ذلك وقالا: نرجو أن يصرعه الله شرّ صرعة.

73

فلمّا التقَوا في الحرب خرجا ناحيةً ودعَوَا به فأقبل إليهما. وكلّمه أخوه كما كان يكلّمه حتى إذا أنس به ودنا منه (ر 45 أ) ضربه كلّ واحدٍ منهما ضربة رجل واحدٍ فاختلفت فيه رماحهُما وسقط إلى الأرض، فحمل عليه الأولياء، وحملت عليهم لهيصة ومَن معها، فاشتدّ بينهم القتال، واستنقذته (ط 59) لهيصة وحملته، فمات من جراحاته تلك بعد أن وصل موضعه.

... فيمكر به أخوه أبو مديني فيخلّص منه الأولياء.

واصطلحت غشمان ولهيصة بعده، وتلاقَوا على الدين، فقوِي أمر المؤمنين واشتدّ، وحاربوا مَن يليهم من القبائل، وشنّوا الغارات على مَن بعد عنهم، وجاء إليهم الناس من كلّ حدب ينسلّون، وفي سرّهم يدخلون.

فاجتمعت الجماعة مرّةً أخرى حين رأوا ظهورَ أمرِ أبي عبدِ الله، وانقطاع أمر لهيصة عنهم، وقتلَ مهديّ. فلم يروا لهم رأياً غير المناجزة، فمشى بعضهم إلى بعض ومشوا إلى القبائل

---

(32) في الافتتاح: نظر إلى.. وهي أفصح.

(33) هذا الفتى يسمّيه القاضي النعمان: لاوة بن صوحان: (افتتاح، 107/97).

واستنفروا العامّة واستعدّوا للحرب وأجمعوا على أن تنتقل القبائل بعيالاتهم ويحاصروا أبا عبد الله ومن معه حتى تسلّمه غشمان إليهم.

74 واتّصل الخبر بأبي عبد الله، فأمر جميع الأولياء أن ينتقلوا إلى تازروت، فانتقلوا من كلّ ناحية. وجاءت كتامة من أطرافها (ر 45 ب) لحرب أبي عبد الله ومحاصرته، ومَن معها من القبائل في جمع عظيم. فأرسل إليهم الداعي أبو عبد الله جماعة من غشمان يسألونهم الموادعة على أن يكونوا كغيرهم من المسلمين مع أبي

أبو عبد الله يعرض الصلح على رؤساء الجبهة...

عبد الله، [فـ]ـمَن أحبّ أن يدخل في دينه من القبائل فليدخل، ومن أحبّ أن يرجع إلى ما عليه العامّة فليفعل. فأبت عليهم القبائل ذلك وقالوا: «لا نقبل منكم إلاّ أن تسلّموا إلينا هٰذا الرجل فنحكمَ فيه بحُكمنا». فأتى الأولياءُ إلى أبي عبد الله وسألوه أن يكون مستتراً

... فيأبون إلاّ قتاله.

وقالوا له: «إن ظهرنا على القوم أظهرتَ أمرَك، [و] إن غُلِبنا، كان لك عِوضُنَا من غيرنا». فجزاهم خيراً وأسمعهم جميلاً، وحضّهم على الجهاد والصبر، وتلا عليهم قولَ الله (تع): ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة، 249). ووعظهم في مجلسٍ عظمت بركته، وأطلعَهُم على كثير من الحكمة وبيانٍ من التأويل، فقوِيَت بصائرهم وثبتت قلوبهم، وقام أبو عبد الله الأندلسيّ قائماً على قدميه، ابتهاجاً بما سمع [من ذلك ورأى من المؤمنين فقال: «والله لقد ثبت أمرُ الله فيكم كما ثبتت هٰذه في هٰذا ـ وأومأ إلى أُذُنِه ورأسه ـ والله، لو قابلتُمْ هٰذه الجبال ـ وأشار إليها ـ بهٰذه النيّات، لأنزلتُموها!»][34]. وعرّفهم (ر 46 أ) أبو عبد الله أنّه على ثقة من ظهور دين الله وعزّ أوليائه، فسرّهم ذلك. ورأى فيهم

(34) زيادة من الافتتاح، 102.

75 نيّـة صـادقـةً فقـال/: «والله، لـو قـاتلتم الجبـال بهٰـذه النيّـاتِ لأزلتُموها!».

تكوين الجيش الشيعيّ بتازروت..

وانصرفوا عنه فأعدّوا عدّتهم، وأخرج كلّ واحدٍ منهم ما عنده من سلاح (ط 60) وكراع فأتَوا به وحملوا [من] الرجالة منهم على الخيل من كـان يحسن الـركـوب، واشتـرَوا العـدّة لمن لا عُـدّة لــه، واعترضوا[35] فبلغوا سبعمائة فارس وزهاء ألفَي راجلٍ.

.. لقتال المتآمرين.

وقاتلوا الجماعة في أوّل يوم فقتلوا منهم فارساً من حماتِهم وأُولي النكـاية منهم، وانصـرف الأولياء سـالمين، فقوِيت قلوبهم واشتدّت عزائمهم. ثمّ عاودوهم من غدهم، فقتل من الجماعة عدد كثير، وافترقوا، والأولياء لم يُصب منهم أحدٌ، فزادهم ذلك ثقة بالله وبنصره. وعاودوهم في اليوم الثالث في أوّل النهار، فأقام القتال بينهم إلى وقت صلاة الظهر، واشتدّوا، وكلب بعضهم على بعض، وأبلى غزوية بـن يوسف يومئذٍ بلاءً جسيماً، وكان في الرجّالـة، وجُرح جرحاً انقطع له صوتُه. ولمّا مال الفيءُ وزالت (ر 46 ب) الشمس، ضرب غزوية بن يوسف راجلاً كان أبلى في القتـال من رجالـة الجمـاعة فقتله، وحَمَـلَ الأولياء، وأجهـد الجماعـة أن يستنقذوا صاحبهم فحيل بينهم وبينَه، وشدّ عليهم الأولياءُ فاستوت الهزيمةُ فيهم، وتتبّعهم الأولياءُ يقتلون منهم ويحرقون ديارهم ويغنمـون أموالهم، إلى أن حال الظلام بينهم، ولم يكشفوا عورة ولا تعرّضوا لأمرأة مسلمة. وانصرفوا إلى مكانهم وقد امتلأت أيديهم من الغنائم بعد أن انهزم الجمع وولّوا الدبر وتفرّقوا فَرْقاً وتمزّقوا مَزْقاً، ولحق كلُّ قوم منهم بأماكنهم، وملك الأولياءُ أموالَهم وما في أيديهم بعد أن قتلوا منهم قتلاً ذريعاً. فيقال فيما رواه القـاضي النعمان بن

غزوية بن يوسف الملوسيّ يجرح فيفقد صوته...

76

... لكنّه يعود إلى القتال فيحرز الأولياء به النصر

(35) اعترضوا: أي عرضوا صفوفهم وعدّوها وهيّؤوها للقتال.

محمد، قدّس الله روحه، إنه بيع في ذلك اليوم عشرون جمَلاً بدينار[36]. فأمّا الغنم والأمتعة والعبيد والأموال، فما لم يطيقوا حملَه، ولا [عرفوا] كيف يسوقون ما غنموا من الأنعام. وغنموا من الخيل ما لا يحصَى عددُه، وانصرفوا إلى تازروت.

الأولياء يستقرّون بتازروت...

ثم إنّ أبا عبد الله ابتنى قصراً بتازروت (ر 47 أ) وسكنه بنفسِه وبنى الأولياءُ حولَه، وارتحل إليه المؤمنون فحلّوا معه وقطنوا وأمنوا. وقوِي أمرُهم واستأمن كثير من القبائلِ إليهم، وحاربوا مَن عاندَهم. فما كان يوم إلاّ ولهم فيه وقعةٌ، وملكُ بلدٍ، وحلولُ ساحةٍ.

... ويشنّون الغارات على القبائل المتحالفة...

وحارب أبو عبد الله فتح بن يحيى ومَن أطاعَه من مسالته وغيرهم، وكانوا يذهبون مذهب الإباضيّة، وليس في كتامة من يذهب إلى ذلك غيرهم. وهرب فتح بن يحيى في جماعة/ معه إلى سطيف. ثمّ إنّه استأمن من أبي عبد الله فأمّنه. ثمّ هرب فتح إلى عجيسة، وجمع جموعاً منهم ومن غيرهم. وبلغ ذلك أبا عبد الله فقصد بالعساكر نحوه ومرّ على سطيف ولم يعرض لمَن فيها.

77

.. فيفتحون حصن وشنوك على مسالتة وعجيسة

وانحصر فتح في قلعة منيعة يقال لها وشنوك[37] فأحاطت العساكر بها وقاتلوهم عليها فكانوا يطرحون الصخرة العظيمة فتقتل من أصحاب أبي عبد الله رجالاً كثيرة ويسمع لها دويّ كدويّ الرعد، فإذا رآها أبو عبد الله غطّى على وجهه بكمّه لكي لا يرى ما يصاب به الأولياء (ر 47 ب).

وما زالوا بها حتى فتحوها وقتلوا أكثرَ مَن كان فيها، وقتل

(36) ويضيف الافتتاح، 109: وبيع الجمل بخمس بصلات.

(37) في الافتتاح اسمان لهذه القلعة: توبر/ وشنوك (طبعة الدشراوي، 112) نوبوا/ وشنوك (وداد القاضي) وعند الطالبيّ، 675/617. أهانو- رومشنو- الك، مع إحالة إلى مخطوط الافتتاح.

تصولا أخو فتح، وهرب فتح، وغنم الأولياء منهم مغانم كثيرةً. وانقادت عجيسة وزواوة للداعي أبي عبد الله، وجميعُ كتامة، وانصرف إلى تازروت. ولحق فتح بن يحيى بإفريقيّة إذ لم يجد ملجأً دونها، فقدم على أبي العبّاس ابن إبراهيم بن أحمد[38] من بني الأغلب صاحب إفريقيّة يحرّضه على أبي عبد الله. فقال له أبو العبّاس: أوَلَـمْ تجتمعوا في عساكر عظيمة فلم تصنعوا شيئاً؟

انضمام عجيسة وزواوة إلى الدعوة

أمير مسالته يستنهض الأغلبيّ، بدون جدوى

فقال: ليس أمرنا من أمرك في شيء: نحن نقاتل بلا رأس، ونقاتل مَن يعرفُنا من أهل بلدنا. ولو جاء عسكر السلطان لكان /فيه هيبة وعدّة، ولانصرف إليه الأكثر ممّن مع أبي عبد الله.

78

فأضرب عنه أبو العبّاس.

واستولى أبو عبد الله على عامّة كتامة، وانتشرت الدعاة فيها من قِبله، ولم يبق إلاّ مَن دخل في دعوته، راغباً أو راهباً، وذلك بعد أن كانت لأبي عبد الله وقائع كثيرة وأخبار مشهورة قمع بها المعتدين (ر 48 أ) وأدخل الناس طوعاً وكرهاً في الدين. وأمر الداعي أبو عبد الله بالعدل، وأجرى من اتّبعه على الحقّ وأمرهم بإقامة الشريعة ونهى عن الظلم، فلم يكن عنده في شيء من ذلك هوادة ولا رخصة. وكان إذا وجب على أحدٍ حقّ أو لزمه (ط 61) قتل جعل ذلك إلى أقرب الناس إليه فكان هو الذي يقتله ويقيم من الحقّ عليه ما حكم به الشرع الشريف وأوجبه. فاستقامت الأحوال وظهر العدل وأمن الناس أماناً لم يسمع مثله.

أبو عبد الله يقيم الشرائع الصحيحة

ولقد روى جعفر الحاجب رحمة الله عليه، في سيرته التي ذكر

(38) يرى محمد الطالبيّ ـ وفقاً لما عند ابن خلدون ـ أنّ أمير إفريقيّة لا يزال إبراهيم الثاني، وأنّ لجوء فتح المسالتي إلى إفريقيّة كان قبل شهر ذي القعدة 289 (الإمارة، 617، هامش 4 والترجمة، 675 هامش 205).

فيها خروجَ الإمام المهديِّ أمِير المؤمنين سلام الله عليه من مستقرّه، وانتهاءه إلى دار هجرته، وظهورَ دعوته ـ ممّا نحن ذاكروه ـ قال: «لمّا صار مولاي المهديّ بالله (عم) إلى قسطيلية. تقدّم إلـيّ أن أطلب له حجّاماً[39] وقال لي: اجهد أن تجده غريباً. (قال) فخرجتُ/ فلقيت حجّاماً عليه أثرُ السفر. فقلت له: أغريبٌ أنت؟

79

شهادة حجّام بسيط على استقرار الأمن والعدل في إيكجان وتازروت

قال: نعم.

فقلت: متى وصلت هٰذا البلد؟

قال: في يومي هٰذا.

فجئت إلى المهديّ (عم) وعرّفته أنّه غريب. فلمّا رآه سأله عن اسمه وعن بلده، وهل هو حرّ أم[40] مملوك؟ وكذلك كانت عادته (عم) إذا رأى شخصاً لا يعرفه، لم يكلّمه ولم يؤانسه حتى يسأله عن اسمه ونسبه وبلدِهِ. فلمّا سأله عن جميع ذلك، عرّفه الرجل أنّه من أهل إفريقيّة من القيروان، وأنّه غاب عنها مدّة طويلة في بلد كتامة، ومنها وافى إلى تازروت[41]. قال له: كيف استطعت دخول بلد كتامة والمُقامَ فيه، على ما قيل فيه من الفتن وتغيّـر السنّن؟

قال له: والله يا مولاي، ما لله ورسوله سنّة صحيحة إلاّ ببلد كتامة.

قال له المهديّ (عم): هذا خلاف ما وردت به الأخبار من كلّ الجهات عن الرجل الخارج بها، فقد قيل فيه غير ذلك[42].

---

(39) في سيرة جعفر الحاجب، 117: مزيّناً، وهي اللفظة المتداولة في الشرق.

(40) في الجميع، وكذلك في سيرة جعفر الحاجب، 117: أو مملوك. والإصلاح منّا.

(41) ... إلى هذه المدينة، دون تعيينها، في سيرة جعفر.

(42) في سيرة جعفر: الخارجيّ بها، فقد قيل إنّه فتنهم وأحلّ لهم البنات والأخوات، ورفع عنهم الصوم والصلاة. وقد أسقطها الداعي إدريس من نقله.

قال له الحجّام: والله الذي لا إلَـه غيره، ما لله دين إلاّ الذي عليه الرجل الذي ببلد كتامة.

فقال له المهديّ: ما الذي استحسنت من أفعاله، حيث أراك تمدحه هذا المدحَ الذي لا يجامعك عليه أحد؟

فقال له: والله يا مولاي، لقد شاركت شريكاً وقلت له: تعال بنا حتّى ندخل تـازروت[43] ونعمل بها مدّة شهـر، فما قسم الله (عج) لنا من رزق قسمناه بيننا.

فسرنا إليها. فلمّا أردنا الدخول من باب المدينة مُنعنا من الدخول بسلاحنا إليها. فقلنا لهم: فكيف نعمل به وليس نعرف هُهنا أحداً نودعه إيّاه؟

80 فقالوا لنا: اطرحوه خلف سور المدينة.

فقلنا: وكيف نضيّع سلاحنا؟

فقيل لنا: اطرحوه ولا تخافوا عليه.

(قال) فطرحناه ودخلنا المدينة واحتسبناه لأنّ الرجوع شقّ علينا بعد أن وصلنا إلى المدينة. فأقمنا فيها شهراً، ثمّ خـرجنا فـإذا سلاحنا بحاله ما ضاع لنا منه شيء. فهذه يـا مولاي سيرة رجل يرمى بالبهتان[44]؟

قال جعفر: فرأيت وجه المهديّ (صلع) يتهلّل. (قال): ثمّ قضى شغله وأمر له بدراهم[45] وانصرف.

افتتاح قلعة ميلة...

ولمّا استقام لأبي عبد الله الداعي أمر كتامة، ودخل عامّتها في

---

(43) في السيرة: اعزم بنا ندخل مدينة سطيف.

(44) في السيرة: يرمى بالكفر وتبديل الشريعة؟

(45) في السيرة: بدراهم كثيرة فالمؤلّف يتصرّف أيضاً في النقل عن غير النعمان.

الدعوة، زحف إلى مدينة ميلة وأحاطت بها عساكره من كلّ جهاتها، وفيها بنو أبي خنزير- قوم من [ديار] ربيعة[46]، ويعرفون بالسناجرة لأنّ أوّلَهم من سنجار[47] - وكان زعيم أهل ميلة ورئيسهم موسى بن عباس[48] - فخرج (ط 64) لقتال أبي عبد الله بمَن معه ومَن لجأ من كتامة إليه (ر 49 ب) ممّن لزمه الكبر والحميّة، وامتنع عن الدخول في الدعوة، وأخذته عزّة الرئاسة، مثل فحل بن نوح، وفرح بن جيران، ويوسف بن محمود[49] وغيرهم فقاتلهم الأولياءُ قتالاً شديداً، فقُتل فحل بن نوح، وغلب أبو عبد الله وعساكره على أرباض ميلة، ودخل جميع مَن بها إلى الحصن فامتنعوا فيه. فلمّا رأوا/ أن لا قوام لهم به، دعا موسى بن عبّاس الحسن بن أحمد بن [أبي] خنزير- وهو من رؤساء قومه[50]، وكان مع أبي عبد الله قد دخل في دعوته وصار ممّن اتبعه - فأرسله إلى أبي عبد الله يسأله الأمانَ، فأمّنه أبو عبد الله، ومَن معه، ما لم يُحدثوا حدثاً. وفتحوا أبواب المدينة ودخلها الأولياء. وتسلّل أبو إبراهيم - ابن موسى بن عبّاس - في جماعة ممّن معه وهربوا بالليل ولحق بإفريقيّة.

81

... بتوسّط ابن أبي خنزير

واستعمل أبو عبد الله على مدينة ميلة [أبا] يوسف[51] ماكنون

---

(46) أضفنا «ديار» لأنّ المؤلّف يقصد المنطقة التي كانت تقطنها بعض قبائل ربيعة فسمّيت بها، ومن فروعها بكر وتغلب فقيل: ديار بكر وديار تغلب، وكلّها مناطق من الجزيرة بين دجلة والفرات إلى حدود الأناضول.

(47) سنجار: مدينة من نواحي الجزيرة على ثلاثة أيّام من الموصل (ياقوت).

(48) موسى بن عبّاس بن عبد الصمد السلميّ كما في بلدان اليعقوبيّ، حسب ما نقله محمّد الطالبيّ، 684/625. وبنو سليم قبيلة قيسيّة مضريّة.

(49) لم يسبق ذكر ليوسف بن محمود، ولم يذكره الطالبيّ في أطروحته.

(50) الحسن بن أحمد بن علي بن كليب، المعروف بابن أبي خنزير- رأس السناجرة من ربيعة. انظر الطالبيّ، 627 هامش 5 والترجمة، 686.

(51) في المخطوط: يوسف بن ماكنون وكذلك عند الطالبيّ، 628، وهو سهو. فقد مرّ (ص 57) أنّ أبا يوسف ماكنون بن ضبارة الأجاني هو عمّ أبي زاكي، ولا يمكن أن يكون ابنه - إن كان له ابن يدعى يوسف - عما أيضاً لأبي زاكي.

الإجّاني - وهم عمّ أبي زاكي - وانصرف بعسكره إلى تازروت.

ابن أمير ميلة بدوره يستنهض الأغلبيّ

ولمّا انتهى ابن موسى بن عبّاس إلى أبي العبّاس [عبد الله] ابن إبراهيم بن أحمد الأغلبي ملك إفريقيّة (ر 50 أ) - وهو يومئذٍ بمدينة تونس - أخبره بافتتاح أبي عبد الله لمدينة ميلة وظهور دعوته، وأنّ عاقبة ذلك إذا غفل الدخول عليه إلى مدائنه ومستقرّ ملكه. وضعّف عنده أمر أبي عبد الله، وسأله إخراجَ عسكره إليه، وضمن له ملك أمره. واجتمع معه في ذلك فتح بن يحيى المسالتي الذي كان قدم قبل ذلك إليه، وقد ذكرنا خبرَه[52]. وقالوا: لو أتى عسكرُك، لقام أكثر الناس معهم وصاروا ردءًا لهم. / فجهّز أبو العبّاس ابنَه المعروف بأبي حِوال[53]، وكان فارساً شديداً [و] بطلاً كميّاً. فاجتمعت لَهُ عساكر كثيرة أحصيت عِدّتُهم اثني عشرَ ألفاً بين فارس وراجل انتقاهم واختارهم. وأخرج إليهم أبوه الأموالَ والخِلع والعُدّة والسلاح فأسبغ عليهم العطاء، وكسا وجوههم وحملهم. وحمل فتح ابن يحيى المسالتي على فرس، وكذلك ابنَ موسى بن عبّاس ومن معه من أصحابه، وأمر لهم بالسروج واللجم المحلّاة. وكان خروج أبي حوّال من تونس في ذي القعدة من سنة تسع وثمانين ومائتين (/أكتوبر 902)، وكلّ مَن مرّ (ر 50 ب) عليه في القبائل بذل لهم العطاء والخلع والأموال، والحُملان لوجوههم فسارعوا إليه.

82

خروج أبي حوال الأغلبيّ لمحاربة أبي عبد الله

وقصد سطيف، فلم يصل إليها حتى زاد إلى عسكره مثله. وتلقّاه بنو عسلوجة أهل سطيف وأهل بلزمة ومَن حولهم ممّن لم

(52) مرّ ذلك في ص 77.

(53) في الافتتاح، 136/138 اسمه وكنيته: محمّد أبو عبدالله، مع تفسير هذا اللقب: أبو حوال: «ولم يكن أحول.. ولكنّه ربّما كسر عينه إذا أدمن النظر إلى الشيء». وانظر الطالبيّ، 538، هامش 593/2 هامش 3، حيث يتأوّل الكلمة بمعنى الحيل، إلّا أن المترجم أسقط هذا التأوّل من ترجمتِه.

يدخل مع أبي عبد الله. فساروا في عساكر عظيمة، ومال بهم على من دخل في حزب أبي عبد الله واستجاب لدعوته من أطراف كتامة فقتلهم قتلاً ذريعاً وسبى نساءهم وذراريهم. ثمّ قصدوا أبا عبد الله إلى تازروت فاتّصل الخبر بأبي عبد الله فبرز إليه فيمن معه.

وكان أبو حِوال مذ خرج يعبّىء عسكره ويسير بهم زحفاً كما تُعَبَّأُ العساكر/ للقتال، فإذا نزل لم يبت إلاّ في خندق يحتَفَر حوله من وقت نزوله فلا تغرب الشمسُ إلاّ وقد تمّ. [و] قد رتّب على ذلك رجالاً أوقفهم له وقياساً معلوماً وأذرعاً معدودةً، ورتّب نزولهم على ترتيب معلوم، وكلّ قوم قد عَرفُوا مكانَهم، فإذا أظلم عليهم الليل، وقف الحرسُ على أبواب الخندق، ودارت به الرجال من داخِله بالدَرَق، والخيل تعسّ دون الرجّالة. ويخرج ألف فارس يدورون حول الخندق إلى أن يصبح، وما زال ترتيبُه على ذلك (ر 51 أ).

83

وخرج أبو عبد الله إليه فالتقوا ببلد ملّوسة فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكثر أصحاب أبي حوال على أصحاب أبي عبد الله فأزالوهم من مصافّهم ولم يثبتوا لهم وآنهزم أصحاب أبي عبد الله آخرَ النهار، واتّبعهم أبو حوال إلى الليل ثمّ نزل وخندق.

تراجع أبي عبد الله إلى تازروت ثمّ إيكجان

فلمّا أصبح زحف إليهم وقد كانوا نزلوا بقربه فاقتتلوا وآنهزم أصحاب أبي عبد الله أيضاً. وجاء ثلج عظيم فحال بينهم، وانصرف أبو عبد الله إلى تازروت، فلم يروا أنّها تحصنهم فأخذوا ما قدروا عليه من أموالهم وانضمّوا إلى إيكجان. وارتفع الثلج وأتى أبو حوال إلى تازروت فأصابها خالية فأحرقها وهدم قصرَ أبي عبد الله الذي ابتُنِي بها (ط 66). ومضى حتى أتى ميلة فأصاب أهلها أيضاً/ قد ارتحلوا عنها وانضمّوا إلى إيكجان، فنزل منها بناحية، على أنّه يزحف إلى أبي عبد الله إلى إيكجان. واستأذنه ابن موسى بن عبّاس أن يمضي

84

إلى كجارمة[54]، ، فمضى في خيل كثيرة حتى أتى كجارمة، وهي من بلد لطاية بالقرب من ميلة، فأصابها خالية قد ارتحل أهلها مع أبي عبد الله. فأقبلت خيل من أهل كجارمة يـريدون أن يحملوا طعاماً لهم، فواقفوا ابن موسى بن عبّاس ومَن معه فقاتلوهم فقتل أبو عقال[55] ابن موسى بن عبّـاس، وكان فـارساً شـديداً. واتصلت الصيحة بالفريقَين، وأمدّ كلّ قوم أصحـابهم والتحم القتال بينهم وتكاثروا. فلمّا قرب الليل وقعت الهزيمة على أصحاب أبي حوال وطلبهم الأوليـاء، حتى قربـوا من العسكر. ودخـل الليل عليهم فانصرفوا عنهم. وبات العسكر مع أبي حوال وقد خافوا. فلمّـا اعتكر الليل وقعت فيهم نفـرة واقتحموا الخندق، وضربـوا على وجوههم، كلّ قوم إلى مواضعهم. وحاول أبو حوال أن يصلح ذلك فلم يستطع. فأمر برفع الثقل وأشعل المشاعل وسار من ليلته. فأخذ ناحيةَ جيملة يريد إفريقيّة، فلم يصبح حتى خرج من بلد كتامة، وانتكث عليه أمره وافترق الناس عليه (ر 52 أ).

مقتل ابن صاحب ميلة

تراجع أبي حوال بدون قتال

85

واتّصل بأبي عبد الله خبره فخـرج أصحابـه فغنموا ما في/ عسكر أبي حوّال، وانقطعت منهم خيل في طلبه فلم يلحقوا به. وسار أبو حوال حتى وصل إلى أبيه بتونس، وتراجعت كتامة إلى مواضعهم وأهل ميلة إلى مدينتهم.

---

(54) استأذنه ليخرج جثّة أبيه موسى بن عبّاس من المطمورة التي ألقي فيها بعد قتله بأمر من أبي عبد الله (افتتاح، 136/139 و 139/143).

(55) قد مرّ في ص 81 أنّ كنية ابن موسى هي: أبو إبراهيم. وفي الافتتـاح في الطبعتين: فقتل أبو عقال بن أبي إبراهيم بن موسى بن عباس. فصرنـا بين أمرين: اما أن يكون القاتل هو أبو عقال هذا، المجهول لدينا وأما أن يكون المقتول ابناً لأبي إبراهيم، أي حفيداً لموسى بن عبّاس. غير أنّ السياق يدلّ على أنّ القتيل هو أبو إبراهيم.

إيكجان تصبح دار هجرة

وكـان الحسن بن هارون[56] اعتـلّ فمات رحمـة الله عليه بإيكجان. وكان بيان بن صقلان وأحمد بن سليمان[57] السكتانيان قد بلغا عند أبي عبد الله مبلغاً صالحاً، وحسن أثرهما. فرغبا إليه مع جماعة من بني سكتـان أن يقيم بإيكجان فأجابهم إلى ذلك، وابتنى به قصراً، وارتحل الناس إليه وجعله دارَ هجرته وقرارَ أهل دعوته.

وفرّق أبو عبد الله الدعـاة إلى القبائـل. وكان يجلس إلى المؤمنين فيحـدّثهم ويعلّمهم أحكـام الـدين، فحسنت (ط 67) أحوالهم وقويت نيّاتهم وبصائرهم.

ولمّا انصرف أبو حوال الأغلبيّ إلى أبيه، وصـف له ما كان من ظهوره أوّلاً وغلبته على البلدان، وأنّ انصرافه لم يكن إلاّ لأمر (ر 52 ب) عرض له من غير علّة[58]، وصغّر أمر أبي عبد الله، فأطعمه ذلك وجهّز جيشاً ثانياً زاد في عدده على الجيش الأوّل، وأكثر من عدّته وقوّته. وخرج أبو حوال مرّة أخرى بالعسكر، وانضمت إليه القبائل، وسار حتى نزل سطيف على مثل ما كان عليه في المرّة الأولى من التعبئة والتحفّظ. /

حملة أبي حوال الثانية...

86

وزحف من سطيف. وانتهى إلى أبي عبد الله خبره، فخرج أبو عبد الله بمن كان معه من إيكجان فنزل قريباً من بلد لهيصة، ونزل أبو حوال ببلد ملوسة. وجرّد أبو عبد الله عامّة الخيل الذين معه إلى أبي حوال. فلمّا أشرفت الخيل على أبي حوال خرج من خندقه بجميع عسكره، فاقتتل القـوم قتالاً شـديداً وكـانت الغلبة

---

(56) الحسن بن هارون: رئيس غشمان، الذي دعا أبا عبد الله إلى تازروت

(57) أحمد بن سليمان السكتانيّ: وكنيته أبو جعفر، في الافتتاح.

(58) هكذا في الجميع، أي في النسختين وفي المطبوع. ولعلّها: من غير غلبة، أي دون أن يكون قد انهزم.

لأصحاب أبي عبد الله على أبي حوال وأصحابه حتى أدخلهم أصحاب أبي عبد الله إلى خندقهم. وحال الليل بينهم وانصرف أصحاب أبي عبد الله. ثمّ عاودوهم من غدهم فاحتصر أبو حوال في الخندق ولم يخرج (ر 53 أ) إليهم ورأى أن أصحابه قد غلبوا. فلمّا جنّ الليل، خرج أبو حوال من خندقه بجميع الذين كانوا معه، وقدّم ثقله بين يديه، وأوقد المشاعل وكرّ راجعاً إلى سطيف. وتبعته خيل من خيل أبي عبد الله بعد الصباح فأصابوا جماعةً من أصحابه، وغنموا ممّا معه بعد أن انتهبوا ما ترك في المناخ.. ورجع أبو عبد الله إلى إيكجان.

... وانهزامه

ثمّ إن زيادة الله الأغلبيّ احتال في قتل أبيه أبي العبّاس [عبد الله] بن إبراهيم بن أحمد صاحب إفريقية فقُتل. وولي الأمر بعده زيادة الله، وأخوه أبو حوال في سفره ذلك إلى بلد كتامة. فحين عاد أبو حوال أرسل أخوه زيادة الله صالح/ بن الروحانيّ[59] فقبض على أبي حوال، وتولّى صالح أمر العسكر بأمر زيادة الله بعد أن أقرأهم كتابه، وانصرف إلى تونس. وقتل زيادة الله أخاه أبا حوال وعمومته في شهر رمضان سنة تسعين ومائتين. وكان قتل أبيه واستيلاؤه على الملك ليوم بقي من شعبان سنة تسعين ومائتين.

87

زيادة الله يستولي على الحكم...

ولمّا ولي زيادة الله، أقبل على الفجور وشرب الخمور، فألهاه ذلك عن كلّ شيء. وكان شرب الخمر لا يُعرف بإفريقية حتى أظهره زيادة الله. ووصفت عنه خلاعات كثيرة أقبل عليها واشتغل عن تدبير الملك، ومال إليها وشغله اللّهُ بها لما أراد الله تعالى (ر 53 ب) من ظهور دينه وعلوّ أوليائه وإذلال أعدائه كما قال (تع) في كتابه:

.. وينغمس في اللهو

---

(59) في النسختين: صالح الرجانّي والإصلاح من الافتتاح، 146/154 ومن الطالبيّ، 602/548

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ (الإسراء: 16).

وخاف زيادة الله من أبي عبد الله على رقّادة فارتحل من تونس إليها وحصّنها وابتنى سورها وأقام بها.

ولمّا ملك أبو عبد الله مدينة ميلة ودانت له نواحيها واستقام له أمر مَن فيها، خرج إلى سطيف، وكان صاحبها علي بن حفص، ويعرف بابن عسلوجة ـ نسب إلى أمّه ـ وكان من الأبطال/ 88 المعدودين، وكان ممّن قام وقعد في أمر أبي عبد الله ورجا إزالته. وكان قد صار إليه جماعة من وجوه كتامة لمّا غلَبهم أبو عبد الله. وكان يخرج إلى أبي عبد الله ومَن معه من العساكر علي بن عسلوجة وأخوه أبو حبيب فيقاتلان ويبليان. ويقال إنّ عليّ بن عسلوجة قتل من أصحاب أبي عبد الله ثلاثة عشر فارساً في يوم واحد، لا يزيد الواحدَ منهم على ضربة واحدة. فقال أبو عبد الله حين رأى ذلك: هـذا اللعين ممّن قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِين ﴾ (الشعراء، 130). فأقام أبو عبد الله على سطيف أربعين يوماً. ثمّ انصرف إلى إيكجان فأقام بها شهراً. ثمّ جمع الأولياء

سقوط سطيف بعد وفاة ابني عسلوجة

وأوعب في جمعهم وزحف مرّة ثانية إلى سطيف في عساكر لا يحصى عددها فأحاط (ر 54 أ) بالمدينة. وخرج إليه عليّ بن عسلوجة بجمعه فقاتلوه كما كانوا يقاتلونه خارج المدينة. ثمّ طال عليهم الأمر وانحصروا في الحصن، فمات علي بن عسلوجة وأخوه أبو حبيب وهما في الحصار. فحين ماتا انحلّ أمر سطيف (ط 69).

وكان ممّن أوى إلى سطيف من كتامة وكان مع أهلها، داود بن حباسة[60] اللهيصي. فاستأمن من أبي عبد الله، وكان إخوتُه مع أبي

(60) في المخطوطين: داود بن حشامة. وعند الطالبيّ، 709/650: ابن جماست، وأخذنا بقراءة الدشراوي في الافتتاح

89 عبد الله. /وقال داود: لا أستأمن إلّا لأهل البلد. فأمّنهم أبو عبد الله.

انضمام داود اللهيصيّ إلى أبي عبد الله

فخرج إليه داود اللهيصي ووجوه أهل سطيف. وكان داود اللهيصي فارساً عاقلاً من وجوه قومه، فدخل في دعوته وحسنت حاله، وانتهى أمره إلى أن كان داعياً من الدعـاة. وانصرف أبـو عبد الله إلى إيكجان، واستعمل عاملاً على سطيف[61].

وانتهى إلى زيادة الله بن الأغلب أمر سطيف واستيلاء أبي عبد الله عليها، ووصل إليه جماعة من الكتاميّين، ممّن أبى الدخول في الدين فحرّكوه على القيام، وخوّفوه أمرَ أبي عبد الله إن تمادت عنه الغفلةُ فأخذ زيادة الله في جمع الحشود وأوسع في العـطاء فاجتمعت له عساكر كثيرة (ر 54 ب) فأخرج إبراهيمَ بن حبشيّ[62] لحرب أبي عبد الله ـ وكان إبراهيم بن حبشيّ من بني الأغلب ـ وخرج معه أربعون ألفاً بين فارس وراجل، ممّا قيل إنّه لم يخرج لبني الأغلب مذ ملكوا إفريقيّة عسكرٌ مثله عدداً ولا عُدّة. وأخرج معه أحمالاً كثيرة من الأموال والخلع والسلاح، ولم يدَع أحداً من حُماة رجاله، ولا [مـ] ـمّن نزع إليه من كتامة/ إلّا أخرجَه مع ابن حبشي. وأمره أن يبذل العطاء لمن يمرّ به من القبائل، وأن يستميـل وجوههم بالحُملان والكُسى وإنفاق المال. ودبّر له أن يأتيَ أبا عبد الله من غير الجهة التي قصده فيها أبو حوال.

تجهيز جيش أغلبيّ بقيادة إبراهيم بن حبشي

90

(61) هنا أقحم المؤلّف ـ أو الناسخ؟ ـ فقرة عن سطيف منقولة عن صورة الأرض لابن حوقل، إلّا أنّها مبتورة لا تكاد تفهم: «سطيف مثل شريف. مدينة في بلاد الغرب وفواكه سنيّة» ـ وهي ساقطة من المطبوع فرأينا حذفها من المتن لأنها ناقصة. ويكرّر إدريس ـ أو محشّيه ـ النقل عن ابن حوقل كلّما مرّ بمدينة هامّة، شرقيّة أو غربيّة، ونحن نبقي هذه النقول بعد مقارنتها مع كتاب صورة الأرض، على قلّة غنائها في الجملة

(62) ابن حبشيّ بن عمـر التميميّ عند ابن عـذاري، 137/1 هـامش 1 ويضيف الافتتـاح: .. ولم يكن من أهل الحـرب، وكـان الغـالب عليـه اللين (ص 175/169).

فقصد إلى القسنطينة، وهي مدينة عظيمة أوّليّة في جبلٍ وعر تتّصل ببلد كتامة فنزل بها. فأتاه من كتامة من يليها، وحارب من قرب منها، وقتل منهم من عنِد عنه. فاستهالت كتامة أمرَه وكثرة جيوشِه وداخلَهم الخوفُ منه. وكان بينه وبين إيكجان حيث نزل أبو عبد الله مرحلتان أو أقلّ إلاّ أنه (ط 70) في طرف بلد كتامة. فتركه أبو عبد الله ولم يخرج إليه. فأقام ابن حبشي بالقسنطينة ستّة أشهر، وأردفه زيادة الله بابن أبي شدّاد[63] صاحب طبنة في جيش عظيم، فاجتمعت جيوش بني الأغلب في القسنطينة (ر 55 أ) مائة ألف كما قيل بين فارس وراجل.

تجمّع الجيش الأغلبيّ مع أمداد طبنة في قسنطينة

فلمّا رأى ابن حبشي توقُّف أبي عبد الله زحف بالعساكر الذين معه إلى بلد إجّانة. فأخرج أبو عبد الله خيلاً اختارها ليختبره أين يقصد فوافوه بكبونة[64]. فلمّا تراءت الخيل لابن حبشيّ، قصد إليها بنفسه، فعلَ جاهلٍ بالحرب، لم ينزل ولا نزل/ أحدٌ من أصحابه ولا هيّأ لهم محطّاً يرجعون إليه. فوقع القتال وقام الحرب بين الفريقين فاقتتلوا قتالاً شديداً، وأصحاب ابن حبشي لم ينزلوا، ولا لهم معسكر.

91

واتّصل أمر القتال بأبي عبد الله فركب بالعساكر فوقعت الهزيمة على أصحاب ابن حبشيّ فعقر به برذونه وجُرح، فلم يَنْجُ إلا بجهدٍ وشدّة، وسلّموا جميع الأثقال والأموال وأخذوا طريق باغاية، وطلبهم الأولياء إلى الليلِ ومِن غدهم، يقتلون ويغنمون، فقُتل منهم وغنم ما لا يحصى عدُّه، وأخِذ من السلاح والكُراع ما لا عدّ له. وانصرف ابن حبشيّ إلى إفريقيّة، وتفرّق من سلم ممّن كان

هزيمة ابن حبشيّ في وقعة كبونة

(63) اسمه في البيان المعرب، 140/1: شبيب بن أبي شدّاد القموديّ، وكذلك فيما سيأتي ص 92.

(64) كبونة: هذا الموضع غير معروف. انظر الطالبيّ، 651، هامش 711/4 هامش 289.

معه إلى مواضعهم، وانصرف ابن [أبي] شدّاد إلى طبنة، واضطربت إفريقية، واستهال أهلُها أمرَ أبي عبد الله، وأخبرهم من وصل من المنهزمين بما عاينوه ونالَهُم.

وكتب الداعي أبو عبد الله إلى الإمام المهديّ بالله عليه الصلاة والسلام، إلى سجلماسة ـ وكان قد صار بها ـ وأخبره بما فتح الله له، وأرسل إليه ببعض تلك الغنائم مع رجال من كتامة ساروا بزيّ الغرباء لا يُعرفون، فكان ذلك أول فتح قدِم على المهديّ بالله (عم). وكان ذلك (ط 71) ببركته وبركة (ر 55 ب) أيّام هجرته. فسُرّ بذلك وحمد الله عليه.

فتح طبنة

ثمّ توجّه أبو عبد الله إلى مدينة طبنة[65] في جمع عظيم فأحاطت بها عساكره من كلّ جهةٍ فاحتصر مَن بها. وكان العامل عليها يومئذٍ حسن بن أحمد بن نافذ المعروف بأبي المقارع[66]، وبها شبيب/ ابن أبي شدّاد على أعنّة العسكر الذين بها، وفتح بن يحيى[67] على عسكر جمعه من أهل بيته وجماعة البربر. فلمّا احتصروا في المدينة، زحف إليهم الأولياء من كلّ جانب فنقبوا بُرجاً من بروج السور فسقط، ودخل جميع الأولياءِ منه، ففرّ عسكر طبنة ودخلوا حِصْناً قديماً مبنيّاً بالحجارة منيعاً في داخل المدينة، واحتوى الأولياءُ على المدينة وما فيها، وعامّتُهم تجّار فأمّنهم أبو عبد الله. وأمر أبو المقارع بنصب منجنيق كان في الحصن فانكسر فأصلحوه مرّة أخرى فانكسر أيضاً، فقال أبو المقارع: «دعوه، فهٰذا أمرٌ مقدّر»، وطلب

92

(65) طبنة: تقع آثارها اليوم على مقربة من قرية «بريكة» على نحو تسعين ميلاً غربيّ باتنة، وتسعين شرقيّ المسيلة، على الطريق القوميّة رقم 28.

(66) في «هـ» و «ر»: حسين. . . بن قائد. والإصلاح من الافتتاح، 160/174. وزاد الدشراوي أنّ أبا المقارع هذا كان ولّاه ابراهيم الثاني صقلّية سنة 284. وانظر كذلك الطالبيّ، 716/657.

(67) فتح بن يحيى «أمير مسالتة» وقد قتله أبو عبد الله بعد فتح طبنة (افتتاح، 177).

الأمان فأمّنه أبو عبد الله، وخرج إليه فخيّره أبو عبد الله المقام عنده أو الانصراف إلى بني الأغلب. فقال: «كيف أسير إلى قوم قد أدبرت أيّامهم وأتركك مع إقبال أيّامك؟» فأعجب أبا عبد الله حديثُهُ وأسكنه معه بإيكجان إلى أن فتح أبو عبد الله القيروان فعاد إليها.

انضمام أبي المقارع إلى الداعي

واستعمل أبو عبد الله على طبنة يحيى بن سليمان الملوسي، وانصرف بالعسكر إلى إيكجان.

[قال ابن حوقل البغدادي: طبنة مدينة عظيمة ذات سورٍ ومياهٍ وزرع وقمح وقطن وبقر وغنم وكتّان][68].

93

ثمّ خرج أبو عبد الله إلى بلّزمة[69]، وكان قد أخذ/ زرعها ثلاثَ سنين متوالية (ر 56 أ) حتى انقطع من أيديهم الطعام. ثمّ زحف إليهم وحاصرهم فامتنعوا وقاتلوا قتالاً شديداً ودافعوا مدافعة عظيمةً، وعمل أبو عبد الله عليهم المنجنيقات (ط 72) والدبّابات والأبرجة، فصنعوا منجنيقات واجتمعوا ودافعوا. وطال عليهم الحصار وغلبهم الجوع ونفد ما كان معهم فأكلوا ما كان عندهم من الحيوان ثمّ عادوا لأكلِ جلودها ثمّ رجعوا إلى دَرَقهم فكانوا يقطعونها قطعاً ويبلّونها ويطبخونها ويأكلونها، إلى أن غلبهم الجوع، فافتتحها أبو عبد الله وقتل المقاتلة ولم يعرض للحريم والذرّيّة. وغنم العسكر ما وجدوا فيها. وأمر أبو عبد الله بهدم سورها فهُدِم، ورجع إلى إيكجان.

حصار بلزمة وفتحها

وأخرج زيادة الله عسكراً زهاء اثْنَيْ عشر ألفاً حين بلغه أمرُ طبنة وبلّزمة، مع هارون بن الطبنيّ، وكان أخوه عاملَ زيادة الله على باغاية، وأخرج معه الأموال الجمّة وأمره أن يستميل من مرّ به

(68) نقل عن صورة الأرض، 85، مع اختصارٍ شديد.

(69) بلزمة: موقعها قرب قرية «مروانة» غربيّ باتنة وشمالي نقاوس، على الطريق الفرعيّة رقم 5. وجبل بلزمة يشرف على مدينة باتنة.

من القبائل ويُعطيَهم. فأعطى هارون الناس فاجتمعت له عساكر عظيمة أكثر ممّا خرج به فانتهى إلى دار ملول[70] فقتل أهلها، وكانوا قد دخلوا في طاعة أبي عبد الله، وأخرب حصنهم.

94 وكان أبو عبد الله قد بعث/ غزوية بن يوسف في ألف فارس إلى بلزمة، ولم يكن عند ابن يوسف علمٌ بخروج هارون إلى دار ملول. فلمّا رأى غزوية ومَن معه عسكرَ هارون اصطفّوا على الخيل ينظرون العسكر، ورآهم هارون وأصحابه فوقعت فيهم الصيحة فتصايحُوا: الجبل! الجبل! ليتحصّنوا به، فما هو إلاّ أن (ر 56 ب) عطفوا يريدون الجبل إذ صاح صائح: البلد! البلد! فقصد كلّ قوم إلى بلدهم. ونظر غزوية إلى الغبرة قد قامت، والعساكر قد افترقت فشدّوا عليهم، وهم خيل مجرّدة. فقيل: إنّه لم يُحصَ عِدّةُ مَن قُتل لكثرتهم. وقُتل هارون صاحب العكسر، وغنموا جميعَ ما كان معهم، وانصرفوا إلى أبي عبد الله ظافرين ظاهرين، بفَتح لم يُرَ مثلُه ومن الأموال والغنائم بما لا يحصى عدده، ووقع مع زيادة الله لذلك أمر عظيم وكرب شديد.

وقعة دار ملول...

وكان (ط 73) قد صار إلى أبي عبد الله أهلُ تيجس من هوارة، ورأس الفحصين من بني مغار- وكان فيهم قديم تشيّع، ومنهم إسماعيل ابن نصر المغاري: لحق الحلوانيّ وأخذ عن أصحابه واتّصل بأبي عبد الله مع جماعة من أصحابه ودخلوا في الدعوة، وكانوا يغيرون على أهل تيجس[71] - وكان مع أهل تيجس رابطة خمسمائة فارس من

... وفتح تيجس

---

(70) دار ملول: بين طبنة (غرباً وجنوباً) ودوفانة (شرقاً وشمالاً) على طريق باغاية (ابن حوقل، 85) ودوفانة - طوفانة اليوم - تقع على الطريق الفرعيّة رقم 20 بين باتنة وخنشلة

هذا، وقد رسمها الدشراوي، الخلافة، 180 بتشديد الواو وفتحها.

(71) تيجس. هي اليوم قرية «عين البرج» الواقعة جنوبّي عين عبيد على نحو عشرين =

قِبل زيادة الله مع عبدٍ له يقال له يحفور. وكان صاحب تيجس ابن ركاب لمّا رأى ظهور أبي عبد الله/، كاتبَه في إخراج عسكرٍ فأخرج أبو عبد الله عسكراً مع مكنداس الجيملي إلى تيجس، فنزل على تجيس فلم يمكن خروج الرابطة واحتصروا في الحصن وهو منيع. فرجع مكنداس بعد أن أقام عليهم أيّاماً.

95

ثمّ أرسل أبو عبد الله جيشاً أيضاً إلى تيجس مع يوسف بن شكلة الغشميّ فنزل على تيجس، فصالح أهلَها ودخلَها على الصلح، وأمّن الرابطة الذين كانوا من قِبل زيادة الله فانصرفوا إلى إفريقيّة ولم يعارضوا بقليل ولا كثير، ولم يتعرّض (ر 57 أ) أحد منهم بما يكره. ومضى إلى أبي عبد الله مع ابن ركاب جماعة فدخلوا في الدعوة وانصرفوا إلى بلدهم.

ووصلت الرابطة إلى زيادة الله، وظهر منهم الثناء على أصحاب أبي عبد الله وذكروا وفاءهم فشاع ذلك في أهل إفريقيّة، وكان يشنّع عندهم عن أبي عبد الله بما يظهر زيادة الله من خلاف ذلك من القتل والنهب وقلّة الوفاء والغدر بمَن أمّنوه، فوضح عند أهل إفريقية كذب ما يُنسَب إلى أبي عبد الله الداعي وأصحابِه، وشاع فضلُهم وعدلُهم، وتطلّعت العيونُ إليهم. فساء ذلك زيادة الله وكثر خوفه لنموّ[72] الدائرة عليه، وكثر الإرجافُ به. وأظهر زيادة الله ملك إفريقية والغرب الخروج بنفسه لحرب الداعي/ أبي عبد الله لمّا نظر إلى كثرة الأشانيع عليه، وتوجُّه اللوم إليه، ورأى اضطراب (ط 74) مملكته واختلالَ دولته. فتقدّم في استعداد الآلة للحروب ونادى في

زيادة الله يعتزم الخروج بنفسه إلى قتال الداعي...

96

= ميلاً شماليّ عين فكرون (ولاية أمّ البواغي) ولعلّ عين البرج هي التي سمّاها ابن حوقل، 87: تبودا.

(72) هكذا في «هـ». وسقطت الجملة من «ر». وفي المطوع. لتبوء. أمّا الافتتاح، 170/185 فتختلف عبارته أصلاً

االبُلدان بالعطاء الواسع، للداني والشاسع، وفرض للفرسان والرجال فروضاً كثيرة من العطاء والإنفـاق، وأخرج الحُشّادَ إلى الأمصار لجمع العساكر ممّن دنا وقصا[73] وتقدّم لأهل بيته ورجاله للخروج معه فاجتمعت إليه عساكر عظيمة، وسارع الناس إليه لبـذلـ[ـه] العطاء[74]. ونصبت له قبّة يقال لها قبّة العـرض، وكانت تصبّ الدنانير بين يديه، ويعترض أهل البلدان عليه فإذا مرّ به من يرتضيه غرَفَ غَرفةً بمكيالٍ أعدَّه يسع خمسين ديناراً أو نحوَها فأعطاه بها. فاتّصلت الأخبار عنه أنَه يكيلُ الدنانير (57 ب) وأقبل الناس إليه من كلّ ناحية ووافته الجيوش وكثرت عنده الجنود. وقطع ذلك خوض الناس فيه وإرجافهم به، وقال الناس: «هٰـذه ضربـة الفيصل[75] تكـون لمن تكون». وتهيّأ كلّ واحد من أهل بيته وتفاخروا بـالعطاء والبـذل والإنفاق. وأخرج [زيادة الله] ما كان في خزائنه من ذخائر آبائه وذخائره، وأعطى قوّاده ووجوهَ جنوده وخلع عليهم فظهر لذلك زِيٌّ لم يُر مثلُه وهيئة/ لم يظهرها أهله، وعمِل بنوداً ومضارب لم يُعمل قَبلها مثلُها. 97

... وحاشيته تثنيه عن عزمه..

وخرج[76] إلى الأربس في أوّل سنة خمس وتسعين ومائتين. وأخرجَ معه جماعةً من شيوخ أهل القيروان. فلما وصل إلى الأربس ولّى أبا العبّاس محمد بن عبد الله بن جيمال للقضاء، وكان ممّن يذهب مذهبَ العراقيّين، فسرّذلك أهلَ بيته ووجوهَ رجاله. وأقام بمدينة الأربس فتوافدت له بها العساكر فشاور خاصّةَ رجاله وهو

---

(73) قصا وقصي بمعنى.

(74) في الافتتاح، 179/199: لطلب العطاء.

(75) الضربة أو الطعنة الفيصل: التي تفصل بين القرنين بغلبة أحدهما.

(76) أسقط الداعي رسالتين من زيادة الله إلى أهل إفريقيّة، وقد أوردهما القاضي النعمان في الافتتاح، 186 - 170/197 - 177.

مزمع أن يسير إلى أبي عبد الله بنفسه، فقالوا له: «هٰذا تغريـر! إن لقِيتَه بنفسك وجميع عدّتك، لا ندري ما يكون من الأمر. وقد وقع قبل هذا انهزام العساكر فلم تتضعضع المملكة إذ كنت رِدْءَهُم. ولا ندري ما يحدث في دار الملك إن فارقتها. والرأيُ أن تقيم في موضع الملك، وتُقيم بالأربس عسكراً قويّاً مع مَن ترضاه من أهل دولتك، فإن قصد الشيعي (ط 75) موضعاً، قصَدَ إليه، وتكون أنت ردءاً له» - يعنون بالشيعيّ أبا (58 أ) عبد الله، وبذلك كان يدعى فاستحسن ذلك من رأيهم، وقدّم [إبراهيم] بن أبي الأغلب على العساكر، وكانت له شجاعة، وهو من وجوه أهل بيته وخاصّته. ثمّ رجع إلى رقّادة وأقام بها، وابن أبي الأغلب بالأربس، وعاد إلى لهوه ولعبه وإقباله على السكر وفعل المنكر، فشغَلَه ذلك عن كلّ شغل وألهاه عن كلّ أمر، مع أنّه لم يُخلِ نظرَهُ عن ابن أبي الأغلب. بل كان يقـوّيـه بـالعسـاكـر والأمـوال، ويبعث إليـه من يتخلّف عنـه من الأبطال.

.. فيعيّن إبراهيم ابن أبي الأغلب على جيش الأربس

98

وقصد الداعي إلى باغاية من بعد أن اتّصلت به أخبار زيادة الله. وكان قد صار إليه جماعة من أهل باغـاية، منهم إبـراهيم المعروف بابـن المدينـي وعبد الله بن الرّدم[77] وغيرهما، وكاتبوا أهلها وحرّكوا أبا عبد الله للمسير إليهـا. فخرج أبـو عبد الله في عساكر عظيمة. فلمّا قرب من باغاية اتّصل بالعامل[78] عليها أن كثيراً من أهل باغاية قد كاتبـ[ـوا] أبا عبد الله، وخاف أن يقبض عليه فهرب إلى الأربس. وخرج جماعة أهلِ باغاية إلى أبي عبد الله

فتح باغاية

(77) ابن المذيلي   ابن المزيلي، وعبد الله الردم/ عبد الله بن الروم في طبعتَي الافتتاح.

(78) باغاية: على يسار الطريق انطلاقاً من خنشلة نحو عين بيضة. وهي عند ابن حوقل، 84: باغاي وسبق أن ذكر أحو هارون بن الطبنيّ عاملاً عليها (ص 93).

فسألوه الأمان فأمّنهم. ودخل عسكره باغاية فأقاموا بها أيّاماً. ثم استعمل عليها أبا يوسف ماكنون بن ضبارة الإجّاني[79] عمّ أبي زاكي، وترك معه رابطة خمسمائة فارس، وانصرف إلى إيكجان.

وحين بلغ زيادةَ الله أمرُ باغاية ساءه ذلك واغتمّ. وخاض أهل إفريقية وكثرت الأشانيع. وجمع مَن يشاورُه (ر 58 ب) وسألَهم الرأيَ فأشاروا عليه أن يبعث إلى إبراهيم بن أبي الأغلب بمحاصرة باغاية، وأن ينفِر إليها من الأربس بالعساكر الذين معه. فقال عبد الله بن الصائغ[80]، وكان صاحبَ أمره وأمثلَ رجاله وأهل رأيه: «ليس هٰذا رأياً! إن نزل ابن أبي الأغلب على باغاية نَفر إليه الشيعي في جماعة كتامة، فإن قاومه لم يُؤْمَن عليه، وإن تنحّى بين يديه كانت الهزيمة، ولم يُؤمَن أن يتبعَه. ولكنّ الرأيَ مُقام ابن أبي الأغلب [مكانَهُ]، فإن زحَفَ الشيعيّ إلى غير باغاية [عاجلَهُ] وكان السابقَ له إلى (ط 76) حيث يقصد، ولو سبقه إلى باغاية لكان ذلك الرأي». فعند ذلك قام مغنّي زيادة الله - وكان يكنى ابن الشنيم فجمع المغنين وغنوا فطرب وقال: اشرب واسقينا: فملاء الغرب يكفينا[81]. فضحك زيادة الله وقال: نعم، وأقلّ منه يكفينا.

99

زيادة الله يركن إلى اللهو ولا يفكّر في القتال

فقال له: ما الذي يُعجلك إلى الغمّ؟ أوَ ليسَ من القيروان هُزم عسكر مدلج وقُتل؟[82]

---

(79) سبق أن ولي أبو يوسف ماكنون بن ضبارة مدينة ميلة بعد فتحها (ص 81).

(80) ابن الصانع في المخطوط وفي الافتتاح، وابن الصائغ بالمعجمة عند الطالبي، 727/548. وكذلك في رياض النفوس، 125/2.

(81) كذا في مخطوط «هـ» وفي مخطوط «ر»: فملّ الغرب. وفي الافتتاح، 184/206: من القرب. والغَرب هو ماء الدلو ولعلها القرب ج قِربة. والمعنى بعد غامض.

(82) مدلج بن زكريا: أحد القوّاد المتمرّدين على زيادة الله بالقيروان (انظر الافتتاح، 207 هامش 184/1 هامش 5 والطالبيّ، 718/658)

قال: نعم.
قال: وأين باغاية من القيروان؟

فأعجب زيادة الله قولُه، وأمر بإحضار الشراب فشرب ومَن معه حتّى ثملوا وافترقوا عَمّا لَه اجتمعوا ولهُوا عمّا كانوا دبّروا. وانهمك زيادة الله في الشراب والعزف والملاهي. وأمر ابنَ أبي الأغلب بإسباغ العطاء على عسكره، وأن لا يتحرّك من مكانه إلاّ لأمرٍ مهمٍّ لا بدَّ له منه. وأقبل على لذّاته، وجعل شغلَه في مطرباته. 100

وأخرج أبو عبد الله ألفَ فارس مع أبي مديني قد انتقاها واختارها، إلى مجّانة[83] وهي ممّا يلي الأربس (ر 59 أ) لمّا بلغه ما عقده زيادة الله من إقامة العسكر بالأربس. وكان عامل مجّانة من قبل زيادة الله خفاجة العبشيّ[84] وهو من الفرسان المعدودين، إلاّ أنه كان قد تجذّمَ، وكانت معه رابطة. فأخذ أبو مديني بخَيْلِهِ على باغاية وخرج منها يريد مجّانة فحين دنا منها، خرج إليه خفاجة في الذين معه من الرابطة، ومعه أهل مجانة فقاتلوهم بقرب المدينة إلى أن حجز بينهم الليل. فدخل خفاجة ومن معه المدينة، ونـزلت خيل أبي مديني على وادي مجانة (ط 77) فانتهبوا تلك المنازل وانصرفوا إلى أبي عبد الله وهو بإيكجان.

فتح مجّانة...

وجرّد أيضاً أبو عبدالله أبا مديني في خيل وأمره أن يقصدها. فلمّا انتهوا إلى باغاية اتّصل بهم أنّ أهل مجّانة تقلّعُوا إلى قلعة بسر[85].

---

(83) مجانة: بين باغاية والقيروان، على مرحلة من مسكيانة وأخرى من مرماجنّة (ابن حوقل، 84، والطالبيّ 668، هامش 729/3 هامش 344).

(84) الحبشيّ عند الطالبيّ، 668، واستبقينا قراءة المخطوطين: العبشي

(85) قلعة بسر، بسر بن أرطاة أو بسر بن أبي أرطاة. يقول البكري، 145. افتتحها بسر زمن موسى بن نصير. ويقول في مجانة: وتعرف بمجانة المَعادن، منها معدن فضة للواتة يسمّى الوريطسي.

فأخذ أبو مديني على تبسّة[86] ثم مال إلى ناحية مجّانة فأخذوا

101 على جبل المطاحن/، وقصدوا ملزوزة[87] وهـ[ـي] بقرب مجّانة. وكان خفاجة في مجّانة وخيله وأهل مجانة قد رفعوا الأموال والضعفاء والعيالات إلى القلعة. فخرج في الذين معه إلى خيل أبي مديني، ووقع بينهم القتال فقُتل خفاجة واجتزّ رأسُه ورؤوس قوم معه، وانصرف العسكر إلى أبي عبد الله إلى إيكجان. وما زال أبو (ر 59 ب) عبد الله يرسل الخيل ويشنّ الغارات إلى نواحي تونس، فيقتل منهم ويغنم، وهو مقيم بإيكجان.

... وهفوة ميدرة

ثم خرج أبو عبد الله بنفسِه في احتفال من العساكر فوصل إلى باغاية، وسار حتى أتى مسكيانة ثم أتى تبسّة ثم ميدرة[88] وهي حصن حصين فأصاب فيها بقايا أهل قصر الإفريقي[89] - وكان قد أوقع بهم عسكره قبل ذلك مع أحمد بن سليمان السكتاني - ومعهم في ميدرة قوم من أهل مجّانة ومرماجنّة وأخلاطها من الناس، قد تحصّنوا بها. فنزل أبو عبد الله عليها فأصابته علّة شديدة من الحصاة وكانت تعتاده. وأمّن أهلَ الحصن بعض أصحاب أبي عبد الله ففتحوا أبوابهم بغير استئمار أبي عبد الله فدخل عليهم العسكر

وفي حصوص بسر، انظر أسد الغابة، 406، ففي صحبته شكّ. وهو مكروه عند الشيعة لنكايته في عليّ وذريته وأصحابه. وانظر كذلك دائرة المعارف الإسلامية.

(86) في النسخ: تسًا، وهي تبسّة اليوم، على الحدود بين الجزائر وتونس، وعلى نحو 140 كم من سبيطلة.

(87) حبل المطاحن: في الافتتاح، 209، هامش 3، قال الدشراوي: عرف بهـدا الاسم - وكذلك محانة - لمطاحن الحجر الدي يقطع من هدا الحبل. وأخذنا بقراءته في ملزوزة، فقد وردت «ميرور» في المخطوطين.

(88) ميدرة: وهي حالياً قرية حيدرة، مركز الحدود بين الجزائر وتونس.

(89) قصر الإفريقيّ: جعله البكريّ، 53 غربيّ تيفاش في طريق تيجس. وكذلك ابن حوقل، 87 يجعله بين تيفاش وتيجس. ولعلّه اليوم «قصر صباحي» على ثلاثين ميلاً جنوبي واد زناتي في اتجاه عين بيضة.

فانتهبوهم. فلمّا بلغ ذلك أبا عبد الله أزعجه وأجزعَه، فخرج، وهو لما به من العلّة، إلى الناس، وجمع المشايخ والدعاة وطلب مَن فعل ذلك فلم يقدر عليه ولم يُعرف. فاسترجع كثيراً ممّا انتهب عليهم من حيث وجدَه، ولم يبقَ من ذلك إلاّ ما أعياه طلبُه ولم يُعلم مكانُه. فكان لذلك من زيادة الله شناعات، ونسب الغدرَ إلى أبي عبد الله وأصحابه، وأنّهم يؤمّنون الناس ثمّ يغدرون بهم، وأشباه ذلك. 102

وارتحل أبو عبد الله (ر 60 أ) من الميدرة ونزل على القصرين[90] من قمّودة واحتصر أهلها فأمّنهم وأمرهم أن لا يفتحوا أبواب مدينتهم، لِمَا كان من أمر ميدرة - فكانوا يُبايعُون العسكر ويُشارونَهم من خلف الأسوار - واتصلت الأخبار بابن أبي الأغلب أنَّ أبا عبد الله يريد أن يضرب على زيادة الله برقّادة وأنّه قد انتهى إلى القصرين ولم يكن مع زيادة الله كثير عسكر. فخرج ابن أبي الأغلب من الأربس وجمع عسكره ونزل دار مدين[91]. واتصل بأبي عبد الله ذلك، وهو بالقصرين فأمر بإخراج ألفَي فارس إلى ناحية دار مدين لاختبار عسكر ابن أبي الأغلب، فانتهَوا إليها فوافَوه بها واشتدّ بينهم القتال فقتل جماعةٌ من الأولياء. واستبطأ أبو عبد الله خبرَهم فركب في جميع عساكره وسار نحوَهم، فإذا هم قد انهزموا وأقبلوا عليه مفترقين في الوعر والسهل وقد دنا الليل. فلمّا رأوه عطفوا ومعهم 103

وصول أبي عبد الله إلى القصرين

(90) القصرين: مدينة بين قفصة والقيروان في الوسط الغربيّ من البلاد التونسيّة وقمودة هي المنطقة الواسعة من جهة السباسب بين قفصة والقصرين والقيروان، ومركزها سيدي بوزيد.

(91) دار مدين: جعلها الطالبي، 735/674، بين القصرين وسبيطلة. وصعد بها الدشراوي، 215، إلى «المدينة»، أي على مائة ميل شمالاً نحو الأربس والكاف. وكلا التأويلين مقبول، نظراً لقرب الداعي من القصرين من جهة، ولخروج الأغلبي من الأربس من جهة أخرى، حسب ما يفيده النصّ.

الطوالع فانهزم ابن أبي الأغلب بين أيديهم، وقتلوا جماعةً من أصحابه، وحجز بينهم الليل. وانصرف ابن أبي الأغلب إلى دار مدين. وكتب إلى زيادة الله بالخبر وأنه قد هزم أبا عبد الله وقتل عسكره. وزاد في القول ثمّ زاد فيه زيادة الله وقُرِىء على المنابر، وأشعر به الغائب من أهل مملكته والحاضر، فقطع ذلك الكثير من خوض (ر 60 ب) الناس في أمر بني الأغلب، وأظهروا أن لهم القوّةَ والغلب.

وقعة دار مدين

وعاد أبو عبد الله إلى إيكجان وابن أبي الأغلب إلى الأربس. فصار إلى ابن أبي الأغلب بنو وشنُو وبنو صنْدغايان من بني هراش[92] وكانوا قد دخلوا في طاعة أبي عبد الله. وأخرج أبو عبد الله لهم عسكراً قدّم عليهم غزوية بن يوسف وأبا مكدول فصبحوهم مع الصباح فقتلوهم قتلاً ذريعاً وانتهبوا أموالهم وعادوا إلى قصر الإفريقيّ وهو خالٍ، فنزلوا به.

انتصار بني ورديم على الأغلبيّ بقالمة

104

وكان ابن أبي الأغلب قد خرج يريد قتل بني ورديم[93] لدخولهم في طاعة أبي عبد الله فاتّصل خبره بأبي عبد الله فأرسل إلى غزوية وأبي مكدول. فحين أتاهم خبر ذلك مشَوا يومهم وليلهم حتّى نزلوا 'قالمة/. وأرسل أبو عبد الله أيضاً خمسمائة فارس إلى ناحية ورديم فوافَوا غزوية وأبا مكدول بقالمة. وانصرف غزوية وأبو مكدول إلى إيكجان، وصارت الخمسمائة فارس إلى حيث أرسلهم أبو عبد الله [فـ]ـقويت لذلك قلوب بني ورديم وناصبوا ابن أبي الأغلب فهزموه وقتلوا جماعةً من رجاله، وأعانتهم خيل أبي

---

(92) بنو وشنو وبنو صدعايات/وشو وصدعيات، من بني هراس في المخطوطين، ولا نعرفهم. وافترض الدشراوي، 219 هامش 4 أنهم سكان جهة سوق أهراس الحاليّة. واعتمد الطالبي، 736/675، على رواية الافتتاح فقرّبهم من تيفاش، وهي على كلّ حال قريبة من سوق أهراس.

(93) بنو ورديم: سكّان جهة 'قالمة.

عبد الله. ثمّ انصرف ابن أبي الأغلب إلى الأربس وعادت خيل أبي عبد الله إليه إلى إيكجان.

أبو عبد الله يعاقب بني ماجن الهواريّين

ونافق إلى ابن أبي الأغلب بنو ماجن من هوّارة وبلغ خبرهم أبا عبد الله فأخرج إليهم عسكراً من جيملة وإجّانة (ط 80) عليهم أبو مكدول وأبو يوسف ماكنون بن ضبارة فوافَوهم وقتلوا كثيراً منهم.

ثمّ إنّ أبا عبد الله جمع عساكر عظيمة وخرج يريد قسطيلية. فلمّا انتهى إلى باغاية وافاه الخبر من يحيى بن سليمان عامل طبنة أنّ جماعة من الأولياء كان (ر 61 أ) أرسلهم أبو عبد الله إلى المهدي بالله (صلع) بأموالٍ وكتب فأدّوا ما عندهم ورجعوا بجواب الإمام وكتبه، فلمّا رجعوا قطعـ[ـت] عليهم زناتة فقتلوهم، وقد دفنوا كتبَ الإمام التي معهم، وكانوا أربعة عشر رجلاً رحمة الله عليهم، ثم أصابهم مطر فاستفاق رجل منهم كان بقِي فيه رمق فأتى إلى عامل/ طبنة فأخبره الخبر وأعلمه حيثُ تركوا كتب الإمام، فأرسل عامل طبنة من أتاه بالكتب وأصدرها إلى أبي عبد الله. فغمّ أبا عبد الله ما أصاب الرسل غمّاً شديداً، وسُرّ سروراً عظيماً بسلامة كتب الإمام (عم) [من] أن يطّلع الفجّار عليها. وأراد أن يرسل عسكراً إلى زناتة فأجابه الأولياء موطّنين أنفسهم على الصبر، راجين الشهادة وعظيم الأجر[94]، واستُبعد المكان وأُخّرِ ذلك إلى أجل.

105

فتح قسطيلية وقفصة

وسار أبو عبد الله إلى قسطيلية فخرجوا إليه فقاتلوه قتالاً غيرَ كثير، ثمّ استسلموا إليه وسألوه الأمان فأمّنهم، وأخَذَ ما كان لزيادة

---

(94) هنا يختصر المؤلّف كلام الأولياء بما يغيّر فحوى إشارتهم، كما وردت في الافتتاح، 198/223: فقد ثناه أصحابه عن المسير إلى زناتة خوفاً من أن يخالفهم الأغلبي إلى بلدهم، واستبعاداً لديار زناتة، وتأجيلاً للانتقام منهم. وكلّ هذا لا يتفق مع عبارة المؤلّف: فأجابوه موطنين أنفسهم على الصبر.

الله ولرجالِه من الأموال بقسطيلية، وسار فنزل قفصة فسألوه الأمان فأمّنهم وأخذ ما كان لزيادة الله عندهم. ورجع إلى إيكجان بعد أن خلّف في باغاية أبا مكدول في خمسمائة فارس وغزوية في مثلها.

وكان إبراهيم بن أبي الأغلب قد استعدّ للخروج إلى أبي عبد الله وظنّ أنّه يريد الميروان. فحين (ر 61ب) رجع إلى إيكجان، خرج إبراهيم بن أبي الأغلب يريد باغاية، فأرسل أبو مكدول رسلاً إلى أبي عبد الله، فحين وصلت الرسل إلى أبي عبد الله أمر بضرب الطبول فتبادرت كتامة راكبين الصعب والذلول، عالين للوعر والسهول، مبادرين إلى باغاية. فأمر أبو عبد الله مَن حبس الناس، واختار منهم اثني عشرَ ألفَ فارس وقدّم عليهم أبا مديني وقال له: إن لحقت القوم/ إلى باغاية فقاتلوك فاحمل نفسَك عليهم، ولو حملتَها على الأسنّة، ولا يردّك رادّ عن الوصول إلى باغاية. وإن أصبتهم قد انصرفوا، فلا تجاوز فجّ العرعار. وانصرف أبو عبد الله بالجمع إلى إيكجان، ومضى أبو مديني فوجد ابن أبي الأغلب قد قاتل أهل باغاية وخرجوا إليه فقاتلوه قتالاً شديداً. وكان لغزوية في ذلك اليوم مقام مشهور، وجلاد مذكور، ولحارث المدغريّ، وكان بباغاية في ثلاثمائة من قومه. وكان زيادة الله قد أحسن إليه، فقال له إبراهيم بن أبي الأغلب: يا حارث، خذلك الله بإحساننا إليك!

ابن أبي الأغلب يحاول استرجاع باغاية...

106

... فيتصدّى إليه أبو مديني اللهيصي...

فقال الحارث: إحسان أبي عبد الله إليّ أكثر من إحسانكم، وفضله عليّ أكثر من فضلكم: بصّرني من العَمى وأنقذني من الجهل.

وقاتل في ذلك اليوم رجاء بن أبي قنّة قتالاً شديداً، وكان ممّن كان من الأولياء بباغاية وأبلى بلاءً عظيماً. فلمّا نظر أصحاب ابن أبي الأغلب إلى صبرهم في القتال، وجدّهم في مبارزة الأبطال، رأوا منهم ما هالهم، وخافوا ورود الغارات عليهم. فأشاروا

... فيردّه على الأعقاب

على إبراهيم فارتحل من الليل. وخرج أهل باغاية إلى مناخه فانتهبوا (ر 62 أ) ما ترك. وانصرف/ أبو مديني من فجّ العرعار راجعاً وقال: «هٰذا المكان الذي أمرنا الشيخ أن لا نجاوزه». ولحق ابن أبي الأغلب بالأربس.

107

وخرج الداعي أبو عبدالله أحمد بن زكريا من إيكجان في جمادى الأخرى من سنة ستّ وتسعين ومائتين (فيفري 909) لمّا طاب الزمان واعتدل ودخل فصل الربيع، في جمع عظيم وعدّة قويّة فنزل بمدينة باغاية وعرض عسكره فبلغوا مائتي ألفٍ بين فارس وراجل. وكان زيادة الله قد حشد وبذل وزاد فيه وبعث إلى ابن أبي الأغلب بالأربس من العساكر ما لا يحصِي عَدّه إلّا الله وحده (ط 82). وسار أبو عبد الله من باغاية حتى انتهى إلى مسكيانة فأخذ مع الوادي وانتهى إلى وادي مجّانة ثمّ خرج على مرماجنّة إلى وادي الرّمل[95] ونزل عليه. وأخرج خيلاً إلى منيولة[96] يوم الخميس لثمان بقين من جمادى الأخرى فانتهبوها. وجرّد أبو عبد الله خيلاً فضربت جريدة[97] منها إلى بني جودان[98] فوافَوا بها خيلاً كثيرة لابن أبي الأغلب فقاتلوهم، وأسر رجل من كتامة فأتيَ به إلى ابن أبي الأغلب فقتله رحمة الله عليه.

خروج أبي عبد الله إلى الأربس

(95) وادي مجانة: حسب تقديرات الطالبي، 739/677، هو وادي حريحير الذي ينزل من جبل الدير بالجزائر فينصبّ في وادي ملّاق بتونس قبيل التقاء وادي صرّات بوادي ملاق. ووادي صرات هو في نظرهِ وادي مرماجنّة. أما وادي الرمل فيصبّ في ملّاق في سفح جبل ورغة في الجنوب الغربي من الكاف. ويرى الدشراوي، 228 أنّ وادي مجانة إنّما هو وادي ملّاق نفسه.

(96) منيولة: لم يذكرها ابن حوقل ولا البكرّي، وسكت عنها الطالبيّ والدشراويّ. ويظهر أنّها على بضعة أميال في الجنوب الغربيّ من مدينة شقبنارية الكاف.

(97) الجريدة: الكوكبة من الخيل لا مشاة فيها. وتكثر عبارة جرّد الخيل والخيل المجرّدة في الكتاب، وهي بهذا المعنى.

(98) بنو جودان: مناهضون للدعوة، لا نعرف عنهم غير هذا.

ولمّا أصبح أبو عبد الله يوم السبت لستّ بقِين من جمادى الأخرى (/ 18 مارس 909) زحف إلى الأربس وقد ميّز عساكره وعبّأها فجعل /في الميمنة بني بنطاس وفي الميسرة بني منوا[99]، وفي القلب ملوسة ومسالتة. وانتقى واختار عشرة آلاف فارس من الدعاة ووجوه القبائل، فوقف بالعشرة آلاف على كدية مطلة على المدينة. والتحم القتالُ وأخذ الناس بعضُهم بعضاً ووقعت بينهم معركة عظيمة ومواقعة شديدة، وصبَر الجمعان، وكثر بينهم الضرب والطعان. واشتدّ القتل وأبوا الفرار، وأقام بينهم القتال مِن أوّل النهار إلى وقت العصر، وكلح أصحاب ابن أبي الأغلب، ولم يكن بإفريقية ونواحيها وأطرافها من عربها وبربرها ومن رجال زيادة الله أحدٌ من كماتها وحماتها إلاّ وقد كان مع ابن أبي الأغلب.

108

وقعة الأربس (24 جمادى 2 سنة 20/296 مارس 909)

ونظر أبو عبد الله إليهم وقد شقُّوا على أصحابه وأحسّ من أصحابه بعض الفشل وخاف عليهم الهزيمة فقال لمن حوله من المشايخ: «انتقُوا من الرجّالة مَن قدرتـم عليه وابعثوهم في هٰذه المسيلة ـ مسيلة تعرف بالمضارة ـ يستترون فيها حتى يضربوا في الخيل فلعلّهم أن يحرّكوهم». فانتقوا من الرجّالة خمسمائة وخمسة وسبعين رجلاً من أشدّ من قدروا عليه (ط 83) فأخذ كلّ واحدٍ/ رمحين ودرقة وساروا في تلك المسيلة. ووافق أن كان ابن أبي الأغلب دبّر ذلك التدبير وأخرج رجّالةً من قِبله في تلك المسيلة فوافى بعضهم بعضاً في موضع يعرف بالعرّة البيضاء على طريق الأربس، فوافق أوّل رجل طلع من الكتاميّين أوّل رجل طلع من أصحاب ابن أبي الأغلب (ر 63 أ) فحمل كلّ واحدٍ منهما على صاحبه فقتل الكتاميُّ الخارجَ إليه من جند ابن أبي الأغلب وحمل أصحابه على رجال ابن أبي

109

(99) بنو يعطاش وبنو بياوة عند الطالبي، 740/679. وقال. إنّهما قبيلتان لم يسبق لهما ذكر. وقرأت وداد القاضي، وكذلك الدشراوي: نبطاش وبناوة

الأغلب فانهزموا وقامت الصيحة فيهم فانهدّت عساكر ابن أبي الأغلب وانتقضت مصافُّها وداخلت خيلَها رجّالة أبي عبد الله وحملوا عليهم حملة واحدة فولّوا مدبرين وعلى أعقابهم ناكصين، وقصد كل قوم منهم جهة بلادهم. وقصد ابن أبي الأغلب فيمن معه جبل الحرّاقين، واتّبعهم الأولياء من كلّ ناحية يقتلون ويأسرون ويغنمون وقصد قوم منهم المدينة[100] فانتهبوا منها وقتلوا، ودخل الليل فانصرفوا إلى مناخهم.

أبو عبد الله ينزل العقاب بأهل الأربس لمؤازرتهم الأغلبيّ

وأمر أبو عبد الله بقصد مدينة الأربس حين أصبح، وذلك أنّ أهلها أصرّوا مع ابن أبي الأغلب فدخلها الأولياء قهراً بالسيف فقتلوا بها ما لا يُحصى وانتهبوها وأقاموا بها يومَ الأحد. وانصرف أبو عبد الله بجميع العساكر/ يوم الاثنين وأخذ على دقّة[101] يريد قمودية والناس يظنون أنّه يريد قسطيلية.

110

هروب زيادة الله إلى طرابلس

وهرب زيادة الله من رقّادة حين أتته الهزيمة يوم الأحد بعد صلاة الظهر، وأيقن أنّه لا يقوم له أمر بعد انهزام عسكر الأربس لأنّه لم يترك شيئاً من القوّة والمال والرأي والحيلة والبذل والإنفاق إلّا وجّه ذلك إلى الأربس. وكان قد تقدّم في شري الأمتعة واستعدّ للحرب، فلمّا أتاه خبر الهزيمة أظهر أنّه جاء (ر 63 ب) الفتح وأرسل إلى السجن فأتي برجال منه فضرب أعناقهم واجتزّ رؤوسهم وأمر أن يطاف بها في القيروان والقصر القديم[102]، وأخذ في ضمّ حوائجه

---

(100) المدينة: لعلّها قرية المدينة الواقعة على أنقاض Althiburos الرومانيّة. وتبعد بتسعة أميال في الحنوب الشرقيّ من أبة قصور أو قصور أبّة.

(101) دقّة المعنيّة هنا ليست المدينة الأثريّة Thugga الواقعة قرب تبرسق في الشمال الشرقيّ من الأربس. في حين أنّ قمودة بعيدة في الجنوب، بعد سبيبة وسبيطلة فدقة هنا إنّما هي تكّة Thucca المدينة الأثريّة أيضاً الواقعة جنوب قرية القصور حاليّاً في اتجاه الروحيّة أو مكثر.

(102) القصر القديم: ضاحية «العبّاسيّة» على أربعة أميال جنوب القيروان. كان إبراهيم =

ورفع ثقله وأمواله، وأرسل إلى خاصّة أهل بيته ورجاله وعرّفهم ما جاءه من الخبر فأشار ابن الصائغ بالمقام فاتهمَه وقال له: «هٰذا تصديق ما قيل فيك أنّك تكاتب الشيعيّ، وإنّما تريد أن توقعني في يده». فسكت عنه ابن الصائغ.

وأخذ زيادة الله في شدّ الأموال ونفيس الخلع والسلاح والجواهر وانتجب من عبيده الصقالبة ألفَ خادم وجعل على وسط كلّ واحد منهم منطقة فيها ألف دينار من العين. فلمّا نادى المؤذّن لصلاة العشاء/ الآخرة، خرج من رقّادة واتبعه الناس يهتدون بعده بالمشاعل. ووقف بعده ابن الصائغ ساعةً ثمّ ركبَ يريد قصرَ سوسة، [وكان قد أعدّ مركباً لنفسه ليركب إلى صقلّيّة[103]].

111

ووصل زيادة الله أطرابلس يريد مصر. وصرفت الريح مركب ابن الصائغ إلى أطرابلس. فحين علم أنّ زيادة الله قصدها، وأنّه قد صار فيها، أتاه واعتذر إليه أنّه كان معه من الأحمال ما أثقله أن يكون طريقُه مع البرّ. وأتى زيادةَ الله بعض مَن كان مع ابن الصائغ فأعلمه أنّ قصدَه كان إلى صقلّيّة[104] فصرفته الريح إلى أطرابلس، فعلم براءتَه ممّا نُسِب إليه من مكاتبة أبي عبد الله: فلو كان ذلك

زيادة الله يقتل ابن الصائغ

= الأوّل اتّخدها قاعدة لملكه سنة 184 ثمّ، بعد استحداث رقّادة سنة 264، صارت العبّاسيّة تعرف بالقصر القديم (انظر ح. ح. عبد الوهاب، ورقات، 358/1).

وبقي القصر القديم مقرّاً للأسر الأغلبيّة وحشمهم وخدمهم. وتواصل ذلك في العهد الفاطميّ، إذ أسكنه الفاطميّون أنصارهم من كتامة (انظر ص 170)

وموقعه اليوم يعرف بـ «هنشير البركة» على خمسة أميال من باب الجلاّدين الحالي، حسب تحقيق ج. هوبكينز J. Hopkins في فصله عن سوسة عند الجغرافيين العرب، ص 86.

(103) في الجميع: يريد قصد سوسة. والإصلاح من الافتتاح، 207/235.

(104) في الجميع: إلى سوسة.

لأقام برقّادة. ثمّ إنّ زيادة الله حمله رجاله على ابن الصائغ فقتله.

وأمّا إبراهيم بن أبي الأغلب فإنّه وصل إلى القيروان فيمن انضمّ إليه بعد الهزيمة يوم الثلاثاء. فلمّا علم مَن معه بهروب زيادة الله (ر 64 أ) تفرّقوا عنه فلم يبق معه إلّا قليل. فدخل إلى قصر القيروان ونادى مناديه لمن فيها بالأمان، وأراد أن يقيم ما انحلّ من الملك ويقوّمَ أمره ويجعل ذلك له. وجمع فقهاء القيروان وذكر ما كان لزيادة الله من سوء الأحوال، والإقبال على اللهو والانهماك/ فيه والاشتغال، وأنّه يقيم العدل والإنصاف، ويحتال في دفع أهل الخلاف، وقال: «إنّما أتيتُ إليكم لأجاهد دونَكم» وطالب أهل القيروان أن يسلفوه شيئاً من أموالهم وما في أيديهم من الودائع لغيرهم. فقالوا: «نحن رعيّة لمَن غلب، وليس عندنا ما يقيم السلطان، ولا نستطيع أن ندفع ما ألمّ من (ط 85) معظم الحدثان». فانحلّ أمرُه وبطَل كيدُه، فركب وخرج من القيروان ولحق زيادة الله فوافاه بأطرابلس وعنّفه على ما كان منه من الخروج عن دار ملكه وموضع أمره، وأنّه لو أقام لرجا أن يقوم له الحال وينضمّ إليه الرجال.

إبراهيم بن أبي الأغلب يحاول إنقاذ الإمارة...

112

... لكنّه لا يجد مساندة من القيروان...

... فيلتحق بزيادة الله

ووجد زيادة الله أبا العبّاس محمد بن زكريا أخا أبي عبد الله باطرابلس وكان قد وافاه بالقيروان فحبسه لما رُفع إليه أنه أخو أبي عبد الله وإليه مقصده. ثم إنّـه خرج من السجن لمّا هرب زيادة الله، ولم يستطع أن يلحق بأخيه أبي عبد الله فوافى أطرابلس ووافق فيها الجَزريّ[105] وهو من دعاة المهديّ (عم)، وكان (ر 64 ب) المهديّ أرسل الجَزريّ بحرمه فاجتمعا في أطرابلس، هو وأبو العبّاس. وكانا إذا اجتمعا وحدهما/ فأمرهما واحدٌ وإذا كانا في الناس أظهر كل منهما

زيادة الله بطرابلس يغفل عن أبي العبّاس...

113

(105) أبو جعفر الجـزري، لا الخزري كما في الكتاب: سيولّيه المهديّ على بيت المال بعد انتصاب الدولة (ابن عداري، 159/1).

الطعنَ على صاحبه وأرى أنّه على غير مذهبه وجعلا يتناظران وكان ذلك الذي يظهر منهما مدّة إقامتهما بأطرابلس.

فلما وجد زيادة الله أبا العبّاس قال له: «أنت أخو الشيعيّ؟»

قال: لو كنت أخاه لقصدت مقصده ويمّمْتُ بلدَه.

... وعس الجزريّ وكيل المهديّ

فقبل بذلك عذره وأطلقَه بعد أن تواعده. ووافى الجَزري زيادة الله فسلّم عليه وكان لا يزال عنده وهو وكيل الإمام (عم) على حرمه. وكان مس أفضل مَن عنده، وزيادة الله لا يعرفه. ولمّا خرج زيادة الله من أطرابلس، شيَّعَه الجَزري ودموعه تسيل على لحيته وهو يقول: «لمَن تتركنا يا سيّدَ العرب؟» وزيادة الله يُثني عليه ويذكره بالخير. وقيل للجَزري بعد ذلك: إنّ الكـلامَ قد يُتصَنَّعُ، فكيف بالدموع؟ وأنّى تهيّأ لك ذلك؟

فقال: والله ما بكائي إلّا حزنـا على عدوّ الله لمّـا خلص سالماً!

وقصد زيادة الله إلى مصر، وعاملها[106] يومئذٍ النوشريّ. وقد

حلول ابن أبي الأغلب بمصر

كان زيادة (ط 86) الله طرد إبراهيم بن أبي الأغلب وأقصاه، واتّهمَه وعاداه، ففرّ منه لمّا خافه، ودخل إلى صاحب مصر، فَلام زيادة الله عنده، وخوّفه شرّه وقال له: «إنّه كان من سوء حاله أن ترك/ ملك الغرب. وأقبل إلى الشرق يريد أن يملكه». فخافه النوشريّ[107].

114

ثمّ إنّه دخل زيادة الله إلى مصر فأقبل على اللذات والانهماك

(106) في الجميع. وملكها. والتصويب من الافتتاح.

(107) في الجميع: فخافه النوشريّ واغتاله. وهو غير صحيح، لأنّ رواية الافتتاح، 228/264 ـ وهي أطول بكثير ـ تقول إن ابن أبي الأغلب استجار بعامل الاسكندريّة فأجاره.

وفـاة زيادة الله بالقدس

فيها. وكوتب الخليفة العبّاسيّ بسوء حاله وسقط أمرُه عنـد الناس. وكان يريد أن يستنصر بالعبّاسيّ فتهاون كلّ به وآل أمره أن مات في بيت المقدس، وقد ساءت حاله ونفد مالُه.

وكان هروب زيادة الله يوم الاثنين (ر 65 أ) فأصبح أهل القيروان والناس من كلّ مكان إلى قصور زيادة الله ينتهبون أموالَه ويحملونها، ويلقى القويّ الضعيفَ فيسلب ما في يديه حتى أفنوا ما فيهـا، وصاروا إلى انتزاع الحديد عن أبوابها. واجتمع إليها الذعّار مِن الطرقات فلم يبق سلب ولا نهـب إلا برقّادة.

انتهاب قصور الأغالبة برقادة

وحين بلغ أبا عبد الله خبرهرب زيادة الله أخذ على سليانة[108] ونزل وادي الرمل فبات به. فلمّا أصبح قدّم غزوية وحسن بن أبي خنزير [في ألف فارس] إلى رقادة وأمرهم أن لا يعترضـوا أحداً بمكروه. فوصلت خيل الداعي أبي عبد الله إلى رقادة وأصابوا الناس ينتهبون الطعام وما بقي. فلمّا رأوهم هربوا وخافوا منهم فأمّنوهم ولم يعارضوهم في شيءٍ، وتـركوا كـلّ واحدٍ منهم ومـا حمل، ومنعوهم ما بقِي. فحين بلغ/ أهلَ القيروان ما كان من أصحاب أبي عبد الله للناس برقّادة من الأمان، سرّهم ذلك. وخرج أهل القيروان وفقهاؤها للقاء أبي عبد الله فسلّموا عليه وهنّؤوه بالفتح، فردّ عليهم أحسنَ الردّ وأقبل عليهم بوجهه. وأمرهم فركبوا دوابّهم. ودعا وجـوههم فـاستصحبهم وحـدّثهم وأمّنهم في أنفسهم ومـا ملكتـه أيديهم، فسرّهم إقبَالُهُ عليهم وما رأوه من تواضعه لهم، ووصفوا له ما في قلوبهم من الرغبة إليه، فقال لهم: «قد أخـذتم بحظّكم

115

لقاء أبي عبد الله مع فقهاء القيروان

(108) في الجميع. سكتانة. وأخذنا بقراءة الدشراوي، 243. والطريق من سليانة إلى سبيبة أو القيروان لا تمرّ بوادي الرمل القريب من مدينة الكاف (شقبناريّة). فحتى قراءة سليانة تخمين، ولعلّ سكتانة موضع بين دقّة والأربس.

ونظرتم لأنفسكم وعملتم بما فيه نجاتُكم وما يعود بالنفع عليكم في عاجلكم وآجلكم». ثمّ ذكروا له أخبار زيادة الله (ر 65 ب) ووصفُوا سوءَ حاله وذميمَ أفعاله، فأعرض أبو عبد الله عن ذلك. فحين أطنبوا فيه، وأكثروا القول في مساويه قال لهم: «أئمّتُه الذين ولُّوه وآباؤُه وآباؤُهم أسوأ حالاً وأقبحُ أفعالاً. ولو علمتم ورأيتم أحوال بني العبّاس وما هم فيه من الفسق وسوء الحال والإقبال على الشراب، لما تعاظمكمُ ما رأيتم من هٰذا الذي تصفون، ولسوء حاله تذكرون».

دخول الداعي رقادة (1 رجب 26/296 مارس 909)

ودخل أبو عبد الله داعي الإمام المهديّ بالله سلام الله عليه وعلى آبائه، رقّادة يوم السبت غرّة شهر رجب سنة ستّ وتسعين ومائتين، فنزل ببعض قصورها، وفرّق/ دورها على كتامة. ولم يكن بقِي بها أحد من أهلها، بل خرجوا بخروج زيادة الله فتفرّقوا في البلاد. ونزل قوم من كتامة أيضاً بالقصر القديم في دور الهاربين مع زيادة الله وفيما حول رقّادة فكانوا كالجراد المنتشر. وأورثهم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ببركة الإمام المهدي بالله (عم) وما أراد الله من إظهار أمره وعلوّ كلمتِه.

116

الحيعلة بالقيروان

وأمر الداعي أبو عبد الله المؤذّنين بالأذان بحيّ على خير العمل، ونادى مناديه للناس بالأمان، وشمَلهم بالعدل والإحسان، ونهى عن شرب المسكر وفعل المنكر، وأخاف الذعّار والمفسدين، فصار الناس بالعدل مشمولين، ومن الجور آمنين، فحقنت الدماء، وسكنت الدهماء.

وقدّم[109] أبو عبد الله خطيباً بجامع القيروان، وأمر بعد حمد الله تعالى (ر 66 أ) بالصلاة على النبيّ محمد المصطفى، وعلى أمير

(109) ر: وقام خطيباً. ولا ذكر لخطبة منه في الافتتاح، 249.

المؤمنين عليّ بن أبي طالب، وعلى الحسن والحسين، وفاطمة الزهراء، صلوات الله عليهم أجمعين.

وأمر بضرب السكّة ونقشت فيه من وجه: — السكّة الجديدة

بلغت حجّة الله

وفي الوجه آخر:

تفرّق أعداء الله.

ونقش في سكّة أخرى:

الحمـد لله ربّ العالمين، والعاقبة للمتّقين

ونقش على السلاح:

عدّة في سبيل الله

ورسم في [أفخاذ] الخيل/ 117

الملك لله

ونقش في فصّ خاتمه:

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّـكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ (النمل، 79).

وفي الخاتم الذي يطبع به [كتبَهُ]:

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً، لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِـهِ، وَهُوَ ٱلسَّمِيـعُ العَلِيمُ ﴾ (الأنعام، 115).

وظهر للناس منه ومن أصحابه من العدل والتقشّف والورع والأعمالِ الصالحة ما اشتهر في جميع الآفاق، وعرفه أهل الخلاف والوفاق.

وولّى أبو عبد الله على القضاء في مدينة القيروان محمد بن عمر المروزي، وكان له نظر في الفقه من قول أهل البيت (صلع) وتشيّعٌ قديم. وكانت ولايته للقضاء في أوّل شهر رمضان أحد شهور سنة ستّ وتسعين ومائتين.

المروزيّ أوّل قاضٍ شيعيّ بالقيروان

ووصل أبو العباس محمد بن أحمد أخو أبي عبد الله إليه إلى رقّادة فسرّ بقدومه. وكان أبو عبد الله يعظّمه. وإذا دخل قام على وجهه على قدميه، ومكث قائماً حتى يأذن له بالجلوس. وإذا دخل أبو عبد الله قبّل يده ووقف حتى يأمره فيجلس. وكان أبو العبّاس أسنّ من أبي عبد الله وأقدم سابقةً وأقرب بالإمام عهداً وأحدّ ذهناً. وكان أبو عبد الله (ر 66 ب) أرجَحَ حِلْماً وأحسن ورعاً وزهداً من أبي العبّاس.

أبو العبّاس يناظر الفقهاء

واجتمع شيوخ القيروان وفقهاؤها إلى أبي العبّاس وناظر الفقهاء في الإمامة وفيما خالفوا فيه/ أهل البيت من قِبل الفُتيَا فقطعهم في ذلك وعجبوا من قوّة حجاجِه ونفاذ قوله.

118

وظهر العدل وقامت الدعوة إلى الإمام المهديّ بالله (عم)، وانقطعت دولة الجبّارين في الغرب. وكان ظهور أبي عبد الله رحمة الله عليه كطلوع الفجر حتى ظهرت الشمس وعلت، وظهر المهديّ بالله (عم) من كهف سَتره وعلت دعوته واشتهرت، فخفيت النجوم وظهر نور الله الحيّ القيّوم. وسنذكر من ذلك ما يعين الله على إيراده وإصداره، بتوفيقه (تع) ومعونته وإرشاده. والحمد لله ربّ العالمين، وإيّاه نعبد وبه نستعين، وصلّى الله على سيّد الآدميّين، محمد خير النبيّين، وعلى وصيّه عليّ أمير المؤمنين، وعلى الأئمّة من ذريته الطاهرين.

الفصل الرابع

خلافة المهديّ

(934 322 – 909/297)

ذكر نبذ ممّا كان من أمر مولانا
الإمام المهدي بالله
صلوات الله عليه وعلى الأئمّة الطاهرين
من آبائه وأبنائه، وسيرته

وما ناله من الامتحان، والتنقّل من مكان إلى مكان، حتى قضى الله بظهوره، وعلوّ دعوته، وأخبار ممّا كان في أيّامه إلى انتهاء عمره صلوات الله عليه، وتمامه.

119

مولد المهديّ بعسكر مكرم (شوّال 260)

كان مولد أمير المؤمنين المهديّ بالله أبو محمد عبد الله بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق سلام الله عليهم، في/ سنة ستّين ومائتين في الليلة المصبحة عن يوم الاثنين الثاني عشر من شهر شوّال. وقيل: بل كان مولده في سنة تسع (ر 67 أ) وخمسين ومائتين.

وولد عليه السلام بمدينة عسكر مكرم من خوزستان. ثمّ إنّ والده (عم) انتقل به إلى سلميّة، وفيها كان منشؤه. واستكفل له أبوه عمّه أبا عليّ الحكيم، وهو محمد بن أحمد المكنّى «سعيد الخير» على ما قدّمنا ذكره[1]. وكان عمّ الإمام (عم) هو الذي أنفذ الداعي المنصور أبا القاسم إلى اليمن بعد وفاة والد المهديّ

(1) تقدّم في السبع الرابع، 402.

بالله (ص) على ما ذكره صاحب سيرة الإمام المهديّ[2].

كفالة عمّه سعيد الخير له

قال صاحب السيرة: «وكانت وفاة أبي الإمام المهديّ عليهما أسنى السلام، وكفالة عمّه له، وعمر المهديّ (عم) ثماني سنين».

وتزوّج المهديّ (عم) ابنةَ عمّه أبي علي الحكيم (رضي الله عنه)، ومنها كان ولدُه الإمام القائم بأمر الله، فوُلد الإمام القائم بأمر الله محمد بن عبد الله (ص) سنة ثمانين ومائتين.

قال جعفر الحاجب رحمة الله عليه: «وتوفّي الإمام قدّس الله روحه بعد تزويجه المهديّ بالله (عم)/ بأيّام يسيرة[3]. وولي سلمية غلام تركيّ من (ط 90) بغداد فأحسن إليه المهديّ بالله، كما كان الأئمّة يحسنون إلى من يلي للتقيّة منهم وما يخافون من شرّهم. وتابع الإحسان إلى التركيّ حتّى استراب به لجزيل ما يوليه، فسأل قوماً من أهل البلد عن سبب إفراطه في الجميل، وهو لا يسأله شيئاً، فقال له بعضُ مَن كان يحسد الإمام (عم): «هٰذا فعلُهم مع كلّ من يلي البلد حتى يردّوهم خَوَلاً وعبيداً، وإنّه يُرمى بأمر عظيم ويقال إنّه يملك الشرقَ والغرب، وله في كلّ بلدٍ (ر 67 ب) داع وأموال أكثر من أموال الخلفاء». فلمّا سمع التركيّ هٰذا القول أخذه الطمع وتابع السؤال للمهدي في الحوائج الكبار التي تجاوز المقدار، فإذا قضيت حاجتُه فيها سأل غيرَها حتى ربّما سأل في اليوم الواحد عشر حوائج وأكثرَ، فِعلَ مُغتنم. فعلم المهديّ (عم) مرادَه وكتب إلى الدعاة ببغداد أن يبذلوا في عزله عن البلد، ففعل الدعاة ما أمروا به وعُزل التركيّ، وقد علم من حيث أتِي. فرفع إلى الخليفة العبّاسيّ

120

طمع والي سلميّة في أموال المهديّ...

... وعزله بسعي من المهديّ

(2) سيرة المهديّ مجهولة المؤلّف. ذكرها نوناوالا في ثبته، 318، مستهشداً بهذه الإشارة من الداعي إدريس، لا غير.

(3) سيرة جعفر الحاجب، 109، باختصار شديد من الداعي إدريس

المعتضد[4] ما انتهى إليه وقيلَ له في المهديّ بالله (ص) وسأل أن يُردّ للقبض عليه. ووافق ذلك خروج القرمطيّ أبي مهزول[5] لعنه الله، وكان أبوه أحد دعاة الإمام (عم)/. وكان أبو مهزول وأخوه راجيَين أن يكونا في مقام أبيهما، فلمّا علم الإمام سوء سريرتهما وخبث سيرتهما، أعرض عنهما وأمر الناس برفضهما، فحملهُما ذلك على أن فارقا دعوة الإمام ودخلا في مذهب القرامطة الرافضين لشرائع الإسلام، فاجتمع إليهم ناس كثير، وأشاع الناس أنهم من قِبل المهديّ (عم) قاموا، وهم قد فارقوا دعوتَه وفي ضلال الأباطيل هامُوا، وهو وآباؤه والأئمّة من أبنائه والتابعون لهم بريئون منهم، وممّن غيّر في دين الله وبدّل، ولشريعة محمد (ﷺ) أو لركنٍ من أركانها رفض وعطّل/

121

خروج أبي مهزول القرمطيّ عن الدعوة...

فخرج الإمام (صلع) من سلميّة لسنة ستّ وثمانين ومائتين، وقد اشتهرت دعوتُه وانتشرت، وقامت (ر 68 أ) دعاته وظهرت في اليمن والغرب إلّا أنّه لم يعرف (ط 91) اسمُه، وفي أيّ موضع محلّه، وكانت الدلائل فيه ظاهرة وعلامات الإمامة مشتهرةً. وترك أهله وذخائرَه في

... يحمل المهديّ على ترك سلميّة (سنة 286)

---

(4) تولّى المعتضد من سنة 892/279 إلى ربيع الثاني 902/289.

(5) جاء في رسالة «استتار الإمام» أنّ أبا مهزول وأخويه أبا القاسم وأبا العبّاس ـ وثلاثتهم أبناء أبي محمد داعي الكوفة ـ شقّوا عصا الطاعة في وجه الإمام لأنه خلعهم عن خلافة أبيهم في الدعوة بالكوفة، فتهدّدوا المهديّ وداعيه أبا الحسن ابن الأسود داعي الدعاة بحماة. فكان تمردهم سبباً من أسباب مغادرة المهدي سلمية (استتار الإمام، 96).

ويضيف الكتاب أنّ أبا مهزول أُخذ وحمل إلى بغداد وصلب هناك بحضور المعتضد على أنّ ابن الأثير (الكامل، حوادث 191) والمقريزي (اتعاظ، 230) جعلا الظفر بـ «صاحب الشامة» أو «صاحب الخال» ـ وهو لقب الحسين بن زكرويه القرمطيّ ـ ثمّ قتله، في خلافة المكتفي سنة 291 وكنية الحسين هذا. أبو العباس، لا أبو مهزول ولعل أبا العباس ابن زكرويه، وأبا مهزول ابن أبي محمد الداعي هما شخص واحد

سلميّة وخرج معه ولدُه محمد بن عبد الله القائم بأمر الله (ص)، وخرج أبو جعفر الجزريّ وكان أحدَ دعاة الإمام، بحرمه، ومعه مملوك للإمام المهدي يقال له جعفر، قبل دخول القرمطيّ إلى سلميّة. ولمّا قوي أمر اللعين/ أبي مهزول القرمطيّ قتل أبا الحسين داعي الدعاة من قِبل المهدي بالله الذي جعل الدعاةَ تحت يده يرجعو[ن] إليه فيستمدّو[ن] من علمه، وقتلَ معه كثيراً من شيعة الإمام. وخرج اللعين بعد ذلك إلى سلميّة فأقام أياماً خارج المدينة حتى بلغه أنّ عساكر بني العبّاس قد أتته قاصدة له تروم أخذَه واستئصال شأفته. فدخل مدينة سلمية وأظهر أنَه يريد الحمّام. ثم قصد دار المهديّ، وكان قد وضع السيف في العبّاسيّين ولم يعرض لدار المهديّ ومَن فيها، فظنّ الناس أنّه لا يعرض لمَن في قصره ولا يُخالِف ما يرِد عليه من أمره فجاؤوا بذخائرهم [و] ما يعزّ عليهم من أمتعتهم فتركوه في قصر الإمام. فلما دخل دار الإمام سأل عن «لعب»، وهي أمّ ولد للإمام (عم) فدلّ عليها وكانت عالمة بذخائر الإمام وكانت حين بلغ دخول القرمطيّ اللعين إلى قصرهم قد هربت واختفت (ر 68 ب) فأمر القرمطيّ مَن أتاه بها، ومعها ولدٌ للإمام المهديّ بالله، طفِلٌ. فقال لها القرمطيّ: أين مولاك؟ ولمَ خرج من قصره ونعمته؟

122

القرمطّي يدخل سلميّة وينتهب قصر الإمام..

فقالت: إنه خرج فيما لا بدّ منه، وهو مزمع على القدوم.

فقال لها: أين ذخائره وماله؟

قالت: لا أعلم.

123

فسألها عن/ ذلك ولاطفها. فحين أبت أن تعلمه، وعرف أنّها بسرِّ مولاها لا تكلّمه، أمر بها وبولد الإمام الذي في حجرها فقُتِلا وقتل جماعة من قرابات الإمام (عم) وحرمه وخدمه وحشمه رحمة

الله عليهم. وأمر بهم فألقُوا في صهريج من الدار. وانتهب ما وجد في دار الإمام، وخرج لعنه الله.

ووافته عساكر البغدادي وفيهم التركيّ الذي كان ولي سلميّة فقاتلهم القرمطي فتفرّق عسكره وأُخِذ أسيراً. ثمّ قالوا لأهل سلميّة: أنتم الذين أفسدتْم على الخليفة واستدعيتُم القرمطيّ إليكم، فأروهم الصهريجَ ومَن فيه من القتلى [و] قالوا: هٰذا فعل القرمطيّ معنا ودليل على براءتنا ممّا قلتم فينا. فصدّقوا قولهم وانطلقوا بالقرمطيّ إلى بغداد فكان يُضرَبُ ويقال [له]: لأيِّ شيءٍ خرجت؟ وما سبب خروجك؟ فأظهر لهم أنّه إنّما خرج بأمر المهديّ بالله، وأنّه الذي أمره بذلك، ووصف لهم صفته وعلامتَه، وكان اللعين يعرفه[6]. وعرّفَهم أنّ داعيَ اليمن وداعيَ الغرب يدعوان إليه ويدلّان عليه، فكان ذلك ممّا زادهم تصديقاً لقول القرمطيّ اللعين. وتلك منه مكيدة يريد ليطْفِيء نور الله ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَو (ر 69 أ) كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾ (الصفّ، 8). فأمر الخليفة/ البغدادي إلى البلدان وبثّ رسلَه إلى كلّ مكان يسأل عن صاحب تلك الصفة والعلامة، ويأمر عمّاله بالقبض عليه. فلم يبلغ بذلك مرامه وحمى الله وليَّه من كيدِ الكائدين، ودفع عنه شرّ أضداده المعاندين.

ثمّ يقبض عليه فيزعم أنّه ثار بأمر من الإمام...

124

فيأمر الخليفة العبّاسيّ عمّاله بطلب المهديّ

وسار الإمام (عم) مهاجراً، ومعه ولدُه محمد أبو القاسم، وقد اشتهر ذكره وفشا خبرُه، ودلّت عليه آياتُه، وتبيّنت للناس علاماتُه. وما برِح العبّاسيّ يمعن في طلبه، ويكتب إلى كلّ عامل بسببه، واللّه (تع) يحفظُه ويكْلَؤُه، وبعينِ رعايتِه يتولّاه حيث نزل، وأنّى أقام ورحل، والمهديّ (عم) أوانَ هجرته حين استوى شبابُه، والإمام أبو القاسم حدَث، ومعهم غلامهم جعفر الحاجب وفيروز.

---

(6) يعرفه لأنّه كان دخل إليه عند استتاره بالرملة (استتار الإمام، 98).

وكان فيروز من أكبر الدعاة فغيّر وبدّل، وضلّ وأضلّ، وسنذكر من أمره في موضع ذكره.

المهديّ يصل إلى دمشق...

وممّن صحب الإمـام (عم) طيّب الحاضن، وأبـو يعقـوب القهرمان[7] ومحمد بن عزيزة. وكان الإمام قد أظهر لأصحابه أنّه يريد اليمن. وخرج من دمشق وقال لأصحابه: جدّوا في (ط 93) السير فاليوم يرد الرسول في طلبِنا إلى دمشق فساروا ذلك اليوم واليوم الثاني وانتهَوا إلى طبريّة، ووجدوا الداعي الذي كان للمهدي (عم)/ بها على ظهر الطريق قائماً ينتظرهم. فلمّا رأى الإمام سلّم عليه وعرّفه أنّ كتاب داعيه الذي بدمشق ورد على جناح الطيـر[8] يذكـر أن الرسول ورد إلى عامل دمشق في طلب الإمام. فسار الإمام من ساعته (ر 69 ب) ولم ينزل بطبريّة، حتى إذا انتهى إلى الرملة نزل بها عند عاملها، وكان مأخوذاً عليه عهد الإمام (عم).

125

قال جعفر الحاجب رحمة الله عليه في سيرتـه: «فلم يدر

---

(7) هنا يجمع المؤلّف بين روايتي «استتار الإمام» و«سيرة جعفر الحاجب» ففي الاستتار، 97: «فأخذ معه أبا القاسم ولده وجعفر الحاجب وابن بركة الحاضن لا غير».

وفي السيرة، 110، ينصاف فيروز وأبو العبّاس الداعي ـ الذي رأينا دوره بالقيروان في الفصل السابق ـ وأبو يعقوب القهرمان، ومحمد بن عزيزة

وبانتهاء رسالة الاستتار، يأخذ إدريس في النقل عن سيرة جعفر، بالتصرّف المعهود.

وقد درس السيرة وترجمها وعلّق عليها كل من الدار قاطو وماريوس كانار في مجلة هيسبيريس المغربية، ومنها استقينا المعلومات التالية عن أصحاب المهدي:

ـ طيب الحاضن: مملوك أوكل إليه المهدي تربية ابنه القائم (وابن عذاري، 158 يسميه. أبو الحسن طيب بن اسماعيل المعروف بالحاضن).

ـ أبو يعقوب القهرمان، أي. خادم القصر: مملوك نصراني من عبيد الإمام.

ـ محمد بن عزيرة ـ ابن عزيز في نسختنا: هو ابن خالة جعفر الحاجب.

ـ فيروز داعي الدعاة: هو الذي خلف أبا الحسين بن الأسود على الدعوة بحماة.

(8) أي بواسطة حمام الزاجل.

العاملُ من السرور بالإمام كيف يخدمه، وقبّل يديه ورجليه. فأذكر [و] أنا قائم على رأس المهديّ، وهو وفيروز والعامل يتغدَّون إذ ورد عليه النجّاب[9] الذي ورد من بغداد إلى دمشق بكتـاب العبّاسيّ بالقبض على الإمام (عم)، وذكرَ صفتَه فقرأه العامـل ودفعه إلى المهـدي. فلمّا وقف عليه انكبّ على رجليَ المهـديّ يقبّلهمـا ويبكِي. فقال له الإمام: «طب نفساً وقرّ عيناً، فوالذي نفسِي بيده لأملِكَنّ وليملك ولَدي كثيراً من ممالك بني العبّاس. فلا تخشَ، فما ترى شيئاً تكرهُهُ». فكتب العامل إلى صاحب دمشق جواب الكتاب بأنّه ما رأى هٰذا الرجل ولا عرف صاحبَ هٰذه الصفة ولا علـم بجوازه إن كان جاز. «وإن لم يكن جاز فنحن نرصدُه/ على جميع الطرق إن شاء الله». فجدّد الإمام ذلك اليوم البيعةَ على عامل الرملة وأقام عنده يومَه وليلتَه. (قال): وسقطت في تلك الليلة النجـوم[10]، والمهدي والقائم على سطح دار العامل، والعـامل

.. ثمّ إلى الرملة...

126

... فيشهد سقوط النجوم بسمائها...

(9) النجّاب: ناقل البريد من موضع إلى موضع على النجائب، أي الإبل (المعجم الوسيط فقط، والكلمة مولّدة).

(10) سقوط النجوم: اهتم الباحثون الغربيون بـ «مطر النجوم» هذا، واستعانوا بالتاريخ الذي ذكرته السيرة ـ ولم ينقله الداعي إدريس ـ وهو: رجب 289 (حوان ـ جويلية 902) ـ لتحديد المدّة التي قضاها المهدي في رحلته وتحديد تاريخ وصوله إلى سجلماسة فاعتمد البار قاطو في فصله المذكور ص 386 على إشارة مماثلة وردت في البيان المغرب، 133/1: «وفيها ـ أي سنة 289 ـ تساقطت النجوم لثمان بقين من ذي القعدة» (28 أكتوبر 902) فقال: لعل هذا الحدث الطبيعي هو نفسه الذي ظهر في سماء الرملة وبالأندلس والمغرب. فيكون وصول المهدي إلى مصر في أواخر 289، لا بعد 291 أو في غضون 292 كما تقول بعض المصادر الأخرى وانظر التعليق الهام الذي تناول به ماريوس كانار هـذه القضية في ترجمته لسيرة جعفر الحاجب، ص 289 هامش 4. وقد نبّه البار قاطو، ص 387 إلى إشارة أخرى عند ابن عذاري، 214/1 تقول: «وكان وصول المهدي إلى مصر في زي التجار سنة 289»، ممّا يدعم القول بأنّه بارح الرملة في هذه السنة. غير أنّ ابن عذاري يضيف: «وكان ظهوره بسجلماسة في ذي الحجّة سنة 296».

.. فيقول لأصحابه: إنّها إحدى علامات ظهوره.

معهما وأصحابهما ينظرون إليها، وقد انقلبـ[ـت] المدينة من الناس بالدعاء والابتهال إلى الله (عج). (قال جعفر:) فرأينا المهديّ (عم) وقد (ط 94) شدّ على يد العامل وقال له: «هٰذه إحدى دلائلي وبعض علاماتي». ودعا الإمام في تلك الليلة محمد بن عزيزة فقال له: «نحن نسير بالغداة على بركة الله وعونه (ر 70 أ) وارجع أنت إلى سلميّة، فاجمع ما قدرتَ عليه من الغوغاء وسبَّنا بما قدرت عليه، واحمل العامّة على هدم دورنا، فإذا صحّ ذلك فاعمل على أن تقلب العلوَّ على البِركة التي تحته حتّى لا يُرى لها أثر. فإذا فرغت من ذلك فاخرج إلى النخلة التي على باب المدينة فاقطعها وأظهِر أنَّ تحتَها كانت تُعقَدُ العُقود ليتمَّ لك قطعُها وأَقِم بسلمية حتى يرد عليك أمري بالقدوم في الأوان الذي يصلح فيه قدومك إن شاء الله».

127

وارتحل الإمام (عم) من الرملة إلى مصر فاستقبله/ أبو عليّ باب الأبواب، وكان من أفضل الدعاة وأجلّهم، وبلغ مع الأئمة (عم) مبلغاً عظيماً، وحاز مقاماً كريماً، وكان ذلك اليوم مُقامُه بمصر يدعو إلى الإمام، ويدلّ على فضل من اتَّبَعَه من الأنام. فتقدّم إليه الإمام أن لاينزله عنده لكي لا يظهر أمره ويشتهر خبره، وأن ينزله عند من يثق به ممّن لا يُتّهم بأمرهم ولا يُشار إليه بولايتهم. فأنزله عند رجل يدعى ابن عيّاش[11]. فما أقاموا إلاّ يسيرا حتى ورد الكتاب إلى عامل مصر في طلب الإمام والقبض عليه. فأرسل العامل إلى ابن عيّاش وأوقفه على الكتاب. فقال له ابن عيّاش: «أمّا الرجل النازل علينا فلا يصل إليه إلاّ ما يصل إليّ، وهو رجل شريف من وجوه التجّار، معروف بالفضل والعلم واليسار، وليس هو الذي أنتم تطلبون. والرجل الذي أنتم مجدّون في طلبه قد بلغني خبرُه أنّه توجّه إلى اليمن قبل ورود هٰذا الرسول بمدّة طويلة». فقال

.. ويقصد مصر هرباً من رسل العبّاسيّين

(11) في المخطوط: ابن عبّاس، والتصحيح من السيرة، 113.

العامل لابن عيّاش: «نحن (ر 70 ب) نقضي حاجتك ونسعف طلبتك في هٰذا الرجل وحقّه لشرفه، ولكن لا بدّ أن نبدِيَ عذراً في القبض على بعض غلمانه ونقرّره خوفاً من نقَلة الأخبار، والأمر يجري له ولك فيه على ما تحبّ ويحبّ إن شاء الله»/. قال جعفر الحاجب: «فكنت أنا (ط 95) ذلك الرجل المقبوض عليه، وضربت أسواطاً يسيرة وقرّرت، وكان الإمام المهديّ قد قال لي: لا تُوجعك نفسك إذا دفعتُك للعامل فإني أريد أن تأتيَ سلمية وتستخرج القمقمين اللّذين أمرتُك بدفنهما فإنّه لا يشعرُ غيرُك بهما. فإذا وقفت للتقرير فقل: أنا رجل خدمتُ هٰذا الرجلَ بأجرة وصحبتُه لمدّة قريبة، وأنا أردّ عليه الأجرة وأنصرف عنه إلى بلدي. (قال:) ففعلت ما أمرني به الإمام، وخلّى العامل سبيلي، فدخلت على المهديّ بالله ليلاً [فـ]ـقال لي: بَكِّرْ غداً حيث أمرتُك ولا تلوِ على شيء، واحذر أن يعلمَ بك أحدٌ من الناس إلا محمد بن عزيزة وولده[12]، وابن أُختِك[13] حسن. وأنا أنتظِرك بأطرابلس».

128

مسير المهديّ إلى المغرب

وأظهر الإمام مسيرة إلى المغرب وكان أصحابه يظنّون أنّ قصدَه اليمن. وسأل الداعي أبو علي الإمامَ المسيرَ معه، ورغِب إليه أن لا يُفارقَه. فقال له الإمام: «بل تقيم بمصر إلى الوقت الذي يتهيّأ فيه قدومك إن شاء الله». فسمع وأطاع قولَه، ووقف بمصر على شدّة الرغبة منه في صحبته والكون معه.

129

وأما/ فيروز فأحزنه مسير الإمام إلى الغرب واستبعد المسافةَ فتخلّف بمصر وسار إلى اليمن. وكان الإمام المهديّ بالله (عم) يقول: «عجبتُ لرجُلَين مِن شيعتنا، أحدهما تغمُّه مفارقتُنا والآخر تغمُّه صحبتُنا». ووصل فيروز إلى داعي اليمن أبي القاسم المنصور

(12) في السيرة: وابنه المنصور المعروف بأبي الليث (ص 114).

(13) في المخطوط. وابن أخيك. والإصلاح من السيرة

قدسّ الله روحه، فأحسنَ لقاءه، وأكرم مثواه، لما كان يعرف (ر 71 أ) له من القرب من الأئمّة (عم). ثمّ إنّ فيروز أراد أن يُضِلّه ويُغويَه، فوجد نيّتَه في ولاء الأئمة (عم) قويّةً، ونفسَه بتشعشع أنوارهم مضيئة. فلمّا لم يجد فيه حيلة توجّه إلى علي بن الفضل فوجد فيه مراده، واستفزّهُما الشيطان، وصارا من أهل الضلال والطغيان، وخرجا من جملة أهل الإيمان. فظفر منصور اليمن بفيروز فقتَله وحارب عليّ بن الفضل - وكان من أمرهما ما قدّمنا خبره - حتى أهلك الله عليّ بن الفضل وصيّر روحَه إلى النار، وألحقَه بأمثالِه من الكفّار، كما قدّمنا ذكره وشرَحنا أمره[14].

خيانة فيروز وانضمامه إلى عليّ ابن الفضل باليمن

ولمّا انتهى الإمام إلى اطرابلس وقف فيها حتى قدم عليه عبدُه وخادمُ دولته جعفر بن عليّ المكنّى جعفر الحاجب، من سلميّة بما وجهّه في طلبه. فارتحل الإمام (عم) إلى قسطيلية وهي يومئذٍ لزيادة الله بن الأغلب ثمّ خرج منها/ إلى توزر. وخرج على طريق سجلماسة فوافاه في طريقها رجل يسمّى المطلب، من آل المطلب ابن عبد مناف ومعه ولدُه. فوجد فيهما الإمام خلقاً وسيماً وعقلاً كاملاً. فكان من أمرهما أن أخذ عليهما عهدَه وقرّبهما منه وسارا في صحبته إلى سجلماسة. ثم توجّها عن أمره إلى القيروان وقال لهما المهدي بالله (عم): «لولا أنها تجري على مَن معي مِحَنٌ شديدة وأمورٌ متعبة، لما رضيتُ فراقَكما لي. ولكن إذا توجّه داعينا إلى سجلماسة فأرسل ابنك معه». وودّعاه وانصرفا إلى القيروان.

المهديّ بطرابلس...

130

ونزل المهدي بالله (عم) سجلماسة ورئيسُها وصاحبُ أمرها اليسع بن المنتصر بن مدرار. وانتشر ذكر المهديّ بالله في المدينة كلها، وتحدّث الناس أنّ هذا الرجل له شأن من الشأن ووقع له في قلب كلّ من رآه الهيبة والجلالة. وقيل، (ر 71 ب) لليسع

المهديّ بسجلماسة...

(14) في الفصل الثاني.

ابن المنتصر بن مدرار: «إنه قد دخل بلدَك رجل جليل من كبار تجّار الشرق». ووُصِف له ولهج الناس بذكره. ثمّ إنّه (ص) دخل على اليسع بن مدرار فأكرمَه وأقبل عليه. ثم خرج (عم) من عند اليسع فقال اليسع لأصحابه بعد خروجه[14م]: «زعتم/أنّ هٰذا تاجر؟ والله ما هٰذا تاجرا لقد رأيت تجّار المشرق والمغرب، ولكن هٰذا رجلٌ عظيم الشأن أغضبَه أهلُ بيتِه فخرج عنهم وفي نفسه أشياء الله أعلم بها» (ط 97). 131

وكان المهديّ بالله (عم) يواصل صاحب سجلماسة ويهدي إليه. وكان اليسع يوجب حقّه ويعظّمه إلى أن أتاه كتاب زيادة الله لمّا اتّصل به مسيره إليه يخبره أنّ هٰذا الذي يدعو أبو عبد الله إليه. وتواترت الأخبار والكتب بذلك إلى اليسع بن مدرار. وكان اليسع يسأل الإمام عن ذلك فلا يبوح له بشيءٍ من أمره للتقيّة، إلّا أنّه أخبره بنسَبِه وقال: «أنا من أولاد الحسين بن عليّ عليه السلام». وكتم له أمرَه، وكونَ الدعوة إليه باليمن والمغرب. ... يكتم أمره عن أميرها...

وتقدّم الإمام إلى جعفر الحاجب وأمرَه، فاشترى له غُلاماً سمّاه صندلاً، وكانت له شجاعة رزقه الله (تع) بها الشهادة مع القائم (عم). واشترى لمولانا القائم (عم) عبداً يسمّى مسلماً. واستعدّ لما يُجرى عليه من الامتحان له ولِوَلده عليهما السلام، حتّى كأنّه يعلم ذلك. وذلك ممّا علّمَه الله رسوله (ﷺ) وانتهى علمُه إلى آله عليهم السلام.

وأقام المهدي في سجلماسة، وكُتُب دعاته تصل إليه، وأبو عبد الله يعلمُه بما يُهَيّىء الله له من النصر على الأعداء، وعلوّ الأمر للأولياء، وأنّ ذلك/ ببركة أيّامه (ر 72 أ) وإقبال دولته وظهور مملكته. وكان 132

(14م) في النسختين: ثم قال .. خروجه منه.

فيروز فاحزنه مسير الامام الى الغرب واستعد المسافر فتخلف
مع بعضها باليمن وكان الامام المهدي بالله عليه السلام
يقول عجبت لرجلين من شيعتنا احدهما تمم معارفه والآخر
لم يتمم صحبتنا ووصل فيروز الى صاحب اليمن ابي القاسم المنصور
قدس الله روحه فاحسن لقاءه واكرم مثواه لما كان يعرف له
من القرب من الائمة عليهم السلام ثم ان فيروز اراد ان يتسلط
ويتغير فوجد نقصان ولاء الائمة عليهم السلام قوية ويسير
بتشعشع انوارهم مضيئة فلما لم يجد فيه حيلة توجه الى علي
بن الفضل فوجد فيه مراده واستفزهما الشيطان وصارا
من اهل الضلال والطغيان وخرجا من جملة اهل الايمان
فظفر منصور اليمن بفيروز فقتله وحارب علي بن الفضل
فكان من امرهما ما قدمنا خبره حتى اهلك الله علي بن الفضل
وصيره وصاحبه الى النار والحقه بامثاله من الكفار كما قدمنا
ذكره وشرحنا امره ولما انتهى الامام عليه السلام الى اطرابلس وقف
فيها حتى قدم عليه عبده وخادم دولته جعفر بن علي المكنى
الحاجب من سلمية بما وجهه في طلبه فارتحل الامام عليه السلام
الى قسطيلية وهي يومئذ لزيادة الله بن الاغلب ثم خرج منها

[illegible]

الصفحة 129 من نسخة (هـ)

الى توزر وخرج على طريق سجلماسة فلقاه في طريقهما
رجل يسمى المطلب من آل المطلب بن عبد مناف ومعه ولده
فوجد فيهما الإمام عليه السلام خلقا وسيما وعقلا كاملا و
فكان من امرهما ان اخذ عليهما عهدا وقربهما منه وسارا
في صحبته الى سجلماسة ثم توجها عن امره الى القيروان وقال
لهما المهدي بالله عليه السلام لولا ما تجري علي من محن
شديدة وامور متعبة لما رضيت فراقكما لي ولكن اذا
توجهتما انتما الى سجلماسة فارسلا بذلك معمر وودعا
وانصرفا الى القيروان ونزل المهدي بالله عليه السلام بمحلا
ورفيقها وصاحب امرها اليسع بن المنتصر بن مدرار وانتشر
ذكر المهدي بالله عليه السلام في المدينة كلها وتحدث
الناس ان هذا رجل له شان من الشان ووقع في قلب
كل من راه له الهيبة والجلالة وقيل لليسع بن المنتصر بن
مدرار انه قد دخل بلدك رجل جليل من كبار تجار المشرق
ووصف له ولهج الناس بذكره ثم انه صلى الله عليه دخل على
اليسع بن مدرار فاكرمه واقبل عليه ثم خرج عليه السلام
من عند اليسع ثم قال اليسع لاصحابه بعد خروجه منه زعم

الصفحة 130 من نسخة «هـ»

التضييق عليه وعلى أصحابه

لِلْيسعِ أخٌ لعينٌ سيّىءُ الأخلاق، فما زال باليسع وخوّفه أمرَ المهديّ حتى حملَه على أن ضيَّقَ عليه وتركه بداره التي كان بها لم يبرح منها، وفرّق بينه وبين ولدِه الإمام القائم بأمر الله، ونقلهُ إلى دار أخرى، وأخذ جعفر الحاجب وطيّب وأبا يعقوب القهرمان، فرمى بهم في السجن ونالهم بالأذى والضرب. وحمَى الله منه المهديّ (عم) وولدَه، فلم يكن منه إليهما غير أن تواعدَهُما وفرّق بينهما. وأمّا جعفر الحاجب وأصحابه فإنّهُم لقُوا الشدّة والأذى حتى قال جعفر الحاجب: لقد استَدعيتُ السجّان [وطلبت] ماءً لأشربَه فكان جوابه أن رمى فمي بفِهر[15] كسر به أسناني وسقاني دمي وضرب القصب تحت أظفاري.

وحين استقرّ أمر أبي عبد الله برقّاده، وهيّأ فيها ما أراده، لم يكن له همّ ولا شغل إلاّ الخروج إلى سجلماسة لاستنقاذ الإمام (عم) من أضداده (ط 98) وتخليصه من أهل عناده. فاستخلف على إفريقيّة أبا زاكي تمّام بن معارك وترك معه أخاه أبا العبّاس محمد بن زكريا.

133

وخرج أبو عبد الله من إفريقيّة يريد /إلى سجلماسة في شهر رمضان من سنة ستّ وتسعين ومائتين، ومعه كتامة وأهل الحرب من رجال إفريقيّة وأبطالها. وأبقى مع أبي زاكي روابط في سائر البلدان، وأخذ أبو عبد الله الجادّة (ر 72 ب) ولم يعدل إلى بلد كتامة. واهتزّ أهل المغرب لخروجه ومالت القبائل عن طريقه، وخافت زناتة أن يوقعَ بها، وكان قد توعّدهم لقتلهم الرسل الذين قدّمنا ذكرَهم حين رجعوا إليه من المهديّ (عم). ولقِيَه محمد بن خزر وهو يومئذٍ زعيم زناتة والبربر وسأل الأمان فأمّنه وقومَه بعد أن استخلفَه *

خروج أبي عبد الله إلى سجلماسة...

دش 19

قال أبو عبد الله بن الأسود بن الهيثم[16] رحمة الله عليه:

(15) الفهر (الهاون أو المهراس): قضيب من الأحجار تطحن به الأبزار.

(16) هنا تبدأ النصوص التي انتقاها فرحات الدشراوي من السبع الخامس فنشرها =

«ولمّا سار أبو عبد الله بلغنا شوائعُ كثيرة على العسكر الذين معه، وكثر خوض الخائضين من أجله. فلما كانت ليلة الفطر دخل أبو زاكي وسهل بن بركـاس[17] وابن القديم[18] إلى أبي العبّاس أخي أبي عبد الله فسألوه أن يقعد للناس يوم العيد ويدخلون إليه. فكره ذلـك وآمتنع منـه. فقالـوا: «قُعـودُك ممّا يجـدّد الـدولـة وينفي

.. تاركاً أبا العبّاس وأبا زاكي على إفريقيّة.

= تحت عنوان «تاريخ الدولة الفاطمية بالمغرب». ونشير إلى صفحات هذه الطبعة بعلامة «دش» متبوعة برقم الصفحة في الطرّة.

وأبو عبد الله بن الأسود، حسب ما سيذكره المؤلّف من مناقبه بعد قليل (ص 147) هو أحد أصحاب أبي عبد الله الذين وصلوا إلى مرتبة الدعاة. سماه الدشراوي (ص 19 وهامش 1 في آخر الكتاب): جعفر بن محمد بن الأسود بن الهيثم وقال: ملّوسي كتاميّ ولي قضاء رقّادة للمهديّ، وأحال إلى طبقات أبي العرب وبيان ابن عذاري. ولكنّنا لم نجد هذه المعلومات في الإحالتين. ولعله خلط بينه وبين أفلح بن هارون الملوسي الذي سيوليه المهدي قضاء المهدية ورقـادة حسب قول إدريس الآتي ص 193، أو قضـاء رقادة فقط حسب أبي العرب، 241 وابن عذاري، 159 (والصفحات هي نفسها التي أحال عليها).

واسم هذا الداعي في ثبت بوناوالا، 34: جعفر بن محمّد بن الأسود، وإليه ينسب كتاب «المناظرات في الإمامة».

ونضيف أنّ الشاعر القيـروانيّ أبا القـاسم الفزاريّ، في إحـدى أهاجيـه للعبيـديّين، ندّد بشخص يـدعى «ابن أسود» فـاتّهم الفـاطميّين بتفضيله على الشيخين: (رياض النفوس، 494/2):

واستبـدلـوا بهمـا ابن أسـود نـابحـا وأبـا عـمـارة والـلعيـن تـمـيـمـا

وذكر المالكيّ داراً في سماط القيروان تعرف بدار ابن أسود الداعي (رياض، 488/1)

هذا وقد مرّ بنا داع بالشام يدعى أبا الحسن بن الأسود (ص 122).

(17) سهل بن بركاس: أحد أتباع أبي عبد الله أيضاً. كان قد كلّفه باستدراج صهره فحل بن نوح رئيس لطاية حتى يفصله عن جبهة المتآمرين ضدّ الدعوة (الافتتاح، 112/103 والطالبي، 614).

(18) ابن القديم: أبو القاسم عبد الله بن محمّد: هو أحد أصحاب زيادة الله في هجرته إلى الشرق وكان رسوله إلى حاكم مصر، وقيّمه على أمواله ثم انقطع عنه (افتتاح 264 - 267). ويبدو أنّه رجع إلى إفريقية حيث أوكل إليه المهدي «النظر في جميع الدواوين والأعمال». غير أنّه انضم إلى مؤامرة أبي العباس ضد المهدي فقتل (انظر ص 167).

الشناعات، فإنّه قد شَنّع على العسكر بأخبار سمجة كرهنا أن نخبرَك بها، وقعودك للناس يُبطلها». فأجابهم إلى ذلك وأمر بإصلاح

134 الأطعمة وشراء الغنم، فلمّا صلّى/ الناس انصرفوا إليه ودخلوا مسلّمين عليه، فأمر لهم بالطعام فأطعموا، ووعظهم وأسمعهم ووعدهم بكلّ فائدة من عاجل الدنيا وآجل الآخرة، فانصرف الناس

دش 20 عنه حامدين شاكرين على ما وهب لهم وجدّده * فيهم من المواعظ والخيرات والبركات.

ثمّ انتصب للدعوة وسارع الناس إليه وشدّ شكيمته المروزي الذي أقامه أبو عبد الله للقضاء، وأمره بإظهار قول آل محمد (ﷺ)، وأن لا يظهر أحدٌ من كتب مالك وأبي حنيفة شيئاً وقال: اجمعوا أمركم وأصلحوا ذات بينكم تسعدوا وتفلحوا ويعلُ أمرُكم على غيركم فسارع الناس إليه وأجابوا دعوته.

ولمّا قرب أبو عبد الله من سجلماسة وانتهى خبره إلى اليسع ابن مدرار صاحِب أمرها أنّهُ إليه قصد، أرسل إلى المهديّ بالله (عم) يسألُه عن نسبه وحالِه وهل قصد أبو عبد الله إليه، فأظهر له نسبَه إذْ لم يسَعْه أن يكتمَه وقال في أبي عبد الله: «ما والله أعرفُه ـ وكذلك كان أمرُه: لم يكن الإمام رآه ـ أنا رجل تاجر، وما أنا من هٰذا في شيء»، وذلك أنه اتّقاه وخافه على نفسه فحمَاه الله ورفع

135 عنه أيدَهُ[19] ووقاه كيدَه. وأرسل أبو عبد الله/ إلى اليسع بن مدرار يعرّفُه خبرَ قدومه ويسكّن ذعرَه ويعلمه أن قصد مولانا الإمام إلى

أبو عبد الله يحاول تخليص المهديّ بدون قتال

بلدِه نعمةٌ من نعم الله (تع)، إن عرف قدرَها وأدّى إلى الله شكرَها، نجا وسعد وسلم في نفسه وماله وأهله وحاله، وجميعُ مَن في بلده. وإن جهِل ذلك. فحظُّه أخطأ، وازدادَ من الله (تع) بعداً

(19) الأيد: القوّة والداهية والشدّة.

واستحقّ منه سخطاً. ووجّه أيضاً أبو عبد الله إلى اليسع خادماً له يسمّى شفيعاً[20] يعرّفه أنه إن أخرج إليه أميرَ المؤمنين، صرَفَ عنه الجيوش وعن مدينته، وأعطاه ممّا يرجوه غاية منيَته. فامتنع ابن مدرار وقتل شفيعاً الخادم وأصحابه. وبلغ ذلك أبا عبد الله فأرسل إليه رُسَلاً أخَر، منهم محمد بن حيّ اليشكري ويعلى بن باطيط الرمّانّي (ر 73 ب) وخوّفه وعرّفه أنّه إن عصا وتمادى في بغيه وأمعن في غيّه، أوقع به. فامتنع ابن مدرار وعمد إلى الرسل فحبسهم وكبّلهم، وزاد في الحرس[21] الموكّلين بدار المهدي، وعذّب المأسورين معه من أصحاب الإمام، فاستعان أبو عبد الله بالله سبحانه وعبّأ عساكره ودنا من المدينة فخرج إليه اليسع بن مدرار فوقع بينهم القتال ساعة وقتل من أصحاب ابن مدرار جماعة، واقتحم عليهم/ العسكر ودخلوا معهم إلى مدينتهم. وكان ذلك قرب المساء فخالط الظلام، ورجع عسكر أبي عبد الله حيث كان. فلمّا جنّ الليل هرب اليسع بن مدرار في بني عمّه وأهل بيته. وبات أبو عبد الله ومن معه طول تلك الليلة في غمّ عظيم وهمّ أليم لا يَعلَمون ما صُنع بوليّ الله (عم). ولم يمكنهم دخول المدينة في الليل، ولم يعلموا بهرَب اليسع حتى أصبحوا. فخرج إليهم وجوه أهل البلد فأعلموهم بذلك ودلّوهم على مكان المهديّ بالله (صلع) فاستخرجوه (ط 100).

136

هروب اليسع المدراريّ...

وظهر أمير المؤمنين المهدي بالله وولـدُه القائم محمـد بن عبد الله إلى أوليائهما وشيعتهما فسرّوا سروراً عظيماً استفزّهم وكادت

.. وظهور المهدي وأصحابه

---

(20) شفيع هذا، الذي قتله المدراريّ، غير شفيع الخادم، أحد قوّاد المنصور في حربه ضدّ أبي يزيد. أمّا المَرْسولان الآخران: محمد بن حيّ اليشكريّ ويعلى ابن باطيط - والقراءة ظنّية - فلا ذكر لهما في السيرة ولا في الافتتاح.

(21) ابن عذاري، 153: «وكانا محبوسين في غرفة عند مريم بنت مدرار». وانظر ترجمة السيرة ص 307 هامش 3، في خصوص حراسة النساء للمساجين السياسيّين.

له أن تطيش عقولهم. وقُرّب لهما (صلع) فرَسان فركباهما، وحفّ المؤمنون بهما، والدعاة يمشون حولهما، وأبو عبد الله يمشي بين أيديهما (ر 74 أ) ويقول [مشيراً إلى] المهديّ (عم): «هٰذا مولاي ومولاكم أيّها المؤمنون»، ويحمد الله ويشكره ويبكي لشدّة الفرح. وضرب أبو عبد الله للمهديّ بالله (ص) مضرباً فجلس فيه. ولمّا اجتمع بولده القائم بـ[ـأمر] الله لم يكن له همّ غير غلمانه الذين كانوا في حبس اليسع فتقدّم إلى أبي عبد الله أن لا

137 ينزل عن فرسه حتى يصلوا إليه فأمر أبو عبد الله بطلبهم. وكانوا قد خرجوا من السجن حين هرب اليسع بن مدرار، واشتغل الناس بالسلام على الإمام المهديّ بالله (عم). وطلبوهم حتى وجدوهم في الدار التي كان فيها الإمام. قال [جعفر] الحاجب: «فلمّا رآنا أبو عبد الله، نزل عن فرسِه ونزلنا إليه فعانقنا واحداً واحداً. فأمّا أنا فأقسَمَ عليّ برأس مولانا أن أمكّنه ممّا يريد منّي. ففعلت، فكشف عن ظهري وقبّل الجراح التي فيه من أثر الضرب، وأخذ يديّ

فرح الأولياء برؤية المهديّ

جميعاً وقبّل أظفاري وعينيّ جميعاً. وقبّل ظهر طيّب [الحاضن]، ولم يقبّل من أبي يعقوب شيئاً. ومشى معنا إلى مضرب الإمام ونحن معهُ، فإذا القائم (عم) على باب المضرب قادماً ينتظرنا وكأنّه القمر الطالع. فلمّا رآنا استبشر بنا وضحك إلينا، ودخل معنا إلى أمير المؤمنين المهديّ بالله (عم) فوجدناه جالساً على سريره في وسط المضرب كأنّه الشمسُ المنيرة، فقبّل الأرض، ونحن نبكي وهو يضحك ويسجد لله سبحانه ويحمده ويشكره ويمجّده. ثم قال لصندل: «هات الحلّتين اللتين عزلتُهما في التخت الفلانيّ»، فأتاه بهما، فلبس واحدة وكسا القائم (عم) الأخرى. ثم قال: «هات (ر 74 ب)

138 السيوف والثياب التي عزلتها في التخت الفلاني لهؤلاء». قال جعفر: «فبدأ بداعيه أبي عبد الله فكساه بيده وعمّمَه وقلّده سيفاً. ثمّ دعاني فخلع عليّ ثوباً تحته ثوب ديبقي، وعمامة وسراويل وخفّاً

وقلّدني سيفاً. وفعل بطيّب وأبي يعقوب كذلك وقلّدهم بالسيوف. (قال جعفر): وكان قد أعدّ ذلك من أوّل ما خرجنا من سلميّة. ثم تقدّم إلى أبي عبد الله فضرب[22] له مضرباً واسعاً وفرش فيه فرشاً نفيساً. وتقدّم إليه بأن يقدّم الناس إليه بالغداة يسلّمون عليه، على مراتبهم. فقال أبو عبد الله: «القوم يا مولانا، فيهم جفاء، وهم متشوّقون إلى النظر إلى مولانا (عم)، فيأمر من يراه من عبيده هؤلاء يقف على باب المضرب، وأقف أنا للناس وأقدّمهم عشرة عشرة، فإذا فرغت من الدعاة منهم والقوّاد قدّمتُ مَن دونَهم خمسينَ خمسين، ثم مائة مائة، ثمّ خمسمائة خمسمائة، ثمّ أجزتُ باقي العسكر بين يدي مولانا مواكب حتى أعمَّهم بالنظر إلى وجه مولانا عليه السلام وأستكملَ سلامَهم عليه. فقال الإمام (عم): «هٰذا صاحبك الذي طلبتَ»، وأشار إليّ. (قال جعفر)، «فلما أصبحنا جلس أمير المؤمنين (عم) على سرير قد جعل له في المضرب، وكأنّ الشمسَ قد طلعَت من بين عينيه، ووقف القائم بالله عند يمينه متقلّداً سيفاً ملتصقاً بالسرير كالبدر عند تمامه، ووقف أصحاب الإمام (عم) دونه، وبشرى وصندل عن يمين السرير بيديهما مذبّتان، وهما يذبّان على رأس المهديّ بالله (ر 75 أ)، وأنا على باب المضرب قائم على سيفي، وأبو عبد الله بينه وبين المضرب قدر مائتي خطوة، وهو يدعو بأسماء الدعاة والقوّاد ويقدّمُهُم، إذا اجتمعت له منهم عشَرة قدّمَهم إليّ عشَرة عشَرة ويقول لهم: «امشوا برفق حتى تصلوا إلى ذلك الحاجب القائم بباب (ط 102) المضرب» (قال جعفر رحمة الله عليه): ومن ذلك اليوم كنتُ الحاجبَ. فكنت أقدّمهم عشرة عشرة يسلّمون ويدعون فيبارك عليهم، ويشكر لهم سعيَهم ويعرّفهم ما أعدّ الله لهم من جزيل الثواب في عاجل الدنيا وآجل

مراسم المبايعة كما ضبطها أبو عبد الله

139

أصل تسمية جعفر ابن علي بجعفر الحاجب

(22) حذف مخلّ. في السيرة، 130: تقدّم إليه بأن يضرب لنا وله مضرباً ففعل.

الآخرة. (قال جعفر:) فما زلنا على هٰذا يومَنا أجمعَ. ثم أقام بعد ذلك يجلس لهم والعساكر تمرّ بين يديه قبائل وأفخاذاً إلى أن فرغت العساكر، ثلاثة أيّام.

الظفر بالمدراريّ وهلاكه

140

وقد كان الإمام (عم) أمر أبا عبد الله أن يأمر عسكراً فيتبع اليسع فأمرهم فمضَوا في أثره حتَى أخذوه. ووجدوه في بلاد السودان فأتَوا به وبأصحابه أسرى إلى أمير المؤمنين (صلع)، وسأل القائم بأمر الله المهديّ بالله، عليهما السلام، أن يهب له اليسع ففعل، وعفا عنه وحُمل مع العساكر المنصورة، فلم يأكل، ولم[23] يشرب ولم يكلّم أحداً حتى مات. وأقام المهديّ (عم) بسجلماسة أربعين يوماً.

ثم نهض الإمام (عم) بالعساكر يريد إفريقيّة. وكانت أخبار أبي عبد الله قد انقطعت عن إفريقيّة وأرجفوا به وكثرت الأشانيع. فلم يكن أوشك من قدوم البريد بفتح سجلماسة، وما كان من أمر أمير المؤمنين المهديّ بالله وظهورِه وكتاب من أبي عبد الله، وفصّ الكتاب:

«بآسم الله الرحمان الرحيم. أما بعد فالحمد لله الهادي إلى توحيده (ط 103) بآثار صنعته، والداعي إلى معرفته (ر 75 ب) ببراهين حجّته، الذي سَبَقت مشيئته وجرت حكمتُه بإعزاز أوليائه الذين نصروا دينه وقاموا بحقّه، وإذلالاً لأعدائه الذين عندوا عليه وكفروا نعمته، ولم ينتصب لأوليائه ناصب إلّا كان طاعناً في الدِّين الذي نصروه، وعدوّا للحق الذي أقاموه، لأنّهم يقدّمون الحجّة أمام سيوفِهم، والدعاء قبل مناجزتهم، والأناةَ دون مُقاتَلَتِهم، ثقةً منهم بأنّ المحجوجَ مَن فارقَ

(23) في الأصل. ولا يشرب ولا يكلّم

141

سبيلَهم ، والمضلول[24] من خرج من جماعتهم. فالأناة تظهر حقّهم وتكشف باطلَ أعدائهم. فمَن عادَ إلى الحقّ تلقّوا بالقبول إنابته، ومن أصرّ على باطله ناجزوه بعدَ إقامة الحجّة عليه. ولم يجعل الله (عج) لمُصرٍّ إقالة، ولا لمُعاندٍ مقيمٍ على الذنب توبةً، بل يُحِلّ بأسَه ونقمته به، ﴿ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً ﴾ (النساء، 84).

رسالة أبي عبد الله الداعي إلى أهل إفريقيّة...

«وقد كنتُ قصدتُ سجلماسة على بعد شقّتها وانتزاح مزارها لأقضيَ حقّ الله جلّ ذكره، وأؤدّيَ فريضةً من فرائضِه، وأظهر حجّةً من حُججِه في أرضه، وأستنقذ ابنَ رسول الله (صلع) من بين أوباش وطغام، طلباً لرضوانه والزلفى لديه. فلمّا دنوتُ منها قدّمتُ الأمان إلى اليسع بن مدرار كعادتي في البلدان، ونويتُ أخذ حاجتي منه، والانصراف عنها من غير أن أهيج فتنة وأثير غباراً. فكتبت إليه كتاب الأخ إلى أخيه أستعطفه وأؤمّنه وأدعوه (ر 76 أ) إلى عقد الإخاء بيني وبينه في إخراج ابن رسول الله، رغبة في الإبقاءِ عليه وعلى مؤازرته، وحفظاً لما ضيّعه. فمنع جانبه، وقطّب حاجبه، فأظهر الأنفة من دخول رُسلي إليه وأمر بقتلهم خلافاً لسنّة رسول الله (ﷺ) وما جرت به العادات في جميع الملل من ترك التعرّض بالمكر للرسل. ثمّ استظهرتُ الحجّةَ عليه (ط 104) وأعدتُ رسلاً إليه طمعاً في إجابته ورجوعِه إلى ما هو أسلم إليه وأعْوَدُ له. فاعتقل الرسلَ في المطابق وثقّلهم بالحديد وحبس ابن رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله، في أضيق المحابس، ووكّل به الحرس [ومنع][25] من إدخال الطعام عليه، فبقِي - بأبي وأمّي هو! - في المحابس أيّاماً يواصل الصيام لعدم

142

.. بفتح سجلماسة..

(24) صلّ لا يتعدّى، فالأوفق أن يقول: الضالّ.

(25) زيادة من «ر».

الطعام. ثمّ استصغر فعلَ نفسه في حبسه إيّاه في ذلك الحبس، فنقلَه إلى أضيقَ منه وتواعده بالقتل، طلباً منه لذحول[26] رسول الله. فبعثتُ إليه أعِدُه بالإحسان والإمساك عن الحرب، والانصراف عنه من غير أن أشربَ من ماءِ مدينتِه، فكلّما ازددتُ إلحاحاً في طلبه زاد لجاجاً في الامتناع، عتوّاً على الله وإصراراً على الكبائر واستكباراً، وجهلاً وخساراً فـ ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج، 11).

«فلمّا رأيت ما عزم عليه الخائب من محاربته الله في ولد رسول الله، وأمل فيه أملاً كاذباً، ولله فيه وعد صادقٌ، وظنّ ظناً كاذباً، ولله فيه قضاء نافذ، وأبى إلا التسكّعَ في جهالته[27] والتوسّع في ضلالته، وآثر إطلاق الحرب من عقالها، وإثارة غبارها، هززت[28]/ [إليه] أنصار الحقّ وحملتهم على مناجزته، فوجدت نيّاتهم بالله مستحكمة وبصائرهم نافذة في محاربته، فدلفت (ر 76 ب) بهم إليه مستنجزاً ما وعد الله أولياءه في أعدائه. وجالت الخيل جولة، وعادت [كرّة] بعد كرّة عليهم، طعناً بالرماح وضرباً بالسيوف ورشقاً بالسهام. فلما مسّ الفَسَقَة أليم القتل والجراح وأدارت الحرب عليهم رحاها، وعلموا أن ليس لهم من الله عاصم، ولا من أوليائه موئل، ولّوا منهزمين على أعقابهم. وأخرج الفاسق الخائن راغماً ما كنت طلبتُ منه راغباً، وحجز الظلام بيننا وبينهم. ثمّ عاودَهم أنصار الحقّ من غدهم وأخرجوهم، وتحكّم الأولياء في مدينتهم، وأضرموا نار الحرب فيها وجاسوا ديارها. واتّخذ الخائن الليلَ سجفا فهرب تحت ظلمائه على وجهه إلى بلد السودان لا يلوي على أهل ولا

143

. وهروب اليسع..

(26) الدحل الحقد والعداوة

(27) في هـ. التسكع إلى الحيرة في حهالته

(28) في الجميع: فهرزت، وحعلناها حواباً

مال. فمنعت (ط 105) حرمتَه وصنتها وأسدلت ستر العافية عليها احتساباً بالثواب لله. ثمّ قفوت أثر الخائب في طلبه عشرة أيّام حتى أمكن الله منه بلا عقد ولا عهد، فأتيت به في وثاق إلى ولي الله (صلع) ليكون عظةً لأهل الشقاق وعبرة للعالَمين.

«والحمد لله المعزّ لدينه، المكرم لأهل حقّه، الذي وصل أسباب/ السعادة بطاعته، وجعل عاجل الفتح والظفر، وآجلَ الثواب والفوز لأوليائه، إن جادلوا كانت الحجّة لهم، وإن حاربوا كان النصرُ معهم، حمداً قاضياً لحقه، موجباً لمزيده.

144

«وأمير المؤمنين وليُّ الله، وابنُ رسوله على أفضل ما جرت عَادةُ اللَّهِ الجميلة عنده في نفسه وولده وأنصار دولتِه، وهو قادم على بركة الله وسعادته ونصره وتأييده والسلام».

.. وقدوم المهديّ القريب

فلمّا وصل كتاب أبي عبد الله هٰذا إلى أبي زاكي وقرأه، أمر به (ر 77 أ) أن يُقرأ على المنبر، فقُرِىء، وسرّ الأولياء سروراً عظيماً وأبطل الله شناعات المشنّعين، وكذّب قول المرجفين. وسارت بذلك الأخبار في البلدان بظهور المهديّ بالله (عم) فسرّ به الوليّ وكبت العدوّ واستبشرت له عامّة الناس، وانتظروا قدومه وتطلّعت إليه أعينهم وتشوّقت إليه قلوبهم.

وقد كان وصل إلى أمير المؤمنين المهديّ بالله (عم) أهل دَرْعَة والسُّوسِ الأقصى[29] ومن الأطراف، وهو بسجلماسة أيّام

(29) درعة والسوس نهران في جنوب المغرب الأقصى ينصبّان في المحيط الأطلسيّ. وأيضاً مقاطعتان عامرتان بالسكان، درعة جنوب جبال الأطلس إلى الحدود الصحراوية، والسوس الأقصى على سواحل المحيط جنوب أغادير الحاليّة.

مُقامه فيها يهنّئونه بالفتح ويسلّمون عليه. وأقام رجلاً يقال له إبراهيم بن الغالب عاملاً في سجلماسة[30].

مسير المهديّ إلى إفريقيّة. . 145

ورحل عليه السلام يريد إفريقية يوم الاثنين لثمان بَقِين من المحرّم سنة سبع وتسعين ومائتين. ونظر بعض المنجمَين أوانَ مسير أمير المؤمنين، والطالع القوس، والشمس في الميزان، والمشتري راجع في الحمل، والمرّيخ في السنبلة، والزهرة في العقرب، وعطارد في العقرب، والرأس في الجدي تسع وعشرون درجة. فقال المنجّم لِلإمام (عم) وقد ركب في هٰذا الطالع: «يا مولانا لو أخّرت المسير لرجوع صاحب الطالع وقوّة المرّيخ؟».

فقال (صلع): «المسير على اسم الله (عج) ونصره، والمرّيخ والدولة لنا». وسار ولم يعج على قول المنجّم (ط 106).

. . وتوقّفه بتاهرت. . .

وكان أحمدبن خزر الزناتيّ[31] قد وصل إلى تاهرت واختطف منها ما قدر عليه وولّى هارباً. وعلم ذلك أمير المؤمنين حين وصوله إلى تاهرت. فأنفذ إليه بعض الأولياء فولّى منهزماً، وأدركوا من أدركوا من أهل بيته وغنمُوا أموالهم.

. . ثمّ بإيكجان حيث يقبض الأموال المخزونة عند كتامة

ورحل (صلع) من تاهرت بجنوده وأنصاره (ر77ب) وأوليائه حتى نزل بتامقلت فأمر بإخراج الجيوش إلى سديده[32] فخرجوا إليهم وهم في

(30) عند ابن عذاري، 154/1 و157: «إبراهيم بن غالب المزاتي، وخلّف المهديّ معه ألفي ـ أو خمسمائة ـ فارس كتاميّ. . فوثب عليه أهلها فقتلوه، فكانت مدّته خمسين يوماً». وانظر رسالة الدشراوي: الخلافة الفاطميّة، 124.

(31) عند ابن عذاري، 155/1: «محمّد بن خزر بن صيلات الزناتيّ، ثار على دوّاس بن صولات عامل الشيعيّ بتاهرت سنة 297، ودفع أهل تاهرت محمد بن خزر وحاربوه حتى قتلوه». غير أنّ صاحب البيان يذكره من جديد (165/1) تحت حوادث سنة 299: «واستدعى أهل تيهرت محمد بن خزر فقدم عليهم وأدخلوه البلد . .». ولا ذكر لأحمد بن خزر في كتب التاريخ.

(32) لا نعرف موقع «تامقلت». وذكر ابن عذاري، 193 «تامغلت» بجهة تاهرت، =

أوعار منيعة وجبال رفيعة، فدخل الأولياء عليهم، ووضعوا السيف فيهم فقُتلوا أقبح قتل.

ورحل الإمام (عم) من تامقلت فنزل بمكاتيت[33]. وحين صار بإزاء بلد كتامة مال إليها ووصل إلى إيكجان، وأمر بإحضار الأموال التي كانت بأيدي الدعاة والمشايخ، وكانوا قد دفنوها هنالك فأحضروها إليه، فأمر بقبضها منهم وشدّها أحمالاً. وكان ذلك أوّلَ ما خامر القلوبَ لما قَدْ أَلِفُوهُ وعُوّدوه من كون الأمر والنهي، والتقديم والتأخير في أيديهم. وقد جاء ﴿ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف، 118).

146

ولمّا وصل وليّ الله إلى[34] إيكجان أمر أبا عبد الله أن يكتبَ كتاباً إلى أبي زاكي يعرّفه فيه بوصوله. فكتب أبو عبد الله كتاباً وأنفذ به، فلما وصل قرىء على المنبر برقّادة. وكانت نسخته:

رسالة الداعي إلى أبي زاكي بالقيروان..

«باسم الله الرحمان الرحيم. أمّا بعد، فالحمد لله ناصر دينِه ومُعزّ وليِّه، الذي أظهر دينه على سائر الأديان، ووليَّه على مَن ناصبه من أهل الظلم والعدوان. وكتابي هذا إليك من إيكجان، دار الهجرة ومستقرّ الإيمان. وقد وصل مولانا وسيّدنا المهدي بالله صلوات الله عليه وآله وولده، بلّغ الله به أفضل آماله إليه في جميع أوليائه الذين كانوا معه من المؤمنين، أحسنَ وصول وأهنأه، وأسرّه وأرضاه، فأضاءت لقدومه دار الهجرة، وسرّ المؤمنون والمؤمنات

= في حملة المهديّ سنة 297 وهو ذاهب إلى إفريقيّة
ولا نعرف كذلك سديدة. ولعلّها محرفة عن «المديّة» الواقعة شرقيّ تاهرت. وقد قرأها الدشراوي، هامش 22: صدينة، اسم قبيلة بربريّة.

(33) لم نهتد كذلك إلى تحديد مكاتيت، واكتفى الدشراوي، هامش 23، بجعلها بين تاهرت وبلاد كتامة مثل أختها السالفة تامقلت.

(34) هنا يبدأ سقط طويل في نسخة «ر».

الذين خلّفهم العُذر عن الجهاد، ومن كُنّا أقَمناه لضبط المكان، به، وأقبلوا من كلّ حدب ينسلّون إليه، ومن كلّ أفق يسعون نحوه. يتباركون بالنظر إليه ويستشفون برؤيتِه، ويحمدون الله (تع) على أن بلّغهم إنجازَ وعدِه، وظهورَ أمره. وبادروا بأمانات الله التي كانت في أيديهم وخرجوا من حقوق الله عليهم، ووضعت الحرب بحمد الله أوزارها، وأطفأ الله نارَها وأهلك الله مَن أثارها، وفرّق الله أنصارها. وأمير المؤمنين على النهوض إلى إفريقيّة، ويقدّر بتقدير الله وتوفيقه، وعونه وتيسيره، أن يكون وصوله يوم الخميس لعشر بقين من شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين. فاعلم ذلك وكُن على أهبة منه ومَن قِبَلك وآحمدوا الله على ما أولاكم من ذلك، وأن فسح لكم في آجالكم إلى أن بلغتموه، وآرغبوا إليه في تمام ذلك بالنظر إلى مولاكم ورضاه عنكم، والسلام».

147

... يدعوه إلى التأهّب لاستقبال المهديّ

فلمّا وصل الكتاب بذلك قرىء وانتشر الخبر به، فتضاعف سُرُور الأولياء، وانقطعت الشناعات، وذهبت الأراجيف. واستعدّ النّاسُ وتأهبّوا للقائه وتاقت نفوسهم واستشرفت إليه. وكان مقام الإمام (عم) في إيكجان عشرين يوماً حتى أصلح من أمور البلد ما أراده واستعمل يحيى بن سليمان الملّوسي على الزاب. وأمر كثيراً من المؤمنين برفع عيالاتهم إلى رقّادة.

وسار (صلع) فتلقّاه الناس، وخرج للقائه أبو زاكي تمام بن معارك وأبو العبّاس وجميع الأولياء وأهل القيروان في جموع لا تُحصَى عدداً يسلّمون عليه ويهنّئونَه.

دش 20

قال أبو عبد الله بن الأسود بن الهيثم[35] * ـ وكان مقيماً مع

---

(35) يستأنف الدشراوي هنا مقتطفاته من السبع الخامس. هٰذا، وقد مرّ بنا تعريف بابن أسود الداعي (ص 133).

148 أبي العبّاس بعد خروج أبي عبد الله، وهو ممّن دعّاه أبو عبد الله/ فاستجاب له، وكان من أهل بيت تشيّع وفيه فضل وله عقل وبحث وبيان، ونظر في الفقه، وكان قد أخذ كثيراً من ظاهر علم الأئمة وباطنه عن أبي عبد الله، وأقام مع أبي العبّاس بعد مسير أبي عبد الله فاستفاد من علمه. وكان من أهل الفضل وبلغ مع الأئمّة عليهم السلام مبلغ الدعاة ـ قال فيما أتى عنه:

ابن الأسود الداعي يصف خروج الأولياء...

«وورد كتاب أبي عبد الله إلى أخيه أبي العبّاس وإلى أبي زاكي بوصول مولانا (عم) إلى إيكجان، موضع الدين ومعدن الإيمان، فجهّزوا للخروج إليه فانفلق الإصْباح وظهر الفجر وجاء النهار وذهب الليل، وابتهجت النفوس وأنارت القلوب لورود خبره. فيا لها فرحةً لا تُنسى، وضياءً لا يُطفأ، ونوراً لا يَخفى! * ذلك (ط 108) الذي لم يخف فضله! وجاء الحقّ وزهق الباطل[36]، وغارت النجوم، وظهر أمر الحيّ القيّوم.

دش 21

... إلى سبيبة لتلقّي المهديّ

«فخرج أبو العبّاس وخرجنا معه فلقي الإمام (عم) بفجّ سبيبة. فلا أنسى طلعتَه السعيدة وبهجة نوره وضياء وجهه، وعلوّ قدره، وكمال خلقه، وبهاءه في فخره. فلو قلت: إنّ الأنوار المضيئة خلقت من فضل نوره، لقلتُ حقّاً ويقيناً، وصدقاً مبيناً. فنزل أبو العبّاس إليه[37] وقبّل الأرض وتمعّك بين يديه، ونزل إليه أخوه أبو عبد الله وجميعُ الأولياء من كتامة وغيرهم من أتباعهم، ولم يبق راكباً إلاّ أمير المؤمنين صلوات الله عليه، الشمس المنيرة، / 149 ومولانا أبو القاسم، القمر الزاهر، والنور الباهر. فَهما (عم) نور الدنيا. ومولانا أبو القاسم خلفَ أمير المؤمنين. فسلّم أبو عبد الله على أخيه، وقرّبني أبو عبد الله إلى مولانا (عم) وقال: يا مولانا، هٰذا

(36) تضمين للآية 81 من سورة الإسراء

(37) هنا ينتهي السقط من نسخة «ر».

الذي عرّفتك بخبره بسجلماسة. وتكلّم أبو العبّاس وشكر وأثنى.
(قال): فلا أنسى قول مولانا (ص): «أحسن الله إليك، وبارك لنا فيك، وشكر سعيَك. أنتم شيعَتُنا حقاً، وأهل ولايتنا، ومَن أحبَّنا قديماً».

«ثمّ ركب الناس وحرّك أمير المؤمنين دابّته للمسير، وقَرَّبَ أبا العبّاس إلى نفسه وأمرني بمُسايَرته فأشرقت الأرض بنوره * وشرفت الدنيا بحلوله، وفضُل المغرب بكونه فيه وملكه إيّاه».

دش 22

دخول المهديّ إلى رقّادة (18 ربيع 297/2 ـ 4 جانفي 910).

وكان دخول مولانا أمير (ر 78 أ) المؤمنين المهديّ بالله (صلع) مدينة رقّادة من الباب القبلي لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين. فنزل القصر المعروف بأبي الفتح[38]، فاستقرّ الملك على ساق، وظهر نور الله في الآفاق، وقرّ الأمر في قراره، وقضى الله لدينه نصر أنصاره، وزال ظلم أهل العدوان، وارتفعت راية الإسلام والإيمان، وطلعت الشمسُ من مغربها وظهرت على رأس الثلاثمائة/ كما وعد النبيّ (ﷺ) بها (ط 109) وزالت الظلمة التي شمَلت الأمّة بغيب النبيّ والوصيّ، وخفت كلّ مارِدٍ وعصيّ، وأقبل الدين بوجهه الرضيّ، وأشرقت الآفاق بنوره الوضيء، وعاد زمنُ الإسلام جديداً، وأرغم الله من كان لأوليائه عنيداً.

150

ولمّا كان يوم الجمعة من غد يوم وصول أمير المؤمنين إلى دار مملكته، وما أفاء الله به عليه من عزّ دولته، أخرج الإمام توقيعاً أمر بقراءته على المنابر في الأمصار وأنفذَ بِهِ إلى خطباء رقّادة والقيروان، وأمرهم بالدعاء به بعد الصلاة على النبيّ محمد المختار وذكر وصيِّهِ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، وفاطمة والحسن والحسين والأئمّة من ذرّيّتِه الأطهار كما كان في الخطبة أوان أبي

الدعاء الجديد في الخطب المنبريّة

(38) قصر أبي الفتح: لعلّه أحد القصور الأغلبيّة برقّادة.

عبد الله رحمة الله عليه. ويقال بعد ذلك: «اللهمّ صلّ على عبدك وخليفتك القائم بأمر عبادك في بلادك، عبد الله أبي محمد الإمام المهديّ بالله أمير المؤمنين، كما صلّيتَ على آبائه الراشدين المهديّين الذين كانوا يقضون بالحقّ وبه يعدلون. اللهمّ، وكما اصطفيتَه لولايتك واخترته لخلافتك وجعلتَه (ر78ب) لدينك عصمةً وعماداً، ولخلقك موئلاً وملاذاً، فانصره على أعدائك وآشفِ به صدورَ المؤمنين، وآفتح له مشارق الأرض ومغاربَها كما وعدتَه، على العصاة الظالمين، إلّه الخلق ربّ العالمين».

151 وكتب أمير المؤمنين المهديّ بالله (ص)/ كتاباً أمر بقراءته على منبر القيروان ووجّه نسخته إلى البلدان، وهٰذه نسختُه:

خطاب المهديّ إلى أهل القيروان...

«بآسم الله الرحمان الرحيم، والحمد لله ربّ العالمين. من عبد الله ووليّه أبي محمد الإمام المهديّ بالله أمير المؤمنين إلى أشياعه من المؤمنين، وجميع المسلمين، سلام عليكم. فإنّ أمير المؤمنين يحمَد إليكمُ الله الذي لا إلّه إلا هو، ويسأله أن يصلّي على محمد نبّيه وعبده ورسوله (ط 110).

.. يحتجّ فيه لأحقّيّة أهل البيت بإرث الرسول (ﷺ)

«أما بعد، فالحمد لله الذي رفع عمد الحقّ وأعزّ أهله، ونكّس الباطل وأذلّ حزبه، القادر فلا يعارض في قدرته، العزيز فلا يغالب في أمره، الناصر لدينه الذي رضيَه لنفسه، وشرّفَهُ بأكْرم[39] أنبيَائه عليه وأعلاهم درجةً عنده وأشرفِهم منزلة وأقربهم وسيلة لديه، محمد (ﷺ)، حامل حكمته، ومستودَع غَيبه وما يكون من بعده من كيد الكائدين وخيانة الخائنين وظلم الظالمين، إلى أهل بيته الذين سبق لهم وعده فيهم بالنصر والتأييد، والعزّ والتمكين، كما قال (تع) في كتابه المبين الذي ﴿لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ

---

(39) في المخطوطين: وشرّفهم، والإصلاح من المطبوع

تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصّلت: 42): ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجعَلَهُمُ الوَارِثِينَ، (ر 79 أ) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَونَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (القصص، 5 - 6). وقال جلّ اسمُهُ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ، إِنَّ فِي هٰذَا لَبَلاَغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ (الأنبياء، 105 - 106). وأنجز جلّ جلالهُ وتقدّست أسماؤُهُ، وعدَه لرسوله صلّى الله عليه/ وعلى آله أجمعين، فَرَدَّ إرثَ النبوّة ومقاليدَ الإمامة إلى عِترة نبيّه، وأعزَّ الدينَ والمؤمنين وأيّدهُم وأنقذَهم من الهلكة، في كلّ سكون وحركة، بعبد الله ووليّه أبي محمّد الإمامِ المهديّ بالله أمير المؤمنين، وأظهر بهجةَ الإسلام وجمالَه بقيامه وأخذِه تراثِ جدّه النبيّ (ﷺ) وأبيه الوصيّ (رضي الله عنه)، وجَعَل أولياءَه وأنصار حقِّه أولي البصائر النافذة والنيات الصادقة من سادات العرب وأنجاد كتامة، فألقت عصاها الإمامة في دارها، وقرّت عينُها، وأنست وحشتُها، واستقرّ قرارها، وصار أمير المؤمنين طوداً مُنيفاً وجبلاً راسياً على الأرض وظلاً ظليلاً لأهلها، فثبتت به وطأةُ الهدى، وسكن إليه نفار التقوى وتقوّم به ما (ط 111) كان منها متأوّداً من عمودها، وانبرم ما كان منحلاً من حبلها، واجتمع ما كان مفترقاً من شملها، وتلاءم ما كان متشعّثاً منها، ببركة أمير المؤمنين، ويُمن نقيبتِه، وسعدِ نجمه، وهبوب ريحه، فداوى الإسلامَ من الداء العُضال، ورتق من فتوقه ما كان منخرقاً، وجبر من كسره ما كان لا يجُبَر، ولاءم من صدعه ما كان لا يُلأَمْ فهو مفتاح الرحمة ودليل الخير، ذبّا عن الحقّ، وحياطةً للدين، وعنايةً بأمور المسلمين، والحمد لله ربّ العالمين.

152

153

«فما يحاول أمير المؤمنين عسيراً، والحمد/ لله، إلاّ يسّره الله، ولا صعباً إلا ذلّله، وَلاَ وَعْراً إلاّ سهّله، فأصبحت الكلمةُ به

.. ويدعو الناس إلى الامتثال والطاعة والمؤازرة.

مجتمعةً، والألفةُ متّصلة، والدهماء ساكنةً، وقواصي الأرض (ر 79 ب) آمنةً، ووليُّه ممنوعاً، وعدوّه ذليلاً مقموعاً، وكلّ من قدح بـزنده وأحطب في حبله، فمحكومٌ له بالنصر ومقضيٌّ له بالظفر. وكلّ من نكب عنه وخان أمانتَه ونقض عهدَه، وخَفَرَ[40] ذِمّتَه، فقد باء بغضبٍ من الله في الخلاف عليه، وإطلاق الفتنة من عقالها. فكلّ من أوقد عليه الحرب أحرقَته بنارها وكلَمته بأظفارها. وكلّ مَن تمسّك بطاعته فقد تمسّك بالعروة الوثقى وفاز في الآخرة والأولى. وكلّ من التمس وليجةً[41]، غيرَها فقد ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِـرَةَ، ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحجّ: 11.

«فاحمدوا الله الذي بلّغكم زمان أمير المؤمنين، واختصّكم ببرَكة أيّامه وسعادة دولته، ولِتنْبَسِط آمالُكم، وليكثر بالثقة بعـدلِه استبشارُكم، وَلِتَنْفَسِحْ بالمعرفة بحسن نظره صدورُكم، و[لـ] ـيشتدّ تمسّكُكُم بحبل طاعته وأسباب ولايته، فإنّه لا يتّصِل بين الله وبين عباده سبب إلا بمحبّة آل رسول الله (ﷺ). قال الله جـلّ ذكره: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الموَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَى ﴾ (الشـورى، 23). وقال رسول الله (ﷺ): «إنّ مَثَلَ أهل بيتي فيكم كسفينة نوح مَن ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق»[42].

«وجدّدوا الشكر لله على ما منحَكم من رأفة أمير المؤمنين ورحمته وتعاهده لأموركم وتغمّده لكم، فإنّ الشكر/ أحرسُ حفيظَةٍ لملابس نِعَمِه (ط 112) وأحفَظُ أَمَنةٍ لفواضلِ مِنَنِه، وأبعث[43] مستمدّ لمؤتنِف صُنعِه ومواد مزيده.

154

(40) خفر (وزن نصر وصرب) من الأضداد· خفر العهد. وفى به، وخفر فلاناً: خانه.

(41) الوليجة المعتمد والسّند والوسيلة.

(42) الجامع الصعير، 97/1.

(43) هكذا في المخطوط والمطبوع.

«وأمير المؤمنين يسأل الله وليّ الإحسان والنعم والإفضال أن يصلّي على محمد النبيّ مفتاح الرحمة، والمُبلّغ لرسالته، الذي حباه بجوامع فضائله ومزيد كرائمه، وأن يشعِره خشيتَهُ ومراقبته، وأن ينفّذ بالتوفيق عزائمه، وأن يُلهمَه فيما استرعاه وناط به من أمور عباده، أفضلَ ما ألهَمَ راشداً من خلفائه، وأن يعينَه على صالح نيّته، وأن يبتليَه بأحسنِ بلائه، ويوفّقَه للعمل بطاعته والقيام بحقّه حتّى يقمع الكفرَ والإلحاد، ويدوّخ أطرافَ البلاد، وأن يجعلَه خيرَ إمامٍ (ر 80 أ) أحسن إلى رعيّته، ورعيّته خيرَ رعيّةٍ أدّت حقَّ إمامها، فإنّ التوفيقَ به والمزيدَ من عنده، والسلام». فقُرِىء هٰذا السجلّ.

[انتصاب الخلافة الفاطميّة بإفريقيّة]

المهديّ يبايع بالخلافة (21 ربيع 2 - 7/297 جانفي 910)

ودُعي لأمير المؤمنين المهديّ بالله (صلع) بالخلافة يوم الجمعة لتسع ليالٍ بقين من شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين برقّادة والقيروان، والقصر القديم[44] وجميع البلدان فاستبشر الناس بذلك وسرّهم، وأكثروا من الدعاء له (صلع)، ونقشَت السكّة باسمه، وكُتب الطرز برسمه. وجاءت وفود البلدان من كلّ جهة ومكان. وواصل الجلوس للناس، ورفعت شكاواهم إليه وأزال المظالم، وأقام من الشريعة/ الغرّاء المعالم، وأمر بإقامة الحدود، وأظهر تحريم الخمر، وسائر جميع المحرّمات، وأقام الناس على سنّة جدّه محمد عليه أفضل الصلوات.

155

ووصل الجَزريّ[45] رحمة الله عليه بحرم أمير المؤمنين (عم). وأذن لأوليائه فدخلوا إليه وهنّؤوه بوصولهم، وما هيّأ الله من

(44) عرّفنا بالقصر القديم ص 110.

(45) أبو جعفر الجزريّ: هو الذي وكّله المهديّ بمصاحبة الحرم من سلميّة إلى إفريقيّة.

السلامة لهم، وأنشد الشعراء. وكان ممّن أنشده سعدون الورجيني[46]، [أنشده] شعراً أوّله:

[كامل]:

قِف بالمطيّ على مرابع دور لبست معالِمُهُنَّ ثوبَ دُثُورِ
لعبَتْ بها حتّى مَحَتْ آثارَها رِيحَانِ: ريحُ صباً وريحُ دَبُورِ

حتى انتهى إلى قوله:

شعر سعدون الورجيني في ملح المهديّ

وسفيهةٍ هبَّتْ تصُدُّ عن النوى ويدُ النوى مَلَكَت عِنانَ مسيري
خافت عليّ من الخطوب، لأنّني من قبلُ غِبتُ، وأُبْتُ بعدَ دهورِ
5 ثمّ اجتمَعْنا بَعْدَ ذاك، فيا لَهَا مأسورةً جُمعَت على مأسورِ!

وكان الورجيني الشاعر المذكور قد أسر ببلاد الروم وفُدِي، فاستعبر المهديّ بالله (صلع) حين انتهى إلى هذا المكان من الشعر، وتلقّى عبرَتَه بكُمِّه فَسَكَتَ سعدون فأومأ إليه المهدي بالله (صلع) أن مُرَّ، فمرّ فيها حتّى قال:

(ر80ب) أعَن ابنِ فاطمةٍ تصدّين امرأً بنتِ النبي وعتِرة التطهيرِ؟
156 كُفّي عن التَشبيط إني زائرٌ من أهل بيت الوحِي خيرَ مَزورِ/

فقال له أبو عبد الله، وكان قائماً بين يدي الإمام المهدي بالله: صدقتَ، هم أفضلُ العالَمين. فقبّل سعدون الأرض بين يديه. ومرّ فيها حتّى انتهى إلى قوله:

هٰذا أمير المؤمنين تضَعْضَعَت لقُدُومه أركانُ كلّ أميرِ

(46) عن سعدون الورجيني، ينظر رسالة موسى لقبال: دور كتامة. . ص 230 ورياض النفوس، 501/1 هامش 83 ولعله أصيل ورحلان ـ ورقلة حالياً في جنوب الجزائر ـ وترد نسبته في بعض المصادر: الورجيلي. وانظر الحوليّات، 1973/10 ص 166.

هـذا الإمام الفـاطميُّ، ومن به أمِنَت مغـاربُنـا من المحـذورِ
10 والشـرق ليس لشـامـه وعـراقِـهِ من مهربٍ من جُندِه الـمنـصـورِ
حتى يفوز من الخلافـة بالمُنى ويُفـازَ منـه بعدلـه المنشور[47]

فقال أمير المؤمنين: ما شاء الله! ومرّ فيها إلى أن ذكر أبا عبد الله فقال:

يـا مَن تخيَّرَ من خِيـار دُعـاتِـه أرجـاهُمُ في العسـر والميسـور
حتّى استمـالَ إليـه كـلّ قبيلةٍ ورمى إليه قيادَ كلّ عَثورِ (ط 114)
أشبهتَ موسى، وهو حَيَّتُك التي تُلقَى فتدْمَغُ إفكَ كلّ سَحُور

فنظر أمير المؤمنين (عم) إلى أبي عبد الله وتبسّم، فقال أبو عبد الله للورجيني: «أنا دون ذلك ببعِد ما بين السحاب والتراب». فأمر له أمير المؤمنين بصلة جيّدة جزيلة، وبأن يجرى عليه لكـلّ عام، ووصله أيضـاً أبو عبـد الله. وكان من شعـراء بني الأغلب الذين يمدحونهم. ومدح أميرَ المؤمنين الشعراءُ بما يطول ذكره.

157 واستعمل أمير المؤمنين (عم) وجوهَ كتامة على/ مدن إفريقيّة إلى حيث بلغت طاعتُه، وقسم على كتامة الأعمال، لكلّ عسكر منهم ناحية. وأمرهم بالتزيّن والتجمّل باللباس، فلبسوا خير الثياب وحلّوا سروجَهم ولجمَهم بالحلي الثقيل، وأظهروا زيّاً (ر 81 أ) حسناً. واتسعت أموالُهم وكثرت نعمُهم، وأسبغ عليهم وليُّ الله العطاءَ، وأجرى عليهم الصلاتِ. ودوّنَ الدواويـنَ[48] وأقـامَ ديوان الخراج، وكان قد أُحرقَ أيّام هروب زيادة الله. واصطفى أموالَ الهاربين مع زيادة الله، وترك ما كان لنسائهم لهنّ، وأمر بسترهـنّ وحفظهنّ.

مكافأة كتامة على مناصرتهم للدعوة

(47) في «ر». يقوم ويعان. والتصحيح من المطبوع ومن الافتتاح.
(48) ومنها ديوان البربر الذي سيرد ذكره ص 167

تنظيم دواوين الدولة

واتخذ العبيد من السودان والروم ونصب ديوان العطاء. وأمر بطلب نَهب رقّادة فاسترجع من أيدي الناس وطولبوا به فاجتمعت منه أموال كثيرة. وخلط وجوه بني الأغلب بأوليائه، وكانوا خافُوا جانبه فأمّنهم، وكـان وجوههم وكبُـراؤُهم يدخلون إليـه فيمن يدخـل، فيقـرّبهم ويؤنسهم ويحسن إليهم، واستعمل جماعةً منهم في النفوذ بالعساكر ممّن كان يصلح لذلك، فأمنوا وأطمأنّوا. وكان (صلع) كثيرَ العطاء والإحسان موصوفاً بالكرم. وقيل إنّ صاحب بيت المال رفع إليه

مناقب المهديّ: الكرم. . .

تحصيلَ ما خرج من الصِّلاتِ في شهر رمضان، وقد بلغ مائة ألف دينـار من العين واستكثر ذلـك صاحب بيت المـال، فقال أميـر المؤمنين المهدي بالله: لئن / بلّغني الله إلى (ط115) حقّي وبلغتُ أملي، ما رضيت بهٰذا العطاء بأسره لواحدٍ من أوليائي. والجود بالمال ممّا كان يوصف به قديماً المهـدي ومع ذلك كان لا يُضيع أقلَّ شيءٍ من المال ولا يستهين به ولا يترك منه واجباً ولا يصرفه في غير حقّه، وكان قد قطع الرُّقاق عن[49] وصائف الحرم، فكشف بعض الناس عن ذلك و[عن] العلّة فيه: فقيل إنّه دخلَ غيرَ مـرّة حجرة من حجرهم، فرأى منه شيئاً قد يبس وطرح في الأرض فنهاهم غيرَ مرّة (ر81ب) فلم ينتهوا فأمر بقطعه عنهم. فلم يكن (عم) مع جـوده العظيم وفضله العميم يترك شيئاً يوضع في غير موضعه، ولا يستخفّ بما آتاه الله من فضله، وتلك سيرتُه وسيرة آبائه الطاهرين، وأبنائه الأئمّة الأكرمين، وممّا ورِثوه عن جدّهم سيّد المرسلين. ونظر الناس من حسن سياسة أمير المؤمنين وضبطه الأمور وعدلِه وكرمِه ما لم يظنّوا أنهم يرونَ مثله.

158

. . مع كره التبذير

عدله وانصافه الناس

وأنصف من المظالم وكان يباشر سماعَها بنفسِه ويأخذ رقاع أهلها إذا ركب، وإذا جلس يسمع منهم شكواهم وينصفهم ممّن

(49) في النسختين: قطع الرقاق من . والرقاق هو الخبز الليّن الرقيق.

159

خاصمهم بوجه الحقّ وسبيل العدل، فمالت إليه قلوب الخاصّة والعامّة، وعظم أمره في قلوبهم وأعينهم، ورأى الناس من فضله وعدله/ ما أنساهم أبا عبد الله. ومالت القلوب إلى الإمام المهدي (عم)، وأين تقع النجوم من الشمسِ إذا ظهرت أنوارُها وتعالى نهارُها؟

وكان أبو عبدالله في جميع ذلك يدين المهديّ بالله بطاعته ويتواضع له ويخضع ويعلن بفضله في كلّ مشهد ومجمع، ممّا يدلّ على صفاء نيّته، وخلوص طويّته، واعتقاد الواجب عليه في ذلك، وعلى غيره من أتباع أولياء الله وطاعتهم والاقتداء في جميع الأمور بهم، ومعرفة فضلهم وعلوّ محلّهم، إلى أن كان ما كان، ممّا نذكره إذا انتهينا إليه، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم، نسأل الله العصمةَ والثبات على طاعة أوليائه الأئمّة، وأن يجعل على ذلك محيانا ومماتَنا بحقِّ محمد وآله (ر 82 أ) الطاهرين الطيّبين، صلوات الله عليهم أجمعين.

حملات أبي عبد الله بالمغرب الأوسط (سنة 297 - 298)

وأخرج أمير المؤمنين (عم) أبا عبد الله إلى الغرب وقد بلغه فيه فساد. فخرج أبو عبد الله يوم السبت لثلاث خلون من ذي القعدة سنة سبع وتسعين ومائتين[50] فانتهى إلى طبنة ووافى بها ابن خزر الزناتي[51] وقد انضمّ إليه قوم من أهل الخلاف من قبائل

(50) سبع وتسعين كما في المطبوع، وعند ابن عذاري، 160 - 161 حيث جعل وصول الداعي إلى تنس في أواخر ذي الحجّة. ومعلوم أنّ أبا عبد الله قتل في جمادى الآخرة ـ أو في ذي الحجّة ـ سنة 298 (انظر ص 168). وفي المخطوطين: سنة تسع وتسعين، وهو خطأ واضح

(51) محمّد بن خزر الزناتي. مرّ ذكره ص 133، وهو زعيم زناتة الأكبر دامت مقاومته للحكم الشيعيّ خمسين عاماً ـ توفيّ سنة 350 ـ وتحالف أحياناً مع الناصر الأمويّ، ورجع أحياناً إلى الولاء الفاطمي. وله مع موسى بن أبي العافية =

كثيرة، فقتل أبو عبد الله ممّن معه أبرَح قتل، وولّى ابن خزر هارباً في شرذمة قليلة، وتفرّق من كان معه، وذلك في يوم الاثنين لأربع بقِين من ذي القعدة من السنة المذكورة. وكتب أبو عبد الله/ إلى الإمام المهدي (ص) بخبر الفتح ووجّه برؤوس مَن قتل في تلك المعركة من وجوه زناتة وغيرهم. وأوقع أبو عبد الله بعد ذلك بوسفانة ومليلة ومدهنة وصبارة وغيرهم في موضع يقال له ناوليت[52] وورد كتابه بذلك إلى أمير المؤمنين (ص).

160

ونافق أهل تاهرت فخرج إليهم أبو عبد الله بجيوش أمير المؤمنين المهديّ وقاتلهم فقتلهم وكتب إلى المهدي (عم) بذلك.

وولّى أمير المؤمنين في تلك السنة صقلّية وقلوريَة والأرض الكبيرة[53]

= المكناسيّ منافسات طويلة انتقلت من بعدهما إلى ابنيهما: الخير بن محمد بن خزر ومدين بن موسى بن أبي العافية

وأخباره مع الخليفة الأندلسيّ مذكورة في مقتبس أبي حيّان، ج 5 ص 257 ـ 269 و 300 - 303، وكذلك في البيان المغرب، 204، إلاّ أنه لا يذكره باسمه دائماً وأحياناً يُوهم: كأن يذكر موته في الحرب (ص 155) ثمّ يذكر رجوعه إلى تاهرت (ص 165).

وقد ذكر الداعي إدريس (ص 145) شخصاً يدعى أحمد بن خزر، فلعلّ المقتول هنا هو أحمد هذا. وانظر فيما يأتي، ص 396 هامش 94، الشجرة التي حاولنا أن نضبط فيها أنساب بني خزر

(52) التباس كبير في هذا الاسم ناوله في «هـ»، ناوليب في «ر»، ناولن في المطبوع و«تاولت» في مقتطفات الدشراوي. وجهلُنا بمواطن القبائل الأربع ـ وهي زناتيّة بدون شك ـ لا يساعدنا على تحديد الموقع ولا على ضبط اسمه. وقد يقرب ناوليت هذا من اسم «تاقللت»، وهي «مدينة لكتامة على مرحلة من سطيف بينها وبين القيروان ثماني عشرة مرحلة» (البكري، 76) إلاّ أنّنا نستبعد أن يدور القتال مع زناتة في أرض كتاميّة.

(53) الأرض الكبيرة مصطلح يعني السواحل الشماليّة للبحر الأبيض المتوسّط بالمعنى الواسع، فيضمّ جنوب فرنسا وإسبانيا المسيحية علاوة على إيطاليا. وفي هذا الصدد يقول عبد الواحد المراكشي (المعجب، 6) «وبلاد فرنسة من الأرض الكبيرة» ويجعل رومة «قاعدة الأرض الكبيرة» (ص 7). وفي المعنى الضيق، =

الحسن بن أحمد بن [أبي] خنزير الميلي[54] فوصل إليها وأقام فيها. ثمّ نافق عليه أهل صقلّيّة فخرج عنهم.

وزحف أبو عبد الله إلى بلد بجوار تارهت فتتبّع عشائرها وقتل منهم قتلاً كثيراً، وكانوا قد باينوا بالخلاف، وكتب إلى أمير المؤمنين بخبر ذلك في آخر ذي الحجّة *.

دش 28

انتقاض تنس وفتحها

ثمّ قصد مدينة تنس[55] وقد اجتمع إليها قبائل (ر 82 ب) كثيرة وأزمعوا على أخذ مدينة تنس، فزحف إليها أبو عبد الله في جيوش كثيرة فقتلهم أجمعين وغنم أموالهم ونعمهم، ووصل إلى أمير المؤمنين كتابُه بذلك. وقصد وادي مدغر والخضراء[56] فأوقع بمَن فيها وقتلهم فسكنت الأمور، وانصلح الجمهور وصلحت أحوال تلك البلاد/ وجرت على السداد. وراح أبو عبد الله بمن معه من الجيوشَ إلى حضرة الإمامة سالمين غانمين، وأمدّ الله أمير المؤمنين، وأرغم المخالفين والمنافقين وأعزّ به الدين.

161

[مؤامرة أبي العباس وأخيه]

ثمّ إنه بدأ الفساد ورجع كثير، إلا من عصم الله، عن سبيل الرشاد: وذلك أنّ أبا العبّاس محمد بن زكريا كان قد تطاعم الرئاسة، لأنه حين (ط 117) قدم على أخيه أبي عبد الله أكرمه وعظّمه لما كان

= يعني جنوب إيطاليا، أي ما وراء مضيق مسينا، كولاية قلورية وعاصمتها ريو. وانظر الطالبي، الإمارة، 459 و 502/477 و 523

(54) سبق التعريف بابن أبي خنزير (ص 81 هامش 50) وخروجه عن صقلّيّة كان في سنة 300 بعد قيام الأهالي عليه (الطالبيّ، 627، هامش 686/5 هامش 228).

(55) تنس: مدينة على البحر بين وهران غرباً والجزائر العاصمة شرقاً وتقع تاهرت بجنوبها على مائتي ميل، «أسّسها وبناها البحريون من أهل الأندلس» (البكري، 61).

(56) الخضراء «على مقربة من تنس (في اتّجاه تنس) ويكتنفها من قبائل البربر مدغرة وبنو دمّر ومديونة وبنو واريفة (البكري، 75) ولعلّ وادي مدغر المذكور هنا هو موطن قبيلة مدغرة كما قال الدشراوي، هامش 35

له من التقدّم في السنّ و [لِـ]ـرياضَتِه في العلم. وكان أبو عبد الله يجلّه، وذلك لما كان أبو عبد الله رحمة الله عليه، جرى عليه من حسن الآداب والتواضع وصفاء النيّة وصلاح العقيدة. ولمّا خرج أبو عبد الله إلى سجلماسة، انصرف الأمر بأجمعه إلى أبي العبّاس، وأقبل عليه الناس، فكان المقدِّمَ والمؤخِّرَ، والمُوردَ والمُصدِر.

تغيّر أبي العبّاس على المهديّ طمعاً وحسداً

وحين قدم المهدي (عم) مالت إليه العيون، وانقلبت إلى تحقيق فضله الظنون، وظهر فضله على أبي عبد الله وأبي العبّاس، بحيث لا يتدانى بظنّ ولا بقياس، وأين السحاب من التراب، وأنّى يتقارب ذلك بأيّ الأسباب؟ فتداخل أبا العبّاس الحسد، ولزمه ما لزم من ضُلٍّ وعَنَد، فاستزلّه الشيطان، وأخرجه من الإيمان، فنكث عهدَه وخان (ر 83 أ) الله ربّه، وفارق حزب الله واختار الشيطان وحزبه، فكان يطعن/ على وليّ الله ويزري عليه ويوجّه اللوم عند أخيه أبي عبد الله إليه، وأخوه أبو عبد الله يتعاظم ذلك وينكره، وينهاه عن ذلك ويزجره، وهو يتمادى في طغيانه، ويتزايد في إثمه وعدوانه، حتى جاهر أبا عبد الله فقال له: «ملكت أمراً وانطاع لك جميع الناس، فجئت بمن غيّر سياستك ونقصك رئاستك، وقبضَ عن البسط يدَكَ، وأرى الناسَ باستقامة أحواله أودك، وأسقطك عمّا كنت فيه من رفيع المكان واضطهدك. ولقد كنت حريّاً أن يُمَلّكك أزمّة أمره، ويخصّك من كلّ فضل أدّيته بشطره».

162

إغراؤه أبا عبد الله بنيل السلطان..

فلم يزل يبكته بمثل هٰذا الكلام ويقرَعُه، ويوصل معه ما استحكم في قلبه ويُترعه[57] حتى أصغى إليه بعض الإصغاء،

---

(57) في النسختين: يقرعه. وفي المطبوع. يفرعه. ولعلّها يفرغه. وآثرنا موافقة القافية

ولنلاحظ أنّ الداعي إدريس يدلي بالرواية الرسميّة المتداولة عند الشيعة الإسماعيلية· وهي أن الطموح إلى الحكم هو الذي غيّر الداعي وحمله على =

وكاد سحره أن ينفذ فيه فيتبعه حين طغى وبغى. فجاهر أبو عبد الله وليّ الله فقال له، على سبيل الناصحين:

.. وانخداع أبي عبد الله باحتجاج أخيه

«إنّي قد قوّمت هؤلاء الكتاميّين وأجريتُهم على ما أردتُ من التقويم، وأخذتهم على ترتيب وتعليم، فاستقام لي أمرهم وجُلب نفعُهم، ودُفع ضرُّهم. فلو تركتَ (ط 118) إليّ أمرهم وكنتَ في قصرك وادعاً، لكان ذلك أهيبَ لك وأشدّ لأمرك وأعظم لسلطانك».

فلما سمع ذلك المهديّ بالله (عم)، علمَ أمرَه وما أضمرَه في ذلك وأسرّه، وتحقّق من حيث أتى، وأنّ ذلك من قِبل أخيه، وأنّه قد عمل سحرُه فيه. وأجابه/ (عم) بجواب لطُف فيه القول، ولم يعلمه أنّه قد علم ما يخفيه.

163

وحين تحقّق ذلك أبو العبّاس، زاد (رَ 83 ب) في مكره وإصراره،

المهديّ يفهم أنّ رأس التمرّد هو أبو العبّاس.

وأمعنَ في إفساد أتباع وليّ الله وأنصاره، وأظهر من النفاق ما كان في إضماره، فداخل المشايخ والدعاة، وكانوا يعظّمونه لما رأوا من تعظيم أخيه له. وكان يرمز لهم في الطعن على الإمام (عم) والعناد له فيما يبديه ويخفيه من الكلام. ثمّ لمّا علِم قبولَ قوله، خرج من الرمز إلى التصريح، وباح بسرّه مخرجاً له إلى الإعلان عن التلويح، وداخَلَهم بأنّه لم يُعطهمُ الإمام ما استوجبوه من حقّهم لجهادهم، وأنّ فعله لهم دونَ مُرادهم، وذكّرهم أموال الله التي أخذها الإمام من أيديهم، وأنّه كان يجب أن يتركَها ويصرف أمرها إليهم. فأجابه بذلك من أجاب وفشا فيه النفاق، ودخل في ذلك جماعة من أهل

دعاوي أبي العبّاس تزعزع ولاء كتامة

= التآمر. ويسكت تماماً عن قضية الشك في استحقاق عبيد الله للإمامة، أي في كونه المهدي حقاً. وقد خاض فيها أبو عبد الله مع أتباعه من كتامة حسب رواية ابن عذاري، 161/1 وانظر أصول الإسماعيليّة، الترجمة العربية، ص 115 وما يليها. وكذلك الدشراوي في أطروحته، 127، ولكنه يتبنّى عرض النعمان، أي فكرة الطموح والحسد.

إفريقيّة في المساعدة على ذلك والاتّفاق. وكلّ ذلك يتّصل بأمير المؤمنين المهديّ بالله (عم)، وهو معرض عنه وغير مكترث بما يبلغه منه.

المهديّ يجمع الأنصار الأوفياء تحت قيادة غـزوية ابن يوسف...

ثمّ إنّ أبا العبّاس دخل مع أبي عبد الله وغيره على وجه التحذير، وقال لهم: «إنّ المهدي بالله قد علم ما أنتم عليه، وأنا لكم منه النذير. فإنّه لن يدعَكم بهٰذه الحالة، وإنّه مُهْلِكُكُمْ جميعاً لا محالة». فكثر النّفاق واجتمعت كتامة عليه إلاّ من عصم الله وَقَلِيلٌ مَا هُمْ/.

164

وجمع أمير المؤمنين (عم) إلى غزوية بن يوسف مَن بقِي من المؤمنين ممّن جانب سبيل المنافقين، ومَن معه من عبيده وأهل طاعته. وكذلك أبو خليفة، في جماعة من المشايخ ممّن ثبت على اليقين، ولم يمِل عن سبيل المؤمنين. وباين هارون بن يونس[58]، الذي كان يدعى «شيخ المشايخ»، بالنفاق، وأظهر لوليّ الله العناد والشقاق، وحَمَلَهُ جهلُه إلى أن أبدى لوليّ (ط 119) الله صفحتَه وقال له: «إن كنت المهديّ، فأرنا المعجزات، فقد شككنا فيك». فأوقفه المهدي بالله (عم) على ما في كتاب الله من ذمّ الأمم حين سؤالِهم لأنبيائهم أن يُرُوهُمُ الآيات، وما في ذلك من الدلالات، وقال له في قوله «شككنا في أمرك»:

.. ويحاول أن يثني شيخ المشايخ عن التمرّد

ألم تكن قبل شكِّك على اليقين؟

قال: بلى.

قال: فإن الشكّ لا يزيل اليقين.

فتمادى هارون في ضلالته وتزايد في غوايته إلى أن أهلكه الله بأيدي عبيد وليّه كما أهلك غيرَه من الأشرار، وكان لهم سوء الدار.

(58) ابن يوسف في المخطوط. انظر ص 56 هامش 14.

فعند ذلك ازداد أبو العبّاس في طغيانه، واستحكم لمَن أضلّه ما زخرفَه من بهتانه، وقال لأبي عبد الله وغيره من مشايخ كتامة: «إنّه لم يبقَ إلاّ أن تُؤخَذوا بنواصيكم، ويحكّمَ حدّ السيفِ فيكم».

من المتآمرين أيضاً: أبو زاكي

واجتمعوا في دار أبي زاكي تمّام بن معارك فأجمعوا الآراء وعقدوا العقود/، ونقضُوا ما قُلّدوه من المواثيق والعهود، وأجمعوا على أن يفتكوا بوليّ الله وينتزعوا حقّ الله من يديه، ويصلوا بما راموا من الطغيان والعدوان إليه، والله بالغ أمره ومتمّ نوره.

165

وكان يأتي من يأتي بأخبارهم إلى أمير المؤمنين، ويذكر له ما استفزّهم به إبليس اللعين. ثمّ إنّهم جمعوا الجموع وأحاطوا بقصر الإمام (عم) ليوقعوا به. فلم يكترث بجمعهم، ولا هاله ما هم فيه من أمرهم. بل استعصم بربّه موقنا أنّه قد خلّصه من أضداده، وفلّ عنه شوكة أهل عناده، ووثِق بوعد الله الذي وعده أن يظهرَه والأئمّةَ من أولاده. وفرّق الله جمعَهم، وقذف الرعبَ في قلوبهم، وكان ذلك من مادّة الله التي أمدّ بها وليَّه، وهيّأ له نصرَه، وأبان له (ر 84 ب) معجزتَه.

المهديّ عارف بتفاصيل حركتهم...

ثمّ إنّهم كانوا يدخلون إلى المهديّ بالله (عم) وهم يضمرون الفتكَ به، فيلقي الله الرعبَ في قلوبهم ويصدّهم عمّا راموه من أمرهم، وتغلبهم هيبتُه ويغُلّ[59] الله عنه أيديَهم، وهو في كلّ ذلك غير مستعدّ لهم ولا محتفل بأمرهم، ثقةً بالله ربّه وتوكّلا عليه، ورجوعاً، فيما أبداه وأخفاه، إليه، راجياً لصادق وعده، مستمطراً للنصر والتأييد من عنده. وكلّما انصرفوا من عنده أخذتْهم لتركهم إيّاه الندامة، وعادوا إلى/ ما كانوا فيه من إضمار المكر لإبطال أمر الله الذي أراد تمامه.

166

---

(59) غلّ (وزن نصر) الرجل: قيّده

وكان اجتماعهم ليلَهم إلى أبي زاكي لعقد ما أضمروه وإجالة الرأي والحيلة في أن ينالوا وليّ الله بالمكروه. (ط 120) ونظر المهديّ بالله (عم) إلى أبي عبد الله دخل إليه غيرَ مرّة وقميصُه مقلوب، وذلك لما هو فيه من الشغل الذي ألهاه أن يشعر بذلك وطولِ السعي فيه والدؤوب. فقال له الإمام (ص): يا أبا عبد الله، ما هٰذا الأمر الذي أذهلك وشغلك في أمر نفسك؟

قال: وما هو يا مولاي؟

.. فيشعر أبا عبد الله بأنّه يعلم..

قال: أرى قميصك مقلوباً عليك وأنت تدخل كذلك مراراً ما اهتديتَ إليه ولا أحسبك نزعتَه عن نفسك.

فنظر إليه وقال: والله يا مولاي، ما علمتُ به.

قال: إنّ هٰذا لشغل عظيم! فأين تبيت منذ كذا وكذا من الليالي؟

فسكت أبو عبدالله. قال: أليس في بيت أبي زاكي؟

قال: نعم يا مولاي.

قال: وما أخرجَك عن دارك التي أنزلناك بها إلى دار أبي زاكي؟

قال: يا مولاي، خفت على نفسي.

قال: ممّن؟

فسكت. قال: أمنّي تخاف؟

قال: خُوِّفتُ يا مولاي فخِفتُ.

قال: فهل يخاف المرءُ إلاّ من عدوِّه؟.

.. فيرتبك الداعي وأصحابه

قال: أعوذ بالله!

فقال له أمير المؤمنين: إنّ المؤمن لا يخاف وليَّه.

167

فسكت أبو عبد الله وأيقن أنّه قد بدت عورتُه/ ووجبت لله عليه حجّته وانصرف (ر 85 أ). وعلم القوم بما قال أمير المؤمنين (عم) فأمسكوا عن الدخول عليه وخافوا منه.

وكان ابن القديم[60]، الذي كان عاملاً لزيادة الله، قد أفسد كثيراً من الناس، وغيّر قلوبهم، ووسوس إليهم، واستمالهم بأموال كثيرة بذلها لهم. وكان أمير المؤمنين قد ولّاه ديوان البربر وأمّنه وأحسن إليه، فكافأه بالخلاف عليه. وأمر الإمام (عم) بجماعة من الشيوخ الذين قد نافقوا، فأظهروا البراءة ممّا قيل فيهم، واعتذروا فيما تأدّى إليه عنهم، فردّ عليهم في ذلك ردّاً جميلاً، وأخرج جماعةً من وجوههم إلى نواحٍ من البلدان وفرّق جمعهم..

انتقام المهديّ من...

وكان فيمن أخرج أبو زاكي إلى طرابلس، وكان عمّه أبو يوسف ماكنون بن ضبارة عاملاً عليها. فلما وصل إليه كتاب الإمام (عم) وعرّفه بفعل ابن أخيه أبي زاكي، قتلَه صبراً وبعث برأسه (ط 121) إلى الإمام (عم). وقُتل كذلك جماعة من المنافقين في البلدان، والقاتلون لهم إخوانُهم الباقون على الإيمان. وهرب ابن القديم فاستخفى. ثم ظهر فأمر الإمام بقتله، وباء بذميم فعله.

.. أبي زاكي وابن القديم..

وتقدّم أمير المؤمنين إلى غزوية بن يوسف الملّوسي وجبر بن تماشت الجيملي[61] بقتل أبي العباس محمد بن زكريا. فقال جبر لغزوية: ما الذي أمرك به مولانا (عم)؟/

168

قال: أمرني بقتل أبي العبّاس.

---

(60) عرّفنا بابن القديم ص 133.

(61) ابن نماسب الميلي في البيان المغرب، 164. وابن القاسم في المقفّى، ورقة 221ب.

فقال: أنا أكبر منك سنّاً. فخذ من رأيي: أتقتل أبا العبّاس ويدخل أبو عبد الله إلى أمير المؤمنين فيبكي بين يديه فنُقتَلُ رضىً له؟ ما هٰذا برأي، لكن اَفعل ما أمرك به أمير المؤمنين، ودَعْني وأبا عبد الله.

. . . ومن أبي العبّاس. .

وخرج أبو عبد الله وأبو العبّاس من قصر المهديّ بالله إلى قصر القائم بأمر الله (عم)، فرمى جبر بن تماشت أبا عبد الله (ر 85 ب) أحمد ابن زكريا فلم يخطىء مقتله، وكأنما كان سراجاً فانطفأ[62]. ورمى غزوية أبا العبّاس فبقي ساعةً من نهار ثمّ مات. فترحّم أمير المؤمنين على أبي عبد الله وأمر بدفنِه بعد أن صلّى عليه. وأمّا أبو العبّاس فلعنه الإمام، وباء بما اقترف مُخرَجاً من رحمة الله محتقباً للآثام. فرحمة الله على أبي عبد الله وعلى المؤمنين المجاهدين الصابرين، ولعنة الله على الظالمين الذين صدّواعن السبيل، ومالوا عن اتّباع الدليل، نسأل الله (تع) أن يثبّتنا على الإيمان، ويعصمنا من اتّباع أهل الطغيان، وأن يميتنا على طاعة أوليائه الأطهار، ويتجاوز عن ذنوبنا إنّه هو الغفّار.

. . ولكنّ قتل أبي عبد الله كان غلطاً

. . . فترحّم عليه المهديّ كثيراً

169

وقد قيل إن الإمام أمر بقتل أبي عبد الله ثم ترحّم عليه. فإن/ كان ذلك فهو تطهير له ليموت على الطاعة قبل أن يصير في الذنب المُحبِطِ للعمل. وترحّم الإمام عليه تكفير لذنبه، وبه يدرك الرحمة والعفوَ من ربّه، لأنّ إساءتَه كانت للإمام (عم) فحين عفا عنه، لم يلحقه ذنب التّباعة، وذلك لا خلاف فيه أنّ ما كان بين الله وبين العبد من الذنوب (ط 122)، وأخلص النيّة في التوبة إلى الله والاستغفار، ولم

(62) قتل أبي زاكي والأخوين الداعيين كان في يوم واحد حسب رواية ابن عذاري الذي يقول إنّ ماكنون بن ضبارة أعلم المهدي بواسطة حمام الزاجل. ويوم القتل هو الثلاثاء غرّة ذي الحجّة 298 (31 جويلية 911). وفي الافتتاح، 261/316: الاثنين نصف جمادى 2.

يتماد على الذنب والإصرار، فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر، 53) كما قال في كتابه الكريم[63]. فأمّا التبعات التي بين المرء والعباد فلا تغفر حتى يخرج إليهم عنها، ويبرأ إليهم منها. وأمّا أولياء الله الأئمّة (عم)، فإنّهم آل الرسول (ﷺ) والشفعاء إلى الله، وبهم وبجدّهم نبيّ الله تُعتقُ الرقاب من النار، وبهم النجاة من العذاب والفوز في دار القرار، فلم يضع لأبي عبد الله (ر 86 أ) سعيه واجتهاده، ولا بطل عند وليّ الله فضلُه وجهاده، بل استغفر له وترحّم عليه ورضي عنه، ووهب له ما كان من اجترامه إليه. جعلَنا الله ممّن أدركته الرحمة بشفاعة محمد النبي وآله الطاهرين، ولا جعلَنا من المائلين عن سنَنهم السويّ والجائرين.

ترحّم المهديّ عليه يمحو جنايته . . .

. . إذ لا غفران للمسيء ما لم يعف عنه المساء إليه

170

ولمّا كان من قتل أبي عبد الله/ وأخيه ما كان، اضطرب أهل القيروان وثارت بنو الأغلب وقد كان أمّنهم المهديّ بالله (عم)، وأسبل عليهم عفوَه فذهبت طائفة منهم إلى القصر القديم، وفيه جماعة من الكتاميّين، فأخرجوا منه الكتاميّين وقتلوا منهُم، واجتمعت لبني الأغلب جموع عظيمة من سوقة القيروان وغيرهم، وأخرجوا العُدّة والسلاح والخيل، وخرجوا على الكتاميّين فواقفوهم ساعة. وخرج يومئذٍ أبو خليفة الكتاميّ وأصيب جماعة من الأولياء من كتامة، فأرسل الإمام (عم) إلى كتامة فردّهم وأظهر الإنكار عليهم فانصرفوا.

ثورة أهل القيروان على كتامة بعد مقتل الداعي

وأخرج بنو الأغلب فازاتهم وأخبيتهم فضربوا بها خارج القصر القديم ممّا يلي رقّادة بموضع يقال له الهدف، وبرزوا مجاهرين بالمعصية مبتغين للحرب. فأعرض عنهم أمير المؤمنين (عم) ووقفوا

(63) لا تخلو هذه الفقرة من الاضطراب في التركيب، علاوة على التعمّل في الاحتجاج.

كذلك أياماً، ثمّ انحلّ أمرهم وتفرّق جمعهم فرجعوا إلى دورهم. فتركهم الإمام مدّة ثمّ أمر بقتل طائفة منهم وإدخال آخرين السجن، فمكثوا فيه حتى أخرجهم الإمام المنصور (عم) مع أهل السجون بعد الفتح.

وشجر أيضاً بين أهل القيروان وبين بعض الكتاميّين شرّ، فاجتمع أهل القيروان على الكتاميّين الذين في القيروان / وقتل منهم (ط123) 171 سبعمائة رجل. فانتهى ذلك إلى المهديّ بالله (عم) فقال: «أَلَهُمْ رَئِيسٌ يُعْزَوْن إليه أو أحدٌ في هٰذا الأمر يجتمعون عليه؟» فقالوا: «لا يعرف ولا يوجد». فتمثل (عم) بقول الشاعر:

(رجز):

أَخْشَى عَلَى دَيْسَمَ مِنْ بَرْدِ الثَّرىَ أَبَى قَضَاءُ اللَّهِ إِلَّا مَا أَرَى[64]

ثمّ أتى شيوخ القيروان مع القاضي المروزيّ إلى الإمام (عم) فاعتذروا من فعلهم، فأعرض عنهم ولم يعجّل عقوبتَهم. ثمّ عاقبهَم بعد ذلك في أموالهم عقوبة أمثالهم إذ لم يعلم الذين قتلوا فيقتصَّ منهم ويُنفِّذَ أمرَ الله فيهم.

ولمّا فرّق الله الظالمين، وقطع شأفةَ المنافقين، وأذلّ المفسدينَ، ومكّن عبدَه ووليّه المهديّ بالله أمير المؤمنين، عهد أمير المؤمنين إلى ابنه[65] القائم بأمر الله محمد بن عبد الله أبي القاسم

---

(64) في المخطوط: احثوا. . مس حعل . . والتصحيح من اللسان (دسم)، ممّا أنشد ابن دريد. والبيت لا يوجد في المقصورة.

(65) «عهد إلى ابنه القائم باستنحاب واستحقاق»· في عبارة الداعي إدريس تفنيد عابر للشكوك في صحة إمامة المهدي وهي عبارة الافتتاح، 3224: «عهد إلى محمد القائم ابنه» وكذلك ابن الأثير، 135/6 إلّا أنه يسميه «نزار».

المهديّ يعيّن القائم وليّاً للعهد

(صلع) عهدَه، وأقامه للخلافة بعدَه، وكتب بذلك إلى شيعته في جميع الآفاق، وعرّفه أنه القائم بعده باستنجاب واستحقاق، وسمّاه وليّ عهد المسلمين وخليفة أمير المؤمنين وكان يسرّ إذا رآه ويتمثّل كثيراً حين يلقاه:

(سريع):

مبَارك الطلعة ميمونها يصلح للدنيا وللدين[66]

وبقيت من المنافقين بقيّة قد اجتَمعوا إلى بلد كتامة فأقامُوا غلاماً حدثاً من أخسّ أهل بيت فيهم يقال لهم بنو ماوطي[67] من أورسّة، فزعموا أنّه المهديّ ونحلوه/ النبوّة، وزعموا أنّ الوحيَ يأتيه، وأن الكتب من الله تنزل عليه، ونصبوا له دعاةً كدعاة أبي عبد الله، وقاسوا على ما كانوا يرونه من تربيته، وآدّعَوا أنّ أبا عبد الله حيٌّ لم يمُت، وجاؤوا بكثير من الترّهات، والأقاويل (ر 87 أ) المزيّفات. فاجتمع إليهم طوائف كثيرة من أوباش الناس وسخفائهم وزحفوا إلى ميلة فأخذوها. فأخرج إليهم أمير المؤمنين بنطاس بن حسن الملوسي في عساكر عظيمة، وجماعةً من رؤساء كتامة إلى الماوطي المدّعي النبوّة. فأوقع بهم الماوطي وهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة. فأنهض أمير المؤمنين ولده ووليَّ عهده والخليفة من بعده القائم بأمر الله وهو يومئذٍ لاثنتين وعشرين سنة. وخرج معه جميع الناس وقدّم بين يديه عسكرين، على أحدهما أبو ذخار الملوسي وعلى الآخر محمد بن يعلى. وسار بعدهما القائم ففتح

172

ثورة بني ماوطي في بلاد كتامة...

(66) هذا البيت في المقفى، ورقة 22 ب، غير معزّو إلى قائل.

(67) في البيان، 166/1: «المارطي واسمه كادو بن معارك» وفي العيون والحدائق، 156 و 162: الماواطني.

قسنطينة[68] لسبع بقين من شوّال والتقى بالماوطي في واد الزيت من ميلة يوم الأحد لثلاث خلون من ذي القعدة[69] فهزمه وليّ عهد المسلمين بعد قتال شديد عُرفت فيه للقائم (عم) النجدة.

.. وانهزامهم على يد القائم

ولمّا/ انهزم اللعين الماوطي أنفد وليّ عهد المسلمين خلفه غزوية بن يوسف الملوسي فأخذه بوادي سهر[70] ومعه أهل بيته فوصل بهم إلى القائم وهو في إيكجان فقتله ومن معه.

173

وكتب القائم بأمر الله إلى أمير المؤمنين المهدي بالله عليه السلام، بخبر الفتح، وبما أمكنه الله وأظفره من الكافرين والمنافقين، وقمع به أعداء الله المفسدين. واتّصل بالإمام المهديّ ما لاقاه القائم من الحروب والشدّة فأجابه وكتب إليه هٰذه الأبيات في آخر كتابه:

(وافر):

أبيات للمهديّ يتشوّق فيها إلى ابنه القائم

أتصبح في كتامةَ ذا انفراد تقابلُها قياماً في قيام
إذا ما وقعةٌ دارت رَحاها بجزم مفاصلٍ وفِلاق هام[71]
أتت أخرى تَطُمُّ وتعتليها يشيب لهولها رأسُ الغلام
وألتذُّ الحياة بخفضِ عيش معاذ الله والشهرِ الحرام!

(68) في المخطوط: قسطيلية والإصلاح من البيان: «وافتتح مدينة قسنطينة من بلاد كتامة».

(69) كان خروج القائم من رقّادة في آخر رمضان 299 حسب ابن عذاري، 167. ويقول القاضي النعمان وبعده المقريزي (المقفى، 121 ب): «أنّه جلاهم إلى البحر».

(70) وادي سهر: هو وادي القصب حاليًا «وهو نهر المسيلة المعروف بالوادي الرئيس» (البكريّ، 54) وعند ابن حوقل، 85: «ولها وادٍ يقال له وادي سهر فيه ماء عظيم منبسط على وجه الأرض وليس بالعميق».

(71) الجزم: القطع. والفلاق مصدر فالق والأبيات منسوبة إلى «بعض المغاربة» في البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي، ص 133 مع إسقاط البيت الأخير. وقد أثبتها كاملة صاحب العيون والحدائق، 162.

ولـكـنّ الـتـجـلّدَ لـي خَـديـنٌ فسنّـي ضـاحـك والقـلبُ دام
عسى الـرحمانُ يجمعُنـا وشيكا وقـد تمّت لنـا رُتَبُ الكِـرام
فـأنقـع غُلّتي بـك واشتيـاقي إليك بحمد ذي المننِ الجسام

ويبلغ القائم بأمر الله (عم) أن أهل طرابلس نابذوا بالخلاف (ط 125) والعصيان، وجاهروا بالعدوان/ وأخرجوا ماكنون بن ضبارة، وأفلح ابن هارون القاضي[72] الذي أقامه الإمام فيهم، وولّوا عليهم رجلاً من أهل باغاية اسمه أحمد بن نصر[73] فسار القائم إليهم. فلما وصل إلى طرابلس طاف بالحصن فعلم أنّهم لا ينالونه بالحصار، والغلّات ترد إليهم من البحر على أيدي هوارة، فسار فأوقع بهم وقتلهم وغنِم أموالهم وعاد إلى طرابلس فحاصرها وأقام في محاصرتها ستّة أشهر، ثمّ افتتحها واستخلف عليها أبا مديني بن كناوة اللهيصيّ وترك معه حباسة بن يوسف الملوسي، وعاد إلى الإمام المهدي بالله (عم) إلى رقّادة ظافراً منصوراً، مؤيّداً محبوراً.

174

القائم يفتح طرابلس بعد انتقاضها

ووافق موت الداعي أبي جعفر الجزري رحمة الله عليه، الذي سيّره أمير المؤمنين (عم) مع الحرم من سلميّة. فصلّى عليه القائم بأمر الله، ووقف على قبره حتى وارَوه فيه وترحّم عليه.

وفاة أبي جعفر الجزريّ

وأخرج أمير المؤمنين (عم) حباسة بن يوسف الملوسي[74]

---

(72) في المخطوط: والقاضي

(73) في البيان، 168، يسمّى هذا العامل «محمّد بن إسحاق المعروف بابن القرلين». وانظر الزاوي: ولاة طرابلس، 70 وهو عنده: محمّد بن إسحاق القرشيّ، ابن القرلين.

(74) حباسة بن يوسف الملوسيّ: قيل إنّه أخو عزوية بن يوسف الملوسي (ابن خلدون، 38/4 والعيون والحدائق، 179). ونسب إليه ابن عذاري، 168 فظائع كثيرة في أهل برقة، وأطنب في خبر انقطاعه عن القائم بمصروووقوعه عند المهديّ وحتفه بالمهديّة. وقد جرّ قتله انتقاض أخيه غروية على المهديّ في =

وموسى بن عبد الرحمان الوادي يوم الاثنين لخمس بقين من جمادى الآخر سنة إحدى وثلاثمائة فملكا سرت وسارا إلى أجدابية فملكاها وسارا إلى برقة وبها قائد يقال له أبو النمر أحمد بن/ صالح مِن قبل أمير مصر[75]. فحين دنا حباسة بن يوسف، وموسى بن عبد الرحمان في مَن معهُما من برقة (ر 88 أ) هرب أحمد بن صالح منها ولم يقاتل، فدخلا برقة وافتتحاها لسبع خلون من شهر رجب، وكتبا إلى أمير المؤمنين المهدي بالله يبشّرانه بالفتح، ووقفا فيها.

175

ولمّا وصل أحمد بن صالح إلى مصر، أرجعه أمير (ط 126) مصر إلى برقة بعساكر عظيمة. وكتب حباسة وموسى إلى أمير المؤمنين يخبرانه برجوع أحمد بن صالح ويستمدّانه. فأخرج إليهما سليمان ابن كافي[76] الجيملي، وعفيقان بن كردوس في جيش، فسارا من رقّادة يوم الخميس لخمس خلون من شعبان وحثّا السير إلى برقة

حملة حباسة بن يوسف على برقة

= جموع من ملوسة، ويبدو أنّهم هدّدوا القيروان حسب رواية ابن الأثير (حوادث 302) ورواية المقريزي في الاتعاظ)

أما موسى بن عبد الرحمان فلا نعرفه، ولا نعرف كثيراً من الأعلام المذكورين في هذه الحملة ذلك أنّ القاضي النعمان ختم الرواية في الافتتاح، فصار الداعي إدريس إلى مصادر أخرى مفقودة ينقل عنها فلا يتسنّى لنا التتبع والمقابلة والمقارنة

(75) أمير مصر من 297 إلى 307 هو تكين بن عبد الله الحزري أبو منصور (زامبور، 42). وتكين عزل أحمد بن صالح عن برقة وعوّضه بخير المنصوريّ (الكندي، 268).

(76) «ابن كاف» في المخطوط، ولعلّ المؤلّف اعتبر الاسم منقوصاً. وعند الكندي، 272 قصيدة لابن مهران، منها:

ووافانا سليمان بن كافي يخطّ الأرض في غير المخطّ

وفي البيان، 181، خبر طويل عن دوره في حملة مصر الثانية سنة 306. وفي العيون والحدائق، ص 206، ذكر حملته على ميناء رشيد في مصر لمؤازرة الأسطول الفاطميّ بقيادة سليمان الخادم ويعقوب بن إسحاق (التميمي لا الكتامي) أخي خليل بن إسحاق الآتي ذكره في ثورة أبي يزيد.

دش 32

فضلاً عن الطريق فأصبحا وقد وقع ضباب لا * يشعر أحد بصاحبه، فما شعرا حتى هجما على عساكر أهل مصر، وكان سيرهما على تعبئة الحرب لمن معهما. فوقع بينهم القتال وكانت الهزيمة في المصريّين فلم يثبتوا وولّوا على أدبارهم، وذلك في يوم الخميس لخمس بقين من شهر الله، وأقام العسكر ببرقة.

[الحملة الأولى على مصر]

وأنهض أمير المؤمنين ولدَه ووليَّ عهده القائم (ص) إلى مصر في عساكر كتامة وأهل إفريقيّـة[77]، فسار من حضرة الإمامة من رقادة/ يوم الخميس لأربع عشرة ليلة مضت من ذي الحجّة، وكانت طريقه إلى قابس. ووصل إلى طرابلس لست خلون من المحرم سنة اثنتين وثلاثمائة. ونهض من طرابلس لاثنتي عشرة خلت منه فنزل سرت. وكتب إلى حباسة بن يوسـف أن لا يبرح من برقة حتى يأتيه. فلم يصبر حباسة بل رأى أن يتقدّم ورجا أن يكون فتح مصر له وباسمه فسار يريد مصر.

176

حملة القائم على مصر سنة 302

وسار القائم (عم) من سرت ثالث صفر فنزل أجدابيّة لاثنتي عشرة من صفر. ووافت إلى القائم كتب (ر 88 ب) من حباسة، وسليمان بن كافي، وعفيقان بن كردوس، وعامر بن يوسف يخبرونه بدخولهم الحنيّة[78]

(77) أهل إفريقيّة· يبدو أنّهم فريق من الجند متميّر عن بقيّة الطوائف كالعبيد الصقالبة، والعبيد المسترقّين، وكتامة، ويرى محمد الطالي في فصل: Conver - sion des Berbères au Kharijisme... ص 63 من «دراسات في تاريخ إفريقية» تونس 1982، أنّ عبارة «أهل إفريقيّة» تعني العرب «المتأفرقين» الذين صاروا، بفعل الاستيطان القديم، مثل سكان إفريقية الأصليّين من البربر، يشكون نفس الميز العنصري الذي يشكوه البربر من الحكّام العرب القادمين من المشرق، ويطمحون إلى نوع من الاستقلال عن السلطة المركزيّة بدمشق ثمّ بغداد. وواضح أنّ هذا التصنيف يتناول سكان افريقية في القرن الثاني لا الرابع.

(78) الحنيّـة: هي «باب الاسكندريّة، بينها وبين البحر شرف» (البكري، 3) وجعلها ابن حوقل، 64 - 66، بين الطاحونة غرباً ودات الحمام شرقاً.

وانهزام أبي الدلفاء القائد الذي كان في الحنيّة من قِبل أمير مصر، وخير المنصوري وأبي النمر الذي كان ببرقة.

ورحل حباسة وأصحابه ومَن معهم من العساكر فدخلوا الإسكندرية بجيوش أمير المؤمنين المهديّ (عم) لليلتين خلتا من صفر[79] وبلغت خيلهم ذات الساحل.

ورحل القائم (عم) من أجدابيّة يوم الجمعة النصف من (ط 127) شهر صفر، ودخل برقة لستّ خلون من شهر ربيع الأوّل واستخلف على برقة أبا داود الملوسي/ ودخل القائم الإسكندرية يوم الجمعة لأربع عشرة من شهر ربيع الآخر، وكان مسيره من رقادة إلى الإسكندريّة اثنتين وسبعين مرحلة. فاجتمع (عم) بحباسة بن يوسف وأصحابه وجميع عسكرهم بالإسكندرية. وأقام على القضاء بالإسكندرية أحمد بن تعبيرة[80] واستعمل عليها مطنب بن ربيع الملوسي. وأمر المؤذنين فأذنوا بحيّ على خير العمل يوم دخوله إليها.

177

قدوم الجيش العبّاسيّ للتصدّي

ثمّ قدّم القائم (عم) بين يديه حباسة بن يوسف وعفيقان بن كردوس وسليمان بن كافي وعامر بن يوسف، وخرج من الإسكندرية بعدهم للنصف من جمادى الأولى فنزل حسا، ونزلت مقدّمته جوف البلور، وانتهى القائم إلى البربريّة في جميع عساكره. وصحّ عنده كون تكين أمير مصر بذات الساحل يوم الأربعاء الثاني عشر من جمادى الأولى فنزل في ضفّة النيل، وبينه وبين عساكر مصر ستّة أميال[81].

---

(79) وعند الكندي، 269: يوم السبت لثمان خلون من صفر

(80) في مقتطفات الدشراوي، هامش 64: أحمد بن تعسرة. ولم نجده في مراجعنا، ولا مطنب الملوسي

(81) هذه الأماكن بين الاسكندرية والفسطاط ملتبسة في المخطوطين، فقراءتنا لها تقريبيّة. ويذكر ابن حوقل، 66، «الفتى» بعد الحنيّة وقبل ترنوط وذات الساحل. =

ولمّا كان يوم الخميس الثالث عشر من جمادى الأولى عبّأ القائم عساكرَهُ فجعل الميمنة ملوسة الفحص، والميسرة جيملة، وجرى بينه وبين أهل مصر قتال فأصيب رجاء بن أبي قتّة في (ر 89 أ) إبطه بسَهْمٍ مات منه، فصلّى عليه القائم (عم) ودفنه ليلاً رحمة الله عليه. وأقام الإمام، والقتال غير منقطع/ بينه وبين أهل مصر إلى يوم الأربعاء لليلة بقيت من الشهر. فاستأمن إليه جماعة من عسكر أهل مصر فأحسن إليهم. ورحل فنزل على ثلاثة أميال من عسكرهم. فارتاع لذلك أهل مصر. وأقام القائم (عم) هنالك. ثمّ انقطعت الميرة عن عساكر القائم فارتحل إلى الفيّوم لليلتين بقِيتا من جمادى الأخرى. فسبقه قومٌ من عسكره إلى الفيّوم فانتهبوها فأمر بقتلهم وسكن الناس فأمّنهم. ورحل القائم الخميس لثلاث عشرة (ط 128) [خلت] من جمادى الأخرى إلى الأرنس. ورحل السبت فنزل لصفة ورحل الأحد فنزل الهرمين، والتقى بأهل مصر * فقتل وأسر، وغرَّق خلقاً كثيراً في النيل. ثم رحل الثلاثاء لثماني عشرة ليلة خلت من جمادى الأخرى فنزل بأرض الخمسين[82] والتقى بأهل مصر فكان في القلب جيملة وفي الميسرة إجّانة وأهل إفريقيّة، وفي الميمنة ملوسة وبقية المغاربة، وفي الساقة لهيصة. فانهزم حباسة بعد مواقعة ومنازلة كانت بينه وبين أهل مصر. فأرسل إليه القائم (عم) يأمره بالتوقُّف، وأنّ الحرب لم تبلغ إلى الهزيمة، فلم يمكنه الرجوع، وهو مجدّ في هزيمته، وقد اتّبعه الناس وخرج من أهل مصر خلق عظيم

178

ارتحال القائم إلى الفيّوم...

دش 35

... وانهزام حباسة أمام جيش مصر...

= والبربريّة قراءة نسخة «ر» ونحن لا نجد قريباً منها في المراجع. والدشراوي في خلافته، 145، يسمّيها «النزيريّة».

وصاحب العيون والحدائق يذكر «مسوك» عوض «حسا»، و«جنان ساور» عوض ذات الساحل،، و«خليج بوهة» في صفّة النيل (ص 178).

ويقابل الحسا ومسوك عند الكنـديّ. «مشتول»

(82) هذه الأماكن بين الفيّوم والفسطاط غير مذكورة في كتب الرحّالين التي بين أيدينا.

لا يحصى. والقائم (عم) واقف في بقيّة العسكر ممّن صبر معه من/ الكتاميّين والعبيد والجند والبربر. ولم يزل يمسك القتال، ورجا أن يأتي الليل. وجاء العصر، وألحّ عليه الناس، وعظم الباس. فهزّ (عم) اللواءَ ثلاث مرّات وحمل، فحمل الناس معه ولم يتخلّف عنه أحد فوقعت الهزيمة في أهل مصر فقتل منهم وغرق خلق عظيم. فذكر أهل السير[83] أنّ الذين قُتلوا أو غرقوا في ذلك اليوم من أهل مصر خمسون ألفاً، وقيل إنه لم تبق دار بمصر إلاّ كانت فيها مناحة على غريق أو قتيل.

179

.. لكنّ القائم ينقذ الموقف

ورحل القائم بأمر الله (عم) لثلاث بقين من جمادى الأخرى فانتهى إلى الاسكندريّة * لأربع خلت من شهر رجب فأقام بها. وكتب إلى أمير المؤمنين المهديّ بالله، وضمّن كتابه هٰذا الشعر (خفيف):

دش 36

شعر للقائم في الفخر ومدح المهديّ أبيه

أنا سيف الإلٰه وابنُ رسول الـ	ـه قطب الهدى وللناس قِبلَةْ
وإذا ما الغمامُ أسجَمَ جدْوَا	هُ يكون الإمام للناس مِثلَه
يقصر القتل دون بغداد حتى	يُظهرَ اللّهُ بالعراقَيْن عدله
يا إمامَ الهدى ومن طيّب اللـ	ـه له فرعَه وطيّب أصلَه
5 تفخر الأرض حين تعلو ثَراها	ثمّ تغدو حُزُونُها وهي سهلة
يا ابنَ من أسْدَلَت عليه ستور الـ	ـوحي أثوابَها ولم تَكْس مثله
بك ظلّ الفخارُ يفخَر والحـ	ـقُّ، وألبَسْتَني من الفخر حلّة
ثمّ أنهَضْتَني لمصرَ وشامٍ	وخراسانَ والعِراقَيْن جُملة/
فأنا سيفك الذي يَفلِقُ الها	مَ فلا نبوةٌ له إن تسلّه
10 يفْرَقُ الغربُ والمشارقُ منه	وتكِلُّ الجموع من أن تَفُلّه
كم مطيعٍ قد كان في طَوْدِ عزٍّ	ثمّ لمّا عصاك بدّدْتُ شمله

180

(83) لا يذكر الداعي إدريس هذه المصادر ولا يسمّى مؤلّفي هذه السير

وكفورٍ مُناصِبٍ ذي عِناد　بك أرديتُه وأفنيتُ غِلَّهْ
وأنا سهمُك السريعُ إليهِمْ　مدركٌ للعدوّ من غير مُهلة
لا أرى هائبا لسهلٍ ووعرٍ　ولجيشٍ في حين ألقاه كُلَّه
15 فبحسن اليقين والحزم والعز　م، كثيرُ العدوّ عنديَ قِلّة
فانتظر يا خليفةَ الله ما قد　وعَدَ اللّهُ فيك من قبلُ رُسْلَه
من فتوح تلقاك بالعزّ والنصـ　ـرِ لدى النيلِ والفُراتِ ودِجلَة
وكتابي إليك من غايةِ البعـ　ـد ووقتِ الرحيل أيمَنَ رِحلَة

رجوع القائم إلى الاسكندريّة

ولمّا كان عيد الفطر والقائم بأمر الله (عم) مقيم بالاسكندريّة، خرج (صلع) فصلّى بالناس صلاةَ العيد في السنة المذكورة، وخطب خطبة العيد بالإسكندرية فقال:

خطبة القائم في عيد الفطر سنة 302 بالإسكندريّة...

181

«باسم الله الرحمان الرحيم، وبه نستعين. الله أكبر! الله أكبر لا إلاه إلا الله. والله أكبر! الله أكبر! لا حكم إلاّ لله ولا طاعة لمن عصى الله. ألاَ ﴿ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ (الأعراف، 44 - 45) ﴿ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بالقِسْطِ/ مِنَ النَّاسِ ﴾ (آل عمران، 21).

«الحمد لله الخلاّق العليم، المدبّر الحكيم، الذي لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ (ر 90 أ) عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ، وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ﴾ (المجادلة، 7)، أحاطت بهم قدرته وعلمه ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة، 225) ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾ (طه، 111). هو الأوّل قبل كلّ أوان وزمان ومكان وغاية ونهاية، وهو اللطيف الخبير الذي ﴿ خَلَقَ آلسَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ (لقمان، 10) ففلق مصابيحَها وأضاء شمسَها وأنار قمرَها وفجّر ينابيعَها ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا

أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ (النازعات، 30). فسبحان الذي لا يُدلّ عليه إلا بآياته، وما فطر من أرضه وسماواته، وبان لخليقته من تدبيره وتكامل رسله إلى الأمم كافّة من عباده إذ قال لهم : إنَّ اللَّهَ ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ (إبراهيم، 10) (ط 130).

«معاشر الناس! إنّي أصبتُ أمّتَكُم هٰذه كما أصاب رسول الله (ﷺ) اليهود والنصارى، معهم التوراة والإنجيل، ومعهم كنائس وبيع، فدعاهم (ﷺ) إلى كمال العلم بما في التوراة والإنجيل فما آمَنُوا به، فحكم عليهم (ﷺ) بالسيف والجزية والسبي والنهب والجلاء. وكذا أصبتُ أمّتكم هٰذه قد اتّخذت قرآنكم عضين/ونبذتموه وراء ظهوركم واشتريتم به ثمناً قليلاً[84]. فقلت لكم: 182

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (المائدة، 68). ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ، تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (آل عمران، 64). فرَمَيتموني بأنّي خارجيٌّ[85] مبتدع، ورأيتم جهادي وقتالي والله ناصريَ ومعيني، ورأيت أهل الأمصار وقد دعَوا عليّ في مساجدهم والله (عج) سائلهم عن كلامهم ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (المجادلة، 18). فظنّت (90 ب) الأمّة الكاذبة المرتدّة الناكصة على عقبها المغيّرة لأمر ربّها أنّها قد أصابت فيما ادّعته لخلفائها الذين يزعمون أنهم خلفاء ربّ العالمين، مثل صبيّ لم يبلغ ومثل غلام لم يعقل ومثل طفل يدبّر الإسلام بزعمهم،

.. يندّد فيها بفسوق الحكّام المتصبين..

(84) تصمين للآية 187 من سورة آل عمران.

(85) الخارجيّ هنا بمعنى المارق بوجه عامّ.

ومعهم آمرأة تحمل إليهم الخمور من كلّ وادٍ وكلّ قطر على ظهور الخيل وبطون السفن، كما قال الله (تع): ﴿ آتَخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ آللَّهِ ﴾ (التوبة، 81) فأنفقوا أموالَ اليتامى والمساكينِ ظلماً منهم وعدواناً لمُغنٍّ عوّادٍ، وطنبرانيّ حاذقٍ، وَمَعْزَفانيّ وطبّال مُجيد، ورأت ولاتها في الأمصار يصعد أحدُهم أعواد منبر رسول الله (ﷺ) فيعظ/ الأنام وهو غير واعظ لنفسه، وينزل عن ذلك الموضع فيسألكم في البلد عن مغنٍّ ومغنيّة وطنبراني وعوّاد وسارق وباخسٍ مكيال وناقص ميزان، فيجيىءُ ذلك إليه، لَعَنَ الله الظالمين وَأَعَدَّ لَهُمْ سعيراً[86]، فلا آمرٌ بمعروف ولا ناهٍ عن منكر.

183

«حتى إذا قام عبد الله الضعيف المسكين يدعوهم إلى الله ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ (الجنّ، 19) من كلّ (ط 131) حدب ينسلّون، ومن كلّ حَزنٍ يهطلون. فهلمُّوا عباد الله إلى ما دعا الله (تع) في كتابه! كلّا! فالله الذي لا إلاه إلاّ هو ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِآلحَقِّ عَلَى آلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ، وَلَكُمُ آلوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء، 18).

«يا أيّها الناس، إنّكم أصبحتم في عمياء مظلمة، وسوداء مدلهمّة، غامرة بفتنة تنقلكم إلى فتنة، قد أضلّتكم بأضاليلِها المبتدَعَة وشمَلتكم بأكنافها المهلكة. فأنتم عائمون في عواشيها مغرقون في مباديها، قد غُلّقت عليكم أبوابُها، وعميَت عليكم أسبابُها، فأعلام دينكم طامسة (ر 91 أ)، وآثار نبيّكم دارسة، والمنكرُ فيكم ظاهر، والمعروف فيكم داثر، فأين تذهبون؟ إلى الجحيم لا محالة تُسحَبون، أَفَمُثَابُونَ أَنْتُمْ أَمْ مُعَذَّبُونَ؟ أَشكَرتُم لله نعمتَه، لأنّها حُجّتُه عليكم، ما استحفظَكم من أمر دينِه والذبّ عن حرم نبيّه صلّى الله عليه وعلى آله، الذي استنقذكم من الهلكة؟ قال الله عزّ وجلّ:

. وبتقصير المسلمين في نصرة آل البيت

184

(86) اقتباس من سورة الأحزاب، الآية 64

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا/ الـرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (النساء، 59)، فجعل الطاعة فريضةً وصل بها طاعةَ ولاةِ أمره، فهم القائمونَ لله بحقّه والداعون إليه مَن رغب إلى طاعتهِ، واستَخَصَّهُم بالإمامة التي هي أعظمُ الدرجاتِ بعد النبوّة، وفرض على العباد حقوقَها، وأمرهم بأدائها، وجعلَهـا موصـولة بـطاعتهِ، وضاعف لهم الثَّواب بقدر ما والَوْا مَن أُمِروا بولايتِه. وليس للإمام أن ينقصَ الرعيّةَ حقَّهَا، ولا للرعيّة أن تنقصَ حقّ إمامها. فمن حقّ الرعيّة على إمامها: إقامةُ كتاب الله جلّ ثناؤه، وسنّةِ نبيّه، صلّى الله عليه وعلى آله، والأخذُ لمظلومها من ظالمِها، ولضعيفها من قويّها، ولوضيعها من شريفها، والتفقّدُ لمعاشها واختلاف حالاتها، نظرَ الشفيق على عياله بجهده، الكالىء لهم بعينه، فإنّه (عج) فيما حمد من أخلاق نبيّه ورسوله قال: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (التـوبة، 128). فإذا فعل ذلك كان على الرعيّة إجلاله وإكرامه ومُكـانفتُه، والاستعداد وٱلاستِقَامَةُ، ما استقام على كتاب الله وسنّة نبيّه (ﷺ).

واجب الإمام نحو رعيّته...

... والرعيّة نحو الإمام

«اللهمّ فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بَينَ عِبَادك (ط 132) فيما كانوا فيه يختلفون. اللهم، وصلّ على المهديّ بالله أبي محمد أمير المومنين/ كما صلّيت وباركت على الخلفاء الراشدين المهديّين الذين (ر 91ب) قاموا بالحق وبه يعدلون، اللهمّ كما جعلتهم للدين غياثاً، وللعباد ملجأً وملاذاً، ، فأقِرَّ بـه أعينَ المؤمنين، وٱنصرْهُ على أعدائك العصاة الفاسقين الكفرةِ المارقين الظالمين، إلاهَ الخلق ربّ العالمين.

185

«اللهمّ ٱنصر جيوشنا وسرايانا في مشارق الأرض ومغاربها، وبـرّها وبحـرها، وسهلهـا وجبلها. اللهمّ، ٱلعن أعـداءك وأهـلَ معاصيك من الأوّلين والآخرين، وقومَ نوح في العالَمين، إنّهم كانوا

القائم يلعن أعداء أهل البيت على المنابر

قوماً فاسقين، وعاداً وثموداً وأصحاب الرسّ[87]، وجبابرة بني أميّة وبني مروان، ومعاوية بن أبي سفيان الذي اتخذ من عبادك نصيباً مفروضاً بالدنانير والدراهم * وقاتل بهم المهاجرين والأنصار، وآلعن عمرو بن العاص وعتبة بن أبي سفيان[88]، والوليد بن عتبة[89]، والوليد بن أبي مُعَيْط[90]، والوزغ ابن الوزغ - يعني مروان بن الحكم - والمغيرة بن شعبة، وزياد بن سميّة[91]، وعبيد الله بن زياد، والسلميّ[92]، وذا الكلاع[93]، وحوشبا[94]، والأشعث بن قيس[95]، وعبد الملك بن مروان، والحجّاج بن يوسف، وعبد الرحمان بن ملجم، والناكثين والقاسطين، والمارقين والمخالفين والمبتدعين، والمرجئين والقاعدين عن الجهاد مع أمير المؤمنين، اللهمّ/ آنصر الحقّ وطلّابه، وأذلّ الباطل وأحزابه، إنك أنت العزيز الحكيم»[95م].

دش 43

186

(87) أصحاب الرسّ - والرسّ هو البئر -: هم القوم الكافرون الذين كذّبوا شعيبا

(88) عتبة بن أبي سفيان: ممّن شهدوا يوم الجمل مع عائشة وصفّين مع معاوية، وهو أخوه.

(89) الوليد بن عتبة بن أبي سفيان: ولي المدينة لمعاوية عمّه ويزيد وكان يضايق الحسين بن عليّ.

وقد يكون الوليد بن عتبة بن ربيعة الذي قتله عليّ يومَ بدر.

(90) الوليد [بن عقبة] بن أبي معيط: أخو عثمان بن عفّان لأمّه. كان سكّيراً مستهتراً بالدين. وكان ممّن يطالب بدم عثمان ويشتم عليّاً. وشارك في وقعة صفّين وكان يحرّض معاوية بشعره فيقول:

وإنّ عليّاً ناظرٌ ما تجيبه فأهدِ له حرباً تُشيب النواصِيَا

(91) هو زياد بن أبيه أمير العراق، وقاتل حجر بن عديّ

(92) السلميّ هو: أبو الأعور عمرو بن سفيان، من العبشميّة الذين شاركوا في صفّين ضدّ عليّ.

(93) ذو الكلاع. أبو شراحيل الحميريّ. كان مع معاوية في وقعة صفّين، وفيها قتل

(94) حوشب بن طخمة الألهاني ذو ظُلَيم: كان كذلك في صفّ معاوية يوم صفّين.

(95) الأشعث بن قيس الكنديّ. هو من أصحاب عليّ. ولكنّ الشيعة يؤاخذونه بتحريضه عليّا على قبول التحكيم (انظر دائرة المعارف الإسلاميّة).

(95م) وكان عليّ يلعن من هؤلاء: معاوية وعمرو بن العاص وأبا الأعور السلميّ والوليد بن عقبة (وقعة صفين لنصر بن مزاحم، 636).

خريطة مصر (الوجه البحري) في القرن الرابع الهجري
(نقلاً عن كتاب الولاة والقضاة)
تخطيط روفن ڤست .

ووصل أهل مصر إلى القائم (عم) يسألونه أمانا يكتبهُ لهم على نفوسهم، حين هلك منهم من هلك ممَّن قتل أو غرق. فلمّا كتب لهم بذلك، استثنَوا عليه وقالوا: أنت من قِبل أبيك، وإنّا نريد أن يكتب لنا الأمان كما كتبتَ، ونحن نسلّم مصر إليه وإليك. فكتب القائم بأمر الله إلى المهدي بالله يُعلمُه بما سأل أهل مصر من الأمان. فورد عليه الجواب من أمير المؤمنين (عم) (ر 92أ) وقال له: إنما يريد أهل مصر أن يخادعوك حتى تأتيهم الموادّ من بغداد (ط 133).

قدوم مؤنس القائد بالمدد من بغداد

ثمّ إنّه وصل إلى مصر مؤنس المظفّريّ[96] مِن قِبل المقتدر العبّاسيّ في يوم الخميس لثلاث بقين من المحرّم سنة ثلاث وثلاثمائة، فدخل مصر في عدّة وعدد، والتقاه أمير مصر إلى خارج في مَن معه من العساكر والقوّاد، وعبر إلى الجيزة ونزل بأرض الخمسين فضرب فيها مضاربه، وعبّأ كتائبه. وكان محمد بن طغج مقيماً بالمخايض[97] أميراً بها من قِبل صاحب مصر. فلمّا كان يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت من المحرّم سار إليه فتح بن ثعلبة من قبل القائم بأمر الله (عم) في جمع معه، فصبح محمد بن طغج، فثار ابن طغج، وكان حازماً مجرّباً، فرَكِب في غلمانه/ وخواصّه، وقد وقعت الصيحة في عسكره. فحين رأى محمد بن طغج صدق

187

---

(96) مؤنس الخادم: أحد القوّاد العبّاسيين الكبار، خدّم المعتضد والمقتدر وقتله القاهر سنة 321. وقدومه إلى الفسطاط كان، حسب الكندي، 273، في 15 رمضان 302 وخلافة المقتدر دامت من 295 إلى 320.

(97) إمارة محمّد بن طغج بالمخايض: كان هذا قبل أن تصير إليه ولاية مصر كلّها سنة 323، فتلقب بلقب أجداده الفرغانيين: الإخشيد

وفي العيون والحدائق، 205، أنّ تكين أمير مصر أنفذه إلى جزيرة منوف ليمنع المغاربة من العبور، وهم بقيادة فتح بن ثعلبة «وربما تحاربوا على تلك المخايض». فالمخايض ـ والأصح: مخاوض ـ ليس موضعاً بعينه، وإنما هي أماكن العبور من النهر.

انهزام المغاربة أمام ابن طغج

القتال استقبل القوم فأحاطوا به فرمى عنه غلمانه فأصابوا آثنين من فرسان المغاربة فقُتلا، وتوقّفت المغاربة عن القتال، ورجع من كان انكشف من الناس وانهزمت المغاربة وقتل جماعة منهم، ورجع فتح إلى عسكر القائم.

فلمّا انتهى خبر ذلك إلى مؤنس أظهر الفرح والبشرى بذلك، وكتب إلى المقتدر العبّاسيّ، وكثّروا غاية التكثير وأظهروا به الجذل والسرور.

وتشغّب المصريّون على مؤنس فقتل منهم نفراً.

القائم يستولي على الأشمونين

ولعشرٍ خلون من ربيع الأوّل من السنة المقدّم ذكرها، رحل القائم عن الإسكندريّة لمّا قلّ فيها الطعام، واستخلف في الإسكندرية فتح بن ثعلبة (ر 92ب) وأمره أن يستعدّ منجنيقات وعرّادات وينصبها ليمنع المراكب من العبور إلى الاسكندرية. وانتهى القائم (عم) إلى الفيّوم، ووافق ذلك موت إبراهيم بن كيغلغ[98]، وكان من قادات أهل مصر وكبرائهم وأهل النكاية فيهم. فلمّا انتهى عِلم موته إلى القائم وثب بعساكره إلى الأشمونين[99] حيث ابن كيغلغ فملكها.

---

(98) إبراهيم بن كيغلغ: أخرجه مؤنس عن مصر عند تولّيه عليها سنة 302، كما صرف عنها تكين (العيون والحدائق، 178). ويبدو أنه رجع إليها إبّان حملة القائم الثانية، فكلّفه مؤنس بحماية البَهْنَسى - بين بني سويف والمنية، جنوبي الفيّوم - «فأجلى ما كان بها من البربر ومات في مستهل ذي القعدة 308» (نفس المرجع، 207) ويقول الكندي، 307. «فصرفه مؤنس إلى جزيرة الأشمونين، وكان بها، (أي قبل رجوعه إلى الشام) ومات إبراهيم في غرّة ذي القعدة 308». فكأنّ الداعي إدريس هنا يخلط بين الحملتين

(99) الأشمونين: على الضفّة العربيّة من النيل وتبعد عن الفسطاط (مصر) بنحو ثلاثمائة ميل

وحين بلغ مؤنس خروجُ القائم من الإسكندرية أرسل إليها ثمال[100] الخادم فاستولى عليها، / وقتل كثيراً من أهلها وأخربها. 188

وكتب مؤنس إلى القائم بأمر الله يتهدّده ويتوعدّه ويقول إنّه إن أطاع بني العبّاس، كان له الأمان وإقطاع الناحية التي هو فيها (ط 134) ويحلف له مغلّظات الأيمان. فكان جواب القائم:

.. ومؤنس على الإسكندريّة

«بآسم الله الرحمان الرحيم. من أبي القاسم محمد وليّ عهد المسلمين ابن الإمام أبي محمد عبد الله المهديّ بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه، إلى مؤنس.

«سلام على مَن آتّبع الهدى. فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إلاه إلا هو وأسأله أن يصلّي على محمد رسوله (ﷺ).

مؤنس يدعو القائم إلى طاعة بني العبّاس...

«أما بعد، فإنّه وصلني كتابك، وترجمته من مؤنس مَولى أمير المؤمنين، وتذكر ما آختصّ الله (عج) به ولد العبّاس رحمة الله عليه من خلافته في أرضه وأمانة عباده، وتمكينه لهم، وأنّه يلزمني آلائتمام بهم، والدخول في طاعتهم، وتسكين الدماء، ولمّ الشعث، وترك إيقاع الفرقة وإثارة الفتنة، وما بذلتَه ورغّبتني فيه من الأموال والإقطاعات من الناحية التي أنا فيها إن دخلتُ في جملتهم، ووصفتَه من وفور جيشِك، وكثرةِ جموعك، وتُوعدني باللقاء والمقارعة إن أبيتُ ذلك، وفهمتُه.

«فأمّا الخلافة، فما جعل الله (عج) للعبّاس بن عبد المطلب/ فيها حظّاً، وما هو منها في شيءٍ لأنه (ر 93 أ) ليس من المهاجرين، ولا من العَشرة الذين توفّي رسول الله (ﷺ) وهو عنهم راضٍ، ولا أُدخل في الشورى، ولا التمسها لنفسه في وقتٍ من الأوقات. 189

---

(100) ثمال: ثمل، عند الكندي، 275 وفي العيون والحدائق، 206

... فيجيبه بإظهار حقّ ذرّيّة عليّ

«وإنّما خصّ الله بها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وامتُحن بها من بعد رسول الله، صلّى الله عليهما، رفعا لدرجته في جنّات النعيم، فصبر (صلع) على مضض الأمور، ابتغاءً لما يبقى في الدار التي لا تبيد ولا تفنى. وصارت لولده من بعده فكانوا أحقّ بها وأهلَها فغصبهم بنو أميّة الكفرة الفجرة، الشجرة الخبيثة الملعونة في القرآن،[101] ثمّ بنو العبّاس، رضوان الله على العبّاس، من بعدِهم، فأطفأوا نور الله وبدّلوا الحقّ بالباطل، وكانوا مثل الملوك الذين عتَوا في الأرض من قديم الدهر، وجعلوا الملك بينهم ميراثاً، فأملى (ط 135) لهم الله (عج) المدّة ليستدرِجهم، ثمّ إنّه ينتقم منهم ويأخذهم، وهو فاعل ذلك ومهلك آخرهم كما أهلك أوّلَهم، ورادُّ الحقّ إلى أهله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَائِكَ فِي الْأَذَلِّينَ، كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (المجادلة، 20 - 21).

«وأمّا ما بذلتَه من المال والأمان والإقطاع ﴿ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ (النمل: 36).

القائم يترك مصر

ولمّا وصل جواب القائم بأمر الله (عم) إلى مؤنس انقطع فلم يكتب بعدذلك كتاباً إلى القائم. وأقام/ القائم في الفيّوم إلى أن ورد عليه كتاب أمير المؤمنين المهديّ بالله يستنهضه إلى رقّادة.

190

فرحل القائم بأمر الله (عم) إلى رقّادة من الفيّوم، وواصل السير حتى وصل إلى أمير المؤمنين (صلع). وجلس له الإمام (عم) في الإيوان واعتنقه وسلّم عليه. وقد روى القاضي النعمان بن

(101) إشارة إلى «الشجرة الملعونة في القرآن» (الإسراء، 60) التي يؤوّلها جمهور المفسّرين بشجرة الزقوم، ويؤوّلها الشيعة بأعداء الرسول (ﷺ) من بني أميّة. قال البيضاوي في تفسير الآية: «أوّلت بالشيطان، وأبي جهل، والحكم من أبي العاصي» وانظر التأويل الشيعي في موسوعة الغدير 248/8

محمّد (رضي الله عنه) عن الإمام المعزّ (ر 93 ب) لدين الله (صلع) أنّه قال[102]:

كان المهديّ يعلم أن مصر لا تفتح على يديه

«ولقد أنهض المهديُّ بالله (ص) قُرَّةَ عينِه ومُهجة نفسه القائم (ص) إلى مصرَ كَرَّتَيْن[103] وهو عالم بأنّها لا تُفتَحُ على يديه، ولكنّه أراد تأكيد حجّة الله عليهم بدَعْوته، وألّا يدَعَ شيئاً من المجهود إلّا بلغ منه ما في نفسه، وإن كان ذلك قد أدخل الشكّ على بعض المستضعَفين في أمره، ولذلك ما كرهناه أن نُـدْخِل عليهم مثلَه بالحركة في غير أوان الوقت[104].

«ولقد أخبرني المنصور بالله (ص) أنّه تَلقّى القائمَ (عم) عندما انصرف من الكرّة الثانية عن مصر، وقد كان المهديّ بالله ارتحل ـ بعد خروجه ـ إلى المهديّة، قال: فلمّا انتهى القائم (صلع) إلى باب المهديّة نظر إليه ثمّ قال: ﴿ إلاَّ حَاجَةً في نَفْسِ يَعْقُوبَ قضاها ﴾ (يوسف، 68) ودخل، ودخلتُ معه إلى المهديّ بالله (صلع) في وقته ذلك، فسلّم عليه وضمّه إليه ثمّ قال: ﴿إلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ / يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾. فكأنّما نطقا بذلك معاً (صلع) بلسان واحد وعن رُؤْيَةٍ واحدة».

191

هذا قول المعزّ لدين الله (صلع)، وأخّر الله الأجل إلى أوان المعزّ لدين الله (عم) ففتح الله مصر على يديه. وسوف نذكر ذلك إذا انتهينا إليه.

وحديث المهديّ للقائم عليهما السلام كان بعد رجوعه عن مصر (ط 136) بعد أن عمرت المهديّة، لأنّه قيل: إنّه خرج (عم) إلى مصر المرّة الأخرى في سنة تسع وثلاثمائة[105]. وملك في المرّة الأولى

---

(102) المجالس والمسايرات، 476

103) كانت المرّة الأولى سنة 301 (الاتّعاظ، 98 و 103، وابن عذاري، 181/1).

(104) أن يجهّر هو أيضاً حملةً في غير أوانها المقدّر فيجعل الأنصار في نفس الارتياك والتساؤل الذي تبع رجوع القائم عن مصر

(105) ستّ وثلاثمـائة على الأصحّ انظر المقريزيّ، اتّعاظ، 103، وهو ينقل عن ابن =

الاسكندريّة والفيّوم وجبى خراجها وخراج بعض أعمال الصعيد.

[العاصمة الجديدة: المهديّة]

وأقام المهديّ بالله (ص) في رقّادة أيّاماً. ثمّ أمر بعمارة المدينة البيضاء المسمّاة المهديّة. نسبة إليه (صلع) فبُنيت بالحجارة وبوّبت بالحديد المحض. وانتقل المهديّ بالله (صلع) كما ذكرنا[105م] في شهر شوّال من سنة ثماني وثلاثمائة فسكَنَها. ورأى النـاس منه معجزاتٍ ممّا هيّأ الله (عج) (ر 94 أ) له في بنائها، ويسّر له من الصعب فيها، وزاد إليها في البحر وجعل لها إلى البحر مخرجاً وجعل عليه قفـلاً[106]. وكانت من أعجب المـدن وأمنعهـا، وأحسنِهـا بنـاءً، وأعجبها هيئةً. وجعل فيها أهراءً كثيرةً للطعـام[107] وأجرى إليهـا

تأسيس المهديّة

= الأثير، ولا يخفّف هزائم الجيش والأسطول الفاطميين. وانظر الكندي، 275، والعيون والحدائق، 203

(105م) لم يسبق ذكرٌ لانتقال المهدي إلى عاصمته الجديدة، إلاّ في المنقول عن النعمان: وكان المهدي ارتحل إلى المهديّة، بعد خروج القائم (إلى مصر أو منها).

(106) في خصوص ميناء المهديّة، يقول البكريّ، 30: «ومرساها مقور في حجر صلد يسع ثلاثين مركباً وعلى طرفي المرسى برجان بينهما سلسلة من حديد فإذا أريد إدخال سفينة فيه أرسل حراس البرجين أحد طرفي السلسة حتى تدخل السفينة ثمّ مدّوها كما كانت». ويلخّص التجاني في الرحلة ص 322، كلام الرقيق القيروانيّ والبكري، ويقول في الزيادات إلى الأرض: «ردم المهدي من البحر مقدارَ ما بين الجوف إلى القبلة (أي عُرض شِبه الجزيرة التي بنيت عليها المهديّة) وهو مقدار علوة سهم، وأدخله في المهـديّة فـاتّسعت. والجامـع الأعظم.. من جملة ما ردم من البحر» وقد وصف الكسدر لازين Alexan-dre Lézine آثار البرجَين اللذين يحدّان ممرّ السفن، في دراسته عن المهديّة ص 44.

(107) الأهراء، واحدهُ الهري: مخزن الحبوب والطعام. وفي اللسان عن الأزهريّ: «ولا أدري أعربيّ هو أم دخيل؟» والكلمة فيما يبدو من أصل لاطيني Horreum بهذا المعنى وكانت قرية هرقلة شمالي سوسة بالساحل التونسي، تسمى Hor-rea Coelia وهو اسم مستمدّ من وظيفتها كمخزن للقموح التي تصدّر إلى روما =

192 أنهاراً، واحتفر فيها للمطر حفائرَ عظيمةً. وكان (عم)/ إذا نظر إلى حصنها وأبوابها، ورأى إعجابَ الناس بها وبآمتناعها قال: «إنّما هٰذا كلّه عُدّةٌ لساعةٍ من نهار». فكانت تلك الساعة هي التي انتهى فيها مخلد بن كيداد الدّجّال، ولم يقف إلاّ ساعةً واحدةً، ولم يزل بعد ذلك مهزوماً مغلوباً، حتى رُفع على سور المهديّة مصلوباً. وسنذكر قصّتَهُ إذا انتهينا إليها، وبالله نستعين.

بناء مصلّى المهديّة

وأمر المهديّ (ص) ببناء مصلّى[108] خارج المهديّة جَعَلَهُ علَماً وقال: «إلى هنا ينتهي مخلد الدجّال» فكان الأمر في ذلك كما قال (ط 137)، وهٰذا الحديث معروف مشهور، مأثور مذكور، وقد ذكره الشريف الزيديّ إدريس [بن عليّ] بن عبد الله[109] في تاريخه الذي سمّاه «كنز الأخيار»، وأجمع عليه أهل السير والأخبار، وهٰذه من معجزات الأئمّة (صلع) التي آتاهم الله علمها، وورِثوا عن رسول الله (ﷺ)

= أمّا الأنهار الحارية، فلعلّها القناة التي دكرها البكري، 29 وهي التي حلب فيها المهديّ الماء «من قرية منانش في أقداس (ج قَدَس: الإناء والوعاء) ويصبّ في صهريج داحل المهديّة عند جامعها، ويرفع من الصهريج إلى القصر (قصر عبيد الله) بالدواليب» وانظر صورة هدا الصهريج في كتاب لازين المذكور (الصورة رقم 57).

أمّا المواجل، فقد بلغ عددها حسب البكري، 360 ماجلاً «عدا ما يجري إليها من القناة».

(108) المصلّى: ذكره التجاني في رحلته، 321 فقال: «أوّل ما ابتنى المهديّ بالمهديّة سورها الغربيّ الذي فيه أبوابها (وخاصة الباب المسمّى اليوم «السقيفة الكحلاء») وأمر ناشباً فرمى سهماً فانتهى السهم إلى المصلّى فقال المهدي: إلى ذلك الموضع ينتهي صاحب الحمار.

ولا نجد عند ابن حوقل، 73، وصفاً مطوّلاً للمهديّة لأنّه زارها سنة 336 عندما «انتقل عنها رجالها بانتقال المنصور (عم) عنها وسكناه المنصوريّة من ظهر القيروان».

(109) في المخطوط: إدريس بن عبد الله وأضفنا اسم أبيه عليّ، اعتماداً على ما سيأتي ص 232. والمؤلّف بَعدُ والكتاب مجهولان لدى إيفانوف وبوناوالا.

معرفتَها، فأُنبِئُوا بها قبل كونها، ممّا يشهد بفضلهم وعلوّ قدرهم وسموّمحلّهم. وكثير ممّا يشبه ذلك قد رواه المخالفون عن الأئمّة، وهم، مع روايتهم لها، لفضلهم من الجاحدين، كما قال الله (تع): ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (النمل، 14).

193

واستقرّ/ الأمر للمهدي (ص) وتوطّد الملك وعلت الكلمة، واتّسقت الأمور معتدلة منظمة، فنشر علم آبائه الطاهرين، وأقامَ (ر 94 ب) الدعاةَ والمعلّمين، وفتح أبواب منحه للطالبين، وأباحها للراغبين، ونشر العدلَ وأظهرَه، وأبعد الباطل وأدْحَضَه، وأقام السنّة وأحياها، وأمات البدعة ومحاها.

أفلح بن هارون الملوسي قاضي رقّادة...

وأقام أمير المؤمنين المهديّ بالله (عم)، للنظر في القضاء بالمهديّة ورقّادة وغيرها من الأعمال أفلح بن هارون الملوسي، وهو أحد دعاة المهديّ بالله، وقد ذكره أبو عبد الله جعفر بن محمد بن أحمد بن الأسود بن الهيثم رحمة الله عليه، في بعض ما ألّفه فقال: «وما نسيتُ فلا أنسى داعيَ ملوسة وشيخ الجماعة وفقيهها أفلح بن هارون الملوسيّ[110]. فقد كان جمع مع الدعوة علوم الفقه، وأدرك أبا معشر والحلواني، وكان يحدّث عنهما عن الحلبي[111] وانتسخ كثيراً من كتب الفقه والآثار والفضائل وخطب

(110) أفلح بن هارون الملوسّي، لا العبّاسيّ كما في المطبوع والمخطوط. كان قاضياً على طرابلس قبل انتقاض أهلها على المهديّ (انظر ص 174). يقول إدريس هنا إنّه تقلّد قضاء المهدية والقيروان وغيرها من الأعمال. فكأن المهدي سمّاه قاضي القضاة.

واقتصر أبو العرب، 241 وابن عذاري، 159، على ذكر رقّادة، فيما ولي عليه.

(111) الحلوانيّ هو الداعي الذي أرسله جعفر الصادق وقد مرّ ذكره أمّا أبو معشر والحلبي فلا نعرفُهما.

أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب صَلوات الله عليه وعلى الأئمّة من ولده. وسمعتُ عنده دعوةَ النساء وما يخاطبُهنّ به من الدلائل التي تقبلها عقولهُنّ ويحفظنها. وكان يقول: «فَلِلَّهِ الحجّة البالغة» (وقال): «هي الحجة التي يخاطب بها العالم من علمه، ويخاطب بها/ الجاهل من حيث يعقل». ولقد كان يخاطب المرأة ويقيم لها الدليل من حليها وخاتمها وقُرطها وتاجها وخناقها وخلخالها وسوارها وثوبها وعِجارها[112]، ومن المغزل والمنسج والشعر واللباس وغيره ممّا هو من حلية النساء. وكان يخاطب الصانع من صناعته ويخاطب الخيّاطَ مِن إبرته وخيطه وحلقته ومقصّه، ويخاطب الراعي من عصاه وكسائه، وفِرْقِهِ وكُرْزه[113] (قال): «فما أعرف اليومَ مَن يَفِي بهٰذا ولا من يقوم به قيامي (ط 138) ولا من يحفظ حفظي، كلّ ذلك بتوفيق ربّي وخالقي، المنعم عليّ ورازقي». فرحمة الله عليه، فلقد كان في كلامه إذا تكلّم خاشعاً لله مريداً ما عند الله (ر 95 أ)، رقيق القلب، غزير الدمعة، رطب اللسان بِذكر الله خشوعاً، متذلّلاً عطوفاً. وإنّي لأحفظ من أمثاله وقضاياه كثيراً. وكان يقول: «آحذر أن تثق بأحدٍ حتى يتمكّن! فإذا تمكّن ظهر منه السرّ في العلن». ولقد بلغني أنّ أمير المؤمنين المهديّ بالله (عم) بلغه عن أفلح بن هارون المذكور حسن صوتٍ وجودة قراءة وصدقُ نيّة، وكان قد كلّفه النظر في القضاء بالمهديّة ورقادة وفي غيرهما من جميع عمله، وكان تقيّاً نقيّاً، ورعاً عفيفاً زكيّاً، فوجّه في طلبه اشتياقاً إليه، وأمر البوّابين بدخوله/ راكباً إليه، وكان أمير المؤمنين (عم) متخلّفاً في بعض عَمَلِه فدخل حتى نزل على باب الحرمة في القصر الكبير، فأدخل عليه ورحّب به وقرّبه واستدعاه للكلام فأجّله، وعظم ذلك

.. ينظّم مجالس الدعوة للنساء

194

195

تعظيم المهديّ لأفلح بن هارون

---

(112) الخِناق (والمخنقة): القلادة على العنق والعِجارُ (والمِعْجَرُ). غطاءٌ تلفّه المرأة على رأسها، أي تعتجر به.

(113) الفِرق بالكسر: القطيع من الغنم، والكُرزُ بالضمّ حرج الراعي.

عليه. فأذن لك في الكلام فتكلّم. ثم قال له أمير المؤمنين: اسكت! فسكت. وتكلّم أمير المؤمنين (عم) وأفلح يشهق بالبكاء حتّى علاه النحيب. وسمع من المهديّ بالله (عم) ما جلّ موقعه وكبر في مسامعه فمعك خدّيه بين يديه ورغب إليه أن يدعوَ له بالموت.

فقال له: ولِمَ؟

قال: يا مولايَ، أحللتنِي منك محلاًّ جليلاً، وهٰذا مَقام كريم، وكلام مكنون لا يمسّه إلاّ المطهرّون، وأخاف الزلل على نفسي، فمَوتي بهٰذه الطهارة أزكى موضعاً وأجلّ مقاماً. فسألتك يا مولايَ بالعظمة إلا دعوتَ لي.

فقال المهدي بالله: يا أفلح لا تفجعني بنفسك!

فقال: يا مولاي، عند الله الملتقى.

فبكى أمير المؤمنين (عم) وقال: خار الله لك!

وفاة أفلح بن هارون

وخرج أفلح ذلك اليوم، وقعد وهنّأناه بما بلَغَنا من هٰذا، وذكر لنا بعض ذلك. وتوفّي في ذلك الشهر رحمة الله عليه.

ونقول: وما أشبه هٰذه القصّةَ بقصّة همّام[114] حين وصف له أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (صلع) المتّقين، فصعق همّام فمات رحمة/ الله عليه، وقصّته معروفة، وكذا يفعل قول أولياء الله سلام الله عليهم، ومواعظهم وحِكمُهم الشريفة في القلوب الزكيّة والحلوم الذكيّة والنفوس الطاهرة (ر 95 ب).

196

دش 49

* ولمّا كان في سنة إحدى عشرة وثلاثمائة وصل إلى أمير المؤمنين المهديّ بالله (عم) طغيان نفوسة الجبل بناحية طرابلس.

---

(114) الخطبة والحادثة في شرح نهج البلاغة، 460/3. وهمّام هو همّام بن شريح.

انتقاض جبل نفوسة (سنة 311)

فأنفذ إليهم سليمان بن كافي الإجّاني[115] في جيش كثيف فحاربهم وغنم كثيراً من أموالهم. وكتب إلى المهديّ (عم) بخبر الفتح فوافى كتابه لاثنتي عشرة ليلة بقِيت من شهر شعبان.

حملة جعفر بن عبيد الحاجب على قلوريّة (312 - 313)

وأخرج أمير المؤمنين لغزو الروم جعفر بن محمد بن عبيد في جيش عظيم، فسار إلى صقلّيّة وخرج منها في أسطول كبير فنفذ في أوّل يوم من سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة. فغـزا النصرانيّـة وجاوز العدوة الأخرى إلى بلد الروم فافتتح مدناً كثيرة، أكثرُها بالسيف عنوة، وسبى سبياً كثيراً قيل إنّه بلغ عددهم أحدَ عشر ألفاً، ووافى بهم إلى المهدي بالله (عم). وكان وصوله بهم إلى المهديّة لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأخرى سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة[116].

يصل بن حبّوس يردّ محمّد بن خزر عن تاهرت

197

وفي سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة زحف/ ابن خزر إلى تاهرت بعُدّة عظيمة وقوّة، واجتمعت إليه جموع كثيـرة من قبائـل زناتـة وغيرهم من البربر أهل الأطراف، وطمعوا فيها لقلّة من كان مع يصل بن حبّوس[117] عامل أمير المؤمنين بتاهرت، فخرج العامل في ثلاثمائة فارس من الأولياء فهزم ابن خزَر أقبح هزيمة وقتل وجوه أصحابه وغنم جميع ما معهم، وولّى ابن خزر هارباً على وجهه.

---

(115) سليمان بن كاف الأحاني في المحطوطين وقد مرّ (ص 175) بنسب الحيمليّ. ويقول ابن عداري 187/1، أن قائد الحملة هو علي بن سليمان الداعي.

ومن هنا استأنف الدشراوي مقتطافته من الكتاب.

(116) أمير الأسطول في البيان المغرب، 190 هو «أبو أحمد حعفر بن عبيد الحاحب»، افتتح مدينة واري التي ترحمها أماري (367, B. A. S) بـ Oria، لكن في سنة 313 لأنه «شتّى بصقلّية ولم يلق العدوّ» ودامت الحملة خمسة عشر شهراً

(117) في المخطوط. فضل. ويصل هو أحو مصالة بن حبوس المكناسي الذي قتله محمّد بن حرر سنة 312. خلف أخاه على ولاية تاهرت حتى سنة 319 ثمّ خلفه ابنه حميد بن يصل (ابن عذاري، 204 وتاريخ إسبانيا الإسلاميّة، 94/2).

وأتى كتاب عامل تاهرت بخبر ذلك في شهر شعبان من سنة ثلاث عشرة.

[تمرّد البربر بالمغرب الأوسط]

وأخرج أمير المؤمنين (عم) يحيى بن سليمان بن كافي، والمعلّى بن محمد، ومولى ابن قريش، ومحمد بن ثعلبة[118]، ووجوهَ كتامة في جيوش عظيمة إلى الغرب لإصلاح الأطراف وحرب زناتة وغيرهم من البغاة في سنة أربع عشرة وثلاثمائة. واتّصلت الأخبار بأمير المؤمنين بقوّة الفساد (ر 96 أ) في الغرب وظهور النفاق والطغيان، واجتماع قبائل البربر جميعاً مع زناتة حول تاهرت وغيرها من الأعمال. فأمر أمير * المؤمنين (ط 140) بالاستعداد وحشد كتامة وجنود إفريقية والعبيد وغيرهم. وخرج القائم بأمر الله في جيوش عظيمة واحتفال، ووافاه الناس من كلّ وجهة. وكان خروج القائم (عم)/ من حضرة الإمامة من المهديّة يوم الخميس لسبع ليالٍ مضين من صفر سنة خمس عشرة وثلاثمائة بعد صلاة الأولى، فنزل ذلك اليوم بسبخة بني معروف فبات بها، وأقام فيها الجمعة والسبت والأحد والاثنين إلى الظهر. ووفد إليه أهل القيروان يوم الاثنين فجلس لَهُمْ، وأمر بفتح أبواب الفازة التي جلس فيها، وأمر أن لا يمنع أحدٌ من السلام عليه. فدخل الناس جميعاً إليه فدعَوا له بالنصر والظفر، وسألوا الله سبحانه أن يمدّه [بـ] ـمساعدة القدر.

دش 51

198

حملة القائم ضدّ زناتة وأحلافهم (سنة 315)

وسار (صلع) يوم الثلاثاء حتى انتهى إلى الأربس، فوافاه بها خليل بن إسحاق التميميّ[119] بعساكر إفريقيّة وكان قد جمعهم إلى

---

(118) يحيى بن سليمان. إن كان ابن سليمان بن كافي الذي مرّ منذ قليل، فهو ملوسي كما ورد في ص 92 وقد ولّاه أبو عبد الله على طبنة وكامل الزاب. ومحمّد بن ثعلبة، لا نظنّه الأمير الذي ذكره ابن حيّان، المقتبس، 348 موالياً للأمويين. والمعلّى بن محمّد ومولى ابن قريش لم يسبق لهما ذكر.

(119) خليل بن إسحاق: سيكون لهذا القائد ـ الشاعر خدمة محيدة مع الفاطميّين، ويقتله أبو يزيد صبراً بالقيروان

القائم يعمر المهديّة برهائن من القبائل التائبة

الأربس فبلغت عِدّتُهم أربعين ألفاً. وأتاه كتاب عامل تاهرت يذكر انهزام ابن خزر حين سمع بخروجه وأنّه ولّى على وجهه. فشكر الله كثيراً، وسأله أن يكون له نصيراً. وارتحل إلى باغاية سادسَ عشر من شهر ربيع الأوّل فأقام بها بقيّةَ ذلك الشهر وشهرَ ربيع الآخر.

دش 52

ووافته هناك مزاتة وقبائل هوارة وصدينة وعجيسة وأهل تيجس * وقصر الإفريقيّ[120] وزناتة وغيرهم بحشودهم وأمرهم بمصير وجوه رجالهم

199

بعيالهم إلى المهدي بالله (عم)/ وأن يسكنوا المهديّة، وأنفذ الكتب إلى القبائل بالترغيب والترهيب، والتحذير لمن عصاه من بعيد وقريب.

ثمّ رحل من باغاية يوم الخميس لليلتين خلتا من جمادى الأولى فنزل في أشراف مسيلة بني عيسى وانتهى إلى سطيف لعشرة أيّام بقيت من جمادى الأولى، فتلقّاه وجوه كتامة (ر 96 ب) وأقبلوا إليه من كلّ فجّ عميق. فأنفذ رجالاً منهم إلى نواحيهم لإصلاح أمورهم، وأنفذ كتبه إلى القبائل كافة، وأعذر إلى مزاتة وكيانة وبني كملان، فتمادوا في بغيهم وأصرّوا على غيّهم، فأحكم في سطيف ما أراد إحكامه

جعفر بن عبيد يحاصر المتمرّدين بجبل عقار

وأنفذ الجيوش مع وجوه كتامة وأمّر عليهم جعفر بن عبيد، وذلك لأربع عشرة بقيت من (ط 141) جمادى الأخرى، وقد اجتمعت جماعة عظيمة من كيانة وبني كملان وقبائل زناتة فتحصّنوا في قلعة منيعة وعرة المسالك صعبة المرام تعرف بعقار[121]، فقصدتهم العساكر في قلعتهم، فأحاطوا بها واقتحموا الوعر عليهم، وتسنّموا الجبل فأحاطوا

(120) قصر الإفريقيّ: انظر ص 101، هامش 89

(121) ورد هذا الاسم مقروناً بكيانة عند ابن حمّاد، 30 وجبل كِيانة هو جبل المعاضيد شماليّ شطّ الحضنة وشرقيّ المسيلة وهو الجبل الذي يلجأ إليه أبو يزيد في خاتمة مطافه ومنه يؤخذ ويظهر من كلام المؤلّف هنا أنّ كيانة اسم منطقة من الجبل وأيضاً اسم قبيلة

بهم من كلّ ناحية، وقتلوهم أبرح قتل، ولم ينج منهم إلاّ قليل ممّن رمى بنفسه في وعر أو بطن وادٍ، وأحرقوا ديارهم، ونهبوا ما كان في القلعة لهم من النّعم والخيول والأثاث. وانصرف جعفر ومن معه من الأولياء إلى القائم بأمر الله (عم)/ فهنّؤوه بالفتح. فحمد الله على ذلك وأثنى عليه وأمر بالنساء والأولاد إلى أهليهم، وأجرى الوظائف عليهم. وأمر بالنِّداء بأمان كلّ من دخل عليه بالطاعة، فأتته قبائل كثيرة من كتامة فأمّنهم وعفا عنهم. وكتب إليه بنو كملان يطلبون الأمان فأمّنهم وعفا عنهم، وأمرهم أن يلحقوا بالعسكر إلى تاهرت.

200

تأسيس المسيلة (سنة 315)

وأمر عليه السلام ببناء مدينة المسيلة وأقام عليّ[122] بن حمدو [illegible] وأمره أن يتّخذها داراً وينزلها مع عجيسة وجماعة من العبيد، وهي أرض فيها مياه جارية، وفحوص [illegible] واسعة الزرع.

ورحل (صلع) لثلاث بقين من جمادى الآخرة فنزل بباسل [illegible]أقام بها وقوّم أمر الزاب كلّه، وأصلح أمر هوارة، وأقام بها حتى انقضى شهر رجب. وأمر بقطع (ر 97 أ) الميرة عن زناتة لمّا تمادوا في الغيّ والطغيان وأصرّوا على العصيان.

دخول مصعب الزناتي في الطاعة

ورحل يوم الخميس لأربع ليالٍ خلون من شعبان فشقّ بلد صنهاجة وواصل السيرَ حتى نزل بموضع * يقال له حائط حمزة[123] لإحدى عشرة ليلة خلت من شعبان. وهنالك وافاه مصعب بن ماتا

دش 54

---

(122) في الجميع: يعلى وعلي بن حمدون الجذامي ابن الأندلسي هو أحد الدعاة الذين صحبوا الحلواني في رحلته إلى المغرب (انظر ماريوس كانار. الأسرة الحمدونيّة ص 34 من الفصلة).

(123) حائط حمزة: بين جبل البيبان ومدينة البويرة في بلاد صنهاجة (انظر فصل «أشير» بدائرة المعارف الإسلامية).

الزناتي وجماعة كثيرة من زناتة فعفا عنهم، وأوسع عليهم العطاء، وكساهم، وأمر بإنزالهم وأجرى الوظائف عليهم وأمرهم/ أن ينزلوا حيث أحبّوا من البلاد وأعمال الطاعة وانصرفوا. وأقبل الناس من كلّ جهة يطلبون الأمان فأمّنهم (عم).

201

ورحل فمشى راجلاً قدرَ ميل لصعوبة المسالك، والأخبار تتّصل به أنّ ابن خزر عبد الله بن تباذلت قد تحرّز في قلعة جمة[124] مع أهلها، ووعدوه بنصره والدفع عنه وحياطة أمره. وواصل السير (عم) حتى انتهى إلى القرب (ط 142) من جمة في آخر يوم من شهر رمضان. وأمر الناسَ بالخروج إلى الصلاة خارج العسكر وأقام الخطبة ثم أمر بالرحيل. فلمّا انتهى إلى أغزر[125] أتاه أهل تاهرت فذكروا له أن عبد الله بن تباذلت مقيم بقلعة جمة وا[illegible] حربه فأذن لهم. فلمّا عرف ابن تباذلت ـ وهو ابن خزر ـ [illegible] القائم (عم) لم يكن [illegible] ولا لمَن معه حيلة غير الهرب، ومعه أهل القلعة، فأصبحت خاوية وفيها جميع النعم والأموال. ومضى القائم * بنفسه في خيل مجرّدة فألفى القلعة فيها المواشي والمطاعم والشحن، فأمر الناس فانتهبوا ذلك. وأرسل خيلاً مجرّدة في طلب ابن خزر ومن معه. وانصرف إلى مناخه فأقام فيه، والناس يغنمون ما في القلعة.

عبد الله بن خزر يترك قلعة جمّة

دش 55

ورحل يوم السبت لسبع خلون من شوّال فنزل بوادي السواني وأقام به ذلك اليوم وما بعدَه إلى آخر يوم من ذي القعدة/. وتوالت الغيوث والأنواء والأمطار وكثر الوحل، فسمّى الناس ذلك المناخ

202

(124) هو أخو محمّد بن خزر ولا يسمّى ابن تباذلت في البيان، 191، ولا في المقتبس، 460. أمّا قلعة جمّة، فلا علم لنا بها

(125) في المخطوط: عر والإصلاح من البيان، 191 والبكري، 66، 76، وهو يجعلها في سهول متيجه بين أشير وجزائر بني مزغنة، أي الجزائر العاصمة. ويضيف: «ومدينة الخضراء بين تنس وأغزر، وأغزر هي أفرونة متيجة»

مناخ الوحل[126]. وفي كلّ ذلك والقائم (عم) يعذر إلى أهل مطماطة وزبرقة وينفذ الكتب إليهم. فلمّا تمادَوا على الإصرار، ولم يفيئوا للإعذار والإنذار، رحل القائم (عم) بجميع الجيوش يوم الأحد غرّة ذي الحجّة فنزل بالقرب من مطماطة، وأمر العسكر بالنزول وحطّ الأثقال ونصب الفازات، وسار بنفسه في خيل مجرّدة حتى وقف على مطماطة ونظر إليها وارتاد مواضع القتال، وأرسل إليهم بعرض الأمان عليهم فتمادوا في العصيان ولجّوا في الطغيان.

حملة القائم على قبيلة مطماطة

فرجع إلى العسكر فبات به. ولما كانت صلاة المغرب جعلَتْ خيل مطماطة ورجالها يتراؤون للناس ويوهمون أنهم يريدون ليبيّتوا العسكر ليلاً. فاجتمع إلى القائم جميعُ الأولياء يسألونه الرحيل * من ذلك المناخ إلى موضع آخر أمكن للقتال، فزجرهم زجراً عنيفاً وأمر الناسَ جميعاً بإسراج خيولهم وإلجامها، ولبس لأمتهم والاستعداد للقتال.

دش 56

وأمر بإيقاد السرج والمشاعل في كل جهة فأضاء الليل حتى صار كالنهار، وبات الناس (ط 143) جميعَ ليلتهم تلك مستعدّين للقتال قد أقاموا صفوفهم وركبوا خيولهم. فلمّا أصبح الصباح زحف القائم (عم) في جميع الجيوش والعساكر إلى مطماطة، وذلك يوم/ الثلاثاء لثلاث خلَون من ذي الحجّة، وكان قد اجتمع إلى قلاع مطماطة قبائل كثيرة قد تعلّقوا بابن تباذلت ووعدوه النصرة والمؤازرة. فحين أقبل القائم بجنوده وعساكره خرج ابن تباذلت إلى قلعة القربوس في قوّة من حُماتهم وعِدّة من كماتِهم، وقد أجمع رأيُ (ر 98 أ) مَن معه أن يكمن هناك حتى يقع القتال، ثمّ يخرجون على الأولياء متى اشتغلوا بالقتال.

203

(126) مناخ الوحل: أو مناخ الطين (العيون والحدائق، 243). ووادي السواني - في المخطوط: السوالي - غير مذكور. ولعله سوق إبراهيم المذكور في البيان، 191، وهو بين تاهرت وتنس (ابن حوقل، 89، البكري، 62).

لجوء المتمرّدين إلى قلعة القربوس

ووقع ذلك بقلب القائم (عم)، وكان أوّل ما ابتدأ به أن حفظ موضع معسكره وأقام مَن يحميه من الفرسان والرجال والشجعان والأبطال. وأمر خليل بن إسحاق أن يقف بعساكر الجند من إفريقيّة بخيلهم ورجالهم إزاء قلعة القربوس، وتقدّم إليه أن يأمر من مَعه من العساكر بالتعبئة وإقامة الصفوف وركوب الخيل والاستعداد للحرب وأن يكونوا على غاية الحذر، فإن * وافاهم العدوّ فلا يقاتلوه إلا بعد مطالعته وانتظار أمره. فاعتمد خليل ما أوصاه به وأقام بعدّته وعدده.

دش 57

قال الرواة[127]: وزحف ابن الإمام بجيوش كتامة وغيرهم في هيئة تملأ القلوب والعيون، وقد ركبوا خيولهم، ولبسوا لأمتهم، وأشرعوا رماحهم، وصفّوا دَرَقهم، وبين يديه الرّجالة يتلو بعضهم بعضاً بالقسيّ والرماح والسيوف والدرق حتى أشرف على مطماطة. فوقف القائم (عم)/ على شرف ينظر القتال، وأرسل إلى أهل مطماطة يعرض عليهم الأمان، فلم يقبلوه، وخاب سعيهم وما أملوه. فأذن في قتالهم فاقتحمت إليهم الجيوش من كلّ ناحية وملكوهم بالسيف عنوة، وتسنّموا إليهم الحصون والقلاع ودخلوا عليهم. فحين أيقنوا بالهلكة ضرعوا وخضعُوا ونادَوا بالأمان فرقّ القائم (عم) لهم ورحمهم، وأمر الناس أن يكفّوا عنهم، وأقال عثرتهم بعد أن اقتحمت جنودُه قلاعَهُم.

204

خليل بن إسحاق يحمل على ابن خزر. . .

وأمّا خليل بن إسحاق فإنّه رأى خيول العدوّ بالقربوس فتعرّف خبرهم فإذا هي خيل ابن تباذلت قد أقبلت من ميْسَرة خليل، فلم يأذن خليل في قتالهم (ط 144) حتى أرسل إلى القائم (عم) فأذن له بقتالهم، فلم يرجع الرسول إلى خليل إلاّ وقد حمل على ابن تباذلت ومن معه فولّوْا

(127) لا يعيّن المؤلّف هؤلاء الرواة. وإنّ كثرة التفاصيل الآتية وتنوّع أسماء الأماكن لتُحوجنا إلى معرفة مصادره. هذا مع ما يعتري عرضه للأحداث من تفخيم ومبالغة.

هاربين (ر 98 ب) وانهزموا مدبرين، واتّبعتهم الخيول يقتلون ويأسرون *، | دش 58
وركض ابن تباذلت فرسَه حتى أجهدهُ ووقف به، فنزلَ له بعض أصحابه عن دابّته فركبها وأمعن في الركض، وخيل خليل قد أشرفت في طلبه وكادت أن تلحق به. فلم ينج إلاّ بعد جهد وشدّة، لما أرجأ [الله] له في المدّة، وقتل الرجل الذي نزل له عن دابّته، وقتل معه جماعة من وجوه بني ورزمان أهل بيت ابن تباذلت.

205

وولّى ابن تباذلت هارباً على وجهه لا يلوي على شيءٍ/، فلم ينادِ المنادي بالأذان وقت العصر حتى فتحت قلاع مطماطة. وكان فتحاً لم يرَ الناظرُ فيما ذكر الرواة كمثله، ونصراً أتاحه الله لوليّه، وبيّن فيه عظيم فضله، والقائم (عم) على فرسه يرفع يديه بالتكبير ويحمد الله سبحانه على ما أتاح له، بالصوت الجهير. فلمّا رأى أولياءَهَ إليه من كلّ جهةٍ برؤوس القتلى وبالأسرى مقبلين، وقلاع مطماطة قد ملكها الأولياءُ عنوةً، وهم غير متهيّبين ولا فشلين، حوّل نحو القبلة وجهَه وسجد لله (تع) على عُرف فرسه[128]. وكان ركوبُه ذلك اليومَ على فرس أشهب[129]. وانصرف إلى المناخ وقد أعزّ الله نصرَه، وأظهرَ أمرَه. وأطلق الأسارى وأمر من معه أن لا يتعرّضوا للأولاد والنساء، ومَنّ على أهل مطماطة بأموالهم *، وأمرهم أن يدخلوا في جملة أوليائه، وقرّرهم في كلّ أحوالهم.

.. ويحمل مطماطة على الإذعان للقائم

دش 59

ورحل (عم) بكرة يوم الجمعة لستّ ليالٍ خلونَ من ذي الحجّة فنزل بموضع يعرف بالهوى من ميداس وأقام به باقيَ شهر ذي الحجّة.

---

(128) هذا النصر الباهر لم يذكره إلاّ الداعي إدريس. أمّا ابن عذاري، 193، فيقول إنّ القائم لم يلاق ابن خزر، بل انصرف مسرعاً إلى المهديّة لأنّه بلغه أن المهدي عزم على تحويل ولاية العهد عنه

(129) في اليوم الموالي سيكون فرساً ورداً بهيما: فالمؤرّخ الممجّد للقائم يقارن بين تعب الدابّة وجلد الأمير.

ورحل يوم الأربعاء لسبع ليالٍ خلَونَ من المحرّم يريد زبرقة فنزل بموضع يعرف بالعرقوب فبات به. ورحل منه فأشرف على زبرقة، وهي مدينة حصينة حولها خندق عظيم. وقد تحصّنوا في جوف مدينتهم وتوافروا فيها ولزموا سُورها وحمَوه بالرجال والسلاح/، وقد اجتمع إليهم من كلّ أوب كلّ فارس (ر 99 أ) مشهور، وذي نجدةٍ مذكور. ورجع ابن الإمام إلى معسكره بالعرقوب فأقام فيه يوم الجمعة ثم رحل بكرة يوم السبت فنزل بموضع يعرف بتاغشمت(130) فأقام فيه (ط 145) إلى يوم الثلاثاء النصف من محرّم الحرام، وزحف (عم) إلى زبرقة ـ وتعرف بأغيت وهو اسمُها بالبربريّة ـ فسار إليها بنفسه، واتّبعته الجموع من الأولياء بالتعبئة والاستعداد، وقد عبّأ صفوفهم وهيّأهم للقتال، وأمر (عم) كلّ من معه من صغير وكبير أن يحمل * الحطب والعشب ليُلقى في الخندق ويمكن الجواز إلى القلعة. فحمل الناس جميعاً وأحاطوا بالمدينة من كلّ جهة، وسدّوا على مَن فيها من كلّ وجهة، ونصبت عليهم منجنيقات عظيمة وعرّادات.

توّجه القائم إلى زبرقة ـ أغيت ـ

206

دش 60

إعداد آلة الحصار

وأمر [القائم (عم)] خليلَ بن [إسحاق التميميّ](131) أن يقف في جموع إفريقيّة على جبل هناك مشرف على المدينة ممّا يلي الجبل، وأمره بالحزم أن يغتاله العدوّ. وقد كانت جموع البربر

(130) تاغشمت: لا ذكر لها في مراجعنا. وإنّما يذكر ابن عذاري، 193، «تامغلت»، كما يذكر «برقجانة» ولعلّها تحريف زبرقة، لأنّ بعض نسخ البيان تذكر برقة عوض زبرقة (هامش 1 ص 193). ويذكر البكري 66، برقجانة أيضاً في طريق تنس، ثم من تنس إلى تيهرت، يعدّد مواضع «كالجموت على مصيق مكناسة إلى عين الصبحي في سفح جبل لمطماطة، إلى تاغريبت إلى تيهرت»، وهي أماكن تقرب نطقاً ووضعاً ووصفاً مما يذكره الداعي إدريس هنا، ولكن دون تحقيق.

(131) في الجميع: خليل بن يعقوب. وهذا وهم لأنّ يعقوب هو أخو خليل بن إسحاق، وستأتي أخبار هذا وذاك في الصفحات القادمة.

أرادوا أن يعتلوا هٰذا الجبل، فحين غشيَهم خليل ومن معه، ولّوا على أعقابهم وأحاطت الجيوش والعساكر بزبرقة من كلّ ناحيـة، ورمَوا بما معهم من الحطب في الخندق، فلم يمتلىء الخنـدق لسعته. واشتغل الناس بالقتال، ووقف القائم (عم) على فرس/ وَرْدٍ بهيم، يدور بالقلعة من مكان إلى مكان ويحرّض الناس. ودنا حتى وقف في أوّل الصفوف ومعه درعُه وسيفه، ومعه رمحُه ودَرَقَتُـه، والبيضةُ على رأسه. وليس بالمدينة غير بابين قد اكتنفهما العدوّ برجالهم وأنجادِ حماتهم.

207

مقاومة زبرقة شديدة...

وأمر القائم (عم) بالرمي بـالمنجنيق، فرمى عنهـا بأحجـار كثيرة، وأخذت العدوَّ الحجارةُ والسهام من كلّ نـاحية، وتـوالت عليهم الجيوش من كلّ جهة بالجدّ والاجتهاد، مع صعوبة المدينة وضيق مجازها. فاقتَتَلَ الناس قتالاً شديداً حيناً من النهار، وأمرهم القائم أن لا يرتدعُوا عن الخندق (ر 99 ب) وثقب السور. ووقف ينظرُ* إليهم فتقدّموا بين يديه، واقتحموا الخندق ووصلوا إلى السور فوضعوا فيه الفؤوس. ومال العدوّ إلى تلك الناحية، ووقع بينهما القتال الشديد، وتمالأ الناس إلى تلك الجهة بين يدي القائم. وتضعضع السور وتداعى وانهار منه وجه كثيـر على من كان تحتَـه فنجّاهـم [الله] سبحانه ببركة القائم بأمر الله (عم) ولم يمت أحدٌ منهم. وتكالب أهل زبرقـة وأيقنوا بـالهلاك، واشتـدّ القتال واستمـاتُوا، وجـالت الجيـوش عليهم إلى ما تضعضـع من السـور، فحمـوه بـالخيـل والرجال. وجعل نساء زبرقة يضربن فيما بينهم/ الدفوف ويحرّضنهم على القتال ويرفعن أصواتهنّ بالبربرية ليذمُرْنَ الرجال(132). وأصاب الناس مطر، وهم في الحرب. ووقف القائم (عم) وحرّض الناس،

دش 61

208

.. والنسوة البربريّات يحرّضن الرجال على الصمود...

(132) يذمرنهم: يحرّضنهم على الاستبسال، مع التهديد للجبناء

ولم يثنِه وقوع الغيث عن قتال العدى. وكفّ المطر والقتال قائم ونار الحرب تضطرم، حتّى أذّن المؤذّن لصلاة العصر، وأهل القلعة على طغيانهم مصرّون، وإلى القتال مسارعون متذمّرون، وقد اكتَنَفهم القتال في كلّ جهة، وطمعوا أن يصابروا بالقتال حتّى يأتي الليل فينصرفَ القائم بجيوشه عنهم ويمكنهم الهربُ عن قلعتهم. فلمّا أن مالت الشمس للمغيب، سأل بعض الأولياء القائمَ (عم) أن يستريح ويريحَ عسكره إلى الصباح فزجرهم عن ذلك * وأرسل إلى خليل بن إسحاق أن ينصرف بجميع من معه من جنود إفريقية إلى المناخ لحياطتِه، وعرّفَه أنّه مقيم على العدوّ ليلتَه. وتقدّم القائم فانتقى من الجيوش وجوهَهم وذوي بأسهم، ومن يُعرف بالشجاعة منهم، وأمرهم فمشوا بين يديه وقصد السور. فلمّا انتهَوا إليه كبّروا تكبيرة واحدةً وتسنّموا السور فاقتحموا المدينة، وركب بعضهم ظهور بعض ووضعوا السلاح في العدوّ، وأضرموا بيوتَهم بالنيران، / واقتحم الناس عليهم من كلّ مكان، وعملت السيوف (ر 100 أ) فيهم من كلّ ناحية، ورأوا الهلاك عيانا، فمالوا على نسائهم وأولادهم فقتلوهم بأيديهم واستماتوا واستبسلوا.

دش 62

.. فيفصّلون الانتحار على الاستسلام

209

وأشرف بعض أهل زبرقة من السور فرأى القائم (عم) وقد دنا من السور، فرماه بحجر، وقد التفت يحرّض الناس فاتّقاه بالدرقة، وقال: أبعدك الله! فما برح الرامي من مكانه حتى أتاه سهم غَرْبٌ[133] فوقع في لَبّته وخرّ ميتاً. ورمى الرماة بالسهام حتى صارت خصوص أهل القلعة وبيوتهم كأنها قنافذ لكثرة السهام، وأُضرِمَت نيراناً واستحَرَّ القتلُ فيهم والنهب. وغابت الشمسُ ونزل القائم (عم) عن دابّته (ط 147) وصلّى المغرب والعِشاء الأخرى. وركب فرساً فوقف عليها

(133) السهم الغرب هو السهم الذي لا يدرى من رماه.

دش 63

طولَ ليلتِه وهو لابسٌ * لأمة حربه، وقد أضاء الليلُ من كثرة الحريق والنيران حتى عاد كالنهار. ولم يزل القتلُ في المدينة والنهب حتى طلعت الشمسُ. ولم يُفلت أحدٌ من المدينة إلاّ مَن خرج مِن الجهة التي كان القائم (عم) فيها: فكلّ من قصدَها مَنَعَ من قتله ومَنّ عليه. وحين طلعت الشمسُ، مشى القائم بأمر الله (عم) حول القلعة ونظر إلى القتلى وقد تراكموا فيها حتّى واروا السور. واحتوت جيُوشُه على ما في المدينة من الخيل والسلاح والأثاث/. وأكثر من حمد الله وشكره، وكتب إلى أمير المؤمنين بما منّ الله به من الفتح الذي ملأ جميعَ الأرض صيتُه وذكره، وحلّ بعدوّهم فيه هلاكُه وخسرُه. وانصرف القائم (عم) إلى مناخه بتاغشمت حامداً الله (تع) على ما أولاه، وأيّده من نصره وحباه. وأطلق الأسارى وأمر بحياطة الحرم والأطفال وردّهم إلى أوليائهم من الرجال، وأمّنهم.

حلم القائم بعد الظفر

210

إذعان القبائل

وأقام في مناخه ذلك، وأتته القبائل مُذعنةً بطاعته، خائفة (ر 100 ب) لسطوته، فأمر لهم بحسن النزل، وأنعم على أكابرهم وكساهم، ومَنّ عليهم وأعطاهم وهم: أهل لماتة، ومطماطة، وزواغة، ومكناسة، وقصيرة وهوارة، وأهل العيون[134].

وارتحل في يوم الاثنين لثلاث خلون من صفر حتى انتهى إلى وادي تامرت فبات به. وقصد منه الحميز، وهو مدينة لبني مسرة[135] أهل بيت ابن * تباذلت الذي هو ابن خزر، فأصابها خاوية، ومن أهلها خالية، وهي في موضع أنيق كثير الأشجار والأنهار. فأمر بِهَدم سور المدينة وقطع أشجارها، وأقام بها حتى فرِغ الناس من هدمها.

دش 64

تهديم الأسوار والحصون احتياطاً من التمرّد

(134) لا يذكر المؤلف انتساب هذه القبائل إلى الأباضيّة خلافاً لما جاء في كـ. العيون والحدائق، 242، وكذلك لم يأت ذكر زبرقة إلاّ في هذا الكتاب، على الرغم من المناعة التي ينسبها إليها الداعي إدريس.

(135) قد ذكر المؤلّف منذ قليل (ص 204) أنّ أهل بيت ابن تباذلت هم بنو ورزمان

ورحل قاصداً دار خلف فبات بها. ورحل إلى بهيروج، وفيه حصن منيع قديم، فطلع إليه وتأمّله فرأى حصانته وأمر بهدمه. ورحل منه لاثنتي عشرة ليلة من/ شهر ربيع الأوّل حتى انتهى إلى وادي صلاف، وهو وادٍ مشرف على تاهرت، فأقام فيه سبع ليالٍ من شهر ربيع الآخر. وأنشأ هنالك قصيدتَهُ التي يقول فيها: 211

(طويل):

سـلام على آل النبيّ ورهـطِه وشيعتـه أهلِ النُّهى والفضـائِلِ
تحيَّةَ مَن أمسى بتاهِـرْتَ قائمـاً بحقّهمُ بين المـلا والقبـائِـل
قبائلُ من تَيْمٍ وقيسٍ وخِنـدفٍ ومن يَمَنٍ في عـزّها المتـطاول — قصيدة للقائم...
ومن كلّ حيّ قد أتـانا زعيمُهم وفارسُهم عند اختلاف الذوابـل
5 وفتيانِ صدقٍ من ذُؤابة هاشمٍ أتَوْني ببيضٍ مُـرهفـاتٍ قـواصـلِ
* يقُدّون هاماتِ العدى دون حقّهم ويحمُون دينَ الله فعلَ الأوائـل — دش 65
أنا ابن رسول الله جدّي وجدّهم إذا ذُكـر الأقوامُ عنـد التفاضـل
ومفخَرنا العالي على كلّ مفخر عليه سلامٌ بـالضحى والأصائـل
وجبريلُ منّـا حين قمنا وعُصبـة إلى الله ندعو عند ذكر التباهل[136]
10 وما كان من مجـد وفخر فـإنّنا حويناه قَسْـرا بالقنـا والمناصِـل
أنا ابنِ رسول الله والبيتِ والصفيّ أنا ابن عليّ ذي التقى والفضائل
وفاطمةُ الزهراءُ أمّي، ومَنْ بهـا سموتُ إلى العلياءِ أعلى المنازل

* * *

وقد قمتُ أدعو الناسَ حقّاً إلى الذي يُنجّيهمُ من كـلّ إفكٍ وبـاطـل
إلى منهلٍ فيه الهدى وشرائـعٍ أُقيمَ بهـا من دينهم كلُّ مـائل
15 فإن/ يستقيموا أستَقِمْ لصلاحِهمْ وإن يعدِلوا عنّي فلستُ بعـادل — 212

---

(136) إشارة إلى حديث المباهلة مع نصارى نجران، المرويّ في سيرة الرسول (ﷺ).

	* عمرتُ بلادَ الغرب بعد فساده	وطهَّرتُهُ من كل غاوٍ وجاهل	دش 66
	فلم يبق في سهل من الغرب فاسقٌ	وفي الوعر، إلاّ في أسىً وبلابل	
	ففرّ لكي ينجو ـ وهيهات! ـ خلفَه	قبائل تُهْوي كالليوث البواسل	.. يفخر فيها
	كما فرّ ذاك الأغلبيُّ وقد رأى	مواردَ مَوْتٍ عاجل غير آجل[137]	بقهر الثوّار..
20	فمرّ يحثُّ الركض في كل مهمَهٍ	وخلّى لنا عن داره والحلائل	
	وعن كل خَوْد ذاتِ حُسن وبَهجة	وكلّ جوادٍ في السوابق صاهل	

* * *

	فيا شيعةَ الحقّ الذين نحبُّهُمْ	وحُبّهُمُ فينا كثيرُ التّواصل	
	أما حان أن تُزجُوا إليَّ مطيَّكم	وتأتوا سِراعاً بين حافٍ وناعل؟	
	فتحظَوْن عندي بالذي تأمُلُونه	لأحميَكُم من كلّ خوف وهائل	
25	إذا ما سمعتُمْ داعيَ الحق فانفِروا	إليَّ سراعاً كانقضاض الأجادلِ	
	* فقد أزمعَتْ خيلي إليكم سريعةً	تجوب بلادَ الله ذاتَ المراحل	دش 67
	إلى أرض مصرٍ والعراق وبعدها	فبغدادُ همّي من جميع المنازل	
	فإنّ بها جَوراً شديداً وفتنةً	وفيها أناسٌ كالسَّوام الهوامل	
	يُعادُوننا ظُلماً ويهوَوْنَ قتلَنا	وكم جرَّعونا من مرارة ثاكل	.. ويسطّر برنامج
30	فسيري على اسم الله خيلي، وشمّري	إلى بابلٍ حتّى تحُلّي ببابلِ	الدولة في اقتحام
	إذا ما حللناها وبالله عِصمتي	فإنّ بها يوماً شديدَ الزلازل	المشرق...
	/ويومٍ لنا في الرقّتَيْن وبالسٍ	يكونُ لهم فيها امتياجُ التلاتل[138]	213

---

(137) الأغلبيّ الهارب هو زيادة الله الثالث بعد هزيمته بالأربس وقد مرّ خبره في سيرة أبي عبد الله (ص 110)

(138) الرقّتان: مدينتان على نهر الفرات تسمّيان الرقّة والرافقة. والرقّة المعروفة في عهد هارون الرشيد هي الرقّة البيضاء. وكان قريباً منها رقة أخرى تسمّى الرقة السوداء، وثالثة تدعى رقة واسط هذا ما عند ياقوت. وفي رأينا يعني القائم بالرقّتين أرض الجزيرة بين النهرين قاطبة، فقال: الرقتين كما يقال: العراقان للبصرة والكوفة. وبالس بلدة بالشام بين حلب والرقّة البيضاء، وهي على الفرات أيضاً

والتلاتل ج تليل: الأعناق

فنَشفي نفوساً من لذيذِ دمائهم ونُلحِقُهُم فيها بكل الطوائل[139]
إذا أجمعوا من كل غابٍ وأقبلوا على الفَوْر من شاطي الفرات المقابل

* * *

35 ذكرتُ حُسيناً فاستهلّت مدامعي وقلت، وَإنّي لستُ أنسى أوائلي
دش 68 * [سـ] ـأقتل منهم كلَّ رأس وتابعٍ وأتركُهم صرعى بمُلقى الجنادل
وتسري خيولي من ورا النيل تبتغي عِدى الدين حتى تَستقِرّ بكابل .
... أخذاً بثارات آل البيت ولـو أنّني صنّفتُ كـلّ وقـائعي لطال بها شرحي ·وطالت رسائلي
وكم بدمشق من صريع مجندل ومن ثـاكل بـاكٍ وجمعٍ أرامـل
40 وحمصٍ وسَلْمٍ والثغورِ ومَن بها إلى نجدِ أرْمِينَ وأهلِ المعاقل[140]
كيـومٍ بمصـرٍ لا يُنـادَى وليـدُه إذا أزمعتْ خيلي وجاءت جحافلي[141]
وثـارت إلينـا عُصبـةٌ خَـزَرِيَّـة وقومٌ من الأخلاط أهلُ تخاذل[142]
فمن كان في سلمي ففي الأمن سادرٌ ومرمى المُعادي في جميع المقاتل

(ط 150) فكان ممّا وعد في قصيدته في أيّامه وأيّام الأئمّة من ذرّيته (عم)، فأتمّ الله لهم ميعاده، وأورثهم أرضه وبلاده (ر 101ب).

وأنفذ القائم (عم) البُرُد خلف ابن خزر ليعرف أحواله، فأخبر أنّه ولّى هارباً على وجهه في الرمال * حيث لا يعرف له مسلك، دش 69

---

(139) الطوائل ج طائلة: الثأر والتِرَةُ والدحل.

(140) سلم: تخفيف سلميّة معقل الدعوة بالشام. والثغور هي ثغور الشام والجزيرة، أي منطقة «العواصم» التي تغلّب فيها الروم على بني حمدان، ولكن في مدة المعزّ خاصة. وأرمين مخفف أرمينية وهي منطقة الثغور الشمالية الشرقيّة مما يلي ميافارقين وآمد.

(141) «هم في أمر لا يُنادى وليدُه»: مثل يضرب في معنى الشدّة والموقف الحرج (مجمع الميداني 4526).

(142) العصبة الخَزَرِيّة: لعلّه يعني الخدم والقـوّاد الأتراك الـذين يقودون الجيش العبّـاسيّ، من جنس مؤنس المظفّـري وتكين، اللذين مارسهمـا القائم في حملتيه على مصر

وتواترت بذلك الأخبار. فترك من الخيل والرجال ما يحتاج إليه لضبط/ تاهرت. ورحل حتى وصل أومنت غرّة جمادى الأولى

214

القائم يلاحق ابن خزر دون جدوى

وارتحل قاصداً لابن خزر رابع عشر شهر رجب فنزل شرف الراعب وأقام بذلك الموضع إلى آخر الشهر، ورسلُه تخرج لارتياد الطريق ومعرفة المسالك، فيأتونه فيعلمونه أنّها قفار، وسباخ كالبحار، لا سكن فيها، ولا أنس بها، ولا عَلَمَ يُهتدى به إليها.

فرحل يوم السبت لليلتين خاليتين من شهر شعبان فنزل دون سوق ابن جلالة وأقام به عشرة أيّام.

وسار حتى نزل بعيون أبي فرات على ماءٍ قليل، وقد فنيَ ما بين أيديهم من الطعام والعلف، لكثرة الجموع والعساكر والخيول والكراع والرقيق والأسارى.

ورجع (عم) قافلاً حتى انتهى إلى طبنة فأقام بها بقيّة شهر شعبان. ورحل من طبنة لثلاث خلون من شهر رمضان، فنزل بموضع يعرف بأبي مفرط، فبات به ووافاه فيها كتاب أمير المؤمنين المهديّ بالله (عم) يعرّفه بفتح بلدان من بلاد الروم على يد سالم ابن أبي راشد[143] وصابر الخادم[144]، وأن كتامة الذين ببرقة مع فحل بن نوح اللهيصي[145] العامل عليها زحفوا إلى ذات

(143) ابن أبي أسد في المخطوط والصواب: سالم بن أبي راشد كما في البيان، 175، وفي سيرة جوذر، 71. على أن النويري (المكتبة العربية - الصقلية، 436) يسمّيه: سالم بن أسد. وقد تولّى سالم إمارة صقلية منذ سنة 304. وفي الكامل، 182/6 (حوادث سنة 313) سالم بن راشد.

(144) صابر الخادم. وفي المخطوط: ضامن وهو صابر المذكور في البيان، 193 و 194 تحت سنة 317 وفي نهاية الأرب (المكتبة. . ، 436). ضارب وصاين (المكتبة، 170).

(145) فحل بن نوح. قال الداعي إدريس فيما مضى (ص 80) إنّه رئيس لطاية، وأنّه =

دش 70 الحمّام[146] وبها أبو النمر أحمد بن صالح من قِبل * صاحب مصر، فهزموه وقتلوا مَن معه قتلاً ذريعاً/ وأخذوا لهم بنوداً وأعلاماً، وغنموا
215
لهم غنائم كثيرة، ووجّهوا بالأعلام إلى باب أمير المؤمنين (صلع) فأمر بإنفاذها إلى القائم (عم).

وكتب إليه أيضاً بأخبار سارّة وردت من بغداد (ر 102 أ) وفتح الأنبار[147] فأمر القائم (عم) بأعلام المصريّين ليُطافَ بها في العساكر وهي منكوسة، فاستبشر الناس وحمِدوا الله سبحانه.

رجوع القائم إلى المهديّة (رمضان 316/ نوفمبر 928)

وراتحل (عم) حتى دخل المهديّة لإحدى عشرة ليلة من شهر رمضان سنة ستّ عشرة وثلاثمائة بعزّ شامل (ط 151) وزيّ كامل، ونصر ظاهر ومجدٍ باهر، وعدّة بهيّة، وجموع كثيرة قويّـة. ودخل على أميـر المؤمنين المهدي بالله (صلع) وهو جالس في الإيوان الكبير. ودخل جميع الأولياء وكافّة الناس، وسائر العبيد، فسلّموا عليهما وهنّؤوهما بخيرات الله المتوالية إليهما.

ابن خزر يتمرّد بيسكرة...

وفي سنة سبع عشرة، صار ابن خزر إلى نواحي [بـ] ـسكرة،

= مات في آيّام أبي عبد الله الشيعي، وهو للدعوة مناهض. فلعلّ الاسم اشتبه عليه. ولعل الصواب هو «فتح بن يعلى» إذا صحّت ملاحظة عمر السعيدي ناشر العيون والحدائق، 211 هامش 2، مع التنبّه إلى أنّه لم يذكر عند ابن عذاري، ولا عند الكندي بعد رجوع القائم من مصر.

(146) ذات الحمام: ذكرها البكري، 3، على الطريق بين الاسكندريّة وبرقة قبيل الحنيّة التي ذكرت في حملة القائم المصرية وانظر خريطة ابن حوقل، 64.

(147) فتح الأنبار: يعني تغلّب القرمطيّ أبي سعيد الجنّابيّ على الكوفة سنة 315. ولم يدخل الأنبار حقيقة، حسب رواية العيون والحدائق، 239 - 240.

ولهـذه الفرحـة بظفـر القرمـطيّ دلالتها: وهي تعـاطف الفاطميّين مـع القرامطة، روحيًا على الأقلّ، رغم ارتداد علي بن الفضل عنهم في اليمن وسيكون للمعزّ وقوّاده خطوب كثيرة بمصر والشام مع القرامطة.

وهذه الجملة مقحمة في الفقرة، وحقّها أن تأتي بعد الأعلام المنكوسة.

واتّصل ذلك بأمير المؤمنين، فأنفذ إليه مسعود بن غالب الرسولي[148] في خمسمائة فارس وذلك لإحدى عشرة بقيت من صفر. فهزمه مسعود بن غالب * وأوقع بأصحابه. وكتب إلى أمير المؤمنين (صلع) بخبر ذلك.

دش 71

وفي هٰذه السنة قدم فلفل بن خزر[149] في وجوه زناته وأشرافهم على يد عليّ بن حمدون إلى باب أمير المؤمنين (عم)، فأذن لهم في السلام عليه/ وأمر لهم بآلكُسَى والصلات والحُمْلانِ فكسُوا في القصر.

... وأخوه فلفل يبايع المهديّ

216

وفي سنة ثماني عشرة وثلاثمائة، قدم صابر الخادم [و] أحمد بن سامة[150] إلى باب أمير المؤمنين (عم) على أسطول صقلّيّة، وقد رجعوا من بلد الروم بغنائم جليلة وأموال عظيمة وأثاث وصنوف من المغانم كثيرة. وذكر أنّ عدد ما سبوا من الروم يزيدون على نيّف وثمانية عشر ألف نفس.

وكان خروجهم من المهديّة حين غزوا بلاد الروم في ربيع الآخر من سنة ستّ عشرة وثلاثمائة. وكان انصرافهم إلى المهديّة لثمان خلون من شهر شعبان من السنة المذكورة[15].

وفي سنة تسع عشرة وثلاثمائة أمر أمير (ر 102 ب) المؤمنين بعمارة

(148) الوسولي عند الدشراوي (الخلافة، 155 والمقتطفات، 70) وقد أحال على البيان، 187، ولكنّ ابن عذاري يذكر «مسعود الفتى لا غير». وفي المكتبة العربية ـ الصقلية، 169، صاحب الغزوات البحرية يدعى «مسعود الصقلبي».

(149) فلفل بن خزر: في مقتبس أبي حيّان، 303، خبر التحاقه بالمهديّ، وذلك من خلال رسالة أخيه محمد بن خزر إلى الناصر الأموي، وهي رسالة يستنكر فيها فعلة شقيقه، ويؤكّد ولاءه للأمويين رغم ترغيب الفاطميّين وإغرائهم له.

(150) صابر الخادم مرّ ذكره منذ قليل. أمّا أحمد بن سامة فلا نعرفه.

(151) أي سنة 318.

الأساطيل وأن تشحن بالأزواد والسلاح لغزو بلاد الروم. فلمّا أيقن الروم بذلك، بعثوا رسلهم * بالهدايا وسألوا الهدنة وكفّ الحرب فأقامت الأساطيل ولم تغز.

حميد بن يصل يحارب موسى بن أبي العافية

وفي سنة عشرين وثلاثمائة أمر أمير المؤمنين (عم) حميد بن يصل بالزحف إلى موسى بن أبي العافية. فزحف إليه من تاهرت في عساكر كثيرة. وكانت بينهم وقائع مهولة. والتجأ موسى إلى قلعة منيعة فحاصره حميد بن يصل، وأقام عليها بالجيوش. ثمّ إنّه/ وقعت غفلة عن بعض السبل فخرج منها ابن أبي العافية (ط 152) يقصد الصحاري ويهيم في البراري[152].

217

وفي هٰذه السنة[153] - سنة عشرين - جرت الوحشة بين المقتدر العبّاسيّ ومؤنس الخادم الذي كان المقتدر أخرجه إلى مصر لحرب القائم (عم). وقدم مؤنس على المقتدر بجيوشِه، فأشار على المقتدر وزراؤه وأهل رأيه أن يخرج إلى مؤنس وقالوا: إنّ عسكرَه عبيدُ دولتك، ومَنٌّ عليهم جزيل نعمتِك، فإذا رأوك، لم يكن لهم وقوف على التفرّق، أو يقبضوا على مؤنس ويُصَيِّرُوهُ إليك. فركب المقتدر وخرج إلى مؤنس يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من شهر شوّال من السنة المذكورة، والتقى عسكره وعسكرمؤنس بباب الشماسة خارج بغداد. فوقع الحرب بينهم، وكان أوّلَ النهار لعسكر المقتدر، ثمّ غلبهم آخرَ النهار عسكر مؤنس، وأسروا أبا الوليد بن حمدان وأحمد بن كيْغلغ من أصحاب المقتدر. وانهزم عسكر

بعض أخبار العبّاسيّين...

(152) هذه الحملة من حميد بن يصل ذكرها ابن عذاري، 204، مع اختلاف كبير عن رواية الداعي إدريس، في الأهداف وأسماء الخصوم. والذي أفلت هو ابن خزر في المخطوط، وهو خطأ واضح وفي خصوص حميد بن يصل، ينظر المجالس والمسايرات، 252، هامش 4.

(153) سقط خبر المقتدر ومؤنس، وخبر ذي الفقار، من مقتطفات الدشراوي

المقتدر، وأخذ بعض عسكر مؤنس (ر103أ) السيف من يد المقتدر، ونزعوا البردةَ منه، وأخذوا خاتمَه - وكان من ياقوت أحمرَ مربّع - وقتلوه بعد ذلك، وأتَوا برأسه إلى خادمه مؤنس. وتركوا جثّته، ولا سترَ على عورته، فطرح عليه القصب/ والحشيش. ثم أمر مؤنس بالجمع بين جثّته ورأسه وسلّمه إلى أبي الشوارب قاضي بغداد فدفنه[154].

مقتل المقتدر سنة 320. . .

218

وفيما أتى عن القاضي النعمان بن محمد (رضي الله عنه) قال:

كـان بنو العبّاس قد غلبوا على ذي الفقار سيف رسول الله (ﷺ) فردّه الله إلينا. وذلك أنه لمّا قُتل جعفر المُتَسَمّي بالمقتدر[155] وانتُهب قصره، كان فيمن شهد ذلك بعضُ أوليائنا، فنظَر إلى امرأةٍ من حرَم جعفر وقد كُشِفَت وهي تقول: ألا رجلٌ حرٌّ يستُرُني حتّى يوصِلَني إلى مكان كذا وكذا؟ فرقَّ لها ذلك الرجلِ وسَتَرها، وقال لها: سيرى بين يديَّ أبَلِّغْكِ، فقالت: واللّهِ ما عندي ما أجْزيكَ به، ولكن ادخلْ هذا البيتَ، ففيه صندوق - وأرَتْهُ مكانَه - فيه ذو الفقار سيف رسول الله صلّى الله عليه وآله. فأخذهَ ومضى بها إلى حيث سألَتْه. وأصاره الله إلينا بمنّه ونعمته[156].

. . . كان فرصة لرجوع ذي الفقار إلى آل البيت. .

وتولّى القاهر[157] ابن المعتضد العبّاسيّ، فأمر بقتل مؤنس الخادم، ومَن أثار الفتنة (ط 153) وألقى الله كيدهم بينهم، وعجّل على أيديهم حَيْنهم، وأعّز دولة الأئمّة من آل رسوله. وما زالت دولة بني العبّاس تتضعضع، ودولة أهل بيت الرسول يعلو بنيـانُها ويُـرفع، وسنذكر من ذلك إذا/ انتهينا إليه، ما يعين الله عليه.

219

(154) هو ابن أبي الشوارب كما في التنبيه والإشراف للمسعوديّ، 330.

(155) المقتدر. الثاني عشر من العبّاسيّين، قتل سنة 932/320.

(156) المجالس والمسايرات، 114 وانظر في «وقعة صفين» لنصر بن مزاحم، ص 546، شيئاً من أخبار هٰذا السيف العجيبة.

(157) القاهر: حلف من 320 إلى 322

[خبر يعقوب بن إسحاق]

دش 72

* وكان يعقوب بن إسحاق التميميّ، أخو خليل بن إسحاق، في حبس بغداد. فخرج منه حين قتل المقتدر. وكان، لمّا خرج القائم إلى مصر كما ذكرنا[158] خرج معه يعقوب، فولاه القائم (عم) خراج الفيّوم. فابتنى به مسجداً، وترك له وقفاً، وعاد إلى المغرب بما جمع من المال. وأمره أمير المؤمنين المهدي بالله بالعودة إلى مصر في أسطول كبير، وذلك بعد رجوع القائم بأمر الله (ر103 ب) إلى المهديّة[159]، وكان مع يعقوب صقلبيّ يعرف بسليمان، من عبيد الإمام. فوصلا إلى الإسكندريّة وفنيَ ما عندهما من الزاد، وتفرّق عسكرهما * فأُخِذَ يعقوب [بن اسحاق] التميميّ وسليمان الصقلبيّ، وطيف بهما في شوارع مصر، وحملا إلى بغداد مكبّلَين، وذلك في حياة المقتدر. فأمر المقتدر بضرب عنق الصقلبيّ فضربت رحمة الله عليه[160]، وأمر بسَجن يعقوب فأقام في بغداد أربع عشرة سنة، منها سبع سنين مضيَّقاً عليه في سرداب تحت الأرض، وسبع فوق الأرض. وما من شهر إلاّ يصل إليه المال من أمير المؤمنين على أيدي دعاته بالمشرق المستترين. فكان يدفع أكثر ذلك إلى السجّان والمسجونين حتى أثرى السجّان. وكان قد آطمأنّ إليه فمتى توجّه في أمر/ استخلفَه على أهل السجن.

هروب يعقوب بن إسحاق من سجنه ببغداد

دش 73

220

---

(158) انظر خبر حَملة مصر أعلاه ص 176 - 191، ولا ذكر ليعقوب بن إسحاق في تلك الصفحات، خلافاً لما توهم به عبارة المؤلّف

(159) لا يضبط المؤلّف هذه الرجعة: أهي الأولى، بعد حملة سنة 301 - 302؟ أم الثانية، حملة 306 - 309 كما لمّح إليها ص 190 نقلاً عن النعمان؟ وقد عيّر لها النعمان (المجالس والمسايرات، 252) هذا التاريخ: 306.

ويقول الداعي إدريس إنّ يعقوب أقام سجن بغداد أربع عشرة سنة، وعاد إلى المهديّة في سنة 221، فانطلاقه كان إذن سنة 307، أي بعد بداية الحملة الثانية.

(160) في خصوص موت سليمان الصقلبيّ، يقول صاحب العيون والحدائق، 207: «فأمّا سليمان الخادم، فمات في مصر سنة 307».

فحين هلك المقتدر بادر السجّان إلى كسر باب السجن فأخرج يعقوب بن إسحاق وجماعةً من المسجونين. فسار يعقوب لوقته بعد أن أخذ شعر لحيته ورأسه ولبس جبّة صوف. ولم يزل يقصد بلداً بعد بلد فيجد النداء حيث وصل: «من جاء بيعقوب وزير الفاطميّ فله جملة من الدنانير كثيرة وعطيّات جزيلة!». ولم يكن للقاهر العبّاسي لمّا استخلف شغل غير طلب يعقوب بن إسحاق، ويعقوب يجتمع في كل بلدٍ بمَن فيه من دعاة الإمام (عم)، وهم في (ط154) التقيّة ويسترونه من بلدٍ إلى بلدٍ حتى وصل إلى مصر بعد خوف عظيم وتعب مهول. فقصد موضعاً يسمّى درب العصافير، وإذا بواحدٍ قد عرفه، والنداء * عليه بمصر، فضرب بيده إليه وقال: «نصيحة للسلطان!» وكان يعقوب فيما يقال قوياً شديدَ البأس فَضَبَطه يعقوب وجعل ثيابه على وجهه وصاح [يعقوب]: هٰذا رافضيّ! وتكاثر (ر104أ) الناس عليه فانسلّ يعقوب إلى مسجد بدرب العصافير، وقد يئس من السلامة. ولم يزل به إلى العتمة. فعرفه بعض المصلّين في المسجد، فلم يكلّمْه حتى إذا أطفئت القناديلُ عمد إلى يعقوب فتطارح عليه، وجعل يقبِّل رجليه/ ودعاه إلى منزله وأخرج إليه وَلَدَه فقال [لهم]: «هٰذا مولاكم». وبقيَ مع ذلك الرجل، والنداء عليه بمصر غيرُ منقطع. وجعلت الحرس على الجسر الذي يعبر به من الجزيرة إلى النيل رصداً ليعقوب، وكذلك جُعلت الخيلُ والرَّجْل في موضع يعرف بذات الحمّام على محجّة من يسير إلى المغرب. فلم يكن أحد يجوز حتى تصحَّ عندهم معرفتُه.

مغامرات يعقوب في طريقه إلى المهديّ

دش 74

221

وحين بلغ ذلك يعقوب بقِي منقطعاً ووقف متحيّراً، واشتغل بذلك قلبه وضاق صدره، حتى إنّ زوجة الرجل الذي هو معه ضمنت أن تسير به [على] الجسر في نسوةٍ معها. فقدّم يعقوب غلاماً له قد اشتراه، بزاده وحوائجه، وأخذت تلك المرأةُ نسوةً فتزيّى يعقوب

بزيّهنّ، وقد أخذن آلة الحمّام معهنّ. فحين صاروا في وسط الجسر وثب أحد الحرس فضرب بيده على يعقوب، فأكثرت المرأة الصياحَ ومَن معها من * النساء وقلن: «نحن بنات عواتق!» والتأمت العامّة فلم يمكّنوه من كشف وجه واحدةٍ منهنّ. وتخلّص وصار إلى الجزيرة واستأجر منها دليلاً واثقاً بمعرفة الطريق. فضلّ الدليل عن الطريق فما شعروا حتّى وقعوا وسط الحرس، وكان ذلك ليلاً، فقالوا: «من أنتم؟ وما حاجتكم؟» فقال يعقوب التميمي: «أنا رجل تاجر ولي ولَدٌ كان موسراً وبلغني أنّه مات، وقد خرجتُ مسرعاً وخشِيت أن يقبض السلطان/ ما كان لولدي». وأرادوا منعه، فسأل بعضهم أن يجيزه، وأراد أن يعطيه خمسين ديناراً فأبى قبولها واجتهد في خلاصه فسار من ساعته.

دش 75

إفلاته من الحرس المصريّ في زيّ امرأة

222

فلمّا انتهى إلى برقة كتب إلى أمير المؤمنين المهديّ بالله (صلع) يعرّفه خبره[161] وما منّ الله عليه بفضله وبركته. فسيّر الإمام (عم) العساكر لتلقّيه وفرح بخلاصه.

وكانت له ولأخيه خليل منزلة جليلة عند المهديّ بالله وعند القائم بأمر الله. فلما وصل إلى المهديّة جلس أمير المؤمنين المهديّ له بالقصر المعروف بالمنارة، وخلع عليه وعلى غلامه. وعاد إلى ما له من الخدمة الجليلة، والتشريف بالخصال الجميلة. وكان وصوله إلى المهديّة في سنة إحدى وعشرين.

وفيها مات صاحب مصر المسمّى تكين.

وفاة الداعي الطالبيّ أبي عليّ «باب الأبواب»

وتوفّي الشيخ أبو علي الحسن بن أحمد بن داود بن محمد ابن ميمون بن عمرو بن عبد الله بن مسلم بن عقيل بن أبي طالب

---

(161) هنا يبدأ سقط طويل من المطبوع.

ابن عبد المطلب بن هاشم الداعي المعروف بباب الأبواب[162] قدّس الله روحه، يوم الخميس لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأوّل سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة. وصلّى عليه القائم بأمر الله وتولّى دفنه.

وكان الداعي الحسن بن أحمد من العلماء الأعلام أهل الفضل والسابقة مع الأئمّة/ (عم)، وله تأليفات جمّة، منها الكتاب المعروف بـ «أمّهات الإسلام»، ردّ فيه على الفلاسفة المعطّلين، وعلى الأمم المخالفين للإسلام، واحتجّ فيه على إثبات التأويل، وأوضح في وجوبه الدليل. وكان له عند الأئمّة (عم) المكانة الجليلة والمنزلة الرفيعة. وكان أيّام سار المهديّ من المشرق، في مصر يدعو إلى الأئمة (عم)، ثم وفد على المهديّ بعد ظهوره. وأمره إلى بلاد الروم (ر 105 أ) ليدعوَ إلى الإسلام، ويدلّ المسلمين على مذهب الأئمّة عليهم السلام، فانتهى أمره إلى ملك الروم فحبَسه فأقام في حبسه خمسة أعوام. ثم أذن الله (تع) بإطلاقه فأطلق. وقد ذكر، فيمَا أتى عنه، ما كان من الشكّ، وما عَرَا من الفتنة أيّام المهديّ بالله (عم) وقصة أبي عبد الله وخبر أبي العبّاس فقال: «إنّي كنت أسيراً في بلاد الروم في تلك المدّة، ولو كنتُ في الحضرة لجلّيتُ الحَيرةَ، وأزلتُ الشبهةَ، فإنّ مولانا أمير المؤمنين كالشمسِ الظاهرِ الباهر نورُها التي لولا أنّها يخلفها القمر للتعديل والتبريد، لما كان نبات لما في الخلقة من النشوء، و[لـ]ـزادت عليه الحرارة: فكذلك المهدي بالله (عم)، أعشى نورُه الأبصار، وظهر من/ فضله ما بهر الأفكار، فكان الناس فيه كما كانوا في جدّه أمير المؤمنين عليّ (عم): ما بين

223

224

(162) باب الأبواب: مرّ ذكره في خبر مسير المهديّ إلى سجلماسة (ص 127 - 128) وكان أبو علي داعياً بمصر ورغب إلى المهدي أن يسير معه إلى المغرب، فقال له انتظر أمري هنا، ولم يخبرنا الداعي إدريس بموعد قدومه إلى المهديّة. هذا، وقد أسقط الدشراوي خبره من مقتطفاته.

غال مفرط، ومقصّر متخبّط».

فلقوّةِ علم الداعي أبي علي الحسن بـن أحمد، وثقته به، تكفّل أن لو كان حاضراً لاعتدلَ الأمرُ وقلّ الشرّ.

وبقي بعد رجوعه من بلد الروم على خـدمة الأئمّـة (عم) وإقامة الدعوة، وإنشاء الكتب وتصنيفها حتى أتته الوفاةُ سعيداً، بعد أن عاش في طاعة الله وأوليائه حميداً.

ولده أبو الحسن محمّد يخلفه في الدعوة

وأقام الإمام (عم) بعد وفاة الداعي أبي عليّ ولدَه أبا الحسن محمد بن الحسن بـن أحمد فجعلَه مكانَه في الدعوة، وحفظِ بيت المال، وأجراه على ما كان والدُه عليه من الأحوال.

دش 76

مرض المهديّ . .

وابتدأت العلّة مع الإمام المهديّ بالله (عم) * في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة. وكان دعاتُه وأولياؤه يزورونَه ويختلفون إلى عنده ويدعون لـه. ودخل في بعض الأيّـام جماعـة من شيوخ الـدولة كالبغدادي وأبي سعيد الضيف[163] وغيرهما لزيـارة أمير المؤمنين (عم)، ومُنع خليل بن إسحاق (ر 105 ب) عن الدخول معهم، وكان شاعراً بليغاً، فكتب إلى أمير المؤمنين (عم) بهٰذه الأبيات:

(طويل)

حلفت، وإن قلتُ الذي ليس في قلبي فلا غفر الله المُهيمِنُ لي ذنْبي

225

/ لأنتَ، أميرَ المؤمنين، على الظمأ أحبُّ إلى قلبي من البارد العذب

ووالله ما أدري إذا غبتَ ساعة، وداداً وشوقاً، أين عقلي ولا لبّي

(163) أبو سعيد الضيف: هو الذي أخرجه المهدي إلى صقلّيّة سنة 304 بعد الاضطراب على ابن قرهب. انظر ابن عذاري، 174.

أما البغدادي، فلا نعرفه، وقد ذكر في المجالس والمسايرات، 216 على أنّه من خاصّة القائم.

لأنّك يا خيرَ البريّة كلّها   إمامي الذي أرجو به الفوز من ربّي

5 أتيتَ ببرهانٍ من الله واضحٍ   وفسَّرتَ ما استعمى علينا من الكتب

فأصبح دينُ الله بعدَ دروسه   جديداً كما أنبَا به جدُّك المنبي

وقد سعِد الأشياخُ منك بنظرة   وفازوا بها دوني فأوجعني قلبي

* فدمتَ على الأيّام في كلّ نعمة   مليكاً على أهل المشارق والغرب

دش 77

فلمّا انتهت الأبيات إلى المهدي بالله (عم) أمر بدخوله من ساعته، فدخل إليه وأنشد الأبيات بين يديه.

وتزايدت العلّة بأمير المؤمنين المهديّ بالله صلوات الله عليه حتى كانت وفاته بالمهدية في ليلة الثلاثاء للنصف من شهر ربيع الأوّل سنة آثنتين وعشرين وثلاثمائة (3 مارس 934)، وعمرهُ يومَ وفاته، صلوات الله عليه ورضوانه ورحمتُه وبركاتُه وسلامه، ثلاث وستّون سنة، لأن مولده كان في سنة ستّين ومائتين.

... ووفاته (15 ربيع 1 - 3/322 مارس 934)

وكتم أمير المؤمنين القائم بأمر الله، سلام الله عليه، خبر وفاته مائةَ يوم. ثمّ أظهر نعيَه يوم الثلاثاء لخمس بقين من جمادى الآخر من السنة المذكورة، وأظهر عليه من الحزن ما لم يعرف من أحدٍ من قبله، فنِيحَ/ عليه في جميع أمصار المغرب ومدنها وبواديها، ورُثِيَ بمراثٍ كثيرة. وممّن رثاه (صلع) عثمان بن سعيد الصيقل[164] من أهل القيروان فقال:

226

(متقارب)

وَهَتْ مِررُ الصبر فانحلّتِ   ورثّت عُرى الحزم فاجتثّتِ[165]/

(164) عثمان بن سعيد بن الصيقل: شاعر من موالي الأغالبة. استقدمه الحكم الثاني إلى قرطبة، ويبدو أنّه مثل أضرابه من شعراء السنّة تأرجح بين الولاء للفاطميّين والعداوة لهم. انظر: رياض النفوس 477/2 هامش 94.

(165) مرر الصبر: ج مرّة بالكسر، وهي القوّة والفتلة، كما في قوى الحبل المفتول

وأيٌّ سبيل إلى سلوة وأوعيةُ الدمع قد فضّت؟

دش 78 * وكيف العزاء وقد خُدّدت خدودُ الخرائد واربَدّت؟

جنودُ التجلّد قد ولّت وألويةُ الوجد قد صُفّت

5 وداهيةٍ قد أتت فَجأةً فمنها المسامعُ قد سُكّت

رثاء ابن الصيقل للمهديّ ألَمّتْ فلم أرَ لي مذهبا كأنّ المسالكَ قد سُدّت

فأومأتُ أرمُق نحو السما وأرنو إليها هل انشقّت

ألا ليتَ شعريَ هَلْ مَيَّزَتْ أكفُّ المنيّة مَن بزّت؟

وهل علمَت من رَمَتْه الخطوبُ وهل درتِ الأرض من ضمّت؟

* * *

10 إمامي الذي اخترمَتْه المنو ن، لو قد ترى أنه، استحيت[166]

فليتَ الحوادث لم تخترِمْه وليت يدَ الدهر قد شُلّت

وقائلةٍ إذ رأت عَبرتي سجاما على الخدّ قد سَحّت:

جزعتَ وقد كنتَ جَلْداً على صروف الخُطوب إذا كرّت

- وكيف العزاءُ ولم تدرِ ما تضمّن قلبي وما قَضَتِ؟ -

15 لأيّةِ أحدوثةٍ أسعدَت شؤونُ جفونك فانهلّت؟

أكُوّرت الشمس أم زُلزلت جبالُ البسيطة أم دُكّت؟

227 /فقلت لها: الخطب فوق الذي ظننتِ وأضعافِه، فاصمتي!

فلا غرو أن سَفَحَتْ عَبرتي ولا عذر إن لم تَفِضْ مهجتي

- ثوى علَم الأرض فارتجّت ومالت من الوجد فانهدّت

20 وكادت تزلزل بالراسيات لإحدى الكبائرِ إذ حلّت

* * *

فلمّا تجلّى إمامُ الهدى عليه السلام، لها، قرّت

ولو لم يسُسها بتدبيره أبو القاسم المصطفى، خرّت

---

(166) هكذا في الجميع، والتركيب غريب ولعلّه يعني لو رات أنّه هو، المهديّ. . .

وألبستِ الأرضُ جلبابها لفقد الخليفة فاسودّت
ولمّا بدا القائمُ المرتضى وقابَلَها نورُه، ابيضّت
25 وأقسَمتِ الريح إذ بان من تُباريه بالجود: لا هبّتِ
فلمّا سَرَتْ نفحاتُ الإمام واستنشقت عَرفَهُ حنّت
فأزمعَتِ المزنُ إن غابَ مَن له ينزل الغيثُ: لا درّت!
فلمّا رأت سَيْبَ كفّ الإمام لم تتمالك بأن أرْوَتِ
فأولع بالجوّ إظلامُهُ وأخفقت الأرض فاغبرّت[167]
30 وذابت نفوس الورى رقّةً لفرط الرزيّة فاعتلّت
فلولا الإمام وإنعاشُه قلوبَ الرعيّة لانفتّت
فيا حُجّة الله في أرضه عزاؤك عنها وإن جلّت
لِيَهْنَا الخلافةَ ما أحرزت من المجد، والشرَف المُصْلَتِ[168]

228 /وخسف القمر في الساعة التي توفّي فيها أمير المؤمنين المهدي بالله (عم) خسوفاً كلّيّاً. وفي اليوم التاسع والعشرين من الشهر الذي توفّي فيه (صلع) كسفت الشمس.

ولم ينتقل (صلع) ولم يفارق هٰذه الدار حتى أقام أمير المؤمنين القائم بأمر الله (عم) لولاية عهده، ونصّ عليه بالخلافة من بعده.

والحمد لله جاعل الإمامة في أهلها، القائل: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ (البقرة: 106) *[169]. وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله أمراء الإمامة في عقدها وحلّها، وسلّم، وحسبنا الله ونعم الوكيل. دش 79

---

(167) أخفقت: اضطربت وثار عجاجها.

(168) المصلت: الظاهر البارز.

(169) يوقف الدشراوي هنا مقتطفاته من الكتاب، ولا يستأنفها إلّا مع قيام أبي يزيد.

الفصل الخامس

خلافة القائم

(946/334 - 934/322)

ذكر نبذ مما كان في أوان خلافة أمير المؤمنين القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وعلى الطاهرين من آبائه والأكرمين من أبنائه

وبويع أمير المؤمنين القائم بأمر الله أبو القاسم محمد بن عبد الله، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه المنتجبين بعد وفاة المهدي بالله أمير المؤمنين (عم)، وعمره سبع وأربعون سنة. فقام مقامه، واقتفى سيرته وآثاره وأحكامه، ونصب لدين الله أعلامه. وهم آل الرسول (ﷺ)/ حقّاً، والأئمّة من عترته الذين بشّر بهم ووعد بظهورهم، فملأوا الأرض عدلاً وقسطاً، بعد أن ملئت جوراً وخبطاً. وكانت سيرتهم سيرة محمد جدّهم (ﷺ)، وهديهم هديَه، وهم المصطفَون من ذرّيّته، والطاهرون من عترته، الذين جرى النصّ فيهم من واحد إلى واحد، وفي مولود عن والد، حتّى انتهى إليهم من عليّ أمير المؤمنين، عن محمّد خاتم النبيّين المرسلين، عن جبرائيل الروح الأمين، عن رب العالمين. ليسوا كمن ولّت العامّة[1] على أنفسها، ونصبته لدينها، بغير وحي من الله (تع)، ولا نصّ من رسوله، ولا تنزيل من كتابه.

229

سار الأئمّة سيرة جدّهم رسول الله . .

فلمّا كان العدل سيرتهم، والتقوى ظاهرهُم وسريرَتهم، وشريعة محمّد (ﷺ) شريعتَهم، يحرّمون ما حرّم ويُحلّون ما أحلّ،

---

(1) العامّة في اصطلاح الإسماعيليّة هم غير الشيعة، من السنّة خاصّة

ولا يرخّصون في تضييع فرض من فرائض الله (عج)، ولا في إتيان شيء من المحرّمات، وينهَون عن المعاصي الموبقات (ر 107 ب) ويشدّدون فيها أعظم التشديد، ويقيمون على ما خالف حكم الله الحدود، [فَهُمْ] ليسوا كمن ادّعى الإمامة من بني أميّة وآل العبّاس، الذين فتنوا الناس، وترأّسوا عليهم بغير برهان صادق، ولا نصّ من النبيّ الناطق، فأباحوا ما حرّم الله في القرآن/ وشربوا المسكر غيرَ منتهين عنه وجاؤوا بالإفك والعدوان، وجمعوا للعزف والقيان، وشرَوها لذلك بغالي الأثمان، وأباحوا جميع الملاهي، وأقبلوا على دنياهم إقبال الساهي اللاهي. فحين لم يجدوا في الأئمّة الطاهرين من آل رسول الله (ﷺ) تلك السيرة، ووجدوهم يدعون إلى الله (تع) على بصيرة، يأمرون بالحقّ بعد أن يأتمروا، ويزجرون عن المعاصي بعد أن ينتهُوا عنها وينزجروا، لم يجدوا فيهم مطعناً، ولا استطاعوا أن يطفئوا ما آتاهم الله من النور الباهر والسناء، ووجدوهم علماء لا يعلَّمون، فقهاء لا يؤدَّبون[2]، طعنوا في أنسابهم عدواناً وظلماً، وبغياً وإثماً، فقالوا: هم أولاد ميمون القدّاح، لكي (ط 159) يطفئوا نور الله الواهج الوضّاح.

230

.. فحسدهم الخصوم وطعنوا في نسبهم..

وميمون القدّاح[3] رحمه الله، هو من شيعتهم وأوليائهم. وقد ذكرنا[4] أنّه كان حجّة الإمام إسماعيل بن جعفر (عم)، وولده عبد الله بن ميمون كان حجّة[5] محمّد بن إسماعيل وبنيه، وداعياً

(2) في علم الأئمّة، الحاصل من غير تعلّم، انظر: المجالس والمسايرات، 147.

(3) في خصوص الشكوك في نسب الفاطميّين، وحقيقة المهدي والقائم، ينظر: المجالس والمسايرات، 410 - 411 والهوامش، وكذلك ص 95 و 124 ويمكن أن نضيف إليها كتيّب حسين بن فيض الله الهمداني: في نسب الخلفاء الفاطميين.

(4) تقدّم ذلك في السبع الرابع، 335.

(5) الحجّة: انظر المجالس والمسايرات، 94، هامش 1 وسيأتي بعد قليل أنّ الحجّة هو وليّ العهد الموصى إليه بالخلافة.

إليهم يوضّح فضلهم لمتّبعيه، وهو عبد من عبيدهم، وحدّ من حدودهم.

والأئمّة (عم)، فمن ذرّية جعفر الصادق الأمين، الذي هو من أفضل ذرّية عليّ أمير المؤمنين، وانتسابهم إلى فاطمة الزهراء نجلة/ سيّد المرسلين (ﷺ). فمن زعم غير ذلك، فهو مفتر آفك. وكانوا من بعد محمد بن إسماعيل قد دخلوا (ر 108 أ) في كهف التقيّة، وأخفَوا أسماءهم وأنسابهم لعظم المحنة والبليّة، خيفةً وخُفْيةً من عدوّهم، كما خرج موسى الكليم (عم) خائفاً يترقّب[6]، واستتاراً من أحزاب الشياطين حين غلب ضدّهم وتغلّب. وكانت الدعاة وقت التقيّة يُخفون اسم الإمام، وربما تسمّى واحد من الدعاة بأسمائهم، تقيّةً عليهم وسَتراً، وقد قدّمْنا مِن ذكر ذلك فيما سلف من الكلام، حتّى طلعت شمس الحقّ من مغربها، وبدت من حجبها، فأظهر الله أمره وهم كارهون، وجاء الحقّ ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: 118).

231

.. كما فعل الغزالي تقرّباً لبني العبّاس

وإنّما فعل ذلك الغزاليّ وأشباهُه، تقرّباً إلى الخليفة البغدادي العباسي. ولا شكّ أنّ الغزاليّ كان مناصباً لأهل بيت محمّد، مبغضاً لهم، وهو الذي ذكر أن الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب (صلع) خرج على يزيد بن معاوية، ولعن الغزالي مَن يلعَنُ يزيد بن معاوية، لعنهما الله وأوردهما النار الحامية! ذكر ذلك (ط 160) القاضي ابن خلكان في تاريخه المشهور[7]، وذلك فيه مذكور.

---

(6) اقتباس من سورة القصص، آية 21

(7) أي. وفيات الأعيان، ترجمة الكيا الهراسي رقم 430 من طبعة إحسان عبّاس. وليس صحيحاً أن الغزالي لعن من يلعن يزيد، بل استنكر لعن المسلم بوجه عامّ قائلاً: لا يجوز لعن أحد ممّن مات من المسلمين، ومن لعنه كان فاسقاً عاصياً لله تعالى.

ولم يرد في هذه الفتوى طعن في النسب الفاطميّ. وحتّى في كتاب «فضائح =

232 فلعداوته - أعني الغزالي - ونصبه، طعن/ على الأئمّة المهديّين، وجاء في نسبهم بالبهتان المبين، فاتّبعه على ذلك أكثر العامّة المبغضين لآل الرسول، الحاسدين لهم على ما آتاهم الله من الفضل الجليل.

وقد ذكر ذلك الشريف الزيديّ الحسينيّ، وهو إدريس بن علي بن عبد الله، في كتابه المسمى «كنز الأخيار في السيَر والأخبار»[8] وقال: «وما يدريهم بذلك، وعلي بن أبي طالب (عم) قد سمّي «آدم الأصغر» لكثرة ذرّيته وتشعّبهم في الآفاق». وهذه من الشريف المذكور، سلوكاً (ر 108 ب) لطريق الإنصاف، وميلاً عن المين الذي سلك فيه أهل الخلاف، ألا لعنة الله على الكاذبين، الذين يُضِلُّونَ الناس بِغَيْرِ عِلْمٍ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً، ولله القائل: (كامل)

لي حيلةٌ فيمن ينـمّ وليس لي في الكِذْب حيلة
من كان يخلُق ما يشاءُ، فحيلتي فيه قليلة[9]

ولو تقصّينا القول في هذا لطال، واتّسع فيه المجال، وفي أقلّ قليل ممّا ذكرناه ما يهدي إلى السبيل. والصدق لا يبطله الإفك، واليقين لا يمحوه الشك. ولا شك، والحمد لله، أنّ مولانا أمير المؤمنين القائمَ بأمر الله ابنُ المهدي بالله أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن عليّ بن الحسين/ بن علي بن أبي

القائم ينتمي إلى جعفر الصادق لا إلى ميمون القدّاح

233

= الباطنيّة» (نشر قولدزيهر، ليدن، 1916)، لا نجد إلّا دفاعاً عن شرعية الخلافة العباسية، وتكذيباً لمقالات الشيعة في العصمة والنصّ والاختصاص بإرث الرسول (ﷺ)، دون وصول إلى تكذيب انتسابهم إلى آل البيت

(8) لا ذكر لهذا الكتاب ولا لمؤلّفه في قائمتي إيفانوف ويوناوالا.

(9) البيتان في النجوم الزاهرة، 18/4، دون عزو صريح.

طالب وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وعليهم أجمعين، وعلى آلهم الطاهرين:

(كامل)

نَسَبٌ كمطّردِ الكُعوب مقوّمٌ ما فيه من أوَدٍ ولا عُرجونِ[10]

بل كما قال أبو الطيّب أحمد بن الحسين حيث قال:

(كامل)

نَسَبٌ كأنّ عليه من شمس الضحى نوراً، ومن فلَق الصباح عمودا[11]

وإنّ الإمامة، كما قال الصادق جعفر بن محمّد «في العقب تجري في واحد عن واحد، ولا ترجع القهقرى، ولا تعود إلى الوراء» والحمد لله على ما آتانا، ودلّنا عليه من ولاية أوليائه وهدانا.

وقد ذكر ذلك الإمام المعزّ لدين الله (عم) في سجلّه إلى داعيه بالسِّند حليم بن شيبان، فقال في ذلك السجلّ: «قال الصادق (عم): الإيمان والعبادة التصديق بأمرنا، واعتقاد إمامتنا، وانتظار قائمنا، والصبر على ذلك حتّى يأتي أمر الله. وما ذكرتَه من تهويس القوم وتخاليطهم، ممّا ذكرته في مسائلك، من ذكر الخلفاء السبعة، وأنّ النهاية في السابع منهم، فهذا[12] من التوقيت مثلما قدّمنا ذكره. وذلك أنّهم لمّا وقّتوا (ر 109 أ) في محمّد بن إسماعيل (عم) ما وقّتوه، ومات، وقالوا عنه ما قالوا، زعموا أنّه استخلف خليفة من غير ولَدِه، واستخلف الخليفةُ/ بعده إلى أن بلغوا سبعة، زعموا أنّ 234

---

(10) أهل اللغة لا يتّفقون على معنى الاعوجاج في لفظ «عرجون»، فالنون عند بعضهم أصليّة. والشعر يشهد للاعوجاج: «.. يمشي على مثل معوجّ العراجين» (الحيوان، 162/7).. هذا ولا نعرف قائل البيت.

(11) لا يوجد هذا البيت في ديوان المتنبّي (الواحديّ، العكبريّ، البرقوقيّ).

(12) في الجميع: وهذا. وآثرنا أن نجعلها خبراً لقوله: وما ذكرته...

أوّلَهم عبدُ الله بن ميمون القدّاح، وكل ذلك ليثبتوا قولهم الذي يقولون به: أنّ الإمام بعده وأنّ الذي استخلفه هو من عَرَض الناس، فقطعوا ما أمر الله به أن يوصلَ وخالفوا قوله (تع): ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾ (الزخرف، 28). وكان لذلك سبب أوجب ذكره: وذلك أنّه لما فشت دعوة محمّد بن إسماعيل (عم) طلب المتغلّبون من بني العبّاس مَن يشار إليه بالأمر، فاستترت الأئمّة وكنّى الدعاة عن أسمائهم تقيّة عليهم بما هو لهم ويليق فيهم فقالوا: الإمام من ولد محمّد بن إسماعيل عبد الله - وهو عبد الله - كما قالوا: ابن ميمون القدّاح - وهو كما قالوا، ابن الميمون النقيبة القادح زند الهداية، الموري نور الحكمة - وجرت الكناية على من بعده من الأئمة، بأمرهم [وعلى] ما رسموه لدعاتهم. ثمّ سقط ذلك إلى من لم يفهمه بعد الماضين، فاحتمله على ظاهره كما ذكرناه أوّلاً، فضلّ وأضلّ عن سواء السبيل. ولو أنّهم فعلوا ما أمرهم الله به من الردّ إلى أوليائه لعلمه الذين يستنبطونه منهم كما علمتَ الآن. لكنّ الأعمى، إذا لم يكن له قائد ولا عصا، تردّى في هوّة لا مخلص له منها، ومن استكبر ضلّ وغوى.

احتجاج المؤلّف برسالة المعزّ...

235 «فإيّاك أن تقول أو تعتقد أنّ/ الله (عج) قد أهمل الخلق. ولا يهملهم طَرفة عين من قيام إمام من أعقاب الرسل والأئمّة، يقوم بأمر الأمّة. فإن قال قائل بخلاف ذلك فقد أشرك، وهو قول قد شاع في دعوتنا وذاع على ألسنة جماعة ممّن ينسب إلينا (ط 162). فينبغي لمن انتهى إليه قولنا (ر 109 ب) هذا أن يلطف في تقريره وبيانه عند من سبق ذلك الشكّ إليه، ويقرّره حتّى يزول الشكّ من صدورهم، ويثبت الحقّ من ذلك عند أهله ومن يرجى صلاحه وقيامه إلى ما هو أعود نفعاً عليه في دينه ودنياه، وآخرته وأولاه، بحول الله وقوّته»[13].

. إلى حليم بن شيبان داعي السند...

(13) سينقل الداعي إدريس في السبع السادس - ص 81/2 و 92 - باقي الرسالة. أمّا =

هذا قول المعزّ لدين الله أمير المؤمنين في سجلّه، وهو سجلّ طويل معروف، فيه فنون من العلم والآداب، وحضّ على صالح الأعمال، وهذا هو الحقّ اليقين، والصدق المبين، والحمد لله ربّ العالمين.

نرجع إلى ما نحن فيه. قال منصور الكاتب العزيزيّ الجوذريّ

= الآن، فهو يبادر باقتطاف هذه الفقرة منها، لعلاقتها بقضية النسب الفاطمي، أي بشرعية إمامة المهدي الذي قيل فيه إنّه كان إماماً «مستودعاً»، نيابة عن الإمام الحقيقي، وهو القائم بأمر الله. وبالرغم من تفسير المعز هنا لجذور هذه البلبلة التي أصابت حتى الأوساط الفاطمية القريبة منه، فإن المشكل يبقى قائماً: هل وجد ميمون القدّاح حقّاً؟ أم كان هذا الاسم «كناية» لا غير عن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن جعفر الصادق، ليمن نقيبته وقدحه لزناد الحكمة؟ والمتسمي - تقيّة - بـ «ميمون»، هل هو محمّد بن عبد الله (أو محمد بن إسماعيل) أم ابنه عبد الله بن محمد (أي عبد الله بن ميمون)؟

ذلك أنّ توضيح المعزّ يتضارب مع توضيحات المهديّ في رسالته إلى أهل اليمن (انظر: في نسب الخلفاء الفاطميين، 10) إذ يقول: «ذكروا إسماعيل ومحمد بن إسماعيل، وهما لا يوجدان» - أي لا يوجدان بهذا الاسم، وإنّما الاسم الحقيقي هو: محمد بن عبد الله بن جعفر - في حين أنّ المعز يقر وجود محمد بن إسماعيل - ووفاته - بهذا الاسم

ولمحاولة فهم هذه المشكلة، يمكن الرجوع إلى كتيّب برنار لويس: «في أصول الإسماعيلية»، وإلى دراسة الهمداني لرسالة المهديّ - وبالخصوص الشجرة التي رسمها في القسم الانجليزي ص 22 - وكذلك إلى دراسة شتارن Stern عن التيارات المارقة في زمن المعز Heterodox Ismailism. وقد نشر رسالة المعز إلى حليم بن شيبان - ص 26 من الفصل -.

كما يمكن الاستفادة من تعليق ماريوس كانار - هامش 1 ص 304 - في ترجمته لسيرة جعفر الحاجب.

ومعلوم أنّ بعض الدارسين عزوا تمرد أبي عبد الله الداعي وأبي العباس أخيه على المهدي، إلى شكهما في شرعية إمامته.

هذا، ولم يعلّق مصطفى غالب بشيء على هذه الفقرة، وهو إسماعيليّ له كتاب في تاريخ الحركة والدعوة.

رحمة الله عليه فيما رواه عن جوذر الأستاذ عبد الأئمّة (صلع) رضي الله عنه[14]:

«ولمّا نقل الله (عج) أمير المؤمنين المهديّ بالله (صلع) إلى دار كرامته ومحلّ رحمته، وأفضى بالأمر بعده إلى حجّته أمير المؤمنين القائم بأمر الله (عم) صرف إليّ النظر في بيت المال وخزائن/ البزّ والكسى، وجعلني سفيراً بينه وبين أوليائه وسائر عبيده، وإذا أراد أمراً ليكشفه في حضرته أنفذني فيه.

236

«(قال): ثمّ خصّني بفضيلة آثرني بها على جميع العالمين، وأفردني بها من بين جميع الدعاة والمؤمنين: وذلك أنّه لمّا أراد دفنَ المهديّ بالله، قدّس الله روحه وصلّى عليه، أحضرني دون جميع العالم، وقال لي، وليس إلا أنا وهو على حافّة القبر الذي يريد إنزال المهديّ بالله (قس) فيه: يا جوذر، إنّه لا يحِلّ للحجّة بعد الإمام أن يدفن الإمام حتى يقيم لنفسه حجة، ولن[15] يحلّ لي ذلك حتّى أقيم حجّتي، وقد ارتضيتك لهذه الأمانة دون سائر الخلق، وتلا عليّ هذه الآية من قول الله (عج): ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ... ﴾ إلى آخر الآية (الأحزاب، 72). ثمّ قال: آدنُ منّيَ. فدنوت منه فقال: هات يدك! فبسطت يدي وأنا خائف وجِلٌ من الهيبة التي ركّبها الله (عج) له في قلبي حتى (ط 163) كأنّه ليس هو المولى الذي كنت أُدِلّ عليه في الخطاب وغيره، أيّامَ حياة المهديّ بالله، قدّس الله روحه. فقال لي: أنا آخذ عليك

نقل عن سيرة جوذر في تعيين المنصور...

(14) سيرة الأستاذ جوذر، 39 - 42 وقد نقل المؤلّف نصّ السيرة بشيء من التصرّف والحذف. وقد نبّه ناشرا السيرة - تعليق 28 - إلى تضارب كلام جوذر مع كلام النعمان في المجالس والمسايرات، 448 و468 (وانظر الهوامش) في خصوص علم المنصور بتعيينه وفي خصوص مدة الكتمان: سبع سنين أم اثنتا عشرة؟

(15) في الجميع: ولم.

عهدَ الله وغليظ ميثاقه أن تكتمَ عنّي، ما أُظهره لك وأكشفه. فقلت: نعم يا مولانا، صلّى الله عليك. فقال: ولدي إسماعيل هو حُجّتي ووليُّ عهدي، فأعرِفْ له له حقَّه وآكتمْ أمره أشدَّ كتمان حتى أُظهرَه بنفسي في الوقت الذي يشاء الله (عج) ويختاره. 237

... وليّاً للعهد

«ثمّ دفن المهديّ بالله قدّس الله روحه، وواراه في قبره بعد أن صلّى عليه. (وقال جوذر رضي الله عنه) فكتمتُ أمر المنصور بالله (صلع) في نفسي، لم يطّلع على ذلك منّي أحد سبع سنين».

وروى منصور الكاتب قال: وحدّثني أبو الحسن جوهر الكاتب ـ وهو المعروف بالقائد ـ أنّه سمع هذا الحديث شفاهاً من المنصور بالله (صلع) بلا زيادة ولا نقصان[16].

(قال): وكان المنصور بالله (صلع) يميل في حياة أمير المؤمنين القائم إلى جوذر كثيراً دون غيره، ويُكثر الوقوف عنده في بيته. وكان الناس في ذلك الوقت في غمرات يعمهون، قد تعلّق كلّ واحد منهم بغير سبب يثبت، بواحدٍ من أولاد أمير المؤمنين القائم (عم). وجوذر (رضي الله عنه) قد وثقت نفسه بما عوهد عليه.

محبّة المنصور لجوذر...

(قال جوذر): فلمّا كان ذات يوم أدّبتُ بعض الصقالبة الذين تحت يدي على جناية كانت منهم استحقّوا بها الأدب، وهم قيصر ومظفر وطارق[17] وغيرهم. فأدّبتهم واعتقلتهم، وكلّ ذلك في أيام

(16) حديث كاتب السيرة يدعم قول القاضي النعمان بأنّ السرّ كان معروفاً عند غير جوذر. فكيف ينسب الناشران بعد هذا إلى القاضي التدليس والوضع (التعليق 28ص 157) ؟

(17) هؤلاء عبيد صقالبة خدموا الفاطميّين، وبخاصّة المنصور أيّام فتنة أبي يزيد. فقد كان لقيصر بلاء حسن في حصار الثائر بجبل كيانة (انظر فيما يأتي ص 416 إلى 469). وسيقوى نفوذ قيصر وصاحبه مظفر حتى يطغى على الخليفة، فأمر المعزّ=

238 القائم بأمر الله (صلع)، والمنصور بالله (عم) مستتر بفضله لا يقف أحد على أمره. فلمّا اجتاز المنصور بالله (عم) بالجهة التي هم معتقَلون بها، توسّطوا به، ورغبوا إليه في التشفّع لهم. فما شعرت حتى أتتني منه رقعة بخطّه وهي:

«يعلم الله، عافاك الله وأحسن إليك وأتّم نعمتَه عليك، تجنّبي الأشياءَ (ط 164) وكراهتي أن أتكلّم في شيء من الأمور. إلّا أني، إذا ذكرت ديانتك ومودّتك وأُنسي بك، رأيت أنّ الدالّة تُسقِط الحشمة، وتوجب ألّا أشحّ عليك بنصيحة. فالذي كان من أمور هؤلاء الصبيان الخدم ـ وان كنتَ إنّما أردتَ بذلك أدبهم وتقويمهم فقد جاوزت الحدّ قليلاً. والمؤمن فرضٌ عليه واجب مثل فرض الصلاة والصيام، أن يكون رحيماً للدنيءِ والشريف، شفيقاً على المؤمن والكافر، لطيفاً بمن قرُب منه أو بعد. ولِلغَيظ سلطان شديد، قلّ من يملكه إذا هاج، ويكسره إذا فار. وقد ذُكر لجالينوس رجل من إخوانه ـ وقيل إنّه كان رجلاً شريفاً عاقلاً أديباً ـ لم يكن فيه عيب إلّا شدّة غضبه، وأنّه كان لا يملك غضبَه إذا هاج، وذُكر عن الرجل أنّه سافر معه في طريق بعيدة. (قال): فرأيته وقد غضِب على بعض عبيده فضرب العبد بالسيف ضربةً كاد أن يُفنيَه فيها. (قال): ثمّ ندم بعد ذلك وقال: يا جالينوس، تفضّل/ عليّ وعالجْ هذا الطبعَ الذي 239 أنا عليه، لعلّ أن تُنقِص به من غضبي. (قال): فقال له: إنّ هذا لا يداوى بالعقاقير والأدوية، وإنما يداوى باللسان والموعظة. (قال): فوعظه وعرّفه أن ليس أضرّ على العقل ولا أعدى إلى النفس من الغضب. (قال): فقبل ذلك وانتفع به.

= بقتلهما سنة 960/349 (انظر ص 66/2 من السبع السادس، والمجالس والمسايرات، 435، وخاصّة الهامش 42 من ترجمة السيرة).

... وعلّو أخلاقه وطيبة نفسه....

«وأنا أحبّ أيضاً أن تقبل أنت موعظتي كما قبلها ذلك الرجل من جالينوس، وتُنقص من غضبك شيئاً بعد شيء لئلّا يكون فيك خُلق مذموم، ويكونَ ما أعرِفُ من قَبولك، إطلاقَك سبيلَ هؤلاء الغلمان الذين حبستهم، من قِبل نفسك دون أن يعلموا أنّي سألتك فيهم. فإنّهم قد سألوني ذلك، وتظلّموا إليّ فيه، ولكنّي والله ما وعدتهم بأنّي أكلّمك فيهم، ولا أحبّ أن يعلموه. وبالله لولا ما أعرفه من الأنس بيني وبينك، ما ذكرتُ لك شيئاً منه، مع ما أحبّه أيضاً من الخير لك، وألّا توصف إلّا بالشفقة والرفق، لا بالشدّة والغلظة إن شاء الله».

وقد روى القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه) عن الإمام المعزّ لدين الله (صلع) ممّا رواه الإمام المنصور بالله (عم): قال المنصور بالله (صلع)[18]: إنّه لمّا كان من أمر الله في المهديّ (صلع) ما كان، لم يتقدّم القائم للصلاة عليه حتى أخذ بيدي وخلا بي، فقلّدني عهدَه وأسرّ إليّ في ذلك واستكتمني إيّاه. فوالله، ما علِم بذلك منه إليّ، بعد الله، غيري وأقمت مدّةَ حياته ثلاثَ عشرةَ سنة أنظر إلى مَن قرب منه ومَن بعد عنه يسعَون بالفساد في دولة هي لي قد قلّدني الله أمرها، وأنا كأَقَلِّ الأَبْعَدِين، لا آمرُ ولا أنهى، ولا أتعرّض لشيء أُنكره ولا أومىء إليه، ولا إلى شيء يُتَوهّم من أجله عليّ شيء ممّا أنا فيه. وأهل خاصّتي يؤذَوْن ويُستطال عليهم ويُنال منهم، فلا يجد أحد منهم عندي نُصرةً ولا قياماً أكثرَ من أن أُقصِيَهم عن نفسي وأُبعدهم عن قربي. ويُنال منّي وأُسمعَ، وتُهتضم أموالي وتُؤكل، وأنا عن ذلك كلّه بمعزل أتجرّع غُصص الغموم وأتحمّل فادحَ النوازل، صبراً على ما حُمّلت، وقياماً بما

240

.. وصبره على إهمال أمره طوال مدّة القائم

(18) المجالس والمسايرات، 448.

قُلّدت، وحفاظاً لما استرعِيتُ[19]، من أن تشخص فيه أبّهة القدرة، أو أن يظهرَ عليّ منه عِزّ المملكة. ولو بقِيت على ذلك أيّامَ حياتي ما عدوتُ ما كان منّي. ولو شئت لبسطتُ يدي ولساني وأنفذتُ أمري لأنّ الله (عج) قد جعل إليَّ ذلك، ولكنّي لم أزل [على ذلك][20] من حالي إلى أن كان من أمر الله في القائم (عم) ما كان».

241 هذا قوله (عم)، فكان ذلك منه تواضعاً لله (عج) وحفظاً لما استرعاه وليّه وقلّةَ اكتراث بالدنيا، إذ كثيرُها في أعين الأولياء حقير، وجليلها هيّن يسير، وإنّما قاموا بما قاموا منها حفظاً لدين الله وإقامة لحقّه، ورعايةً لمن استرعاهم الله من خلقه.

نقل عن النعمان في حظوة المنصور لدى المهديّ...

وقد روي عن القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه) أنّه قال[21]: «ذكر المعزّ لدين الله (صلع) الحديث الذي كنّا نسمعه قال: كان المنصور بالله (عم) حَمْلا في أيام المهديّ بالله (صلع)، وكان عند المهديّ حَمل، فوُلد المنصور ووُلد أبو الحسين، ابن المهديّ بالله. وكانت أمّه قد قالت، وهي حامل به، للمهديّ (عم): إنّي رأيتُ كأنّ القمرَ في حجري، وأنا أرضعَه. فلمّا وُلد المنصور وأُتيَ به إلى المهديّ بالله (عم) ليبارك عليه، دعا بأمّ ولده أبي الحسين، وقد ولدَته[22] فدفع[23] إسماعيل المنصورَ إليها وقال لها: أرضعيه مع ابنك!

(19) «وصيانة لما استودعت»، أسقطها الداعي إدريس، وسيتنتها في نقله الثاني لهذا النصّ (ص 520).

(20) زيادة من المجالس والمسايرات، 448

(21) المجالس والمسايرات، 542

(22) ولد المنصور برقادة في غرة جمادى 1 سنة 301 ومات أبو الحسين عيسى، عمّه وتربه، سنة 382 (ملحق 12 من اتّعاظ الحنفاء)

(23) في المخطوط: فرفع، والتصحيح من المجالس.

ففعلت مسرورة بذلك فرِحة به. فلمّا أرضعته قال لها المهديّ: أتذكرين الرؤيا التي رأيت؟

قالت: نعم، يا أمير المؤمنين.

قال لها: فهذا تأويل رؤياك.

.. مذ كان رضيعاً

ثمّ لم يلبث ابنُها أبو الحسين أن جُدِر فذهب بصره، فأيقنت أمّه أنّ رؤياها كانت للمنصور (عم) مع تأويل المهديّ (عم) لها ذلك. (قال المعزّ): وكانت بعد ذلك من اليقين والولاية لنا في غاية ما يكون عليه أهلُ الإخلاص! وكبُرت وأسنّت، وهي على ذلك. وكانت تقول لولد المهديّ (عم) ونسائه بعد وفاته: والله لقد خرج هذا الأمرُ من هذا القصر، تعني قصر المهديّ، فلا يعود إليه أبداً، وصار في ذلك القصر ـ تومىء إلى قصر القائم ـ فلا يزال في ذرّيّة صاحبه ما بقيَت الدنيا. وإذا رأت الواحدة من نسائنا قالت: هذه السيّدة، لمن كانت منهنّ قد ولدت إماماً، فيقول[24] لها بناتها: لقد كبُرتِ وخَلَّطت. فتقول: أمّا الكبر فنعم، وأمّا التخليط فلا، والله ما أنا بمُخلِّطة، ولكنّي سمعت ذلك من علم الأئمّة. (قال): ولم تزل على ذلك حتى ماتت.

242

قال القاضي النعمان: قلت: رحمها الله. قال المعزّ: نعم، ونَفَعَها باعتقادها».

شغف القائم بالحكمة...

وكان القائم بأمر الله (عم) حريصاً على العلم مؤثراً لحفظه وأن لا يقع إلى غير أهله، مؤدّباً للمتّصلين به أن [لا] يضعوه في غير موضعه، وأن لا يزرعوه إلاّ في مزارعه. وعلى ذلك جرت عادة أولياء الله (عم)، وبذلك قامت سننهم، وعليه جرت حكمتهم، كما

(24) فيقلن، في المخطوط.

روى القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه) عن الإمام المعزّ لدين الله (صلع) قال[25]: «وسمعته (عم)، وقد ذكر مَن يُظهر ما ليس له ولم يُؤْمر به من الحكمة التي يسمعها، وأنّهم إذا سمعوا منه (عم) شيئاً ممّا يمنّ به عليهم من ذلك أو وقع[26] في أيديهم شيء من هذه الكتب، فاوضوا بعض القرابة، ومن لا يجوز لهم ولا لغيرهم أن يُظهروا لهم شيئاً منها، حتّى لقد هممت أن أحرّم على نفسي[27] أن أفيد أحداً كلمة واحدة في أمر الدين. وذكر (عم) ما سبق من الأئمّة (عم) في ذلك ورسموه وأوصوا به وحرّموه على كلّ أحد أن يسترق السمع، أو ينظر في ما لم يؤذن له في النظر فيه من ذلك، أو يبديَه لأحد، إذا منّ عليه بشيء منه، من غير أربابه الذين قد أودعهم الله ذلك وجعلهم أهله ومعدنه.

243

... وحرصه على أن لا تعطى لغير مستحقّيها..

«ثم قال (عم): لمّا ألّف داعينا كتاب «الزينة»[28]، وهو كتاب

---

(25) هذا النقل من غير كتاب المجالس والمسايرات، على كثرة ما ورد فيه من تحذير منسوب إلى المعزّ في وجوب تقسيط الحكمة وقصرها على من يستطيعون فهمها (انظر المجالس، 104 و231 و305 و511) وقد ينقل الداعي إدريس عن كتاب «شرح الأخبار» للنعمان، كما ورد في السبع الرابع، 334.

(26) في الأصل: أو يقع وآثرنا العطف على. إذا سمعوا

(27) الإسناد إلى النعمان، لا إلى المعزّ.

(28) كتاب الزينة «في الأحرف ومعانيها في الكلمات العربيّة والدخيلة التي... صارت مصطلحات إسلاميّة» (الهمداني: الصليحيون، 251)، هو «أشبه بالقاموس اللغويّ وبالموسوعة الدينية في الإلّهيّات» (إيفانوف. أدب.. 24). وقال إسماعيل بوناوالا في ثبته (ص36) إنه ظهر منه جزءان، ولكنا لم نحصل عليهما.

ومؤلف كتاب الزينة هو داعي الدعاة بالريّ، أبو حاتم الرازيّ والنعمان، على عادته، يتكتّم في ذكر الأسماء، ويجنح إلى الإبهام وتوفي أبو حاتم سنة 322 بأذربيجان أو بالريّ، أي في السنة التي تولّى فيها القائم. لذلك ينبغي أن نفهم عبارة «داعينا» بمعنى «داعي الأئمّة» بوجه عامّ، وأن نقرأ عبارة «حمل الكتاب إلى القائم» بالإسناد إلى المجهول

هذا، ولا يخلو النص من غموض، ولا يمكننا توضيحه ما دمنا فاقدين للأصل المنقول عنه.

ظاهر (ر112ب) في فضل اللغة العربية ومنافع الشعر وما فيه، ومعنى اشتقاق أسماء الله (عج)، وغير ذلك ممّا يدلّ على فضل هذه اللغة الشريفة[29]، وقد ذكر فيه الأصل الذي أراده ونحا إليه ودفنه في فصوله لئلا يقف عليه إلّا صاحب المال الذي كانت بضاعته في يد داعيه هذا[30]، حُمِل هذا الكتاب إلى القائم بأمر الله (صلع) في أجزاء كثيرة وكراريس غير مجلّدة. (قال): فدفع منه إلى المنصور (صلع) أجزاء وأمره أن ينظر فيه ويتدبّره. فأطلع المنصور بالله (عم) بعض المختصّين به من الدعاة على الكتاب وأراه إيّاه، وكان القائم (عم) أحسّ في نفسه شيئاً من ذلك. فقال للمنصور: هل اطّلع أحد على ذلك أو نظر فيه؟

.. مثلما وقع لكتاب الزينة..

244

«قال: لا يا مولاي. فاستقصى في ذلك، فقال: والله يا مولاي ما رآه أحد، ولا وقف عليه إلّا فلان - يعني ذلك الرجل.

«قال: فإنّه قد نسخه.

«قال: معاذ الله. كيف ينسخه، وأنا لم أمكّنه منه؟

«فقال: والله لقد نسخه.

.. الذي نسخ - فقرىء - مخادعة للمنصور..

«فأهمّ ذلك المنصور، وسأل الرجل هل نسخ من ذلك شيئاً؟ فأنكر أن يكون قد فعل. فلمّا ألحّ عليه الاستقصاء في ذلك، أقرّ أنّه قد نسخه. قال: ويحك! كيف قدرت عليه و[لم] أمكنك منه، وإنّما كنت أدفع الكرّاسة في بعض الليل وآخذها منك في صباحه؟.

«فقال: عندي جماعة من عبيدي ممّن يكتبون. فكنت أحلّ

---

(29) هنا أقحم المؤلّف، أو النعمان، عبارة: ثمّ قال: (صلع) ورأينا أن نستغني عنها.

(30) لا نفهم هذه الجملة أصلاً: من هو صاحب المال؟ ومن هو الداعيّ؟ مؤلّف الكتاب؟ وهل ألّفه في مقابل مال؟ وليس من طبيعة الدعاة أن يأخذوا المال من الإمام، بل العادة أن يحملوه إليه.

الكرّاسة وأفرّقها عليهم ورقة ورقة فيكتبون، ثمّ أشدّ الكرّاسة وأجمع الأوراق التي كتبوها فأؤلّفها.

«فأخبر المنصور بالله القائمَ بأمر الله عليهما السلام فقال: قد أخبرتك، وأراك تضِنّ بهذا الرجل، ووالله لا انتفعت به ولا وجدت عنده ما تريده أبداً، وهو أكبر من داعينا الذي ألّف هذا الكتاب، فلْيظهرْ فضلَ ما عنده ويُجارِ هذا في علمه ويسابقْه فيه!

.. فلامه القائم على انخداعه

«ثمّ استرجع تلك (ر 113 أ) الأجزاء من المنصور (عم) ولم يُطمِعْه في باقيه. وألحّ المنصور (ص) المسألة والتضرّعَ إليه، فلم يجبه إلى شيء منه ولا أطمعه فيه. (قال / المنصور بالله (ص): فذُكر لي أنّ الكتاب عند بعض خدم القائم (عم)، فأنفذت إليه فيه فأبى عليّ وقال: لا أعطيك إلّا بأمر القائم (عم) وإذنه. ولم يطمعني فيه.

245

«فذُكر لي أنّ نسخته عند آخرَ فأنفـذت إليه فقـال: أهلاً ومرحباً. هو أهله ومعدنه. وبعث إليّ بالكتاب».

وهذا من الأئمّة (عم) تأديب لمن اتّبع أمرَهم ليقتدي بهم في آدابهم ويجهد نفسه فيما جعلوه من دأبهم. وقد قال النبيّ (ﷺ): «من نظر في كتاب أخيه بغير إذنه، فكأنّما ينظر في النار»[31]. وكثير عن أولياء الله قد أتى في صيانة العلم وحفظه، وأن لا يدفع إلّا لأهله. ولو تقصّينا القول فيه لطال الكلام واتّسع المجال. والواجب الاقتداء بأولياء الله في الأقوال والأفعال.

أساطين التأليف من الدعاة: النسفي...

ومؤلف كتاب الزينة هو الداعي أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي (قس)، وهو من الدعاة الفضلاء الذين غزر علمهم وعظم

(31) رواه ابن عبّاس في سنن أبي داود، كتاب الوتر، باب الدعاء ويبدأ بقوله (ﷺ): لا تستروا الجدر.

فضلهم وجلّ محلّهم. وله تأليفات وتصنيفات عدّة في باطن العلم والتأويل المأخوذ عن الأئمة. وقد تجارى هو والداعي أبو يعقوب السجستانيّ في التأليف[32] وأتيا بكثير من التصنيف، ممّا يدلّ على علوّ قدرهما وغزْر بحرهما.

.. فالرازي والسجستاني..

فمن ذلك كتاب «الإصلاح» لأبي حاتم، في إصلاح أشياء ممّا أورده الشيخ الحميد في كتابه «المحصول»[33]. وأتى أبو يعقوب بكتاب «النصرة»[34] نصرةً لصاحب المحصول. /

246

.. فالكرماني

وجاء بعدهما الداعي حميد الدين أحمد بن عبد الله الكرمانيّ، حجّة الإمام الحاكم بأمر الله، في كتاب «الرياض»[35] بما أبان غامض الكلام، ونظم قول هؤلاء الدعاة أحسن نظام، وكان له (ر 113 ب) فيه الفضل المبين والتبريز في العلم الذي جالَ به في حَلْبة السابقين، رضي الله عنهم وأرضاهم، ورفع درجاتهم وأحمد عقباهم، وجعلنا من المهتدين بهديهم، المقتفين لآثارهم في طاعة الله (تع) وامتثال أوامره، وطاعة أولي الأمر الذين قرن الله طاعتهم

---

(32) توهم عبارة المؤلّف أنّ السجستاني والرازي متعاصران، والواقع أنّ أبا يعقوب توفّي بعد الرازي بنحو سبعين سنة (انظر بوناوالا، 82)

(33) الشيخ الحميد هو أبو الحسن محمد بن أحمد النسفي النخشبي البزدويّ (بوناوالا، 40، و43) «أستاذ سيدنا أبي يعقوب السجستاني» كان داعياً بنيسابور، وقتله نوح السماني سنة 322 وكتابه «المحصول» هو الذي ردّ عليه الرازي بكتاب «الإصلاح».

(34) كتاب «النصرة» لأبي يعقوب السجستانيّ فيه دفاع عن آراء النسفيّ في كتابه «المحصول» (بوناوالا، 86)

(35) حميد الدين الكرمانيّ (ت بعد 1020/411) داعي العراقين للحاكم الفاطميّ. ألف كتاب «الرياض» في الإصلاح بين الشيخين أبي يعقوب في كتاب النصرة وأبي حاتم في كتاب الإصلاح (بوناوالا، 94). فترتيب هذه المؤلّفات في الزمن هو المحصول، فالإصلاح، فالنصرة فالرياض.

بطاعته وطاعة رسوله، الفائز من نجا بشفاعته، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

نرجع إلى سيرة القائم بأمر الله سلام الله عليه:

ولمّا كان بعد وفاة[36] الإمام المهديّ بالله (ص) أخرج أمير المؤمنين القائم بأمر الله (عم) يعقوب بن إسحاق التميمي لغزو الروم. فخرج يعقوب[37] من المهديّة يوم الأحد ظُهراً لستّ ليالٍ خلون من شهر رجب من سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة/ (يولية 934) في عشرين مركباً، فغزا الروم من جهة الأندلس، ووافى في طريقه مراكب الروم وفيها تجاراتهم فأخذها وأسر من فيها وتمادى في السير إلى بلد الروم، فنزل على مدينة منيعة هنالك تعرف بـ «جنوة» فقاتل من بها قتالاً شديداً فامتنعوا منه/ بسور المدينة. فما زال يقاتلهم حتى ملك عليهم سور المدينة، فقاتلوه في أزقّة المدينة، فرزقه الله النصر عليهم ببركة الإمام (عم) ويُمن دولته. فملك المدينة وجميع ما فيها، وقتل المقاتلة من النصارى والمشركين وسبى ذراريّهم وغنم جميع ما في المدينة من البَزّ والحرير والكتّان وغير ذلك، ثمّ أضرمها بالنيران وجميعَ كنائسها وقصورها وبقيّة أمتعتها ممّا ثقل حمله. وتسامع به الروم فجاؤوه من كلّ ناحية وقاتلوه، فمنحه الله النصر عليهم، فقتلهم قتلاً ذريعاً مبرّحاً. وعاد يعقوب ظافراً منصوراً، غانماً محبوراً[38]، فوافى ساحل المهديّة بجميع من كان معه، ووقف في مرساها يوم الأربعاء لأربع ليالٍ بقين من شهر

أسطول القائم يغزو جنوة..

247

(36) في «هـ»: ولمّا كان وفاة، والإصلاح من «ر».

(37) يعقوب بن إسحاق قد مرّ بعض خبره في ص 219 - 221

(38) في الكامل، 249/6 أنّ الأسطول في عودته نزل بجزيرة سردانية وقرقيسيا (أي قرسيقا كما عند الذهبيّ في المكتبة العربيّة ـ الصقليّة، 459، وليست «بسواحل الشام» كما قال ابن خلدون، 40/4).

رمضان سنة ثلاث وعشرين (ر114أ) وثلاثمائة (أغست935) . وأخرج السبي وزيّن الأسطول، ودخل المدينة بأحسن زيّ وأجمل هيئـة. وكان السبي الذين جاء بهم ثمانية آلاف نفس. وقعد أمير المؤمنين القائم في مجلس البحر، ودخل يعقوب فسلّم عليه، فأدناه وشكر سعيه، وحمد الله سبحانه على ما أتاح له، وأمر بإخراج ما يجب للغزاة وأحسن إليهم.

. . وجيشه يهزم ابن أبي العافية بالمغرب. . .

وأخرج أمير المؤمنين القائم بأمر الله (عم) ميسوراً الخادم الصقلبيّ في عسكر عظيم إلى المغرب. فانتهى إلى فاس ولقي موسى[39] بن أبي العافية، وكان قد نافق وخالف. وهو في جمع عظيم. فهزمه ميسور الخادم، وغنم ما كان معه واستولى على فاس وأتى بابـن [مـوسى][40] بن أبي /العافية أسيراً. فوقف في السجن حتى أخرجه المنصور بالله (عم) مع جماعة من المسجونين بعد الفتح، وعفا عنهم.

248

وثار رجل يعرف بابن طالوت ينتمي إلى قريش. وكان محمّد ابن طـالوت هـذا من بعض كتّاب العـراق[41]، فصار إلى نـاحية طرابلس، وزعم للبربـر أنّه ابن المهـديّ، فقامـوا معه واتّبعـوه، واجتمع له منهم جماعة كثيرة. فزحف إلى مدينة طرابلس ليأخذها

---

(39) في الجميع. أما موسى، والصواب: موسى، كما في المقتبس، 348/5 و386 و427.

(40) في الجميع: بابن أبي العافية، ممّا يوهم أنّ المأسور هو موسى والصواب أنّه ابنه «البوري بن موسى فعرّبه إلى المهديّة» (الاستقصاء، 190). وانظر: ابن عذاري، 209/1 ومات مـوسى سنة 326 أو 937/328 - 939 «قتـل ببعض بلاد ملوية».

(41) «العرائف في الأصل وفي المطبوع، والإصلاح من «ر». وأرّخ ابن عذاري، 209 ثورة ابن طالوت بسنة 322 في حين أنّ صاحب كتاب العيون والحدائق، 339، أخّرها إلى 328.

.. ورعاياه بطرابلس يقتلون ابن طالوت الدعيّ

في عدد عظيم، فقاتله أهل طرابلس وهزموه وقتلوا جماعة من أصحابه. ثمّ تبيّن للبربر بعد ذلك إفكه وبهتانه الذي افتراه، وتحقّق بُطلانُ ما ادّعاه، فقتلوه وأتوا برأسه إلى أمير المؤمنين القائم بأمر الله.

[ثورة أبي يزيد]

وخرج أبو يزيد الأعور الدجّال النكاريّ مخلد بن كيداد[42] اللعين بجبل أوراس[43] في سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة. وجبل أوراس هذا، على ما حكاه الرواة من أهل السير والتواريخ[44]. جبل عظيم يتّصل إلى داخل المغرب، فيه جماعة (ر 114 ب) من جميع قبائل المغرب.

وكان أبو يزيد أباضيّ المذهب، يرى رأي الخوارج المارقين، ويتولّى أبا بكر وعمر، ويبرأ من أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (صلع) ومن عثمان، ويستحل سبيَ ذراري المسلمين ممّن خالف رأيه واعتقاده، ويكفّرهم.

---

(42) في الكامل، 302/6، أنّ أبا يزيد بدأ دعوته التمرّديّة منذ «أن خرج أبو عبد الله إلى سجلماسة في طلب المهديّ»، أي منذ سنة 296. ويؤرّخ المقريزي (اتعاظ، 109) بداية تحرّكه سنة 303، وابن خلدون، 41/4، سنة 316. ولا يذكره ابن حمّاد، 18، إلاّ ابتداء من سنة 332 وهذه المصادر القديمة لا تقول إنه كان أعور

(43) جبال الأوراس تقع بشرقيّ القطر الجزائري بين قسنطينة شمالاً وبسكرة جنوباً، وتوجد فيها أعلى القمم. ومنها انطلقت الثورة التحررية المباركة في فاتح نوفمبر 1954.

(44) لا يذكر المؤلّف هذه المصادر، ولعلها بعض كتب النعمان المفقودة، أو كتاب ابن الحزّار أو الرقيق القيروانيّيْن (انظر ورقات ح. ح. عبد الوهاب، 318/1 و 200/3).

وكان في ابتداء/ أمره يتردَّد في البُلدان، ويحضّ من أنس به على القيام على السلطان. وكان بربريّاً من زناتة من مدينـة تـوزر[45] من مدن قسطيلية. وكان أبوه تاجراً.

249

ثمّ اتصل بأبي عمار الأعمى كنار بن عبد الحميد[46]، فعاضده على أمره، وادّعيا الصلاح. وكانا يسيران في البربر ويسعيان في الفساد والتأليب على الدولة العلوية، وتكفير المسلمين غير من يدين بـدين الخوارج، واستحـلال قتالهم وجهـادهم، ورميهم بالكفـر. وعظّمهما البربر.

الخارجيّ أبو يزيد ادّعى الصلاح والاحتساب. . .

ورُفع أمرهما إلى أمير المؤمنين القائم (عم) فأمر بإمساك أبي يزيد فأخذ بتوزر. وبلغ ذلك صاحبَه أبا عمّار، فجمع أربعين رجلاً ممن يرى رأي الخوارج ـ وكانوا يتّصلون بأبي يزيد ويتكلّمون عنده ـ فقصدوا السجن ليلاً وكسروا بابه واستخرجوا أبا يزيد وتوجّهوا إلى ناحية سماطة[47] فأقام بها سنة.

ثمّ عاد إلى أوراس. ونزل هو وصاحبه أبو عمّار بموضع يقال له: «المتوالان» بأوراس. وما برحا يجمعان من يرى رأي الخوارج المارقة إليهما، ويحضّان على القيام على الدولة العلويّة، ويقولان: «إنّه قد خفي ذكر أبي بكر وعمر، وظهر فضل عليّ بن أبي طالب واشتهر» حتى اجتمعت لأبي يزيد جماعة. فعاقدهم وحالفهم على أنّهم ما أخذوه من مال المسلمين حكموا فيه كما يُحكم في غنائم/ المشركين، وأنّ ما سبَوه من النساء والذرّيّة فهو مباح لهم غيرُ محرّم

. والانتصار للصحابة. . .

250

(45) تـوزر. تقيوس: حاضرة قسطيلية قديماً، والجريد التونسيّ اليوم

(46) يسميه ابن حمّاد، 19: أبو عمّار عبد الله الحميدي الحجريّ، وابن خلدون. عبد الحميد، ويصيف «وهو رأس النكارية» (ج 7 ص 13)

(47) سماطة: مقاطعة على أبواب صحراء الجزائر، جنوب بسكرة وغربيّ نفطة (ابن حوقل، 92).

عليهم، فمتى اجتمعت جماعتهم وملكوا المهديّة، وأزالوا الدولة العلويّة، رجعوا إلى الخيار فاختاروا من ترضاه جماعتهم[48] فولّوه عليهم.

وكان أبو (ر 115 أ) يزيد إذا لقي أحداً، يذكر له الشيخين (ط 147) أبا بكر وعمر، ويشنّع على الشيعة ببغضهما وأنّهم لا يرون بهما[49]. . ويأتي أهلَ الرئاسة من حيث يحبّون في تزيين الرئاسة لهم، وأنّ السلطان قد ساوى بينهم وبين غيرهم ممّن هو دونهم. وإذا لقيَ من همُّه الغارة والفتنة من الغوغاء والعوامّ، أتاهم من باب تحليل الأموال والفروج، يحضّهم على القيام والخروج، حتى اجتمع مع أبي يزيد مائتا فارس، فقصد باغاية بهم.

.. في وجه الشيعة .

وكان كبون بن تصولا[50] قد خرج من قِبل أمير المؤمنين (ص) إلى جهات باغاية، وأوقع بقوم من أهل أوراس من البربر المخالفين على أمير المؤمنين. فزحف مخلد بن كيداد في سلخ جمادى الأولى سنة اثنتين وثلاثين[51] وثلاثمائة (جانفي 944) فيمن معه ممّن أجابه واتّبعه، إلى قصر لصولات بن مملول فيه عبيد له

.. فحمع الأنصار. . .

(48) عند ابن خلدون، 13/7: ويايعوه على «أنهم إن ظفروا بالمهدية والقيروان، صار الأمر شورى». فاعتمد لوطرنو في فصله عن ثورة أبي يزيد، ص 107، على هذه الفقرة فقال إنّ الذي حرّك أنصار أبي يزيد هو عزمهم على طرد الدخلاء الفاطميّين، والرجوع بالحكم إلى المجالس البربريّة/ الخارجيّة.

(49) أي لا يقدّرونهما حقّ قدرهما

(50) في الأصل: فضولا، والتصحيح من الدشراوي: الخلافة. . ، 167.

(51) في النسختين وفي المخطوط: ثلاث وعشرين، وهو سهو واضح. فالعمليّات بإفريقيّة ستبلغ أوجها بفتح القيروان (صفر 333) ثمّ حصار المهديّة في جمادى. وسيأتي بعد قليل أنّ أبا يزيد حاصر باغاية في رمضان 333، والسهو هنا في رقم الآحاد، مع صحّة رقم العشرات. وقد وقع ابن خلدون، 61/4، في نفس السهو إذ جعل حصار تبسّة في سنة الأثلاث، وفتح القيروان في صفر منها (وانظر الدشراوي، الخلافة، 167).

ودوابّ وطعام ونعمة، وكان صولات أحد[52] رجال دولة أمير المؤمنين القائم (ص)، وهو عامله/ على باغاية. فانتهب مخلد ما في قصره، وقتل رجلاً من أهله ورجع بمن معه إلى جبل أوراس. 251

فلمّا تسامعت البربر بتلك الغنيمة، اجتمع له لفيف من الناس، فصار معه أربعمائة فارس ورجّالة كثيرة، وزحف بهم إلى قصر يعرف بـ «أبي معلوم» من فحص باغاية على اثني عشر ميلاً منها، وفيه نعم كثيرة، فأتاه نهاراً. فاجتمع في القصر مائة رجل وصعدوا أعلاه وقاتلوا عن نفوسهم. فبذل مخلد لهم الأمان، حتى إذا وقعوا في يده غنم جميع ما كان معهم وجزّ رؤوسهم وترك الغنائم لمن كان معه وكانت كثيرة فامتلأت منها أيديهم.

... وطفق ينهب ويقتل..

وتسامع بذلك مِن البربرِ من يليهم فأقبلوا إليه بالخيل والرجال، وعظم به عند ذلك الحال. فزحف إلى باغاية في ألف فارس. وخرج إليه صولات عامل باغاية بمن معه، فقاتلهم البربر فهزموهم حتى أدخلوهم مدينتهم. وأقبل الليل فضرب أبو يزيد أخبيته ـ وقد طمع في مدينة باغاية ـ فزحف إليها ثاني يومه، وفرّق جنوده للقتال على نواحيها. فتعاقد من بها على الصبر، وخرجوا على البربر، وتراموا من السور إليهم. فولّى أبو يزيد ومن معه ناكصين على الأعقاب، وقتل منهم ثلاثمائة رجل، وتفرّقوا إلى كلّ جهة وجناب. ولم يبق مع مخلد غير عشرة فرسان فمضى/ بهم حيران لا يعلم كيف يصنع، ولا بأيّ حيلة عن نفسه يدفع. 252

ثمّ تراجع الناس إليه، واجتمع إليه من البربر خمسمائة فارس وألف راجل. فضرب بهم على «محيجة»[53] فغلب على أهلها بعد

(52) في المخطوط: من أحد.

(53) منحنحة في «ر»، وهي غير معروفة، ولا المتوالان ولا قصر أبي معلوم.

قتال شديد، وحاز مواشيهم وأخذ ما في أيديهم. واستمال البربر واجتمع إليه منهم عسكر بعد عسكر.

وكتب أهل باغاية إلى أمير المؤمنين القائم بأمر الله (عم) فكتب إلى كبون بن تصولا يأمره بالمسير إلى باغاية لقتال أبي يزيد، وكان كبون بطبنة. فوافى كبون إلى باغاية في نحو خمسمائة فارس، ومعه جماعة من وجوه أهل جبل أوراس فقال لهم: «إمّا أن تأتوا بأبي يزيد، وإلاّ فلا أمان لكم». فقالوا له: «قد تفاقم أمره وعظم شأنه، ولا حيلةلنا فيه». فلم يعذرهم عن ذلك. فعمل القوم على مكيدة كبون بعد أن شاوروا أبا يزيد. فأتوه وقالوا: «إنّ ابن كيداد لم نقوَ عليه بالحيلة، ولا ساعَدَنا شبابُنا على ما نريد منه. والرأي أن تخرج، ونحن ننصرك على القوم». (ط 176). فأجابهم كبون، وساعدهم على ما يطلبون، وظنّ صدقاً ما له يُظهرون. فزحف كبون إلى الجبل يريد أبا يزيد. فلمّا بلغ كبون إلى موضع يعرف بـ«فجّ العافية»، وجد أبا يزيد قد كمن له كميناً على ما عاقد عليه القوم/. فحين توسّط كبون الفجّ علت رجّالة الكمين على جوانب الجبل، وعلم كبون المكيدة فرجع ومن معه، وتبعته خيل البربر حتى وصل إلى باغاية. وزحف أبو يزيد الخارجيّ إلى باغاية وعمل كبون على لقائه ومن معه وأمر عامل باغاية بالخروج بمن معه، فتزاحف القوم ووقع بينهم قتال عظيم انهزم فيه أصحاب كبون، وخلّص بنوده بعد أن كان أبو يزيد تغلّب عليها[54]. ورجع إلى باغاية في خمسمائة فارس وألفي راجل وأخذ في إصلاح سور باغاية ومرمّة أبوابها وأعدّ عدّة الحصار، وذلك للنصف من شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين

. . فنازل حصون الأوراس . .

253

(54) في «ر» والمطبوع: بعد أن كاد أبو يزيد يغلب عليها.

وثلاثمائة[55] (ماي 944) ولمّا اتّصل ذلك بأبي يزيد قوي قلبه فزحف إلى باغاية. وخرج إليه كبون ومن معه فاقتتلوا قتالاً شديداً، وهزم الخارجيّ، وقتل عدّة من رجاله، وعقرت لهم خيول.

وعاد أبو يزيد إلى موضعه بفجّ العافية فأقام أيّاماً. ثم زحف مرة أخرى إلى باغاية. فخرج إليه كبون بمن معه فامتنع أبو يزيد من قتاله. فحين رأى ذلك كبون رجع بمن معه إلى المدينة، وبقي أبو يزيد وأصحابه وقوفاً على دوابّهم إلى الليل ثم رجع إلى معسكره.

.. وحاصر باغاية..

وجاء أبو يزيد إلى بساتين باغاية فقطعوا شجرها. ونزل جماعة من أهل باغاية/فقتلوا من أصحاب الخارجي رجلاً وعقروا خيلاً. ثم خرج إليهم كبون بمن معه فانتشب القتال بينهم إلى الليل (ط 177) وانتصف بعضهم من بعض وعاد كلّ فريق إلى موضعه.

254

ثمّ انتقل الخارجي من موضعه ونزل من باغاية على ميلين وأفسد ما حولها من الشجر، وأغار على القبائل الذين حول باغاية. ثم وافت عساكر كتامة إلى باغاية. وذلك أنّ أمير المؤمنين القائم بأمر الله (عم) لمّا بلغه محاربة الخارجيّ لأهل باغاية أخرجهم إليهم رَدْءاً وقوة. فحين علم أبو يزيد بقدومهم (ر 116 ب) رجع مبادراً إلى موضعه من الجبل على مسافة أربعة وعشرين ميلاً من باغاية.

.. فلم يقدر عليها..

ثمّ إنّ سعيد بن خلف الهواري هرب من باغاية وحمل معه أهله ووافى الخارجيّ، وذلك لأمر كان بينه وبين الحسين بن ناكسين الإجّاني. فلما صار سعيد الهواري إلى أبي يزيد قوي به أمره.

.. رغم انضما بعض القوّاد إليه..

(55) في الجميع: ثلاث وثلاثين، وقد صحّح المؤلّف سنة الثلاثين، ولكنّه أخطأ في سنة الثلاث وسنواصل الإصلاح كلّما عرض ذلك.

واجتمع مع كبون عساكر كثيرة من خيل كتامة وهوارة ورفجومة، وأهل تيجس وميلة وسطيف وبلزمة وغيرهم، فارتحلوا ونزلوا بقرب جبل أوارس. فأراد الخارجيّ أن يعاجلهم قبل أن يأنسوا بالحرب ويعرفوا الجبل. فسار إليهم حتى انتهى إلى بعض الطريق، فرجع عنه البربر وبقي في مائتين/ وخمسين بين فارس وراجل. فلمّا رأى استعداد كبون مال إلى عسكر أبي دقل الملوسيّ ـ وكان على بعض عسكر كتامة ـ فوقع بينهم قتال، ودفعوا أبا يزيد عن أنفسهم، وأتاهم كبون ليعضدهم فوجدهم قد ردّوا أبا يزيد. فعاد إلى معسكره، فوجد عسكره من كتامة قد شدّوا رحالهم يريدون بلادهم، فمنعهم ذلك وصاح عليهم. فاختلفُوا عليه بين راحل ومقيم وعلت بينهم الصيحة. فمال أبو يزيد إليه وترك قتال أبي دقل. فحين أحسّوا به هربوا بين يديه (ط 178) فقاتله كبون والحسين بن ناكسين قتالاً شديداً حتى جُرحا وتفرّق الناس عنهما، فغلب أبو يزيد الخارجيّ على ما كان في عسكرهما. ثمّ كرّ كبون على أبي يزيد في قوم التفّوا إليه بعد الهزيمة، فانهزم أبو يزيد الخارجيّ بين يديه ولحق بموضعه. وهرب أبو دقل الملوسيّ بمن معه حين رأى افتراق عسكر كبون والحسين ابن ناكسين الإجانيّ، فبات كبون والحسين في معسكرهما إلى الصبح. ثمّ ارتحلا في من بقي معهما إلى باغاية، وذلك في شهر شوّال سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة (جوان 944). ووافى جحفل كثير من كتامة عليهم رجل يسمّى بدين بن محمّد الجيمليّ فنزلوا قبليّ باغاية/ ثمّ خافوا البيات فانتقلوا إلى ربض باغاية. وكانوا يهرب منهم كلّ ليلة طائفة إلى بلد كتامة.

255

. . ورغم انخذال جماعة من كتامة . .

256

وعمل مخلد بن كيداد على أن يبيّتهم في الربض، فزحف إليهم فقاتلهم قتالاً شديداً. وخشي عليهم كبون الهلاك فنادى الناسَ بالخروج، وأمر بضرب الطبول وإيقاد المشاعل وفتح الأبواب

. . وطالت منازلته لباغاية . .

وإخراج البنود. وخرج فيمن معه فقاتلوا البربر حتى أخرجوهم من الربض. وبـات القتال إلى الصباح فانهزم أبو يزيد. وسابقه بدين إلى الجبل ليحول بينه وبين الدخول، فمال إليهم أبو يزيد بعسكره، فانهزم بدين في من معه من كتامة، وقُتل من الكتاميّين ثلاثون رجلاً أو يزيدون. ومضى أبو يزيد إلى موضعه، ورجع الكتـاميّون إلى باغاية فدخلها جماعة من وجوههم وانصرف باقيهم إلى بلدانهم.

دش 80

* ولمّا[56] اجتمع لمخلد الدجّال خلق عظيم من لفيف الناس وطغامهم، طمعوا[57] في باغاية حين انصرفت جموع كتامة عنها. وكاتب أبو يزيد مَن حول قسطيلية من البربر كبني واسين وغيرهم يأمرهم بحصار قسطيلية (ط 179) فحاصروها. ثمّ زحف مخلد الدجّال إلى باغاية، وخرج إليهم كبون والحسين بن ناكسين في أهل باغاية، وبـدين ومن بقي معه من الكتـاميّين/ فوقـع بينهم قتال شـديد. وانصرف الدجّال إلى مكانه. ورحل من الغد فنزل بقرب باغاية، وزحف إليه كبون في من معه فقاتلوا قتالاً عظيماً وقتل جماعة من أصحاب الدجّال وعقرت عليهم خيول كثيرة. فعلم أبو يزيد أن لا طاقة له بباغاية وأنّها عنه ممتنعة. فقال لأصحابه: «إنّ بني كيداس الذين حول تبسّة[58] قد كاتبوا كبون ليصيروا إليه، فاذهبوا بنا لنأكل أموالهم ونسبي ذراريّهم ونقتل رجالهم».

257

.. فصرف جموع أنصاره إلى تبسّة..

وسار الدجّـال في جموعـه إلى بني كيداس. فحين صـار بالقرب منهم، علموا أنّهم لا يطيقون لقاءه، فبعثوا إليه يسألونـه

(56) هنا يستأنف الدشراوي مقتطفاته من الكتاب، ونشير إلى صفحاتها بعلامة «دش» مع الرقم

(57) في الجميع. وطمعوا.

(58) تبسّا بالمدّ في الأصل، وكتبناها كما تكتب اليوم وتنطق

الأمان. فأعطاهم الأمان على أن يتقدّموا أمام عسكره إلى تبسّة وأن يكونوا أهل القتال (ر 117 ب). فزحف بنو كيداس إلى تبسّة وكان عاملها غلاماً لكبون. فلمّا اتّصل خبرهم به خرج إليهم فقاتلهم، فقُتل نفر من أهل تبسّة الذين مع غلام كبّون. وأقبل الدجّال في جموعه، والقوم في قتالهم فأغلق أهل * تبسّة أبواب حصنهم حين رأوا جموع البربر قد أقبلت، وقتل غلام كبون رحمة الله عليه، وجماعة من أصحابه. وخرج جماعة من أهل تبسّة إلى أبي يزيد يسألونه الأمان، فأمنهم على أن يخرجوا إليه/ ما كان لكبون وكتامة ويسلموا إليه أولاد كتامة الذين معهم. فأخرجوا إليه كلّ ما كان معهم فغنم لعنه الله الأموال، وسبى النساء والذرّيّة، وأغنم ذلك البربرَ، وأخذ بزعمه الخُمُسَ.

فاستولى عليها بالغدر

دش 81

258

ورحل الدجّال إلى مرماجنّة فلقيه رجل من أهلها يقال له «ابن (ط 180) خلاف»، فاستأمنه وأهدى إليه حماراً أشهب، وكان الدجّال يركب ذلك الحمار وبه سمّي «صاحب الحمار». وبات أبو يزيد بقرية بني سعيد من نواحي مرماجنّة[59]، وأشرف على إفريقيّة فهاب أصحابه الهجوم إلى إفريقيّة.

أهدوه حماراً أشهب. فصار يدعى «صاحب الحمار»...

وكان بالأربس جماعة من كتامة. فحين علموا ما صنع أبو يزيد مع أهل تبسّة، وما فعل في طريقه من القتل والنهب، خافوه خوفاً شديداً. واجتمعوا وعقدوا عسكراً بموضع يقال له «دقّة»[60]. واجتمع البربر إلى الدجّال صاحب الحمار وقالوا: «أنّا لا نُقدم على إفريقيّة، وإنّا نخاف أن يصل إلى أهلها جنود السلطان فلا يقوم لنا

(59) قرية بني سعيد عير معروفة. ومرماجنّة حسب ياقوت، تقع على مرحلة من الأربس ويجعلها ابن حوقل، 86، عربيّ الأرس بين أبّة و«تامديت» أمّا الطالبي: الإمارة، 575 والترجمة، 631، فيعيّن لها موقع تالة الحاليّة بتونس

(60) قد مرّ ذكر دقّة ص 110 هامش 101، وهي التي تقع جنوب الأرس في اتجاه سبيبة.

حال معهم». فهم يموجون في ذلك إذ قدم عليهم إبراهيم بن ثوبان بن أبي سلاس[61] من الأربس، وكان من وجوه الجند * فسلّم على أبي يزيد، وعرّفه أنّ إسحاق بن خليفة عامل الأربس قد هرب عنها بأهله/ وولده خوفاً من قدومه. فسرّ ذلك أبا يزيد وقوّى قلوب (ر 118 أ) البربر، وأمر أبو يزيد بالإعلان بالخبر. وسأله ابن أبي سلاس أن يعطي أهل الأربس الأمان في أنفسهم وأموالهم. فأعطاه العهود والأيمان، على الحياطة لهم والأمان. ثمّ أمّر أبو يزيد [أبا] سليمان [أيّوب] بن خيران الزويليّ - وهو رجل كثير الشّر من مزاتة - وأمره أن يقتل من وافاه على الطريق، ويسبي، ويحرق كل منزل يمرّ به، ليرهب بذلك كتامة الذين بدقّة.

دش 82

259

.. ودخل إفريقيّة..

وركب أبو يزيد حماره الأشهب، ولبس جبّة صوف قصيرة الأكمام مفتوحة العواتق - وكان يُخرج يديه من تلك الفتوح، وعلى رأسه قلنسوة بيضاء كدِرة - وسار إلى دقّة. ووافى عسكر كتامة فاقتتلوا قتالاً شديداً وانهزمت كتامة وتمادَوا (ط 181) إلى القيروان. وغلب صاحب الحمار على دقّة، وذلك لأربع عشرة خلت من ذي الحجة [سنة 332/ أوت 944]. ووجّه جماعة من أصحابه إلى مدينة سبيبة فغلبوا عليها وأخذوا عاملها عبد الله التيفاشيّ[62] فقتلوه وصلبوه رحمة الله عليه.

.. فغلبت جموعه على سبيبة...

وسار الدجّال إلى الأربس فوصلها يوم الأربعاء للنصف من ذي الحجّة، فغدر بأهل الأربس/ وقال: «لا أمان لكم حتّى تُخرجوا إلينا المشارقة وخدَمَ السلطان وأتباعهم * وتعطونا أموالهم». وأُخرِج

.. ثمّ على الأربس

260

دش 83

(61) بنو أبي سلاس: خدموا الأغالبة ثم الفاطميين. انظر في رياض النفوس، 297/2 استفتاءهم للفقيه القيرواني الممّسي في الانضمام إلى أبي يزيد.

(62) في الأصل: الفاشي، وقد أخذنا بقراءة الدشراوي.

إلَيه خطيب الجامع ومتولّي الصلاة به فقتلهما، رحمة الله عليهما، صبراً. ودخل البربر الأربس وتغلّبوا عليها وقتلوا المشارقة، وأتباع السلطان·وكثيراً من أهل الأربس، ونهبوها وأحرقوا كثيراً منها بالنار. ونجا·كثير من أهلها إلى المسجد الجامع فقُتلوا فيه وافتضّت الأبكار من النساء في المسجد، وأظهروا الكفر والطغيان، وزادوا على كفر فرعون وهامان.

ولمّا اتّصل خبر الأربس بأهل المهديّة استعظموا ذلك وهالهم. وبلغ الخبر إلى أمير المؤمنين القائم بأمر الله (عم) فاستعظم (ر 118 ب) ذلك كلُّ مَن حضر مجلسه الشريف وقالوا له: «يا أمير المؤمنين هذه مدينة عظيمة، وهي باب إفريقيّة، ولمّا أُخذت في أيّام بني الأغلب، وهنت دولتهم». وكان فيمن خاطب أمير المؤمنين بذلك محمّد بنُ عليّ بن سليمان. فقال له أمير المؤمنين (عم): «يا محمّد، أقلبك قويّ؟.

القائم لم يتأثّر لانتصارات أبي يزيد.

قال: يا أميرَ المؤمنين، وإن زدته قوّةً قوِيَ.

فقال (عم): لا بدّ أن يبلغ مخلد المصلّى، وهو غايتُه.

261

وذلك مصلّى / المهديّة حيث علّم[63] أمير (ط 182) المؤمنين المهديّ بالله (صلع).

واتّصل خبر الأربس بكبون فعمل على الخروج من باغاية ومعه الحسين بن ناكسين، وأبو دقل[64] وبدين بن محمّد الجيملي

(63) علّم بالتشديد، أي جعل علامة، وهي رميّة السهم الذي رماه المهديّ من بابها الحديد نحو المصلّى فقال· إلى ههنا يبلغ أبو يزيد (انظر ابن حماد، 10). وفي كلام جلّاس القائم صدى للنقد الذي استوجبه تباطئه في التصدي لأبي يزيد، وهي تهمة يدفعها عنه المنصور والمعز (انظر المجالس والمسايرات، 249 و542).

(64) لقد قال المؤلّف منذ قليل (ص 255) إنّ أبا دقل هرب ـ عن كبّون؟ ـ بمن معه.

في مائة وخمسين فارساً وجماعة من وجوه أهل باغاية. فخرج بهم ولقِيَه خيل عظيمةٌ من لواتة. فساروا جميعاً إلى قلعة مجّانة فعسكروا بها ووجدوها خالية من الرجال، وقد ترك بها أبو يزيد ثَقَلَه وكثيراً ممّا كان معه. فانتهبوها وساروا إلى المهديّة فدخلوا يوم الاثنين لخمس خلون من المحرّم أوّل سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة[65]

.. ولكنّه أخرج الجيوش إلى رقّادة..

وأخرج أمير المؤمنين القائم بأمر الله (صلع) محمّد بن عليّ بن سليمان وتميماً الوسفانيّ في خيول كتامة إلى رقّادة ليكـونوا بهـا ويضبطوها لإحدى عشرة ليلة من ذي الحجّة سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة[66].

ثمّ أخرج خليل بن إسحاق[67] التميميّ إلى مدينة القيروان في وجوه العبيد والجند. ولمّا ودّع خليل أمير المؤمنين (عم) قال،(وافر):

وما ودّعتُ خير النـاس طُـرّاً ولا فـارقتُـه عن طيب نـفس
وكيف تطيبُ نفسي عن حياتي أفارقُها، وعن قمَري وشمسي؟
ولـكنّـي طلبـتُ رضـاه عنّـي/ وعفـوَ الله يـوم حلول رمـسي
فعـاش مملّكـاً، مـا لاح نجمٌ عـلى الثـقلَيْـن من جـنّ وإنس

262

فوصل خليل فيمن معه إلى القيروان يوم الأربعاء لثمان بقين من ذي الحجّة [سنة 332/ أوت 944] في ألف فارس من العبيد والجند. ونادى في الناس فاجتمع إليه خلق عظيم. واتّصل خبره بالدجّال أبي يزيد فهابه وخافه وغمّه ذلك.

.. والقيروان.

(65) أي 24 أوت 944، وقد رجع المؤلّف هنا إلى التاريخ المعقول.

(66) هذا رجوع إلى الوراء من الداعي إدريس، فسرد الأحداث لا يخضع عنده إلى ترتيب تاريخيّ مضبوط.

(67) في الجميع: ابن عدنان بن إسحاق، وقد مرّ بنا ذكر خليل وشقيقه يعقوب.

وأخرج أمير المؤمنين القائم بأمر الله (عم) بشرى الخادم إلى باجة ليضبطها ويعسكر بها. وكان خروجه من المهدية يوم الجمعة غرة شهر المحرّم أوّل شهور سنة ثلاث وثلاثين و[ثلاثـ] ـمائة في كتامة ووجوه العبيد. فوصل إلى باجة وعسكر بها.

.. وباجة..

وأخرج أمير المؤمنين القائم بأمر الله (صلع) ميسور الخادم صاحب الجيش الأعظم من المهديّة فعسكر بالكدية الحمراء[68]. وكان خروجه لثلاث عشرة ليلة خلت من المحرّم أوّل سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة [غرّة سبتمبر 944].

.. وطريق المهديّة

ولمّا اتّصل بأبي يزيد الدجّال، وهو بالأربس، خروج بشرى إلى باجة، خلّف أثقاله وما أخذ من الحرائم[69] المسلمات، في قصر إبراهيم بن أبي سلاس بالأربس، وتوجّه إلى باجة، وقد اجتمع له خلق عظيم من الأجناد والبربر وأهل إفريقيّة، فلم يمرّ اللعين/ بمنزل إلّا قتل أهله وسبى أهليهم وأخذ ما حازته أيديهم. وقدّم إبراهيمَ بن أبي سلاس إلى باجة وقال له: «إن كنتَ لي ناصحاً فاقتل من لقيتَ وآسبِ حريمَهم وخذ أموالهم». وغارت البربر

263

(68) الكدية الحمراء: ذكر الرقيق (تاريخ، نشر الكعبيّ، 119) هذا الموضع في خبر وقعة «جبل القرن والأصنام» سنة 124 بين حنظلة بن صفوان وعكاشة الصفريّ. وجبل القرن هو في قول: جبل الباطن. وفي آخر: جبل وسلات، وكلاهما غربي القيروان. في حين أن الموضع الذي عسكر به ميسور يقع بين القيروان والمهدية ولعلّه إلى المهدية أقرب. وقد اكتفى الدشراوي: خلافة، 169، بقوله: على بضع مراحل من العاصمة، ويعني بها المهديّة

وهناك كدية أخرى قريبة من القيروان، ولعلها في شرقيّها، قريباً من الموضع الذي نصب فيه يزيد بن حاتم المهلبي اصطبلاته فعُرف بـ«منية الخيل»، وذبح فيه يوماً مئات من رؤوس الغنم فطرحت هناك جلودها فعُرفت الكدية بـ«كدية الجلود» (الرقيق، 158).

(69) لم نجد في المعاجم «الحريمة» بمعنى حريم الرجل ولعلّ الحرائم محرّفة عن الحرائر.

لتقديم * إبراهيم بن أبي سلاس، وجاؤوا إلى أبي يزيد، فوجّه إلى ابن أبي سلاس أن يقيمَ مكانه حتى يأتيه. فلمّا وصل أبو يزيد عزله عن الجيش[70].

دش 86

واجتمع لأبي يزيد خلق عظيم من كلّ ناحية من كلّ داعر ومفسد وقاطع طريق وسارق ومارق. وتوجّه إلى باجة أبو يزيد بنفسه لقتال بشرى، فتزاحف القوم واقتتلوا قتالاً شديداً. فانهزم أصحاب أبي يزيد هزيمة فاحشة، وأبو يزيد قائم في ناحية، ومعه من غزاته نحو أربعمائة فارس، ومثلهم من الرّجّالة بالسيوف المِصْلتة. فلمّا رأى هزيمة أصحابه، نزل عن دابّته وركب حماره وأخذ عصاه وقال: «هذا عملُ مَن يريد الهرب»، وبشرى قد مضى في الطرد خلف القوم. فخالفه أبو يزيد الدجّال فيمن معه إلى (ر 119 ب) أخبيته فحازها. فحين علم بشرى بحيازة أخبيته ولّى إلى تونس فيمن بقي من أصحابه بعد افتراق أكثرهم، وانقطع في طلبه ألف فارس من البربر، ففاتهم ولم يلحقوه/ وقُتل معه جماعة من وجوه كتامة وذوي بأسهم ونجدتهم.

انهزام بشرى الخادم في باجة . .

264

ودخل أبو يزيد باجة بالسيف، وذلك في اليوم الذي خرج فيه ميسور من المهديّة، فأحرق أبو يزيد الدجّال دور باجة وأقام القتل في أهلها ثلاثة أيام بلياليها (ط 184) والتجأ النساء والأطفال إلى مسجدها الأعظم وظنّوه يمنعهم من البربر، فدخلت * عليهم البربر فافتضّوا في المسجد الأبكار من البنات وفعلوا الأفعال المنكرات. وكانوا يأخذون بأرجل الأطفال الصغار ويضربون بهم عُمُدَ الجامع وحيطانَه فتفلق أدمغتُهم. وكانوا للجرأة على الله يرمون الأطفال في الهواء ثمّ يلتقفونهم بالسيوف. وقيل إنّه أُحصِي من النساء من حبلت يوم باجة ألف امرأة. ولم يحص السبي والقتل لكثرته. وأقام مخلد اللعين

دش 87

---

(70) غارت البربر من ابن أبي سلاس لأنّه عربيّ، أو لأنّه صاحب بَدَوات.

بباجة أياماً كثيرة يغير على من حولها ويقتل ويسبي. وكتب إلى قبائل البربر فأتته عساكرهم من كلّ ناحية.

... والحسن الكلبيّ في تونس

ولمّا وصل بشرى إلى تونس لقيه عاملها حسن بن عليّ(71) فأكرمه ومن كان معه، وأجرى الوظائف عليهم، وواصل الإحسان إليهم. وأخرج الدجّال جيشاً عظيماً من البربر مع منصور بن منصور الهواري إلى تونس، فأخرج إليهم حسن بن عليّ أخاه عمّار بن/ 265 عليّ في ثلاثمائة فارس، فالتقوا بالبربر وقاتلوهم، فانهزم البربر وقُتل منهم جماعة، ورجع عمّار إلى تونس سالماً غانماً. ثمّ افترق الناس بتونس على حسن بن عليّ ووقعت فيهم فتنة فانتهبت دار حسن بن عليّ. وعمل على خلاص أهله وولده وسار هو وبشرى من تونس إلى سوسة (ر 120 أ) يوم الاثنين لخمس بقين من المحرّم سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة [سبتمبر 944].

دش 88

وأقام حسن بن * عليّ بسوسة بأمر أمير المؤمنين القائم بأمر الله (عم)، وأبو يزيد في ذلك الوقت ما بين باجة والقيروان يريد ملاقاة خليل. وكان خليل بالقيروان مع ألف فارس من الجند والعسكر والعبيد، وقد نزل دار الإمارة بالمعروف[ـة] بابن أبي خنزير(72) وفرض العطاء فاجتمعت إليه الجنود، وأتته الوفود. وفرّق عساكره في مدينة القيروان في الفنادق والدور، ولم يعسكر بهم خارج

خليل بن إسحاق بالقيروان لا يحرّك ساكناً...

---

(71) الحسن بن عليّ الكلبيّ أبو الغنائم وأخوه عمّار بن عليّ: من قواد الفاطميين بإفريقية والزاب، ثم بصقليّة بعد الفراغ من ثورة أبي يزيد وخدمت الأسرة الخلفاء الفاطميين إلى ما بعد انتقالهم إلى مصر. والكلبيون عرب، ليسوا من كتامة كما يقول محقّقا سيرة جوذر (تعليق 76).

(72) ابن أبي خنزير هو الحسن بن أحمد الميلي الذي قيل فيه انّه أسلم قلعة ميلة إلى أبي عبد الله الداعي، فكافأه المهدي بولاية القيروان، ويبدو أن اسمه بقي عالقاً بدار الإمارة بها.

المدينة. وظهر منه سوء التدبير، لما جرت به أحكام المقادير، وأراد الله التمحيص للمؤمنين ليزداد عتوّاً كلّ كفور.

ونزل ميسور بعساكره في الموضع المعروف بـ «ـالأخوين»[73] متوسّطاً بين المهديّة والقيروان، لئلاّ يخالفه أبو يزيد إلى المهديّة أو القيروان، وكان متوسّطاً بين الطريقين. وكان خليل قد كاتب جماعة ممّن مع أبي يزيد/ ووعدوه بقتل أبي يزيد، فرجا ذلك واستخفّ بأمره. وكان (ط 185) جماعة من الزويليّين قد أساء إليهم أبو يزيد. فهم الذين كاتبوا خليلاً يعدونه بالحيلة في أمره، وكان ذلك ممّا ألهاه عن أبي يزيد، ولم يكترث به وقوي لذلك قلبه. وكان إذا ذكر له الناس أمر أبي يزيد يشتمهم ويعتُبهم. وقطع أرزاق الجند. 266

ووصل أبو يزيد إلى فحص أبي صالح[74] فهابه الناس. وقتل أهل الأطراف، وجاء الناس إلى القيروان من * كلّ ناحية فامتلأت فنادقها ورحابها وشوارعها، فارتجّت القيروان وكثر خوف أهلها. ولمّا نزل أبو يزيد بفحص أبي صالح، طمع الجند في أخذ أرزاقهم، وأتى خليلاً كبراؤهم، فهزأ بهم ولامهم وعنّفهم وامتنع عن عطائهم، وقال لرجل من خاصّته أكثر تعظيمَ أبي يزيد: «إن كنت قد جبُنتَ فادخل في كُمّي! فإنّي لا أخرج إلى أبي يزيد ولا أقاتله، وإنّه لأحقرُ من ذلك وأقلّ». ولم يكن في خليل تخلّف ولا سوء تدبير فيما قبل ذلك، وهو من أهل التجربة بالحروب، وممّن غزا في وقت المهديّ بالله (عم)، وكان مع القائم بأمر الله (صلع) في مصر دش 89

(73) الأخوان غير الكدية الحمراء المذكورة ص 262.

(74) فحص أبي صالح: حدّده الطالبي (الإمارة، 173 هامش 5، والترجمة، ص 184 هامش 128) بمنطقة Thuburbo majus الأثرية، وحدّده الدشراوي (الخلافة، 171) بسهل الفحص المعروف اليوم في ولاية رغوان.

والمغرب[75] وشهد حروبه، وكان له حسن التدبير والقتال المعروف

267 الشهير، ولكنها إذا جاءت بأمر الله المقادير، عمي/ لها الناظر البصير، وجهل عواقبها العروف الخبير.

.. ويبدي الاستهانة بأبي يزيد

وأمر خليل بإصلاح أبواب مدينة القيروان وافتقاد سورها. وعميت أخبار أبي يزيد عن خليل، وكثرت الأخبار والأراجيف عنه، وكان الناس يمرّون[76] إليه ولا يجيء أحد من قِبَله. وكان خليل يكتب إلى أمير المؤمنين القائم بأمر الله (عم) بأخبار مختلفة وأقوال غير مؤتلفة.

دش 90

فأمر أمير المؤمنين القائم بأمر الله (عم) حسن بن * عليّ وبشرى الخادم، وهما بمدينة سوسة، أن يخرجا ويعلما أخبار الناس. فتوجّها بمن معهما من العساكر حتى صارا بمرصد شريك[77] من طرف الجزيرة، فنزلوا بها وقتلوا من وجدوا من

---

(75) خليل بن إسحاق التميمي: هذا القائد المشهور خدم الدولة الفاطميّة منذ انتصابها، وهو من أصل عربي (انظر الحلّة السيراء في المكتبة العربية الصقلية، 330). ولد خليل بطرابلس وتعاطى العلم والأدب، ممّا يظهر في شعره الذي نشرناه بالحوليّات 1979/17. وصحب القائم في حملة مصر الثانية، ثمّ ولي صقلية من سنة 325 إلى سنة 329 وكان جائراً متعسّفاً على منظوريه «أهلكهم قتلاً وجوعاً حتى فرّوا إلى بلاد الروم وتنصّر كثير منهم» (ابن عذاري، البيان، 181، 191، 295) وانظر: رحلة التجانيّ، 241، 253، 254 وترجمة سيرة جوذر، الهامش 194.

ولا نفهم تخاذله الغريب أمام أبي يزيد، وربّما عزوناه إلى نوبة مفاجئة من الاستسلام للقضاء: فقد كان، في أول أمره، حسب ابن الأبار، «يصحب الصوفيّة».

(76) هكذا في الجميع، ولعلها: يفرّون.

(77) مرصد شريك: عيّنه الدشراوي: الخلافة، 171، بقرب النفيضة الحاليّة. ولعلّه أبعد في الشمال إذ تبدأ جزيرة شريك بعد النفيضة بنحو أربعين ميلاً في اتجاه قربالية وطرف الجزيرة المذكور في النص هو بدون شك الطرف الغربيّ، أي في جهة قرية بئر بورقبة

أصحاب أبي يزيد. وبلغه خبرهما فأخرج إليهما أيّوب بنَ خيران الزويليّ[78] في عسكر عظيم وقال له: «اقتل من مررتَ عليه على طريقك، واسب الذريّة وانهب الأموال وأحرق المنازل (ط 186) ومَثِّلْ في القتال، فإنّ الناس بذلك يخافون ويرهبون ويعرفون قوّة أمرنا وشدّة بأسنا». فتوجّه أيّوب إلى مرصد شريك، واتّصل بحسن وبشرى خبره فمالا عن طريقه وانتهيا إلى ناحية هرقليّة[79] بالقرب من مدينة سوسة. فتمادى أيّوب وعسكر على موضع بينه/ وبين سوسة مسافة نصف نهار. واتّصل بحسن بن عليّ وبشرى خبره ومعسكره، فرجعا من مكانهما وقاتلاه قتالاً شديداً، فانهزم أيّوب والعسكر الذين معه، وقُتل منهم أربعة آلاف رجل، وأسر خمسمائة رجل، ووجّه حسن وبشرى بالرؤوس والأسرى إلى المهديّة. فلمّا صار الأسرى في المهديّة، وثبت العامّة عليهم فقتلوا (ر 121 أ) أكثرهم بالعصيّ والحجارة.

268

أبو يزيد يحلّ بالقيروان..

وكانت تلك من أعظم النكبات على أبي يزيد، وقال: «إنّما ينهزم عسكرنا إذا لم نكن معهم، ولكن نعاجل القوم من قبل أن تقوى قلوبهم بذلك». فحعل طريقه موضع المعركة، ونظر إلى القتلى، وغمّه ما رأى من كثرتهم. ثم رفع فبات بقرب المكان، ورفع فبات

(78) أيوب بن خيران الزويليّ أبو سليمان. وصفه المؤلّف (ص 259) بأنّه «رحل كثير الشرّ من مزاتة». ونستغرب أن يكون من مزاتة ومن زويلة في آنٍ واحد. فزويلة قوم من عبيد السودان جلبهم الفاطميّون فصاروا في خدمتهم بإفريقية ثم بمصر. وخصّص لهم المهديّ حيّ زويلة بأرباض المهديّة انظر· موسى لقبال: دور كتامة، 522، هامش 290 حيث يقول· لا توجد قبيلة باسم زويلة و«عبيد زويلة» حلبوا من زويلة السودان بمنطقة فزان

(79) هي قرية هرقلة الحاليّة. وأكّد التجاني، 24 - 25 أنّ الوقعة دارت بهذا المكان، وفي روايته شبه كبير برواية الداعي إدريس، ممّا يرجّح أن مصدرهما واحد، ولعلّه تاريخ الرقيق المفقود

على ساقية طنباس[80] ثمّ سار فبات بقرية البرحماس[81] على مسافة عشرة أميال من القيروان.

وكان خليل بن إسحاق[82] إذا جاءه أحد بخبر صحيح عن أبي يزيد دفعه ولم يصدّقه. فجاءه رجل فأخبره بمبيت أبي يزيد وقال له: «إنه مصابحنا غداً بالقتال فاستعدّ له». فما أجابه خليل إلاّ [أن] قال له: سمعت البارحة صوتاً لو سمعتَه لطربتَ إليه، وهو (سريع):

قد حَصّت البَيضةُ رأسي فما أُطعَمُ نومي غيرَ تَهْجَاع
269 أسعى على جُلّ بني مالكٍ/ كلُّ آمرىءٍ في شأنِه ساع

.. وخليل متماد في خموله

والبيتان لأبي قيس بن الأسلت[83]. يريد خليل: إنّك لست من أهل الحرب، وأنا من أهلها، فلا يخفى هذا القول عليّ وأنت منه في غفلة. وجاءه قاضي القيروان أحمد بن بحر فأجابه بمثل ذلك.

وارتحل أبو يزيد من البرحماس يوم الأحد لثلاث بقين من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة [أكتوبر 944] فأخذ على نخيل بهلول[84] يريد رقّادة لقتال الكتاميّين. وأخرج الكتاميّون طلائع

(80) ورد ذكر «طبياس» في الورقات، ح 203/4 في نقل عن الرقيق بخصوص وقعة القرن والأصنام. وافترض المنجي الكعبي في القطعة التي نشرها (ص 116 و 126) أنّها قرية الأصنام الواقعة على ثلاثة أميال من القيروان في اتجاه جلولاء غرباً وذكرها النعمان (المجالس، 60) كمنتزه للخلفاء، ولم يحدّد موقعه

(81) البرحماس لا نعرف عن هذا الموضع غير ما ذكره المؤلف هنا.

(82) لا يزال المؤلف يدعوه خليل بن عدنان

(83) حصّت البيضة، أي الخوذة، رأسه: أذهبت شعره لطول مكثها عليه، كناية على مداومة القتال. وأبو قيس بن الأسلت شاعر جاهلي، وهو بطل الأوس في يوم بعاث. انظر خبره في المفضليّة 75 من طبعة أوروبا وفي خزانة الأدب، 411/3 من طبعة عبد السلام هارون. والبيتان من المفضليّة المذكورة التي طالعها:

قالت، ولم تقصد لقيل الخنى مهلاً! فقد أبلغت أسماعي

(84) نخيل بهلول: إذا صحّ أنّ طنباس كانت تقع قرب جلولاء، ثمّ البرحماس، فإنّ =

فوافت طلائع أبي يزيد في خلق عظيم (ط 187) فانهزمت طلائع الكتاميّين وتمادى الطرد عليهم إلى رقّادة * وتسابقت إليهم [البربر]. فلمّا رأوا أنّهم لا طاقة لهم بكثرة من أتاهم هربوا إلى المهديّة. وطُلبوا إلى قصر المغيرة[85] وقتل منهم جماعة، وترامى رجال منهم في الآبار فقُتلوا بالحجارة. وامتنع ثلاثة في قصر البحر برقّادة[86] فأتى إليهم فضل بن مخلد[87] الدجّال وأمرهم بالنزول فامتنعوا وتحصّنوا بالحجارة. فأطلق البربر النار في القصر، وأحرقت خُشُبُه وتكلّس الرخام (ر121ب) وانهدم القصر. ونزل الخارجيّ أبو يزيد بعسكره بالقرب من قصر خلف[88] على أربعة أميال من القيروان فبات به. وانتقل من غده فنزل شرقيّ رقّادة في خلق عظيم يزيدون على مائة ألف فارس وراجل.

دش 92

تغلّب البربر على رقّادة

270

وخليل في كلّ ذلك/ لا يعبأ به ولا يلتفت إليه. ودخل إليه القاضي أحمد بن بحر وغيره، فذكروا له أمر العدوّ وقربه فلم يلتفت إلى قولهم، فخرجوا وقد يئسوا من الحياة لسوء تدبيره. ثمّ رجعوا إليه لوقتهم، واجتمع جماعة من الجند فقالوا: دعنا نخرج إلى العدوّ!

= اتجاه أبي يزيد يكون من الغرب إلى الجنوب الشرقي نحو رقادة فلعل نخيل بهلول كان غربي القيروان.

(85) قصر المغيرة: لعله أحد قصور رقّادة رغم التباس عبارة المؤلّف. هربوا إلى المهدية، أي: من مكان الوقعة (قرب رقادة) في طريق المهدية

(86) قصر البحر برقادة. ابتناه زيادة الله الثالث سنة 292 وجعل له صهريجاً واسعاً جدّاً فسمّي بحراً (ورقات، 288/1)، وكان أحد المعالم الثلاثة التي بهرت المهدي. وانظر: الطالبي الإمارة، 554 والترحمة، 608 هامش 36 و 37

(87) هذا أحد أبناء مخلد الأربعة (ابن حمّاد، 19): يزيد، يونس، أيوب وفضل وسيذكر المؤلف ابناً خامساً اسمه أحمد وسادساً اسمه إبراهيم.

(88) قصر خلف على أربعة أميال من القيروان· لم نهتد إلى موضعه ولعلّه ينسب إلى خلف الفتى الذي خدم زيادة الله الأول. انظر البيان، 106 ورياض النفوس، 400/1

البربر من جند خليل يتواطؤون مع مخلد

فقال: لا يخرج منكم أحد حتى تضرب الطبول! فمن خرج قبل أن يأتي إليه أمري، ضربته بالسياط.

فأرسل الجند إلى أوليائهم الذين مع الدجّال، وعرّفوهم سوء تدبير خليل وفساد أمره. وكان أبو يزيد قد تهيّب القيروان، وخاف

دش 93

من ميسور أن يعاجله، فحين جاءه الخبر بما وجّه به *.أصحاب خليل إلى أوليائهم، قوي قلبه وقلوب البربر، وسألوه المسير إلى القيروان، فرام أن يسكّنهم فما ساعدوه ورجعوا إليها. فلمّا رأى ذلك، خاف أن ينزل بهم ما نزل بأبي سليمان أيّوب بن خيران. وسألهم عن موضع خليل فقيل: بباب تونس، فقصد إلى ناحيته. وتوجّه قوم من البربر إلى باب [أبي] الربيع. وخرج إليهم جعفر الباغائي[89] في زهاء مائة رجل، فقاتلهم قتالاً يسيراً، وقتلوا أكثر أصحابه، فانهزم بين أيديهم فدخل القيروان.

حصار القيروان

وقصد البربر إلى مصلّى العيد فخرج إليهم الجند فقاتلوهم قتالاً يسيراً، ثمّ سلّموا على أوليائهم/ الذين في عسكر أبي يزيد

271

وصاروا معهم (ط 188)، وخليل في داره لم يخرج ولم يتحرّك. وأرسل خليل إلى أصحابه أن يتركوا القتال، وظنّ أنّ البربر ينصرفون حتى يأتيه ميسور. ودخل (ر 122 أ) القاضي أحمد بن بحر إلى خليل فوجده متغيّرَ اللون حين بلغه مصير الجند إلى أبي يزيد. وجاء منصور بن عمّار فقال لـه: إنّ العدوّ قد لصق بالمدينة.

فقال خليل: ارجع فاعمل برأيك في قتالهم!

فقال منصور: وأي رأي يكون لي في هذا الوقت، وقد هرب أكثر الجند وتفرّق الناس؟

---

(89) الفافاني في النسخ، والتصحيح من الدشراوي.

خليل يتطيّر من بعض العلامات فيرجع عن القتال.

ثمّ خرج منصور، وكان قد استعمله خليل على القيروان وعزل الجليقيّ[90]. وعاد إلى خليل وقال له: «إنّ الجند الذين كانوا في عسكرك صاروا مع أبي يزيد، فاخرج ليراك الناس!» وقال القاضي: «اركب وأْمر بإخراج البنود وضرب الطبول!» وركب ومن بقي معه حتى صاروا إلى باب تونس عند القنطرة[91]، فإذا بأبي يزيد قد أقبل بخيله. فلمّا رآهم خليل دعا بدرعه ليلبسها فوجدها مقلوبة فنزعها. وأمسكوا له دابّته ليلبس لأمته، فإذا حزام الدابّة مرخيّ، فمال به السرج إلى بطن فَرَسِه وكاد أن يسقط.

272

وقرب منهم أبو يزيد الدجّال وجنوده، وافترق الناس/ من

(90) لا نعرف شيئاً عن الجليقيّ هذا ولا عن خلفه منصور بن عمّار.

(91) لم تذكر المصادر القديمة قنطرةً بباب تونس وإذا ذكرت وادي أبي كريب (رياض النفوس، 237/1) فبعيداً عن باب تونس في الشمال.

وباب تونس هو أحد أبواب القيروان الأربعة عشر حسب البكريّ المتوفّى سنة 487. والمعروف من هذه الأبواب في الفترة التي تهمّنا خمسة:

(1) باب نافع بالجانب الشرقيّ من المدينة، وبإزائه مقبرة ومصلّى (رياض النفوس، 154/1 وغيرها)

(2) باب أبي الربيع، وكان يمرّ بقربه نهر صغير يسمّى وادي القصارين (أي مبيّضي الثياب) فبنى عليه زيادة الله الأول قنطرة عرفت بقنطرة أبي الربيع، وكان يعدّها من مفاخره الباقية (ابن عذاري، 106/1) ويبدو أنّ هذا الباب كان في الجهة الجنوبيّة الشرقيّة من القيروان.

(3) باب أصرم في الجنوب الغربيّ من المدينة، ومنه يُسار إلى رقّادة

(4) باب سَلم في الغرب «ويطلّ على المقبرة العظمى التي دفن فيها من العلماء والصالحين عدد عظيم» (رياض النفوس، ج 1 ص 8)، وهي مقبرة قريش (طبقات أبي العرب، 18). وفي مناقب أبي إسحاق الجبنياني(نشر هـ.-ر. إدريس، 197) أنّ سلما (أو سالما) هو الجدّ الأعلى لأبي إسحاق.

(5) باب تونس: يفتح إلى الشمال، وهو المطلّ على مواجل الأغالبة العظمى. وعلى مقربة منه ضريح الصحابيّ أبي زمعة البلوي

وكلّ هذه الأبواب تقع بإزائها مقابر ومصلّيات في البراح، فيصعب تحديد الموقع إذا اكتفى الداعي إدريس بالقول. وقصد إلى المصلّى، دون أن يربطه بباب.

حول خليل. فلمّا رأى خليل فساد الأحوال قال: «هذا أمر فاسد» وحوّل وجه دابّته ودخل القيروان. فقال له منصور بن عمّار: «لا تتحصن بالقيروان، واخرج بنا في حميّة لنمضي إلى ميسور، فليس بيننا وبينه غير مسافة يسيرة[92]، والبربر مشتغلون بالنهب في القيروان، والليل قد أقبل». وكان ذلك وقت العصر. فقال خليل: «يا أحمق، أنا أدخل الدار وأغلق الباب حتى يأتيني ميسور». ودخل الدار معه القاضي أحمد بن بحر[93]، وعبد الله بن زياد كاتب خليل، وسهيل بن نفس صاحب النفقات، ومنصور بن عمّار وجماعة نحو أربعمائة رجل فأغلقوا باب الدار على أنفسهم *. ودخلت البربر القيروان يقتلون ويأسرون. وكتب خليل حين انحصر بالدار إلى أمير المؤمنين القائم بأمر الله (عم) وعلّق الكتاب على حمام وأطلقه إلى المهديّة. فطار الحمام[94] قليلاً ثمّ صار إلى نخلة الدار فنزل عليها. ثمّ كتب رقعة أخرى وأرسل بها حماماً آخر، فطار قليلاً ورجع فوقع في الدار. فجاء أبو سليمان أيّوب بن خيران الزويليّ فحاصر خليلاً، ورجع أبو يزيد إلى موضعه إلى رقّادة. ورفع خليل مَن/ معه إلى أعلى الدار ليقاتلوا بالنبل والحجارة، وكان يطمع أن يأتيه ميسور. وتمادى القتال إلى الليل. وخاف البربر أن يأتيهم ميسور في

.. وينحصر في القيروان...

دش 95

273

(92) قد يعني هذا أن «الجيش الأعظم» كان أقرب إلى القيروان منه إلى المهديّة. ويقول ابن الأثير في روايته، 304/6: وقارب ميسور مدينة القيروان.

(93) ابن يحيى في الأصل. وقد مرّ اسمه في ص 269: أحمد بن بحر. وهو مذكور في طبقات أبي العرب، 240: «فولّى أبو القاسم ـ أي القائم ـ أحمد بن بحر قضاء القيروان» (بعد إسحاق بن أبي المنهال) وكان قبل ذلك قاضياً على طرابلس (ابن عذاري، 205). وفي العيون والحدائق، 423: أحمد بن بحر كما أثبتنا.

(94) يظهر أنّ استخدام حمام الزاجل لنقل الرسائل كان أمراً منتشراً عند الفاطميّين، وقد رأينا صورة منه في أخبار المهديّ بعد هروبه من سلمية (ص 125). وانظر تعليق ناشر مناقب أبي إسحاق، 314، هامش 106.

تلك الليلة فخرجوا خائفين، إلاّ أيوب بن خيران ومن معه من البربر، فإنّهم باتوا على محاصرة خليل في الدار[95]. وألقى البربر النار في الإصطبل المتّصل بدار خليل، فخاف أصحاب خليل أن تتّصل النار بهم وفشلوا [في إخمادها][96]. وصاح لهم البربر بالأمان وقالوا: «إنّما نطلب خليلاً وحده». فتراموا من أعلى الدار بالحبال، ولم يبق مع خليل إلاّ من لم يمكنه النزول. وكان خليل قد دبّر أن يعطي من معه الأرزاق ويفتحوا الأبواب ويهربوا بالليل. فحين ارتمى أصحابه إلى البربر لم يمكنه ما دبّر، وأعطاه أبو سليمان الأمان، وحلف له الأيمان. فنزل خليل بعد أنْ اشترط أنّ الدار تكون له وقال: «هي لي من مولانا أمير المؤمنين» * وجعل يكرّر ذكر الدار وأنّها له من أمير المؤمنين. فأعطاه أيّوب ما طلب، وكتب القاضي بذلك كتاباً وأشهد من حضر من البربر. وقال أيوب لخليل: «اركب على أفره دوابّك، وتزيّ بأحسن ثيابك، فإنّه لا يكون إليك شيء تكرهه».

.. فيحصره أيّوب الزويلي ويضرم في قصره النار..

دش 96

.. فيستأمن لأيّوب...

274

وخرج خليل / والقاضي معه وجماعة من أصحابه. وأُنزل خليل عن دابّته وأُركِب برذونا أشقر. وركب أبو سليمان وتوجّهوا إلى أبي يزيد، وهو في مُناخه برقّادة. فأمر أبو يزيد اللعين أبا سليمان أن يحبسهم في فازته[97] وأن (ر 123 أ) يجعل أرجلهم في سلاسل الحديد، وباتوا على ذلك إلى أن أصبحوا.

وروي عن رجل يقال له سهل قال: «كنت مع خليل عند أبي

(95) أي دار الإمارة، وكانت قبليّ الجامع، جامع عقبة، وخرّبها إبراهيم الأوّل لمّا انتقل إلى القصر القديم سنة 194. ومن جامع عقبة إلى باب تونس مسافة ثلثي ميل (البكري، 26، 28).

(96) زيادة من المطبوع.

(97) الفازة: الخيمة الكبيرة منشورة على عمودين.

.. لكنّ أبا يزيد يأمر بقتله مع أصحابه..

سليمان (ط 190) وبات بربريّ واحد يحفظنا، ونحن ثلاثون رجلاً، والخيل المسوّمة عندنا. فما منعنا أن نقتل الرجل، ونركب الخيل وننجو، والليل يسترنا، إلاّ ما أراد الله من تمام أمره».

وأقام خليل وأصحابه معتقلين عند أيّوب بن خيران باقي ليلة الثلاثاء ويوم الثلاثاء، وقُتلوا جميعاً يوم الأربعاء. وكان أبو يزيد شاور صاحبه أبا عمّار الأعمى في إبقاء خليل وقال: ليس في قتله فائدة، وهو يعرف أحوال إفريقيّة، ونحن نحتاج إليه.

فقال له الأعمى: لا بدّ من تعجيل قتله[98] لأنّ من في عسكرنا من الجند والعبيد ملكناه بأسيافنا ويكره ما سرّنا، وخليل قائد مشهور ورئيس معروف، وعيون الناس ناظرة إليه، ولا نأمن أن يكون أدنى حركة في العسكر واختلاف/ بين القبائل، أو عمل من السلطان أو من ميسور، يستخلصونه به ومَن معه. وقد قيل في كتاب كليلة ودمنة: «ليس للعدوّ المخوف أولى من قتله، وإراحة النفس منه، وإن كان في غاية الضعف والقلّة». فأجابه أبو يزيد إلى قوله.

275

.. بعد استشارة أبي عمّار الأعمى

وروى محمّد بن عمرون القصري، وكان فيمن أسر مع خليل، ولم يتخلّص من القوم غيره وغير سهل الذي تقدّم ذكره، قال: «كنّا في الأغلال، وقد جاع خليل ولم نجد ما نأكل لأنّ القوم كانوا يأتوننا بطعام جشب[99]، وكان عند أبي سليمان خادم كان يشفق علينا، وكان أهله لمحمّد بن منّ الله[100]. فقال له خليل: «ويحك،

---

(98) عند ابن خلدون، 14/7، أنّ أبا عمّار هو الذي أراد استبقاء خليل، فلم يطعه أبو يزيد.

(99) في «ر»: خشن وفي المطبوع: خشب. وجشب الطعام (وزن نصر وفرح): غلظ فهو جشب وجشيب

(100) لعلّه ابن منّ الله بن حسن بن أبي خنزير؟ قال ابن عذاري، 181/1 إنّ المهديّ عزل منّ الله عن ولاية القيروان وأخرجه في حملة مصر مع القائم.

أطلب لنا فرّوجاً وقرعاً واحتل في إصلاحه!» فبينا نحن كذلك إذ دخل بربريٌ من أصحاب أبي سليمان (ر 123 ب) الزويليّ فجرّد عمامة خليل ونزع ثيابه. وأتى قوم آخرون ففعلوا بنا مثل ذلك. وجعل غلام محمّد بن منّ الله الذي عند أبي سليمان يناولنا خِرقاً نستتر بها عورَتَنا من خلف الباب، وهي من كساء سمل قد شقّه، وقال: «استتروا بهذا فإنكم تخرجون إلى القتل». * وظهر من القاضي أحمد بن بحر[101] من الجزع أمر عظيم، وجعل يقول: «أيرضى أبو يزيد بقتل القضاة؟ من سبقه إلى هذا؟

دش 98
جزع القاضي أحمد بن بحر من الموت

فقال له خليل: كم عمرك يا قاضي؟

/قال: قد بلغت الستّين.

276

فقال خليل: هذا معترك المنايا، وأنا أسنّ منك». وتمثّل خليل (بسيط):

ما بعدَ ستّينَ قد أَخْلَقْتَ جِدَّتَها من حالةٍ يترجّاها ذوو الكبَرِ
إلاّ التي تسلبُ الأجسامَ أنفُسَها وتنقلُ الناسَ من دار ألى حُفَرِ[102]

فعلا صوت القاضي بالبكاء والاستغاثة إلى الله (تع) والدعاء. فقال خليل: «ما في المقام بعد هذا الحال خير، قبّح الله الدنيا ومن يغترّ بها!» وأركَبوا خليل بنَ إسحاق وأصحابَه على حمير، وأهل إفريقيّة حولهم وجنود البربر.

وفيما أتى عن محمّد بن عَمْرون [القصريّ] قال: «لّما توسّطنا العسكر، جاء قوم من البربر من قبَل أبي يزيد فقالوا: لا تقتلوا

(101) ابن يحيى بن بحر في الأصل. وفي «ر»: القاضي يحيى بن بحر.
(102) لم نهتد إلى قائل البيتين.

محمَد بن عمرون القصري! (قال) وفيهم من جاورني بالقصرين[103] في بلدي فأحسنت إليهم فسألوا أبا يزيد في إبقائي فأجابهم إلى ذلك. (قال): ووضع البربر السيوف والرماح في خليل، وقد عارضه ابن زربيّة الفاسق القيروانيّ، فبصق لعنه الله في وجه خليل ولطمه ونتف من لحيته وأنشد/ أوّل شعر خليل الذي عارض فيه مروان بن أبي حفصة، رافعاً صوته، وهو (كامل): *

277

دش 99

قــف بـالـمـنـازل وآسـألَـنْ أطـلالَـهـا
مـاذا يـضـرّك إن أردتَ سـؤالَـهـا؟
هـل أنـت أوّلُ مـن بـكـى فـي دمـنـة
درسَتْ، وغيّرتِ (ر 124أ) الحوادثُ حالها؟[104]

صبر خليل أمام الموت

(قال): فانحدرت الدموع من عين خليل وقال: أحسنت! وظهرت منه أريحيّة وشجاعة لم تظنّ [فيه].

وضُرب خليل بالسيوف فيما قيل ثمانيَ عشرة ضربة، وهو قائم على قدميه لم يتأوّه ولا انجدل[105] حتى ضربه أحد البربر بالسيف على الأوراك فسقط. وضُرب حتى مات رحمة الله عليه. وظهر من القاضي أحمد بن بحر[106] ومن سائر الجماعة غير قليل

(103) هذه الإشارة تدلّ على أنّ نسبة «القصري» لا تعني بالضرورة القصر القديم، مدينة الأغالبة بضاحية القيروان، خلافاً لما جاء في الورقات، 358/1، وفي الهامش 4 ص 197 من رياض النفوس، ح 2، وفي طبقات الخشنيّ، 170

(104) قصيدة مروان بن أبي حفصة (ت 182) في مدح المهديّ العبّاسيّ مطلعها:
طـرقَـتـك زائـرة فـحـيّ خـيـالـهـا بـيـضـاء تـخـلط بـالـحـيـاء دلالـهـا
(شعر مروان، جمع حسين عطوان، سلسلة ذخائر العرب، 49 ص 96). وقصيدة خليل هذه أورد منها ابن الأبّار (الحلّة، ترجمة 109) 15 بيتاً.

(105) انجدل. ارتمى بالأرض

(106) أحمد بن يحيى بن بحر في الجميع

من الجزع، وقُتلوا صبراً رحمة الله عليهم في طاعة الأئمّة الطاهرين، وعلى ولاية القائم بأمر الله أمير المؤمنين، فهنيئاً لهم ما آتاهم الله (ط 192) من الجزاء الطويل، والنعيم في الآخرة الذي لا يفنى ولا يزول، كما وعد تعالى، وهو الصادق في وعده إذ يقول: ﴿ وَلَا تَحسَبَنَّ الذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحينَ بِمَا آتَاهُم اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بالذِينَ لَمْ يَلْحقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (آل عمران، 169 - 170). ألحَقَنا الله سبحانه بالشهداء، وجعلنا في/ مَحْيانا ومماتنا من السعداء. 278

* وكان خليل رحمة الله عليه شاعراً بليغاً، وقد ذكرنا من شعره. دش 100
ومن ذلك قوله (كامل):

خليل كان شاعراً بليغاً..

ذهبَتْ أكاليلُ الوَسامة وأبيضّ مُسودُّ الغمامة
وجفاك من عذّبتَه وأطلتَ من شوقٍ غرامه
والغانياتُ إذا رأيـ ـنَ الرأس أصبح كالثَّغامة[107]
أعرضْنَ إعراضَ الجمو ح إذا أبَحْتَ له لِجامه
5 من ودّني، فمودّتي وَقفٌ عليه إلى القيامة
ومَن آنثنى عنّي، دعو تُ له المهيمنَ بالسلامة
لا أحمِلُ الحقدَ المقيـ ـمَ على الصديق، ولا المَلامة
وإذا تعرّض جاهلٌ أو ظالمٌ منّي ظُلامة
طوّقتُها عنَ قدرةٍ في جيده طَوقَ الحمامة
10 ولقد ركبتُ الخيل تحـ ـمِلُ شِكّتِي مثلَ النعامة
ونصرتُ آل محمّد وأذقتُ شانِئَهم حِمامه
والخيلُ تعلَمُ أنني في الحرب أصدَقُها شَهامة

(107) الثغامة: شجرة ذات زهر أبيض.

وأعَـزُّهَـا نـفْـسـاً وأكـ ـرمُـهـا وأكـثـرُهـا صـرامـة
ولـقـد أبِيـتُ مـع الـفـتـا ةِ (ر 124) كأنها شمسُ الغمامة
.. له شعر في 15 فـي ريـقـهـا ولـحـاظِـهـا طُـرَفُ الـفـواكـه والمُـدامـة
الفخر.. لا والـذي خصَّ الـخـلـيـ ـفـة بـالخِـلافـة والإمـامـة
وحـبـاه بـالـنـبـأ الـعـظيـ ـم وبـالـفضيـلة والـكـرامـة
دش 101 مـا خُـنـت عـهـداً لـلصـديـ ـق، ولا رجعتُ لـه نَدامـة *
ولـقـد وفَـيْـتُ لـمـن هـوِيـ ـتُ كما وفى كعبُ بنُ مـامـة
279 20 لا خـيـر في الـدنـيـا لـمَـن لا يـرتـجي دار الـمـقـامـة /

وله (ط 193) يخاطب الإمام (عم) ويذكر له الكُتّاب واقتطاعَهم الأموال:

(كامل):

الله يـعلَمُ يـا خـليفـةَ ربِّـنـا وابنَ الخلائف أنّني لك ناصحُ
.. وفي نصح فإذا نصحتُك يا ابنَ بنت محمّد فالحظُّ لي، وأنا السعيدُ الرابح
الإمام.. أضحتْ دواوينُ الإمام، ونقصُها بعدَ الزيـادة مستبينٌ واضح[108]
ماذا أرى من بعد أن لعِبُوا بها وتعاقَدُوا في أَخْذِها وتصالحوا؟

وله أيضاً (كامل):

.. وفي الاتّعاظ بـان الشبـابُ فبِنْ عن اللذّاتِ وتـولَّ مُنصـرِفـاً عن الشهـوَات
دش 102 واهجُرْ صواحبَك الحسان اللائي في هَجْرِ المشايخ غيرُ مختلفات *

---

(108) في البيان، 215/1، أن «عبيد الله الشيعيّ كان يصرفه في الأعمال وحبايات الأموال ومحاسبة الدواوين والعمّال» وذكر من شعره «في عبيد الله وتوغّله فيه» بيتين:
إنّ الإمـام أقـام سـنّـة جـدّه لـلمسلمين كمـا حـدوتَ بـعـالـهـا
أحـيـى شـرائـعـه وقـوّم كـتـبـهـا وفـروضـهـا وحـرامَـهـا وحـلالـهـا
ولعلّهما من القصيدة التي أورد الداعي إدريس مطلعها منذ قليل، فتكون هذه اللامية في مدح مهديّ أيضاً مثل قصيدة مروان بن أبي حفصة

إنّ التصابي بالخرائدِ كالدُّمَى لأولي النُّهى والشيبِ غيرُ مؤاتِ
لله دَرّ فتى يروح ويغتدي حَذِرا من الآثام والشُبُهاتِ

بعض أخبار المشرق: خلع المتّقي العبّاسيّ

وفي اليوم الذي استولى فيه مخلد على القيروان وقُتل خليل رحمة الله عليه وافق أخذُ العبّاسيّ إبراهيم المتّقي[109] بن جعفر المقتدر صاحب بغداد فسُملت عيناه، وذلك يوم السبت لسبع بقين من صفر/ [أكتوبر 944][110]. وتولّى منه ذلك غلامه توزون[111] التركيّ. وكان المتّقي قد قدم من الرقّة وصار بين الأنبار وبغداد بقرية يقال لها السنديّة[112] على نهر عيسى، وقد تلقّاه توزون بها وأقام معسكراً فيها ينتظر قدومه ويظهر أنّه أتاه مستقبلاً له. /فتغلّب عليه وانتهب عسكره ومال به إلى مضربه فكحل عينيه[113] وأعماه. وأجلس مكانه المستكفي[114] وتوجّه إلى بغداد فأدخله إيّاها. وكان ا ببغداد النهب وظهور اللصوص وغلاء الأسعار. وكان القمر قد انخسف لأربع عشرة [ليلة] من صفر خسوفاً كلّياً. وقد ذكر أصحاب النجوم أنّ القمر إذا انخسف في برج الحمَل وقابله نحسا الفلك فإنّ ملك بابل يهلك. فذكر أنّه كان كذلك وهلك بعد الخسوف بسبعة أيّام[115].

280

(109) المتّقي لله هو الحادي والعشرون من الخلفاء العبّاسيّين، خلف من 329 إلى 333.

(110) قد مرّ بنا (ص 269) أنّ أبا يزيد ارتحل من البرحماس لثلاث بقين منه. فهذا مثال آخر من اضطراب التواريخ عند المؤلّف. وفي ابن الأثير، 301/6 أن خلع المتّقي كان لعشر منه.

(111) في الجميع: بورق، وهو تحريف ظاهر

(112) السنديّة لا السندسيّة، وهي «ضيعة على شاطىء نهر عيسى على شوط من بغداد» (مروج، 34/5).

(113) لا يوجد معنى السمل في مادّة «كحل» في المعاجم، ولعلّه معنى مولّد.

(114) المستكفي بن المكتفي (صفر 333 ـ شعبان 334). انظر مروج الذهب، 244/6.

(115) هذه خرافة. يقول المسعودي (التنبيه والإشراف، 344) في المتّقي: «وهو حيّ إلى وقتنا هذا، وهو سنة 345، مكرم على ما ينمي إلينا من أخباره». وفي العيون. والحدائق، 410 أنّه عاش حتى سنة 350.

دش 103 * ونرجع إلى ما كنّا فيه:

ولمّا قتل خليل رحمة الله عليه وافى البربر القيروان (ر 125 أ) ينتهبون الأموال ويستبون النساء ويقتلون الرجال. فنادى الناس في السحر ليذهبوا إلى مخلد الدجّال ابن كيداد (ط 194) فخرج أهل القيروان إلى مخلد يصطرخون. ووافاهم البربر فجرّدوهم عن ثيابهم وقتلوا جماعة منهم. ووافى أهل القيروان أبا يزيد وقد ركب من مناخه وهو يريد القيروان، فقرّب إبراهيم العمشاء[116] القيروانيّ - وكان يقول بخلق القرآن - وعانقه. وشكا إليه أهل القيروان ما نالهم، وقال له رجل منهم: «يا شيخ، إنّك تطلب أمراً عظيماً لا تناله بهذه الأفعال، وإنّما تناله بالعدل والإحسان.

تذمّر وجوه القيروان إلى أبي يزيد...

281

فقال لهم: ذلك بما كسبت أيديكم /! ولامهم في تخلّفهم عنه وقرأ آيات من القرآن.

فقالوا: إنه حِيلَ بيننا وبينك.

فقال: وما منعكم أن تهاجروا إليّ؟

وأشار عليه صاحبه أبو عمّار الأعمى بأمانهم وتقريرهم وقال له: «إنك تحتاج إلى القيروان، ولا غناء بك عنها». فأمّنهم بعد أن عاهدهم على أن يبذلوا له أموالهم ويخرجوا للجهاد معه بزعمه[117]. ووجّه معهم رجلاً من وجوه البربر ليدفع البربر عنهم.

---

(116) في النسخ وفي المطبوع: ابن الغشماء، وفي دش: ابن الخشاب. والتصويب من طبقات ابن حارث الحشني، 221 إذ يسميه أبا إسحاق العمشاء «لعمش في عينيه» وقد جعله ضمن أهل المناظرة والجدل مع العراقيين والقائلين بخلق القرآن وأضاف: «وهو اليوم على هذه الحال» (والخشنيّ عاش إلى سنة 371 على التقريب).

وفي رياض النفوس، 342/2 أنّه انضم إلى حملة الفقهاء مع أبي يزيد وكان له البند السابع، ويبدو أنه لم يستشهد بالوادي المالح مثل الممّسي وربيع القطان وغيرهما.

(117) خروج الفقهاء مع أبي يزيد ببنودهم السبعة لم يكن عن تطوّع. وفي البيان، 217، =

فسار في رجال معه، ونادى مناديه، فكفّ البعض، وبقي الأكثر ينهبون ويسبون البنات والنساء. ولم يرفع البربر أيديهم عن أهل القيروان * وما زالوا يسبون وينتهبون ويفتضّون الأبكار، وأهل القيروان يتردّدون إلى أبي يزيد. وجاءه رجل فشكا إليه أنّ جارية له أُخذت، وأنّ داره انتُهبت، فتمثّل ولم يكترث وأنشد (طويل):

دش 104

.. من فظائع جيشه

إذا أبقتِ الدنيا على المرء دينَه   فما فاتَهُ منها فليْسَ بضائر[118]

وكان اللعين فيما قيل من أبرع الناس وأسرعهم تمثّلاً بأبيات الشعر وآيات القرآن. وقال: «يا أهل القيروان، إن خُرِّبتْ مدينتُكم، فقد خرِّبت مكّةُ والبيتُ المقدّس»[119].

وأقام مخلد الدجّال إلى شهر ربيع الأوّل. ونادى مناديه بتحريك أهل القيروان للخروج معه وأن يوافوا مصلّى العيد/. فاستعمل يدرس المزاتي على القيروان، وكان من أغلظ أصحابه.

282

وكان ميسور مقيماً في الموضع الذي عسكر به[120]، وقد

= فصل طويل عن تحريض أبي يزيد لهم، متظاهراً بالدفاع عن مذهب مالك، ولعن عبيد الله والقائم وفيه أيضاً تحليل لدهاء أبي يزيد: فقد أوصى جنوده بالانكشاف عن أهل القيروان «حتى يتمكّن أعداؤكم من قتلهم فنستريح منهم» (ابن عذاري، 218).

(118) هذا البيت مذكور أيضاً عند ابن حمّاد، 21، وهو لأبي العتاهية (ديوانه، نشر شكري فيصل، 149).

(119) هذه «الطرفة» من مخلد مذكورة في الكامل أيضاً، 304/6.

(120) أي الأخوان. وسيأتي في رسالة القائم (ص 291) أنّ هذا الموضع على اثنين وعشرين ميلاً من المهدية. فإذا قدرنا الميل بكيل البكري - نحو كيلومتر ونصف - يكون «الأخوان» على نحو خمسة وثلاثين كيلومتراً من المهديّة، بينها وبين القيروان (البكري، 31)

وإذا ربطنا الموضع بـ«الجسور الأولية» التي سيذكرها المؤلف بعد قليل =

أبو يزيد يرغم أهل القيروان على مؤازرته

اجتمع إليه خلق عظيم من كتامة والعبيد والمغاربة وبني كملان بالكراع والسلاح والأموال (ط 195) والقوة التي لم يكن مثلها في عسكر قبله[121].

واتّصل بأمير المؤمنين القائم بأمر الله (عم) أنّ جماعة من بني كملان الذين في عسكر ميسور قد كاتبوا أبا يزيد وراسلوه ووعدوه أن يعملوا الحيلة في قتل ميسور. فكتب (عم) إلى ميسور كتاباً * يحذّره منهم ويأمره بإزالتهم عن معسكره وطردهم عن نفسه.

دش 105

بنو كملان يفارقون جيش ميسور إلى جيش مخلد

فساروا إلى أبي يزيد وحرّضوه على ميسور وقالوا: «إن عاجلتَه بالحرب ظفرت به». فسارَ يريد ميسوراً، ثمّ عطف على قصر المغيرة فبات بالماجل الذي على طريق المهديّة على ستّة عشر ميلاً من القيروان. وكانت ليلة باردة، ولم يكن مع أهل القيروان لها عدّة[122]، فمات تلك الليلة كثير منهم. ورفع أبو يزيد صبيحة الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأوّل [نوفمبر 944] فوافت

= ويجعلها سبباً لسقوط ميسور وجرحه، أمكننا الافتراض أن ميسوراً اتخذ معسكره بجهة أثرية تقع جنوب المهدية أو غربيّها: ذلك أنّ ابن عذاري، 219، يذكر مدينة سلقطة ـ وهي Sullectum القديمة ـ ويقول: «ومنها زحف أبو يزيد أيام حصاره، وكانت محلّته بترنوط». وسنرى أنّ أوّل ما يحتلّه من أرباض المهدية هو ربض زويلة الواقع جنوبي المهدية في اتجاه سلقطة.

وستبعد أن يكون معسكر ميسور سلقطة لأنّها ليست بين المهدية والقيروان. ويمكن أن يكون بجهة «الجم» حيث القصر الأثريّ المشهور، وهذا يفترض أن أبا يزيد سلك طريقاً جنوبيّة تحاذي سبخة سيدي الهاني جنوباً ثم تفضي إلى قرى الساحل وزياتينه، أو أيضاً بقرية Sarsura الواقعة في منتصف الطريق بين سوسة والجمّ، في المكان المعروف اليوم بـ «سيدي بوقبرين».

(121) لذلك وصفه المؤلف بالجيش الأعظم، فالعبارة ليست مصطلحاً إداريّاً.

(122) في الأصل: له عدّة. والضمير يعود على الليلة الباردة. ونتبين من هذه الفقرة أن اشتراك أهل القيروان في القتال مع أبي يزيد بدأ قبل وقعة الوادي المالح ـ أو الماء المالح.

طلائعه طلائع ميسور بموضع يعرف بـ «بقلوط»[123] فناشبوهم القتال. وسبق الخبر إلى ميسور فأخذته دهشة وحيرة/. وأتاه جماعة من وجوه رجاله يسألونه تفريق السلاح على العسكر فأبى عليهم. وهجم عليهم عسكر أبي يزيد، وهم في الكلام في أمر السلاح. وركب ميسور ووقف على جسر كان بالقرب من موضع القتال، وفي ذلك المكان جسور أوّلية لا يستطيع الراجل أن يعلُوَها فضلاً عن الفارس. وإنّما نزل ميسور (ر126أ) هنالك ليحصُن بها من البيات. وانهزمت ميسرة أبي يزيد حتى بلغوا في هزيمتهم القيروان. ولما رأى أبو يزيد هزيمة ميسرته، قصد فيمن معه من غزاته ووجوه رجاله إلى موضع ميسور، وقد حفّت بأبي يزيد رجاله وفرسانه، فانقطع أصحاب ميسور من بين يديه واستوت الهزيمة فيهم * وقصدوا إلى المهديّة. فلما رأى ميسور فساد الأمر، حوّل دابّته ليزول عن الجسر، ووافاه سهم فغلغل في دماغه، ووقع في الجسر فكُسر فخذه. وكان السهم الذي وقع فيه قد أحال عقلَه فجعل يضحك كالمعجب. وعادت دابّة ميسور فلم تُدرك إلاّ في المهديّة. وترجّل عليه[124] وجوه رجاله من كتامة والمغاربة والعبيد (ط 196). وقصده بنو كملان

283

ميسور يصاب بسهم في رأسه..

دش 106

---

(123) بقلوط: قال الدشراوي في تعليقه 243 إنّها قرية «البقالطة» الحالية، والبقالطة تقع شمالي المهدية، ورأينا منذ قليل وسنرى بعد حين أنّ أبا يزيد يزحف من الجنوب نحو الشمال وقد ذكر النعمان (المجالس، 324) بقلوط في جملة المواضع التي اختبرها القائم وقاسها حين فكّر في استبدال المهدية عاصمة له، ولا نخاله يختار موضعاً على خمسة عشر كيلومتراً من المهدية ليبتني به عاصمة جديدة.

فالرأي عندنا أنّ بقلوط تقع جنوب المهديّة في اتجاه قصور الساف أو سلقطة أو قصر الجمّ، وسيأتي في حديثنا عن الوادي المالح ما قد يدعم رأينا

(124) ترجّلوا لا ترحّلوا، والتعدية عندئذٍ تكون بـ «عن» حرف البعد والانفصال والمعنى. نزلوا عن دوابهم والتفوا حوله ليدفعوا عنه بني كملان، وتدعمه رواية ابن الأثير، 304/6: «وقاتل أصحابه عنه ليمنعوه فقصده بنو كملان الذين طردهم..» وبصفة عامة، تتفق روايتا الكامل وعيون الأخبار، كأنّ مصدرهما واحد.

فقتلوه. وقصد أبو يزيد إلى مضربه فنزل فيه. وسبق البربر إلى الفازات والأخبية/ فغلبوا عليها وانتهبوا ما فيها. وأمر أبو يزيد لعنه الله بميسور رحمة الله عليه، فَشُرح جسده وعلّق على شجرة زيتون[125] وأمر برأسه إلى القيروان. فلم يشكّ الناس بعد قتل ميسور أنّ أبا يزيد يظفر بالمهديّة وأنّه قد غلب.

284

فيجهز عليه بنو كملان

وكان فضل بن أبي يزيد مقيماً برقّادة في معسكر أبيه مع أبي عمّار الأعمى. فأتاهم كتاب الدّجّال أن يوجّهوا برأس ميسور إلى المغرب وأوراس ونواحي الزاب، وكتب إليهم الدجّال يعرّفهم بقتل ميسور وأنّها استقامت له الأحوال.

هلع أهل المهديّة بعد هزيمة جيش ميسور

دش 107

ولمّا اتّصل قتل ميسور رحمة الله عليه بأهل المهديّة، ووصلت الهزيمة إليهم، كثر الخوف لديهم وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً[125م] وظنّوا أنّ أبا يزيد الدجّال يعاجلهم، فارتحل عامّة * الناس من كتامة سراعاً إلى حول المهديّة بعيالاتهم، يريدون دخول المهديّة للتحصّن بها، وليكونوا حول أمير المؤمنين القائم بأمر الله (عم). فأمر (عم) حيّان (ر 126 ب) البوّاب بمنع الناس من الدخول وأن يرجعوا بعيالاتهم إلى مواضعهم ومساكنهم، وأمره أن يقول للقوم الواردين من كتامة «ألاّ خوف عليكم فارجعوا إلى مواضعكم آمنين، فإنّ هذا/ زبد سوف يذهب، ويديل الله (تع) لكم على القوم الظالمين. وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ[125م]، ولكلّ أمر مدّة، ولا بدّ أن تغلبوا إن شاء الله». فخرج إليهم حيّان فبلّغهم رسالة أمير المؤمنين (عم)، فما سكن إلى قوله إلاّ قليل من الناس، وماج الناس بعضهم في بعض متردّدين على باب المهديّة، وأقاموا ثلاثة أيّام بالفضاء بأهاليهم وأموالهم، وأخذهم نوء عظيم. فلمّا يئسوا من الدخول، رجع بعضهم إلى مساكنهم، وسكن بعضهم في

285

القائم يمنع سكّان الأرباض من التحصّن بالمهديّة

(125) هذا التمثيل بجثّة القائد الفاطميّ لم يذكره ابن الأثير، وهو أوفى رواية من غيره.
(125م) الرعد، 38. الأحزاب، 11.

زويلة[126] وأكثروا التردّد، يتوقّعون مجيء أبي يزيد. واستعدّ مَن في المهديّة للحصار.

وأقام النكّاريّ الدجّال في معسكر ميسور[127] يشنّ (ط 197) الغارات على أهل السواحل وغيرها من الكور، وسائر أقاليم إفريقيّة، ويبعث البعوث، ويخرج العساكر إلى الحصون. فاستفتح كل الحصون التي على البحر وأخذ ما فيها. ودخل البربر مدينة سوسة بالسيف وانتهبوها وقتلوا رجالها * وسبوا نساءها وأخربوا منازلها. وقتلوا من بقي من الرجال في سائر الكور والمنازل، وعذّبوهم بأنواع العذاب التي لم يسمع بمثلها في الأمم، مثل قطع الأعضاء، وتشويه الخلق، وبقر البطون، وشقّ الفروج، وغير ذلك/ من الأفعال المنكرة. وسبوا النساء وأجلوا الأقاليم بإفريقية، فلم يبق سقف مرفوع، ولا مهاد موضوع. وانحفل من بقي في المدن إلى القيروان وإلى الحصون التي على البحر، وخرجوا من منازلهم عراة حفاة، ومات كثير منهم جوعاً وهزلاً، وبرداً وعطشاً. ثم كانت البربر يدخلون القيروان بما غنموه من الأموال (ر 127 أ) والدوابّ والجمال بالأمتعة والسبايا من النساء والولدان ركباناً ورجّالة، مخضّبات بالدماء باكيات حاسرات مستغيثات إلى الله جلّ وعلا. وجمع البربر من السبايا المسلمات وأموال الناس التي اغتصبوها وانتهبوها إلى معسكر الدجّال وإلى القيروان ثمّ إلى نواحيهم ما لا يحصى عدده، ولا يدرك أمده. وكانت ظلمة عمّت المغرب، ومحنة شمَلت على كلّ مسلم من كلّ مبعد ومقترب. وكان الناس يأتون يطلبون أمّهاتهم وذوات أرحامهم،

دش 108

الثوّار يعيثون فساداً في القرى..

286

.. يقتلون ويسبون ويترّون

(126) زويلة هو الربض الذي خصّصه المهديّ لعبيده الزويليّين السود.

(127) أي الأخوان، الذي تساءلنا عن موقعه الحقيقيّ وتربّص أبو يزيد، حسب ابن الأثير، شهرين وثمانية أيّام، وهلاك ميسور كان في 12 ربيع الأول 333 (نوفمبر 944).

دش 109 فمن عرف منهنّ أحداً بادرت إليه البربر فقتلته *. وقيل إنّ رجلاً جاء يستغيث إلى أبي يزيد اللعين فقال له: أنـا بـالله ويك يا شيـخ المسلمـين.

فقال له: اشرح قصّتك.

287 فقال: أنا رجل ذو نعمة ويسار، ولكتامة مذ أخـذوا/ هذه البلاد أربعين[128] سنة وأنـا أُؤَدِي، ويجور عليّ من العمّـال من يجور، فما أخذوا منّي ألف دينار في طول تلك المدة. وأصحابك أخذوا منّي ما يزيد على أربعة آلاف دينار في ساعة واحدة، وسبوا لي جماعة من النساء الحرائر، منها ابنتان لي صالحتان، وقد بلغني أنّ عندك إحداهما، واسمها عزيزة.

أبو يزيد يعطي المثل في الفساد والإفساد .

فقال أبو يزيد لعنه الله: اذهبوا فادفعوا إليه ابنته إن عرفها عندنا.

فما زال الرجل يطلب الأخبية ويستخبر، ومعـه رسول أبي يزيد، حتى انتهى إلى فازة، فإذا بنته قد عرفها وعرفَته. فخرجت إليه وهي تشهق بالبكاء والنحيب، وهو كـذلك، وعلت أصـوات النساء عند ذلك بالنحيب، وقلّ من يرى إلاّ صبيّة مفتضّة. وقالت الصبيّة لأبيها: «يا أبتاه، اُقتُلني واستر عليّ وعلى نفسك، فلا خير في الحياة، وما لي وجه يحملني أن أراك به (ر 127 ب) وهذا أبو يزيد قد افتضّني وأختي على فراش واحد، فهي معي تصيح وتبكي، ولم تستطع أن تنظر إليك حياءً منك»[129].

فعاد الرجل إلى خباء أبي يزيد وهو يصيح ويبكي ويسفي

(128) أبقينا النصب على الظرفيّة من أؤدّي لكتامة. .

(129) في المجالس والمسايرات، 337، قصة شبيهة بهذه، إلاّ أنّه لا ذكر فيها للأختين.

دش 110
288

التراب على وجهه ورأسه. ثمّ اقتحم على أبي يزيد كالأسد * غيرَ مكترث وقال لـه: إنّ بنتيّ عندك جميعاً/ وإنّك افتضضتهما معاً. وكيف استجزت ذلك وأنت تزعم أنّك من المسلمين؟ ومن أين حلّ لك ما حرَّم الله؟ وكيف تجمع بين الأختين؟

فقال أبو يزيد: إنّ في مذهبي أن أجمع الأخوات المملوكات، وهاتان مملوكتان من سبايا وذراري المشركين[130].

.. ويستهزىء ممّن يشكو إليه ظلم أصحابه..

فولّى الشيخ وهو يصيح: «يا الله، قد ترى ما يَفعَل بعبادك ويُفسِد في بلادك». فأشار أبو يزيد إلى أصحابه أن آقتلوه فقتلوه.

وكان أبو يزيد إذا جاءه أحد يطلب ذات رحِمه وأكثرَ القولَ عليه، يقول للبربر: «إنما أبحنـا لكم نساءهم بعد أن تقتلوهم. فأمّا وهم أحياء يشنّعون علينا، فلا». فيثبون على من جاء لذات رحمه فيقتلونه. وذلك ما لم يُعلم منذ الإسلام وقيام النبيّ عليه وعلى آله الصلاة والسلام، إلى الآن. ولو كان الدجّالون كثيرين، ومنهم من احتذى حذو هذا اللعين، فإنّهم لا يكادون يتجرّؤون على إظهار فعل ذلك لخيفة المسلمين. وإنّما يفعلون القليل من ذلك إبطانا للكفر وإظهاراً للإسلام (ط 199). وهذا اللعين صرّح بكفره، وأتى بجميع خبثه ونكره.

ولبس الدجّال أبو يزيد الديباج والحرير، وترك ما كان يلبس من الصوف/، وركب مسوّمات الخيل، وعاذله من أصحابه في ذلك

289

---

(130) الجمع بين الأختين حرام، بصريح الآية 23 من سورة النساء واختلف الفقهاء في إباحة الجمع بين الأختين المملوكتين أو تحريمه، فذهبت طائفة إلى إباحة ذلك وسبب اختلافهم معارضة قوله تعالى. ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ﴾ لعموم الاستثناء في آخر الآية وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَت أَيْمَانُكم﴾ (ابن رشد. بداية المجتهد، 40/2 - 41).

من عاذله، فلم يلتفت إلى قولهم. وذلك أصل مذهب الخوارج، وقد أنكروا على عبد الله بن العبّاس (رضي الله عنه) لمّا ركب أفره دوابّه وتزيّى بأحسن زيّه، وقالوا له: «بينا أنت خير الناس إذ جئتنا في زيّ الجبّارين». فتلا عليهم (ر 128 أ) عبد الله بن العبّاس[131] قول الله سبحانه: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التِي أخرج لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ. . ﴾ الآية (الأعراف، 32) وقد ذكرنا ذلك.

. . ويترك التقشّف الكاذب ويتّخذ زينة الملوك

وفي خلال مقام أبي يزيد بالأخوين بعد قتل ميسور رحمة الله عليه، أمر أمير المؤمنين القائم بأمر الله (صلع) بحفر خندق حول أرباض المهديّة. وابتُدِئ في حفره لسبع بقين من شهر ربيع الأوّل سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة (نوفمبر 944).

القائم يستعدّ للحصار. . .

وأمر أمير المؤمنين (عم) بإنفاذ الكتب إلى الكتاميّين وإلى من يليهم، وأمرهم بالحركة إلى المهديّة، وحضّهم على الجهاد للخوارج النكّاريّة اللعناء، ونَدَبهم أن يأتوه خفافاً وثقالاً كما أمر الله عباده الذين قصدهم بذلك وعنى، وبعث بالكتب في السرّ والخفاء، لئلاّ يطّلع عليها أبو يزيد ومَن تبعه من الأشرار الخبثاء. فأخذ أصحاب أبي يزيد بعض الرسل، ومعه كتاب من تلك الكتب/ وقد كان الرجل جعله مجلّداً بين تمائمه. وجاؤوا إلى أبي * يزيد لعنه الله بالكتاب ففتحه وقرأه، وهذا فصّه[132]:

290

دش 112

(131) لعبد الله بن عبّاس، الصحابيّ الجليل، شأن خاصّ عند الشيعة، لأنه كان من أنصار عليّ، حضر معه الجمل وصفّين والنهروان. وجعله الأميني (ص 49 ج 1) من رواة الغدير. والداعي إدريس هنا يندد بتناقض الخوارج في مواقفهم. فالذي عابوه على ابن عباس لم يعيبوه على أنفسهم.

(132) فصّ الأمر: حقيقته وفحواه.

«باسم الله الرحمان الرحيم. الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتّقين.

«من عبد الله محمد أبي القاسم القائم بأمرالله أمير المؤمنين إلى جماعة لهيصة[133]، سلام عليكم. فإن أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذي لا إلـه إلا هو، ويسأله أن يصلّي على محمد (ط 200) عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى عترته الطيّبين الأخيار.

.. ويراسل قبائل كتامة .

«أما بعد، فقد تقدّمَتْ كتب أمير المؤمنين إليكم يتلو بعضها بعضاً يأمركم بالإسراع في الخروج بالاحتفال بالخيل والرجال لجهاد الفاسقين الكفرة المارقين من أهل أوراس، إذ جهادهم أفضل من جهاد المشركين، وكانوا بالأربس، بعد قتلهم من قدروا عليه من إخوانكم، وسبي ذراريهم، وانتهاكهم حرمهم وأكل أموالهم. وتقوّوا على ذلك بنفاق أهل إفريقية كافّة معهم ومعاضدتهم (ر 128 ب) إيّاهم على فِسقهم. وقد[134] آلت أمورهم إلى ما تقدّم به الكتاب من غدرهم بخليل داخل مدينة القيروان مع معونة الفَجَرة أهلها. وهم على ذلك، سيما أنّ الله (عج) أنزل بهم من الخزي والنكال وسبي الذراريّ/ وانتهاب الأموال ما في أقلّه شفاء لما في الصدور، وعبرة لأولي العقول، جزاءً لهم بمكرهم.

291

«فتثاقلتم عن القدوم، وتربّصتم عمّا لكم فيه الحظُّ الجسيم لدينكم ودنياكم، حتى استقدر الكفرة مع دجّالهم الذي نصبوه علَماً * لنفاقهم، ونزلوا على اثنين وعشرين ميلاً من المهديّة وانحفل جميع إخوانكم[135] بمن تخلّص من أهاليهم وأبنائهم إليها، وهم متثبّتون

دش 113

---

(133) لهيصة بطن من كتامة

(134) في الجميع: فقد.

(135) القائم يذكي الحميّة القبليّة في كتامة: فالنجدة المطلوبة هي للكتاميّين المحاصَرين بالمهديّة.

. . طالباً النجدة على المصافّ لقتال الكفرة الأخسرين، وهم منتظرون لقدومكم.

«فاعلموا ذلك، وبادروا بالقدوم ساعةَ ورود هذا الكتاب إليكم. فإن كان سبب تخلّفكم لخروج الرجّالة، فانهضوا بالخيل وحدَها مسرعين، وجِدّوا وخُذوا في ذلك بالجدّ وقوّة العزم. واحذروا أن يكون لكم تثبُّط وتثاقل، مبتغين لما يُرضي الله (عج)، ويُحمد أميرَ المؤمنين إليكم، وتستزيدون من النعمة عندكم لأُولاكم وأُخراكم، إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله».

فلمّا قرأ أبو يزيد صاحب الحمار الكتاب، أمر بقتل الرجل الذي حمله. وعلم أنّها وصلت كتب كثيرة إلى كتامة بمثل ما في ذلك الكتاب، وخاف أن يَحدث عليه أمر لا يطيق دفاعه، وتأتي كتامة ومن والاها من جهات أقطارها وأعمالها، ومن الذين منهم في عسكره. فارتحل/ نحو المهديّة بجميع عَسَاكره. وكان ارتحاله من معسكر ميسور رحمة الله عليه نصف الليل من ليلة الثلاثاء لعشر بقين من جمادى الأولى، أحد شهور سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة (جانفي 945). وحطّ رحاله بموضع يقال له «خربة جميلة»[136] على خمسة عشر ميلاً من المهديّة. وافترق العسكر عن أبي يزيد ينتهبون ما وجدوا، ويقتلون الرجال ويستبون النساء. وانحجز الناس بالمهديّة وانحصروا بها. 292

وأجمع الأولياء على أن يقصدوا أبا يزيد، حين افترق عسكره، إلى مناخه. فخرجوا من المهديّة يوم الخميس لثمانٍ بقين

(136) خربة جميل، في رحلة التجانيّ، 325، وهي غير مذكورة عند غيره. ويبدو أنّه يستقي هو والداعي إدريس من منبع واحد، وربما استخدم ابن الأثير أيضاً هذا المصدر المفقود.

من جمادى الأولى، في احتفال من الخيل والرجال. واتّصل خبرهم بأبي يزيد، وقد وافق قدوم ابنه فضل بن مخلد في جيوش عظيمة من البربر. فوجّه بهم لملاقاة الأولياء بموضع يقال له: «أشراف»[137] مسافة ثمانية أميال من المهديّة، فوقع بينهم القتال. وأرسل ابنه إليه يخبره ذلك. فركب مخلد فيمَن كانَ معه، ولم يترك أحداً من الرجال في الأخبية، وتوجّه يريد القوم. فوافى أصحابه وهم في الهزيمة، وقد قُتل منهم ثلاثةَ عشرَ رجلاً. فترك أصحابه عن يمينه، وقصد إلى/ وسط عساكر الأولياء. فلمّا رأوه ما تمالكوا أن انهزموا من غير قتال، وولّوا إلى المهدية، وتبعهم البربر حتى انتهَوا إلى باب الفتح[138]. وبلغ أبو يزيد خندق المهدية المحدث الذي أمر أمير

أبو يزيد يقتحم ضاحية زويلة. .

293

. . قبل الهجوم على المهديّة

(137) أشراف عند التجاني، 325، كانت الوقعة بسوق الأحد، «وهو وسط بين المهديّة ومعسكر أبي يزيد»، أي خربة جميل. وذكرت سيرة الأستاذ جودر، 88، سوق الأحد دون تحديد موضعه وقد يكونان مكاناً واحداً: ذلك أنّ خربة جميل تقع على 15 ميلاً من المهديّة، وسوق الأحد في منتصف هذه المسافة، وأشراف على ثمانية أميال من المهدية

وتبقى قضيّة الوجهة بالنسبة إلى المهديّة: شمالاً؟ أم غرباً؟ أم جنوباً كما نذهب إليه؟

(138) باب الفتح. أحد أبواب ربض زويلة (انظر هـ. ر. إدريس، 18). وكذلك باب المهدية المطلّ على سور المهديّة. وبين زويلة وسور المهدية فضاء هو «المصلى». فأبو يزيد لم يصل إلى سور المهدية على الحقيقة، وإنما اقتحم باب زويلة الجنوبي ـ باب الفتح ـ ثمّ بابها الشمالي ـ باب المهديّة ـ ووصل إلى فضاء المصلّى

أما السور المحدث الموازي للخندق المحدث، فلعله سور بسيط بُني على زويلة بالحجارة والأتربة التي استُخرجت من الخندق المحدث. هذا ما ذهب إليه ناشر سيرة جوذر(تعليق رقم 123) وكان المعز فيما بعد قد همّ ببناء سور على ربض زويلة (سيرة جوذر، 112) ولكنه لم ينجز. ولم يتم ذلك إلا في عهد الصنهاجيين (البكري، 29، التجاني، 324). ويفهم من كلام ابن الأثير، 305/6 أن ثوار أبي يزيد بلغوا إلى السور المحدث ـ حول زويلة ـ بعد عبورهم الخندق المحدث ـ حول زويلة والمهدية معاً ـ. =

المؤمنين القائم بأمر الله (عم) بحفره، وأشرف على المهديّة، وذلك عند صلاة * المغرب. وأراد المبيت فأشار عليه أصحابه بالرجوع فرجع إلى معسكره بخربة جميلة بعد زوال الليل. وكتب مخلد بن كيداد الدجّال إلى أبي عمّار الأعمى، وهو بالقيروان، بخبر ذلك، فقرىء كتابه على المنبر، وكتبوا به إلى البلدان. وكثر جمع أبي يزيد وأتى الناس إليه من كل جهة (ط 202) وقصدوه من كل وجهة، طمعاً في الحطام، وطلباً للنهب والسبي وأكل الحرام، وخيفة من أبي يزيد أن يعاجلهم بالاصطلام.

دش 115

ورحل أبو يزيد يريد المهديّة لثلاث خلون من جمادى الآخر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة (20 جانفي 945)، ووجّه كثيراً من البربر إلى باب الفتح، وكان هناك عسكر أمير المؤمنين (عم) من كتامة. ووجّه إلى الباب المعروف بـ «باب أكّة»[139] أيوب الزويلي. وكان هناك من قوّاد أمير المؤمنين صندل الخادم الأسود في العبيد

= وينبغي أن لا يلتبس باب الفتح (في زويلة) بباب الفتوح في المهديّة، وهو «مدخلها الوحيد» المعروف اليوم بـ «السقيفة الكحلة» (ح. ح. عبد الوهاب، ورقات، 374/3)

(139) في المطبوع: باب لكة. وافترض الدشراوي (تعليق 254) أنه باب في سور المهدية يطل على قرية بكة التي سيرد ذكرها في ص 312. وقد عدد البكري، 31، الأرباض المحيطة بالمهدية فذكر منها «بقة» ثم «قاساس»، دون أن يعين اتجاهاً في سرده لها. وقاساس باقية اليوم في اسم «سبخة قاساس» إلى الجنوب الغربي من المهدية في منطقة «هنشير مياش» ـ ولعله موقع «مانش» التي جلب المهديّ منها إلى مدينته الماء في أقداس وقناة حسب قول البكري، 27 — 28 ـ. فإذا كانت بقة بعد قاساس شمالاً، فهي كما قال الدشراوي، على طريق سوسة، وبالتالي، نستنتج أن أبا يزيد قرر أن يحاصر المهدية من نقطتين على الأقل: من زويلة جنوباً وغرباً، ومن بقة شمالاً، حتى يقطع عنها كل مدد.

وباب أكة أو بقة ليس في سور المهدية، إذ بابه الوحيد كما قلنا هو باب الفتوح أو السقيفة الكحلة.

294 المسترَقّين لأمير المؤمنين (عم). وتوجّه أبو يزيد الدجّال بنفسه، ومعه أبطال الرجال من حماته وغزاته، ومن أهل القيروان، ومن انضمّ إليه من جبل أوراس وأعمال إفريقية وسائر البلدان، وقد انتقاهم واختارهم، فقصد الخندق المحدث، وكان عليه من رجال أمير المؤمنين رشيق الريحانيّ الكاتب في عدة من العبيد. فوقع القتال بينهم وبين أبي يزيد على السور والخندق المحدَثين[140].

الهجوم الأوّل: 3 جمادى الثانية 21/333 جانفي 945

دش 116 فارتموا بالسهام وتطاعنوا بالرماح * واقتحم أبو يزيد ومن معه في شاطىء البحر، فبلغ الماء صدورَ دوابهم، حتى جاوز[141] الخندق المحدث، فانهزم رشيق ومن معه حتى بلغوا إلى باب المهديّة فأصابوه مغلقاً، فتحصّنوا بقصر الرباط[142] وتقحّم كثير منهم في البحر وتعلّقوا بسور المهديّة وبالحجارة التي حوله في وسط الماء فتحصّنوا بها من البربر. ووصل أبو يزيد إلى قرب الباب عند مصلّى العيد[143] الذي ابتناه أمير المؤمنين المهديّ بالله (عم) حيث وقع السهم من المهديّة، وقال إنّ الدجّال ينتهي إليه إذ ليس بينه وبين المهديّة إلاّ قدر مرمى القوس، وذلك أقصى مبلغه من المهديّة. ثم تفرّق أصحاب أبي يزيد ينهبون ويقتلون، والناس فوق سطوح بيوتهم يكبّرون/ ويهلّلون[144] ويطلبون الأمان من أبي يزيد، 295

---

(140) السور والخندق المحدثان. لا يمكن أن يكون السور سور المهدية، وقد كمل سنة خمس (البكري 30) - ولعله كما قلنا منذ قليل سور وقتيّ بناه القائم بمحصول حفير الخندق الذي أحاط بأرباض المهدية. فالخندق والسور هما بمثابة الخط الدفاعي الأول لحماية المهدية.

(141) أبو يزيد هو الذي جاور.

(142) لا ذكر لقصر الرباط هذا بين زويلة وسور المهدية. ولعله «قصر أبي سعيد» الذي ذكره البكري في جملة الأرباض الملاصقة للمهدية. ومعلوم أن «قصر» تعني أيضاً الرباط الدفاعي.

(143) مصلّى العيد. أو الميدان أو رملة المهديّة (هـ. ر. إدريس، 451).

(144) سقط التهليل من رواية الكامل، 305/6 والتجاني، 326 وليس في محلّه من طلب الأمان.

والحرب عند باب الفتح بين كتامة والبربر، وهم لا يعلمون ما صنع أبو يزيد، ولا حيث بلغ. وكانت للأولياء كرّة على البربر هزموهم فيها وقتلوا جماعة منهم. فأتى مخلداً رجل فأخبره بهزيمة أصحابه (ط 302) فخاف من المقام على باب المهديّة وتوجّه يريد باب الفتح ليأتي كتامة من ورائهم[145]. فزحف (ر 130 أ) ومعه الطبول والبنود. فلمّا رأى مَن في الأرباض البنود وسمعوا الطبول والجلبة، ظنّوا أنّ أمير المؤمنين القائم (عم) خرج * بنفسه من المهديّة لقتال ابن كيداد، فقويت نفوسهم ورفعوا بالتكبير أصواتهم، واشتدّ قتالهم. ووافى أبو يزيد من الأزقّة والشوارع. فلمّا رآه أهل تلك النواحي من الأولياء، تيقّنوا أنّه أبو يزيد، فمالوا عليه بالحرب والطرد والقتل، وقُتل جماعة من أصحابه، ولم يجد مسلكاً حتى هدم له أصحابه حائطاً فخرج منه. ووصل إلى ناحية القتال بعد صلاة المغرب، فقويت نفوس أصحابه وانهزم الأولياء، وقُتل من الفريقين خلق عظيم. وقتل من أصحاب أبي يزيد جماعة كثيرة حين افترقوا للنهب.

دش 117

296

وكان حين وصل مخلد اللعين باب المهدية، وأمير المؤمنين القائم بأمر الله (عم) جالس في مجلس لـه على البحر، عُـرِّفَ بوصول أبي يزيد إلى المصلّى، وأنّه بالقرب من الباب[146]. وقال

---

(145) هذا دليل آخر على أنّه تحاوز زويلة وترك فريقاً من أصحابه يقاتلون الكتاميّين بباب الفتح في جنوب زويلة أو عربيّها. فإذا رجع من باب المهديّة الواقع شرقاً أو شمالاً في قبالة سور المهدية، أمكنه أن يحصر كتامة من حلف

(146) أي باب الحديد من سور المهديّة، وقد أطنب الرّحالون في وصف ثقله ومتانته والإشادة بفطنة المهدي في تدبيره وتحصينه (البكري، 29، التجانيّ، 321). وعبارة البكري «باب الحديد» تعني في نظرنا مصراعي باب واحد والشعر يشهد بأنه باب وحيد

(بسيط):

بـاب حـديـد، وأبـراج ثـمـانـيـة تـسخـر العقـل فيـه أي تـسخيـر

(ابن حمّاد، 10 /والورقات، 374/3).

جماعة مَن في الحضرة لأمير المؤمنين (عم) من رجاله وعبيده: «لو خرج أمير المؤمنين بنفسه، ورآه الناس، رجَونا أن يكشف الله هذا الأمر بيُمن طلعته». وعظّموا الأمر، ولم يشكّوا إلاّ أنّ أبا يزيد قد ملك الأرباض. وهو، صلوات الله عليه، مستبشر إليهم، غير مكترث ولا ملتفت إلى ما يقولون. فحين أكثروا القول، قال (عم): «لو جاءني أبو يزيد حيث يأخذ بحلقتَي هذا الباب[147م]، ما خرجت إليه ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ (الأنفال، 44)، وليبتلي الله المؤمنين ويَمْحَقَ الكَافِرِينَ. والذي نفسي بيده، لينجز لنا وعده ولو كره المشركون». ثمّ قال لبعض الخدم الصقالبة الذين كانوا بين يديه: «آمض إلى سور المهديّة واطلُع عليه، فإذا رأيتَ الفاسق انصرف من مكانه، فلوِّحْ إلينا بسيفك لنعرف وقت آنصرافه». فمضى الخادم كما أمره. فلما انصرف أبو يزيد، لوّح بسيفه، فقال أمير المؤمنين (عم) لمن حوله: «ابشروا فقد بلغ الفاسقُ إلى أقصى مدى غايته، وقد (ر 130 ب) انصرف عنكم، وليس ترونه بعد هذا بالغاً إلى هذا المكان أبداً» (ط 204) فاستبشر القوم وأيقنوا بقول أمير المؤمنين (عم) وابتهلوا إلى الله سبحانه أن يفرّجَ تلك المحنة، ويزيل تلك الفتنة، ويمكن لأوليائه كما وعدهم، ويبلغهم من صلاح عباده أملهم.

ثقة القائم بالنصر النهائيّ

297

أبو يزيد يقرّب معسكره من المهديّة

وقد كان الناس ظنّوا حين انتهى أبو يزيد إلى المصلّى أن ينصب هنالك فازته. فعاد أبو يزيد إلى محطّته وموضع فازته بـ«ترنوط»[148] يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من جمادى الأخرى سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة (جانفي 945)، وأمر بحفر

---

(147) أي: باب مجلسه.

(148) ترنوط: على ستّة أميال من المهديّة (البكريّ، 31) في طريق سلقطة جنوباً (التجاني 326)

دش 119

خندق على معسكره * وتحصّن به. واجتمع إليه خلق عظيم من الأجناد والبربر، ومن بلاد إفريقية وأقصى المغرب وأدناه. وحاصر المهديّة حصاراً شديداً، ومنع الناس من الدخول إليها. وخرج إليه إبراهيم الأشلّ من المهديّة مستأمناً فقال له: يا إبراهيم، كيف حالكم في المهديّة؟ ألم أُفزِعكم؟

قال له: والله ما أفزعْتَنا ولا اشتغلنا بك.

قال: فلماذا أغلق أبو القاسم باب المهديّة؟

قال: قلّة اكتراث والله. لقد أخبرني أبو القاسم - يعني أمير المؤمنين (عم) - منذ سبعين يوماً[149] بأنّك تبلغ إلى مصلّى المهدية ثمّ لا تعود أبداً.

298

فقال أبو يزيد كالمستهزىء: أخبرك بهذا أبو القاسم؟

قال: نعم، أي والله، لقد أخبرني بهذا.

الهجوم الثاني: 23 جمادى 2 (10 فيفري 945)

وزحف أبو يزيد بجموعه يوم الجمعة لسبع بقين من جمادى الأخرى (فيفري 945) وقصد إلى باب الفتح، وكان بينهم وبين أهل المهديّة حرب شديد قتل فيه جماعة من وجوه الأولياء وجماعة من البربر. واقتحم أبو يزيد بنفسه حتى صار إلى قرب الباب، فعرفه بعض عبيد الأولياء وقبض على لجام جواده وصاح: «هذا مخلد الفاسق، فلا يفوتكم!» فأتاه (ط 205) رجل من أصحاب أبي يزيد فضرب يده فقطعها ونجا الفاسق مخلد *. ولمّا رأى الدجّال إقدام كتامة والعبيد

دش 120

وجنود أمير المؤمنين الذين في المهديّة، وشجاعتهم وشدّة شوكتهم وبأسهم (ر 131 أ) كتب إلى أهل القيروان يأمرهم بالخروج إليه بالفازات والسلاح والعدّة. ووجّه إليهم جماعة من أصحابه فأخذوا الناس

(149) أي منذ انتصار أبي يزيد على ميسور وجيشه الأعظم.

بالخروج[150]، وأخرجوا جميع ما معهم من القوّة والعدّة إلى عسكر أبي يزيد. فلمّا وصلوا، زحف إلى المهديّة بهم وبجميع عساكره يوم الاثنين لسبع بَقين من شهر رجب (مارس 945).

الهجوم الثالث: 23 رجب (11 مارس 945) 299

وأنشأ الإمام القائم بأمر الله أمر المؤمنين (صلعم) خطبة يحرّض فيها المؤمنين، وأمر المروزي[151] قاضيه بالمهدية أن يقرأها عليهم. يقول فيها، بعد حمد الله (تع) والثناء عليه والصلاة على النبيّ محمد، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين:

«أيها الناس. إن هذا اللعين النكاريّ قد استشرى شرُّه، واسْتوْبأ مرتعهُ، وحملتْه الأماني الغرّارة، والنفس التي هي بالسوء أمّارة، على أن غمط نعمة الله (تع) عليه، وسوّل له الشيطان الذي هو قرينُه أن لا غالب له. وإنما أرخى له أميرُ المؤمنين في زمامه، ليعثر في [فضل][152] خطامه فلعنه الله لعناً وبيلاً، وأخزاه خزياً طويلاً، وصيّره إلى نار تلظّى ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ (الليل، 15)!.

«وقد علمتم يا معشرَ كتامة ما مضى عليه آباؤكم وقدماء أسلافكم من لزوم * الطاعة والاعتصام بحبلها والتفيّؤ بظلها، والمجاهدة في الله حقَّ جهاده، وأنكم خبيئة الله لهذا الحق المحمّديّ الفاطميّ المهديّ حتى أظهره وأعلاه، وجعل لكم فخره

خطبة للقائم في أهل المهديّة..

---

(150) يقول ابن أبي دينار: المؤنس، 59: نادى في القيروان: «من تخلّف عن الجهاد معي، حلّ دمه وماله».

(151) أبو جعفر أحمد بن محمد المروزي: صحِبَ المهديّ والقائم ثمّ المنصور. وأبوه هو الذي امتحن فقهاء القيروان عند انتصاب الدولة الشيعيّة بها (طبقات أبي العرب، 239) ونظم أبو جعفر هذا أرجوزة طويلة في مناقب الفاطميين وحروبهم (الحوليّات، 10 ص 157).

(152) زيادة من سيرة جوذر، 55.

وسناه، فأنتم كحواريي عيسى وأنصار محمد صلى الله عليهما.

«يا أبناء المهاجرين والأنصار، والسابقين الأوّلين المقرّبين! أليس بكم أزال الله دُوَلَ الظالمين، التي مضت لها أحقاب السنين، حتى جعلهم حصيداً خامدين؟ وأورثكم أرضهم وديارهم، فصرتم تَغزُون بعد أن كنتم تُغزَون؟

300 «نـزل بإزائكم دجّـال لعين في شرذمـة ضـالّـة مضلّة لم يستضيئوا بنور هداية (ط 206): فهم كالأنعام المجفّلة، والصوَر الممثّلة، والخشُب المُسنَدة، والحُمُر المستنفرة. إن أقاموا هلكوا، وإن طولبوا أُدركوا. فلا تنكصوا بعد الإقدام! (ر 131 ب) وأنتم حزب الله وهم حزب الشيطان، وقتيلكم في الجنّة، وقتيلهم في النار. فأيّ حقّ بعد هذا الحقّ تطلبون، ومع أيّ إمام بعد إمامكم تقاتلون؟

.. يدعوهم فيها إلى قتال أبي يزيد

«فقاتلوا، رحمكم الله، أحزاب الضـلال، وذئاب الطمـع، وفَراش النار. واطلبوهم في نواحي الأرض وأقاصي البلدان، وجميع الآفاق، حتى يُحقّ الله الحقَّ ويُبطل الباطلَ ولو كره المشركون» (ط 122).

فلمّا سمع الأولياء هذه الخطبة قالوا: «سمعاً وطاعةً! وارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج، وانصرفوا للقتال، وقد أقبل في جموعه الدجّال، وقصد بجنوده كلها إلى ناحية تعرف بـ «ـدار قوام»[153]، فوقع بينهم قتال عظيم وحرب شديد. وتواصى الأولياء وصبروا، واستبسلوا وتذمّروا[154]، فهُزم[155] مخلد الدجّال هزيمة منكرة، وقُتل

خيبة أبي يزيد الثالثة .

---

(153) دار قوام: لم نهتد إليها

(154) تذامروا وتذمّروا بمعنى، أي. شجّعوا بعضهم بعضاً

(155) في الجميع: وهزم.

كثير ممن معهم من أهل القيروان، وفيهم سعيد الحبروني[156].
قتل، وكان له مكان جليل عند أبي يزيد، وكان على الشيعة مشنّعاً،
ولأهل البيت مبغضاً. وقُتل جماعة من أكابر البربر. وانصرف إلى
موضعه مغلوباً مهزوماً. وجزّ الأولياء رؤوس من قتل، فطافوا بها في
المهديّة، وسرّوا وأيقنوا بالظفر، وقويت نفوسهم.

301

.. كانت بادرة ظفر للأئمّة..

وقال الداعي الأجلّ جعفر بن منصور اليمن[157] أبي القاسم الحسن بن فرح بن حوشب قصيدته التي أوّلها (بسيط):

الحمد لله، هذا الفتح والظفر	هذا الذي كان للإيمان ينتظر
فاستبشروا يا رجال الدين وانتدبوا	لحرب قوم، همُ ضَلّوا وهمْ كفروا
وأيقِنوا أنّ جندَ الله غالبُهم	وأنه، جلّ، للإيمان ينتصر *
سيُهزَم الجمع إذ جاؤوا لحربكمُ	والمارقون، فقد خابوا وقد خسروا
فإنّ وعد أمير المؤمنين لكم	حقّ، به جاءت الآيات والسور
عن جدّه المصطفى الهادي وحيدره	وآله الغرّ، جاء العلم والخبر[158]
فلا تملّوا، ولا عن حربهم تهِنوا	وإن بغَوا وطَغَوا في الكفر وائتَشَروا[159]
واستنصروا الله واحموا عن حريمكمُ	ودينكم، وانهضوا للقوم وابتدروا

دش 122

.. أشاد بها الشعراء

وحين بلغ أهلَ وزداجة[160] هزيمة الدجّال قويت قلوبهم،

---

(156) سعيد الحبروني: لم تذكر بقيّة المصادر هذا النصير لأبي يزيد، فلا نعرفه بالتالي.

(157) عرّفنا (ص 50) بهذا الداعي ـ الشاعر، وسيعطينا المؤلّف ترجمة له في السبع السادس.

(158) حيدر وحيدرة: اسم من أسماء عليّ بن أبي طالب عند الشيعة.

(159) ائتشروا. افتعلوا من أشر (وزن فرح). جدّوا في كفرهم وتمادوا.

(160) وزداجة. ورد عند البكريّ، 56، أنّهم قوم يقطنون شرقيّ باحة القمح «في قرارات باسلي». ولعل باسلي هي Vazarı الأثرية. على أن المعروف عن

وأرسلوا (ر 132أ) إلى أمير المؤمنين ثلاثة فرسان منهم يسألونه أن يوجّه إليهم عاملاً ليتقوّوا به على أبي يزيد. فبلغ ذلك مخلداً فأرصد لهم رصداً، وأخذ أحد الثلاثة الفرسان، وخلص منهم إلى المهديّة اثنـان. وأخرج اللعين إلى وزداجـة ابنه أيـوب بن مخلد، وأمره بالمُقام بها وحفظ نواحيها. 302

وكان في عسكر أبي يزيد وليّ من أولياء أمير المؤمنين يقال له ورع بن علي، وكانت كتب أمير المؤمنين تتّصل به سرّاً فيرسلها إلى بلاد كتامة وحيث أراد أمير المؤمنين، ويرفع إليه أخبار أبي يزيد. فشـاع ذلك عنـه. ودسّ إليه أبـو يزيـد رجلاً أراه النصـح حتى استحصل ما عنده، وأخذ * إلى البلدان كُتُبَه. فأوقف عليها أبا يزيد. فطلب أبو يزيد ورع بن علي وأوقفه على كتبه وقبض عليه، ثمّ أرسـل لابنه إبـراهيم بن ورع وقتلهما جميعـاً رحمة الله عليهمـا ورضوانه[161]. دش 124

واشتدّ الحصار على المهدية، وقدمت مراكب كثيرة من صقليّة وطرابلس بالطعام وغيره تريد المهديّة، فدفعتها الريح إلى الشطوط وانتهبها أصحاب أبي يزيد. وبلغ سعر القمح والشعير بالمهديّة مبلغاً عظيماً من الغلاء.

وزحف أبو يزيد المرّة الرابعة بجنوده لقتال أهل المهديّة، فبلغ الماء المالح[162]. ووقع قتـال شديـد بين الفريقين، وعـاد مخلد

وزداجة أنّها قبيلة زناتيّة تقطن بالمغرب الأوسط. فهي أقرب إلى مناصرة أبي يزيد منها إلى طاعة الأئمّة (انظر فيما يأتي ص 325 هامش 197).

(161) لا نعرف ورع بن عليّ ولا ابنه إبراهيم. والاستعانة بالعيون والجواسيس أمر مشترك بين الحزبين كما نـرى.

(162) الماء أو الوادي المالح: ذكر «الماء المالح» هنا وفي ص 306 من هذا الكتاب، ممّا يعني أن وقعتين دارتا بهذا المكان. في 23 شوّال، ثم في 11 ذي القعدة

الدجّال منهزماً، وذلك يوم الجمعة لسبع بقين من شوّال سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة (جوان 945). وكثر خروج/ الناس من المهديّة لشدّة الجوع والجهد. وفتح أمير المؤمنين القائم بأمر الله (عم) الأهراء التي كان المهديّ بالله (صلع) شحن فيها الطعام حين عمّر المهديّة، والقائمُ بعده. فأنفقها في الناس وفرّقها على رجاله وعبيده وقال: «لهذا الوقت أُعـدَّت». وعظم البلاء على الناس، واشتدّ بهم الجهد حتى احتاجوا إلى أكل الميتة والدوابّ وغيرها *. وصبر

303

الهجوم الرابع على المهديّة: : 23 شوّال/ 8 جوان 945

دش 125

= 333. ولا ندري أهو سبخة أم نهر؟ فالسباخ كثيرة في جهة المهدية: سبخة قاساس، وسبخة القطعية، وسبخة الليانة غرباً، وسبخة ابن غياضة جنوباً، وكانت إلى عهد قريب تستخدم لاستخراج الملح فلصق بها اسم «سبخة الملح» أيضاً، وسبخة الأندلس، شمالاً، ثم سبخة «متاع المكنين» الخ.

والأنهار المالحة كذلك. منها وادي يمر بزرمـدين ويصب في سبخة المكنين، ولعله يمرّ قبل ذلك بمساكن جنوب سوسة، ومنها رافد يصب في وادي شيبة ثمّ في سبخة القطعية إلخ. فالاسم منتشر، ولا ثبات فيه، إذ يقول ابن عذاري، 218: الواقعة المشهورة بوادي الملح.

وما دمنا انصرفنا إلى مسلك جنوبيّ في تصوّرنا لتحرّك أبي يزيد، فالرأي عندنا أنّ الماء المالح، أو الوادي المالح، أو وادي الملح، يقع بجهة السباخ العربية: قاساس، أو القطعيّة أو سبخة اللّيانة.

هذا في خصوص الموقع. وهناك قضية أيضاً في خصوص التاريخ: متى كانت وقعة الوادي المالح؟ فالمشهور عند رواة السنّة هي الوقعة التي استشهد فيها صلحاؤهم كأبي الفضل الممّسي وربيع القطّان قال ذلك المالكي (رياض، 293/2 و 323 و 345). وحدّد الدباغ استشهاد الممّسي بيوم الاثنين لثمانٍ بقين من رجب، وهو تاريخ الهجوم الثالث على المهديّة. لكنّ المالكي، 345/2، يحدد استشهاد ربيع القطان بصفر 334، ويدفع التاريخ الأول ويدقق: «وبينه وبين الممّسي ستّة أشهر»، أي المدّة الفاصلة بين رجب 333 وصفر 334. فعلى ما يبدو، لم تكن وقعة الوادي المالح وقعة واحدة حصدت فقهاء القيروان في يوم واحد. والملاحظ أنّ ابن الأثير، 305/6 يقول: إن أكثر أهل القيروان هلكوا في رجب 333. ونقول أخيراً إنّ الداعي إدريس لم يذكر وفيات لأهل القيروان في «الماء المالح»، بل في الوقعة بين أبي يزيد وميسور، وكانت وفاتهم بسبب البرد الشديد (ص 282).

الكتاميّون صبراً عظيماً لم يصبر أحد مثله جهاداً واحتساباً، يرجون به من الله ثواباً، ويدفعون عقاباً، في طاعة وليّ الله وصفيّه وخيرته من خلقه وابن نبيّه (ط 208)، فطوبى لهم وحسنَ مآب ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمر، 10). وكان الرجل منهم (ر 132 ب) إذا فرغ من الطعام ما عنده ولم يجد ما يطعم أهله أخذ بأيدي نسائه وأخرجهنّ من المهدية. وكان أصحاب أبي يزيد اللُّعناء يسْبُون من خرج من نساء أهل المهديّة وأطفالهم. وخرج السوقة وأهلُ البَيع من الرجال والنساء. وكانوا يشقّون بطون الرجال وأرحامَ النساء يطلبون الخبايا هنالك من دنانير ودراهم، ووجدوا أشياء من ذلك فتجرّؤوا على ما هم فيه وتمادوا عليه. ثم كانوا يخافون أن/ يقتتلوا عليهم، ولا يأمنو[ن] أصحابهم، إن وجدوا شيئاً، أن يأخذوه [منهم، فـ]ـكانوا يحملون أمصار بني آدم إلى القيروان، ويتبايعونها بينهم بالأثمان[163]. وكانوا إذا وجدوا المرأة أخذوها سبيّة. يروى عن بعض أهل القيروان قال: «لقد لقيت امرأتين وهما تبكيان وتقولان: لو كان في السماء إلاه لغيّر هذا الفعلَ». وكان ذلك في شهر رمضان. فقلت: ويلكما! أتكفران في شهر رمضان؟.

صبر أهل المهديّة وكتامة خاصّة للحصار

304

* فقالتا: قبّحك الله! أتكفّرنا، وهؤلاء يدّعون أنهم مسلمون، وقد ارتكبوا منا الحرام في شهر رمضان؟

دش 126

تنكيل عسكر أبي يزيد بالنساء

ونقول: نعوذ بالله من هذه العقيدة[164]، ومن المحن المؤدّية إليها. وإن الله سبحانه هو خالق العدل والرحمة، المنزّه عن الجور، [لا] كما يقول الجاهلون من العامّة. وإنّما هي شدائد تكون إملاءً للظالمين وتمحيصاً للمؤمنين ليزداد الممتحَنون من أهل الإيمان من

(163) التركيب هنا ملتبس، فحاولنا تقويمه بشيء من الزيادة والتغيير. والأمصار هي الأمعاء

(164) أي النحلة الخارجيّة النكّاريّة

الله ثواباً، والظالمون المتمادون في الإثم والعدوان إثماً وعقاباً ﴿ وَلَا تَحْسبنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (إبراهيم، 42)، كما قال تعالى في كتابه، وله العزة والاقتدار.

305

أبو يزيد يتمادى في استهتاره

وأتى رجل إلى أبي يزيد فقال له: «لقد مررت بقوم من البربر في شهر الله/ المعظّم[165] ارتكبوا الفاحشة من نساء، ثمّ شقّوا بعد ذلك بطونهنّ وفروجهنّ يطلبون بزعمهم دراهم ودنانير، فلم يجدوا شيئاً.

فقال أبو يزيد اللعين: إنّهم مشركون، وذلك حلال في شوّال، وهو أعظم أجراً في رمضان.

وأتى بأنواع (ر 133 أ) الكفر والنكر، وبلغ مبلغاً عظيماً من استحلال ما حرّم الله لم يبلغه (ط 209) أحد من الدهر.

دش 127

واجتمعت كتامة وتآلفوا في موضع من بلادهم يقال له «الشرف الأحمر»[166] بقرب قسنطينة[167] من أرض المغرب، على أنّهم يأتون * بجمعهم وعساكرهم لنصرة أمير المؤمنين (عم). فأخرج أبو يزيد رجُلاً يقال له: «ركّو المزاتي» في جموع عظيمة من أهل ورفجومة وغيرهم، فأوقع بالكتاميين وبدّد شملهم. وورد كتابه إلى أبي يزيد فسرّ سروراً عظيماً، وقد كان عظم خوفه لهم[168].

---

(165) في الجميع، غير «هـ»: في شهر رمضان.

(166) الشرف الأحمر ببلاد كتامة. وسيأتي ذكر موضع آخر بهذا الاسم، في فحص القيروان (ص 357).

(167) قسطيلية في الأصل، والتصويب من المطبوعين، ومن السياق وابن الأثير، 305/6.

(168) ذكر ابن الأثير، 305/6 هذه الهزيمة لكتامة في بلادهم، ولم يسمّ ركّو المزاتي ولا غيره وفي المقابل ذكر وصول زيري بن مناد في صنهاجة، وهو مدد سكت عنه الداعي إدريس.

وكانت البربر تنتهب ما بإفريقيّة وترجع إلى عسكر أبي يزيد. فحين أفنَوا ما بإفريقيّة كلّها، توقّفوا عن الوصول إلى أبي يزيد، ولم يبق معه غير أهل جبل أوراس وبني كمـلان. فحين اتّصل أمـر تفرّقهم بأمير المؤمنين القائم بأمر الله (عم) أمر الأولياء بالخروج إليه لسبع مضت من ذي القعدة (جوان 945) فكان بينهم قتال شديـد، وعاد/ كلّ إلى موضعه.

306

وقعة أخرى بالوادي المالح بسعي من القائم: 11 ذي القعدة/ 25 جوان 945

وزحف الأولياء إليه أيضاً يوم السبت فلم يخرج إليهم أحد، وأبو يزيد يبعث كلّ يوم في طلب الناس إلى البربر وإلى جبـل أوراس وإلى أعمال إفريقية، فكان إذا أتاه قوم ذهب عنه آخرون. ثمّ لمّا كان يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة، زحف الأولياء إلى أبي يزيد، وقد أتته عساكر من البربر، فاجتمع الفريقان بالماء المالح * وكان بينهم قتال شديد قتل فيه جماعة من أصحاب أبي يزيد، منهم رجل يسمّى «خليفة» كان من أخصّ من لديه وأقربهم إليه، فعظم ذلك على أصحاب أبي يزيد.

دش 128

وخرج الأولياء إليهم أيضاً يوم الخميس لثـلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة، فغنموا دوابّ من حول عسكر أبي يـزيد ورجعوا إلى المهديّة.

ولمّا كان يـوم الاثنين لسبع عشـرة ليلة خلت[169] من ذي القعدة، خرج الأولياء حتى أشرفوا على محطّ أبي يزيد، فخرج أبو يزيد في غزاته وخواصّ أصحابه (ر133ب) فأخذ على ميمنة القتال، وقد كان التقى عسكره والأولياء، فقويت قلوب البربر، وكانت على الأولياء هزيمة قتل منهم فيها خلق كثير، وهبّت ريح/ عاصف أظلم لها الجوّ (ط 210)، وعرف ذلك اليوم بـ «يوم الريح».

307

(169) في الجميع، ما عدا «دش». بقيت، وهو خطأ واضح.

وتمادى الحصار على مَن بالمهديّة، وهرب منهم كثير في المراكب إلى الروم ومصر وطرابلس وصقلّية. ووافت أبا يزيد اللعين جيوش عظيمة كثيرة يوم الخميس لليلتين بقيتا من ذي القعدة (جويلية 945). فخرج بعض جيوشه وسارع قوم من عسكره إلى جانب المهديّة. فخرج إليهم الأولياء [وانهزم الأولياء][170]. واتّصل خبر القتال بأبي يزيد فسار إليهم فوافى أصحابه منصرفين وعرّفوه بظفرهم فقال لهم: «فارجعوا لقتال القوم!» قالوا: «أنّا قد رجعنا على ظفر؟» فأبى إلّا التمادي. ورجع القوم معه حتى صاروا بقرب الأولياء. فلمّا عرف الأولياء أنّ أبا يزيد قد زحف بنفسه، وعلموا مكانه، اختاروا منهم مائتَي فارس من حماتهم وكماتهم فقصدوا أبا يزيد وحملوا عليه لا يلوُون على غيره، والناس في القتال، فقتلوا في تلك الحملة كثيراً من غزاة أبي يزيد الذين حوله، وقوماً كانوا من الزويليّين معه[171]. وخلص أبو يزيد بنفسه بعد أن استمات أصحابه عليه وترجّلوا عن دوابهم. وأسر الأولياء خلقاً كثيراً منهم فربطوهم بالحبال وأدخلوهم المهديّة، وقوي الأولياء بعض القوّة.

دش 129

حملة أخرى على المهديّة: 28 ذي القعدة 12/333 جويلية 945

308

وأرسل أبو يزيد فيَ طلب الجنود والحشود/ فوافته بنو كملان وبنو إيليان ولواتة في ألف فارس، وأتاه مثلها من نحو باجة من ابنه أيوب.

ودخلت سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة

فخرجت في شهر المحرم (أغسطس 945) مراكب من المهديّة تريد صقلّية مشحونة بالعيالات والأموال فهبّت عليها ريح عاصف وأرسَوها (ر 134 أ) فخرجت عليهم مراكب من سوسة، وأروهم أنهم

(170) انفردت «هـ» بهذه الإضافة، وهي زيادة واجبة كما سيظهر من السياق.

(171) هذه أوّل إشارة إلى انفصال العبيد الزويليّين عن الأئمّة، وهم في الأصل من عبيدهم المُجْتَلَبِين من فزان. وقد تعرفنا إلى زويلي آخر شديد العداء للفاطميين، وهو أيّوب الزويليّ أبو سليمان أحد قوّاد أبي يزيد الأشدّاء

من المهديّة ليستأنسوا بهم ثم قصدوهم فغلبوا على مركبين صغيرين من تلك المراكب فقتلوا مَن بهما وانتهبوا ما فيهما من الأموال وجاؤوا ببعضها إلى الدّجال *.

دتس 130

ثائر يدعو إلى العبّاسيّين من وراء أبي يزيد

وفي هذا الشهر ظهر ثائر آدّعى أنه من بني العباس في ناحية باجة، وأجابه كثير من الناس. فاحتال فيه أيوب بن مخلد الدجّال حتى أخذه أسيراً وأرسل به إلى القيروان إلى أبي عمّار الأعمى. ووُجدت معه أعلام سود مكتوب في كلّ علم منها: «لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله، المهدي بالله». وأتاه أبو عمار بقوم من بغداد، فسألوه عن صفة بغداد، وفي (ط 211) أيّ ناحية منها كان سكونُه[172] فلم يحر جواباً. فأمر به أبو عمّار الأعمى و[بـ]ـمَن معه من أصحابه فصلبوا في القيروان في باب أبي الربيع.

309

بنو وشير ينفصلون عن أبي يزيد

وفي هذا الشهر قدم / بنو وشير إلى أبي يزيد، وهم من البربر، وكانوا يتوالَوْن أمير المؤمنين، وكانوا ممن قاتل أبا يزيد بباغاية. فرغّبهم أبو يزيد فوصلوا إليه وكانوا ستّين رجلاً. فأمر أمير المؤمنين (صلعم) حسن بن علي بمكاتبتهم، لما يعلم من موالاتهم، فأجابوه وفرّوا عن الدجّال إلى معسكر أمير المؤمنين. فأجزل صِلاتهم، وصابحوا عسكر الدجّال بالقتال مع الأولياء، فكانت لهم جرأة ونكاية في العدوّ.

وزحف الأولياء يوم الخميس غرة شهر صفر (سبتمبر 945) فبلغوا إلى خندق أبي يزيد وطافوا به فلم يخرج إليهم أحد.

ثمّ زحف الأولياء إليهم يوم الجمعة. وكان فيه قتال شديد، نصر فيه الأولياء على أصحاب أبي يزيد وعادوا ظافرين[173].

---

(172) السكون مصدر سكن بالمكان، قال كثيّر: وإن كان لا سُعدى أطالت سكونَه. . .
(173) لا يدقّق الداعي إدريس في سرد هذه الوقعات الجزئية، ولا يفصّل نتائجها، ممّا يدلّ على أنّها كانت مناوشات لا غير.

* واتفقت بين البربر وإبراهيم بن أبي سلاس أمور وأسباب، وكانوا قد حسدوه على قربه من أبي يزيد. وهو الذي خرج من الأريس حين قرب أبو يزيد من نواحي إفريقية، وقد ذكرنا أمره[174]. فأفسد البربر بينه وبين أبي يزيد وسعوا به إليه حتى خافهم على نفسه. فمالأ كثيراً من الجند على الرجوع إلى طاعة أمير المؤمنين (عم) والكون في حملته، فأجابوه إلى ذلك. وكاتب أمير المؤمنين (عم) وسأله (ر134ب) أن / يخرج عسكراً لقتال البربر ليصير إليهم [هو] ومن أطاعه من الجند، وأن يُخرجوا معهم علماً أحمر ليكون علامة لهم ليصيروا إليه. فأخرج أمير المؤمنين (عم) الأولياء يوم الأحد لأربع خلون من صفر، فركبوا إلى معسكر أبي يزيد وناشبوا القتال. وخرج أصحاب الدجّال على ما جرت عليه عاداتهم، وإبراهيم بن أبي سلاس قد امتاز ناحية عنهم بالذين معه، وكانوا ثلاثمائة فارس. فحين نصبوا لهم العلم الأحمر، حملوا كأنّهم يريدون القتال، فوصلوا إلى العَلَم وصاروا في جملة الأولياء، وسلم بعضهم على بعض، وكرّوا مع الأولياء على أصحاب أبي يزيد، فقُتل خلق عظيم من البربر، وكان لجنود الإمام القائم بأمر الله (عم) الظفر (ط 132). . ووصل إبراهيم بن أبي سلاس ومَن معه إلى المهديّة، فدخل إبراهيم وأكابر * الجند إلى حضرة أمير المؤمنين (عم) فقبّلوا الأرض بين يديه، وتَضَرّعوا في العفوِ إليه، وتابوا عن[175] ذنوبهم وتنصّلوا من عظيم حوبهم، وأكثروا البكاء وأظهروا الندم. فرحمهم الإمام القائم (عم) وعفا عنهم، وخلع عليهم وأحسن إليهم.

دش 131

310

. . وكذلك بنو أبي سلاس من الأرس

دش 132

(174) في خصوص تقلّب ابن أبي سلاس في ولائه، انظر ص 258 هامش 61 وص 263 هامش 70.

(175) في الحميع: من

311 ثمّ أمر أمير/ المؤمنين الأولياء بالخروج إلى أبي يزيد فخرجوا إليه. وركب أبو يزيد بجنوده وجميع حشوده، وخرج إلى قتالهم بنفسه. وكان قتال عظيم استمات الفريقان فيه، وقُتل جماعة من الأولياء، وقُتل من أصحاب أبي يزيد أكثر من مائتي رجل. وانصرف الفريقان عند الرواح، وقد أثخنوا بالجراح.

يئس الثوّار من أخذ المهديّة...

ولمّا هرب الجند مع ابن أبي سلاس، وكانت هاتان المعركتان في يومين متواليين، وطال الأولياء فيهما على المارقين النكارية، ضاقت[176] بهم الأحوال، وخافوا أن يعاودهم الأولياء القتال، فتفرّق أصحاب أبي يزيد عنه، وفرّوا منه، ولم يبق معه غير بني كملان وهوارة أوراس، وبهم كان يثق، وعليهم يعوّل. فاجتمع بعضهم إلى بعض بغير علم أبي يزيد ولا مشورته وقالوا: «قد افترق عسكرنا، ولا نأمن أن يصابحَنا الكتاميّون (ر 135أ) فنهلك. والرأي أن نتوجّه إلى القيروان ونحشد أهلها مع سائر البلدان * ثمّ نعود إلى موضعنا في عُدّة وعدد». ثمّ ركبوا وهربوا من محطّ أبي يزيد، فلم يشعر حتى قد مضوا. فخرج في ثلاثين فارساً يريد أن يردّهم فامتنعوا ولم يرجعوا، ولا أمكنه/ الرجوع إلى مناخه. فسار أبو يزيد إلى القيروان، ورفع الله المحنة عن أوليائه الثابتين على الطاعة والإيمان، وفرّج الله عنهم ما كانوا فيه من الحصار ببركة وليّه أمير المؤمنين القائم بأمر الله إمام ذلك الأوان، صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الطاهرين الكرام، وعليهم من الله أسنى التحيّة وأفضل الصلاة والسلام.

.. فتفرّقوا عن أبي يزيد..

دش 133

312

.. فاضطرّ إلى فكّ الحصار

وحين انتهى إلى أمير المؤمنين (عم) رحيل الدجّال، أمر الأولياء بالخروج إلى معسكره، وأن يعلموا حقيقة أمره: فوجدوا

(176) في الحميع: وضاقت. وجعلناها جواباً

الفازات خالية، والرجال عنها نائية. ومنحهم الله جميع ما في معسكر الدجّال ومناخه من الأمتعة والأنفال والأخبية والفازات والطعام والزيت والعسل وصنوف المآكل[177] فامتلأت منها أيديهم، ورجعوا بها إلى أهاليهم بعد شدّة الجهد والحصار، وما نالهم من أعداء الله الأشرار.

نقل عن النعمان: القائم قدّر سلفاً جملة المصاريف..

قال القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه): «قال الإمام المعزّ (صلع): ألا أخبركم عن جملة ما أنفق أمير المؤمنين القائم بأمر الله في تلك الفتنة؟

«قلت: بلى، يا أمير المؤمنين، فانّا لنحبّ ذلك.

313
دش 134

«فقال *: أمر (عم) هذا ـ وأومأ إلى خازن بيت/ مال القائم (عم)، وهو بين يديه ـ أن لا يُخرج من النفقة في ذلك إلّا من ماله، وعزل له مائة ألف دينار وآثني عشر ألفَ درهم وقال له: احذر أن تنفق في شيء من أمر هذه الفتنة من غير هذا المال. فإنّك إن أنفقت شيئاً من غيره، ذهب ضياعاً. ولا بدّ أن ينفد هذا المال في هذه النفقة كلّه.

«(قال المعزّ ـ صلع ـ): فوالله ما زاد عليه ولا نقص منه، ولا كان إلّا كفاف النفقة في ذلك حتى انقضت الفتنة بفراغه.

.. التي ستنفق في فتنة أبي يزيد

«ثمّ نظر إلى (ر 135 ب) الخازن فقال: أليس كذلك كان الأمر؟

«قال: نعم، كذلك أمرني أمير المؤمنين القائم بأمر الله (صلع)، وما أنفقت غيره، وما بقي منه درهم فما فوقه، ولا احتيج إلى غيره»[178].

(177) في «دش»، سقط تعداد الأصناف فصار النصّ: .. ومناخه من المآكل.

(178) انظر هذه الرواية في المجالس والمسايرات، 551، وينبغي تصحيح مقدار الدراهم هناك إلى اثني عشر ألفاً، حسب ما جاء في نقل الداعي إدريس.

رجوع أبي يزيد خائباً إلى القيروان

ووصل مخلد إلى القيروان[179] في قليل من العَدد، ويسير من العُدد، بذلّ الهزيمة، وضعف العزيمة. فبات بمصلّى القيروان. وخرج إليه صاحبه أبو عمّار الأعمى فعنّفه ووبّخه وقال له: «تشاغلت عن الجهاد، وأكلت لذيذ الطعام، ولبست ليّن الثياب، وافتضضت الأبكار حتّى أحبلت ثماني عشرة آمرأة هنّ الآن مقيمات في عسكرك، وكثر ما أتيت به من منكرك. ما هكذا * يفعل من قام لله وأظهر (ط 214) نصر دينه.

دش 135

314

فقال له أبو يزيد: صدقت، وإنما كان / ما كان لذنوبي، وأنا متنصّل ممّا فعلتُ.

وأظهر التوبة بزعمه على يد أبي عمار، وأشهد أصحابه على نفسه، ورجع إلى لبس الصوف وركوب الحمار. وكان فيما يقال من أذلِّ خلق الله إذا خاف، وأكثرهم بطراً وأشراً إذا أمن.

أهل القيروان يتشاورون في الرجوع إلى الإمام..

ولمّا رأى أهل القيروان ما هو عليه من الذل والقلّ، وما بلغ به من الهزيمة والفَلّ، خافوا من عساكر أمير المؤمنيس أن تأتيَهم، وعرفوا ما قدّموه من بغيهم وتعدّيهم. فاجتمع وجوههم عند محمّد ابن ميمون البلوقيّ وابن عمّ له يقال له موسى، فكاتبوا أمير المؤمنين أن يوجّه بعساكره إليهم، وضمنوا له القبض على أبي يزيد متى اتصلت جنود أمير المؤمنين (عم) إليهم. فلم يجبهم أمير المؤمنين (عم)، إلاّ أنّه قال لرسولهم: «إنْ كان الأمر كما يقولون، فما يمنعهم أن يأخذوه؟ وقد بقيت للفاسق مدّة لا بدّ أن يبلغها». فانصرف الرسول إلى أهل القيروان بغير جواب. وبلغ ذلك أبا يزيد

(179) في الكامل، 306/6، كان وصوله إليها في سادس صفر، ممّا ينفي أن تكون دارت وقعة بالوادي المالح في صفر 334، كما قال المالكيّ في وفاة ربيع القطان (رياض، 345/2).

فطلبهم ووعدهم وأرضاهم بالقول وخوّفهم من أمير المؤمنين (عم) وقال لهم: «إنكم قد ظاهرتمونا عليه وأسأتم إليه، وإنكم بعد ذلك/ لا تأمنونه وإن أظهر لكم الأمان (ر 136 أ) ولا ينسى ما صنعتم معنا بأوليائه، يا أهل * القيروان». فاعتذروا إليه وانصرفوا عنه.

315

دش 136

وتسامع من كان تفرّق من عسكره بوقوفه بالقيروان، فجاؤوا من كلّ جهة إليه،، ووفدوا من كلّ وجهة عليه. وكان أهل مدن إفريقيّة، لمّا اتّصل بهم هزيمة الدجّال من حصار المهديّة، كاتبوا أمير المؤمنين (عم) أن يبعث عمّاله إليهم. وقبض أهل سوسة على أحمد الهواريّ عامل مخلد الدجّال، وعلى جماعة معه، ووجّهوا بهم إلى أمير المؤمنين. فحمد ذلك من فعلهم، ووجّه إليهم أمير المؤمنين سبعة مراكب مشحونة بعبيده، وقوّد عليهم رجلاً منهم يقال له عبّاس بن منذورة لضبط مدينة سوسة، وضبطها أحسن ضبط حتى قدم عاملها الحسين بن ناكسين من قبل أمير المؤمنين (عم).

.. وكذلك أهل سوسة وبقيّة المدن.

وكتب الدجّال (ط 215) أبو يزيد إلى البربر يستنهضهم ويلومهم ويوبّخهم على افتراقهم عنه وتركهم إيّاه، فتوافدوا إليه. وخرج أصحابه إلى المدن والبلدان ليدفعوا أولياء أمير المؤمنين (عم) عنها، وأمرهم بالمسابقة إليها، وأوصاهم بالقتل والنهب والسلب، على ما جرت عاداته، وشاع به ظلمه، واستمرّت عليه أحواله/.

316

ووجّه أبو يزيد مسنويه بن بكر الكملانيّ وعياض بن أحمد الهواريّ إلى تونس. وكان أمير * المؤمنين (عم) وجّه إلى تونس عمّار ابن عليّ في جماعة من الكتاميّين. ووجّه (عم) إلى باجة عقبان بن الحسن الجيمليّ، ووجّه إليها الدجّال أيّوب بن خيران (الزويليّ) المعروف بأبي سليمان. وأخرج الدجّال فليح بن محمد الهواريّ، وكان قاضيه في هوارة أوراس، إلى الأربس.

أبو يزيد يوجّه قوّادة لإرجاع المدن إلى طاعته:

فلمّا خرج أصحاب أبي يزيد عنه، فعلوا بوصيّته، ومضـوا على شاكلته، فلم يمرّوا ببلد إلاّ قتلوا أهله واستبوا نساءه وولدانـه. فأخربوا البلاد، وأهلكوا العباد، وفعلوا أفعالاً لم يسمع بمثلها من بعدها وقبلها، ولا جرت الفراعنة الأولى على شكلها.

مسنويه الكملاني وعياض الهواري إلى تونس...

وسبق مسنويه وعياض فيمن معهما من جنود البربر (ر 136 ب) عمّار ابن علي والكتاميين الخارجين من المهدية، إلى تونس، فاستولت البربر عليها وملكوها بالسيف يوم السبت لعشر خلون من صفر، فانتهبوا ما فيها وقتلوا أهليها واستبوا ذراريها، وأحرقوا المسجد الجامع فيها. ولجأ كثير من أهلها إلى أن ارتموا إلى البحر فماتوا غرقاً، ونجا منهم من نجا فماتوا جوعاً وهزالاً.

وأقبل عمّار بن عليّ والكتاميّون، فخرج عياض ومنسويه ومن معهما/ من البربر لحربهم، فاجتمع الفريقان بموضع يقال له «بنو صلتان»، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكثرت جموع البربر على الأولياء * فهزموهم. وحال بينهم الليل، فالتجأ الأولياء إلى جبل الرصاص من أعمال تونس، ثمّ توجّهوا إلى باجة فدخلوها، ثمّ خرجوا منها إلى صطفورة[180].

317

دش 138

ورجع مسنويه وعياض والبربر إلى تونس فاصطفَوا أموالها وسباياها ووجّهوا بجميع ذلك إلى القيروان. ثم عاد عمّار بن عليّ (ط 216) والكتاميّون إلى تونس، وقد اجتمع معهم خلق عظيم من أهل تلك النواحي. وخرج البربر مع مسنويه وعياض من تونس للقاء الأولياء، فاجتمعوا بوادي بجردة[181] ووقع القتال بين الفريقين، فانهزم البربر

(180) صطفورة هي المنطقة الشمالية الشرقية من البلاد التونسية، من بنزرت إلى مصب مجردة.

(181) نهر بجردة هو نهر مجردة اليوم الذي يقطع البلاد من الشمال الغربيّ إلى الشمال الشرقي.

وقتل منهم ناس كثير. وحال الليل بينهم، وأثخن مسنويه بن بكر الكملانّي جراحاً. وبلغت هزيمة البربر إلى مدينة تونس، فركب[182] الأولياء إلى مدينة تونس خلفهم يوم الأربعاء لخمس خلون من شهر ربيع الأوّل (أكتوبر 945)، فأخرجوا البربر من تونس بعد أن قتلوا منهم مقتلة عظيمة، وبلغ البربر بهزيمتهم إلى القيروان. وأصاب الأولياء بكورة تونس/ ثلاثة آلاف جمل محمّلة طعاماً وغير ذلك، فتوجّه بها عمّار بن عليّ راجعاً إلى المهديّة إذ كانت تونس خراباً لا مقام فيها ولا أهل لها. فلمّا وصل عمّار إلى مدينة سوسة وافاه كتاب أمير المؤمنين (عم) أن يقيم في مدينة سوسة.

318

ولمّا وصل عقبان الجيمليّ ومن معه من الأولياء (ر 137 أ) إلى باجة، أصابوا بها بقيّة من أهلها كانوا يقيمون بها * الليل، ويخرجون النهار إلى الصحاري والقفار حذراً من البربر، واجتمع لعقبان جماعة ممّن حول باجة من القبائل.

دش 139

ووجّه أبو يزيد مسنويه الكملانيّ، وعياض الهواري، وابنه أيّوب، وعلي بن بدر المصريّ[183]، في عسكر عظيم، فدخلوا تونس مرّة أخرى وقتلوا من بقي فيها وأخربوا باقيها. ثم توجّهوا إلى باجة فخرج إليهم عقبان بن الحسن الجيمليّ ومن معه، فقتل ومن معه جميعاً رحمة الله عليهم. ودخل البربر مدينة باجة بالسيف فقتلوا من أصابوا بها وأحرقوها بالنيران واستبوا نساءها. وكان السبي والنهب بنواحي إفريقيّة في إقبال البربر وإدبارها، وغدوّها ورواحها. وكانت البربر تُدخِل بالسبي والنهب إلى القيروان/ ما لا يحصى كثرة، وكلّما اتّصل ذلك بمخلد، وما يلقى المسلمون ونساؤهم

. وأيوب ابنه إلى باجة

319

(182) في الجميع: وركب

(183) في دش: الحصريّ، ولا نعرف هذا القائد

وأولادهم من البربر، سرّه ذلك وأبهجه، وأقرّ قلبه وأثلجه. وذكر له ذاكر ما يلقى الناس من بغيهم، وما هم فيه من ضلالهم وغيّهم، فقال: «والله لأقتلنّ جميع مَن في المغرب بمَن قتل من أوليائي»! فقال له بعض جلسائه: «العفوأقرب إلى التقوى». فأغضبه ذلك وأقبل يهيج كالبعير، ويكثر من القول النكير *.

دش 140

أهل القيروان يتآمرون على أبي يزيد. . .

(ط 217) وعمل محمّد بن مؤمن البلوقيّ وموسى ابن عمّه في قتل مخلد، وحالفا على ذلك جماعة من البربر يسمّون بني بياضة، واستمالا رجلاً يقال له عليّ بن بدر المصريّ من كبراء مَن مع أبي يزيد، وكتبا إلى أمير المؤمنين بذلك، وتعاقدوا على أن يغدروا بأبي يزيد في حين ركوبه. فمضى رجل من بني بياضة إلى أبي يزيد فأخبره ما هم فيه وما تمالؤوا عليه. فأمر أبو يزيد بقتل بني بياضة في دورهم، وما زال اللعين بمحمّد بن مؤمن البلوقيّ وابن عمّه حتى قتلهما رحمة الله عليهما.

وهجم البربر في يوم قتلهما (ر 137 أ) على رجل من وجوه أهل القيروان، فأخذوا نعمته وحرمته وثلاث بنات أبكار كنّ له، ونجا الرجل بنفسه في الليل. فحين صلّى الناس صلاة الصبح في جامع القيروان/ قام الرجل مستغيثاً، وصاح وبكى، وعجّ واشتكى. فقام كثير من أهل القيروان معه وصاحوا: النفير! النفير!» حتى اجتمع خلق عظيم، وخرجوا في الشارع الأعظم[184] يستغيثون إلى الله جلّ ذكره. ووصلوا إلى أبي يزيد فأسمعوه قبح الكلام وأغلظوا له في القول. فلطَفَ بهم واعتذر إليهم، وحبس الذين فعلوا ذلك من *

320

.. للتخلّص من العسف والاضطهاد المسلّط عليهم. .

دش 141

(184) الشارع الأعظم أو السماط الأعظم بالقيروان: هو السوق الرئيسيّ فيها، يمتدّ من باب أبي الربيع إلى الجامع وربما إلى باب تونس، وطوله ما يزيد على ميلين (انظر. رياض النفوس، 49/2)

البربر، وأخرج حرمة الرجل وبناته من دورهم. وانصرفت جماعة أهل القيروان عن أبي يزيد فوافَوا رجلاً مذبوحاً وأهله يحملونه. فسألوا عن أمره، فذكروا أن فضل بن مخلد الدجّال ذبحه وأخذ ابنته، وكانت ذات جمال. فحمل الناس الرجل المذبوح إلى الجامع وصاح الناس: «لا طاعة إلا طاعة أبي القاسم أمير المؤمنين!» وكادوا أن يثبوا على البربر في دورهم وخرج فضل بن مخلد ليسكّن الناس في جماعة معه فسبّوه وسبّوا أباه أقبح سبّ وقالوا: «لا ذمة لكم، ولا أمان لمن أمّنتم!»[185]، ورجّلوا قوماً من البربر عن دوابّهم. وبلغ أبا يزيد فعلهم فخرج في جماعة كثيرة معه إلى باب تونس، وخاف أن يوقع أهل القيروان به. واجتمع إليه جماعة من أصحابه فلاموه وقالوا: «هجت العامّة على نفسك، والسلطان من ورائك، ولا تأمن أن يكاتبوه ويمنعونا مدينتهم/ حتى يأتيَ عسكَرُه». فاعتذر إليهم وعاهدهم ألاّ ينهب أحداً من أهل القيروان، ولا يغيّر عليهم أمراً، ولا يروا منه منكراً (ط 218).

.. وعلى كافّة جهات إفريقيّة..

321

وكثر دخول السبي مع البربر إلى القيروان، فرغبوا إلى أبي يزيد وسألوه أن يكفّ عن السبي، فأجابهم إلى ذلك وأمر بالنداء في عسكره: «من سبى حرّة أو أمّ ولد، فقد حلّ دمه!» وكان هذا النداء في أوّل النهار، ودخل عسكره في آخره *. فخرج أهل القيروان فانتزعوا السبي عنهم في ذلك اليوم واليوم الذي يليه. فيقال إنّهم انتزعوا في ذينك اليومين ألف[186] محصنة من امرأة وطفلة. واتّصل ذلك بأبي يزيد فغضب له وقال: «يمنعون أصحابي من حقّهم،

دش 142

.. فيعدهم أبو يزيد بالانتهاء..

(185) في الجميع: لا ذمّة ولا أمان لكم ولمن أمّنتم.

(186) في المخطوطين: ألف ألف، وفي المطبوع: أربعة آلاف. وانتزاع السبايا من أيدي الغاصبين بدأ به سحنون بن سعيد في قصته مع بعض قواد الأغالبة (أنظر معالم الإيمان ج 58/2).

ويحولون بينهم وبين ما أحلَّ الله لهم.» فقال له بعض البربر: «ألم تناد بالأمس أن لا تسبى حرّة ولا أمّ ولد، وعاقدت القوم، وعاهدتهم عليه؟ ولقد شاع في الناس أنّه لا ذمّة لك، ومال الناس عليك ونفروا منك».

وكان أبو يزيد وجّه سليمان الأعجمي الأسود إلى الجزيرة في عساكر كثيرة فحاصر بني زلال، وقد التجؤوا إلى بعض حصونها، فبذلوا له مالاً كثيراً ليترك حصارهم فتركه وانصرف إلى القيروان. ورجع أبو سليمان أيّوب بن خيران من تونس إلى القيروان، فأخذ على الجزيرة، ولم يمرّ بمنزل إلاّ سبى /نساءه وقتل وأحرق بالنار. ثمّ تألّب أهل الجزيرة بالخلاف على أبي يزيد، فطردوا من كان عندهم من قديم الأيام من البربر. فانتقلوا من تونس إلى القصر القديم فنزلوا مستندين إلى أبي يزيد. وكانت الرفاق[187] تخرج من الجزيرة بالطعام وجميع المرافق إلى المهديّة، وخيول أبي يزيد تخرج من القيروان فتقطع عليهم وتذهب بما تذهب ويسلم ما يسلم *.

322

.. ولكنّها وعود كاذبة

دش 143

وكان ثوبان بن أبي سلاس[188] مقيماً بالأربس. فحين اتّصل به هروب أبي يزيد عن محاصرة المهديّة ورجوعُه إلى القيروان، جمع حوله بني عمّه ومن كان بالبلد ودعا لأمير المؤمنين القائم بأمر الله (عم). فأخرج مخلد الدجّال فليح بن محمّد الهواريّ إلى الأربس كما قدّمنا ذكره. فحين اتّصل بفليح فعل ثوبان، عدل إلى مرماجنّة فجمع من بها من هوارة وبني كملان، وزحف إلى الأربس

(187) الرفاق ج رفقة بالتثليث، وهي جماعة المرافقين والقافلة المحروسة.

(188) يظهر أنه والد إبراهيم الذي انفصل عن أبي يزيد والتحق بالمهدية (أنظر ص 309 وهامش /174)

فقاتل من بها أياماً، وكانت الحرب مرّة لهم (ر 138 ب) ومرّة عليهم. ثمّ إنّ البربر تكاثروا وأتوا الأربس من جميع جهاتها فغلبوا عليها. وخرج ثوبان فيمن معه ليلاً إلى قلعة شقبناريّة[189] فقعدوا بها مع من بقي من الجند. ودخل البربر مدينة الأربس فانتهبوا وقتلوا من أصابوا فيها، وسبوا نساءها. /فيقال إنّهم أخذوا لبني أبي سلاس ستّين حرّة من بنات وأخوات وزوجات، سوى الموالي والمماليك. وهدّمت الأربس وأحرق كثير منها بالنار. وبقي ابن أبي سلاس ومن معه بقلعة شقبنارية، وانضمّ فليح الهواري ومن معه من جموع البربر إلى أيّوب بن أبي يزيد فصاروا في جماعته، ومعهما جماعة عظيمة.

فليح الهواريّ ينتقم من أهل الأربس

323

وكتب أهل إفريقيّة إلى أمير المؤمنين القائم بأمر الله (عم) يشكون إليه ما حلّ بهم من القتل والنهب والسلب * ويضرعون إليه أن يُخرج واحداً من رجاله إلى جبل شعب[190]. فأخرج إليه أمير المؤمنين الحسن بنَ علي في مائة فارس من ملوسة إجابة لهم، وأمّر الحسن بن عليّ على العسكر الذين مع أخيه عمار بن عليّ بسوسة، فانضمّوا إليه. وأعطى الناس الأرزاق وخرجوا إلى تونس. فلقي جماعة من أصحاب أبي يزيد بوادي الرمل[191] فقتلهم وأخذ ما كان معهم من الأموال والمواشي. وسار في اليوم الثاني. فحين انتهى إلى القرب من فندق شكل[192] لقي خيلاً لأبي يزيد مع جمال

دش 144

خروج الحسن الكلبيّ إلى ناحية زغوان ثمّ تونس

---

(189) هي مدينة الكاف الحاليّة.

(190) جبل شعب. لعله جبل زغوان، كما أكد الدشراوي، وإن كان البكريّ، 46 سمّي جبل رغوان باسمه.

(191) وادي الرمل ووادي الرملة: نهران مختلفان بين جبل زغوان وخليج الحمّامات. فوادي الرمل ينحدر من جبل الحربي إلى بوفيشة فالبحر. أمّا وادي الرملة فيمر بقرية الزريبة قبل أن يلتحق بوادي الرمل. والاسم بعد منتشر ببلادنا، مثل الوادي المالح، وقد يتخذ النهر الواحد أسماء مختلفة من منبعه إلى منتهاه.

(192) فندق شكل: ذكره البكري، 46، من بين قرى جبل زغوان. ولمحمّد الطالبي: =

وبغال، فأسلموها إلى الأولياء ونجَوا بأنفسهم. وبات الأولياء ليلتهم تلك بمنزل داود[193]. واتّصل بهم موت عقبان عامل باجة رحمة الله عليه، وقد قدّمنا ذكر ذلك[194]. واتّصل بهم أيضاً أنّ أيّوب بن أبي يزيد قد/ ملك البلد بأسره. فاغتمّ الأولياء وكرهوا الانصراف إلى المهديّة وصاروا إلى تونس. فحين قربوا منها وافَوا ألف جمل ودوابّ وبغالاً كثيرة تحمل الطعام والأمتعة إلى مدينة القيروان، ومعها خمسون (ر 139 أ) فارساً من البربر وأربعمائة راجل. فقاتلهم الأولياء حتى غلبوهم على تلك الأحمال جميعها وعادوا إلى تونس. فوقع بين الفريقين قتال عظيم وظفر الأولياء وانهزم البربر واحتوى الأولياء على أخبيتهم (ط 220).

324

دش 145

اجتماع قوّاد أبي يزيد على الحسن ابن عليّ..

ودخل الحسن بن عليّ تونس من * يومه. وأتاه أهل البلد، ولا متاع معهم، وقد لبسوا الجلود والأنطاع، فأمّنهم وصرفهم إلى أوطانهم. وأقام فيمن معه خارج المدينة، وكانت القبائل الذين حولهم بين طائع ومتوقّف. واتّصل دخولهم تونس بأبي يزيد فأرسل إليهم جنوداً يتبع بعضها بعضاً، عليهم يدرس المزاتيّ، وموسى الصنهاجيّ، وأبو سليمان [أيّوب] الزويليّ وغيرهم، فقعدوا بوادي الرمل. وكتب مخلد أيضاً إلى سليمان الأسود وهو بالجزيرة قد انصرف عن محاصرة بني زلال كما قدّمنا ذكره، فأقبل بمن معه، واجتمع مع جند أبي يزيد فصاروا عساكر عظيمة، ورجعوا إلى تونس. فبرز إليهم الحسن بن عليّ ومعه/ ثلاثمائة فارس وألف راجل فالتقوا بموضع يعرف بـ«خندق ميمون»[195]، فوقع بينهم

325

= الإمارة، 173 هامش 5، والترجمة، 195 هامش 167 ملاحظة مطوّلة في شأن المواقع بين القيروان وتونس قد تحدد موقع هذا الفندق.

(193) منزل داود: لم نقف عليه في مراجعنا

(194) مرّ مقتل عقبان في ص 318.

(195) لا نعرف هذا الموضع.

القتال الشديد فهزمهم الأولياء وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأخذ الأولياء خيولهم وما كان معهم واحتووا على أخبيتهم، ووصل إليهم من الخيل مسرّجة ملجمةً ما يزيد على ثلاثمائة برذون، وستّةُ بنود، وثلاثةُ طبول. ووتناهت الهزيمة على البربر فأُسر منهم ألفا رجل قتلوا صبراً في خندق ميمون[196].

.. وهزيمتهم بخندق ميمون

وقد كان عليّ بن حمدون، حين اتصل به هرب أبي يزيد من ترنوط وانصرافه عن محاصرة المهديّة، جمع جموعاً وهيّأ عساكر، وخرج يريد * المهدية معاضدةً للأولياء، فأخذ على بلد وزداجة[197] إلى سطيف إلى القسنطينة ثم إلى لواتة، وصار معه منهم إلى بني هراش. ووافاه حسن بن منصور مقدّم بني هراش، وثوبان بن أبي سلاس[198] في جماعة من الجند الذين كانوا معه بقلعة شقبنارية ثمّ (ر 139 ب) رحل إلى بلطة[199] وضرب مضاربه هنالك. واتّصل به هنالك أنّ حسن بن عليّ قد عقد [له] بتونس وأنّه قد هزم البربر. فكتب إلى الحسن بن عليّ يعلمه وصوله حيث وصل إليه ويسأله القدوم عليه.

دش 146

تحرّك عليّ بن حمدون نحو إفريقيّة .

وكان أيوب بن أبي يزيد في باجة. فحين اتصل به وصول علي بن حمدون إلى حيث وصل، زحف بعساكره إليه. وبات (ط 221) بالقرب منه عليّ بن حمدون/ لا يشعر به[200] ولا يعلم خبره. ثمّ

326

---

(196) نلاحظ أنّ التشفي والوحشيّة مشتركان عند الفريقين، والداعي إدريس لا يحمي ولا يخفّف عن أصحابه في العقيدة، ولعلّ هذه الصراحة راجعة إلى المصدر الذي ينقل عنه.

(197) يظهر من كلام المؤلّف أنّ وزداجة كانوا يقطنون بين المسيلة وسطيف، خلافاً لما ذكره ابن خلدون، 144/6 من أنهم مستقرون بجهة باجة (وانظر الرياض 1701/2 وهامش 49)

(198) «أبو الفصل بن أبي سلاس» عند ابن حمّاد، 19.

(199) بلطة: هي اليوم قرية مشرفة على سهل سو سالم بولاية جندوبة وتقع على عشرين ميلاً غربي باجة

(200) في المخطوط: ولا يشعر به

صبّحه أيّوب، وعليّ بن حمدون قد ركب في جماعة من أصحابه إلى بعض القبائل يريد أن يستنجدهم، وكان ذلك اليوم كثير الغمام مظلم الجوّ. فوصل إلى عسكر ابن حمدون فاستباح أخبيته، ومضاربه وأمواله. ونجا ابن حمدون على فرسه وقد أثخن جراحاً إلى ناحية بني ديارة[201] فتردّى به فرسه في بعض الأوعَار فسقط وانكسر وركه وتهرّست عظامه ومات هنالك بعد أيّام رحمة الله عليه *.

.. ولكنه يلاقي حتفه في معركة مع أيّوب بن مخلد

دش 147

وكان الحسن بن عليّ حين وصل كتاب ابن حمدون إليه قد خرج إليه يؤمُّه، ولم يعلم ما كان من قصّة أيّوب، ولا أتاه خبر فعله مع ابن حمدون. وقد انضمّت القبائل إلى أيوب رغبة ورهبة، وتوجّه قاصداً لتونس لقتال الحسن بن علي، وهو في جيوش عظيمة وعدّة قوية. فبات وبينه وبين الحسن بن علي ستّة أميال، والحسَن يريد عليّ بن حمدون ولا يعلم بشيء من أمره. وكان بينه وبين عسكر أيّوب جبل حائل. وكان أيّوب قد وجّه ألفَي فارس فجعلها في طريق المهديّة لتحول بينها وبين الحسن بن علي إن رجع إليها. واتصل بكلّ واحد من الفريقين مبيت الآخر بقربه، فزحف بعضهم إلى بعض بعد أن طلعت الشمس، والبربر واثقة بكثرتها وقوّتها، وقد نظرت إلى/ قلّة مَن مع الحسن بن عليّ. فوقع بينهم الحرب، وكثر الطعن والضرب، وغلب البربر على عسكر الحسن بن عليّ. ثمّ تراجع أصحاب الحسن بن عليّ إليه وكرّ على البربر صابراً محتسباً،

327

(201) في «هـ». ناجة بني ديارة، وفي «ر»: باجية. ولا نعرف ناجة أخرى غير باجة القمح وباجة الزيت. فلذلك أخذنا بقراءة المطبوع. ناحية بني ديارة، وإن كنا لا نعرف بني ديارة.

هذا وإن رواية ابن الأثير، 307/6 للأحداث الموالية تختلف كثيراً عن رواية الداعي إدريس: فعليّ بن حمدون لم يمت بعد، وهو الذي تقهقر إلى بلد كتامة، لا الحسن الكلبيّ. وهو ـ علي الأندلسي ـ الذي جمع القبائل وفتح تيجس وباغاية وبقي ببلاد كتامة ينتظر قدوم المنصور.

أيّوب يتحوّل الى الحسن بن عليّ فينهزم في النهاية.

فقتل من البربر مقتلة عظيمة، وكانت فيهم الهـزيمة، وأغنم الله الحسن بن علي (ر 140 أ) أثقالهم وما حواه عسكرهم. وكانت أثقال الحسن ابن عليّ قد سارت تؤمّ المهدية فوافتها خيل أبي يزيد فانتهبوها وقتلوا جماعة من أصحاب الحسن معها. وبلغ ذلك إليه وهو في طرد العدوّ (ط222) * فأرسل أخاه عمّار بن عليّ في خيل معه، فوجد عمّار البربر قد امتلأت أكفّهم من تلك الأثقال وقد حازوها وهم يريدون عسكرهم، فأخرجهم منها واستردّ ما أخذوه وعاد ذلك إلى يده بعد أن حازوه. وسار عمّار يريد أخبية البربر ولحقه أخوه الحسن بن عليّ، وأصابوا أيّوب بن مخلد فيها ومعـه ألفا فـارس، فبادرهم الحسن بن علي وأخوه ومن معهما، فولّى أيوب ومن معه من البربر هاربين، وعلى أعقابهم ناكصين، وحاز الأولياء ما في عسكرهم. وانتهى أيّوب إلى أبيه الدجّال وهو في القيروان، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة (نوفمبر 945). وعظم أمر هذه الوقعة على أبي يزيد، وأراد أن يرحـل من القيروان هـارباً فشجّعه أصحابه، وأشاروا عليه بالثبات/ وبايعوه على الموت.

دش 148

.. ولكنّه يعيد الكرّة..

328

واجتمع إليه عسكر عظيم من البربر فأخرج ابنـه أيّوب بن مخلد وأعاده إلى محاربة الحسن بن عليّ. فنزل أيّوب بموضع من كورة باجة يقال لـه «قافلة»[202] في عسـاكر لا يحصى عـددها، والحسن بن عليّ مع أهل وزداجة ومن انضمّ إليهم، ومن بقي معه من أصحابه. وكان نزوله في موضع وعر ليحوط عسكره، وكانت فيه أربـع سبـل، وجعـل على بعضهـا أحمـد المعـروف بـالكمين الوزداجي *[203]، فكان القتال بين الفريقين لا يزال، فمرّة يغلب هؤلاء ومرّة هؤلاء.

دش 149

(202) لا نعرف قافلة

(203) لا نعرف عن هذا الوزداجي غير خيانته التي تأتي بعد قليل

.. فيتغلّب بفضل خيانة أحمد الكمين الوزداجي

ثمّ إنّ أيّوب بن مخلد راسل أحمد الكمين ووعده وبذل له. واجتمعت البربر عساكر عظيمة وزحفوا لقتال الحسن بن عليّ فغلبوا بالكثرة بعد قتال عظيم. وأدخلهم أحمد الكمين الوزداجي من السبيل التي لديه فقتلوا من الأولياء مقتلة عظيمة وحازوا أخبيتهم وغنموا ما فيها. وخلص الحسن بن عليّ (ر 140 ب) ومن بقي معه إلى جبل من ناحية وزداجة، وقد حيزت أخبيته وطعامه وعلفه، ووقعت معه علة عظيمة أشرف فيها على الهلاك، ومات جماعة لوباء[204] المكان الذي كان فيه وقوفهم. وأساء أهل وزداجة إليهم ومالوا عليهم. وخاف الحسن بن عليّ غدرهم، ولم يجد سبيلاً/ للرجوع إلى المهديّة فخرج إلى بلد كتامة. وكان يقاتلهم من مرّوا به من القبائل. وخلصوا إلى بلد كتامة فعاودت الحسن بن عليّ العلة حتى أشفى على الهلاك وفارقه أصحابه إياساً منه. ثمّ رفع الله علّته. فحين نقه منها كاتب كتامة ومزاتة وغيرهم، ووجّه أصحابه في الغزاة فما زالوا يغنمون. ووافاه جماعة من الكتاميّين وقوم من البربر يقال لهم «بنو واسين»[205]. واجتمع إلى الحسن بن عليّ خلق عظيم كثير من كتامة وغيرهم. وصار إلى قسنطينة وعسكر بها، ونُصبت فيها أخبيته. ووجّه عسكراً إلى هوارة * سرمانة[206] فقتلوهم وأخذوا مواشيهم، وعليهم كان اعتماد أبي يزيد.

329

خروج الحسن الكلبيّ إلى بلد كتامة..

دش 150

. وأحده باغاية وتيجس

وحين اتّصل ذلك بأبي يزيد أخرج عساكر جمة لمحاربة الحسن بن عليّ، وجعل عليهم ابنه فضلاً وابنه يزيد، فجرت بينهم

---

(204) في «دش»: لوعر، وفي المطبوع: في نفس.

(205) بنو واسين: مرّ ذكرهم ضمن أنصار أبي يزيد (ص 256) وهم من زناتة (أنظر هـ. ر إدريس، 244) وزناتة إباضيّة خارجيّة يستعد أن تناصر الفاطميين. ولعلّ المؤلف وهم في الاسم.

(206) هكذا في «هـ». وفي «ر». سربانة وقرأ الدشراوي. سريانا (مصدر سرى).

حروب شديدة كان الغَلَب فيها للحسن بن عليّ، وملك مدينة تيجس ومدينة باغاية، وبقي على ذلك حتى وصل المنصور بالله (عم) إلى القيروان، فوصل إليه. وسنذكر ذلك فيما نأتي بذكره.

ووجّه أبو يزيد حشّاده ورجاله إلى قبائل البربر فأتوه من كلّ جهة، ورجع من القوة إلى ما كان عليه، وقد غلب على مدن إفريقية، وقتل أكثر الجند/ والكتاميين الذين فيها. وصار الحسن بن عليّ إلى بلد كتامة ومات عليّ بن حمدون صاحب المسيلة رحمة الله عليه[207].

330

حصار سوسة: جمادى 2 سنة 334/ جانفي 946

وخرج[208] مخلد الدجّال لستّ خلون من جمادى الأخرى (جانفي 946) من سنة أربع وأربعين وثلاثمائة إلى مدينة سوسة ليحاصرها، وقد اجتمع إليه من البربر ومن أهل إفريقيّة (ط 224) والزويليين خلائق عظيمة. وكان في سوسة من قِبَل أمير المؤمنين القائم (ر 141 أ) بأمر الله (عم) الحسين بن ناكسين عاملُها، وعبّاس بن مندورة، في عسكر كثير. فحاصر أبو يزيد سوسة حصاراً شديداً، وكان يقاتل أهلها كلّ يوم، فمرّة له ومرّة عليه. وأمر بجميع النجّارين * الذين بمدينة القيروان، فعملوا له ثلاث دبّابات، ورجا أن يدخل سوسة

دش 151

(207) يتواصل الالتباس في خصوص عليّ بن حمدون والحسن بن عليّ. فمن ذا الذي خرج إلى بلد كتامة؟ الحمدونيّ أم الكلبيّ؟ وقد نبّه هـ ر. إدريس إلى اختلاف الروايتين وأحال إلى كافّة المراجع وناقشها، وانحاز أخيراً إلى ما سماه «الرواية الفاطمية»، وهي رواية مؤلّفنا، التي تعظّم الحسن بن عليّ فتنسب إليه كافة العمليّات ببلطة ثمّ ببلاد كتامة فتيجس فباغاية (ص 19 - 21 من أطروحته عن بني زيري). وفي رواية ابن خلدون أيضاً، 15/7 أنّ الذي تحصّن بقسنطينة هو الحسن بن عليّ. وسيأتي في ص 388 أن جعفر بن حمدون هو أمير المسيلة الذي قدم إلى طبنة على المنصور أثناء ملاحقته لأبي يزيد، مما يدعم تاريخ وفاة والده عليّ بن حمدون بسنة 334.

(208) فخرج في المخطوط. ونسمح لنفسنا بتغيير الرابط حسب سياق السرد.

بها، فأحرق أهل سوسة بعضها. ووجّه أمير المؤمنين القائم بأمر الله (عم) سلاسل كان قد أعدّها قبل الفتنة، طول كلّ سلسلة ثمانون ذراعاً، وفيها كلاليب، وكانت تُربط في حوائط السور وفي دور تقرب من السور، ثم ترمى الكلاليب في الدبابات حتى يتمكّن الرجال منها وهم على السور. فلم يصنع في الدبابات شيئاً، وهي كالمنازل قد أعدّت من الخشب ويدخل الرجال فيها، وهي على عَجَل تسير بهم. ثمّ نصب مخلد المنجنيقات والعَرّادات/ عليها، وقتل خلق كثير من أهلها، واشتدّ بهم الأمر، وطال عليهم الحصار، وعظم الصِّرّ[209]، وكثر الجهد والضرّ.

331

تعيين إسماعيل المنصور وليّاً للعهد: 8 رمضان 13/334 أفريل 946

وكان الأولياء يسألون أمير المؤمنين القائم بأمر الله (عم) أيام فتنة الدجّال ومحاربتهم له في المهدية وغيرها، أن يُخرج إليهم أحدَ ولده في حروبهم، يستندون إليه ويأخذون ببركة رأيه ويكونون تحت رايته. فلم يجبهم إلى شيء من ذلك، لما اقتضته الحكمة ورآه وليّ الله ممّا آتاه الله من علمه وورثه عن آبائه وأجداده عليهم صلوات الله وسلامه. حتى إذا آن الوقت المعلوم، وبلغ أمر الحيّ القيّوم، أظهر أمير المؤمنين أبو القاسم محمّد القائم بأمر * الله أمرَ ولده أبي الطاهر إسماعيل المنصور بالله صلوات الله عليهما لسبع خلون من شهر رمضان المعظّم من سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة (أفريل 946)، وفوّض عهده إليه، وأوعز (ط 225) إليه بوصيّته وأعلَم بذلك أهل دعوته، وأبان لجميعهم أنّه وليّ عهده (ر 141 ب) والخليفة من بعده. وكتب بذلك إلى الأمصار والبلدان والجزائر، وعرّف به كلّ باد وحاضر. وكان المنصور بالله (عم) يومئذٍ قد بلغ من العمر ثلاثاً وثلاثين سنة.

دش 152

قال القاضي النعمان بن محمّد[210]: دخلت إلى المنصور بالله

---

(209) الصِرُّ والصرّة: الجلبة والصياح.

(210) المجالس والمسيرات، 138، وقد سقط هذا النقل من «دش». وفي تعيين =

332 (عم) أهنّئه بما أفضى الله (عج) إليه من/ الكرامة. فقال: يا نعمان، وما عسى أن يكون الدرك من هذه الدنيا القليلة الوزن؟ والله لتاجر تكون بضاعته ألف دينار، ينال من الدنيا ما عسى أنّنا لا نناله منها. والله، لولا إقامة حقٍّ لله نُقيمه، وأمر بمعروف ونهي عن منكر نرجو ثوابه، وإنَّ ذلك ممّا افترضه الله (عج) علينا، وألزَمْناه، ونصَبْنا له وكلِّفنا إيّاه، لكنتُ إلى إيثار الخمول والإعراض عن الدنيا أسرعَ، وبذلك ألذَّ عيشاً وأمتعَ».

خطبة المنصور في عيد الفطر

ولمّا كان يوم الفطر خرج المنصور بالله أبو الطاهر إسماعيل ابن أبي القاسم القائم بأمر الله (عم) من قصره وقد حفّ به بنوه وإخوته وشيعتُه وأولياؤه وأهلُ دولته وعبيدُه، والناس يرفعون أصواتهم بالدعاء له ويسألون الله (تع) أن يركس عدوّه ويخذله، والأعلام تنشّر والطبول تضرب، والمسرّة قد ملأت القلوب وأثلجت الصدور، ونجوم السعد قد طلعت قاضيةً لأولياء الله بالظهور. فحين انتهى إلى المصلّى، صلّى صلاة العيد، وقام (عم) خطيباً فقال:

«باسم الله الرحمان الرحيم. الحمد لله الذي أحسن إلينا في قضائه، وأصفى الجزيل من عطائه، أحمده حمدَ مَن شكر حُسناه، وآثر في الأمور كلّها رضاه، وأستعينه/ استعانة من لا يرجو غيره ولا 333 يثق بسواه، ولا يتوكّل إلاّ عليه في أولاه (ط 226) وأخراه. وأشهد أن لا إلّه إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، اصطفاه لوحيه، واختاره لتبليغ رسالاته، فابتعثه داعياً إلى الحقّ (ر 142 أ) وشاهداً على الخلق، فبلّغ رسالة ربّه، ونصح لعباده، وجاهد في

=: المنصور لولاية عهد أبيه وتأخّر الإعلان عنها، ينظر تلخيصنا لمختلف الروايات في المجالس والمسايرات، 137 ,220 ,448، وهي تخالف ما يقوله الداعي إدريس من أنّ القائم أعلن عن التعيين.

سبيله، صلاة[211] الله عليه نبيّاً مصطفى، ورسولاً مرتضى، وعلى آله، وسلامه ورحمته وبركاته.

«عباد الله! إنّ يومكم هذا يوم عيد، شرّفه الله وعظّمه، وفضّله وكرّمه، ختم به شهر رمضان، وافتتح به حجّ بيته الحرام، فأَخلِصوا فيه نيّاتكم، وارفعوا إلى الله فيه طلباتكم، واستغفروا لسيّئاتكم، فإنّه يقول، جلّ ثناؤه، وتقدّست أسماؤه: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ (نوح، 10). اتّقوا الله عباد الله! فبتقواه نجح الطالبون وفاز الفائزون، وهي وصيّة الله في الأوّلين والآخِرين، وتمسّكوا بطاعته، وحافظوا على ما استحفظكم الله (تع) من دينه وكتابه، واسترعاكم من حقوقه وحدوده. فلمثل ما رغّبكم الله من جزيل ثوابه، وكريم مآبه، وخوّفكم من عقابه وأليم عذابه، فليعمل العاملون!

334 «ألهَمَنا الله وإيّاكم رُشدَنا، وعزم لنا ولكم/ على تقواه، واتّباع هداه، وبلوغ رضاه».

وجلس (عم) جلسة خفيفة، ثمّ قام فقال:

«باسم الله الرحمان الرحيم. الحمد لله مسبغ النعماء، وكابت الأعداء، ومستحقّ الشكر والثناء، وصلّى الله أفضلَ صلاته على أفضل أنبيائه محمّد خاتِم النبيّين، وسيّد المرسلين، وعلى آله الطيّبين. اللهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد، وارحم محمّداً وآل محمّد، وبارك على محمّد وآل محمّد، كأفضل صلاتك وبركاتك ورحمتك على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنّك حميد مجيد.

«اللهم، وصلّ على شمس الهدى، الذي بضيائه أشرق

---

(211) في المخطوط: وصلى، وغيّرنا حتى يوافق العطف بسلامه ورحمته وبركاته.

الإسلام، وانجاب (ط 227) الظلام، وعزّ الدين، وتمّت النعمة على المؤمنين، عبد الله (ر 142 ب) أبي محمّد الإمام أمير المؤمنين، المهديّ بالله ابن المهديّين، الكريم ابن الأكرمين، صلّى الله وملائكته عليه، وأكْرمَ اللَّهُ مثواه لديه، في المقام الكريم، والنعيم المقيم!

«اللهم، وصلّ على وليّ الأمر، ووارث المجد والفخر، الذي أعظمت عليه منّتك، وأسبغتَ عليه نعمتك، وألبستَه حلل الكرامة، وتوجّتَه تاج البهاء والخلافة، وجمعت له خلافة الأنبياء المرسلين، وإرث آبائه الأئمّة المستخلَفين، الهداةِ المهديّين، الأوصياء المنتَجَبين، محمّد القائم بأمر الله أمير المؤمنين.

«اللهم، عرّفه فيما ولّيته واسترعيته، واستحفظته عليه وائتمنته/، أفضل ما عرّفت أحداً قبله من خلفائك الأئمّة الراشدين، آبائه المهديّين، من النصر والإعزاز * والتأييد والإظهار. وأوقع بأعدائه، شرقاً وغرباً، برّاً وبحراً، أشدَّ ما أوقعت وأحللت بأحد من أعدائك من السطوات والنقمات، والقوارع المبيدات، والمَثُلاَت[212] المخزيات، ودمّرهم تدميراً، واصلهم سعيراً.

335

دش 155

«اللهم، انصر به الدين، وأيِّده بالظهور والتمكين، والعلوّ والقهر، والنصر والظفر، واجعل كلمته العليا، ويده الطولى، وجندَه الغالبين، وحزبه المنصورين، وافتح له فتحاً مبيناً، تُعزّ به الدين، وتَشفي به صدور المؤمنين، إلاهَ الخلق ربَّ العالمين، إنّك سميع الدعاء، فعّال لما تشاء، لا تخلف الميعاد».

ثم نزل (صلع) وعاد إلى قصر أبيه أمير المؤمنين، والناس مستبشرون فرحون بيُمن طلعته وإقبال دولته.

---

(212) المَثُلة والمُثْلة: العذاب والعقوبة. قال الله تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ، وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ المَثُلَاتُ ﴾ (الرعد، 6).

إشادة الشعراء بتعيين المنصور:

وقال محمّد بن أبي القاسم التونسيّ[213] في ذلك:

(طويل)

توسَّمْ صباحَ المجد من أينَ يُشرق | وعَرفَ الرضى والحِلم من أين يَعْبَقُ
ومثِّلْ، على أنّ النجومَ كثيرة، | بأيِّ سراج تهتدي فَتُوَفَّقُ
لقد صحّ للمرتاد ما كان يبتغي، | وصاب له الغيثُ الذي كان يُبْرِق
وقد كانت الأيّام خُرسا، فأصبحَت | لها ألسنٌ بالشكر لله تنطق
دش 156 — 5 * فما بعد هذا للوسائل ملجَأٌ | ولا للمنى في غيره متعَلَّقُ
تليق بإسماعيل نائرةُ العلى، | ويغدو بها، من غيره وهو أَلْيَق
336 — أمينٌ تمنّته الرئاسةُ مذ نشا، | تتوق إلى أخلاقه وتَشَوّق
وكانت عيونُ الأمر من شغَفٍ به | على رِقْبَةٍ ترنو إليه وتُطْبِق
ترى غرّةَ الميعاد، وهي جليّة (ر 143 أ) | تخُبّ إلى الميقات فيه وتَعْنَقُ
... محمد التونسيّ... — 10 وطلعةَ وجهٍ أكمل الله نورَها، | يكاد لها ضوءُ النواظر يُرهَق
وأخلاقَ مخلوق من البرّ والتُقى | أظنّ الرضى والحِلمَ منهنّ يُخْلَق
فقد وضعَتْ تلك المواعيدُ حَملَها | تماماً، وكانت قبل ذلك تُطْلَق
شهدتُ بأنّ الله بالغيب عالم، | وأنّ أمير المؤمنين موفّق
دش 157 — رأى نجلَه من نعمة الله عنده | يُحاذيه في أحكامه فتُصَدَّقُ *
15 عليه دليلٌ من تقاه، وشاهدٌ | يلوح، ونورٌ في علاه، ورَوْنَق
فأبرزه فينا لكلّ مُلِمَّةٍ، | تُناط به الآمال منّا فتعلق
ولمّا استهلّت بالفواضل كفّه، | تيقّن باغي الرزق من أين يُرزق
ومالت أمانيُّ النفوس بأسرها | إليه، فباتت في ذُراه تُحَقّق
فيا صفوةَ الله المقدّسةَ التي | تُصبَّح منّا بالصلاة وتُغْبَق
20 إليك شكونا من أذى بربريّة | نكاد لها، لولا ولاؤك، نفرق

(213) الأرجح عندنا أنه عليّ بن محمد التونسيّ الأيادي كما بيّنا في الحوليّات، 17 سنة 1979/ ص 53.

وهذا بصُنع الله فيـك يصوننـا،   ونحن بـه في نيل رفـدك أرفق

وقال محمّد بن أحمد الطرزيّ(214) من قصيدة:

.. ومحمد الطرزيّ

(طويل)

يحقّ لنا أن نُنصفَ الفخر والمجدا   ونكثرَ فيك الشكـر لله والحمدا

طلعتَ/ بنور يملأ الأرض بهجةً   ونورا، وكفّ تبسط الأملَ الجعدا

337

* وأخرج المنصور بالله (عم) صدقات فرّقها في المساكين، ووجّه مراكب كثيرة مشحونة بالطعام إلى فقراء سوسة والمحتاجين منهم، ففرّقت فيهم لما هم فيه من الحصار والجوع، فاتّسع من فضله البادي والحاضر (ط 229)، والداني والشاسع.

دش 158

وشحن المراكب بالعدّة والسلاح، ووجّه ببعضها إلى مدينة سوسة، وقوّد عليها رشيق الكاتب، فوصل إلى سوسة لإحدى عشرة ليلة خلت من شوّال (جوان 946).

ولما حضرت أميرَ المؤمنين القائم بـأمر الله (عم) الـوفاة، أحضر ولده الإمام المنصور بالله (عم) وأوصاه بما أراد من أمر الدين والدنيا. ثمّ كان فيما قال له:

«يا بنيّ، إنّي مُسلّم ما أمرني الله بتسليمه إليك، وفقّك الله لما يُرضيه ويُزلف لديه، ومهّد لك البلاد، وجمع على طـاعتك العباد! لكنّي يا بنيّ أستودعُك وديعةً أحبّ أن لا تضيعها بعدي.

القائم يوصي المنصور بجوذر خيراً

قال له: قُلْ يا مولاي، صلّى الله عليك، وأرجو أن ينسىء

(214) لا نعرف شيئاً عن هذا الشاعر الثانيّ. وقد ذُكرت نسبة الطرزيّ في رياض النفوس، 55/2 . وفي ترجمة القاضي أبي القاسم القيسي المعروف بالطرزيّ في معالم الإيمان، 7/3 - 9، وقال ناشر الرياض إن طرزة قرية بإفريقية. ولعلها بقيت في اسم «جبل طرزة» حالياً قرب القيروان.

الله في أجلك، ويهب لنا ولكافّة أمّة جدّك (ر 143 ب) عافيتك.

قال: هيهات! قد بلغ الكتاب أجلَه! وديعتي عندك جوذر المسكين. فاحفظه، ولا يذلّ بعدي!

338 — فقال له المنصور (صلع):/ يا مولاي، هل جودر إلّا واحد منّا؟

قال: نعم، هو كذلك لأنّ نفسي طابت عليه.

وكان أمير المؤمنين القائم بأمر الله (عم) يختصّ ابنَ ابنه معدَّ ابن إسماعيل بن أبي القاسم، المعزّ لدين الله، صلوات الله عليهم، وعلى آبائهم، والطاهرين من أبنائهم، ويؤثره ويحبّه ويتوخّاه. قال القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه) فيما أتى عنه: «وذلك ممّا كنّا نعرفه ويبلغنا عنه. ورُويَ عن الإمام المعزّ لدين الله (عم) قال: لقد قال لي القائم بأمر الله (صلع): لولا صغرُ سنّك، لجعلتُ هذا الأمر إليك، ولكن أنت أبو تميم حقّا كما كُنّيتَ. (قال الإمام المعزّ لدين الله): وكان كثيراً ما يقول ذلك ويكرّره: أنت أبو تميم حقّاً، أنت أبو تميم حقّاً، وما أعرف يومئذٍ ما يريد بذلك. (قال): وكنت يومَ قبض (صلع) عليلاً متخلّفاً لأمر عرض لي، فسأل عنّي، وكرهُوا أن يخبروه بعلّتي (ط 230)، ثمّ أغمي عليه. ثمّ أفاق فسأل عنّي وقال: ائتوني به! ثمّ أغمي عليه كذلك مراراً، كلّما أفاق سأل عنّي. فأُتِيَ بي إليه، وقد مُنع الكلام. فلمّا رآني ضمّني إليه، ثمّ أغمي عليه، فنُحّيتُ عنه. وأفاق فردّني كذلك. ثمّ قُبض صلى الله عليه[215].

نقل عن النعمان: محبّة القائم للمعزّ

339 /وذلك كفعل رسول الله (ﷺ) بالحسن والحسين (عم) حين قبض، وقد ذكرنا ذلك[216].

---

(215) المجالس والمسايرات، 95. وانظر كذلك ص 468 منه. وقد أسقط الدشراوي هذا النقل أيضاً.

(216) مرّ فصل طويل في السبع الرابع (ص 6 - 26) في محبّة الرسول (ﷺ) لسبطيه، والحادثة التي يشير إليها الداعي إدريس ذكرها في ص 26 من السبع الرابع.

وفاة القائم: الأحد 14 شوّال 19/334 ماي 946

وكانت وفاة أمير المؤمنين محمّد أبي القاسم القائم بأمر الله، صلوات الله عليه ورضوانه، ورحمته وبركاته، يومَ الأحد لثلاثَ عشرةَ ليلةً خلت من شهر شوّال سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة (ماي 946) بعد أن استقلّ الإمام المنصور بالأمر، وظهر فضله من السرّ إلى الجهر، وعلم بقيامه أهل البدو والحَضر(217).

والحمد لله على ما منّ به من بقاء نعمه في الآخِرين كما كانت في الأوّلين، وصلّى الله على محمّد نبيّه، وعلى عليّ وصيّه، وعترتهما المكرَّمين المفضَّلين، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، وعليه نتوكّل وبه نستعين.

(217) يعني هذا أن المنصور تولّى قيادة الحرب وشؤون الدولة منذ تعيينه في رمضان.

البَابُ السَّادِسُ

خلافة المَنصُور
(334/946 - 341/953)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمدَ الشاكرين، وصلاته على رسوله سيدنا محمّد خير الأوّلين والآخرين (ر 144 أ)، وعلى عليّ وصيّ محمد وآله الطاهرين.

ذكر أخبار ممّا كان في أيّام الإمام المنصور بالله (صلع) أمير المؤمنين أبي الطاهر إسماعيل بن أبي القاسم

صلّى الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين.

ووليَ أمير المؤمنين أبو الطاهر إسماعيل المنصور بالله بن محمّد أبي القاسم القائم بأمر الله، بعد وفاة أبيه صلوات الله عليهما. وكان ذلك في أيّام/ تغلُّب اللعين الدجّال على القيروان وأعمال إفريقية وكثير من أعمال الغرب، وهو محاصر لسوسة، وقد أظهر في البلاد الفساد، وأهلك ببغيه كثيراً من العباد. فكتم المنصور بالله وفاة أبيه القائم بأمر الله (عم)، عن القريب والبعيد (ط 231)، والعدوِّ المباين والوديد[1]، ودفنه سرّاً، وأظهر عليه جلداً وصبراً، لئلّا يعلم العدوّ بذلك فتقوى عزيمته، ويطّلعَ عليه الوليّ، فيكثر فشلُه وتهي قوّته. وغطّى ذلك بكثرة الصلات، وأعطى

340

كتمان وفاة القائم

(1) الوديد: المحبّ أو جمهور المحبّين.

[فعمّ][2] بالنعم والأيادي المتواصلات. ولم يتسمّ بإمرة المؤمنين، وكانت كتبه تنفذ: من الأمير إسماعيل، وليّ عهد المسلمين، ابن أمير المؤمنين *. وأخرج جميع من كان في السجون، وأكثر من الصدقات للفقراء والمساكين. وولّى المهديّة جوذر الأستاذ رحمة الله عليه، عبده وعبد جدّه وأبيه، المهديّ بالله والقائم بأمر الله (عم)، وهو من أهل السابقة الحسنى، والمكان عند الأئمّة الأسنى. وجعل المنصور بالله (عم) إلى جوذر الحلّ والربط في جميع الأمور.

دش 161

تفويض أمر الدولة إلى جوذر الأستاذ

وتهيّأ الإمام (عم) للخروج للجهاد في سبيـل الله. فجمع السلاح وآلة الحرب وافتقد ما يحتاج إليه، وهو بما وعده الله به من النصر قويّ القلب.

341

وقد/ أتى عن القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه) قال: «كنت جالساً عند المعزّ لدين الله (صلع)، فذكر أمر الفتنة وما كان فيها من عظيم المحنة، وما حلّ بالناس من ذلك، وما كشف الله عنهم بالمنصور بالله (صلع)، واستنقذهم على يديه فقال (عم):

استطراد في التنبّؤ بكشف المحنة على يد المنصور

«لقد أخبرنا المنصور بالله (عم) قبل الفتنة عن رؤيا رآها، ما غادرت شيئاً كان في ذلك. قال: رأيت آتيا أتاني، وفي (ر 144 ب) يديه ورق كبير، فنشره بين يديّ وقال لي: انظر إلى هذا! فنظرت فإذا فيه دوائر كثيرة. فقلت: قد رأيت هذه الدوائر، فما هي؟

قال: هذه مملكتكم.

فجعلت أنظر إليها. فإنّي لكذلك إذ نظرت إلى سواد غشي كلّها غير واحدة كانت أقربهنّ * إليّ، فارتعت لذلك وقلت: إذا كانت هذه مملكتنا قد غشيها هذا (ط 232) السواد، فما ذلك لخير.

دش 162

---

(2) الزيادة من «ر».

فقال ذلك الرجل: ضع إصبعَك على ما غشّاه هذا السواد منها أوّلاً فأوّلاً.

ففعلت. فما وضعت إصبعي على شيء منه إلاّ تجلّى عنه ذلك السواد، وعادت على حسب ما كانت حتى أتيت عليها كلّها، وذهب ذلك السواد عن جميعها. ثمّ انتبَهْت.

(قال): وكذلك كان الأمر: لم يطأ المنصور بالله (عم) أرضاً في طلب اللعين مخلد وأصحابه إلاّ أخرجهم منها، فلم يعودوا بعد ذلك إليها. ثمّ أمكن الله/ (عج) من الفاسق وطهّر الأرض من رجسه»[3]. 342

قال القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه): وكان المهديّ بالله (ص)، والمنصور في بطن أمّه، يقول: «كاشف المحنة ومطفىء نار الفتنة في هذا الوقت حَمل في بطن أمّه، عن قريب يولد. وكان المنصور (عم) يومئذٍ حملاً»[4]. وكانت فتنة الدجّال بعد ذلك، فأطفأ الله على يديه نارها، وعفّى به آثارها.

حملة بحريّة وبرّيّة لتخليص سوسة من الحصار

وركب الإمام المنصور بالله (عم) إلى موضع يعرف بـ«دار الصناعة»[5]، يوم الأحد لعشر بقين من شوّال [سنة 334] (ماي 946)، وأمر يعقوب بن إسحاق أن يشحن ستّة مراكب بالرجال، وأن يسير بهم سرّاً إلى سوسة. وقال له: «إذا كان بعد غد، يوم الثلاثاء، فانزل بمن معك من الرجال على * شاطىء البحر بالقرب من باب سوسة الشماليّ، واجتمع مع رشيق الكاتب، ولا تقاتلوا أحداً دش 163 .

(3) المجالس والمُسايرات، 113 - 114.

(4) المجالس والمسايرات، 542.

(5) دار الصناعة بالمهديّة. أي ترسخانة الأسطول، وهي شرقيّ قصر المهديّ (التجانيّ، 323).

حتى يأتيكم من أُوَجِّهُه من رجالي. وإن طلب مخلد والبربر قتالكم قبل ذلك، فلا تقاتلوهم!» فعظم ذلك على يعقوب، واستأذنه أن يمضيَ إلى داره ليقضيَ بعض حوائجه ووداع أهله، فامتنع عليه الإمام (عم) (ط 233).

وتوجّه يعقوب من يومه، ولم يعلم أحد أين يقصد (ر 145 أ) ولا ما أوعز إليه الإمام (عم). ثمّ قال الإمام لكتامة الذين بالمهديّة وما/ حولها: «وافوني في غد بقرية «بكة»[6] بالسلاح والعدّة، فإنّي أريد أن أتنزّه وأنظر آثار العدوّ». ومسافة بكّة على ميلين من المهديّة. فبكر (عم) من قصره في شرذمة[7] من عبيده وخدمه قبل الصبح لتسع بقين من شوّال، ووافاه الأولياء من كتامة حيث وعدهم. فتوجّه بهم مع ساحل البحر يريد سوسة[8]. فاجتمع إليه الأولياء وسألوه إلى أينَ يقصد، وقد اجتمعوا قدر ستّمائة فارس. فقال لهم: «قد عزمت على التمادي إلى هذا العدوّ، وأن ألقاه بنفسي، فإنّ الله سيديلني عليه». فتضرّعوا إليه في الرجوع، وسألوه أن لا يخاطر بنفسه. فعند ذلك دعا بكبون بن تصولا[9] * وأمره بالنفوذ إلى سوسة في جملة من الخيل التي معه، وأن يبيت بهم في الطريق ويصبح العدوّ بالقتال، وعرّفه أنّه أرسل يعقوب ومن معه من الرجال الذين في البحر إلى مدينة سوسة. وأمرهم بتقوى الله وطاعته، ووعظهم وذكر لهم فضل الجهاد، وأن لا يولّوا الدبر. وقال لهم: «إني في أثركم أنظر/ كيف تفعلون». فتوجّه كبّون بالقوم الذين معه، طاعة للإمام (عم)، وقد حارت قلوبهم لما يعلمون العدوّ عليه من الشدّة والقوّة

343

المنصور يخطّط بنفسه لتخليص سوسة

دش 164

344

(6) رأينا (ص 293 هامش 139) أن بكة قد تكون «بقة» المذكورة عد البكري، 31
(7) الشرذمة: الجماعة القليلة.
(8) بكة/ بقة تقع إذن في الشمال الغربي من المهدية في اتجاه المنستير ثمّ سوسة.
(9) كبون بن تصولا كان والي طبنة في بداية ثورة أبي يزيد (انظر ص 250 وما يليها).

والنجدة، وأنّ عسكرهم يزيد على مائة ألف فارس وراجل[10]. وكان المتوجّهون مع كبّون أربعمائة فارس.

ورجع الإمام (عم) بمن معه من خدمه وعبيده إلى المهديّة، فوافاها صلاةَ المغرب. وبات كبون بن تصولا بموضع يعرف بـ «بني سليم»[11]، وبينهم (ر 145 ب) وبين العدوّ عشرة أميال. وبات يعقوب ابن إسحاق بمراكبه (ط 234) في تلك الليلة في البحر عند مدينة سوسة بإزاء العدوّ وعند باب سوسة الشماليّ. فلمّا كان يوم الثلاثاء، ألصق مراكبه بالبرّ، وأنزل رجاله بالقرب من الباب الشماليّ في هدوء وسكون، فجلسوا تحت دَرَقِهم[12]. وركب يعقوب دابّته[13] وقام في وسطهم، وخرج إليه رشيق الكاتب[14] في من معه من الرجال، والرماة يحمونهم من أعلى السور *. فحين رآهم مخلد وما هم عليه من السكون، وامتناعهم من القتال، قال: «هؤلاء ينتظرون غيرهم». وتحوّل كبون في من معه من المكان الذي كانوا فيه بائتين، فأصبحوا بقرب معسكر أبي يزيد، وكان ذلك اليوم كثير الغمام مظلم الجوّ. فلمّا ظهرت الشمس من الغمام، تراءت خيول الأولياء مع/ شاطىء البحر، وصاح البربر: «هذه الخيل أتت من المهديّة!» فركب أبو يزيد بنفسه، ونُصبت أعلامه وضُربت طبوله. وخرج أهل سوسة ببنودهم وطبولهم مع كبون، وصاروا عسكراً واحداً قُبالَة أبي يزيد، وصار بإزاء يعقوب بن إسحاق التميميّ ورشيق، أبو سليمان

يعقوب بن إسحاق وكبون بن تصولا يباغتان أبا يزيد..

دش 165

345

فيضرمان النار في أحصاصه..

---

(10) عند التجاني، 327، كانت محلة أبي يزيد تضم مائة ألف خص - أي بيت من قصب - يسكن كلّ خصّ ثلاثة وأربعة وأكثر.

(11) لا نعرف هذا الموضع

(12) أي. تروسهم.

(13) يعني هذا أن المراكب تحمل الخيل أيضاً

(14) كان رشيق على قيادة العبيد في الدفاع عن زويلة أيّام الحصار (انظر ص 294).

الزويليّ. فالتحم القتال واشتدّ الصراع، فانهزم الأولياء حتى دخل أوائلهم باب سوسة الجنوبي. ثم عطف الأولياء، وأطلق إرشيق ويعقوب النار في الدبابات[15] التي كان مخلد صنعها بقرب باب سوسة الشمالي، وأشعلا حطباً كان أعدّه ليحرق به سوسة، فاستشعلت النيران وأظلم الجوّ بالدخان. فلما رأى أبو يزيد ذلك ومن معه، ضعفت قلوبهم، وظنّوا أنّ أبا سليمان ومن معه من أصحابه قد انهزموا، وكانوا لا يرون بعضهم بعضاً، لكون مدينة سوسة حائلة بينهم. ثم هزم يعقوب ورشيق من كان بإزائهما، وألقَوا النار في الخصوص أوّلاً فأوّلاً إلى أن صارت * النار بقرب الموضع الذي كان فيه أبو يزيد في قتال الأولياء. فانكسر أبو يزيد ونكص على عقبيه، وحفّ به غزاته، وتوجّه هارباً منهزماً إلى مدينة القيروان لا يلوي على أحد. وهرب البربر (ر 146 أ) على وجوههم/ وافترقوا في كلّ جهة، وقُتل منهم خلق كثير، وقتل عليّ بن بدر المصريّ، عُدّةُ أبي يزيد للمهمّ من أمره، وصاحبُ جيشه (ط 235) ومقدّمُ عَسكره[16]. وغنم الأولياء ما كان في عسكرهم، ممّا سلم من الحريق بالنار بعد أن احترق أكثره. ووصل أبو يزيد إلى القيروان أوان صلاة المغرب مهزوماً مغلوباً. فلمّا وصل إلى باب أبي الربيع شتمه أهل القيروان بأقبح شتم، ومنعوه من الدخول ومن معه، وقتلوا منهم جماعة ممّن دخل القيروان.

دش 166

.. فيرفع الحصار ويعود إلى القيروان

346

وكان في اليوم الذي انهزم فيه أبو يزيد حادث دعا أهل

---

(15) قد مرّ (ص 330) ذكر الدبّابات والسلاسل والكلاليب.

(16) علي بن بدر المصريّ: ذكر المؤلف قبل هذا أنّ البلوقيّ وبني بياضة المتآمرين على مخلد كانوا أدخلوا عليّ بن بدر هذا في حربهم (ص 319)، ولم يخبرنا بمآله عندما كشفت المؤامرة وقتل البلوقي وجماعته. وها نحن نراه اليوم يموت شهيداً في صفوف أبي يزيد، وكأن الداعي إدريس لم ينتبه إلى هذا التناقض.

القيروان إلى الخلاف على أبي يزيد: وذلك أنّ بربريّاً يقال له: «فليح» من أهل أوراس[17] ومن وجوه أصحابه ـ وكان قاضيه في عسكره ـ قتل رجلاً كان يخدمه من أهل القيروان، ورمى به في بئر، فأخرجه أهل القيروان من البئر، وتتبّعوا الدم إلى دار فليح. وقام أهل الرجل وتناثل[18] معهم أهل القيروان، ومضوا إلى أبي عمّار الأعمى فقصّوا عليه الخبر. فأحضر البربري فليحا وسأله عن الأمر، فأقّر فليح بقتل الرجل، وقال انّه * مشرقيّ مشرك. وكان فليح مقبولَ القول عند البربر. فحين سمع أبو عمّار قول فليح، طرد أهل القيروان عن نفسه ودَحَرهم[19] ولم يُرضهم بالقول والفعل. وانصرف/ الناس وقلوبهم مملوءة غيظاً، وذلك قبل هزيمة أبي يزيد عن سوسة. ووجد أهل القيروان بالغداة قتيلاً طريحاً في باب أصرم، فاتّبعوا آثار الدم إلى دار فيها قوم من البربر، فعرّفتهم إمرأة أنّ البربر قتلوه في تلك الدار، وأنّهم يقتلون كلّ يوم رجلاً أو آثنين ويَطمِرونهم في مطمورة في الدار. فأصاب الناس في تلك المطمورة ستّة رجال مقتولين، وقتلى غيرَهم في مستراح، فتألّبوا وضجّوا ومضوا إلى أبي عمّار. فظنّهم أبو عمّار جاؤوه في القتل الأوّل فأرسل إليهم (ر146 ب) فأسمعهم المكروه وانتهرهم، فعادوا عنه راجعين، فوجدوا البربريّ الذي [كان] القتلى في بيته فقصدوه، ففرّ عنهم ودخل داراً فيها امرأة مخلد بن كيداد فاجتمعوا (ط 236) وأحاطوا بالدار. فأمرت امرأة مخلد[20] مَن ربط يدَي الرجل البربري إلى رجلَيه،

قيام أهل القيروان على فليح الهواري لقتله واحداً منهم

دش 167

347

امرأة أبي يزيد تنصفهم من المعتدين

(17) فليح بن محمّد الهواري: مرّ بنا (ص 316) أنّه كان قاضياً على هوارة أوراس، وأنّه دوّخ جهة الأرس وعاث فيها فساداً (ص 323).

(18) تناثل القوم: انصبوا واجتمعوا.

(19) هذه قراءة المطبوع. أمّا المخطوط، ففيه: ووضرهم ولا معنى للوسَخ هُنا. وقراءة الدشراوي: وأخّرهم.

(20) امرأة أبي يزيد: ابن حمّاد، 19 يسميها «تاخيريت»، وابن الأثير، 307/6 يكنّيها «أم =

ورُمي بـه إلى أهل القيـروان من سطح الـدار، فتلقَّوه بـالسيوف والرماح، ومات قبل وصوله الأرض، وجرّوا برجله وطافوا به في أسواق القيروان وهم ينادون: «لا طاعة إلاّ طاعة إسماعيل!» وذلك لما اشتهر وبلغهم من فضل المنصور بـالله (عم) وكرمـه وحسن أخلاقه وشيمه *.

دش 168

فهم على هذه الحال إذ وصلهم أوائل المهزومين عن مدينة سوسة من أصحاب أبي يزيد/ فقويت قلوب أهل القيروان وصاحوا: «يا مهـدي، يا قائم، يا منصور، لا طاعة إلا طاعة إسماعيل!» ومنعوا البربر عن دخول القيروان، وأحاطوا بدار أبي عمّار الأعمى، ومعه ثلاثون رجلاً وحاصروه. ووصل أبو يزيد أوانَ صلاة المغرب إلى باب القيروان، والحصار على أبي عمّار. فحين أرجعه الناس عن الباب، بات خـارج المدينـة إلى الصبح ويلغـه خبر أهـل القيروان مع أبي عمّار، وأنّهم محاصِرُوه. فأمر بجماعة من رؤساء أهل القيروان وعـاتبهم، فاعتـذروا أنّ ذلك فعـل السفهاء منهم. وخاف على أبي عمّار أن يُقتل، فأمر بركوب من معه وأظهر العطاء، ونادى بإعطاء الأرزاق. فتفرّق الناس عن أبي عمّار، فخـرج مع الذين كانوا معه حتى وصل إلى أبي يزيد، فتحدّثا أن أهل القيروان قد اختلفوا عليهم، وأنّهم لا يركنون إليهم، وخافوا وصول مـادّة[21] المهديّة، وقـد افترق عسكـرهم. وأجمع رأيهم أن ينصـرفوا من القيروان حتى يجتمع عسكرهم ويأتيهم مدد البربر [فـ]ـيرجعـون

348

تشاور أبي يزيد وأبي عمّار في ترك القيروان

= أيوب». ومعلوم أن أبا يريد له ابن يسمّى أيّوب. ويبدو أنّ امرأة مخلد، رغم أنها «على مذهبه» كما يقول ابن حمّاد، كانت أقلّ قساوة من روجها، أو أكثر مداراة للخصوم.

(21) المادة هنا: المدد من الرجال والسلاح

إليها[22]. وتوجّهوا إلى ناحية سبيبة، فوقف في (ر 147 أ) الموضع المعروف بـ «كدية الشعير»، وبينه وبين القيروان مسافة يومين[23].

349

ولمّا انتهت البشرى إلى الإمام المنصور (عم)/ بهزيمة الدجّال عن مدينة سوسة عشيّة الفتح، خرج المنصور (صلع) (ط 237) من المهديّة إلى مدينة * سوسة صبح الأربعاء لستّ بقين من شهر شوّال سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة (جوان 946)، ثاني اليوم الذي انهزم فيه الدجّال. فنزل (عم) خارج مدينة سوسة، وانتهى إليه خبر أهل القيروان، ووصل إليه زيادة الله بن عبد الله[24] وجماعة من الأولياء الذين كانوا بمدينة القيروان، فأخبروه خبر أبي يزيد، وأشاروا عليه بالمصير إلى القيروان، وأن يؤمّن أهلها[25] لأنّه قد عظم اجترامهم وكثر خوفُهم. فقال المنصور بالله (عم) لزيادة الله: «أنت شيعيّ حقّاً

دش 169

خروج المنصور إلى سوسة..

---

(22) «إليه» في الجميع، على تذكير القيروان، وهو أمر مطّرد عند الداعي إدريس، وعند غيره يقول عبد الواحد المراكشي (المعجب في تلخيص أخبار المغرب، القاهرة 1949، ص 356): «.. وقد ألّف الناس في أخبار القيروان، ومناقبه وذكر علمائه ومن كان به من الزهاد والفضلاء، كتباً.»

(23) كدية الشعير: ذكرها البكري، 146 بين سبيبة والقيروان، تفصلها عن سبيبة قرية الجهنيّين وجبل ممطور (أي جبل وسلات الآن: انظر النويري: نهاية الأرب، 19/24، والتجاني، 32) ثم قرية الهري. ويظهر أن هناك مسلكاً آخر إلى سبيبة يمرّ بساقيه ممّس.

وفي الكامل، 308/6 أنّ أبا يزيد «أخذ امرأته أمّ أيوب وتبعه أصحابه بعيالاتهم».

(24) زيادة الله أبو نصر بن عبد الله بن القديم. «كان صاحب الخراج بإفريقية وجميع المغرب» (في حدود سنة 360) انظر ابن حوقل، 94 وهو ابن عبد الله بن القديم الذي عرفنا به ص 133، والأسرة خدمت الأغالبة ثم خدمت الفاطميّين

(25) «أهله» في المخطوط والمطبوع، والداعي إدريس كما قلنا يذكّر القيروان وفي خصوص الأمان، يقول ابن حمّاد، 25، إنّ المنصور «عفا عن أهل القيروان خاصة، إلّا أهل الحصون»، ولعله يعني الذين شاركوا في حصار سوسة مع أبي يزيد، فكانت لهم بيوت حُصّ في محلّة صاحب الحمار.

ولا أشكّ في نصحك». وكتب الإمام المنصور بالله (صلع) إلى أهل القيروان بالأمان.

ولمّا كان الصباح، أمر بضرب الطبول، ونادى مناديه بالرحيل، وقال لزيادة الله بن عبد الله: «آركَب مع كبون إلى القيروان، فأمّنوا الناس وعرّفوهم جميل رأيي فيهم وصفحي عن زلّاتهم». فسار كبّون ومعه خمسون فارساً، فوقف خارج القيروان. ودخل زيادة الله مع جماعة ينادون للناس من قِبل المنصور بالله (عم) بالأمان، ففرح الناس واستبشروا واطمأنّت قلوبهم وخرجوا للقاء المنصور بالله (عم)، فوافَوه وقد نصب/ مضاربه في الموضع الذي بنى فيه المنصوريّة[26]. وكان نزول أمير المؤمنين المنصور بالله (عم) بظاهر القيروان يوم الخميس لخمس بقين من شوّال * سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة (جوان 946) فلمّا لقيَه أهل القيروان، قرّبهم وآنسهم وأمّنهم في أموالهم وأنفسهم، ووعدهم الخير وبشّرهم بالظفر. ففرحوا بذلك مع فشلٍ داخَلهم، لما رأوا من القلّة بعسكر الإمام وضعف دوابّهم، إلاّ أنهم قد كرهوا أبا يزيد لما رأوا من جَوره وظلمه، ونكره وكفره. وأحسن إليهم الإمام المنصور بالله (عم)، وتبيّن لهم من فضله وعَدْلِه ما انصلحت به نيّاتهم وقويت قلوبهم (ر 147ب).

350

دش 170

.. ثمّ إلى القيروان وقد صفح عن أهلها

ووجد الإمام جماعة من نساء أبي يزيد وأولاده وحرم أولاده وأولاداً لهم، وحرماً لوجوه رجاله، فأمر (صلع) بصيانتهم وحفظهم (ط 238) والإحسان إليهم، وأمر بحملهم إلى المهديّة وأجرى لهم فيها ما يسعهم عطاء ونوالاً، وجزاهم بسيّىء أفعاله إحساناً وإفضالاً.

---

(26) سيشرع في بنائها بعد وقعة القيروان (صفر 335). وفي ابن حمّاد، 23 أنّ الموضع يعرف بـ«صلب الجمل»، فسمّي «صبرة» لأنّ المنصور كان ينادي في جنوده: صبرا يا عبيد. ثم سمّي المنصوريّة بعد النصر. وكان تأسيسها سنة 337، لا سنة 334 كما قال ابن حمّاد. انظر البكري، 25 وابن حوقل، 74.

وكتب المنصور بالله (صلع) إلى القبائل بجبال إفريقية يأمرهم بالقدوم إليه، فوصل القليل منهم، وتثقالوا وترهّبوا. ووجّه أبو يزيد خيلاً مع ابنه فضل إلى فحص القيروان ليستخبروا الأخبار، فبلغوا إلى قرية الجزيرة[27]، وهي إذ ذاك خالية. / واتّفق أنّ الإمام المنصور بالله (عم) ركب ذلك اليوم إلى قرية الجزيرة، وسبق إليها خمسة من فرسان الأولياء، وخادِم يدعى فُتوحاً، فوافتهم البربر، فقُتل * رجلان من الأولياء وأسر الخادم قبل وصول الإمام (عم)، ومضت خيل العدوّ على ربح[28].

. . ثمّ إلى قرية الجزيرة بفحص القيروان

351

دش 171

وأصبح البربر ثاني يومهم، وهو يوم الاثنين لليلة بقيت من شوّال، وقد خرج كبون بن تصولا ذلك اليوم في ثلاثمائة فارس وثلاثمائة راجل يستخبرون خبر العدوّ. فتوافى الفريقان وكان بينهم قتال عظيم، وتوغّل الأولياء في الدخول عليهم، وقد جعل البربر كميناً خلفهم، فخرج الكمين على الأولياء وعطف البربر عليهم فقتل كبون بن تصولا وكثير من أصحابه رحمة الله عليهم، ولم ينج منهم إلّا قليل. فدخل على الناس أعظم غمّ ويئسوا من الظفر، وأرجف أهل جبال إفريقيّة وتوقّفوا عن نصرة الإمام (عم).

مقتل كبون بن تصولا في كمين نصبه فضل بن مخلد

ووجّه أبو يزيد إلى القبائل فاجتمع إليه خلق عظيم، وعاد إلى ما كان عليه من القوّة. وأمر المنصور بالله (عم) بخندق فعمل على

---

(27) قرية الجزيرة: في المجالس والمسايرات، 324، هي أحد المواضع التي فكّر القائم في إنشاء عاصمة جديدة بها، وقد ذكرها النعمان قبل المنصوريّة مباشرة، ممّا يحمل على الظن انها تقع بفحص القيروان وقد يكون الاسم محرفاً عن «الجهنيين» وهي على مرحلة من القيروان (ابن حوقل، 84)

(28) هكذا في النسختين. أي ربحوا المعركة. وفي المطبوع: على ريح. وسقطت العبارة من مقتطفات الـدشـراوي.

عسكره[29]. وكره ذلك وجوه رجاله وقالوا: إنّـه يُنسب بذلك إلينا الجبـن.

فقال لهم: قد حفر جدّي رسول الله (ﷺ) خندقاً وتحصّن فيه، ونحن أولى أن نحتذي فعله ونقفوَ أثره.

352 فعمل (صلع)/ في الخندق بيده، وكان ذلك غرّة شهر ذي القعدة (جوان 946). وأخذ الناس في حفر الخندق بالجدّ والاجتهاد،

دش 172 وواصلوا العمل في الليل والنهار * (ط 238). ورحل مخلد بن كيداد الدجّال من أكمة الشعير راجعاً إلى ناحية القيروان (ر 148 أ) بعد قتل كبّون، وطمع في الأولياء، فنزل بقرية ممّس[30]. ثمّ ارتحل لثلاث خلون من ذي القعدة غازياً لعسكر الإمام[31] بجميع من معه، وخلّف أثقاله بممّس. وكانت ليلة مظلمة فأخطأ في الطريق وتاه في الفحص، فما وافى القيروان إلّا عند الفجر[32]، وقد أراد الله نصر وليّه وخليفة نبيّه صلّى الله عليه وعلى آله. فجعل مخلد عسكره ثلاث فرق: فرقة معه من وجوه رجاله وحماتهم وكماتهم فقصـد بهم إلى فسطاط الإمام المنصور بـالله (عم)، وفرقـة أمرهـا أن تأخـذ على يمين العسكر، وفرقة على شماله. ومنّته نفسه أنّه إن فعل ذلك لم ينج أحد من عسكر الإمام (عم). وكان وقت غفلة وقد نام الحرّاس، واشتغل كثير من عسكر الأولياء بالصلاة والتهجّد. فوضع البربـر

هجوم أبي يزيد على معسكر المنصور قرب القيروان

---

(29) لا يعيِّن المؤلِّف، ولا ابن حمّاد ولا ابن الأثير، موضع هذا المعسكر بالتدقيق.

(30) في المخطوط: خمس. ولعلها قرية ـ أو ساقية ـ ممّس التي ذكرها البكري، 146، بين سبيبة والقيروان وهي على مرحلة غربي القيروان، ويعرف موضعها اليوم (فصل «القيروان» بدائرة المعارف الإسلامية لمحمد الطالبي) بـ«هنشير دويميس»

(31) يستعمل المؤلّف «عسكر» في معنى المعسكر والجيش على السواء.

(32) معسكر المنصور قريب إذن من القيروان. وسيأتي دليل آخر: نساء القيروان يشاهدن المعركة من سطوحهنّ.

سيوفهم في الناس حول فسطاط الإمام، وتصايح العسكر: «العدوّ! العـدوّ!» ووثب الناس بعضهم إلى بعض، وقـامت الحرب على ساق، وركب الإمام (عم)/ ومنح الله الظفر على الفسّاق. فأخرج عسكر الإمام (عم) البربر، وقُتل منهم ثلاثون رجلاً، وأخذ الأولياء عليهم علَمين. وصار أبو يزيد ومن معه إلى خارج الخندق واجتمع أصحابه إليه، ونظروا إلى قلة الأخبية والمضارب فعاودوا القتال.

353

* وخرج الإمام المنصور بالله (صلع) راكباً فاصطفّت الصفوف، وتدانت الزحوف، وجعل الإمام (عم) يكرّ عليهم يميناً وشمالاً، ويصدقهم بحملات عليهم [تـ]ـتوالى، وهو يصول بسيف جدّه ذي الفقار، ويحمل حملات الأسد الكرّار، والمظلّة كالعلَم على رأسه، فمـوضعه معـروف، والخيل تكـرّ ألوفـاً بعد ألـوف، وهـو يفـرّق جماعاتهم، ويُردي ذوي البأس من كمـاتهم، والأولياء خمسمـائة فارس يُعدّون، والبربر كما ذُكر ثلاثون ألفاً أو يزيدون. ثمّ حمل البربر حملة رجل واحد على الأولياء فأدخلوهم إلى معسكرهم (ط 240)، وهرب جماعة منهم إلى ناحية القيروان، ونُهبت فازات (ر 148 ب) كثيرة من معسكر الإمام (عم)، وبقي وحده في عشرين فارساً من خدمه. وأقبل إليه الدجّال ومن معه من حماة رجاله وكماة أبطاله. فلمّا رأى المنصـور بـالله إقبـالهم إليـه، قصـد أبـا يـزيـد، ومعــه سيف رسول الله (ﷺ) ذو الفقار. وكان الذي يمسك المظلة[33] على رأس

دش 173

المنصور يخرج بنفسه إلى القتال..

(33) المظلّة: من شارات الملك عند الخلفاء الفاطميّين، «اختصوا بها من دون سائر الملـوك وهـي شـبه درقة في رأس رمح محكمة الصنعة رائقة المنظر. يمسكها فارس يعرف بها، فيقال «صاحب المظلة» وكانت عندهم خطّة يتداولها من يؤهّل لها، فيحاذي بها الملك من حيث كانت الشمس يقيه حرّها بظلها» (ابن حمّاد، 14) ابتدعها المهدي، وواصل السنّة ابنه القائم فكان «يركب بالمظلة في أيام أبيه»، خلافاً لما قال ابن عداري، 208. «لم يركب طول إمارته بمظلة». =

354 الإمام صقلبيًا من عبيده. فلمّا رأى جموع البربر قد أقبلت إلى الإمام (عم)، وفرسانهم قد حملت، نكس المظلّة يريد أن يخفي مكان الإمام (عم) فانتهره الإمام وقال له: «ارفع المظلّة يا هذا ولا

دش 174 تفزع ولا تخف، فإنّ الله وعَدنا وعداً لا يخلف». وأقبل (عم) على * أبي يزيد لا يلوي على شيء دونه، وحمل كحملة جدّة عليّ بن أبي طالب على الكفّار بذي الفقار. فألقى الله الرعب في قلب أبي يزيد، وقد كاد الإمام (عم) أن يضع السيف على رأسه، وولّى ناكصاً على عقبيه مدبراً عن حومة مراسه. وولّت جنود الخوارج من البربر، وأتاح لوليّه النصر عليهم والظفر، فقَتَلَ (عم) مَن أدْرَكَ منهم، وثبت في مكانه يمسح العرق عن وجهه.

.. فيثبت وحده في الميدان والمظلّة تعيّنه للعدوّ

وكانت نساء القيروان[34] فوق سطوحهن فعَلَتْ أصواتهن بالضجيج، والبكاء، ورَمَيْنَ المنهزمين من أصحاب الإمام (عم) بالحجارة، وجعلن يقلن: «أين تتركون مولاكم يا كلاب؟ أخرجتموه، وتركتموه وأسلمتموه! يا غربته! ويا وحدته!». وصاح أهل البلد وخشُوا الهلاك من البربر وأن يحلّ بهم المنكر. فحين رأى الناس ثبات الإمام (عم) وثبات المظلّة على رأسه، رجعوا إليه من

355 كلّ جهة وأقبلوا من كلّ وجه فعيّرهم (صلع) بجبنهم، وهو يبسم في وجوههم، وقال: «ادخلوا في كُمّي!» فاحتشموا منه. ولم يظنّوا فيه الثبات لأنّهم يعرفون أنّه ما لاقى الحرب ولا شهدها قبل ذلك المشهد، وابتهجوا حين رأوا حملاته على العدوّ، وهو كالأسد لا يلاقي كتيبة إلّا هدّها، ولا تكُرّ عليه إلّا ردّها.

وتبعهما المنصور كما نرى الآن، ثمّ المعزّ كما يظهر من وصف شاعره ابن هانىء لها. وانظر ما كتبه عنها ـ وعن غيرها من الشارات ـ ماريوس كانار في فصله: ...Cérémonial ص 417.

(34) دارت المعركة، على ما يظهر، على مقربة من أسوار القيروان.

وعاد القوم إلى القتال، وتمادى الحرب إلى وقت صلاة العصر، ورأى الناس من الإمام (عم) ما (ط 241) لم يكن مثله إلّا من جدّه عليّ بن أبي طالب (صلع)، وهالهم ما رأوا منه منْ الكرّ والإقدام. وقال أبو يزيد لأصحابه: هـذا إسماعيل؟

تولّي أبي يزيد عن معسكر المنصور

قالوا: نعم، هو إسماعيل.

فحرّك رأسه وقال: هذا يصلح أن يكون ملكاً حقاً (ر 149 أ).

تضامن أهل القيروان مع المنصور

وأصاب الفريقين حرّ العطش، وكان أهل القيروان يسقون عسكر الإمام (عم)، والبربر لا يجدون ما يستقون، فمالوا بعد زوال القتال إلى ماء آجن بباب تونس[35] ليشربوا منه ويسقوا دوابّهم، فمنعهم أهل القيروان ورموهم بالحجارة والسهام من كلّ مكان، فانصرفوا إلى معسكرهم من قرية ممس، وقد أيقن الناس للإمام المنصور بالظفر، ورأوا منه من النجدة ما لم يظنّوه لأحد من البشر، وعظم في أعين الناس وفرح به أولياؤه وشيعته، وهابه رجاله ورعيّته.

356

إشادة الشعراء بوقعة القيروان (الجمعة 4 ذي القعدة 7/334 جوان 946)

وقال عبد الله بن أصبغ من قصيدة، يذكر قتال الإمام المنصور بالله (عم) وما كان له في ذلك اليوم، حيث يقول:

(طويل)

شعر ابن أصبغ...

ويوم بأرض القيروان شهدتُه	وقد ظلّ فيه الجوّ أغبرَ أقتما
وطاشت به الأبطال خوفاً، وأخرست	لموضع خطب يملأ السمع والفما
لدى مَعرَكٍ ضَنْكٍ تضايقَ للردى	فلا تُسمعُ الأصواتُ إلّا تغمغما
أزال رجالاً هولُه عن صفوفهم	ونكّبَ ذو الإقدام فيها وأحجما
5 وقامت بأهواء اللعين مطامع	فأقبل حتّى كالظليم مصمِّما

(35) لعلها مواجل الأغالبة المعروفة اليوم بـ «الفسقيّة»

فلمّا دنا من حومة الليث في الوغى   وبدرُ الدجى جاب الدجونَ متمّما
تراءت له تلك الجلالة، فانثنى   وهـابك أن يـدنـو وأن يتقـدّمـا
فسـرتَ إليـه مُقـدمـا متـدرّعـا   دروعَ يقين أن تصـاب فتفصما
فـولّاك ظهـراً أوقـرَتْـه ذنـوبُـه   وأعـجـلـه مـرآك أن يـتـلوّمـا
10 فمرّ، وكاد الخوف يُضرم قلبـه   وأنّى لكلب أن يعارضَ ضيغما؟
فيا جُمعةً ما كان أعظمَ فضلَها   لك الله، جلّ الله، حبّى وأنعما
وعُـدتَ إليـه عـودةً هـاشميَّـةً   فبان عن الأثقال رغماً وأسلما[36]

دش 177   * وقال (ط 242) محمد بن الحرث بن سعيد الأبروطيّ:

(طويل)

357   ولم أرَ كالمنصور/ بالله ناصـراً   لدين، ولا أحمى لمُلك وأمنَعا
هو الملك المخصوص بالنصر ملكه   وحافظ ما قد كان ضاع وضيّعا
والأبروطي .   ألم تـرَ يومَ القيـروان وقُـوفَـه،   وقد همّت الأكبادُ أن تتصَدّعا؟
وأبرز عن وجهٍ من الصبر أبيضٍ   يقابل وجهـاً للكريهـة أسفعا[37]

وعاد مخلد بن كيداد إلى موضعه بممّس فأقام يوم السبت. ورحل بالأثقال لخمس خلت من ذي القعدة فنـزل على الشرف الأحمر بين الجزيرة والقيروان[38]. وزحف يوم الاثنين إلى خندق الإمام (عم) فمنع الإمام مَن معه من الخروج إليه (ر 149 ب). ووقف مخلد

---

(36) لا نعرف عبد الله بن أصبغ هذا، وقد نشرنا الأبيات في الحوليّات، عدد 17 سنة 1979 ص 55.

(37) في خصوص هذا الشاعر، انظر الحوليّات عدد 10 سنة 1973 ص 154 وعدد 17 ص 56. وانظر كذلك فيما يأتي ص 462 هامش 186. واسمه في المطبوع: محمد بن هارون.

(38) الشرف الأحمر: هو غير الموضع ببلاد كتامة المذكور ص 305، وقد يكون هو الكـدية الحمـراء التي عرّفنـا بهـا ص 262 هـامش 68، وهي في عـرب القيروان نحو جبل وسلات

ساعة ثمّ انصرف إلى باب أصرم، وكان الإمام قد جعل فيه المركوشيّين[39]، وعليهم قدّام الصقلبيّ[40] وجماعة من الأولياء، فوقع بينهم قتال يسير جُرِحَ فيه برذون قدّام الصقلبيّ، ودفع الله عن نفسه[41]، وانصرف الدجّال إلى حيث كان معسكراً في الشرف الأحمر.

دش 178

هجوم جديد على معسكر المنصور

358

وزحف تلو ذلك اليوم، يوم الثلاثاء لسبع خلون من ذي القعدة، وجاء خبره إلى الإمام (عم) * ففرّق على أوليائه السلاح والعدّة، وأمرهم فلبسوا اللأمة واصطفّوا صفوفاً، ووقفوا على خيولهم داخل الخندق، ونهاهم الإمام (عم) أن يخرج أحد من الخندق وأن يتعرّضوا للقتال ، والإمام واقف بينهم على فرسه، والمظلّة على رأسه. وأقبلت طائفة من بني كملان كانوا في عسكر الدجّال فدَعَوا بعليّ بن حيدرة الكتاميّ وخلَوا به سرّاً وسألوه أن يأخذ لهم من الإمام المنصور بالله (عم) أمانا ويطلب منه بذلك كتاباً. فرجع إلى الإمام فقال (صلع): «لا أمان لهم أو يأتُوني برأس مخلد بن كيداد!» ونادى مناديه: «من جاء برأس مخلد بن كيداد فله عشرة آلاف دينار!».

ووقف رجل من البربر على دابّته فسبّ الإمام (عم)، وأراد الأولياء من كلّ جهة أن يحملوا عليه، فزجرهم الإمام ونهاهم، حتى

---

(39) في الحميع: الرشكيين. وهذه قراءة الدشراوي وقال. إنهم عبيد لاطيبيّون ينسبون إلى ماركوس (عيون الأخبار هامش 332 والخلافة، 191). ولم تذكر بقيّة المصادر هؤلاء القوم.

(40) قدام الصقلبيّ: هو عند ابن حمّاد، 25· مدام والتصحيح من رياض النفوس، 381/2 «وقطع قدام الصقلبيّ الخيل»، وإن كان المحقق خلط بين قدام اسماً وقدام ظرفاً.

(41) هكذا في الحميع، ولعلّه يعني. ودفع الله عنه.

دعاء من الإمام يستجاب في الحين

استوفى اللعين قوله، ثمّ رفع الإمام (صلع) يديه إلى السماء (ط 243) وقال «اللهمّ، خذ بحقّي منه!» فما أتمّ قوله حتى ردّ الرجل السبَّابُ فرسَه فانقلبت عليه وصار سرج الفرس في بطنه فقتله، وحمل عليه الأولياء فجزّوا رأسه. وسجد الإمام (عم) شكراً لله تعالى، وأكثر حمده على ما منّ به عليه من إجابة دعائه وسماع ندائه. وكانت تلك آيةً للإمام المنصور بالله (عم) واضحاً برهانها، ظاهراً بيانُها، عاينها الفريقان وشهد بها الجمعان.

دش 179

359

أبو يزيد يحرق الزرع حول القيروان

وأذن الإمام (عم) لأوليائه بالقتال * فوقع قتال عـظيم بين الفريقين/ وأطلق البربر النار في بيادر الزرع[42] بباب سلم وبباب أصرم وبباب تونس، وكان بها (ر 150 أ) سنبل عظيم وطعام، فعلا الدخان وامتلأ الجوّ من القتام، وكان يوماً شديد الحرّ عظيم الأمر، فهزم البربرُ الأولياء حتى أدخلوهم الخندق. فحمل الإمام (عم) ورجع الأولياء على البربر فهزموهم، وما زال القتال إلى صلاة المغرب، فانصرف القوم عند الليل، وقد تناصف البعض من البعض، وغطّت القتلى وجه الأرض، وعاد كلّ إلى معسكره.

وقال بعض الشعراء في ذلك:

(طويل)

دلائـــل آيـــات الإمـــام كـثيـــرة تلوح لمن كـانت لديـه بصائـر

تردّى التقى والصبرُ في كلّ موطن وصـحّ لـه عنـد الإلـه سـرائـر

ألم تــره حين انبــرى ليسبّـــه شقيٌّ من الأغتـام خَلْفُ مكابـر

فجندَلَه ذو العـرش ساعـةَ سبّه وعـــاجله، والله للحقّ نـــاصـــر

(42) دارت هذه المعارك في منتصف شهر جوان، فالحال صيف والزرع صار إلى الحصاد

5 وما برِحت رجلاه حتى تحكّمت به، وبأحزاب الضلال، البواتر[43]

ووجّه الإمام (صلع) للحشود، فتوقّف أكثر الناس وتربّصوا.

دش 180

وكان أوّل القادمين عبد الله بن * زلال الجزيري في جند الجزيرة، فأنزلهم الإمام (عم) بباب تونس. وأمرهم الإمام فخندقوا على مواضع عسكرهم. وكانت البربر تأتي خيلُها كلّ يوم (ط 244) فتقاتل الذين

360

بباب أصرم وباب تونس. وقد جعل الإمام أبا الفضل بن أبي سلاس[44] في عسكر معه من الجند بباب أصرم، وأمرهم فخندقوا خندقاً يحوطهم، فامتنع القيروان من دخول البربر إليه، وفرّق أبو يزيد خيله على الطرقات تنهب وتسلب، وكانت تضرب حول الخندق فتأخذ ما وجدت من الماشية. وأقبل أبو يزيد يوم الأربعاء للنصف من ذي القعدة بحشوده وجنوده، فكان قتال عظيم فيما يلي باب تونس، فدعا الإمام (عم) الحسين بن ناكسين الكتامي وأمره أن يأخذ مائة فارس ويشقّ القيروان ويخرج إلى البربر من باب تونس[45] على غفلة. ففعل الحسين ما أمره به الإمام (عم)، فانهزم القوم مدبرين وولّوا على أعقابهم ناكصين (ر 150 ب).

المنصور يأمر جنده بالتحصّن وراء الخنادق

وفي يوم الخميس لأربع عشرة [بقين] من ذي القعدة (جوان 946)قدم إلى الإمام المنصور بالله (صلع) مفرّح الكتاميّ في عسكر من أهل طرابلس عدّتهم ألفان ومائتان وأربعون فارساً[46]. فأنزلهم

مدد للمنصور من طرابلس

---

(43) نشرنا هذه الأبيات المجهولة في حوليات سنة 1979 ص 57. وهي هنا متأخّرة عن الحادثة التي تشيد بها، وكان على المؤلف أن يوردها بعد الفقرة السابقة.

(44) هو إبراهيم بن أبي سلاس صاحب الأربس (ص 258 و310) وانظر: ابن حمّاد، 19 - 20.

(45) يظهر أن معسكر المنصور كان بجنوب القيروان، من جهة باب أبي الربيع.

(46) عند ابن حمّاد، 25 أنّ هذا المدد قدم من برقة وفيه ألف فارس، ولم يذكر قائدهم.

دش 181
361

في الخندق[47]، وأسبغ عليهم العطاء، ووالى عليهم الآلاء. وقوي عسكر الإمام، وجرت له الأحوال * على أحسن/ نظام.

وأرسل الإمام (عم) خادمه مطيعاً في مائتي فارس ليأتيه بسلاح وعدّة من سوسة، وبلغ ذلك مخلداً الدجّال فسيّر للقائهم عسكراً كثيفاً، فخالفه مطيع ووصل إلى عسكر الإمام سالماً. ووافق عسكر الدجّال الذي خرج إليه رُفقةً عظيمة من القيروان تريد المهديّة بالأموال والنساء والعيال ليتحصّنوا بها لأنهّم كانوا خائفين أن تكون للعدوّ كرّة فيغلب على القيروان، فأخذ البربر جميع ما في تلك الرفقة.

جيش أبي يزيد لا يقدر على معسكر المنصور

وخرج ابن بازي من البربر في جيش من قِبل الدجّال فوصل إلى باب تونس وقاتل من فيه، فهُزم جند البربر وقتل ابن بازي، وجيء برأسه وبرذونه إلى المنصور بالله (عم). وقتل في ذلك اليوم من البربر شقر المكناسيّ، وطُعن ركّو على الخاصرة، وهما من عيونهم ووجوه رجالهم (ط 245).

ولمّا كان يوم الإثنين لعشر بقين من ذي القعدة، وقد اجتمع لأبي يزيد عساكر عظيمة من البربر وغيرهم، فوعدهم أنّه يفتح القيروان، وأباح لهم انتهاب ما فيها من الأموال، وسبي الحريم، طمعوا[48] في ذلك، ووعدوه الصبر والقتال، وعاهده على ذلك منهم الأبطال. وخرج أبو يزيد من يومه في جيوش كثيرة وعدّة قويّة، وقصد بنفسه إلى ناحية باب تونس، فوقف على كدية، وألقى البربر النار/ في ما بقي من بيادر الطعام، ووقع القتال بين الفريقين. فأمر الإمام المنصور (عم) بشرى الخادم في جيش (ر 151 أ) معه فسلكوا وسط

362

(47) أي في معسكره المحاط بالخندق.
(48) في الجميع: وطمعوا، بدون جواب.

القيروان وخرجوا من باب تونس، واستتروا أن يراهم جنود الدجّال، وراموا أن يجدوا فيهم فرصة، فوجدوهم حَذِرين. وجاء إلى أبي يزيد من أخبره خبَرَهم، فأخذ حذره وبقي موضعه. ووقف الإمام على باب الخندق يُمدّ العسكر الذي بباب تونس بالخيل والرماة. فلمّا رأى ثبات أبي يزيد، وجّه خيلاً من الذين معه ورجّالةً كثيرة وأمرهم أن يقصدوا أخبية أبي يزيد ففعلوا. فحين رآهم أبو يزيد قد أمعنوا في المسير، ترك القتال وتوجّه نحو أخبيته. وخرج الإمام المنصور بالله (عم) خلفهم، فكانت الهزيمة على أبي يزيد وأصحابه، وقُتل منهم عِدَّة كثيرة، وماتت لهم خيل أصيبت بالنبل، ووصلوا إلى معسكرهم مهزومين مكلومين، ورجع الإمام إلى معسكره غانماً ظافراً، وكان الله له وليّاً وناصراً.

المنصور يبثّ سراياه في جميع الجهات

ولمّا أصبح أبو يزيد قال للذين معه من عسكر البربر: «إنّ هؤلاء قد كثروا، ولا مصلحة لنا في قتالهم بعد تحصّنهم في خندقهم وقوّتهم ومظاهرَتهم إلى القيروان. ولكنّ الرأيَ أنّا نُخرج خيولَنا إلى ناحية المهديّة ونقطع * عنهم الميرة. ومتى توجّهنا إلى جهات المهديّة، فإنّ عيالات الكتاميّين هنالك، ولعلّهم أن يختلفَ أمرهم وينفَضَّ جمعُهم». وأخرج ابنَه فضل بنَ مخلد إلى ناحية سوسة، ووجّه خيولاً كثيرة إلى ناحية المهديّة وإلى ناحية الساحل، فكانت خيله تسبي وتغنم، وبلغت (ط 246) خيله إلى باب جمّة[49] وأرباض المهديّة، واستاقوا غنماً وبقراً. وكان أكثر رجال المهديّة وذوو البأس فيها مع الإمام (عم)، فوقع القلق والخوف مع نساء الأولياء المخلّفات بجمّة وحول المهديّة في أرباضها، وخافوا أن تهجم

دش 183
363

فصل بن مخلد يقصد المهديّة..

(49) جمة هو اسم المهديّة الأثرية، من عهد الروم: قومّي Gummi ويبدو أنّه بقي في أحد أرباضها.

عليهم خيل البربر. وأرادت النساء دخول المهديّة فمنعهنّ جوذر الأستاذ عن ذلك. وبلغ الخبر الكتاميّين فوقع فيهم الانضراب[50] وأرادوا المسير عن عسكر الإمام إلى المهديّة، وشكوا ذلك إلى الإمام (عم) فبعث جيشاً كثيراً كثيفاً إلى (ر 151 ب) المهديّة فضبطوا نواحيها وحموها، وبطل ما كان مخلد دبر، واحتمت جوانب المهديّة عن البربر. وتوسّط البربر في الطرقات وأمعنوا بالفساد في كلّ الجهات، وكانوا يختطفون الأموال، ويشوّهون من يقع في أيديهم من الرجال، بقطع يده أو رجله، أو جدع / أنفه أو اصطلام أذنه، أو ما أشبه ذلك، وخافت السبل وعظم الفساد.

. . لسبي الكتاميّات فيبطل المنصور خطّته

364

ولمّا كان نصف ذي الحجة (جويلية 946) جاءت خيل البربر فانتهت إلى حول الخندق الذي فيه معسكر الإمام (عم) * حتى همّت أن تقتحمه. فعجّ الناس وضجّوا إلى الإمام، فخرج (صلع) فقاتل القوم بنفسه وهزمهم إلى مكان يعرف بـ«قصر عليّ»[51]. واشتدّ القتال فنزل الإمام في موضع القتال عن دابّته، ونُصب له كرسيّ فجلس عليه، والحرب بين يديه. فجاءه وجوه الأولياء وقالوا: لا نأمن أن تكون للعدوّ كرّة وينهزم الناس وأنت واقف، والصواب أن تركب جوادك.

دش 184

أنصار الإمام يثنونه عن الظهور للعدوّ خوفاً عليه . .

فضحك (عم) إليهم وقال لهم: لا تخافوا فإنّ النصر قد آن أوانه وحان حينه.

فأشفق القوم وكثر رَهَبُهم وألحّوا في سؤال الإمام ليركب وقالوا: ألا ترى قوّة العدوّ وتكاثر غاراته، وإقبال كتائبه وراياته؟

فأمر الإمام (عم) أن يُنزع لجام دابّته وأن تُسقى من ماء

(50) الانضراب عوض الاضطراب في الجميع.

(51) لا نعرف قصر عليّ ولم نجده في المراجع.

هنالك، ليريَهم أنه غيرُ مكترث لما به يكترثون، وأنّ الله قد آتاه علمَ ما لا يعلمون، ثقةً بما هيّأ الله له من وعده، وعلماً ورِثه عن (ط 247) آبائه عن رسول الله جدّه صلّى الله عليه وعلى آله. فما زال الناس يقاتلون والإمام (عم) واقف/ ينظر إليهم حتّـى كلّ الفريقان، وملّ الجمعان، فرجع كلّ منهم إلى معسكره، وعاد الإمام (عم) واثقاً بوعد الله في بلوغ وطره.

.. لكنّه يتمادى واثقاً بالنصر

365

وكتب مخلد الدجّال إلى الإمام (عم) يسأله ردّ نسائه وبناته وأولاده، ونساء رجاله وأولادهم الذين كانوا في القيروان وصاروا إلى المهديّة، كما قدّمنا ذكر ذلك[52] وحلف * الأيمان المغلّظة - إنِ الإمامُ ردّهم - (ر 125 أ) أنه يرجع إلى طاعته بصدق نيّة، وأنّه يطلب الأمان ويسكن في قسطيلية. فأجابه الإمام إلى ما ألحّ فيه الطلبَ والسؤال، ووجّه إلى المهديّة في وصول النساء والعيال. فلمّا علم أبو يزيد أنّ الإمام قد أرسل لأولاده، أراد أن يرسل خيلاً لتوصلَهـم إليه، وتحول بينهم وبين الوصول إلى عسكر الإمام ليأخذهم بالقهر والغلَبة، ولا يحمل مَنّاً للإمام (عم) فيما رامه وطلبه. وانتهى ذلك إلى الإمام (عم) فبادره ذلك اليوم بالزحف، وخرج من معسكره وخندقه، وذلك يوم السبت لثمانٍ بقين من ذي الحجّة (جويلية 946)، فبلغ (عم) إلى قصر عليّ. وخرج إليه أبو يزيد بنفسه وجميع جموعه، وقد كمن البربر كمينين، وأرادوا غرّة جيش الإمام (عم) فلم يجدوا غرّة ولا فرصة. وما زال الإمام (عم) يحـرّض عسكـره ويعـدهم بالفتـح والنصر، وكان/ يترك المظلّة مع مُمسكها ويمضي بغير مظلّة في عسكره ليعاين القتال، ويحمل على الأعداء حملات الرئبال، فتارة يحمل عليهم من القلب، وتارة من الميمنة، وتارة من الميسرة،

دش 184

أبو يزيد يتوسّل إلى المنصور في ردّ عياله..

.. فيلبّي طلبه..

366

.. ويبطل خدعة أبي يزيد

(52) تقدّم خبر نساء أبي يزيد في ص 350.

ويصدقهم بالطعن والضرب. فقتل من البربر جماعة كثيرة، ولم يقتل أحد من أصحاب الإمام (عم)، وأيقن الدجّال ذلك اليوم بالفرّ والانهزام. وأرسل إلى الإمام يقول له: ألـم يكن بيننا وعد إلى وصول العيالات والحرم؟ وكان ينبغي الصبر حتى يصلوا وينصرم ما عقدناه ويتمّ؟

فردّ الإمام (عم) إليه: إنّه قد بلغنا أنّكم قد أخرجتم خيلاً لتقطع الطريق وأخلفتم القول، وأنتم لا يؤخذ منكم بأمر وثيق.

فقال أبو يزيد: نعم، قد هممنا بذلك وما فعلنا، ولم يتمّ لنا، مع خروجِكُم إلينا بالأمس، ما عليه عوّلنا.

وركب الإمام (عم) يوم الأحد ثاني اليوم المذكور يريد معاودة القتال، فهو (عم) يقوّم الصفوف، ويعبّيء العساكر، ويأمرهم بالصبر على طعن القنا وضرب السيوف. ثمّ وصلت ذلك اليوم عيالات أبي يزيد وأصحابه من المهديّة. فرجع الإمام إلى معسكره وأمر بإنزال (ر 152 ب) العيال في موضع سَتر، وأرسل إلى الدجّـال من ينبئه بـوصولهم ويقول/ له: «بعثنا إليك الأمير إسماعيل الكريم، أيّها الكلب اللئيم: أمّا بعد، فقد وصلت حرمكم وأولادكم، فوجّهْ مَن تثق به ليصلَ إليك بهم». فبلّغوا الرسالة ورجعوا بالجواب. وأمر الإمام (عم) أن تُنصب له فازة خارج الخندق، فنصبت الفازة وفُرُش. وقدم من ناحية أبي يـزيد رجـلان يقال لأحـدهما مكـدول، زوج ابنة الدجّال ـ وكانت في العيال الذين قدموا ـ ويقال للآخر كمين بن عمرو، بربريّ من باغاية. فأمر الإمـام (عم) بكسوتهمـا، وكسوة النساء والعيال، وأن يدفع لكلّ واحد من النساء وواحد من العيال عشرة دنانير من العين، وأعطى مكدولاً وكميناً البربريّين مائة دينار. ووجّه بالعيال ليلاً وزوّدهم أصناف الحلوى، وأمر بالمشاعل فأوقدت أمامهم، وأصحبهم من عبيده سعداً العامل في جماعة معه حتى

367

تسليم العيال إلى مبعوثي أبي يزيد

أبو يزيد ينكر الجميل ويوهم أنصاره أنّ المنصور هابه

368

وافى أبا يزيد إلى معسكره. فحين وصل النساء والعيال إلى أبي يزيد (ط 249) وجّه بهم إلى جبل أوراس. ثمّ رجع إلى أصحابه فأظهر ما أضمر من غدره، وباح بما في مكنون سرّه، وقال: «إنّ إسماعيل ما أرسل إليكم بعيالكم، وصنع إليهم الصنائع التي علمتم، إلاّ حين داخله الخوف منّا وعلم بأسنا، ففعل ذلك مداراة لنا. فجِدّوا في أمركم وأذيقوا القوم ما عُوّدوه/ من عظيم شرّكم!». فأنكر عليه كثير من عقلاء البربر غدره وقالوا: «كان الواجب أن تجزيَ بالصنيع مثلَه». وتفرّقوا عنه، وعلموا أنّ الإمام (عم) قد قويت عساكره وظهرت علامات نصره. وتمادى مع الدجّال أهل أوراس وبنو كملان على العصيان والمروق، والامتناع عن الدخول في الطاعة والرجوع.

استطراد في استنجاد مخلد بالناصر الأمويّ

دش 188

وكان قد وجّه أبو يزيد آبنَه[53] إلى الأمويّ الذي كان بالأندلس يستنصره ويعده القيام معه. فأخرج معه الأمويّ عسكراً وأموالاً، وتوجّهوا إلى ناحية تاهرت، فظفر بهم عامل * الإمام (عم) عبد الله بن بكار، وأرسل برأس أيّوب إلى الإمام (عم) وذلك بعد انقضاء أمر أبي يزيد[54].

وحين اتّصل بالإمام (عم) ما تمادى (ر 153 أ) عليه المارقون من العصيان، وامتناعهم عن الطاعة، وتناهيهم في الإصرار والعدوان، أمر قبل طلوع الفجر بضرب الطبول، وأمر عساكره أن يتهيّؤوا للخروج. وخرج (عم) بنفسه الزكيّة أوان طلوع الصبح، وذلك يوم

---

(53) ابنه أيّوب، في سنة 335 حسب اس عذاري، 214/2. أمّا نعثة سنة 334، فقيادة تميم ابن صاحب الطبقات أبي العرب التميمي: قدمت إلى قرطبة في أواخر شوّال 333 ورجعت إلى إفريقيّة في سنة 334 (البيان المغرب، 213/2، وليفي بروفنصال: تاريخ، 104/2) ولم يدكر ابن عذاري نتيجة الوفادتين

(54) أي بعد وفاة أبي يزيد في المحرّم 336. وقال اس حمّاد، 39، انّ عبد الله بن بكار قتل أيّوب غيلةً سنةَ 333.

الأربعاء لليلتين بقيتا من ذي الحجّة آخر سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة (آخر جويلية 946)، وقد لبس لأمته، وتقلّد سيف رسول الله ووصيّه/ صلّى الله عليهما ذا الفقار، وأخذ الرمح بيمينه واعتقل دَرَقَةً على يساره، وتمادى إلى قصد العدوّ، واتّبعه الناس فعبّأهم على مصافّهم. وامتنع البربر عن الخروج من معسكرهم، فحضّ الإمام (عم) أصحابه وأمرهم بالهجوم على فازاتهم والدخول عليهم في مستقرّهم. فاستهال الناس ذلك واستعظموه وجبنوا عنه، و ما زالوا بالإمام (عم) يسألونه الرجوع حتى أغضبوه، فرمى الرمح عن يده (ط 250) ورجع مغضباً غاضباً إلى معسكره. فأقام أيّاماً بالخندق لا يخرج من مضربه، وحجب الناس عن الدخول إليه، حتى بلغ البربر احتجابُه، فأرجفوا وقويت قلوبهم، وظنّوا أن امتناعه عن الخروج لعلّة وتوعّك، فأغاروا إلى كلّ ناحية وأفسدوا * ، وأقام (عم) لا يواجه أحداً ولا يخرج إلى جيوشه عن مضربه، ولا يمدّ إليهم للسلام عليه يداً.

369

غضب المنصور على أنصاره . . . . لتهييبهم أبا يزيد

دش 189

ودخلت سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة (2 أوت 946)

وأغارت خيل أبي يزيد فانتهبت السيارة من أهل القيروان إلى المهديّة، وأخذوا كثيراً من الإبل والأحمال، وقتلوا جماعة عظيمة من الرفاق. واغتمّ الأولياء غمّاً شديداً لذلك، وكان ذلك يوم الاثنين لثلاث خلون من المحرّم (5 أوت 946). وما زال الإمام محتجباً عن الناس إلى/ يوم الأربعاء لخمس خلون من المحرّم. فجاء أبو يزيد بجموعه قاصداً القيروان وقد انضمّت إليه جماعة كثيرة من البربر، فوقع القتال عند باب تونس، وقامت الصيحة، وضجّ الناس إلى الإمام (عم)، فأمر بضرب الطبول نصف النهار، ونشرت الأعلام. وركب الإمام، وخرج على القوم، وقد وقع بين الناس قتال عظيم، وقتل رجال من الأولياء، واقتُحِم الخندق حتى صاروا بقرب الإمام (ر 153 ب). وحمل على الإمام عند خروجه فارس من البربر حتى دنا منه وهمّ

370

معركة أخرى بباب تونس

أن يطعنه برمحه، فحمل عليه الإمام، فما هو إلاّ أن حرّك دابّته إليهم فانقلبوا على أدبارهم منهزمين بعد قتال شديد وأمر عظيم. وقُتل جماعة من البربر وعقرت خيول * لهم. ورجعوا إلى معسكرهم وكفّوا عن الطريق، وكان معظم همّهم أنفسهم.

دش 190

فلمّا كان يوم الجمعة لسبع خلون من المحرم (9 أوت 946)، ركب الإمام إلى العدوّ على تعبئة الحرب، فبلغ إلى قربهم، ولم يخرج إليه أحد. فرجع إلى الخندق، وطلع قبّة قد أمر ببنائها، وأمر جنوده أن يجوزوا بين يديه (ط 251) فرأى منهم ما سرّه. وزحف البربر ذلك اليوم بعد الظهر/ إلى باب تونس، وانتشب القتال، واتّصل أمر ذلك بالإمام (عم) وهو في قليل من الناس لكونهم مفترقين في الأسواق لحوائجهم. فركب (عم) تلك الساعة، وتمادى القتال، وقُتل من الفريقين خلق كثير. ودخل الظلام فأُوقدت المشاعل وبقي القتال إلى الصبح، وتسمّى تلك الوقعة «وقعة المشاعل». ورزق الإمام الظفر، وعاد الدجّال إلى معسكره. ثمّ ركب الإمام ذلك اليوم حين انصرف من صلاة الفجر على تعبئة الحرب، وبلغ قرب العدوّ، فامتنعوا عن الخروج، وعاد الإمام إلى معسكره.

371

«وقعة المشاعل» (7 - 8 محرّم 335/ أوت 946)

وركب يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلت من المحرّم وسار (صلع) يؤم العدوّ فوقع قتال غير كثير، وآنْكَفَأ البربر إلى معسكرهم فرجع الإمام إلى معسكره *.

دش 191

وخرج الإمام بعد صلاة الصبح، وقد ركب جواده واستَلْأم بعدّة حربه وعبّأ جنوده فجعل في الميمنة أهل إفريقيّة، وفي الميسرة لهيصة وجيملة، وفي القلب بني بنطاس، وهو (صلع) معهم وعبيده بين يديه ورجاله الأولياء، وخاصّة جنده الذين لا يَفْرَقون من[55]

الخروج الحاسم (11 محرّم 335/12 أوت 946)..

(55) في «ر». لا يفرّون عن

القتال، ولا يهابون مبارزة الأبطال. وكانوا في أحسن زيّ وأبهى عدّة، وذلك/ يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من المحرّم (15 أوت 946) فحين صاروا بإزاء العدوّ، لم يخرج إليهم أحد، ووقف مخلد الدجّال ومن معه في معسكرهم. فأخذ الإمام (ر 154 أ) معارضاً لهم شرقيّ عسكرهم، فانتشب القتال وبرز أبطال الرجال، وخرج الدجّال مخلد ابن كيداد بنفسه في أبطاله ووجوه رجاله، وقد أحاطوا به. وكان قتال عظيم تلاحم فيه الفريقان واختلط الفئتان، وأقدموا إقدام من كره الحياة، وبرز مستعجلاً يريد (ط 252) الممات. وباشر الإمام (عم) الحرب بنفسه، وكرّ في أعدائه يطعن تارة برمحه، ويضرب تارة بذي الفقار سيف جدّه. وحمل الدجّال في معظم جيشه. على ميمنة الإمام فهزمها، ثمّ صمد[56] القلبَ، إلى الإمام قاصداً، وله بكُماته وحماته عامداً. فقصده الإمام (عم) وبارزه، وصار كلّ واحد منهما يريد صاحبه، فهابت كتامة على الإمام (عمّ) * لما يرون مع الدجّال، من البربر المعتادين للقتال، الذين قد حفّوا به من خلف وأمام، ويمين وشمال. فأمسك مشايخ كتامة الإمام وقالوا: «نحن نكفيك، وبأنفسنا نقيك». وحاولوا أن يؤخّروه عن الإقدام، وأن/ يكون خلفهم، ينظر إليهم وهم يقاتلون بين يديه. فنهاهم عن ذلك وزجرهم، وبالرجوع إلى مراكزهم أمرهم، وقال: «كم هذا التخلّف عن هذا الكلب؟ والله لا أهملته ولا تركتُه!» وقال لعبيده ورجاله الذين بين يديه: «تحرّكوا نحو هذا الفاسق، وامشوا بنا إليه! فهذا يوم الفتح إن شاء الله».

372

دش 192

.. المكلّل بالنصر المبين..

373

وحمل على الدجّال المارق لا يريد سواه، ولا يقصد إلّا إيّاه، فكلّ من حال بينه وبينه[56م] من البربر، حمل عليه فأرداه، وكرّ عليه

(56) صمد القلبَ، أي قصده.

(56م) الضميران يعودان على المنصور ومخلد.

بذي الفقار وقد انتضاه. فحين دنا من الدجّال وكادَ أن يصل مفرق رأسه بذي الفقار، أدبر ناكصاً على عقبيه، لا يعوج على شيء ولا يلوي إليه، فانهزمت جيوشه شرّ انهزام، وفلقت السيوف المشرفيّة منهم الهام، وأُخذوا بالنواصي والأقدام. وتركوا موضع معسكرهم وجميع مضاربهم وأخبيتهم. وانفردت بنو كملان، وكانوا حماة البربر، وأكثر من اجتهد مع ابن كيداد وصبر، فوقفوا على شمال معسكرهم على رابية من * الأرض. وخاف الأولياء أن تكون تلك مكيدة من العدوّ، وأن يكون لهم كمين في المضارب والفازات. فاجتمعوا إلى الإمام (عم) وقالوا: «لا نأمن أن تكون (ر 154 ب) مكيدة، وأن يخبؤوا لنا في معسكرهم كميناً، فمتى توسّطنا ظهروا علينا. وأفضل الرأي ما اقتبس من عندك، فما الذي/ تأمر به عبيدك وأولياءك وجميع (ط 253) جندك؟

دش 193

374

فقال (عم): أنا أقف بمن معي ناحية، وتدخل طائفة منكم إلى الأخبية، فإنّي ما دمت قائماً، فإنّ القوم لا يرجعون إلى أخبيتهم ولا يعوجون عن إدبارهم وهزيمتهم. فإن عادوا شددت عليهم، وأعدت ما ألفوه من الحملات عليهم. وإن خبّؤوا لكم كميناً، كنت لكم ردءاً ترجعون إليه، وفيئة[57] تحيّزون إليها وتفيئون نحوها.

فاستصوبوا رأيه وقالوا: وفّق الله مولانا وسدّده، فلقد هداه إلى الصواب وأرشده.

.. والقتل الذريع في أصحاب أبي يزيد

ودخلوا الأخبية فقتلوا من وجدوا بها من الرجال، وحازوا ما فيها من الغنائم العظيمة والأموال، وولّت بنو كملان عند ذلك منهزمين، والسيوف تأخذهم ضرباً للأعناق، وجزّا منهم لكلّ وتين. وسجد الإمام (عم) وهو راكب على فرسه، ورجع إلى خندقه، وهو

(57) الفيئة: ما يرجع إليه ويعتصم به.

يكثر من حمد الله وشكره، على ما أولاه من فتحه ونصره. ونادى مناديه: «من أتى برأس فله ربع دينار»، يحرّض الصبيان على جزّ رؤوسهم. وأمر * بعدّ ما حصل من الرؤوس، فزادت على عشرة آلاف رأس، وأمكن الله من المارقين الأرجاس، وأراح من بغيهم وعتوّهم الناس. وانصرف الدجّال فيمن بقي معه هاربين/ من جهات إفريقيّة، متوغّلين في الفرار لخيفة الجنود المنصوريّة.

دش 194

375

ولمّا أصبح الإمام (عم) من ليلة الفتح يوم الجمعة، أخرج أحمالاً من الدنانير والدراهم كثيرة، فتصدّق بها وفرّقها في الفقراء، والمساكين وذوي الحاجات من المسلمين. وتولّى تفريقها في القيروان قاضي الإمام وهو محمد بن أبي المنظور[58] رحمة الله عليه، وغيره من صلحاء البلد.

وأمر الإمام (عم) جعفر بن عليّ مولى جدّه المهديّ بالله (عم) إلى جامع القيروان، فصلّى الجمعة وأقام الخطبة، فحمد الله وأثنى عليه، وصلّى على النبي (ر 155 أ) وعلى آله وعلى (ط 254) وصيّه والأئمة الطاهرين من ذرّيّته، وأكثر من حمد الله وشكره على ما فتح لأوليائه من النصر، وأحلّ بأعدائه من الذلّة والقهر، وما كشف الله به عن أهل الإسلام الخاصّ منهم والعامّ، من البلاء والمحنة، وما صاروا إليه من السلامة والأمنة، ثمّ قال:

المنصور يتصدّق على الفقراء بعد الظفر

«معاشر الناس! مولانا وسيّدنا الأمير إسماعيل المنصور بالله، أطال الله بقاءه * يقرأ عليكم السلام ويقول لكم: قد علم الله سبحانه حسنَ نيّتي فيكم، وما أُضمره من الخير لكم، وما أحبّه من صلاح

195 ...

المنصور ...ؤها جعفر ...حاجب...

(58) محمّد بن أبي المنظور الأنصاري: ولّاه المنصور قضاء القيروان سنة 334، وتوفّي على هذا المنصب سنة 337 وله ترجمة صافية في رياض النفوس، 257/2. وفي المخطوط: ابن أبي المنصور.

أموركم، وما أجد في نفسي من الغمّ لما حلّ بكم من البلاء، وما نزل بكم من الفقر وذهاب الأنفس/ والأموال. وإن لي آمالاً كثيرة حسنة أؤمّلها فيكم ما منعني عن إظهارها إلّا كون هذا العدوّ بحذائي، ومحاربتي له، وما كان من هذه الوقائع بيني وبينه. فلو كنّا أظهرنا ما كنّا نؤمّله من الإحسان إليكم قبل الظفَر، لقال الجهّال: إنّما فعل ذلك استمالةً لقلوب الرعيّة وخوفاً من العدوّ. فلمّا كان مِنْ منّ الله علينا ما علمتموه، ومن نصره لنا ما رأيتموه، وفتح لنا على عدوّه بمنّه وطَوله، أردنا أن نقابل منّة الله، جلّ وعلا، علينا، بالشكر له والإحسان إلى عباده، والرفق بخلقه، وأن نظهر بعض ما نويناه فيكم، إذ كان إظهاره في وقت الفتح أولى وأشبه منه قبل ذلك، للوجه الذي ذكرناه:

376

«فقد ترك الأمير أعزّه الله، ما يجب عليكم في هذه السنة الآتية، وهي سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، من العُشر، والصدقات، وجميع اللوازم(59). وفعل ذلك بجميع الناس مسلمهم وذميّهم، رفقاً

.. ويعلن فيها عن إسقاط الجباية لسنة 335..

(59) التمييز بين العشر والصدقة هنا، يرجّح أنّ العشر تعني الضريبة المفروضة على البضائع المنقولة من مكان إلى مكان، وهي ضريبة من نوع المكوس التي تكاثرت في العهد العبّاسي، وفي العهد الفاطمي بمصر خاصّة. ولو كان المقصود بالعشر زكاة الأرض المعشّرة، أي المزروعة المسقيّة، لما ميز عن الصدقة.

والصدقة هي الزكاة، حسب تعريف الماوردي (الأحكام السلطانية، 113) وقد استشهد بحديث الرسول (ﷺ). «ليس في المال حقّ سوى الصدقة». ولمّا كان المفروض في الزكاة أنها تصرف إلى الفقراء والمساكين، وإلى أصناف من المحتاجين عَدَّدَتهم آية الصدقات (التوبة، 60)، فالمفهوم من قرار المنصور هنا أنّها كانت تدخل بيت المال، أي خزينة الدولة، وأنّ الأمراء الأغالبة، ثم الخلفاء الفاطميّين قد اعتبروا الصدقات من مداخيل الدولة.

بقيت اللوازم: فلعلّها القبالات المختلفة التي يفرضها الحكّام هنا وهناك، ويبطلها اللاحق في مستهل حكمه ثم يأخذ فيها بسيرة سابقه، وهي غير شرعيّة، =

بهم، وعوناً بهم على عمارة أرضهم وبواديهم. فليبلّغ الشاهد الغائب، وليرجع كلّ بدويّ منكم إلى باديته بلا مرزئة[60] عليه ولا كلفة. ثمّ إنّه لا يؤخذ منهم * في إقبال السنين، إلاّ العشر والصدقة، الطعام من الطعام، والشاة (ر155 ب) من الغنم، والثور من / البقر، والبعير من الإبل[61]، على فرائض الله سبحانه، وسنّة جدّي رسول الله (ﷺ). ثمّ بعد ذلك يساق إليكم من الإحسان، وإظهار العدل، وإحياء الحقّ، وإماتة الباطل ما تعظم به منّة الله عليكم، وتعرفون بركة أيّامي ويمن دولتي إن شاء الله».

377

. . . والرجوع إلى أحكام الشرع في الأموال

= لم يأتِ بها قرآن ولا سنّة وقد اعترف ابن عذاري، 142 - 143، لأبي عبد الله الداعي - رغم تحامله المعروف على العبيديين - بإبطاله للضرائب غير المفروضة في الشريعة ولا نظن أن المنصور يعني الضرائب الشيعية المخصوصة بالمذهب الإسماعيلي من جنس «الخمس» الذي يدفع إلى الإمام، لا من الغنائم فحسب، بل من كلّ كسب يكسبه المؤمن وقد تعرضنا في تعليقاتنا على مصطلح «الأعمال» و«الواجبات» و«النفقات» في المجالس والمسايرات (انظر الفهارس) إلى هذا الجانب من سياسة المال عند الفاطميين

ومهما يكن من أمر المداخيل المسقطة لسنة 335، فإنّ قرار المنصور هذا، بصرف النظر عن مرماه السياسي في تألّف قلوب الرعيّة، وإرضاء مطامحها إلى العدالة الجبائية- وقد كان هذا الرجوع إلى الشرع مطلب أبي يزيد حين قام بزعمه محتسباً - هذا القرار يخفّف من تهمة العسف الجبائيّ التي تسابق بعض الدارسين إلى رمي العبيديين بها، اعتماداً على مراجع سنّيّة يعترفون هم أنفسهم بتحيّزها، ومن هؤلاء ج. مارسي: Berbérie، 142، ور لوطرنو: La Révolte.. ، 110.

هذا، وقد تبسط فرحات الدشراوي في رسالته (ص 323 - 347) في سياسة الفاطميين الجبائية دون أن يعرض إلى أحكام هذه الخطة على أهمّيتها، وكتاب الداعي إدريس من مراجعه المذكورة بكثرة.

(60) المرزئة. الداهية والمصيبة.

(61) يقرّ المنصور هنا ما قرّره أبو عبد الله بقوله. «إنما العشر حبوب، وهذا عين» (ابن عذاري، 141) من أنّ الزكاة «لا يؤخذ فيها عرض ولا ثمن» (ابن أبي زيد. الرسالة، 138). بقي أنّا لا نفهم الحاجة في أن تكون زكاة المواشي من جنس المزكّى، الثور من البقر، والبعير من الإبل، مع أنّ الشرع قبل أن تكون زكاة الإبل شاة فأكثر

فكبّر الناس عند ذلك وفرحوا بما سمعوا، وارتفعت أصواتهم بالبكاء والتضرع إلى الله (عج) في بقاء الإمام المنصور، وأن يجعل عدوّه وعدوّ الأئمّـة المذلول المقهور، واستبشروا بما أظهـر لهم الإمام (صلع) من عدله، وما أنعم به الله عليهم من فضله.

وكتب الإمام المنصور بالله (صلع) كتاباً إلى المهديّة وأمر عبده وعبد آبائه الطاهرين جوذر الأستاذ أن يقرأه على المنبر في المهديّة، وجعل عنوانه ولفظه إلى أمير المؤمنين القائم بأمر الله صلّى الله عليه وقدّس روحه ورضي عنه، وعلى ذلك كان يكاتب عبده جوذراً. وكان جوذر يكتب إليه باسم أمير المؤمنين القائم بأمر الله (عم) على ما نشرحه إذا انتهينا إليه بعون الله سبحانه ومنّه. وهذه نسخة الكتاب بعد البسملة والصلاة على النبيّ وعلى آله:

دش 197

«الله أكبر! الله أكبر! الله أكبر! لا إلَه إلّا الله! *».

«والله أكبر! الله أكبر! ولله الحمد!»

378

«الحمد لله على نعَمِه التي لا / تحصى، ومننـه التي لا تجازى.

«والله أكبر، تكبيرَ وليّ عهد المسلمين، سيف أمير المؤمنين، ناصر الدين، شكراً لربّ العالمين.

«يا وارث النبيّين، يا سيّد المسلمين، يا خليفة ربّ العالمين، يا خير الخلق أجمعين، يا وليّ ربّ العالمـين!.

رسالة المنصور إلى جوذر موسومة باسم القائم ..

«اليوم أعزّ الله دينَ جدّك محمّد رسوله المصطفى صلّى الله عليه وعلى آله، وسنّتَه وأمّتَه، وأدعم به أركان الدين، وأظهر برهان أمير المؤمنين وأفلج حجّتَه، وأعلى كلمته، ونصر حزبه!

«اليوم فُتحت مشارق الأرض ومغاربها! اليوم ازداد الحقّ ضياء وعلاء وسناء!

«الحمد لله ربّ (ط 256) العالمين، الذي نصر عبده، وأعزّ جنده (ر 156 أ) وهزم الأحزاب وحده.

«والله يا سيّدَنا ومولانا أميرَ المؤمنين، ما سُمع من عهد جدّك المصطفى رسول الله، صلّى الله عليه وعلى آله، بيوم كان أعزّ نصراً، وتأييداً وظفراً وقهراً، منه، بعد أن عاند الفسَقة الكفَرة الفجرة عناد من أيقن بالموت واستبسل، وناصب وعاند، فأبى الله (عج) إلاّ إتمام نوره، وإعلاء كلمته، على كَره الكافرين، ورغم الراغمين.

.. يعلمه بهزيمة مخلد أمام القيروان

«جملة ما أبشّر به سيّدَنا ومولانا أمير المؤمنين، أنّ قتلاهم غطّت الأرض، وامتلأ العسكر المنصور من غنائمهم، وكذلك القيروان، وما عجز الأولياء عن حمله واستثقلوه، أطلقت/ عليه * النار فأحرقته. واستولينا على مُناخ اللعين بما فيه من قليل وكثير، فقُتل فيه ما لا يحصى، سوى ما قتل في المعركة، وليس إلى إحصاء مَن قتل سبيل لكثرتهم.

دش 198
379

«وكان اللعين قد صابر وحامى، فقصدتُه بنفسي فأخذَته السيوف والرماح بين يديّ. وإن كان قد هرب بحُشاشة نفسه، فهو أسير يومه أو غده، وأنا راحل في إثره لأشقّ البلاد طولاً وعرضاً، أطأ ديار الفاسقين وأمحو بسيفك آثارهم بحول الله وقوّته، وعزّه ونصره.

«وقد بعثت بكتابي هذا إلى أمير المؤمنين مولانا وسيّدنا»[62].

وكان الأولياء قد اجتمعوا إلى الإمام المنصور بالله (صلع) وهو

(62) الرسالة في سيرة الأستاذ جوذر، 45 - 46 مع حذف بعض التفاصيل، وحذف الداعي إدريس بالخصوص الفقرة الأخيرة التي تؤرّخ للوقعة يوم الخميس 13 محرم 335. وفي هذا التاريخ اختلاف واسع تبسط فيه ماريوس كانار في تعليقه رقم 58.

في الخندق أيام [قلّة] عسكره وقوّة عدوّه الدجّال وعظيم منكره، وسألوه أن يكتب إلى الكتاميّين الذين بقسنطينة مع الحسن بن عليّ وغيرهم من سائر كتامة يأمرهم بالقدوم عليه. فكتب الإمام (عم) في شهر ذي القعدة من سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ما هذا فصّه:

رسالة من المنصور الى فروع كتامة..

«من الأمير إسماعيل وليّ عهد المسلمين، ابن أمير المؤمنين، إلى كافّة كتامـة.

«سلام على من اتّبع الهدى، وآثر الآخرة على الأولى. فإنّا نحمد الله الذي لا إلَه إلاّ هو، ونسأله أن يصلّي على محمّد عبده ورسوله/ وعلى عترته الأبرار، الطيّبين الأخيـار (ر 156 ب).

380

«أمّا بعد، فإنّ كتابنا هذا إليكم، بعد نزولنا بالقيروان بجيوشنا المنصورة من أوليائنا وعبيدنا، وقد أعزّ الله نصرنا، وأتمّ وعده لنا، وأعزّ أولياءنا، وأذلّ أعداءنا وأظفرنا، ومكّن لنا البلاد، وقمع بنا جميع العباد، طوعاً وكرهاً، والمنّة والشكـر لله رب العالميـن.

.. يوبّخهم على قعودهم...

«وقد تتابعت إليكم، معاشرَ كتامة، كتُبنا ورسلنا، تحضّكم على ما فيه رضى سيّدكم ومولاكم، مولانا أمير المؤمنين، المقرون رضاه برضا ربّ العالمين، فتربّصتم وتثقالتم إلى الأرض، ورضيتم بـالحياة الـدنيا من الآخـرة، وبالعـاجلة من الآجلة، فعلَ الـذين أصمّتْهم الدنيا وأعمتهم، ولا يعرفون معروفاً فيبصرونه، ولا منكراً فيرفعونه[63]، تبذلون أنفسكم وأموالكم على حميّة الجاهليّـة التي معها خسران الدنيا والآخرة، وقد أعرضتم عن الجهاد الذي أمركم الله به، صفحاً، وزهدتم في الثواب، وأمنتم العقاب، كأنّكم لم تسمعوا وعد الله ووعيده، ولا تُليَت عليكم آياته، ولا قامت عليكم

(63) في الجميع: فيعرفونه.

حجّته. ﴿ كَلَّا، بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُون ﴾ (المطفّفون، 14)، يا أشباه الرجال ولا رجال![64] رضِيتم بالعار، فهل لكم صبر على النار؟.

«واعلموا أنّي لا أكتب إليكم كتاباً بعد هذا، وأنّي لم أكتب إليكم/ هذا الكتاب إلّا بسؤال من قِبَلنا من أوليائنا الذين جاهدوا وصبروا، وإلحاحهم وضرعهم، وطلبهم منّا الإعذار إليكم، وتأكيد الحجّة عليكم *، رجاء منهم أن تُنيبوا إلى ربّكم، وتراجعوا التوبة التي هي أولى بكم، وتسارعوا إلى قضاء ما افترضه الله عليكم من الجهاد الذي فيه تمحيص الذنوب (ط 258)، ومحو العيوب، وتفريج الكروب.

381

دش 200

«وأنفذنا مع كتابنا هذا رجالاً تأكيداً للحجّة عليكم، وقطعاً لمعاذيركم. فإن تتوبوا وتنيبوا تجدوا الله توّاباً رحيماً. وإن تتولّوا يُغنِ الله عنكم، ويستبدلْ قوماً غيرَكم، ثمّ لا يكونوا أمثالكم.

«والسلام على من اتّبع الهدى، وآثر الآخرة على الأولى. وكتب يوم الأربعاء لليلة بقيت من ذي الحجّة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وصلّى الله على النبيّ محمّد وعلى آله الطيّبين الطاهرين وسلّم».

. . فيتحرّكون بقيادة الحسن بن عليّ الكلبي . .

وأنفذ الإمام (عم) هذا الكتاب مع نذير بن محمّد (ر 157أ) الكتاميّ ومع جماعة من الكتاميّين، وسيّر معهم جماعة من العبيد، وقدّم على العبيد عبد الله بن جبر. فلما وصل الكتاب إلى كتامة، تحرّكوا مع الحسن بن عليّ، وتواردوا إليه إلى قسنطينة مس بلاد كتامة. وسار الحسن بن عليّ في جيوش عظيمة، فأخذ على قصر الإفريقيّ، ثمّ على مدينة باجة فملكها/ وقتل عامل أبي يزيد فيها. ثمّ أتى إلى تونس ووافى الإمام المنصور بالله (صلع) بعد هرب

382

(64) من خطبة للإمام علي (رصي الله عنه)

الدجّال عن الجزيرة. وكان قدوم الحسن بن عليّ في أوّل المحرّم سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة في جيوشه وعساكره، والإمام (عم) والأولياء وجميع الناس مسرورون بما هيّأ الله لوليّه من النصر، وأتاح له من الغلبة على أعدائه والقهر. فهنّؤوا الإمام بالفتح، وحمدوا الله (تع) بعد تلك الظلمة، على طلوع الفجر وإنارة الصبح.

.. ويحرّرون باجة وتونس

وفي يوم وصول الحسن بن عليّ خرج الإمام (عم) إلى مدينة جلولاء، فوافاها قد أجلى أهلَها وأخربها الدجّال والبربر اللعناء، فدفع إلى أهلها عشرة آلاف درهم وأمرهم ببنائها.

محمّد بن رماحس يغزو سواحل إفريقيّة بالأسطول الأمويّ..

وكان عبد الرحمان بن محمد الأمويّ صاحب الأندلس[65] قد جرت بينه وبين الدجّال مخلد بن كيداد مكاتبة ومراسلة، وأراد عبد الرحمان أن يمدّ مخلد بن كيداد، لما جُبل عليه وآباؤه من عداوة أهل بيت رسول الله (ﷺ)، فأخرج أسطولاً فيه عسكر كثيف وسلاح وعدّة وأموال جمّة، وولّى عليهم رجلاً من عمّاله يقال له محمّد بن رماحس[66] وكان عاملاً بمدينة بجّانة[67]، وقبل ذلك كانت له تجارة وكان يختلف في الأندلس، فأطال محمّد بن رماحس/ 383

(65) عبد الرحمان الناصر (300 - 350).

(66) محمّد بن رماحس: قائد الأسطول الأموي بالمريّة وبجّانة تولّى هذا المنصب سنة 328 (المقتبس، 462) ولا يذكر ابن عذاري، ولا ليفي - بروفنصال في تاريخه، هذا التحرّك من ابن رماحس، وهو غير عبد الرحمان بن رماحس المتأخّر (تاريخ إسبانيا الإسلامية، 262/2).

(67) بجانة Pechina هي مركز البحارين الأندلسيّين في الجنوب الشرقيّ من الجزيرة، وتقابل مليلة ووهران وتنس في العدوة المغربية. وكانت العلاقات بين العدوتين كثيرة متواصلة حتى إن الأندلسيين أسسوا مركزاً وميناء بقرب تنس سموه تنس الحديثة (البكري، 61 وانظر تاريخ إسبانيا الإسلامية، 48/1 - 50). والمريّة هي ميناء بجّانة تقع على مصبّ نهر بجانة في البحر الأبيض المتوسط، وكانت في الأصل مرصداً لبحّاري بجانة، وستتعرض لهجوم الأسطول الفاطميّ في سنة 344).

الاعتذار، فزجره الأمويّ، ولم يعـذره عن الخروج. فـركب من ألمريّة، وهي في عمل بني أميّة، وكان كاتبُ عبد الرحمان[68] قد سبق إليها * بإصلاح ما فيها من المراكب. فلمّا وصل إليها ابن رماحس، ودخل عليه الشتاء (ر 157 ب)، شتا بها في سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة. ثمّ وصل منها ودخل إلى حائط بونة[69]، فاتّصل به هزيمة أبي يزيد وغلبة المنصور بالله (عم) له، فكرّ راجعاً إلى نـاحية تنس[70] ثمّ إلى الأندلس. وأخذته في البحر أهوال عظيمة وغرقت أكثر مراكبه، وغرق ما بها من الرجال والعدّة، وخلص بنفسه.

دش 202

.. لمؤازرة مخلد، لكنّ الغزو يفشل

وإنّه لمّا كان ما كان من هزيمة الدجّال مخلد بن كيداد من أعمال إفريقية وتولّيه، يروم نجاة نفسه، لا يلوي على الرجوع بقلب ولا نيّة، قد ألقى الله الرعب في قلبه، ونصر وليّه ومن كان من حزبه، وخلت من ظلمته تلك الأعمال، وزال الخوف عن أهلها، وأنالهم الله بوليّه الأوطار والآمال، فأمن سـربهم وصفا شـربهم، ونجّاهم الله مولاهم وربّهم، ممّا كانوا فيه، أخذ الإمام المنصور بالله (عم) أهبة السفر واستعدّ للخروج في طلب عـدوّ الله مخلد بن كيداد، عدّة من استسلم لله ربه، وصبر وأيقن بما وعده الله سبحانه من النصر والظفر، فأقام في خندقه[71] باقي المحرم وشهر/ صفر (أوت وسبتمبر 946)، وأمر بعمارة مدينة في ذلك المكان، وسمّاها المنصورية، وأمر بإحكام سورها ورفع بنيـانها * واستخلف على

المنصور يستعدّ لمطاردة أبي يزيد

384

دش 203

---

(68) لعلّه غالب الصقلبيّ (تاريخ إسبانيا الإسلامية، 64/2).

(69) بونة هي عنّابة الحاليّة، ولعلّه يعني بحائطها الميناء، وقد قال البكريّ، 55: «ومدينة بونة برّيّة بحريّة».

(70) تنس: انظر ص 160 هامش 55.

(71) الخندق هو المعسكر المحاط بخندق وسور، لا الخنـدق نفسه. وتعبيـر ابن خلدون، 43/4 أسلم: وخندق على معسكره

المنصورية والقيروان غلامه قدّام الصقلبي، وأمره أن يأخذ في عمارة المنصورية وأن لا يني.

ويخطّط لبناء المنصوريّة

ونهض (عم) بعد عشرين يوماً مضت من ربيع الأول (أكتوبر 946)، طالباً رضى الله في اتّباع مخلد اللعين حيث قصد ونزل، وقد اجتمع للمنصور بالله (عم) من الجيوش ما لا يحصى عددها، وكملت للقاء العدوّ أسلحتها وعُددها. وحين فصل الإمام (عم) عن (ط 260) المنصوريّة بعساكره، أمر مناديه فنادى: «من عزم على صحبتنا والخروج للجهاد معنا، وكان ذا جبن عند اللقاء، وفشل عن مصادمة الأعداء، فليرجعْ إلى وطنه، ولا يعْدُ موضعَه، وهو منّا في حلّ وسعة. وحرام على من صحبنا وفي نفسه شيءٌ مما ذكرنا المسيرُ معنا». فرجع كثير من الناس حين سمعوا ذلك النداء، ولم يخرج إلّا من وطّن نفسه على الصبر عند اللقاء[72].

سفارة من الأمبراطور

ووصله (ر 158 أ) رسول ملك الروم مستخبراً عن أمر المملكة، حيث بلغه أنّها قد ذهبت، واستولت البربر عليها وتغلّبت. فأمر الإمام (عم) بالرسول أن يدخل إليه، وصرفه (عم) بعد أن أضفى إنعامه عليه[73].

385

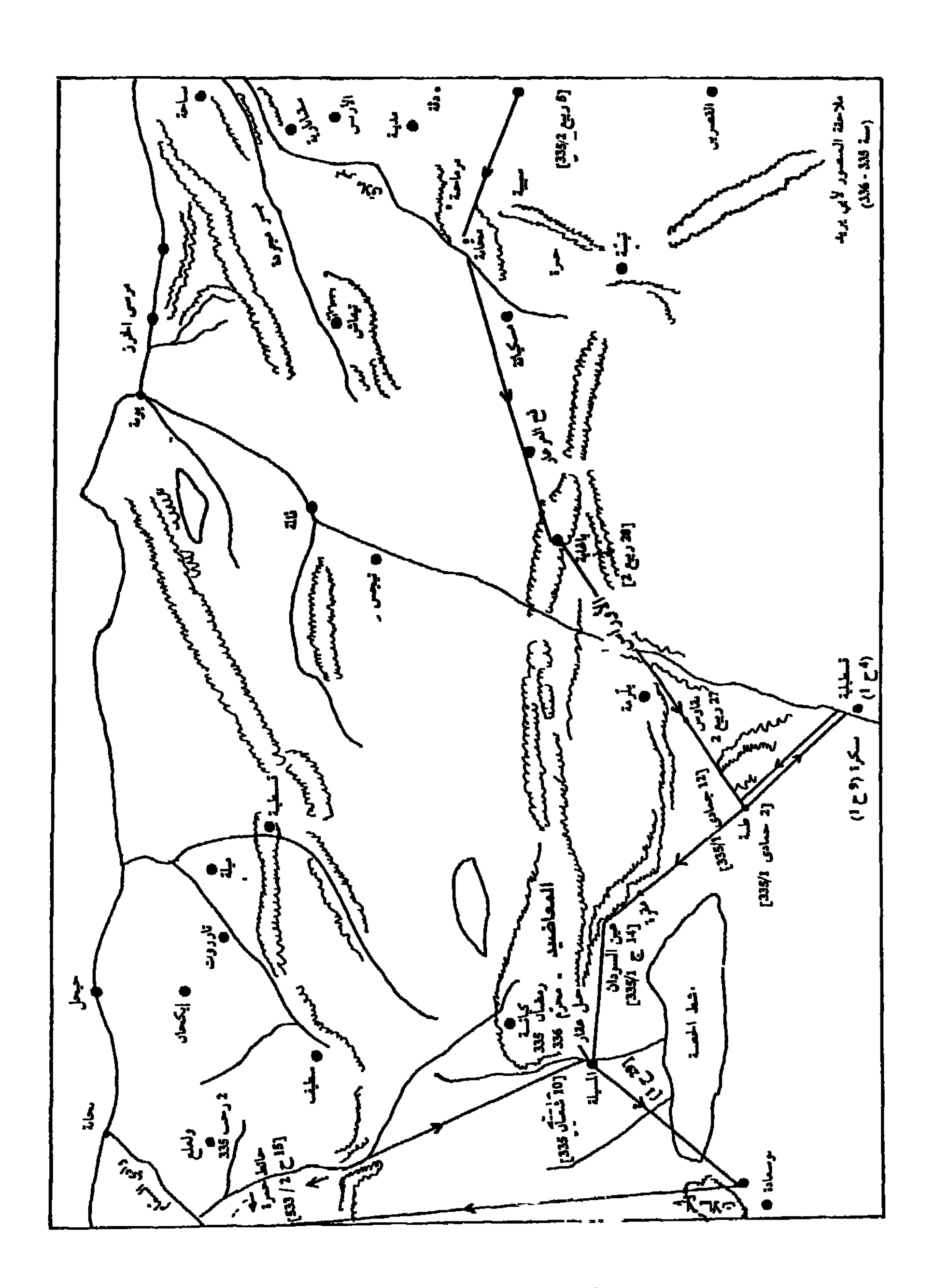
وانتهى الإمام (عم)/ إلى مدينة سبيبة، فأقام يومين بها حتى أتته القبائل ممّن حولها مذعنين، ووفدوا إليه داخلين في طاعته وعليه مسلّمين. ورحل من * مدينة سبيبة لخمس خلون من ربيع

دش 204

---

(72) هذا النداء أورده ابن حمّاد، 25 مقتضباً، والداعي إدريس يتبسّط ويسجّع.

(73) ذكرت سيرة جوذر، 61 «وصول بعض السرادقة رسولاً من قبل ملك الروم بهدية» - والسردغوس أو السردقوس لقب عسكري عند البيزنطيين - دون تحديد التاريخ. وذكر ابن حمّاد، 37 «وصول السردغوس في نحو ثلاثمائة رجل»، ولكن بعد الظفر النهائيّ بأبي يزيد.



مطاردة المنصور لأبي يزيد في المغرب الأوسط (سنة 335 - 336)

الآخر، (نوفمبر 946)، فنزل حدّ مرماجنّة في موضع يعرف بـ «سبني سعيد»[74]، وكان بها رجل من عمّال الدجّال أبي يزيد يقال له مسنويه بن بكر[75] في جمع كثيف. فلمّا اتّصل به قرب الإمام (عم)، هرب على وجهه مولّياً، ونجا بنفسه خائفاً وجلاً. فلمّا وصل إلى أبي يزيد، عمل أبو يزيد على أن يقصد باغاية قبل وصول الإمام إليها، وأن يبادرها، ورجا أن يتحصّن بها إن غلب عليها[76] فيأمن من عساكر الإمام وطلبها إن لجأ إليها وتعزّز بها. وبلغ الإمام (عم) مصيرُهُ إلى محاصرة باغاية وهو في قلعة مجانة، فأسرع (عم) مبادرة الدجّال، متوكّلاً على الله (تع) في نصره مخلصاً في الابتهال. فحين سمع الدجّال بدنوّه منه، نجا هارباً بمن معه لا يلوي على شيء، وبطل ما كان أضمره من الغلبة على باغاية.

خروج المنصور إلى الغرب طلباً لأبي يزيد

وخرج أهل باغاية إلى لقاء الإمام (عم) فسلّموا عليه ودعوا له واستبشروا به، وحمدوا الله على ما منّ به عليهم من النظر إلى شريف طلعته، وعرّفوه أنّ اللعين كان محاصراً لهم، وأنّه نجا/ بنفسه حين دنت منه عساكر الإمام، وأسلم أخبيته وجميع ما فيها من رقيق وكراع ومتاع، وغير ذلك من الطعام والأنعام فهنّأهم (صلع) ما غنموه وأكثر من حمد الله (تع) وشكره وسجد * على عرف جواده (ر 158 ب). وخرج إليه من أهل باغاية الصغير والكبير، فرحاً به وابتهاجاً برؤيته، فلاذوا به وازدحموا حول جواده، وأكثروا من التهليل والتكبير والدعاء والابتهال إلى الله (تع) بطول بقاء الإمام وعزّه ودوام سعده ونصره. ودفعهم الحجّاب عنه فنهاهم عن ذلك وآنسهم وقرّبهم. وجعلوا

حلوله بباغاية

386

دش 205

(74) بنو سعيد، لم يذكر ابن حوقل ولا البكريّ هذا الموضع في المسالك بين سبيبة وباغاية. وقد مرّ (ص 258) أنّ أبا يزيد بات بها أيضاً عند اقتحامه لإفريقيّة.

(75) مسنويه الكملاني، وقد مر خبره في احتلال تونس (ص 316)

(76) كانت باغاية حصناً منيعاً وقلعة مسوّرة منذ العهد الرومانيّ

يشكون إليه أحوالهم وما أصابهم من أعداء الله المارقين ونالهم، وعيناه تجريان بالدموع إشفاقاً عليهم ورحمة لهم. ونزل (صلع) في غربيّ المدينة وأقام بها ثلاثة أيّام، وأمر لأهل باغاية بأموال جمّة ففرّقت على ضعفائهم وذوي الحاجة منهم.

محمّد بن خزر يتقرّب إلى المنصور. . .

وأتى الإمام كتاب محمّد بن خزر[77] أمير البربر يصف ما هو عليه من الولاء والطاعة ويسأله الأمان، وأرسل إلى الإمام (عم) صهره بياضة بن خالون، ومحمّد بن فضل، وهو بعض أقربائه. فأجابه الإمام يعده الجميل، ويأمره بالحيلة في أمر الدجّال، والظفر به بقتل أو أسر. وقال له: «إنك إن فعلت ذلك/ وظفرتَ به حتى تأتيَنا به أسيراً، أو برأسه محمولاً، كان لك عندنا عشرون حملاً دنانير تقبضها منّا ساعةَ إيصاله إلينا. فقد جعلْنا بذلك على أنفسنا يميناً مؤكّدة، ولا يسعنا إلاّ الوفاءُ بها لمن أتى به أسيراً أو برأسه، كائناً من كان من الناس. فاْجهدْ نفسك في ذلك واغتنِمْ مجداً أتاحه الله لك وفخراً * ساقه إليك، بالبدار إليه والمسابقة نحوه، تكُنْ الحظيَّ السعيد، والمغبوط الرشيد، فاعلم ذلك واعمل بحسبه إن شاء الله».

387

دش 206

.. فيدعوه إلى القبض على أبي يزيد

ثمّ اتّصل بالإمام المنصور بالله (عم) أنّ أبا يزيد الدجّال أخذ ناحية طبنة ولا يدرى أين يتوجّه. فرحل (صلع) من باغاية يوم الأربعاء لعشر بقين من ربيع الآخر (نوفمبر 946) حتى انتهى إلى مدينة نقاوس[78]. فخرج (ط 262) منها يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ربيع

(77) محمد بن خزر الزناتي. مرّ خبره ص 159 هامش 51. وهذا الانضمام إلى الدولة الشيعيّة ليس منه الأوّل ولا الأخير، بل كان يتقلّب في ولائه حسب ميزان القوى (المقتبس، 266/5، وتاريخ إسبانيا الإسلامية، 107 - 110). والمنصور يحتاط منه، فلذلك يساومه في قبول ولائه.

(78) نقاوس: بين قصر بلزمة - قرب مروانة الحالية - شمالاً، وطبنة - قرب بريكة =

الآخر، وقد لبس درعاً سابرياً[79] ومغفراً، وأخذ بيده دَرَقة، وأمر الناس أن يسيروا على تعبئة الحرب، وقد أتاه أنّ أبا يزيد محاصر لطبنة. فحين سمع مخلد (ر 159أ) طبول الإمام، رحل بمن معه إلى ناحية الرمال.

المنصور يحلّ بِطُبنة

ووصل الإمام إلى مدينة طبنة، فتلقّاه أهلها جذلين مسرورين، حامدين الله (تع) على ما صرف عنهم من شرّ المارقين، مستبشرين. فأقام بمدينة طبنة/ ثلاثة أيّام. ووافاه بها جماعة من وجوه كتامة، فأمرهم بإحضار سبعين ألفَ فارس وثلاثين ألفَ راجل، على ما ذكره أبو نصر صاحب السيرة[80]. ووجّه وجوهُ كتامة ورؤساؤهم في الحشد لهم ولحوقهم بالإمام حيثما كان من البلاد.

388

وسار (عم) من مدينة طبنة يوم السبت لليلتين خلتا من جمادى الأولى (آخر نوفمبر 946) يريد إلى بسكرة في أثر * الدجّال، فنزل بمدينة قسطيلية[81] وأقام بها يوم الأحد. ووافاه بها جعفر بن عليّ بن حمدون عامل المسيلة بهدايا من الخيل والإبل وغيرها. وأتى معه بثائر ثار في جبل أوراس وتسمّى بالناصر لدين الله[82]

دش 207

= الحاليّة - جنوباً، ويفصلها عن طبنة نحو ثلاثين كيلومتراً. ومر المنصور في رواية ابن حمّاد، 26، ببلزمة، محاذياً جبال بلزمة غير متوغّل فيها وانظر في خصوص الطريق بين إفريقية والزاب، ابن حوقل، 84 - 85 والبكري، 50

(79) أي: درع رقيقة النسج جيدته، مثل الثياب السابرية المنسوبة إلى كورة سابور بفارس

(80) أبو نصر صاحب السيرة: قال الدشراوي (عيون، تعليق 382) إنّها سيرة المنصور. ولم يذكرها بوناوالا ولا إيفانوف في كتابيهما ويبدو أن الداعي إدريس استكثر العدد.

(81) قسطيلية هذه غير قسطيلية الجريد التونسي. وقد عمل شتارن Stern في مجلة أرابيكا، 1954 ص 345 على تحقيق موضعها، فافترض أنه موقع قرية «ميزرفلتا Mesarfelta الأثرية بين طبنة وبسكرة.

(82) عند ابن حماد، 26: «تسمى بالإمام القائم بالحق وهو من أبناء الصاغة =

ادّعى النبوّة وأتى بمخرفة كثيرة وألوان عجيبة استمال بها العامّة، فعمل جعفر الحيلة حتى أخذه أسيراً، وأتى به الإمام، بعد أن كان عنده محبوساً. فأمر الإمام (عم) أن يشهّر ويطاف به على جمل، ثمّ أمره بضرب عنقه وصلبه.

.. ثمّ ببسكرة..

ورحل (عم) يوم الاثنين لأربع خلون من جمادى الأولى، فنزل بقرية بسكرة. وأتى الإمام (عم) أن الدجّال سلك الفيافي والقفار والرمال، وانتهى إلى جبل سالّات[83]، وهو جبل منيع رفيع، وفيه قبائل من البربر على/ مذهبه خوارج أباضيّة. فأراد الإمام (عم) حين بلغه خبر المارق أن يسلك أثره ويمعن حيث توجّه في طلبه، فاجتمع إليه الأدلّاء وأهل البلد وذوو المعرفة بالطرق، وعرّفوه (ط 263) أنّ هذه الطريق لم يسلكها أحد قطّ من العسكر، وأنّه لا يسلكها الفارس الواحد إلّا مخاطراً، لعدم الماء والكَلإِ، وأنّه ما حمل مخلداً على سلوكها إلّا شدّة الخوف وبغضُ الحياة. وأقام الإمام (عم) ببسكرة أربعة أيّام *، ورحل منها يوم السبت لتسع خلون من جمادى الأولى راجعاً إلى طبنة. وقتل في طريقه قبيلاً من البربر يقال لهم سدراتة[84] كانوا معاضدين للخارجيّ مخلد بن كيداد المارق. ووصل إلى مدينة طبنة فأقام بها يومين، وسار منها يوم

389

دش 208

.. فينقطع عنه خبر أبي يزيد

= بالقيروان، فسلخه المنصور حياً». وجعفر بن حمدون خلف أباه علياً على إمارة المسيلة بعد وفاته في ربيع الأوّل 334 في لقاء مع أيوب بن مخلد في جهة بلطة (انظر ص 326 هامش 200)

(83) جبل سالات بالتشديد (الميلي. تاريخ الجزائر، 89/2) في جهة بوسعادة على سبعين كيلومتراً جنوب المسيلة فيكون أبو يزيد اتجه إلى الغرب محاذياً الصحراء بعد أن توغّل في الجنوب. وإن الخوف من الصحراء لقلة الماء فيها والعلف هو الذي يثني المنصور عن ملاحقة خصمه بعد بسكرة.

(84) في المخطوط: سرواتة. وعرّف ابن حوقل، 103، سدراتة بأنّهم «قوم من البربر في عصبة زناتة من لواتة ومزاتة» وسدراتة مدينة قريبة من ورقلة، على ستمائة كم من الجزائر، أسسها فلول الرستميين بعد سقوط تاهرت.

الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى (ديسمبر 946) قاصداً للدجّال حيث كان من الأوعار والجبال.

وكان الدجّال المارق حين انتهى إلى جبل سالاّت بمن بقيَ من أصحابه، اجتمع إليه بنو برزال وغيرهم، من البربر الخوارج، وصاروا على طريق الإمام (عم) فعملوا على أن يبيّتوا عسكر الإمام، وقد بات بموضع يقال له مقّرة[85]، فلم يتهيّأ لهم ذلك. فكمن الدجّال مع أصحابه بين تلك الجبال والأوعار، في موضع يعرف/ «بعَين السودان»[86] معتصماً بالوعور متحصّناً بها، وقد سوّلت له نفسه أن يهتبل في عسكر الإمام الغرّة، فتكون له عليهم الكرّة. فلمّا طلعت الشمس، تراءت خيل العدوّ، وتصايح الناس بهم، واتّصل الصياح بالإمام فأمر من ساعته بحطّ الرحال وضرب المضارب والأخبية في ذلك المكان، في قطعة من الأرض قد حَفَرت حولها السيولُ ومرّت * عليها الحُؤُولُ[87]، فصار عليها بصنع الله جلّ جلاله خندق محفور لم يكن له إلاّ مسلكٌ واحد. ولبس الإمام درعاً، وشدّ وسطه بمنطقة، وأرخى لعمامته ذؤَابة تزيد على الذراع، تقع على منكبه الأيمن، وأخذ بيده درَقة، وتناول رمحاً فهزّه ثمّ رمى به، وأخذ ذا الفقار سيفَ جدّه (ﷺ) وقال: «ليس هذا يوم رمح، ولكنّه يوم ضرب وجلاد». وعبّأ عساكره فجعل في الميمنة جيملة ولهيصة من قبائل كتامة وجعفر بن عليّ صاحب المسيلة، وألحق بهم بشرى

390

أبو يزيد يتجّه إلى جبال الحضنة. .

دش 209

.. ليقطع طريق المنصور

(85) مقرة بتشديد القاف حسب البكري 51· بين طبنة شرقاً، وقلعة أبي طويل (أي جبل كيانة من جهة المسيلة) شمالاً وغرباً وهي اليوم على 77 كم جنوب سطيف.

(86) عين السودان: جعلها ابن حمّاد، 28، بين جبال كيانة، أي جبال الحضنة اليوم، وعرّف الوقعة بهذا الاسم «وكانت على أبي يزيد هزيمة عظيمة بموضع يعرف بعين السودان»

(87) الحؤول، جمع الحول· السنون والأعوام

الخادم بعد ذلك (ط 264)، وجعل في الميسرة ملوسة وإجّانة من قبائل كتامة أيضاً، وجعل معه في القلب خاصّة الأولياء من كتامة والعبيد، وعسكر البرقيّين[88]. وجعل طائفة من رجال الجزيرة وجندها في ظهر الميمنة وأعطاهم بنداً/ وطبلاً، وأمرهم بالقيام بمركزهم حتى يَرِدَ أمرُه عليهم. وجعل طائفة منهم أيضاً بالميسرة وأعطاهم بنداً وطبلاً، وأمرهم بالوقوف أيضاً حتى يرد أمره عليهم. وأقبل يسير من الميمنة إلى الميسرة، يعدّل الصفوف ويوصيهم بالصبر على الجلاد، ويَعِدُهم (ر 160 أ) بما أعدّ الله للباذلين أنفسَهم في الجهاد، وهو كالأسد الباسل والهِزَبْر المُنازل، وقد عرف كلٌّ شجاعتَه وصبره، ورجا من الله إمداده ونصره. وأفرق السلاح في الناس والتحم القتال *.

391

وقعة عين السودان (13 جمادى 1 - 10/335 ديسمبر 946)...

دش 210

وأقبل أبو يزيد الدجّال في خيول مجرّدة مختارة، وقد ازداد في الطغيان، ومنّته نفسُه الغلبةَ، ونفث في روعه بذلك الشيطانُ، وذلك لكثرة مَن معه، واعتصامِه بتلك الأوعار والجبال، وكلٌّ مَن بها أنصاره على دينه ومذهبه. ووقف اللعين على تلّ مشرف على الفريقين جميعاً، ينظر القتال، ويسدّ ما يرى به الخلَل من عسكره بالخيل والرجال. ثمّ أرسل طائفةً ممّن معه قد انتقاها واختارها، فحملوا على ميمنة أصحاب الإمام (عم) إلى أن جاوزوا إلى مركز[89] الذين ظاهر الإمام بهم، فوقفوا بمركزهم. وقُتل من الأولياء في تلك الحملة حبيب بن محمّد الجيملي رحمة الله عليه. ووجّه الإمام (صلع) كتيبة من قِبَله فالتقت الميمنةَ حين هزيمتها وقوّت أمرها. فحين/ رأى ابن كيداد ثبات الميمنة، وجّه إلى أصحاب الميسرة بالقتال فهزموهم، واستشهد فيها أبو الغارات ابن تنوط الملوسيّ، وحسن بن واصل الملوسيّ، ومصالة بن عطاء الله

.. شديدة على جند المنصور..

392

(88) البرقيون: لعلهم المدد الواصل من طرابلس الذين مرّ ذكرهم ص 360.

(89) في النسختين: إلى المركز.

الإجانيّ[90] رحمة الله عليهم. فغضب الإمام عند ذلك، ونظر إلى موضع أبي يزيد فقصد إليه في الكتيبة التي معه لا يلوي على ميمنة ولا ميسرة، وقد كساه الله (عج) الهيبة والجلالة وألقى (ط 265) الرعب في قلوب أعدائه، وجعل النصرَ * والظفر أمام لوائه. فلمّا رأى الدجّال المارق وأصحابه الإمام (عم) قد قصد نحوهم وأقبل عليهم، ولّوا بين يديه منهزمين وعلى الأعقاب ناكصين. وتمادى الإمام في طلبهم وعملت السيوف فيهم، فقُتلوا قتلاً ذريعاً، وكان الإمام (عم) يحمل عليهم منتضياً ذا الفقار، فيهدّ كتائبهم ولا تنجيهم منه المسالك الضيّقة والأوعار.

دش 211

.. ولكنّها تتحوّل إلى نصر بفضل ذي الفقار

وقد أتى عن القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه) قال: «قال المعزّ لدين الله (صلع): سمعت المنصور بالله قدّس الله روحه يقول: ما انتضيتُ ذا الفقار إلّا انهزَمَ العدوّ بين يديّ إذا انتضيته. فقال جماعة ممّن حضر المجلس، وكان شهد مع المنصور بالله (صلع)/: والله لقد رأيناه يوم الخصوص، وكان يوماً شديداً، وقد أخذ العدوّ علينا مضايق الجبال، وأحدقوا بنا وأحاطوا من كلّ جانب، وهو بيننا (صلع) يَقدُمنا، وهذا السيف في يده قد انتضاه، فإذا رفع يدَه به وحمل على ناحية من نواحي العدوّ، انهزموا بين يديه كأنّما غشيَتهم الصاعقةُ من السماء»[91].

393

مناقب ذي الفقار

وقاتل الناس بين يدي الإمام (عم) قتالاً شديداً، وتحصّن الدجّال اللعين بقلعة عقار[92] واعتصم بها *. وحين[93] دخل الليل

دش 212

---

(90) هؤلاء القوّاد قتلوا كل في قومه، ولا نعرف عنهم غير ما ذكره المؤلف هنا.

(91) المجالس والمسايرات، 114، والحديث فيها عن السيف ذي الفقار وقد أظهره المعزّ لجلاّسه. والوقعة المرويّة غير وقعة اليوم، فهذه دارت في جمادى الأولى 335، وتلك ستقع في رمضان، وتسمى وقعة الخصوص أو وقعة الحريق.

(92) قلعة عقار: مرّ ذكرها ص 299.

(93) في الجميع: فحين.

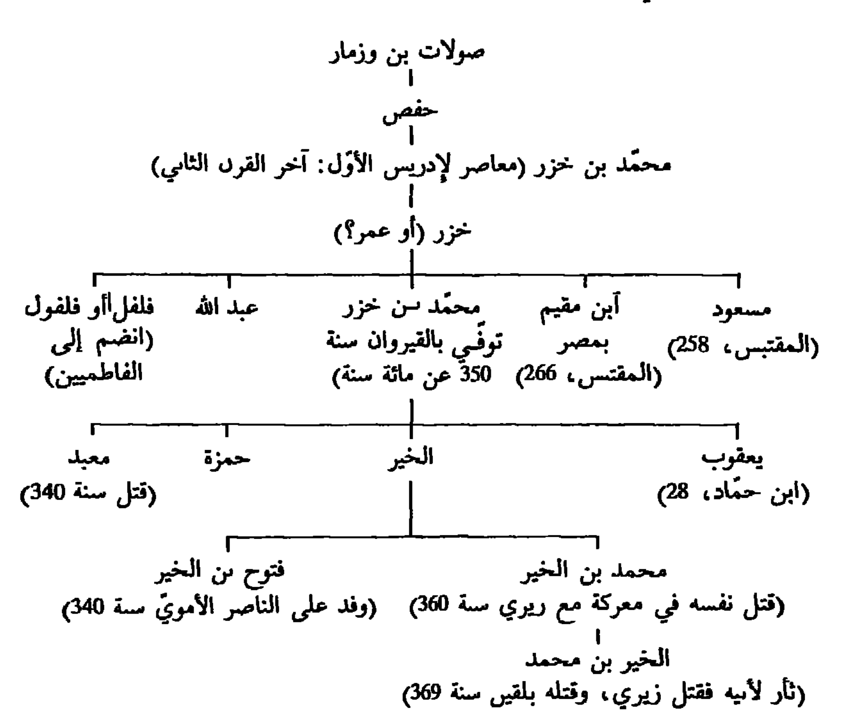
هروب أبي يزيد إلى جبل سالات..

هرب على وجهه إلى جبل سالّات. ونهب الأولياء أخبيتَه ومضاربه، ورجع الإمام (عم) إلى مضاربه عند صلاة العتمة بالمشاعل، مؤيَّداً منصوراً، مظفَّراً محبوراً.

ورحل (عم) في غد ذلك اليوم، وهو يوم الخميس لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى (10 ديسمبر 946) فنزل بالمسيلة، واستقبله أهلها فدعَوا له وأثنَوا عليه. وأخبروه أن أبا يزيد جاز بهم تلك الليلة هارباً، يريد إلى بني برزال بجبل سالّات.

وقدم على الإمام (عم) يعقوب بن محمد بن خزر[94]، وهو

(94) ذكر ابن حمّاد، 28، هذه الوفادة. ولا تذكر بقيّة المصادر ابناً لمحمّد بن خزر يسمّى يعقوب. ولهذه الأسرة الزناتيّة المغراويّة أسماء متكرّرة ومتنوعة يصعب معها معرفة الأشخاص المعنيين. واستوحينا من ابن خلدون، 25/7، ومن تاريخ الجزائر لمبارك الميلي، 92، الشجرة التقريبيّة التالية:



بالمسيلة (ط 266) يوم الأربعاء لعشر بقين من جمادى الأولى (16 ديسمبر 946)، فخلع عليه وحمله على جواد وزاده جواداً آخر، وأحسن إليه وإلى من معه، وأمر بفازة فنصبت له.

.. ونزول المنصور بالمسيلة

394

/وكتب الإمام (عم) بخبر ذلك الفتح[95]. فمن كتابه إلى قدّام الخادم عامله على المنصورية والقيروان قوله (عم): «ثمّ إنّا نهضنا من طبنة يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة[96] خلت من جمادى الأولى (8 ديسمبر 946) فنزلنا بموضع يعرف بمقّرة. ورحلنا منها ليلاً حتّى إذا أصبحنا وطلعت الشمس، تراءت لطلائعنا خيل على طريقنا، واتّصل الصريخ بنا، وأنّ الفاسق نزل بموضع يعرف بعين السودان يهتبل غرّة في ساقة عسكرنا ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللّهُ (ر 161 أ) لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ (النساء، 141) *. فلمّا أبصرهم أولياء الدولة وأنصار الدعوة، تتابعوا إليهم وصاروا نحوهم كالليوث الضارية والسيوف الماضية، متهافتين إليهم مستنفرين عليهم بالله (عج)، واثقين بجميل عاداته فيهم. فأمرْنا بنصب الفازات بصددهم، وتعبئة الجيوش المؤيّدة إليهم، وقصدنا قصدهم، وصمدنا نحوهم، وقد اجتمعوا وتألّبوا، وتحاشدوا وتظافروا، وأصرّوا واستكبروا، وانضمّ إليهم من كان بإزائهم في تلك البقاع من هوّارة ومن بني برزال، الفسَقة الأرذال، مظاهرين[97] لهم على كفرهم مصرّين مُستَبْلِسين، لا يرجون من الله ثواباً، ولا يخشَون عقاباً. فلزموا مصافّهم/ وركنوا

رسالة من المنصور إلى قدّام عامله بالقيروان. . .

دش 213

395

(95) عند ابن حمّاد، 31 أن هذه الرسالة تلت «يوم الرؤوس» الذي جرح فيه أبو يزيد، وهي وقعة فحص باتنة، أي أدنة، الآتي ذكرها. وعنده أيضاً أنّ المنصور ختم رسالته بذكر قدوم مبعوث من العراق أرسله داعيان من الدعاة هناك. ولا ذكر لهذه الوفادة هنا.

(96) سبق للمؤلّف أن قال: يوم الثلاثات لاثنتي عشرة (ص 389)

(97) في الجميع: مطافرين.

إلى تلك البقاع، ولاذوا بوعورها، وتحرّزوا بقربها، ولا عاصم لهم من الله. وظهرت علامات النصر وتباشير الظفر، فرجعنا إليهم ودلفنا نَحْوَهُمْ واقْتَحَم الأولياءُ عليهم ببصائر نافذة وعزائم مستحكمة، والتحم القتال، وتعلّق الرجال بالرجال، وقامت الحرب على ساق، وسطع قتامها، وتوقّد ضرامها، ودارت الحرب على قطبها، فلا يُسمع إلاّ طنين الظبى، ولفح الطُّلى، ووخز القنا. فجالدَهم الأولياء أشدّ جلاد، وقاتلوهم أصعب قتال، من وقت الضحى إلى وقت صلاة العصر، ومنح الله (عج) الأولياء الصبر ورزقهم النصر، وأسلم حزبَ الشيطان وأولياء الطاغوت إلى ذنوبهم *، وألقى الرعب في قلوبهم، وضرب في وجوههم، فحملنا (ط 267) عليهم حملة واحدة، فما كان إلاّ كحُسوة الطائر حتّى ولّوا منهزمين. وأخذتْهم سيوف الحقّ، وركبهم الأولياء يعملون سيوفهم في هامهم، ويروونها من دمائهم، حتى أقحموهم في تلك القلاع، وتوغّلوا بين تلك الشعاب. وحجز الليل بيننا وبينهم، وقتل الله تبارك وتعالى حماتهم، وسقط أكثر خيولهم، واجتزّ (ر 161 ب) الأولياء من رؤوس أكابرهم ووجوه ضلاّلهم عدداً كثيراً أمرنا بصلبها على مدينة/ المسيلة. ولم ينج منهم ناجٍ إلاّ مُثخناً جراحاً، وولج الأولياء أخبيَتهم واحتوَوا على ما فيها، وأضرموها[98] ناراً.

.. يصف فيها وقعة عين السودان

دش 214

396

«وكانت وقعةً جعلهم الله بها نكالاً لما بين أيديهم وما خلفهم وموعظة للمتّقين. وأُبْنا إلى مناخنا بجميع عساكرنا المنصورة وجيوشنا المظفّرة أجمل إياب، سالمين غانمين، مؤيّدين مظفّرين.

«واستشهد من الأولياء في حال المعركة من أراد الله سعادتَه وتصييره إلى رحمته وقرار جنّته: حبيب بن محمّد الجيملي،

(98) في الجميع · فاضرموها

والمعروف بأبي الغارات ابن تنوط وحسن بن واصل الملوسيّان، ومصالة بن عطاء الله الإجاني، يغفر الله لهم، فقد بذلوا في * ذات الله تعالى مهجتهم، وجاهدوا في سبيله. وما نعلم أنّه سقط أحد من عساكرنا غير هؤلاء الذين عرّفناك أسماءهم، ولولا أن يُرجفَ المرجفون، لما أعلمناك بهم، لأنّ ثقيل[99] المحنة يقلّ في جنب عظيم المنّة.

دش 215

«وكان تاريخه لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة (11 ديسمبر 946)».

397

وكثر الإرجاف بالقيروان بعد هذه الوقعة. فكتب/ قدّام الصقلبيّ إلى الإمام (عم) يعرّفه بخوض الناس وقولهم، فأجابه بجواب يقول فيه: «قد عرّفتك أنّي لم أركب الغرر، ولم أتجشّم الخطر، وإنّما خرجت لوعد قديم، من ربّ كريم، لا تبديل لكلماته، ولا خلف لوعده، فثق بذلك ترشُدْ وتسعَدْ إن شاء الله». فقرىء هذا الفصل على المنبر بالقيروان فسكن الناس عن خوضهم، وأعرضوا عن إرجافهم وقولهم.

الأراجيف تروج بالقيروان فيكذّبها المنصور

واجتمع لمخلد الدجّال جماعة كثيرة من بني كملان جميعاً وبني برزال، وهوارة الغدير[100]، وغيرهم من جموع البربر ومن الإباضية (ر162 أ) المارقين في جميع المغرب، واستندوا إلى كيانة وعقار، وهما جبلان منيعان، واستعدّوا لبذل الأنفس، وتذاكروا صبر

(99) في الجميع: لأنّ قليل.. ولا يوافق المقابلة.

(100) عند ابن حمّاد، 28، أن أبا يزيد بعد وقعة عين السودان قسم قوّاته، فأخذ هو «نحو صحراء مدينة بني خزر (أي في اتجاه بوسعادة جنوباً) وأخذ أبو عمّار الأعمى وصاحب آخر له يسمى مكدول الأعمى نحو الغدير (أي غدير هوارة وهو قرب المسيلة ويسميه البكري، 59: غدير واروا). ولاحق المنصور أبا يزيد إلى جبل سالات مباشرة بعد هذه الوقعة، خلافاً لما يرويه إدريس هنا

أسلافهم، وأقبلوا على عسكر الإمام (عم) في جموع عظيمة. فأسبل الإمام عليه درعه، واشتبك القتال، وقام الحرب وتدانى

دش 216

آلأبطال *، ووقع الطعن والضرب، واختلطت الصفوف، وتضاربت الأبطال بالسيوف، وانهزمت ميمنة عسكر الإمام وميسرته، فكشف عن ساعده، وانتضى ذا الفقار سيفَ جدّه، وتحرّك فيمن معه من خلصاء المؤمنين، وفرسان جنوده المستخدَمين، واثقا من الله بالنصر، مستسلماً له في كلّ أمر. ونشرت الألوية بين يديه، وعمد

398

مخلدَ بنَ كيداد /قاصداً إليه، فحين عاينَه الدجّالُ قاصداً نحوه، وحمل عليه وأمّه، ورأى حملاته المهولة، وصولاته المعروفة

معركة جبل عقار (15 جمادى 1 12/335 ديسمبر 946) . .

المشهورة، نكص على عقِبَيه مولّياً، ولجموعه وعساكره مخلّياً، وأدبر أصحابه بعده على الأعقاب، وعمل فيهم كلّ صارم قرضاب، فقتل وجوه الرجال وفرسانهم الأبطال، من بني كملان وبني برزال، وغيرهم من المارقين، وولّوا سراعاً منهزمين. وطلبهم الأولياء يقتلونهم بالسيوف ويسوقونهم مصارع الحتوف، حتى حالت بينهم ظلمة الليل. وصار ما كان في عسكر مخلد بن كيداد نهبا للأولياء وفيئاً لهم، وأغنمهم الله جميع ما كان معهم من الفازات والأخبية، والطعام والأمتعة. وعاد الإمام (عم) ثاني ذلك اليوم إلى الجبل[101] ليتبع من بقيَ فيه فوجده (ط 269) خالياً، والقوم قد هربوا من ليلتهم. وغاب عن الإمام خبر الدجّال أين سلك وأيّ موضع

دش 217

قصد *.

---

(101) هذه الوقعة بين يومي عين السودان والخصوص، لم يذكرها ابن حمّاد، وإنما ذكر «يوم الرؤوس» بأدنة أو فحص باتنة (ص 31)

المرتزق بعد المرامة بالسوس وان الحشايا بالخيول الضوامر
وفينا صدق الاضغان بينهم يثورون ثورات الاسود الخوادر اروني فتى يحمي عناني ومشتكا
اذا وضح الوادي بوقع الحوافر انا الطاهر المنصور من نسل احمد بسيفي اقد الهام تحت المغافر
وكتب الامام المنصور بالله صلعم الى ولده وولي عهده معد ابي تميم المعز لدين الله
سلام الله عليك كتابي اليك من اقصى الغرب وشوقي اليك طويل طويل
اجوب القفار واطوي الرمال واحمل نفسي لهول مهول اريد بذاك رضى خالقي
واعزاز دولة آل الرسول الى ان برى السير اجسامنا وكل الركاب وتاه الدليل
فواغربتاه ويا وحشتاه وفي الله هذا قليل قليل وما ضقت ذرعا ولكنني
نهضت بقلب صبور حمول وقد مت ذو العرش من فضله بفتح مبين وعز جليل
وفي كل يوم من الله لي عطاء جديد وسيب جزيل فلله حمدا على ما قضى
وحسبي به وهو نعم الوكيل وولى ابو يزيد بعد ذلك المهر بقرا لا يدري اين الحل
وفي مكان نازل قد عراه الخوف وارهبه السيف وضاقت عليه الارض
برحبها ورأى التلال العالية لا تمنعه منعتها واقام الامام المنصور
بالله عم بالمسيلة فلم يبق قبيلة من قبايل تلك الجهات الا دلت له والقاد
وانقاد وجاء القصاد ووافت الوفود وارتحل الامام عم يوم الثلثاء لسبع بقين من
جمادى الاخرة فسار بالناس وقد عباهم تعبية الحرب وقد لبس عم جوشنا
رفوفه خفتان احمر مشعل الونيار واعتم بعمامة صفراء فنزل في شرقي جبال
سالات على وادي من مالح وسار يوم الاثنين فنزل على عين عذبة في وسط
جبال سالات فلما علم بذلك الدجال توغل هاربا على وجهه في الرمال
واتصل ذلك بالامام عم فجد على طلبه حيث اتى وقصد حيث قصد من
الاوطان فسلك عم بالجيوش مواضع ما سلكها جيش قط واجتمع اليه الاعراب

الصفحة 162 ب من نسخة «ر».

وفي صبر الإمام في ذلك اليوم وشجاعته يقول بعض الشعراء (كامل):

.. يشيد بها الشعراء

يـا أيهـا الملك الـذي عـاداتُـه وطبـاعُـه الإنعـامُ والإحسـان
لـك كـلِّ يـوم آيـةٌ لم يـأتهـا أحـد، ولم يفخـر بهـا إنسـانُ
ولأنت ذاك الفارس الأسد الذي شهِدت لـه وأَقَـرَّت الفـرسـان

وفي ذلك اليوم يقول الإمام المنصور بالله (صلع):

(طويل)

تـبـدلَّـتُ بـعـد الـزعـفـران وطـيـبِـه
صدا الدرع من مستحصدات المسامر (ر162 ب)

399

/ألم تَرَني بعثُ المقامة بالسرى ولينَ الحشايا بالخيول الضوامر؟
وفتيـان صدق لا ضغـائنَ بينهم يثورون ثورات الأسـود الخوادر
أَرُوني فتىً يُغني غَنائي ومشهدي إذا أرهج الوادي بوقع الحوافر[102]
5 أنا الطاهر المنصورُ من نسل أحمد بسيفي أقدّ الهامَ تحتَ المغافر

وكتب الإمام المنصور بالله (صلع) إلى ولده ووليّ عهده معدّ أبي تميم المعزّ لدين الله (عم):

دشْ 218

(متقارب) *

شعر للمنصور يتشوّق فيه إلى ابنه المعزّ

كتابي إليك منَ اقصى الغروب وشوقي إليك شـديد طـويلْ[103]
أجوب الفيافي وأطـوي الرمـال وأحمـل نفسي لهـول مهـولْ
أريـد بـذاك رضـى خـالقي وإعـزاز دولـة آل الـرسـولْ
إلى أن يـرى السيـر أجسـامنـا وكـلَّ الـركـاب، وتـاه الـدليـل
فـواغـربتـاه! وواوحشـتـاه! وفـي الله هـذا قليـل قـليـل

(102) أرهج: أثار الغبار. وفي النسخ: إذا وهج.
(103) قيدنا القافية تلافيا للأقواء في الأبيات 2، 3، 6، 7.

ومــا ضـقت ذرعــا، ولـكنّني نهضت بقلب صبــور حـمـول
وقـد منّ ذو العـرش من فضله بفتح مبين وعزّ جليل (ط 270)
وفـي كـلّ يــوم مـن الله لـي عـطاء جـديـد وصنـع جميـل
فـللّه حمـداً عـلى مـا قضـى وحسبي بـربّي ونعم الوكيـل *

دش 219

400

وولّى أبو يزيد بعد تلك الهزيمة لا يدري أين يحلّ وأي/ مكان ينزل، وقد عراه الخوف وأرهبه السيف، وضاقت عليه الأرض برحبها وسعتها، ورأى أنّ التلال العالية لا تمنعه بمنعتها.

وأقام الإمام المنصور بالله (عم) بالمسيلة، فلم تبق قبيلة من قبائل تلك الجهة إلاّ ذلّت له وانقادت وأتته خاضعة طائعة، وجاءته القصّاد، ووافته الوفّـاد.

المنصور يستأنف ملاحقة أبي يزيد...

وارتحل الإمام (عم) يوم الخميس لليلة بقيت من جمادى الأولى (24 ديسمبر 946) في طلب مخلد الدجّال، وسار بعسكره من الخيل والرجـال. فبات بـوادي أوبة[104]، وهـو وادي مرّ مـالح. وارتحل من وادي أوبة لليلة خلت[105] من جمادى الأخرى، فسار بالناس وقد عبّأهم تعبئة الحرب، وقد لبس جوشنا وفوقـه خَفْتَانٌ أحمرُ مثقلٌ بالوشي، واعتمّ عمامة صفراء، فنزل شرقيّ جبال سالاّت على وادي مرّ مالح. وسار يوم الاثنين (28 ديسمبر 947) فنزل على عين عذبة في وسط جبال سالاّت. فلمّا علم به مخلد الدجّال، توغّل هارباً على وجهه في الرمال. واتّصل ذلك بالإمام (عم) فعمل على طلبه حيث كان، وقصده حيث قصد من الأوطان، فسلك (عم)

.. فيعود إلى جبل سالاّت..

(104) وادي أوبة: لم نجده في مراجعنا. والأودية التي تقطع الطريق بين المسيلة وبوسعادة هي: وادي اللحم، ووادي سبيسب، ووادي طرفة، وتجتمع الثلاثة في نهر واحد يصب في شطّ الحصنة. فلعلّ وادي أوبة، ثم الوادي المرّ المالح بعده، بعض هذه الثلاثة.

(105) في النسخ: بقيت. وسيأتي ص 403 أنّه ترك حائط حمزة في منتصف جمادى الأخرى.

401 بجيوشه مواضع لم يسلكها جيش قطّ. واجتمع/ إليه الأولياء فعرّفوه أنّ الموضع صعب سلوكه، وأنّ مخلداً قد ارتحل من الجبل حين رأى عسكر الإمام، وولّى هارباً كما يولّي الهجرس عن الضرغام. وبات الإمام، وقد بلغ الضرّ من العسكر مبلغاً عظيماً، وبلغ بهم الجهد، وأيسوا من خلاص الخيول، فلم يكن همّ كلّ امرىء منهم غير نفسه، وعدم العلف في ذلك المكان. فقيل إنّه بلغ ما تحتاج إليه الدابّة من الشعير ديناراً ونصف دينار من الذهب، وقفيز الزيت ديناراً. وماتت أكثر الخيل والجمال، ولم يكن لها ما تقتاته سوى الحلفاء (ط 271).

.. ويقتحم المسالك الوعرة..

واجتمع الناس إلى الإمام فقالوا: «ليس وراء هذا الجبل مسلك لخفّ ولا حافر، وإنّها قفار ورمال متّصلة ببلد السودان إلى المشرق وإلى أقصى نهاية المغرب ليس بها أنيس ولا عمران، ولا إنسٌ ولا حيوان. وإنّ أبا يزيد لخوف السيف سلكها وسمح بنفسه لا يضنّ عن الهلاك، بها، ولا يُعلم أين قصد ولا حيث استقرّ». فثنى الإمام (عم) أعنّة خيله وقصد أقرب المواضع التي فيها العمارة، وهي بلد صنهاجة، واجتاز في طريقه على المياه المالحة والجبال الوعرة، وانتهى إلى كدى/ صنهاجة. وأصاب الناسَ في ذلك اليوم ثلج[106] واشتدّ عليهم بالليل وتراكم على الأخبية والفازات حتّى تكسّرت أعمدتها على ما ذكر أهل السيَر والروايات وانفتحـ[ـت] السماء بالسفح الهاطل *. وبات الإمام على غير طريق بين جبلين في وعر هائل.

.. فيلقى جنده العنت من الجوع والبرد..

402

دش 221

ورحل (عم)، وتخلّف كثير من الناس بين تلك الجبال في خروقها وصدوعها، اوودّع بعضهم بعضاً، وهلك منهم عالم كثير

(106) يوافق شهرا جمادى 335 شتاء سنتي 946 - 947 (ديسمبر وجانفي).

.. فيلجأ به إلى بلد صنهاجة

في تلك الأخراق رحمة الله عليهم، كلّ ذلك مع وليّ العهد جهاداً لله وفي سبيله وفي إحياء دين الله وطاعة ابن رسوله. ووقف الإمام (عم) ستّة أيام بموضع يقال له «حائط حمزة»[107]. وفيه وافاه زيري ابن مناد الصنهاجيّ بعساكر صنهاجة داخلاً في طاعته، متقرّباً إلى الله (تع) بالجهاد بين يديه ونصرته. فخلع عليه الإمام (ر 163 ب) وأجزل له العطيّة والصلة، وحمله على فرس بسرج محلّى وأكرم نزله، وعقد له على أهل بيته وعشيرته ومن يتّصل بهم من قبائل البربر ممّن دخل في طاعته. وانصرف زيري عن الإمام محبوًا مكرّماً، شاكراً لما طوّقه، مفضّلاً منعّماً، وكان صفح الإمام عنه غاية مطلبه ومنتهى أربه/ فبلغ مرامه، ورجع من عطاء الإمام وتشريفه بالذي فاز بـه.

403

(ط 272) وورد على الإمام كتاب محمّد بن خزر يذكر له حيث استقرّ مخلد بن كيداد ويسأل الأمان لبني كملان، فأجابه الإمام بما أقرّ عينه، وأكثر صلته وعطاءه * وأعلمه أنّ بني كملان يأتون فيما يطلبون بالبهتان، وأنّه لا أمان لهم إلّا أن يأتوا بأبي يزيد مكبّلاً، وأنّهم حيث فرّوا لن يجدوا عن جنود الله موئلاً.

دش 222

مرض المنصور ببلاد صنهاجة...

وسار الإمام من حائط حمزة للنصف من جمادى الأخرى (11 جانفي 947) فنزل موضعاً من بلاد صنهاجة يقال له: ولغلغ[108] على وادٍ فيه ماء جار. وفي هذا المكان رخص الطعام.

واعتلّ جسد الإمام (عم) لما قاساه في تلك الطريق من الثلج والماء الأجاج، وأقام ثلاثة عشر يوماً مغمى عليه في أشد الألم حتى

---

(107) رواية ابن حمّاد، 29، أكثر تفصيلاً وأقلّ تمجيداً: بعد التعب الشديد، رأوا ناراً في الليل، فإذا هي محلة أبي يزيد. فرفض أصحاب المنصور مواصلة الطرد وقالوا: «أعظم الفتح وأجلّ الغنيمة التخلّص ممّا نحن فيه». فرجع إلى المعمور ونزل عند طارق الفتى ثمّ بحائط حمزة (قرب البويرة).

(108) عند ابن حمّاد، 29: وادي لعلع.

أتاه طبيب ففصد له فوجد في جسده الخفّة وأحسّ العافية.

ولمّا عرف الدجّال أن محمد بن خزر قد صار في طاعة الإمام، ولم يجد فيه مطمعاً، ولا أصابه له متّبعاً، اغتمّ لذلك غمّاً شديداً، ومال إلى سوق لابن خزر يعرف بـ «ـتامرست» فانتهبه[109]. فبادر إليه ابن خزر وكانت بينهم وقعة قُتل فيها محمد بن عبّاس صهر ابن خزر وتسعة عشر من قومه/ من زناتة. ثمّ كانت لابن خزر عليهم الكرّة فقتل من بني كملان أصحاب أبي يزيد عدّة فيها كثيرة.

404

وعاد الدجّال إلى بني برزال بسالّات، وأظهر أنّ الإمام قد صار بتاهرت وأنّه يريد * سجلماسة. وخرج الدجّال إلى جبال أكة وهي بقرب المسيلة، وأرسل إلى هوارة الغدير يذكر لهم أنّ إفريقية قد خلت، وأنّ الفرصة فيها قد أمكنت، ووعدهم أن يتبدىء بنهب (ر 164 أ) المسيلة، فأطمعهم ما ألفوه من النهب والسبي، فنفَذت فيهم تلك الحيلة، وسار وقد انضمّت إليه جموع كثيرة يريد المسيلة، وقد طمع فيها لقلة ما بها من الرجال.

دش 223

.. وانقلاب مخلد إلى المسيلة..

وبلغ ذلك الإمام، فارتحل بعساكره من ولغلغ، وقد نقِهَ من العلّة، وسار يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شهر رجب / (27 جانفي

---

(109) في الأصل: سوق لابن خزر فانتهبه يعرف بتامر/ رست، فأصلحنا بالتقديم والتأخير. ولا تعرف تامرست في مراجعنا، ولا يمكن أن تكون «تامسنت» كما قرأ الدشراوي، هامش 418، لأنّ ابن حوقل، 87 يجعلها بين تيجس وميلة ويقول: هي قرية وسوق لكتامة. فلعلّ تامرست تقع في حدود بلد صنهاجة الغربية تجاه تاهرت وتلمسان، فهناك كانت منازل مغراوة قبل أن يَجْلوَهم عنها الفاطميون. كما يمكن أن تكونَ متوغّلة في الصحراء تجاه الأغواط كما يظهر من كلام مبعوث ابن خزر إلى المنصور: انّه أقام دعوتـه ـ دعوة المنصور ـ بمدينة الأغواط (ابن حمّاد، 30).

947)[110] فوافى مدينة المسيلة لخمس خلون من رجب يوم السبت (30 جانفي)، والدجّال محاصر لها، وهو في أغفل (ط 273) ما يكون، فلم يرعه إلّا طلائع مقدّمة عسكر الإمام (عم) قد أقبلت. فلمّا رآها ومن معه، أيقنوا بالخزي والعار، وركنوا إلى الهرب والفرار. وأراد أبو يزيد أن يرتحل إلى بلد السودان، فلم يرَ بنو كملان وهوارة الغدير[111] ذلك الرأي/ وأشاروا عليه بدخول جبال عقار وذكروا أنّه لا يجد أحصن منها. فدخل الدجّال تلك الجبال[112] وانتهى إليها فيمن معه من الرجال، وانحصر بها، ومعه خلق عظيم لا يحصى عددهم من النكّارية المارقين الذين على مذهبه، وغيرهم من البربر الذين اتّصلوا به. فكانوا ينزلون[113] من تلك الجبال إلى أدنة[114] مدينة أوّليّة قد خربت، وبينها وبين المسيلة اثنا * عشر ميلاً، فيتكمّنون بها، وينتهبون من العساكر المنصورة رعاتها ومن يخرج لحطبها.

405

واعتصامه بجبل عقار

دش 224

وأقام الإمام (عم) بالمسيلة بقيّة رجب وشعبان (فيفري - مارس 947). ولمّا كان يوم السبت لعشر خلت من شهر شعبان (6

(110) نزل المنصور بولغلغ في 15 جمادى 2، فاعتلّ 13 يوماً، ثمّ نقه فتركها في 2 رجب أمّا ابن حمّاد، 29، فعنده أنّ مرض المنصور دام شهرين.

(111) هوارة الغدير: سكّان قرية الغدير، غدير وارّو الذي يذكره البكريّ، ، 54، 59، 76، ويسمّيه «النهر الرئيس» ويقول: «مدينة الغدير بين سوق (حائط) حمزة وطبنة، على مرحلتين من طبنة، وسكانها هوارة. ومن مدينة الغدير تنبعث عيون نهر سهر (نهر المسيلة) وموقعها اليوم يسمّى «برج الغدير» على ستة وعشرين كم من برج بوعريريج شرقاً.

(112) تلك الجبال: سقطت من «هـ».

(113) من: الدين على مذهب.. إلى هنا: سقط من مختارات الدشراويّ.

(114) أدنة: ذكرها البكري، 144، بين المسيلة وطبنة، وجعلها على مرحلتين من طبنة. ويسمّيها ابن حمّاد، 31، أذنة بالذال المعجمة، ويقول إنها تعرف بفحص باتنة (وهي غير باتنة الأوراس) على اثني عشر ميلاً من المسيلة.

أبو يزيد ينصب كميناً للمنصور قرب المسيلة. . .

مارس 947)، ركب الإمام إلى مدينة أدنة، وركب معه من الأولياء والعبيد أربعة آلاف فارس، وركب زيري الصنهاجي معهم في خمسمائة فارس. فوصل المنصور بالله (عم) إلى مدينة أدَنة ولم يجد للعدوّ أثراً، وهم قد كمنوا بالبعد من أدنة في خمسمائة فارس. فحين رأوا كثرة الخيول، وقفوا في المكمن مختفين. فلمّا رجع المنصور (عم) منصرفاً، حملوا على المتأخّرين ووقعت الصيحة حتى اتّصلَتْ بالإمام، فرجع في وجوههم، وأمر مقدّمة/خيله أن يحملوا عليهم. وتزايدت خيل العدوّ وغاراتهم (ر 164 ب) ومددهم، ونزل الدجّال بنفسه مدداً لهم، ومعه ثلاثة بنود وخلق عظيم من الرجّالة والفرسان، وهو لا يعلم أنّ الإمام (عم) مع خيله، فانتهزها فرصة بكاذب ظنّه، وأقبل بمن معه من الخيل والرجّالة على الميسرة، وكانت بالموضع تلال وآكام. وبصر به الإمام فدعا بجوشن فلبسه، وأرسل إلى عسكره بالمبادرة إليه وأن تخرج الطبول والبنود. وضاق الوقت، فلم * يمكن الإمام تعبئة الجيوش، وأمر من معه أن يكون قتالهم جلاداً (ط 2/74) بالسيوف وطعناً بالرماح، وأن يلازموا القوم القتال ويَدْنُوا منهم. وأخذ درقة بيضاء وجرّد سيفه ذا الفقار ومشى في تلك الوهاد والتلال، ففاجأ الدجّالَ اللعين مفاجأة الليث للحمار، ووثب عليه وِثبة الأسد الكرّار. فحين رأى المظلّة ولّى هارباً على وجهه وأسلم أصحابه وأولاده. وركبتهم خيل الأولياء تطؤهم بسنابكها، وتعلوهم السيوف جزّاً للرؤوس عن غلاصمها[115]. ومالت ميمنة الأولياء على ميسرتهم واستحرّ القتل فيهم، فقُتلوا أبرح قتل في رؤوس الجبال، وبطون/ الأودية والتلال. وفرّ[116] الدجّال المارق معتصماً بالوعر ومعه أحد عشر فارساً، فأدركه ـ وقد توسّط في

406

دش 225

.. لكنّ المنصور يتصدّى له بنفسه..

407

(115) الغلاصم ج الغلصمة: العنق.

(116) في النسخ: ومرّ.

الوعر ـ خمسة فرسان من الأولياء، فيهم زيري بن مناد الصنهاجيّ، فعقر الصنهاجيّ جواد أبي يزيد، وأركبه أصحابُه على برذون آخر. وقتل ابن للدجّال اسمه يونس، وطُعن اللعين طعنتين، إحداهما بين كتفيه والأخرى في وركه ومال في سرجه فاحتضنه بعض رجاله[117] ونجّاه الوعر وخلّصه أهل البلد فخلص إلى يومه المقدّر. وطردهم الأوليـاء أكثر من أربعين ميـلاً حتى كلّت الخيول ومـلّ الرجـال وتقصّدت الرماح، ونزل بأكثر الأعداء الحين المتاح. وجزّ في ذلك * اليوم ألفٌ وسبعون رأساً وُجّه بها إلى المهديّة، وغنم الأولياء من الخيل والسلاح (ر 165 أ) ما يكثر عدّه ويبعد حدّه.

.. فيبطل خطّته...

.. ويقتل ابنه يونس

دش 226

وفي هذا اليوم يقول الداعي جعفر بن منصور اليمن، أبو القاسم [بن الحسن] بن فرح بن حوشب[118] نضّر الله وجهه، وكان حاضراً تلك الوقعة:

(بسيط)

إشادة جعفر بن منصور اليمن بوقعة المسيلة

يَهْنأْ لك النصر فيما رمتَ من سبب ... يا سيّدَ الخلق من عجْمٍ ومن عرَب

في كـلّ يوم يُـرينا الله معجـزةً ... من نصره لك، تجلو غمّة الكرب

وأنت في كـلّ حـال تبتني رُتَبـا ... في المجد، فازدَدْ عُلا في المجد والرتب

* * *

408

/يـومُ المسيلة يوم لا كفـاء له ... ولم يكن قبله في سالف الحقب

5 لمّا غدا المارق الدجّال مختبلا ... كالكلب في سخفٍ معداه في الكلَب

يـروم غـرّة جيش كـان أبـرزه ... نجل النبوّة مثل العارض اللجب

(117) سقوط أبي يزيد من فرسه وإصابته بجروح في الكتف والفخذ، ذكرهما ابن حمّاد، 31 في وقعة «فحص باتنة» (أو «يوم الرؤوس» لأن الثوار فقدوا عشرة آلاف قتيل من بني كملان ومزاتة). ولم يقل ابن حمّاد إن يونس بن مخلد لقي حتفه في هذه الوقعة، بل قال إنّه خلص أباه من قبضة زيري بن مناد.

(118) في الجميع: جعفر بن منصور اليمن أبي القاسم.. ممّا يوهم أنّ كنية «أبو القاسم» هي لمنصور اليمن. والتصحيح من بوناوالا، 70.

فعنـد منصـرَف القوم آستَغار على   أواخر الجيش بالتهـويل والصخب

دش 227 * وسيّـد الخلق إسماعيـل حينئذٍ   في موكب الخيل مثل البدر في الشهب

فكـرّ، همّته كـالليث، معتـزمـاً   على متـابعة الـدجّال بـالـطلب

10 واستنهض الجيش عزماً عن معسكره   وساور الحرب فيمن كان لم يغب

فارتاع بعض نواحي الخيل واضطربت   وسيّـد الخلق لم يفشل ولم يهب

بل صارم كحسام الجدّ منصلت   يمضي فيثبت فيه كلّ مضطرب

وسيف جدّيه ـ أعني ذا الفقار ـ به   إلى الرشاد استقادت جَمرةُ العرب

في كفّه، وله النصـر الذي لهمـا   من ذي المعارج، فرض جاء في الكتب

15 مشمّـر بلبـاس الحــرب مـدّرعٌ   بجَوشن من حديد شِيبَ بالذهب

يُحيي القلوب سروراً، والعيونَ، به   كالشمس والليث عند البِشْر والغضب

ثمّ استـلاذت به أنصـاره زُمـراً   معاً، كما لاذت الأفلاك بالقطب

دش 228 * ولم يزل، مذ بدا للناس، عادتُه   إذا غدا ناهضاً بالجيش، لم يخب(119)

وعادة المارق الـدجّال عنـه إذا   تـراءت الفئتان، النكصُ للعقب

409 20 لم يلقَه عسكرُ الدجّال في بلد   إلاّ ثنى رأسَه قَسرا على الذنب

فاشتدّ حرّ وطيس الحرب وآستعَرت   ترمي بنيها معاً بالجمـر واللهب

فأدبرت عُصب الدجّال وانقلبت   تحتَ السيوف الصوادي شرّ منقلَب

يحـاذرون فـلا يغنيهمُ الحـذر   ويهـربون فـلا ينجُونَ بـالهـرب

وكيف، لا كيف، ينجو من يكون له   مولى البريّة إسماعيلُ في الطلب؟

25 فعندها صُرِع الدجّـال وابتدرت   له الحرابُ كصَوب العارض الخضب (ط276)

حتى آتّقاها برِجس من عصابته   فمـزّقتْه حـدادُ السمـر والقضب

دش 229 وراغ من وقعها الدّجّـالُ ناحيـةً   ومرّ يهوي بوجهٍ تاعس ترب *

ولّى وأفلتَ من حدّ الظبى هرباً   إذ كان في قتله الميقات لم يجب

ولّى إلى مــدّة فيهـا منيّـتُـه   بعاجل من عقاب الله مقترب (ر165ب)

---

(119) في «هـ»: مزيداً للبأس. وفي «ر»: بمزيد البأس. وفي دش: مزيداً للبأس. واخترنا قراءة المطبوع.

30 وظلّ أصحابُه صرعى كأنّهمُ أعجازُ نخل قديم العهد منقلِب
مُقَتَّلين ألوفاً في الفلا جَزَراً مطرَّحين على الأذقانِ والركب
وأصبحت هامهم مجموعة فِلَقاً كأنّها الحنظلُ المنقوف في السهُب[120]
راحوا بخزيٍ وهونٍ غير منصرم وفاء جند الهدى بالعزّ والسلب

* * *

يا ابنَ الأئمة، يا تاجَ النبوّة، يا من لا نظير له في المجد والحسب
35 لا زلتَ في نِعمٍ تترى سوابغُها وفي سرورٍ طوالَ الدهر والحقب
الله أعطاك مُلكاً وارتضاك له لمّا اصطفاك بلا شكّ ولا كذِب
/ فالحمد لله حمداً دائماً أبداً حمدَ آمرىء في مزيد الله مرتقِب 410

اعتصام أبي يزيد بجبل كيانة..

وأقام الإمام المنصور بالله (عم) بالمسيلة إلى سلخ شهر شعبان (25 مارس 947)، والعساكر توافيه من كلّ جهة وتأتيه من كلّ وجهة، وهو يسأل عن خبر أبي يزيد حيث صار، ويتطلّع إلى ما يأتي من قبله من الأخبار، حتى عرف أنّه تحصّن بموضع من جبل عقار تحت قلعة شاكر[121] وهي متّصلة بقلعة كيانة، وقد اجتمع إليه جماعات كثيرة من الإباضية، ممّن بذل نفسه واعتقد جهاد المسلمين فرضاً عليه لا ينبغي له تركه، وقد اعتصموا بجبال كيانة، وهي جبال شامخة ومسالكها وعرة ضيّقة، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ، فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ (الحشر، 2)، وسبّب وليّه لطلبهم حيث ذهبوا.

---

(120) فلقاً: قطعاً مفلوقة. والشاعر لا يذكر مقتل يونس بن مخلد، رغم الصبغة الاستعراضية الوصفيّة التي غلبت على هذه المدحة. والشهب: الفَلَوات.

(121) قلعة شاكر: عند ابن حمّاد، 32: «قلعة تناكر وتقول البربر للموضع الآن شيكر»، إلّا أن الذي حاربها هو قيصر الفتى، وقد أرسله المنصور للتغلب على هوارة الغدير والانتقام منهم لأنهم آووا أبا عمار الأعمى بعد وقعة عين السودان. والتقارب في الخطّ بين تناكر وشاكر يبعث على الخلط بين الكلمتين.

وسار الإمام (عم) من المسيلة يوم الجمعة غرّة شهر رمضان (26 مارس 947) في جموع عظيمة وجنود كثيرة، فنزل بموضع يقال (ط 277) له «قلعة الحجارة»[122] بينه وبين محطّ أبي يزيد مسافة ستّة أميال. وأصبح من غد، يوم السبت، فركب في زيّ الحرب، عليه جوشن وهو متقلّد بذي الفقار، وأمر الناس أن يركبوا في عُدّة الحرب، وسارت القبائل حوله/ طوائف طوائف، وقبائل قبائل، وترك المضارب مواضعها * وقصد أبا يزيد، فسلك سبلاً صعبة وطرقاً متضايقة بين جبال عالية في مواضع وعرة لا يسلكها إلّا واحد بعد واحد، ولا تسلكها الخيل. فنزل (عم) عن دابّته في بعض تلك الأوعار وسار راجلاً في أكثرها حتى أشرف على أخبية الدجّال ومضاربه. ورتّب الناس للقتال في ذلك الوعر بما وجد السبيل إليه، ووعظهم (ر 166 أ) وأمرهم بالتقوى ونهي النفس عن الهوى، وإخلاص النيّات في طاعة الله (تع) وجهاد أعدائه الذين استحلّوا سبي ذراريّ المسلمين، وأتوا بالمنكرات في الدين. ونهاهم عن النهب كي لا يشغلهم عن عدوّهم فيميلوا عليهم.

411

دش 231

.. ومسير المنصور إليه

وانتشب القتال في ميمنة الدجّال مع بني كملان، فاستعملوا الهزيمة[123] والمواضع ضيّقة، ثمّ عطفوا على الأولياء فوقى الله

---

(122) قلعة الحجارة: المذكور عند ابن حمّاد، 32، أنّ المنصور «نزل بموضع يعرف بالناظور، وهو موضع معروف بأروس من جنات القلعة». ويعني ابن حمّاد قلعة قومه، وكان من معالمها قصر «العروسان» الذي قد يكون اسمه اتخذ من اسم «أروسن» هذا. ولابن حمّاد شعر رقيق في الحنين إلى موطنه رواه التجاني، 116:

أين العروسان، لا رسمٌ ولا طلل   وأين ما شاد منه القادة الأول؟

ولعلّ قلعة الحجارة هي الناظور.

(123) فاستعملوا الهزيمة: لعله يعني أنّهم تظاهروا بها حتى يتبعهم جنود المنصور فيتفرّقون ويسهل الرجوع عليهم بالقتل.

شرّهم. وعظم القتال، وتكافحت الأبطال، وصارت نيار[124] الحرب مضطرمة فلا تسمع الأذان إلاّ همهمة. ونظر المنصور بالله (عم) إلى موضع الدجّال فقصده لا يعرّج عنه ولا يلوي على شيء دونه، وقد سلّ ذا الفقار. فترك الدجّال أخبيته وطلع به غزاته وبأولادهم ونسائهم/ إلى جبل منيع بإزائهم. فأمر الإمام بإلقاء النيران في أخبية أبي يزيد وإشعالها لكي لا يشتغل الناس بها *، واشتدّ الحرب مع بني كملان، وقد انهزموا وهم يراجعون القتال، ويمسكون هزيمتهم حالاً بعد حال، ويتعطّف منهم الكماة والأبطال، والإمام (عم) في إثرهم.

هروب مخلد إلى قمّة الجبل

412

دش 232

ووجد الناس في أخبية أبي يزيد ومضاربه من الإبل والكراع والرقيق، ومن أمتعة إفريقية وخزّها وديباجها، ما لا يوصف. واشتغل الناس بالنهب، وكانوا يبادرون ما لم تصل إليه النار، وكلّ من أثقل ظهره (ط 278) بالغنيمة انصرف عن موضع القتال، والإمام (عم) ومن خلص معه في طلب بني كملان حتى وصلوا إلى أخبيتهم، وكانت في مكان بين الجبال لم يشعر الأولياء به. فأخرجوا منها أولادهم ونساءهم، وساقوهم بين أيديهم، وهم يكافحون عنهم حتى انتهَوا إلى قلعة شاكر، وهي بالقرب منهم، وهي متمنّعة شامخة، وأسلموا أخبيتهم (ر 166 ب) وما فيها. وأمر الإمام بإحراقها فاشتعلت النيران وثار الدخان، وأظلم الجوّ واشتدّ الحرّ. ووجد الناس فيها من الأنعام والرقيق وديباج إفريقية أكثر/ ممّا وجدوا في أخبية أبي يزيد. واشتغل الناس بنهبها، فأمر الإمام بردّهم، وعقر الدوابّ والجمال، وقَتل من أصيب معه شيء من النهب من الرجال. فما منعهم ذلك عن

المنصور يضرم النار في أخصاص الثوّار..

413

(124) هكذا في الجميع، ولعلها جمع «نير» في معنى الشدّة: حرب ذات نيرين. كما قد تكون محرّفة عن نار أو نيران.

الانتهاب، ولم يبقَ مع الإمام إلّا عدِّة قليلة، ثمّ تراجع كثير من الناس إليه.

. . ولكنّ ذلك لم يردع جنده عن النهب
دش 233

وحين رأت المارقة اشتغال العسكر بالنهب، وأنّه لم يبق مع الإمام إلّا القليل، طمعوا فيه وفيمن معه، فاخترطوا سيوفهم وكسّروا أجفانها ووصّى بعضهم * بعضاً بالصبر، ووعدهم [أبو يزيد] بالغنيمة وكرّوا على من صار مع الإمام (عم)، فلا يُسمع إلّا وقع السيوف، ووخزُ الرماح، واشتدّ الكفاح، وعلا بعضهم على الجبال، وكانوا يرسلون الصخور. وأحاط القتال بالإمام ومن معه، وكانت جنوده كلّما أرادوا الجولة أوهمّوا بالهزيمة لم يجدوا أمامهم إلّا تلك النار المشتعلة في الأخبية فيرجعون إلى الإمام ويلوذون به، وكان خوفهم من النار أعظم من خوفهم من العدوّ، وكلّما أقبل العدوّ من ناحية قالوا للإمام: «هذا العدوّ!» فيميل عليهم بوجهه ويكُرّ عليهم بسيفه فيقتل ويجرح، وينهزمون ولا يحتملون رؤيته، وكلّما/ رأوه، ألقى الله الرعبَ في قلوبهم. فتجادلوا بالسيوف حتى تفلّلت، وتشاجروا بالرماح حتى انكسرت، وفترت الأيدي، وأهلك الفريقين العطشُ، مع كثرة الأنهار في ذلك المكان، وكاد أن يتفانى الفريقان. وكان ذلك اليوم شديدَ الحرّ عظيم الأمر. فنزل الإمام (عم) عن ظهر جواده وشرب من الماء بيده، وأخذ قوساً فرمى وهو جالس فقَتل وجَرح، وتباعدت عنه البربر قليلاً، فركب فرسه. ودامت الحرب، وما زال الطعن والضرب حتى اصفرّت (ر 167 أ) الشمس فملّ الفريقان، ووقفت الخيل وكَلّ السلاح *، وعجب البربر من صبر الإمام (عم).

414

ثبات الإمام في القتال

دش 234

ورجع (صلع) على طريقه التي أقبل منها، والقتال قـائم، والكفاح دائم. وفرّق البربر رجالَهم على الجبال الشامخة ليرسلوا الصخور من أعاليها على من يمرّ بالطريق التي تحتها ويسلك فيها. فحين صار الإمام (عم) بالقرب من المكان الوعر الضّيّق الذي لا

ينجو من يمرّ تحته من الصخور التي ترسل فيه، نادى منادٍ من ناحية العدوّ وقال: «إنّ عليَّ نعمةَ الأمير إسماعيل ونعمة آبائـه، وهذه طريق صعبة ضيّقة، وقد ترصّد العدوّ/ بالحجارة، فلا تسلكوها، وجوزوا هذه الـطريقَ»، وأشار إلى طـريق أخرى. وقيـل إنّه من أصحاب خليل بن إسحاق، ويُعرف بمحمـود[125]. فتنكّب الإمام (عم) عن تلك الطريق وسلك الطريق التي أشار إليها ذلك الرجل، وتخلّص الجيش بأسره، ووصل الإمام إلى محطّته غانماً سالماً.

415

وأُوقدت المشاعل بين يديه، وجعل سفهاء العسكر يشتُمون من ركَن إلى النهب ويسلُقونهم بألسنتهم. فنهاهم الإمام عن ذلك وقال: «لا يُعيَّرْ أحد ولا يُسبَّ، فإنَّ الأمر عظيمٌ هائل، وإنَّ الخلل دخل على القوم إذ خالفوا أمرنا». وسمّى أهل المغرب هذا اليوم لشدّة بأسه وعظم هوله «اليوم العظيم»[126].

هاتف يثني المنصور عن طريق مخوفة

وأمر الإمام (عم) بجمع النهب، فأتى الناس به ولم يبق منه شيء، فاصطفى الخيل * والأنعام، وأمر بما كانت النار تحـرقه فأُحرِقَ، جزاءً للذين انتهبوه بما صنعوا، وعقاباً لهم بما خالفوا من أمره وضيّعوا.

دش 235

وأوى الدجّال المارق إلى قلعة كيـانة، وهي أحصن تلك الجبال وأمنعها، ليس لها إلاّ مسلك واحد وطريق متوعّر على ظهر (ر 167 ب)

---

(125) لم يُذكر هذا النصير المجهول عند ابن حمّاد، كما لم يذكر إرسال الصخور على جنود المنصور

(126) ابن حمّاد، 31، يسميه «يوم الحريق» لا اليوم العظيم ويختصر الأحداث، فلا ذكر للهاتف من أصحاب خليل. وبالعكس، يذكـر قدوم «أبي يعقـوب بن خليل» ـ ولعله ابن للقائد المقتول ـ في خمسة وعشرين مـركباً إلى مـرسى الدجاج (بين الجزائر وبجاية). ويخالف أيضاً في اسم المكان: الناظور لا قلعة الحجارة. ويوافق في التاريخ: الجمعة غرّة رمضان والسبت ثانيه.
وعند المقريزي وغيره، يسمى «يوم الخصوص».

جبل منيع لا يُرام مسيرة يوم، ثمّ ينتهي إلى رمال، منها كانت تأتيهم

416 الميرة (ط 280) / . وسأل الإمام (عم) الأدلّاءَ عن السلوك إلى قلعة كيانة،

فكلّهم ذكروا ما هي عليه من المنعة والمسالك الوعرة. فأقام (عم)

حصار قلعة كيانة

بمناخه بقلعة الحجارة شهرَ رمضان (مارس - أفريل 947) يستخير الله سبحانه.

ووفَد جفنةُ الخادم بحشد كتامة يوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضان (غرّة أفريل 947)، ومعهم ثائر كان ثار ببلد كتامة من أرض مسالتة من كتامة، وادّعى النبوّة وأحلّ المحرّمات. فأمر الإمام بعض قرابة ذلك الرجل فقتله بعد أن أُشهرَ وطيف به وعرف الناس كفره ونُكرهَ[127].

المنصور يهيّىء القفص لأبي يزيد

ولمّا كان يوم السبت لتسع خلون من شهر الله المعظّم (3 أفريل 947)، أمر الإمام بعمل قَفَصٍ من خشب محمول على بكرتين وقال: «إنّي سوف أدخل مخلداً المارق في هذا القفص

دش 236

وأجعل معه قردين». فعجب الناس من ذلك وكثر * قولهم فيه، فمن منكر ومستبشر، حتى كان كما ذَكَر (عم).

وجاءت البُشرى إلى الإمام يوم الخميس لأربع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان (8 أفريل) أنّ قيصر الخادم وزيري بن مناد ملكا على غدير وان[128] قهراً بالسيف، وكان الإمام أرسلهما في

417 جحفل كثير الخيل/ والرجال. وأقبلت القبائل يطلبون الأمان، فكان الإمام يخلع عليهم ويحسن إليهم.

---

(127) لم يذكر ابن حمّاد هذا الخبر، وذكره ابن الأثير، 311/6 باقتضاب دون تعيين القائد.

(128) غدير وارّو أو وان: هو غدير هوارة الذي مرّ ذكره (هامش 111). وقد ذكر ابن حمّاد، 32، هذه الحملة التأديبيّة من قيصر وزيري، وقد قهرا بها هوارة الغدير، ثم أهل قرية المِرى (المرآة) ثم أوسجيت (أولاد عقلة اليوم).

وأمر بابتناء مصلًّى بقلعة الحجارة ليصلّيَ فيه العيد، لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان. وركب (عم) بقيّة ليلتين من الشهر (22 أفريل) في عشرة آلاف فارس، وسار في طريق متوعّرة، وأودية منخفضة، وكان يتسنّم جبلاً بعد جبل، وينزل في كثير منها عن فرسه، حتى وقف تحت قلعة كيانة التي صار إليها المارق الدجّال، فوجد فيها موضعاً ضيّقاً، فأبصره ورجع إلى معسكره (ر 168أ).

المنصور يصلّي صلاة العيد تحت قلعة كيانة
دش 237

ولمّا كان يوم الأحد غرّة شهر شوّال من سَنة خمس وثلاثين وثلاثمائة (25 أمريل 947) ركب (عم) إلى المصلّى الذي بناه فصلّى بالناس صلاة العيد ورقي إلى المنبر وخطب فقال *:

«باسم الله الرحمان الرحيم. ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ، وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأنعام، 1)، إلاهاً معبوداً، وربّاً محموداً، لا نتّخذ من دونه إلاهاً، ولا نُشرك به شيئاً.

«الحمد لله الذي ﴿ يُمْسِكَ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَىٰ ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيم ﴾ (الحج، 65).

«الله أكبر! الله أكبر! لا إلَه إلاّ الله. والله أكبر! ولله الحمد. ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا/ إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ (الإسراء، 108)، ﴿ سُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ، وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ (الروم، 17 - 18)، ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَامٌ عَلَىٰ ٱلْمُرْسَلِينَ، وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ (الصافات، 180 - 182).

418

«الحمد لله أوّلاً قديماً لم يزل، وآخراً باقياً لم يَحُل، وعالماً حكيماً لم يجهَلْ، وجواداً كريماً لم يبخَلْ، وسعت رحمته كلَّ شيء فلا يقنُط منها إلاّ الضالّون، وفطر بريّته لعبادته لا يستنكف عنها إلاّ

الخاسرون، وثبتت حجّته بحسن دلالته فلا يُنكرها إلّا الجاحدون. خشعت له النفوس بتعظيمها، وأذعنت له القلوب بخشوعها، وانحسرت الأبصار دونه عن مرامها، وسلّمت لعزّه القوى بعجزها، وشهدت له العقول بفطرتها أنّه كما وصف نفسه حيّ قيّوم ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ (البقرة، 255)، ليس كمثله شيء ﴿ لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ، وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام، 103)، جلّ ثناؤه، وتقدّست أسماؤه وعزّ بهاؤه وعلا علاؤه.

دش 238 «وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا * شريك له، وأشهد أن محمّداً عبده ورسوله المصطفى، وأمينه المرتضى، أرسله بالنور الساطع، والبرهان القاطع، إلى جميع بريّته/ شاهداً لمن كان قبله من الرسل 419 ومصدّقاً لما بين يديه من الكتب، ودليلاً على الله، وداعياً إليه، على حين فَترة من الرسل، وانقطاع من الوحي، وطموس من الحقّ، وضلال من الخلق، فبلّغ عن الله رسالته، وصدع (ط 282) بأمره، ودعا إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، وجاهد [في] الله حقّ جهاده، وأدّى الأمانة إلى عباده، وعبَدَ ربّه حتى أتاه اليقين، صلّى الله عليه في الأوّلين والآخرين، وعلى آله الطيّبين الطاهرين، الأوصياء المنتخَبين، الكرام المهديّين.

خطبة عيد الفطر سنة 335

«أوصيكم عبادَ الله بتقوى الله الذي لا غَناء بكم عنه، ولا موئلَ لكم دونه في ممات ولا محيى، ولا آخرة ولا دنيا، وابتذال أنفسكم فيما يُحبّ ويرضى، ويقرّبكم إليه زلفى.

«ألا إنّ هذا يومٌ جعله الله لكم عيداً ومنسكاً، انقضى فيه الصومُ ودخلت به أشهر الحجّ، فحاسبوا أنفسكم رحمكم الله! فمَن ذكر خيراً فلْيحمدِ الله وليزدَدْ، ومن ذكر تقصيراً فليستعتِبْ، أو سَوْءاً فلْيتب، فإنّ الله تعالى: ﴿ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ، وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ، وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الشورى، 25).

«وقد فرض الله عليكم زكاة فطرتكم، وجرت به سنّةُ نبيّكم سيّدُ الأنبياء، صلّى الله عليه وعلى آله. فَلْيُؤدِّ/ كلّ امرىء منكم عن عياله، ذكورِهم وإناثهم، صغيرهم وكبيرهم، صاعاً من برّ أو صاعاً من شعير، أو صاعاً من تمر، من طعامه، لا يأكل * من شيء ويُؤدّي من آخر، فإنّ ذلك محرّمٌ عليه وغيرُ مُجزٍ عنه.

420

دش 239

«عصَمنا الله وإيّاكم بالتقوى، واستعمَلَنا وإيّاكم فيما يُحبّ ويرضى، وجعل الآخرةَ خيراً لنا ولكم من الأولى».

الخطبة الثانية(129)

«باسم الله الرحمان الرحيم. الحمد لله المتوحّدِ بربوبيّته، المتفرّدِ بوحدانيّته، الأوّل القديم، الحيّ القيّوم أحمَدُه بمحامده كلّها، على أصغر نِعَمه وأجلّها، حمداً يوجب حمداً على حمد، للتوفيق منه والرشد.

«وأشهد أن لا إلٓه إلاّ الله وحده لا شريك له، إخلاصاً لتوحيده، واعترافاً بربوبيّته.

«وأشهد أن محمّداً عبده (ط 283) انتجَبَه، ورسولُهُ ابتعثَهَ، تمّت بالوحي نبوّته، ونطق البرهان بحقيقة رسالته، ﷺ، وأعلى ذكره، وسلّم وكرّم.

«أيّها الناس، إنّ الله أمركم بأمر (ر 169 أ) بدأ فيه بنفسه، ثمّ ثنّى بملائكته فقال: ﴿ إنَّ اللّه وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَبِيّ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ (الأحزاب، 56). اللهمّ، صلّ على عبدك ورسولك صلاةً تامّةً باقيةً، تزيده كرامةً إلى كرامَته/ وشرفاً إلى شرفه، وصلِّ على جميع أصحاب الكساء،

421

(129) أورد الداعي إدريس الخطبة الثانية دون روابط ولا تعليق.

الطاهرين الأزكياء: عليّ أمير المؤمنين، وفاطمة الزهراء، سيّدة نساء العـالمين، والحسن والحسين، الأكـرمين الأبـرّين، وعلى الأئمّـة المهديّين من ذرّيّة الحسين، أعلام الهدى، وبدور الدجى، وسادات الورى، أولياء الرحمان، وحجج الأزمان، ودعائم * الإيمان.

دش 240

«اللهمّ، صـلّ عـلى وارث كلّ مجد وثناء، وفضل وعـلا، عبـدك المرتضى، ووليّك المصطفى، وخليفتـك العدل الـرضى، عبـد الله أبي محمّد الإمـام المهديّ بـالله أمير المؤمنين، الـذي استضاءت بنوره الآفاق، وعمّ به الإشراق، شمس الورى، وبدر الدجى، وكاشف الضياء، والمحيي لما درس من معالم الهدى، بأفضل صلواتك التامّات، وبركاتك الناميات، وكراماتك الباقيات.

الصلاة على النبيّ وعلى الأئمّة

«اللهمّ، وصلّ على وليّ عهده في حياته وخليفته بعد وفاته، المنتجب المجتبى، المكرّم المرتضى، محمّد أبي القاسم الإمام القائم بأمر الله، ابن المهديّ بالله أمير المؤمنين، حـامل حجّـة الجبّار، ووليّ الأبرار، وسيف الله البتّار، ووارث سيف جدّه ذي الفقار، صلاةً تفضل صلاة المصلّين رافعة في علّيّين، خالدة في الغابرين، باقيةً إلى يوم الدين.

«اللهمّ، إنّي عبدك ووليّك أنعمتَ عليّ فأعظمت، وأفضلت فأجزلت، ورفعتني/ وكرّمت، بما أفضيتَ إليّ من خلافة الآبـاء الأكرمين، الأئمّة المهديّين، ونصبتني علَماً للدين، وأقمتني إماماً للمؤمنين.

422

«اللهمّ فأتمم عليَّ نعمتَك، كما أتممْتَها من قبلُ على الآباء والأجداد، الأكارم الأمجاد، حمَلةِ علمك، وخُزّان وحيك، وأُمنائك على خلقك، وصَفوتك من عبادِك، وخيرتك من آل نبيّك * الذين جمعت لهم شرفَ الدارين، وفضلَ المقامـين.

دش 241

الابتهال إلى الله طلباً لعونه على العدوّ

«اللهمّ، وأعنّي على رعاية عهدهم (ر 169 ب) وإنجاز وعدهم (ط 284) وقضاء دُينهم، وتمام أمرهم، وإحياء ذكرهم، وإعزاز أوليائهم، وإذلال أعدائهم. واجمع بيني وبينهم، اللهمّ، في مستقرّ رحمتك، وقرار جنّتك، ومجاورة نبيّك، مع النبيّين والصدّيقين، والشهداء والصالحين، آمين يا ربّ العالمين.

«اللهمّ، إنّ تغرّبي في البلاد، وهجري للمهاد، لقضاء ما فرضتَه عليّ من الجهاد، في سبيلك ونصرة دينك، وتحصين أمّة رسولك.

«اللهمّ، وافتح لي فتحاً مبيناً يسيراً، واجعل لي من لدُنك على عدوّي الذي هو عدوّك سلطاناً نصيراً، إنك على كل شيء قدير.

«اللهمّ، اغفر للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، ولمن هو لاحق بهم من بعدهم غير ملحد في أسمائك، ولا معادٍ لأوليائك،/ ولا مُوالٍ لأعدائك. وأكمل أجرهم، وسلّم لهم أديانهم، حتى يَلْقوك مُوفين بعهدهم، مستوجِبين لثوابك، إنّك أنت الغفور الرحيم. ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل، 90)، والحمد للّه ربّ العاملين».

423

ونزل (عم) فركب فرسه ورجع إلى مضربه *.

دش 242

تلميح المنصور إلى وفاة القائم في خطبته...

ونقول إنّه قد أبان في خطبته هذه وفاة أبيه الإمام القائم بأمر الله، قدّس الله روحه، بقوله: «اللهمّ إنّي عبدك..» حتى قال: «.. بما أفضَيْتَ إليّ من خلافة الآباء الأكرمين الأئمّة المهديّين، ونصبتني علماً للدين، وإماماً للمؤمنين»، إذ لا يكون إماماً ولا خليفةً إلّا بعد انقضاء عمر والده ومصيره إلى جوار الله ربّه.

وفي مثل ذلك، ذكر منصور الكاتب العزيزيّ الجوذريّ قال: «وصل كتاب من الإمام المنصور بالله (صلع) إلى جوذر الأستاذ بأوامر وأحكام وحوائج، فقرأت في هذا الفصل تصريح المنصور بموت القائم (قس). وذلك أنّه أوصى في الكتاب بصيانة مخلّفي القائم بأمر الله (عم) وإجراء رسومهم حسب ما كانت عليه (ط 285)، وهذه نسخة الفصل:

424 .. وكذلك في رسالته إلى جوذر

وأقولُ بعد الصبر والاحتساب: / الحمد لله على جميع الأحوال. قد تعلم اللهم أنّي طالما ناجيتُك في ظُلَم الليالي مبتهلاً متضرّعاً إليك (ر 170 أ) أن لا تُشهدَني فقدَه، ولا تُحيِيَني بعده، فأبى قضاؤك الماضي، وحكمك النافذ. فصبِّرْني على ما [به] ابتَلَيْتَ، ورضِّني بما قَضَيْتَ. وصلوات الله وبركاته ورحمته على جسمه المطهّر وروحه المقدّس في الدنيا والآخرة.

(قال منصور) فعند ذلك علِم الناس أنّ القائم بأمر الله قدّس الله روحه، وصلّى عليه وعلى آبائه وأبنائه الطاهرين، قد توفّي»[130].

رجع الحديث:

وأصبح المنصور (صلع) اليومَ الثاني من الفطر لليلتين خلتا من شوّال، فأمر بالنداء في العسكر بالرحيل إلى الموضع الذي تحت قلعة كيانة، فعظم ذلك على من في عسكره لصعوبة المسالك وضيق الأمكنة. ورحل (عم) من يومه فنزل تحت قلعة كيانة في قبليّها، على مقدار غُلوّ سَهم، والدجّال وأصحابه ينظرون إليه من قُلّة القلعة. فحين رأوا نصب الفازات، أيقنوا بالهلاك، وعلموا أنّه لات حين مناص، وماج بعضهم في بعض، وأسقط كثير من نسائهم

---

(130) سيرة جوذر، 46 وقد سقط هذا الفصل من مقتطفات الدشراوي.

الأجنّـة. وهطلت تلك العشيـة السماء بـالأمطار، وكـانت البروق اللوامع/ والرعود الهائلة. ولمّا كانت العشية وغابت الشمس، أمر الإمام (عم) عسكره أن يبرزوا بخيلهم ورَجْلهم إلى ناحية العدوّ لتنقطع من العسكر أطماعهم، وفعل ذلك ثلاث ليالٍ. ثمّ رتّب العسس بالليل والنهار على مجامع الطرق لِئَلّا يدخل أحد إلى القلعة بميرة ويصلَهم بحاجة[131].

425

المنصور ينظّم حصار كيانة

ولمّا كان في اليوم الرابع، يوم الخميس لخمس خلون من شوّال (29 أفريل 947)، أمر الإمام (ط 286) بحفر خندق على معسكره في سفح القلعة في السهل والوعر، وقسمه على قبائل كتـامة وعلى الزويليّين، وجماعات الجند والعبيد، وأخذ معولاً بيده فحفـر به مبتدئاً. فحين رآه الناس * سارعوا وأخذوا في الحفر. وركب (عم) آخر النهار لينظر ما حفر في الخندق، وسار لقطع الأشجار التي بسفح الجبل من الزيتون والثمار.

دش 243

ورأى المارقين قد أقبلوا للقتال فأمر بقتالهم، وانتشب القتال فقتل جماعة منهم بالنبل. ثمّ صرف الناسَ عند المساء وصلّى بهم المغرب تحت القلعة وانصرف (عم) إلى مضاربه.

خرجة مفاجئة للثوّار تبوء بالفشل

ولمّا رأى المارقون ما عليه الناس من حفر (ر 170 ب) الخندق، عملوا على أن يبيّتوا العسكر من ليلتهم، وعلم ذلك/ الإمام، فأمر الناس كافّة أن يخرجوا من معسكـرهم وأن يبيتوا في مصـافّهم بخيلهم ورجلهم، وأن يلزموا الصمت والوقار، فإذا دنا العدوّ منهم عرّفوه بذلك. وأقبل العدوّ في أوّل الليل فصاحوا فوجـدوا العسكر في

426

(131) ذكر ابن حمّاد، 30، أنّ الميرة كانت تأتيهم من سدراتة وبنطيوس من جهة بسكرة. فأمر المنصور ابن خزر بالإغارة على سدراتة فانقطعت الميرة عن أبي يزيد.

مصافّهم صُموتاً لم يكلّموهم كلمة، ولا وجدوا فيهم فـرصة ولا غفلة، فرجعوا إلى قلعتهم.

وفي يوم الأربعاء لإحدى عشرة خلت من شوّال (5 ماي 947) نزلت جماعة من المارقين يتعرّضون للقتال، فخرجت إليهم طائفة من جند الإمام (عم) واشتدّ القتال بينهم. وركب الإمام بعد العصر فوقف تحت القلعة وما زال القتال[132]، وقُتلت جماعة من المارقة وكثرت فيهم الجرحى. وصعد الإمام إلى بعض * القلعة فوقف قليلاً، وأمر الناس بالانصراف فانصرفوا إلى معسكرهم.

دش 244

المنصور يضيّق الحصار. . .

ولثلاث عشرة بقيت من شوّال يوم الثلاثاء (11 مـاي) أمر الإمام (عم) عسكره بالزحف نصف النهار إلى القلعة. فترجّل الناس وصعِد الإمام إلى بعض القلعة وصلّى العصر هنالك. وبُسط له بساط (ط 287) فجلس عليه طويلاً والناس في القتال. وأخذ قوساً فرمى عنها بأَسهم، وحرّض الناس. فلمّا/ كان المغرب أمـرهم بالانصـراف فانصرفوا إلى معسكرهم، وقد قتلوا من العدوّ وأثخنوهم جراحاً. وعاد الإمام إلى مضربه جذلاً مسروراً.

427

. . من غربيّ القلعة وشمالها. .

وبعث الإمام في تلك الأيّام قيصر وشفيعاً خادميَه وزيري بن مناد ليحصروا قلعة كيانة من جانب آخر فنزلوا بين غربيّها وشمالها، وكانت تلك الجهة فسحة للمارقة في رَعْي أنعامهم. فصارت القلعة بين العسكرين، وبين العسكرين أربعة أميال، فصارت المارقة في ضيق وحصر. ووجّه الإمام (عم) طارقاً ووصيفاً خادميه الصقلبيّين في عسكر كثيف لحصار قلعة شاكر[133]، وكانت آهلة معمورة، وفيها جماعة كثيرة من هوارة وغيرهم على مذهب أبي يزيد نكاريّة *.

دش 245

(132) يستعمل الداعي إدريس «ما زال» في معنى تامّ، أي دام وتواصل.

(133) قلعة شاكر: انظر ص 410 هامش 121.

وأمر الإمام (عم) يوم الجمعة لعشر بقين من شوّال (14 ماي) بالزحف (ر 171 أ) إلى قلعة كيانة وخرج (صلع) معهم وسار إلى سفح القلعة، وأمر بقطع شجرها، وكان بها شجر زيتون وثمار، فعظم ذلك على المارقين، ودام القتال إلى المساء.

.. ويقطع أشجارها وثمارها...

وحرّك الإمام عساكره للزحف يوم السبت ثاني ذلك اليوم فخرج الناس. وأرسلت/ السماء سِجَالها[134] فانصرف الناس. وسكن الغيث بعد صلاة الظهر، فخرج (عم) وأمر الناس بالزحف، فكان بينهم قتال عظيم مات فيه جماعة من المارقة رمياً بالسهام وطعناً بالرماح، وبسط للإمام بساط فقعد عليه. ودخل الليل وأوقدت المشاعل، وأمسى القتال إلى ثلث الليل ثمّ انصرف الناس. وما زال القتال مستمرّاً كلّ يوم إلى يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة (3 جوان 947).

428

ويقاتل الثوّار ليلاً ونهاراً

وجاء قوم من أهل قلعة شاكر سرّاً إلى الإمام فأحسن إليهم، ووعدوه بفتح القلعة وإدخال أصحاب الإمام إليهم، وتركوا رهائن منهم (ط 288)، وأمر الإمام أن يُدفع إليهم طبل. وأمر وصيفاً وطارقاً بالمصير إليهم[135]، فأدخلوا وصيفاً وطارقاً إليهم في جماعة من عسكر الإمام (عم) فملكوا القلعة وضربوا الطبل وأوقدوا النيران. فأمر الإمام عسكره بالتكبير وعرّفهم أنّ قلعة شاكر قد فتحت *. فعظم فتحها على أبي يزيد وأصحابه وكادت قلوبهم أن تطير جُبناً وجزعاً. وركب الإمام صبيحة الخميس إلى سفح قلعة شاكر، ونزل القوم الذين كانوا سبب فتحها فقبّلوا الأرض بين يدي/ الإمام، وهنّؤوه بالفتح وهو يحمد الله (تع) ويشكره، ويعدّد فضله ويذكره. وعفا عن سائر

استسلام قلعة شاكر صلحاً

دش 246

429

---

(134) سجال ج سَجل بالفتح: الدلو الكبيرة، أو الماء الذي في الدلو.

(135) قال المؤلّف منذ قليل إنهما أُرسلا لحصارها (ص 427).

أهل قلعة شاكر وأحسنَ إليهم وأجرى الوظائف عليهم. وأمر طارقاً فانصرف بالعسكر المنصور، وأمر وصيفاً بالمُقام في القلعة مع القوم الذين كانوا سبب فتحها.

وزحف مخلد بن كيداد المارق في ليلة الجمعة بعد فتح قلعة شاكر في أصحابه إلى خندق الإمام، وافترقوا على ثلاث فرق، وكان في الميمنة ابنه فضل، فقصد ناحية ملوسة وصنهاجة فوجد فيهم غرّة فكبسهم وقتل الحسن بن نصر الصنهاجيّ وأخذوا عليهم بنداً. وكان أبو سليمان الزويليّ في ميسرة المارقة فقصد جيملة ولهيصة فوجدهم حذِرين، وقاموا في وجهه فهزموه. وقصد أبو يزيد إلى باب الخندق وفيه الأولياء والعبيد، فثاروا في وجوههم وقتلوا جماعة من المارقين. وأمر الإمام (عم) أن لا يبرز من الخندق أحد، وأن يثبت الناس في مراكزهم ففعلوا، وانصرف الدجّال ومن معه خاسئين *.

زحف فضل بن مخلد وأيّوب الزويلي على معسكر ملوسة وصنهاجة، بدون نتيجة

دش 247

ووصل صبيحة يوم الجمعة مسراتة[136] أهل قلعة عقار، يسألون العفو والأمان على يد وصيف الخادم فأمّنهم الإمام (عم) ووصلهم وكتب السجلّات بالأمان لهم، وأمرهم أن يسلّموا ما كان بأيديهم من كراع وسلاح ممّا انتهبوه إلى وصيف، فأجابوا وفعلوا (ط 289).

430

استسلام أهل عقار صلحا

وركب الإمام (عم) إلى سفح قلعة كيانة يوم الثلاثاء لأربع عشرة بقيت من ذي القعدة (8 جوان 947)، ورمى عن قوسه بأسهم أصاب سهم منها رجلاً من المارقين فقتله. ونزل جماعة من قلعة كيانة ليرعوا دوابّهم في أوعار ممّا يلي معسكر زيري بن مناد

زيري بن مناد يستولي على دوابّ الثوّار

---

(136) مسراتة بطن من هوارة (انظر فصل هوارة بدائرة المعارف الإسلاميّة). ومرّ بنا (ص 405) اعتصام أبي يزيد بجبل عقار وانطلاقه منه إلى معركة يوم المسيلة. ويظهر من كلام المؤلف هنا أن قلعة عقار بقيت مساندة لأبي يزيد بعد معركتي المسيلة والخصوص.

الصنهاجي، فكبسهم زيري وأخذ عليهم آثني عشر برذوناً بسروجها، وأمر بها إلى معسكر الإمام (عم) فطيف بها في العسكر، ونظر إليها المارقون فساءهم ذلك.

الرمي بقوس اللولب

وأمر الإمام بقوس اللولب[137] فأحضرت إليه، وزحف إلى قلعة كيانة ورمى عن قوس اللولب بين يديه فأصاب رجلاً من المارقين بسهم فقتله. ونادى مناديه بالزحف من غد ذلك اليوم، فكان بين الناس قتال شديد، ومات خلق عظيم في ذلك اليوم، وأكثرهم من المارقين * أصحاب الدجّال. وأرسل الإمام إلى عسكره بعد العصر أن ينصرفوا فعادوا جميعاً إلى خندقه.

دش 248

431

الظفر بميرة موجّهة إلى المحاصرين

وفي يوم عرفة (غرّة جويلية 947) وردت رفقة عظيمة تحمل سمنا وعسلاً ليكون عيداً للمارقين، وأرادوا أن يصلوا بها ليلاً إلى القلعة ويدخلوه من بعض نواحيها فأضاء الصبح عليهم ولم يصلوا، وتسرّع الأولياء عليهم فانتهبوا (ر 172 أ) جميع ذلك.

ولمّا كان يوم النحر، يوم الجمعة لعشر خلون من ذي الحجّة (2 جويلية 947) ركب الإمام (عم) فرساً ورداً أحمر بجِفَافٍ[138] مذهّب، وقد لبس (عم) قباء أصفر وتعمّم عمامة صفراء وأرخى ذؤابته، وحفّ به أنصاره وجنوده وأولياؤه وعبيده، وانتهى إلى مصلّىً كان عُمل له قبل ذلك[139] فنزل وصلّى صلاة العيد، وارتقى منبراً كان بني له من الحجارة وخطب (عم) فقال:

---

(137) قوس اللولب: قوس يجذب وترها ويشدّ بواسطة آلة لولبيّة، لا باليد مثل القوس العاديّة (ملحق دوزي).

(138) قراءة تقريبيّة. والجفاف: الطرّة والذؤابة من الشّعر وغيره. واختار الدشراوي: بشفّاف، والمطبوع: بتجاف.

(139) يبدو أنّه غير المصلّى المذكور في عيد الفطر (ص 417).

«باسم الله الرحمان الرحيم. الحمد لله المتوحّد بالربوبيّة، المتفرّد بالوحدانيّة، المتعزّز بالقدرة والبقاء، المتجبّر بالعظمة والكبرياء، الأوّل بلا غاية، والآخر بلا نهاية (ط 290)، المتعالي عن تشبيه الجاهلين وتحديد الواصفين وتكييف الناعتين ودرك أبصار الناظرين[140].

«وأشهد أن لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله ﷺ، أكرمه بالنبوّة، واصطفاه بالرسالة، وحباه بالفضيلة، وابتعثه بالنور ساطعاً، وبالحقّ صادعاً، وبالهدى آمراً، وعن الكفر زاجراً، وعلى الأنبياء مهيمناً، ولمَا جاؤوا به مصدّقاً. فبلّغ الرسالة وهدى من الضلالة، وأنقذ من الهلكة، وأفهم معالم الدين وفرائضه، وبيّن حدوده وشرائعه، وجاهد في سبيل الله حقّ جهاده حتى أتاه اليقين، صلّى الله عليه في الأوّلين والآخرين، وعلى آله الطّيبين الطاهرين الأكرمين، الأئمّة المهديّين الكرام الأبرّين.

دش 249
432

خطبة المنصور في عيد الأضحى 335...

«أوصيكم عبادَ الله بما أوصيتُ به نفسي قبلكم من تقوى الله ومراقبته، والعمل بما يرضيه، ويقرّبنا وإيّاكم إليه، ففي تقواه رضاه، وبرضاه الفوز بالجنّة والنجاة من النار ﴿ وَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ (آل عمران، 185)، ﴿ وَمَا ٱلْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (الحديد، 20).

«ألا وانّ يومكم هذا يوم حرام من شهر حرام، يعظم على الأيّام: يوم الحجّ الأكبر، امتحن الله تبارك وتعالى فيه إبراهيم خليلَه، وفدى فيه من الذبح ولَدَه صلّى الله عليهما، وافترض على كافّة أهل الإسلام، الحجَّ إلى بيته الحرام، الذي جعله مثابة للناس وأمنا. فتقرّبوا إلى الله (تع) فيه (ر 172 ب) بما أمركم به. وأفضلُ ما أنتم

.. يحدّد فيها شروط الأضحية

(140) الشيعة مثل المعتزلة، ينفون الصفات، وبالتالي ينفون رؤية الله بالأبصار.

433 مقرّبوه إناث الإبل، وإناث البقر، وفحول الضأن[141]/. واجتنبوا المريض من الحيوان ومعايب العيون والآذان[142]، والمشوّه منها بالزيادة في خلقه والنقصان، فإنّها غير مقبولة منكم * بذلك جرت سنّة دش 250 نبيكّم، صلّى الله عليه وسلّم وعلى آله الأئمّة من ولده الأطهار الأبرار، عليهم أفضل السلام ﴿ لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا، وَلكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوىَ مِنْكُمْ ﴾ (الحجّ، 37).

«تقبّلَ اللهُ منّا ومنكم، وكتب لنا ولكم حجَّ بيته الحرام، والوصولَ إلى مشاهده العظام، ومواقفه الكرام، بإعزاز نصرنا وتمام أمرنا وإنجاز متقدّم وعده لنا، إنّه لا يُخلف الميعاد، ولا يعجزه ما أراد».

الخطبة الثانية:

«باسم الله الرحمان الرحيم. الحمد لله المبدىء المعيد، الكريم المجيد، الفعّال لما يريد، خالق الخلق، وباسط الرزق،

---

(141) يقول القاضي ابن رشد (بداية المجتهد، 416/1): ذهب مالك إلى أنّ الأفضل في الضحايا الكباش، ثمّ البقر، ثم الإبل، بعكس الأمر عنده في الهدي. وقد قيل عنه: الإبل ثم البقر ثمّ الكباش. ويقول القاضي النعمان (دعائم الإسلام، 183/2 رقم 665) نقلاً عن جعفر الصادق: أفضل الضحايا الإناث من الإبل، ثمّ الذكور منها، ثمّ الإناث من البقر، ثم الذكور منها، ثمّ الفحول من الضأن، ثمّ الموجأ منها (أي الخصيّ) ثم النعاج، ثمّ الفحل من المعز، ثمّ الإناث منها.

فكلام المنصور موافق للفقه الجعفريّ، وليس مخالفاً للفقه المالكيّ، ولعلّ هذا منه استدراج لأهل المغرب وتألّف لقلوبهم.

(142) القاضي النعمان (دعائم، رقم 668). عن عليّ (عم) أنّه نهى عن الأضحية المكسورة القرن، والعرجاء البيّن عرجها، والمريضة البيّن مرضها، والعجفاء التي لا تنقى (أي التي لا مخّ في عظامها) والعوراء البيّن عورها... ونهى النبيّ (ﷺ) عن أعضب الأذن والقرن.

ومنزل القطر، ومدبّر الأمر، وارث السماوات والأرض وما عليها، وإليه ترجعـون.

«الله أكبر! الله أكبر! لا إلٓه إلاّ الله.

«والله أكبر! الله أكبر! ولله الحمـد.

.. ويصلّي على أهل الكساء والأئمّة...

«أشهد أن لا إلٓه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهـد أنّ محمّداً عبده المصطفى، ورسوله المرتضى، وأمينه على ما أوحى، والمنقذ من الضلالة والـردى، صلّى الله عليه وعلى آله الكرام المهديّين، الأئمّة الطاهرين: عليّ أميـر المؤمنين وسيّد الـوصيّين وخيرة المسلمين، وفاطمة الزهراء سيّدة نساء العالمين، والحسن والحسين، والأئمّـة من ولَد الحسين الـطاهرين، بقيّـة رسول الله وثماره، وورائه وحججه على العباد من جبـال الدين، وسـادات المؤمنين، وأوليـاء العالمين، وعلى الإمـام المـرتضى * والـوليّ المصطفى، عبد الله أبي محمّد الإمام المهديّ بالله أمير المؤمنين، وارث فضل الأئمّة المهديّين من آبائه الخلفاء الراشدين، وصفوة الصفوة من الأوّلين منهم والآخرين، الذي قامت به دولة المؤمنين، وبسيفه ذلّت رقاب المنافقين، وعاد الإسلام غضّاً ناضراً، والدين مضيئاً، والحقّ مشرقاً زاهراً، وأحيى به الله من الدين ما اندرس، ومن الحقّ ما التبس، وجمع الله له شرف الدنيا وفخرها، وآتاه فضل الآخرة وذخرها، صلوات الله عليه ورضوانه ورحمته وحنانه.

434

دش 251

«اللهمّ، وصـلّ علـى وليّ عهده، وباب مجده، وخليفته من بعده، المتقلّد الإمامة المتوّج بالكرامة، عبد الله (ر 173 أ) أبي القاسم القائم بأمر الله، ابن المهديّ بالله، أمير المؤمنين، سليل خير النبيّين وبقيّة الماضين، ونجيب الأئمّة المهديّين، صلاة تزيده بها كرامة وعُلاً وشرفاً/، سامية القدر، عالية الفخر، نامية الذكر، باقية على الدهر (ط 292)

435

«اللهمّ، وكما قلّدتني خلافتك التي كرّمتَها وشرّفتها، وحظرتها[143] وحرّمتها، ولعنت من غير أهلها مدّعيها[144]، وأخزيت مناوئيها، وقصّرت أيدي المتطاولين إليها، واخترت لها الواحد بعد الواحد من آبائي المهديّين، الكرام المصطفين، الخلفاء الراشدين، ثمّ أورثتني مقامهم، وأحييت بي ذكرهم، وأتممت فيّ أمرهم، وقفيت بي على آثارهم، ونصبتني لما نصبتهم، من الاحتجاج بنا على * خلقك، والقيام بأمرك، ونصرة دينك، وإعزاز ملّة رسولك، ونصرتني وأظهرتني وأظفرتني، وأعززت بي الأمّة، وكثّرتهم بعد القلّة، وجمعتهم بعد الفرقة، وكشفت عنهم مذلّة الفتنة، ودياجير الظلمة، بدولتي التي أعززتها ونصرتها، وأيامي التي آثرتها فاخترتها، وسيوفي التي أمضيتها على الدجّال وحزبه، والنفاق وأهله، فجعلتهم بها حصيداً خامدين، فأصبح الحقّ مشرقاً، والباطل زاهقاً، فضلاً منك عليّ ونعمة جدّدتها، إلى نعم قبلها، أسبغتها عليّ وأجزلتها، اللهمّ، فألهمني شكر نعمتك، ووفّقني للعمل بما يرضيك عنّي، ويُزلفني لديك، ويقرّبني إليك، فإنّه لا حول ولا قوّة إلاّ بك، عليك توكّلت، وإليك أنيب، وأمري إليك فوّضت، وبك اعتصمت.

دش 252

.. ويبتهل إلى الله أن يسدّد خطاه في خلافته

436

«صلاتي ونسكي، ومحياي ومماتي، لله ربّ العالمين. اللهمّ اغفر لي وللمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، وتقبّل أعمالهم وزكّ سعيهم، وآهدهم وآرأف بهم، إنّك أنت الرؤوف الرحيم».

ثمّ نزل (عم) فنحر ناقة بيده وانصرف إلى مضربه.

(143) هكذا في المخطوط والمطبوع، والمعنى: جعلها محظورة محرّمة على غيرنا.

(144) تقديم وتأخير استوجبه السجع، والسياق هو: ولعنت مدّعيها من غير أهلها.

ولمّا ضاق بمخلد المارق الأمر، وانقلب عليه الدهر، وأيقن بالهلاك، وانهمك في العجز والذلة شرّ انهماك، وعرف أن لا خلاص له ممّا وقع فيه (ر 173 ب) ولا فكاك، أصدر ابنه فضل بن مخلد إلى معبد بن محمّد بن خزر، وكاتبه في * نصرته، ولاطفه في معاضدته، وأن يفكّ خناقه، ويطلق من العجز والوهن وثاقه (ط 293). وكان معبد يرى رأي الخوارج المارقين، ويتبرّأ - بريء الله منه! - من عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين وخليفة خاتم النبيّين، صلّى الله عليه وعلى آله الطاهرين. فأجابه ابن خزر بحشد الحشود، وجمع الجنود. وأنكر عليه ذلك أبوه محمّد بن خزر، وعرّفه أنّه لا نصير له من الإمام ولا وزر، وكذلك نهاه أخوه، فأبى قولهما، وخرج لنصر مخلد بن كيداد، وقد خذله خالق الأرض والسماء. فكتب أبوه محمّد بن خزر وأخوه الخير بن محمّد بن خزر[145] إلى الإمام المنصور بالله (صلع) بالبراءة من فعل معبد، وعرّفاه ما أزمع عليه من نصر مخلد.

دش 253

معبد بن خزر يهبّ لنجدة أبي يزيد..

437

وزحف معبد مع فضل بن أبي يزيد إلى يشكر والي طبنة في أيّام حصار الدجّال، وإحاطة أمير المؤمنين على قلعة كيانة بالخيل والرجال. فرجع فضل ومعبد بالهزيمة والخسار، وغلبهما من هنالك من جنود الإمام وروابطه[146] الذين أيّدهم الله بالانتصار. ووصل الخبر بهزيمتهم إلى الإمام المنصور بالله (عم) يوم الخميس لأربع عشرة ليلة بقيت من ذي الحجّة (8 جويلية)، فحمد الله (تع) على

.. ولكنّه يخيب في امتلاك طبنة

(145) معبد بن محمّد بن خزر: تكرار عبارة «أبوه» إلى جانب عبارة «أخوه» في خصوص الخير، يدلّ على أن معبداً هو ابن للزعيم الزناتي، لا أخ، خلافاً لما ورد عند ابن خلدون، 26/7: «وكان أخوه - والحديث عن محمّد بن خزر معبد في موالاة أبي يزيد..». هذا، وفيما يلي، سيسند الداعي إدريس معبداً إلى خزر مباشرة، فنضطرّ إلى إضافة «محمّد» بين معبد وخزر. وانظر هامش 94، ففيه شجرة بني خزر.

(146) روابط ج رابط، أي رابط الجأش القويّ الشجاع، وهو جمع شاذّ مثل فارس وفوارس.

ما أولاه، وسجد له شاكراً على ما رفع من منار الحقّ به وأعلاه *. دش 254

ثمّ إنّ مخلد بن كيداد حرّض أصحابه المارقين وذمرهم وقال لهم إنّ عسكر الإمام قد تفرّق، وأشاع كذباً وبهتاناً أنّ الإمام (عم) ليس هو في معسكره، وأنّه ذهب لجمع العساكر بنفسه، وأنّ المعسكر خالٍ منه. ونزل المارق الدجّال فيمن معه لثلاث عشرة بقيت من ذي الحجّة يوم الجمعة (9 جويلية) إلى معسكر الإمام، وضرب طبوله ونشر بنوده، فوثب عليهم الأولياء وقتلوا منهم ما لم يحص عدّا من الرجّالة، وقتلوا من الفرسان ثمانية عشر فارساً، والإمام في مضربه لم يبرز للقتال. وعاد الدجّال خائباً خاسراً، ومن بقي من أصحابه قد أثخنوا جراحاً. 438

ودخلت سنة ست وثلاثين وثلاثمائة

فكان أوّل شهر المحرّم يوم الخميس[147]. وفي هذا اليوم (23 جويلية 947) عاد فضل (ط 294) بن مخلد ومعبد [بن محمّد] بن خزر المارقان إلى مدينة طبنة، وكان القتال بينهم وبين روابط الإمام (عم) فيها إلى الزوال. ثمّ انهزمت المارقة، فقتل من فرسان ابن خزر خمسة عشر فارساً، ومن رجّالته عدد كثير، وانقلبوا خائبين وعادوا مغلوبين لا غالبين.

وما زال القتال بين عسكر الإمام والمارقين أصحاب الدجّال، والإمام يبشّر أصحابه بقرب الفرج والظفر ويقول لهم: «إن لم آخذ أبا يزيد، وأظفرْ به * فلست ابنَ فاطمة الزهراء، ولست بإمام لكم». دش 255
وكان أيضاً يقول لأوليائه: «إنّي ألبس في اليوم الذي آخذ فيه أبا يزيد ثياباً معصفرة[148] فإذا رأيتموني لبستها فثقوا بالنصر والفتح، إن شاء الله تعالى». 439

(147) في موافقات كاتينوز، غرّة محرّم 336 وقعت يوم الجمعة لا الخميس.
(148) في الجميع: مصفرّة، ولا معنى لثوب مصفرّ، وإنّما يكون أصفر صريحاً. =

وزحف المنصور بالله (صلع) بعساكره إلى المارقة في قلعة كيانة لثمان بقين من المحرّم (13 أوت 947) حين طلعت الشمس، بعد أن أرسل إلى زيري ومن معه أن يزحفوا ممّا يليهم، واقتتل الفريقان أشدّ القتال. وكان الإمام يرتّب الناس في القتال ويحرّضهم، ويجلس أحياناً إلى موضع مشرف ينظر القتال. وعطِش الناس، فأمر (عم) بالروايا[149] والقِرَب فمُلئت ماء وحملت على البغال إلى المقاتلين في عسكره، وبقي القتال إلى بعد العصر، وصبرَ الناس وعظم البأس، وقتل من الفريقين مقتلة عظيمة، وعاد الإمام إلى موضعه في معسكره بمن كان معه.

الزحف على قلعة كيانة

فلمّا كان من الغد صبيحة الجمعة، خرج الإمام إلى القتال، وخرجت جميع عساكره واشتدّ القتال، وتفانى الأبطال، وزحف قيصر وشفيع وزيري فيمن معهم من جهتهم، وطلع قدر ثلاثمائة رجل من العبيد والزويليّين من أصحاب حسن بن رشيق * إلى القلعة فهدموا فيها بيوتاً ثمّ نزلوا. فأمر الإمام · لكلّ رجل منهم بمائتي درهم فجعلوها في صرر وطافوا بها في العسكر، فكان ذلك ممّا حرّض الناس على القتال.

دش 256
440

ولمّا كان يوم السبت لستّ بقين من المحرّم (14 أوت)، خرج (ر 174 ب) الإمام المنصور (عم)، وقد لبس ثوباً أحمر موشّحاً مذهّب الأكمام والأذيال وعمامة (ط 295) حمراء معلمة الطرفين مذهبة وقد أرخى لها ذؤابة، وبيده درَقة مغشّاةٌ بديباج أحمر مصبغ بصفرة، وأمر الناس أن يخرجوا للقتال. فاستبشروا بالفتح وأيقنوا بالنصر وعرفوا أنّ ما

المنصور يرتدي الثياب الحمر التي تبشر بالنصر...

= والسياق فيما يأتي يدلّ على أن المنصور لبس ثياباً حمراء. وعصفر الثوب: صبغه بالجريال، وهو مادّة حمراء، والجريال اسم من أسماء الخمرة.

(149) الروايا ج راوية: مزادة الماء من جلد

وعدهم به الإمام قد آن، وظهر ما علّمه لهم وبان. فخرجوا للقتال فرحين مشوقين، وزحفوا بأجمعهم على المارقين، وقد أرسل الإمام إلى زيري وشفيع وقيصر أن يزحفوا في عساكرهم، وأن يصدقوا العدوّ في حملتهم، فتدانى الفريقان، وتقارب الجمعان، واشتدّ القتال، وتلازمت الأبطال. وطلعت عساكر الإمام في تلك الأوعار، وقد صار المارقون على أعلى التلال يلقون الصخور العظيمة من رؤوسها، فلا تَمُرُّ برجل ولا دابّة إلاّ طحنت ما تمرّ عليه وصيّرته رميماً، وغادرته هشيماً. واستمرّ القتال إلى نصف النهار، / وكَلَّ الناس وملّوا وعطِشوا، وأُثخن الأولياء جراحاً، وأخذتهم * الحجارة، وكاعوا[150] عن النـزال، وأتعبهم شديـد القتال، فـزجرهم الإمـام وأغضبه كلالهم وملالهم، وكرّ بنفسه على الأعداء، ومعه ثلاثة آلاف فارس وأكثر من عشرة آلاف راجل حتى توسّط في الوعر الذي لا مسلك فيه للخيل والرجال.

441

دش 257

فطمع عند ذلك المـارقون، وسـوّلت لَهُم بالغلب كـاذبات الظنون، وحملوا حملة واحدة منحدرين، مجتهدين في قصد الإمام (عم) غير مقصّرين، فارتدع من كان مع الإمـام، وانفضّوا عنـه وأسلموه، وبقي وحده حين قصـدوه وتعاوروه بـالسيوف والـرماح والحجارة. وثار عجاج مظلم، ولم يظنّ أصحاب الإمام إلاّ أنّه قد قُتل. ووصل الفسَقة إلى الإمام فتجاذبوا رداءه حتّى مَزَقُوه مزقاً، وقبضوا ركابه، ورُمي برمح فأخذ في درقته وأصاب صدره، وضُرب فرسه بأحجار فمار به حتى كاد الجواد أن يقع فَثَبَّته الإمام وحماه الله (تع) عن المارقين الطغام. وانجلى (ر 175 أ) الغبار، وهو قائم على ظهر فرسه، ثمّ كرّ عليهم في تلك الوعور فولّوا الأدبار، وركنوا عنه إلى

. . . ويتقدّم وحده

فيطمع فيه الأعداء. . .

(150) كاع يكيع: هاب وملّ.

442 الفرار. ورآه الأولياء سالماً ففرحوا بسلامته/ واستبشروا، وحملوا
دش 258 على الأعداء (ط 296) وتذمّروا. وحرّضهم * الإمام (عم) وصاح بهم، فطلعوا تلك الوعور لم يثنهم فيها ضيق المسالك ووعورها، وحجارتها وصخورها. وافترق المارقون يميناً وشمالاً، وهربوا على وجوههم لا يرومون إقبالاً، ومُلكت قلعة كيانة قهراً، وحيزت بالسيوف قسراً، وسمتها[151] جنود الإمام من كلّ جانب، ودنت من الدجّال وأصحابه المارقين النوائب.

وانحاز أبو يزيد الدجّال في أولاده وغزاته وثقات أصحابه في قصر أوّليّ في أعلى القلعة وطلعوا يقاتلون في أعلاه. فأمر الإمام أن تضرب له فازة في رأس الجبل بقرب قصر الدجّال، وجلس عندها يحرّض العسكر على القتال. وأحاطت العساكر في ذروة القلعة بقصر الدجّال رمياً بالحجارة إلى أعلاه ورشقاً بالسهام وطعناً بالرماح، وأطلقوا النار في باب القصر، والمارقون يقاتلون من أعلاه مصرّون على البغي، لا يرتدعون عمّا هم عليه من الغيّ.

.. ولكنّه يثبت لهم...

وكتب الإمام (عم) لمن في القصر بالأمان إن أسلموا الدجّال، ورُفع إليهم كتاب الإمام على رمح فرمَوا به وتمادَوا في
443 الضلال. فحين أظلم الليل، وقد كَلّ المؤمنون وملّوا لشدّة القتال، حرّضهم الإمام وأمرهم بالصبر، وإيقاد المشاعل من حول القصر،
دش 259 وأمر بالإحداق به والحفظ كي لا يخرج من فيه *، والإحاطة به. وخرج (عم) من فازته، وبُسط له بساط بقرب القصر فبات عليه، وأوقدت المشاعل بين يديه، وأمر بإيقاد ما في تلك الأوعار من الأشجار فصارت القلعة كالنهار المضيء. وبات الناس على

..... ويمتلك القلعة...

(151) سمتها (سما يسمو) بمعنى علتها، ولا وجه لتعويضها بـ «تسنّمتها» أو «سنمتها» كما في مقتطفات الدشراوي.

محارسهم، والبنود بين يدي الإمام منشورة، والطبول تضرب بين يديه وأصواتها عالية مشهورة.

فلمّا كان آخر الليل، حمل المارقون حملة رجل واحد من ذلك القصر، وقد حملوا أبا يزيد وصاحبه أبا عمّار الأعمى بين أيديهم. فاختلط الناس وقُتل من المارقة في تلك الحملة من قُتل، ونجا من نجا، وسقط من سقط (ر 175 ب) في تلك الأوعار. فكان ممّن قُتل من المارقة أبو عمّار الأعمى، ويدرس المزاتي، وجعفر المعروف بالناظر، وجماعة من وجوه (ط 297) المارقين. وأخذ الأولياء رجلاً منهم أسيراً وأتوا به الإمام فسأله عن مخلد الدجّال فعرّفه أنّه خرج من القلعة محمولاً.

.. ويحاول الثوّار الإفلات في خرجة يائسة

وطلبَهُ الأولياء فلم يجدوه/ فشقّ ذلك عليهم وغمّهم حتى كأنهم المغلوبون. وبات الناس على مصافّهم حتى أذّن للفجر المؤذّنون، فقام الإمام فصلّى بطهوره من أمسه، لم يغمض ولا اضطجع، ولا نام ولا هجع. فلمّا سلّم من صلاته قال: «يا إخوانَنا، لو علم الفاسق موضعاً أوعر من هذه القلعة لصار إليه، مع أنّ * وعد الله حقّ ولو كان مخلد في السحاب لسقط في كفّي، وأوقعه الله في يدي». فهو في الكلام إذ أتوا بأبي يزيد أسيراً. وكان قد خرج في تلك الحملة يحمله أصحابه حتى خلّصوه من المعركة، ثمّ ولّوا وأسلموه، فذهب لينزل في الوعر، وكان أعرجَ لا يحسن المشي، فسقط في وهدة، ثمّ قام فسقط في أخرى، فوهى جسده وشجّ رأسه، وبقي لا يطيق حراكاً ولا براحاً. فلمّا أضاء الضياء، وقرب طلوع ذُكاء، عرفوه فأتوا به مأسوراً.

444

دش 260

خيبة المنصور لإفلات أبي يزيد...

وجاءت البشرى إلى الإمام (عم) فسجد على الأرض شكراً لله، وحمده على ما أنعم به عليه وأولاه، وأمر للّذي بشّره بألف

.. ثمّ فرحه بالعثور عليه طريحاً جريحاً
445

دينار من العين، وأمر بالمارق فجعل إلى مضرب وحوله ناس يمسكونه، وهو من الضعف والجراح لما به[152]، وقد أحاط به الناس يهلّلون ويكبّرون، ويحمدون الله سبحانه ويشكرون/، كيف صيّر ذلك اللعين إلى الذلّة بعد أن أخذته العزّة بالإثم وكان على ما كان عليه من التجبّر، فأوقعه الله في يد الإمام (عم) أسيراً، وأصاره لديه ذليلاً حقيراً.

وركب الإمام على دابّته، والسرور يظهر على أسرّة وجهه، وقد بلّغه الله من مرامه إلى كنهه، ونصره على المارقين الكافرين، وأيّد الله الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين (ر 176 أ)، وهو (عم) يكثر الحمد لله * والشكر، ويخضع له سبحانه تواضعاً في السرّ والجهر، غير طائش لفرح، ولا تائه ذي مرح. فلمّا انتهى إلى فسطاطه، التفت إلى الناس وهم به محدقون، وإليه من كلّ وجهة يرمقون، فقال: «يا إخواننا، آذهبوا إلى مضاربكم، واستريحوا من تعبكم، وأكثروا من الحمد والشكر لله ربّكم، فإنّ الله (تع) قد فرّج عنكم وأراحكم من عدوّكم (ط 298) وانتقم لكم منه جزاء بما ارتكب منكم، وله في الآخرة عذاب النار بما قدّمت يداه والله سبحانه المحمود المشكور على ما أنعم به وأولاه».. ودخل الإمام (عم) إلى الفسطاط فنظر إلى الدجّال ملقى في الأرض فصرف عنه وجهه وأمر بدوائه وعلاجه.

دش 261

أبو يزيد في قبضة المنصور (24 محرّم 21/336 أوت 947)

446

وكتب الإمام (عم) بخبر الفتح إلى الأعمال، وَيُبَشِّرهم/ بما أعطاه الله من الظفر وأمْكَنَه من عدوّه الدجّال. ومن ذلك ما أملاه بنفسه، فكتب إلى قدّام الصقلبيّ عامله على المنصوريّة والقيروان:

«باسم الله الرحمان الرحيم، وبه نستعين. من الأمير إسماعيل وليّ عهد المسلمين، وابن أمير المؤمنين، إلى قدّام.

(152) هكذا في الجميع. وعند الدشراوي: وهو في الضعف، ولا يزيل الغموض.

«سلام عليك. فإنّا نحمد إليك الله الذي لا إلّه إلاّ هـو، ونسأله أن يصلّي على محمّد عبده ورسوله صلّى الله عليه وعلى عترته الأطهار الطيّبين، الأخيار الطاهريـن.

المنصور يزفّ إلى قدّام خبر النصر. . .

«الله أكبر! الله أكبر! لا إلّه إلاّ الله.

«والله أكبر! الله أكبر! ولله الحمد والشكر، ربّ العالمين، الذي نصر عبده وأنجز وعده، وتفرّد بالمنن على عبده السابغات الكاملات، فأظهرني تبارك وتعالى متـوّجاً بعـزّه، رافلاً في حلل كرامته، مبـوّءاً من الفخر ذراه، ومن المجـد أعلاه ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ (الأحزاب، 10) وظنّ العباد بالله الظنون، فجلا بيَ الظلام، وأنقذ بيَ الأنام، وثبّت بي الإسلام، وجمع بيَ الأمّة بعد الفرقة، وأمّنهم بعد الخوف، وأعزّهم بعـد الذلّ، وحقن بيَ الدمـاء، وسكّن بي الدهمـاء، وعمّر الخـلاء، وأيّدني من نصره وإعزازه بما اعتـرف لي به المؤمن المسـاعد، والكافر المعاند، لقصر طَوْل/ المخلوقين وقوّتهم عن بلوغ شيء ممّا أملوه، ودرك قليل حاولوه، فضلاً عن هذه النعم الجليلة، والمنن الجميلة (ر176ب) التي قصرت [عنها] الآمال، وغضّت الأبصار، وانقطعت الأطماعُ عن درك بعضها، فأصارها (عج) إليّ كلّها، ورآني أهلها، وتوحّد بالنعمة عليّ[152م]، ولم يجعل لمخلوق عليّ منّة، تشريفاً لقدر عبده، ابن محمّد رسوله، على ملوك الدنيا وعبيد الهوى الذين لها يسعَون (ط 299)، وعليها يتناجزون، وبِعَارها ينقلبون.

447

.. مفصّلاً سير الأحداث. .

«فلم أزل، منذ انتصبتُ للجهاد في سبيله، وأبرزت نحري دون دينه، باذلاً نفسي، متعباً جسمي، مستصغراً كلّ عظيم، ركّاباً لكلّ هول * متعرّفاً من الله أجلّ الصنع وأكمل التوفيق في كلّ وجه

دش 263

(152 م) هكذا في المخطوط. ولعلّها: وتَوَجّهَا. وفي المطبوع: وتوجه.

أمّمته، ورأي رأيته، وموقف حرب وقفتُه، إلى أن أتمّ الله عليّ النعمة وأكمل المنّة بالإمكان من عدوّ الله الخاسر أبي يزيد ذليلاً أسيراً[153] بعد حرب كانت بيننا وبينه ثلاثة أيام متواليات لم يكن قبلها مثلها أبداً.

«بدأناه بالزحف يوم الخميس لثمان بقين من المحرم عند طلوع الشمس، فقاتلناه قتالاً شديداً إلى بعد العصر. ثمّ عاودناه القتال يوم الجمعة بأهول من القتال الأوّل وأصعب إلى بعد العصر أيضاً. وصابحناه يوم السبت فأيقنوا بالهلاك واستماتوا، واشتدّ القتال في وعر شديد، فجعلوا يُلقون علينا الصخور العظيمة، لا تمرّ بفارس ولا راجل إلاّ طحنته وأصارته رميماً، فلم يزل القتال من أوّل النهار إلى ضاحيته، وكلّ الناس وملّوا، ولهثت الخيول من حرّ يُسقط أطيار الجوّ. وتقطّع الأولياء جراحاً، وأثخنوا بالحجارة، وهابوا الإقدام وكاعوا، فأغضبني ذلك وزجرتهم وأوعدتهم، وتقدّمت إليهم[154] بمُطَحِّيَة[155] فيها أكثر من ثلاثة آلاف فارس ونيّف على عشرة آلاف راجل. ورأى العدوّ إقدامي عليهم فأيقنوا بالموت وانهزموا بين يديّ، حتى إذا توسّطتُ الوعر الشديد الهائل البهيم، ظنّوا أنّهم قد ظفروا فيما دبّروه وحملوا عليّ حملة رجل واحد، وارتدع * لها كلّ من معي وأسلموني[156].

448

دش 264

---

(153) رسالة المنصور - وهي ولا شكّ وثيقة ديوانيّة - تؤيّد المصادر التي قالت إنّ أبا يزيد لم يقتل في الحصار، وإنّما أسر جريحاً، ومنها ابن حمّاد وابن الأثير.

(154) إلى الأعداء.

(155) مطحية: اخترناها بالتشديد، على الفاعلية، من طحّى: نشر ومدّ، وأيضاً: أهلك.

(156) نلاحظ أنّ الداعي إدريس، في عرضه السابق للأحداث، قد لازم هذه الرسالة في تفاصيلها وحتّى في عبارتها، غير آبه بالتكرار والإعادة، ولعلّه نقلها بحذافيرها من أحد المصادر الإفريقية المفقودة.

«فقصدني الفسقة وتعاوروني بالسيوف والرماح والحجارة، وثار عجاج مظلم طبّق الأرض، فوصلوا إليّ حتى تجاذبوا (ر 177أ) ردائي فمزّقوه، وقُبضت ركابي، ورُميت في تلك الحملة برمح أخذْتُه في درَقة عند صدري، وأثخنوا فرسي بضرب صدره وناصيته بالحجارة، ومار بي يميناً وشمالاً، فوثقت بالله ربًّا، وطبت بالشهادة في سبيله نفساً وقلت: يا نفس! حبّذا والله موقفٌ عشت بعده عزيزاً حميداً، أو رحت منه شهيداً سعيداً، إلى لقاء جدّي رسول الله (ﷺ)! فوالله ما ثنيت عنهم عنانا (ط 300، ، وإنّي لمنفصل في غلالة ورداء ودرقة. وما هو إلاّ أن تجلّى الغبار فرأوني في وجوههم فانهزموا وولّوا الأدبار، واتّبعتهم وحدي في وعر لا مسلك للخيول فيه. ورآني الأولياء فـاستيقنوا بسلامتي فعطفوا عطفة واحدة وصحت بهم وحرّضتهم، فاستأسدوا عليهم، واجتززنا منهم في تلك المعركة زهاء أربعين رأساً، وافترقوا في هزيمتهم يميناً وشمالاً، ومُلكت القلعة بالسيف قهراً، وعنـوة وقسراً.

. . ومنتّداً بتخاذل من تخاذل من أصحابه . .

449

. . فعرّضوه للوقوع في أيدي العدوّ

«وانجحر اللعين أبو يزيد وولده وغزاته وأصحابه وثقاته في قصر أوّليّ[157] في ذروة القلعة أشبه شيء بعُرف الديك، فأحاطت به الجيوش من كلّ ناحية، رمياً بالحجارة، وطعناً بـالرمـاح، ورشقاً بالسهام، وإشعالاً بالنار في أبواب القصر، والفسَقةُ مصرّون * على كفرهم وبغيهم وغيّهم. فكتبت لهم في ذلك المقام كتاباً منشوراً بأمانهم إن هُمْ خرجوا إليّ وأسلمـوا اللعين، وعرفت أنّ جهلهم وعماهم يحملهم على كفر النعمة، وإنّ بكفر النعمة اجتلابَ النقم وأردت، بذلك، الاستظهار بالحجّة عليهم عند الله، تعالى ذكره،

دش 265

450

(157) القصر الأوّليّ: هذا مصطلح عند القـدماء لنعت الآثـار المعماريّـة البونيقيّـة والرومانيّة والبيزنطيّة. هذا، ولم تكشف الأبحاث بقلعة بني حمّاد ـ وهي أقرب الأماكن لـ «قصر» كيانة ـ عن آثار سابقة لتأسيس القلعة.

فأخذوا الكتاب فمزّقوه، فأوّل من مدّ يده إلى تمزيقه أصابه سهم في نحره فخرّ ميّتاً.

المعركة النهائيّة دامت ثلاثة أيّام

«وتمادّوا على الإصرار واستماتوا، وألحّ الأولياء في قتالهم، وهم من ذلك القصر في حصن منيع لا يرام، إلى الظلام، فأمرت بإيقاد المشاعل، وبتّ ليلتي كلّها ساهراً، وبنودنا خافقة، وطبولنا هادرة، ورجالنا على الركب، وسيوفهم على عواتقهم. فلمّا كان آخر الليل، حمل اللعين وأصحابه من ذلك القصر حملة واحدة كالخنازير، فاختلط الناس، فقُتل في تلك الحملة من الفسَقة مَن قُتل ونجا من نجا، فكان ممّن قتل أبو عمّار الأعمى (ر 177 ب) ويدرس المزاتي وجعفر المعروف بالناظر. ونجا من نجا منهم متراميأ بنفسه من أعلى القلعة إلى وعر شديد هائل، وأخذنا منهم أسيراً فعَرّفني أنّ اللعين خرج من القلعة هارباً، فلم أصدّقه وأمرت الأولياء بالثبات على مصافّهم وتعبئتهم حول ذلك القصر.

دش 266

* «ولم أزل قائماً حتى لاح ضياء الفجر، وإذا اللعين قد جرح في تلك الحملة، فحمله ثلاثة من أصحابه حتى خلّصوه من المعركة، ثمّ ولّوا وأسلموه. فذهب لينزل من القلعة فسقط، ثمّ قام

451

ليلحق بأصحابه فسقط سقطة أخرى أوهت جسده كلّه ورأسه فلم يستطع (ط 301) حراكاً ولا براحاً فبقي ملقى على ضفّة الوادي. فأُتينا به أسيراً بحمد الله ومنّه، وصنعه وعونه، عند صلاة الفجر من يوم الأحد لخمس بقين من المحرّم. ورأيت من سوء حاله وما أصاره الله إليه من الذلّ وأحلّه من النقمة، ما في بعضه شفاء للغيظ وإبراد للغليل. فحمِدت الله وشكرته، وتوثّقت من اللعين، وأمرت بمداواة جراحه والرفق به إلى أن أصل به إلى المهديّة إن شاء الله.

المنصور يأمر بإخراج الصدقات شكراً الله. . .

«فآحمَدِ الله أنت ومَن قِبَلك من رعايانا، وأكثروا معاشر العباد من الشكر لله، وتصدّقوا إلى الله بعتق الرقاب، والصدقات من

أطيب أموالكم وأزكاها وأحلّها مكسباً. واذكروا ما كنتم فيه أمس، وما أصبحتم فيه اليوم من العزّ بعد الذلّ، والأمن بعد الخوف، والطمأنينة بعد الروع، والاجتماع بعد الفرقة، والدعة بعد شدّة المحنة بعدوّ الله وعدوّ رسوله ودينه، يسمّيكم مشركين، ويَحكُم في المسلمين بحكم فرعون. فاحمدوا الله على ما صرف عنكم ووهب لكم، ممّا جمّل رأينا فيكم ونوايانا إليكم[158] من الإحسان إليكم[159] وإلى قُرَبِكُم، والدفاع عنكم، وتحصين * حرماتكم وحقن دمائكم، متحمّلاً في ذلك ما لم يتحمّله قطّ ملك غيري، وأهوالاً لم يقاسِها أحدٌ غيري، لم أرد بذلك من المخلوقين جزاء ولا شكوراً، إلاّ القُرْبَةَ إلى الله، تعالى ذكرُه، والزلفى لديه والرغبة عنده.

دش 267

452

«فللّه الحمد على إنجاح سعيي وتبليغي أملي، وإيّاه أسأل، وإليه أرغب في العزم على أداء شكره، (ر 178أ) وتوفيقي لما يرضيه. حسبيَ الله ونعم الوكيل، والسلام عليك ورحمة الله. وكتب يوم الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ستّ وثلاثين وثلاثمائة، والحمد لله ربّ العالمين».

وأكثر الإمامُ من الصدقات على مَن في عسكره من أولي المسكنة والحاجات. وكتب إلى عمّاله في الآفاق يعرّفهم ما أعطاه الله من النصر، وأولاه من الأمر، ويأمرهم بإظهار الصدقات من ماله وإنفاقها على ذوي الحاجات والمسكنة في كلّ صقع ومكان، حتى استغنى أولو الفقر، وكثر ما في أيديهم بفضل وليّ الأمر.

. . ويبادر هو بالتقرّب والشكر. . .

وكان ممّا كتب إلى جوذر الأستاذ، عبده وغذيّ نعمته ونِعَم آبائه، الذي اختاروه (ط 302) واصطفَوه، وكان عندهم في المكان المكين

(158) في الجميع: ممّا جعل رأينا فيكم ونوينا إليكم.

(159) في الجميع: والإحسان عليكم.

والمنزلة الجليلة، يعرّفه الإمامُ (عم) ومَن قِبَله بما منّ الله عليه وأسدى إليه من الفتح الجليل وأسرِ الدجّال، وما أنعم عليه به ربّه الكبير المتعال، ويأمره ببثّ الصدقات/ والأموال على من كان في المهديّة وأعمالها، وأن يعمّ بذلك غنيّهَم وفقيرهم، وداخل السجلّ رقعة بخطّ الإمام فيها:

453

«يا جوذر، أسعدك الله بطاعته وتولّاك بكفايته. إنّا قد أوجبنا على أنفسنا من الصدقات وفعل الخيرات، شكراً لله (عج) على ما أنعم به علينا من هذا الفتح العظيم قدرُه، الجليل خطَرُه، ما قد نفَذَ [به] أمرنا إلى كلّ عامل بما يعمل به من جهته حسب ما رسمناه له ولك[160]، صانك الله، بما يمتثله[161] في إخراج ما رسمناه من الصدقة على الفقراء بالمهديّة ومن حولها.

.. فيعتق جوذراً الأستاذ

«لكنّا لم نجد في باب العتق أزكى عملاً، ولا أقربَ قرباناً عند الله (عج) من عتق رقبة مؤمنة طاهرة زكيّة مثلك: فأنت حرّ لوجه الله العظيم، ورجاء ثوابه الجسيم، قد أعتقتُ جسمك وروحك في الدنيا والآخرة. وسمّيناك، تشريفاً لك، بـ «مولى أمير المؤمنين». فاجعل مكاتبتك لمن كبر قدره وصغر من جميع الناس: «من جوذر مولى أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان»، ولا تُكنَّ أحداً، ولا تقدّم على اسمك اسماً إلّا اسم مولاك أبي تميم (ر 178 ب)، أستودعُه الله، وبارك في عمره»[162].

(160) في الجميع: وإليك.

(161) في الجميع: تمثله. وقد أسقط الدشراوي هذا النقل عن سيرة جوذر، 51.

(162) ورد في هامش «هـ» توضيح لمستلزمات هذا القرار، قرار عتق جوذر وتلقيبه بمولى أمير المؤمنين: لا تكنّ احداً، أي: لا تقل لأحد: أبو تراب ونحوه، لأنّ الكنية تعظيم، إلّا إذا كتبت إلى الإمام المعزّ (صلع)، فقدم اسمه على اسمك، أي المشهور المعروف إذ الكتاب، إذا يكتب إلى أحد، يقدّم اسمه =

فكان ذلك من تشريف جوذر، وما خصّه الله ووليُّه به، فبان فضله وعلا عند/ أولياء الله محلُّه، وكان إلى انتهاء عمره يكاتب من علا ودنا بما خاطبه به الإمام، ولا يتواضع إلاّ لإمامه الذي فرض الله ولايته، وأوجب، بعد طاعته وطاعة رسوله، طاعته، أو لوليّ العهد الذي هو حجّة الإمام، والمستحقّ بعد وفاته، لعظيم المَقام.

454

ولمّا كان بعد يومين من أخذ أبي يزيد (الثلاثاء 26 محرّم/ 17 أوت 947)، أمر الإمام المنصور بالله (عم) بإحضاره إليه لإقامة الحجّة عليه. فحين دخل على الإمام قال: السلام عليك!

المنصور يقيم الحجّة على أبي يزيد...

فقال له الإمام (صلع): السلام على من (ط 303) اتّبع الهدى، ولا سلام على من كفر وعصى!

فسكت مخلد. فقال له الإمام: أي عدوّ الله، كيف رأيت صنع الله؟ ألم ينصر الحقّ، على قلّة أنصاره، وخذل الباطل، على كثرة أعوانه؟

فطأطأ رأسه. فقال له الإمام (عم): ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ: لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ، وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ. فَلَمَّا تَرَاءَتِ الفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ: إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ ﴾ (الأنفال، 48).

فرفع مخلد رأسه وقال: أقدرك الله، والعفو أولى بك.

قال الإمام (عم): أي عدوّ الله! تشتم أميرَ المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام؟

قال: معاذ الله! وكيف أشتم عليّاً، ونحن حزبه الذي نصرناه على أهل الشام؟

= ثمّ يكتب الكاتب. فقال مولانا لجوذر: إذا كتبت إلى أحد فقدّم اسمك على اسمه. (وانظر تعليق ماريوس كانار في ترجمة السيرة، هامش 95 و96).

455

قال له الإمام (عم): أَوَكان عليّ محتاجاً إلى نصرك؟ كلّا، والذي فضّله وكرّمه! سيفُ عليّ ناصرهُ، والله مؤيّدُه، لا أنت ولا غيرك.

فأُفحم عن الجواب. فقال له الإمام: أَوَلم تشتم من هو خَيْرٌ من خيراتِ عليّ؟[163].

قال المارق: ومن هو خيرٌ من خيرات عليّ عندك؟

قال الإمام: أمير المؤمنين أبو القاسم، الذي جمع الله له شرفَ النبوّة والإمامة بمحمّد وعليّ وفاطمة صلوات الله عليهم.

قال: معاذ الله! لا والله، ما شتمته!

قال له الإمام: كذبت!

قال: بأيّ شيء كذّبتني، وأنت لَمْ تَسمع ذلك منّي؟.

... فيزعم الثائر أنّه إنّما خرج مستنكراً لفرض الضرائب على الناس

قال الإمام: إن لم أسمعه، فقد سمعه كافّة أوليائنا من أصحابنا.

قال مخلد: بلى، قد كانت معي عامّة لا خَلاَقَ لهم.

فقال الإمام: تكلّمْ آمنا بملءِ فيك: ما الذي نقَمت فيه على أمير المؤمنين؟

فسكت. قال له الإمام (عم): تكلّم!

فسكت أيضاً.

فقال له الإمام: والله (ر 179 أ) لتقولنّ!

فرفع المارق رأسه ثمّ قال: نعم، كان أبو القاسم كريماً حوله قوم سُوء هجّنوه.

فقال الإمام: بماذا؟

---

(163) خير هنا ليس أفعل تفضيل، بل مفرد خيرات، مثل حسنة وحسنات، وفهم أبو يزيد أنّه تفضيل على عليّ.

فسكت. فقال الإمام: لتقولَنّ!

قال المارق: هذه القبالات التي فيها الجَور على المسلمين.

فقمت منكراً لذلك، أريد إصلاح أمور الناس.

456 / قال: فهل علمتَ أنّ ذلك عن رأي أمير المؤمنين وأمره؟

قال المارق: لا أعلم، إلاّ أنّهم قد فعلوا.

المنصور يحتجّ عليه بأنّه لم ينبّه القائم إلى ذلك...

قال: فَهَلّا كنت تشكو ذلك إلى أمير المؤمنين وتطلعُه عليه، فإن غيّر المنكر، كان الذي أردت، وإن هو لم يفعل، اتّخذْتَ بذلك عليه الحجّة؟

فسكت. قال الإمام (عم): وإنّما (ط 304) قمت [كما] زعمتَ، للإسلام محتسباً؟

قال: نعم.

قال: فهل غيّر الإسلامَ، ونقض شريعةَ محمّد (ﷺ) وبدّل وأهلك أمّتَه غيرُك؟

قال: وكيف؟

قال الإمام: وكيف أيضاً؟

قال: نعم، وكيف؟

.. حتى يرفع الجور

قال الإمام: بما ارتكبتَ من المحارم، وصغّرتَ من العظائم، وسفكت من الدماء، وهتكت من الحرمات.

قال المارق: ذلك من أقوام سوء اتّبعوني.

قال الإمام: عن معرفة منك [أم] عن جهل؟

قال: بل عن جهل منّي بهم.

قال الإمام: أَوَلَا يوجب[164] عليك فعلُهم حجّة عند الله (تع) ولا [عند] عباده؟

قال المارق: لا.

(164) في الجميع: يجب.

قال الإمام: إذا كنتَ لا ترى الحجّةَ عليك واجبةً بفعل أصحابك، فمن أين رأيت الحجّة واجبة على أمير المؤمنين بفعل عبيده في أقصى البلدان، وملكُه بحمد الله أوسع من البحر الذي فيه الجواهر والغُثاء؟

457 فسكت المارق. فقال الإمام/: ما تقول في بني كملان هؤلاء خاصّة؟

قال: قوم سوء مَلاعِين.

أبو يزيد يدّعي أنّه جهل ما يرتكبه أتباعه من منكرات

قال الإمام (عم): قد نقضتَ قولك، وأكذبك لسانُك إذ زعمت أنّك جاهل بأهل الشرّ من أصحابك، ثمّ هذا قولك في بني كملان، وهم عمدتُك وعقدتك، وآخر من حصل معك من أصحابك أصحاب الشيطان. ويلٌ لك من الله!

قال المارق: فإنّي أتوب على يديك.

قال الإمام: برئت إلى الله منك! لمَ نقضت اعتقادك وخالفَ قولُك فعلك؟

قال: بماذا؟

قال الإمام: بالفرار من الزحف. فهو من الكبائر عند أولياء الله، وعندكم أيضاً أعداءَ الله، وأنت القائل إنّ الموت أشهى عندك من الحياة، والضامن لأصحابك أنّك لا تنهزم أبداً.

دش 271 قال *: ومتى انهزمتُ؟

قال (ر 179 ب) له الإمام (عم): ألم تنهزم من سوسة، ثمّ من القيروان، ثمّ من تامديت، ثمّ من دامران، ثمّ إلى قدورة وإلى أرض السودان، ثمّ إلى الجبال ثمّ إلى تامروت؟[165].

(165) قد تكون هذه المواضع هي التي مرّ بها أبو يزيد في تقهقره بعد أن خسر معركة القيروان. فتامديت (في النسخ: تامريت) تقع بين نهر ملّاق وتيفاش (البكري، 53) ودامران وقدورة لم نهتد إليهما، ولعلّهما بين باغاية وطبنة. أما تامروت فلعلّها محرفة عن تامرست (انظر ص 404 هامش 109).

قال: لم أهرب، ولكنّي دخلت الغرب.

قال الإمام: دخلت الغرب بشدودك رواحلَك من القيروان، ورحلتَ مشتهياً لدخول الغرب؟ بل أخرجك والله ابنُ رسول الله (ﷺ) بذي الفقار سيف جدّه، صاغراً قميئاً مهزوماً ذليلاً خازياً خائفاً طريداً، فدخلت/ الغرب برغمك والله وصَغارك، بعار الأمد وخزي الأبد في الدنيا، ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ (القلم: 33). 458

فسكت المارق وأطرق. ثمّ قال (ط 305) الإمام: لِمَ استعملتَ الكذب الذي هو عار ونار؟

قال: ومتى كذبت؟

قال الإمام: ومتى صدقت؟ أَوَ لَيس من كذبك وزورك كتابُك بالأمس إلى الأمويّ الشقيّ تدّعي فيه أنّك حصرتني وقتلت رجالي وأخذت فازتي، وأني محصور بمدينة المسيلة؟

قال: ما كتبت بهذا.

حجّة أخرى: الكذب في رسالته إلى الأمويّ

قال الإمام: يا غلام، أحضر كتبه التي أخذناها مع رسوله منذ أيام بطوابعها[166].

فانقمع المارق وتلجلج لعلمه بما في كتبه وقال: العفو! العفو!

قال الإمام: دعها يا غلام! ثمّ قال له: وأيضاً تصف نفسك بالعقل والدهاء، وترى نفسك لتدبير الحروب * وقَود الجيوش وسياسة الأمور، وامرأةٌ من جهَلة الناس أعقل منك؟ دش 272

قال: من هي؟

امرأة أبي يزيد أرجحُ منه عقلاً

قال الإمام (عم): آمرأتُك[167] التي حذّرتك سوء العواقب،

(166) لم يسبق للمؤلّف أن ذكر قبض هذه الرسائل. ويبدو أنّها لم تصل إلى الناصر الأمويّ لأنّ ابن عذاري لا يذكرها، وإنّما وقف عند وفادة أيّوب بن محلد سنة 335 (البيان، 224/2).

(167) قد مرّ بنا (ص 347 وهامش 20) شاهد على تعقّل أمّ أيّوب زوج أبي يزيد

وأمرتك بما لو أطعتها فيه، لكان في طاعتها رشدك، من النزول إليّ والاعتراف بذنبك والتوبة إلى الله (تع) ربّك، وأعلمَتْك أنّك إن لم تفعل كنت مأسوراً، وأنّ الله لا يدَعك حتى يأخذَك بكبير جُرمك وعظيم ذنبك.

قال المارق: لقد قالت ذلك.

459 قال الإمام (عم): أتدري بمَ بلغتَ ما بلغت، على خساستك ونذالتك وسقوطك وخمولك وجهلك؟

قال: للقيام لله.

قال: معاذ الله! من قام لله نصره الله! ولن يقوم لله إلاّ أولياء الله!

قال: فبماذا تقول؟[168].

قال: بهوانك والله على أمير المؤمنين[169]. وإنّك تعلم أنّه لو برز إليك لدقّ (ر 180 أ) عنقك ووقص ظهرك وانقضى مذ حين أمرك. ولكنه أبى ذلك، احتقاراً لك واستصغاراً لشأنك. ولقد سمعته يقول: لو أخذ عدوّ الله بحلقتَي هذا الباب ما خرجتُ إليه، لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً، وليبتلي الله المؤمنين فيمحق الكافرين. والذي نفسي بيده، لينجز الله وعده لنا، ولو كره المشركون![170].

فسكت. قال الإمام (عم): قد أخذتُك بالسيف قهراً، وصرتَ

دش 273 في يدي قسراً، أسيراً بلا عقد ولا عهد. فلأَقْتُلَنَّك * قِتلةً هي أضرُّ عليك من كلّ قتلة.

---

(168) أي: بم بلغتُ ما بلغتُ، في رأيك أنت؟

(169) أي القائم بأمر الله. وفي إلحاح المصادر الشيعيّة في تبرير ذهول القائم، إمّا بالثقة المطلقة في «وعد الله له»، وإمّا بالاستهانة بمخلد، وإمّا بالأمرين معاً كما يفعل المنصور هنا، دليل على أنّ الانتقاد راج في الأوساط الفاطميّة أيّام حصار المهدية وبعد الحصار. وقد ذكر المؤلّف (ص 260 وانظر هامش 63) توسّل جلاّس القائم إليه كي يُظهر الحزم بعد سقوط الأربس.

(170) مرّ هذا الكلام من القائم ص 296.

قال: كيف؟

قال الإمام (عم): بالإحسان إليك، والإفضال عليك والرفق بك. ثمّ لا ينالك من عقوبتي شيء أكثر من سَجنك في دار واسعةٍ ورزق جارٍ لتعلم أنّي وليّ الله وابن رسوله، وأنّ الله فضّل أخلاقنا كما طهّر أعراقنا، ليكون ذلك قاتلاً لك غمّاً وهمّاً، وحسرةً وكمداً على ما فاتك من الفوز بطاعتنا، وعلى ما أعدّ الله لك من العذاب بمعاندتنا. ومن أنت/ أيها الكلب؟ فوالله ما في قتلك دَرك من فَوْت، ولا شفاءٌ من غيظ. أخزى الله دولة لا يحييها إلاّ موتك! خذوه!».

المنصور يقرّر الإبقاء على حياة أبي يزيد. . .

460

فأخذه الخدم وهو ثقيل دنِف، وهو يلتفت ويقول: «جزاك الله خيراً! جزاك الله خيراً! فعلت ما يشبهك! سلام الله عليك!».

واشتدّت بالدجّال العلّة لما نالـه من السقوط، فمـات قبل الفجر سحراً لليلة بقيت من المحرّم سنة ستّ وثلاثين وثلاثمائة (20 أوت 947)، والإمام في معسكره[171]. فأمر الإمام (عم) به فسلخ

---

(171) في موت أبي يزيد تختلف رواية ابن حمّاد، 35: أوصى المنصور خيراً بالأسير الجريح وسلّمه لحراسة جعفر بن عليّ الحاجب، ولكنّه مات بعد يومين من الأسر (وهنا بعد أربعة) ويضيف ابن حمّاد: «وقيل إنّ الدم نزفه وهو يكلّم المنصور فمات بين يديه». ورواية ابن عذاري، 220/1 تبعد كثيراً: اعتصم أبو يزيد بالجبل المعروف باسمه (لا كيانة) وأخذ حيّاً مجروحاً فجعل في قفص من حديد وجيء به إلى المنصور بالمهديّة فقتله وصلبه على الباب الذي ضرب عليه برمحه (أيام الحصار). أمّا ابن خلدون، 44/4 فيكتفي بالقول إنّه هلك في سلخ المحرّم 336 وكذلك ابن الأثير 311/6.

هذا وإنّ خبر المناظرة الطويلة بين المنصور وخصمه لا يتّفق مع حالة الضعف والتهشم والنزيف التي يوصف بها أبو يزيد فهذا الاحتجاج منه وهذا الدفاع عن مبدإ الاحتساب لله يتطلبان صحّة قويّة في العقل والجسد. وانظر في المجالس والمسايرات، 336، هامش 1، صورة من الحِجاج بين المنصور ومخلد حسب رواية المقريزيّ في المقفّى.

لكنّ المنيّة تعاجل الثائر المغلوب

دش 274

جلده وحشي بالتبن بعد أن أُخرجت أحشاؤه ومُلّح وعُولج حتّى ظهرت صورته كأنها ناطقة. وجُعل في صندوقين طويلين وأمر الإمام بحمل الصندوقين، فكان إذا ورد مدينة أمر بإخراج ذلك الجلد، ويُحمل على جمل، ويُلبس شيئاً على رأسه *، ورجل يُمسكه من خلفه كي لا يميل وينادِي عليه[172] وعلى كتفه وصُلبه قردان[173] يصفعانه ويلعبان عليه.

وفي ذلك يقول محمّد بن ناسك التونسيّ[174] من قصيدة طويلة:

(متقارب)

ففاضت على غير مَأْمَلَةٍ وقد كثَّرَ اللّهُ أوزارَهَا[175]

فأُركِب تمثالُه بازلا يَعُرُّ المطيَّ وأكوارَهَا[176]

وزامَلَ قرْدَيْن فوقَ البعير كأسرى تَفَاوضُ أسرارَهَا

(172) وينادي عليه: أي يعلن عن قدوم ركبه حتى يجتمع الملأ لمشاهدته.

(173) القردان ذكر وأنثى في تدقيقات ابن حمّاد، 33.

(174) لا نعرف محمّد بن ناسك التونسيّ هذا، وكنّا افترضنا في الحوليّات، 1979/17 ص 66 أنّه قد يكون الإيادي، ولكن الافتراض يبدو لنا اليوم بعيداً، نظراً إلى أنّ إدريس يورد شعراً للإيادي بعد شعر ابن ناسك مباشرة، وما كان يفوته التصحيح إن كانا نفس الشخص.

(175) مأملة، مؤنّث مأمل، أي: أمل. والمعنى: مات أبو يزيد، وما كنّا نرجو موته ولا نريده. وإنّ استبقاء المنصور لخصمه فسرته المصادر بطرق مختلفة: فابن حمّاد، وهو يتأرجح بين الإعجاب بالمنصور لكفاءته الحربيّة والسياسيّة، والنقمة على الدعوة والدولة الشيعيّة، يقول: طمع المنصور في الوصول به إلى القيروان، أي شاهداً حيّاً على انتصاره (مثل مواكب قوّاد رومة القديمة) لكنّ هذا البطر لا يناسب ما يؤكده إدريس من تواضع المنصور، فلذلك فسّر الداعي عفو المنصور بما يشير إلى قولة المتنبّي: وما قتل الأحرار كالعفو عنهم..

ويبقى تفسير المنصور نفسه: لم يقتله لأن الحِلم من شيم آل البيت.

(176) يعرّ المطيّ: منظره مع جثمان الثائر يزري بالمطايا ورحالها (عرّه يعُره: ساءه وألحق به الشر).

إذا مــا القــرودُ رعت جــارَهــا	فــمــا يــرعَيَــان لــه حُــرمَــةً
وَحُــدًا الأكُفِّ وأظفــارَهَــا[177]	5 وقــد عُلِّمــا/ قبــلَ أن يلقَيَـاه،
وقــد هتــكَ الصَّــكُّ أستــارَهَــا	فيــا هــامَــةً غــادِراً صَحْنُهــا
وهــذا يُــنــتِّــفُ أوبــارَهــا	ويــا لِحيــةً، ذاك يلهــو بهــا
يــزور القُرى لا كمــا زارَهَا[178]	أتــيتَ بــه خــاسئــاً حــاسِــراً

461

الشعراء يتشفّون من أبي يزيد: ابن ناسك...

وقال عليّ بن محمّد الإياديّ الشاعر يذكر ارتقاء مخلد بن كيداد الدجّال المارق إلى قلعة كيانة، وما كان من المنصور بالله (عم) حتى أمكن الله منه وأسَره، ويصف كيف فُعل بعد ذلك به، حيث يقول من قصيدة:

(رمل)

في ذُرى أعيطَ عالٍ مُصْطَعِدْ[179]	فــارتقى الملعــونُ من خِيفَتــه
ذلك المعقِلِ ليست بِصَدَدْ[180]	في ذُرى خلقــاءَ ملســاء، على
تحته المنصورُ في جيش مُعَدّْ[181]	معقــلٍ من فــوقــه اللهُ، ومِن
يــومَ طعنٍ كشآبيب البَــرَد *	فــارتقى المنصور بــالسيف، لــه
عن بني أحمدَ نــاءٍ مُنفــرِدْ[182]	5 واثــقــاً بــالله فــي غــربــتــه،
مــوثَقَ الجِيد بحبلٍ من مَسَــد	فــإذا مــخلدُ فــي كفّ الــردى
واهِيَ الــركن ذليــلَ المستنــد	قــد رمتْه الحــربُ عن غــاربهــا

.. والإياديّ

دش 275

(177) حدّدت أظفار القردين لنتف لحية التمثال.

(178) حاسراً: مكشوف الرأس والصدر، أي أعزل من السلاح، لا كما كان في اقتحامه الأوّل للمدن والقرى.

(179) في الجميع: مصّعد أو مصمعد، وأثرنا أن تكون «مُصْطعِداً» (افتعل من صعد) وهي حال من الرجل.

(180) الخلقاء: لا نتوء فيها، فهي صعبة الارتقاء، لكن ذلك لم يمنع المنصور: ليست بصدد: ليست بمانعة صعوده إليه.

(181) جيش معدّ: مجهّز العتاد والعدّة (مفعول من أعدّ).

(182) ناء: ننتظر نائياً، على الحالية معطوفاً على «واثقاً».

كـنـفـيضٍ أخـرجـتْـه أمُّـه ليس إلاّ نبضَ روح وجَسدْ[183]
فـأوى من كـرَم المنصـور في كـنَفٍ رحـب وخـفضٍ ورغـد
10 طـلبـاً منـه لـبُقْيَـا روحـه، وبقـاء الـروح أشفى للكمـد
462 فـأبى الله سـوى إعجـالـه، وعـذابُ الله للوَغْـدِ أهـدّ[184]
فنضـا عنـه أديمـاً دنِسـاً كـان قـد أسـرف فيه ومَـرَدْ
كـأديم التَّيس، لمّا لم تـطِب ريحُـه، جُـرِّد منـه فـانجـرد
وحـشـاه سـالـخـوه سـعَـفـاً مـالئـاً مـا بين كَعْب وكَـتَـد
ثـمّ رقّـاه على مُـسْـتَـحْـصِـدٍ بـاسقٍ أجـردَ مـا فيه أَوَدْ[185]

وكان الشاعر الفزاريّ أيّام غلبة مخلد الدجّال المارق قد مدحه وهجا الأئمّة (عم). فقال أبو محمد عبد الرحمان العتقيّ[186] يحرّض المنصور (عم) على الفزاريّ:

الفزاريّ بعد أن كان مدح الثائر وهجا الأئمّة...

(متقارب)

أمنصـورَ هاشـمَ، من لا يحبّ حياتك، لا صحِبَتْه الحياةُ! (ط 308)
وعـاجَلَه، قبـل أن ينـتـهي إلى أمـدٍ يبتغيـه، الممـات!
أيمشي الفـزِاريُّ فوق التـراب، وأظـفـاره فـيـكـمُ دامـيـات؟

(183) في سيرة جوذر، 48 - 49: نبض عرق
(184) في سيرة جوذر، 48 - 49: للجسم أهدّ.
(185) المستحصد: القويّ البنية من الناس والدوابّ، ولعلّه يعني البعير البازل الذي وصفه ابن ناسك في الأبيات المتقدّمة (ص 460).
(186) المقطوعتان الآتيتان تُنْسَبان في مخطوط القصيدة الفزاريّة الذي اعتمدنا عليه لنشرها (انظر الهامش 189 الآتي) إلى «محمد بن عبد الله الأبرقطي أو الأبروطي» وقد مر شاعر بهذا اللقب، إلا أن اسمه محمد بن الحرث بن سعيد (ص 356 هامش 37). ونقل الداعي إدريس هنا يُبطل هذه النسبة. والعتقي الذي يذكره، لعلّه والد العتقيّ المؤرّخ صاحب «التاريخ الجامع» المفقود، فإنّ تداول الكنية والاسم بين عبد الرحمان ومحمد يرجح عندنا هذا النسب، خصوصاً وأنّ المؤرّخ توفي بعد هذه الحوادث بكثير (انظر الوافي بالوفيات طبع ألمانيا، ج 3 ص 239 ترجمة رقم 1251 حيث أرّخ لوفاته بمصر بسنة 384).

وسَبُّكم زَلَلٌ لا يُقالُ فهل تُغْفَرُ الزُلَلَ المُوبِقَاتُ؟[187]

5 فأين بوادرك المهلكات، وأين عزائمُك المنجزات؟

أرِحْ منه مُلكَك، لا تُبْقِه! فأفعالُه كلُّها منكراتُ

وجازِ اللعين بأفعالِه، فآثارهُ فيكمُ باقيات

وقال أيضاً يحرّضه عليه (ر 181 أ) من أ):

... فاستوجب نقمة الشاعر العتقيّ...

(الكامل)

أيظنّ وغدُ فزارةٍ ظنَّ آمرىء جهل العواقبَ، وَهْوَ لا يتفكّرُ

أنّ الذي ارتكبَ اللعينُ ونالَه من أهلِ بيت الوَحْي ذَنْبٌ يُغْفَرُ؟[188]

هيهاتَ تلك جَنِيَّةٌ مَطْوِيَّةٌ فإذا أتى الأجَلُ المُوقَّتُ، تُنْشر

463

واللهِ ما المنصور عنك بغافلٍ، لكن تبيَّنتُ الذي يتدبَّرُ

فوافى الفزاريُّ الإمام المنصور بالله (عم) تائباً مستغفراً، متنصّلاً من ذنبه معتذراً، وأنشده «القصيدة الفزاريّة»[189] المعروفة التي أوّلها:

---

(187) الزلل الأولى اسم من زلّ: زلق وأذنب والزُّلَل الثانية: نرى أنّها جمع زلّة والموبقات وصف لها.

(188) لعلّ «اللعين» تعني أبا يزيد، فيكون العتقي مشيراً إلى مدح الفراريّ لأبي يزيد، وهو مدح لم يصلنا.

(189) نشرنا القصيدة الفزاريّة في الحوليّات، عدد 10 سنة 1973 ص 128 عن مخطوطة المتحف البريطانيّ، ونشرها إبراهيم الدسوقي جاد الربّ ضمن كتابه «شعراء المغرب حتى خلافه المعزّ» القاهرة 1973، ولم نطّلع عليه إلاّ مؤخّراً. والقصيدة الفزاريّة في المخطوطة التي استعملناها مصحوبة بشرح للأعلام الكثيرين المذكورين فيها، بين أجواد وأبطال وأسياد في الجاهلية خاصة، ولعلها اكتسبت شهرتها - حتى صارت تعرف بالقصيدة الفرارية - من هذا الاستعراض التاريخي لأمجاد العرب القدماء، الذي يدل، فيما يدلّ، على رسوخ قدم الأفارقة في الثقافة العربية الإسلامية، ومعرفتهم الجيّدة بـ «الميثولوجيا» العربيّة. والشرح مجهول المؤلّف، إلاّ أنّه يبدأ بترجمة وجيزة =

(طويل)

لعمرُكَ ما أوس بنُ سعدى بقومه ولا سيّدُ الأوبار قيسُ بن عاصمِ[190]

ولا كان ذو الجدَّين بين كتائب لهامِيمَ من بكرٍ وحيٍّ اللهازمِ[191]

فهو اليوم يمدحُ المنصور بالقصيدة الفزاريّة

ثمّ ذكر كبراء العرب وملوكها وذوي البأس منها إلى أن قال[192]:

ولا كان قعقاعُ بن شَوْر إذا آحْتبى جليسٌ له لم يَشْقَ بين الأَقَاوِمِ[193]

= للمراري منقولة عن المؤرّخ أبي عد الرحمان محمد العتقيّ صاحب «التاريخ الجامع إلى أيّام العزيز الفاطميّ (انظر ص 32 من السبع السادس)، ولعله ابن الشاعر أبي محمد عبد الرحمان العتقي الذي مرت أبياته التحريضيّة على الفزاريّ.

(190) أوس بن سعدى هو أوس بن حارثة الطائيّ، ينسب إلى أمّه لأنّها حملَته على الحلم إزاء بشر بن أبي خازم وكان هجاه فظفر به فهمّ بقتله فزيّنت له سعدى العفو فغسل بشر هجاءه بمدائح في أوس وأمّه. وقيس بن عاصم المنقري هو من حلماء تميم، وهو الذي قال فيه الرسول (ﷺ): هذا سيّد أهل الوبر (انظر البحث المطول الذي ذيّل به عفيف عبد الرحمان رسالته: الشعر وأيام العرب في العصر الجاهليّ، بيروت 1984، ص 559).

(191) دو الجدّين كناية عن بسطام بن قيس الشيبانيّ البكريّ «أفرس مَن في الجاهليّة والإسلام»، وإن كان اللقب يطلق على جده الأعلى عبد الله بن همّام، وذو الجدّين: ذو الحظّين.

واللهازم مجموعة من بطون بكر بن وائل، واللهزمة: وسط الحنك، دلالة على وسط النسب، ومنه حديث أبي بكر الصديق: أمِنْ هَامِها أم لهازمها؟ واللهاميم: الأجواد من الناس والجياد من الخيل.

(192) أسقط الداعي إدريس ثلاثين بيتاً في تعداد أعلام الفروسية والجود والمروءة حتى يصل إلى القسم المدحيّ من القصيدة المراريّة، وهو الذي يهمه، ما دام يذكر أخبار المنصور. وكان الفزاري قد خصص القسم الأوّل، أي نصف القصيد لذوي المروءات القديمة، وجعلهم جميعاً بمثابة متبدأ الجملة وعلّق الخبر إلى البيت الرابع والثلاثين: (ما كل هؤلاء .) بأمنع منّي في كنف المنصور الح.

(193) القعقاع بن شور الدهليّ. بكريّ أيضاً من الأجواد وهو تابعيّ يضرب به المثل في حسن المجاورة.

بـأمنـعَ منّي في جــوار خليفـة   عطوفٍ على أهل البيوتات راحم[194]

35 كريم الأيادي والمساعي، نَمَتْ له   أبـوّةُ صِـدقٍ من ذُؤابـة هـاشم

شريف الأداني والأقاصي مقـدّم   إذا ما عددْنا فضلَ أهل المكارم

لـه من إمام المـرسلين وصِنْوِهِ   عَلِيٍّ، معالٍ ثابتاتُ الدعائم[195]

معالٍ هي الفخر الصحيح، وغيرها   معـاني مَجَـازٍ بين واهٍ وسـالم

ومن ذا يقيس الشمسَ في رونق الضحى   إلى كَوْكب في غيهب الليل عَاتِم؟

ومـا عُذر مشحـوذِ اللسـان مثقّفٍ   يرى الشكر في الإنعام ضربة لازم؟[196]

أبيْتَ، أميرَ المؤمنين، سوى التي   يزيد سنـاءً ذكرُهـا في المواسم

تُقىً وندىً ما بين حِلم ونجدة   وعفـوٌ وإمضاءٌ على كـلّ ظـالم

464

وكذّبتَ أطماع البُغـاة، فأدبـروا   لأعقـابهم مـا بين خـازٍ ونـادم

45 رجَوا من فساد الملك ما أطمَعَتْهُمُ   أمـانِيهمُ، والله ليس بنـائم[197]

فصبَّ عليهم محصَـداتٍ كأنّهـا   شآبيبُ قَطرٍ واكفِ الغَيم ساجـم[198]

ولولا حذارٌ من عقابك أرجَفُـوا   فعافُوا وعافَ الناسُ طيْرَ الأشائم

وإنّي لأدري أنّ أبغضَ مَن نمى   إليك، وإن أَوْلاك نُصحَ مداوم[199]

ظَلومٌ وكـذّابُ المقـال وفـاجـرٌ   وباغٍ وعاتٍ مستحلُّ المحارم[200]

50 ولِلْكذب المشْنوء في القلب سَورةٌ   أضـرُّ من الـداء العياء المـلازم

أمنتُ بك النُّكْدَ اللئـامَ وبغيَهم   وتسـويةً من جاهل غيـرِ عـالم

---

(194) كأنّ الفزاريّ يفتخر بنسبه، وكان أبوه عاملاً على الخراج لعبيد الله المهديّ، وجده كان من أهل الجدل والمناظرة (انظر الحوليّات عدد 10 ص 119).

(195) في الحوليّات، 134: وصنوهم.

(196) ضربة لازم وضربة لازب: شيء ثابت لا بدّ منه. وأسقط الناقل بيتاً قبل هذا البيت. ونحن نرقّم الأبيات بترتيب نصّ الحوليّات.

(197) في الحوليّات: ما عوّدتهم أمانيهم.

(198) المحصدات. الخيل القويّة البنية.

(199) نمى إليك (الحديثَ): نقله إليك عنّي، ولعلّه يعني العتقيّ حصمه الذي تقدّمت أبياته.

(200) في الحوليّات: وحاسد وباغ وكلّ مستحلّ. . .

بقـافيـةٍ لـو حُصِّلت لتـطايَـرَت … شعاعاً ولم تثبُتْ على فكرِ ناظم
أيحسَبهـا المغـرورُ تُنشـد بعـدَه … وتُنقَل من قرطـاسها المتقـادم؟
وما هي إلاّ كالقَسيِّ، متى انحنَت … أعاليه يُطرَحْ من جياد الدراهم[201]
55 وإنّ التي أنشـدتُها بثنـائكم[202] … مُحَبَّرَةٌ ما دامَ نسلٌ لآدم (ر 181 ب)
رأيت عـدُوّاً باسمـاً غير عـابس … وكـان زمانـاً عابسـاً غيرَ بـاسم
يكاسرني، والعينُ أعدلُ شاهـد … على غَيْب وَدّ أو دفينِ سخـائم
وكان غراب البين قد طار قلبه … يهـزّ ذنـابـاه كسيـرَ القـوادم
وإنّي لأرجـو منك أجـراً يُقِرّني … على رغم مجدوع المعاطس راغم
ولا شيءَ إلاّ في يد الله، إن قضى … بها يسُرت في كفِّ أروعَ صارم[203]
465 /ومَدَّ بها الوهّابُ نفساً كريمـة … معـوّدةً بـذلَ اللهى والكـرائم
فـمثـليَ يبـقى شـكـرهُ وثنـاؤه … ومثلك يـرجى للأمـور الجسائم
يغنّي بهـا الـركبـان في كـلّ بلدة … وتُحْدَى بهاخُوص الرِكاب الرواسِم[204]

فعفا عنه المنصور بالله (عم) ووصله وحمله على جواد وأجرى عليه وأحسن إليه[205].

---

(201) الدرهم القَسيّ: الرديء الزائف، والجمع قِسيان كصبيّ وصبيان (اللسان). ويبدو أنّ الفزاريّ في هذه الأبيات الثلاثة يسخر من شاعر وينتقص قصيدته التي ستموت بموته، فلذا شبهها بالدراهم المبهرجة الزائفة، ولعله يعني العتقيّ كما قلنا، ويدعو المنصور إلى أن يميّز بين الصحيح والبهرج، فلا تسوية بين جاهل وعالم.

(202) في الحوليّات: زينتها بمديحكم.

(203) في الحوليّات: في كفّ أغلب هاشميّ.

(204) الركاب: الإبل والمطايا، والخوص منها ج خوصاء: الغائرة العينين لطول السفر وتعب الرسيم.

(205) في رياض النفوس، 2/490 - 494، خبر عن إنشاد الفزاريّ أمام المنصور، ولكنّه ينشد قصيدة أخرى غير الفزارية، وهي في هجو بني عبيد حسب المالكيّ، أنشدها بطلب ملحّ من المنصور، فلم يعرض له بعد سماعها بسوء، وجعل المالكي ذلك من بركات الزاهد القيرواني أبي إسحاق السبائي الذي كـان الفزاريّ توسّل به.

وأمر أمير المؤمنين المنصور بالله إسماعيل بن أبي القاسم القائم بأمر الله (صلع) بالسلام عليه بإمرة المؤمنين، بعد أن أظفره الله بمخلد المارق الدجّال اللعين، يوم الخميس لليلة بقيت من المحرّم سنة ستّ وثلاثين وثلاثمائة (19 أوت 947)، فنادى المؤذّنون قبل الأذان لصلاة الظهر: «السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته» وأنذروا بالصلاة والناسُ في غفلة، فسُرّ الناس وجاؤوا يهنّئونه بالخلافة، فحدّثهم حديثاً طويلاً، ووعظهم ووعدهم جميلاً. وخرج الناس من عنده واثقين بعدله مستبشرين بما ظهر لهم من فضله. وأمر (عم) بإنشاء الكتب إلى الأمصار والأعمال بأنّه أمير المؤمنين، فكان ممّا انتُسخ من ذلك، بعد البسملة والحمد لله (تع) والصلاة والسلام على محمّد/ النبيّ وآله الطاهرين، قوله إلى عامل إفريقيّة:

المنصور يعلن عن تولّيه الخلافة..

466

«ولم يزل أمير المؤمنين يأخذ نفسه بِطَيٍّ ما آتاه الله من شرف الخلافة التي اصطفاه بها ورآه أهلاً لها، وفخرِ الإمامة التي جلّله الله (تع) سرابيلَها منذ أصار ذلك إليه، للّذِي قدّره أمير المؤمنين من إيثاق عُرى الإيمان * وتحصين بَيْضة الإسلام، ولما كان شاغلاً به قلبَه، مُعمِلاً فيه نفسه، ناصباً بدنَه، مستفرغاً وسعَه، من الجهاد في سبيل الله، والتوغّل في طلب الفاسق اللعين مخلد بن كيداد من المفاوز والرمال، والشعاب والجبال، لا يأخذُه ونىً ولا تلحقُه سآمة حتى يأخذ (ر 182 أ) لحقّ الله من باطله، ولدينه من إفكه، ويطهّرَ الأرضَ من رجسه ونحسه، وكره أميرُ المؤمنين إظهارَ ما اختاره الله تبارك أسماؤه لوليّه الإمام القائم بأمر الله (صلع) من النعيم المقيم (ط 311)، والثواب الكريم، وما أصاره إليه من سعة رحمته وبحبوحة جنّته مع أنبيائه المصطفين، وآبائه الخلفاء المهديّين، صلوات الله عليهم أجمعين، فيجدَ الكافر عند وقوفه على ذلك راحةً، ويُظهرَ لوفاته

.. ويكتب بذلك إلى الأمصار..

دش 281

.. ويبرّر كتم وفاة القائم باتّقاء شماتة العدوّ

467 (صلع) شماتة. فرأى أمير المؤمنين/ إخفاء ذلك إلى وقته ليُهلك الله الكافر بغيظه، ويُميته بحسرته.

«فلمّا أنجز الله لأمير المؤمنين وعده، وأعـزّ جُنده، وأفلجَ حجّته، وأمكنه من عدوّ الله وعدوّ نبيّه، وبسط فيه يدَيه وأمضى أمره، وشفى غليل أوليائه المؤمنين بما أراهم فيه من القلّة والذلّة، وسوء الحال وكسـوف البال، وأقـرّ عيونَهم وأذهبَ غيظ قلوبهم، وازدادوا بصيرة إلى صافي بصائرهم، وأهلك الله (تـع) الفاسقَ، وقـطع مدّتـه، وأراح الأرض من كفره، وأصـاره إلى أليم سعيره دش 282 وجحيم ناره، وتمّت كلمة ربّك الحسنى * لوليّه، أحبَّ أمير المؤمنين إبداءَ ما اختصّه الله به من كرامته، وآثره من مرتبته من بهاء الخلافة وسناء قدرها وجلالتها، ونافذ سلطانها، وساطع برهانها، والتسمّيَ بها، والإشهارَ بما حباه الله من فخرها. وأمر بإنشاء الكتب إلى جميع الآفاق على الرسم النافذ إليك في صدر كتاب أمير المؤمنين. فاستَمْرَت به الألسنُ وحسُن الأثر وطاب الخبر وانتظم أمر الدين وقامت شرائعه، وخابت نائرة أهل الإلحاد فيه والصدود عنه، وأزال 468 الله من قلوب الديّانين[206] ما كان خامرَهم، ورجـع إلى الحقّ/ نافِرهُم، وانقمع الباطل وأهله، وأرتج الكفر وسبله، وأصبح الحقّ بأمير المؤمنين ظاهرةً أعلامهُ، وسراجُ الدين ساطعاً برهانه، ووقعت الأمور بالرفق والتعديل، وجرت المجرى الحسن الجميل (ر 182 ب).

«ورأى أمير المؤمنين إعلامك ما منحه الله من تطوّله واختصّه به من فضله، لتحمد الله (تع) عليه وتتقدّم في إذاعته وإشادته فيمن قِبَلك من الأولياء والعبيد والرعيّة، ليتّصل سرورهم ويتجدّد لله (تع) شكرهم، ويحمدوا الله على ما منحهم ببركة أيّام أمير المؤمنين،

---

(206) الديّان هو الله تعالى، وهنا هم الحكّام والساسة.

[من] الاعتناء[207] بأمورهم وصلاح شؤونهم، وبثّ العدل في كافّتهم، ونفي الجور والظلم عن حاضرهم وباديهم، و[على] ما جمع الله لهم في هذه الدعوة الميمون طائرها، السعيدِ شَكُورها، من السلامة والألفة والاستقامة واستئثار * الرفاهيّة والدعة والسعة، وسكون الدهماء، وحقن الدماء (ط 312)، وصلاح الخاصّ والعامّ.

دش 283

«فأقِم الدعاةَ على جميع المنابر بكور إفريقيّة وأعمالها، وجميع البلدان والآفاق، أفضل وأكمل ما دعي به للأئمة المهديين، صلوات الله عليهم أجمعين، ومُرْ بإثبات ذلك في الطراز وفي دار الضرب[208] فيما قِبَلك.

المنصور يأمر بطبع اسمه على الطراز والسكّة

«واكتب إلى أمير المؤمنين بخبرك وخبر من قبَلك/ واتّصال مسرّتهم واعترافهم بفضل الله (تع) عليهم ببركة دولة أمير المؤمنين، وإظهار دعوته وسعد طلعته ويُمن طائره، إن شاء الله، والسلام عليك ورحمة الله».

469ا

فاستبشر الناس في الآفاق والأعمال بأخبار الدولة الشريفة المنصورية، وبما مكّن فيه لوليّ الله، عليه الصلاة والتحيّة.

وجاء معبد بن محمد بن خزر، وقد اجتمع إليه البربر ومن كان انضمّ إلى مخلد الدجّال، فاجتمعت إليه جنود كثيرة، فوافى بها

(207) في الجميع: والاعتناء، فأكملنا بـ«من» الموصول المبهم «ما» منَحَهم

(208) دار الطراز ودار الضرب من مؤسّسات الدول الإسلاميّة. وللمرحوم ح. ح. عبد الوهاب وصف للدينار المنصوريّ الذي أدخلت عليه خطوط «الأزواج» وعُيِّن فيه الشهر والسنة. وكان أبو يزيد ضرب ديناراً في مدّة استيلائه على القيروان فحمّله شعار الخوارج: لا حكم إلاّ لله. (الورقات، 440/1 - 441).

وعند ابن حمّاد، 36، أنّ المنصور أمر بأن يكتب اسمه على «الطرر»، أي الرايات والأعلام التي تصنع في دار الطراز مثل الحلل النفيسة والخلع السلطانية.

معبد بن خزر يأتي لنصرة أبي يزيد، جهلاً بوفاته

إلى الجبال والتلال التي حول معسكر أمير المؤمنين المنصور بالله (عم)، فوافى الدجّالَ قد قُضي أمره، وحاق به مكره، وذاق الوبال، وحاق به من الله النكال. وحين اجتمع مع معبد من آجتمع، أمر أمير المؤمنين المنصورُ بالله (عم) إلى زيري بن مناد وقيصر وشفيع الخادم، وقد كانوا صاروا إلى المسيلة، فوصلوا إلى أمير المؤمنين * فوافَوه يوم الجمعة، وقد برز عسكر الإمام إلى عسكر معبد. ومنح الله أولياءه الظفر عليهم فهزموهم هزيمة فاحشة وقتلوا منهم مقتلة عظيمة.

دش 284

ورحل الإمام (عم) ثاني وصولهم يوم السبت ثاني صفر[209] من معسكره مؤيّداً منصوراً/ مظفّراً محبوراً، وقد (ر 183 أ) أذلّ الله له الظالمين، ومكّنه من المارقين، وأيّد الله الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين. فلمّا أخذ الناس في الرحيل، زحف معبد بن محمّد بن خزر في من معه، وسار في ساقة عسكر أمير المؤمنين (عم)، وماج الناس ووقع القتال. فأمر أمير المؤمنين بشرى الخادم ومن معه مِن العسكر بحفظ ساقة العسكر. وكمن زيري بن مناد للمارقين، فحين وصلوا إليه، خرج عليهم الكمين وثار في وجوههم، فقتل منهم جماعة وكفّوا عن القتال. ووصل أميـر المؤمنين إلى المسيلة فأقام بها سبعة عشر يوماً. ووافته من كتامة هناك عساكر عظيمة. وأمر (ط 313) بإخراج جلد الدجّال، وطيف به على جمل في مدينة المسيلة.

470

.. لكنّه يردّ على الأعقاب

ووافى أميرَ المؤمنين (عم) بنو كملان، يتضرّعون ويسألون العفو والأمان، فأمّنهم وعفا عنهم ووسِعهم بعظيم حلمه، بعد أن

(209) ثاني صفر 336 كان يوم اثنين، إذ انتهى المحرّم ـ وهو ذو ثلاثين ـ يوم السبت 21 أوت 947 حسب موافقات كاتينوز.

دش 285
بنو كملان يطلبون العفو

أغلظ لهم في القول على معاضدتهم مخلدَ بن كيداد وإعانتهم له * في جُرمه وظلمه، فأكثروا الضرع إليه فكتب لهم سجلاً بالأمان، وأوسعهم بالعفو والإحسان.

471

ووصل إلى أمير المؤمنين (عم) وهو بالمسيلة، كتاب أهل تاهرت يُعلمونه أنّ حميدَ/ بن يصل المكناسيّ تغلّب على ما يلي تاهرت، وطمع في تاهرت فوافاها وحاصرها. وكان أمير المؤمنين على مسير إلى إفريقية، فرقّ لأهل تاهرت ونهض من المسيلة في الساعة التاسعة من الليلة المصبحة عن الثلاثاء لأثنتي عشرة ليلة بقيت[210] من شهر صفر (7 سبتمبر 947)، فوصل إلى تاهرت يوم الاثنين غرّة شهر ربيع الأوّل بعد العصر (20 سبتمبر) فنزل خارج المدينة، وتلقّاه أهلها الصغير منهم والكبير، فرحين مستبشرين بما أيّد الله [به] الإمامَ من النصر، وقضى له من الأمر. وذكروا أنّ حميد بن يصل قد رحل لا يعلمون حيث قصد ولا أين يمّم. ولم يعلموا بوصول أمير المؤمنين إليهم لشدة الحصار عليهم، حتى سمعوا طبوله وأقبلت عليهم طوالعُ خيله. فأمّنهم (عم) وأسمعهم خيراً، وأمر بجِلد أبي يزيد فطيف به. ووصل الخبر إلى أمير المؤمنين (عم) أنّ حميد بن يصل قد ركب البحر وقصد (ر 183 ب) الأندلس إلى بني أميّة[211].

مروق حميد بن يصل بتاهرت ولجوءه إلى الأندلس

(210) هنا يستقيم الحساب مع جداول كاتينوز، ولكنّه يخالف ما قاله إدريس منذ قليل: إذا كان يوم الثلاثاء هو السابع عشر من الشهر ـ وصفر له 29 يوماً ـ فإنّ الثاني منه يوم اثنين لا يوم ست كما قال. وعند ابن حمّاد، 36، أنّ التوجّه إلى تاهرت كان لستٍ بقين من صفر، فالاختلاف بأسبوع ويوم

(211) حميد بن يصل: هذا القائد المكناسيّ خدم بتاهرت المهديّ ثم القائم، وحارب باسمهما ابنَ عمه موسى بن أبي العافية، واستقلّ بتاهرت أيّام ثورة أبي يزيد، وانضم أخيراً إلى المروانيين بالأندلس. انظر عنه: البيان المغرب، 195 =

دش 286
472

واتّصل بأهل تنس وصول أمير المؤمنين إلى تاهرت، فأقبلوا إليه مسرعين، وعرّفوه أنّهم على طاعته. فأحسن إليهم وبرّهم وكتب لهم سجلاً شريفاً قرّرهم[212] فيه وأمّنهم * وقلّد أمير المؤمنين (عم) مسروراً الخادم عمل تاهرت يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول (21 سبتمبر)، وحمله على فرس بسرج محلّى.

مرض المنصور بتاهرت

واعتلّ أمير المؤمنين (عم) بتاهرت علّة شديدة فأقام عشرين يوماً لا يطيق قعوداً ولا قياماً، ويئس الناس منه وأرجفوا بموته وأهمّتهم أنفسهم وخافوا أن تخطفهم الأيدي و[يـ]ـتغلّب عليهم كلّ معاند معتدٍ. ثمّ منّ الله (تع) ببُرْءه وسلامته (ط 314).

وقد روى القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه) عن المعزّ لدين الله معدّ أبي تميم، ابن المنصور بالله، [و] وليّ عهده والخليفة من بعده، عليهما السلام، أنّه قال:

«لقد أخبرني أمير المؤمنين المنصور بالله (عم) أنّه لمّا اعتلّ بتاهرت العلّة التي أشفى فيها على الموت، اشتدّ يوماً به الوجع ويئس من نفسه. قال: فذكرت ما يجب لله (تع) عليّ من تسليم الأمر إليك والوصيّة بذلك، فأرسلتُ في طلب فلان وفلان ـ وذكر جماعة من أوليائه ـ لأذكر لهم ذلك من عهدي إليك فبعد أن مضى الرسول نمت، وما كنت أنام قبل ذلك أيّام العلّة، فرأيت رجلاً وقف عليّ فقال لي: ما الذي أردت أن تقول لهؤلاء القوم الذين أمرت بإحضارهم إليك؟

والمجالس والمسايرات، 252 وكتاب الاستقصاء، 188/1 وتاريخ إسبانيا الإسلامية، 102/2.

ويقول ابن حمّاد، 36 إن المنصور أحرق منبر تاهرت لأنه خُطب عليه لعبد الرحمان الناصر.

(212) في «هـ»: قدرهم. وقرّر هنا بمعنى: أقرّ أعيُنَهم وسرّهم.

قلت: أريد أن أُشهدَهم على عهدي ووصيّتي.

قال لي: ولم ذلك؟

473 فقلت: لما أنا فيه من العلّة، وقد يئست من نفسي.

قال: أفظنْنتَ أنّ الله (عج) يقطع بك عن أملك، وقد قمتَ له وبذلت من نفسك في طاعته ما بذلته؟ كلّا! والله لا ينالك شيء ممّا تخوّفته حتى يجمع الله لك شملك ويبلّغك ما تحبّ!

(قال): ثم انتبهت والرسول قائم فقال: قد حضر القوم.

قلت: أدخلهم!

فأدخلهم إليّ فعرّفتهم ما بعثت فيه إليهم، وأنا من العلّة والضعف فيما لا يطمع لي في الحياة مَن رآني. فوالله ما أمسيت يومئذٍ إلّا مفيقاً، وعادت القوّة في أيام قلائل باتّصال الصحّة، فانصرفت بعد (ر 184 أ) بلوغ الأمل ونيل البغية»[213].

المنصور يزور بعض المعالم الأثريّة في بلاد لواتة..

وركب الإمام (عم) يوم الخميس لليلة بقيت من ربيع الأوّل[214] إلى صخرة تعرف بـ«سناءة»، وهي صخرة عالية يجري عليها الماء وينحدر منها، فنظر إليها. ورجع إلى المناخ، وآثار العلّة ظاهرة في وجهه وشريف جسده، والناس يدعون له، وهم مستبشرون بعافيته. وأقام أمير المؤمنين (عم) بتاهرت.

ثمّ سار (صلع) يريد قبائل لواتة[215] وكانوا قد خرجوا عن

---

(213) المجالس والمسايرات، 555.

(214) سبق للمؤلّف أن حدّد غرة ربيع الأول بيوم اثنين، فالتاسع والعشرون منه يكون يوم اثنين لا محالة وفي جداول كاتينور يوافق يوم الخميس المذكور اليومَ الثاني من ربيع الثاني (21 أكتوبر 947).

(215) لواتة: عند ابن خلدون، 117/1 أنّ «أمّة عظيمة منهم كانت تسكن على وادي مينة قبلة تاهرت» وفي تاريخ الجزائر، 151، عدّ الشيخ مبارك الميلي قبيلتي =

الطاعة. وكان خروجه من تاهرت يوم الأحد لثمانٍ خلون من ربيع الآخر[216] فانتهى إلى أرض لواتة آخر نهار الأربعاء لإحدى عشرة ليلة مضت من/ ربيع الآخر، فوجدهم قد هربوا من بين يديه إلى الرمال (ط 315) والبراري المتّصلة بأرض السودان حيث لا ماء ولا مرعى، ولا أنيس يدعى. فأقام بأرضهم إلى يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر (4 نوفمبر 947). ووجد بها آثاراً عجيبة للروم، وبقيّةَ قصور مبنيّة بحجارة عظيمة على ثلاثة أجبال وفيها حجر قد كُتب فيه بالروميّة. فأمر الإمام (عم) من قرأ ذلك الزُّبْرَ فإذا تفسيره: «أنا سليمان السردغوس. هذا بلد يُعرف بموريطانيا. خالف أهل البلد على الملك جستنيانوس وعلى والدته توذرة، فأخرجني إليهم فبنيتُ هذا البناء لأُذكَرَ به، وفتح الله لي»[217].

474

سدراة (بسكرة) ومزاتة (باغاية) من فروع لواتة. وانظر فصل «لواتة» في دائرة المعارف الإسلاميّة.

أما صخرة «ناءة» فلعلّها «الصخرة العظيمة المنقطعة من جبل النصارى» على أربعة كم من تاهرت وثلاثة من قرتوفة، والمسمّاة اليوم «مائدة القرابين» (خريطة تاهرت رقم 33، المعلم رقم 11 من أطلس س. قزال). كما قد تعني الصخرة وماؤها المنحدر شلالاتٍ نهر مينة المنبثقة من مضيق صخري على 14 كم من تاهرت في جنوبها الغربي (ومعلوماتنا عن مطالعة لا عن معاينة).

(216) يوم الأحد 5 ربيع الآخر في الواقع (24 أكتوبر 947).

(217) السردغوس أو السردقوس ج السُّرادغة والسرادقة: هو مثل الدمستق الدماسقة، لقب عسكريّ بيزنطيّ ورتبة وظيفيّه، أصلها لفظ Strategos اليونانيّ (انظر ملحق دوزي في المادّة). وقد ورد اللفظ عند ابن حمّاد، 37 وعند ابن عذاري (حوادث 317) في معنى قائد الأسطول، وفي سيرة جوذر، 61.

وسليمان السردغوس هو «شولومون الأرمنيّ Solomon الذي حكم شمال إفريقيا للبيزنطيين بعد حملة بيليزير Bélisaire ضد الوندال. ودارت الوقائع فعلاً في عهد الأمبراطور جوستينيانوس الأوّل (527 - 567 م) وزوجته- لا أمّه تيودورا. وهذه الإشارة، وقد نقلها الداعي إدريس عن تاريخ الرقيق كما نقلها ابن خلدون نفسه، لا تخلو من عناصر الصحّة: اسم القائد، واسم الإمبراطور، وذكر المتمردين من البربر على الحكم الرومي. لكنّ المؤرّخين

.. ويعود إلى إفريقيّة مروراً بالمسيلة...

ورجع أمير المؤمنين من لواتة راجعاً إلى إفريقيّة يوم السبت لعشر بقين من ربيع الآخر (5 نوفمبر) فانتهى إلى مدينة المسيلة لليلة بقيت من ربيع الآخر. وأقام بها يوم الأربعاء [29 ربيع 2 - 27 نوفمبر] وارتحل يوم الخميس سحرا غرّة جمادى الأولى (18 نوفمبر)، فانتهى رابع ذلك اليوم يوم الأحد (21 نوفمبر) إلى مدينة سطيف فأقام بها ثلاثين يوماً.

475

دش 289

.. وسطيف وميلة..

وفرض على كتامة أربعةَ عشرَ ألفَ بيت يوافون المنصوريّة فيسكنون فيها، وأقام هذه المدّة لانتظارهم . وكان كثيراً ما يركب فيتنزّه. ونظر إلى قصر سطيف ورأى عجائب ما فيه، وهو مبنيّ * بالحجر الكبير والآجرّ، طوله ثلاثمائة ذراع، وعرضه ستّون ذراعاً، وفيه (ر 184 ب) آثار عجيبة، وفيه قطعة رخام مكتوب عليها بالروميّة. ففُسّرت فإذا كتْبُها: «ملَكَ هذا المِلكُ وهذه السيّدة هذا البلد وعاشا في هذا القصر سبعين سنة ثمّ ماتا، فأفّ للدنيا!»[218].

الغربيّين، مثل ديل Ch Diehl في دراسته الضخمة عن إفريقيا البيزنطية، ينفون أن يكون الحكم البيزنطي نفذ إلى جهة تاهرت، أي إلى ولاية «موريطانيا القيصريّة» وعاصمتها شرشال. فيقول ديل، ص 266 وقد اطّلع على رواية الرقيق: لعلّ هذه الكتابة نقشها بعض الرؤساء البرابرة من حلفاء شولومون، أو بعض مبعوثيه إلى القبائل.

أما الأجبال الثلاثة التي وجدت فيها هذه الكتابة، فهي قبور «الجدار» الهرميّة الشكل، التي تنتشر بجهة «فرندة» على خمسة وثلاثين كم جنوب تاهرت (انظر وصفها في أطلس قزال المذكور، خريطة تاهرت، المعلم 66، مع الملاحظة أن اسطيفان قزال لا ينقل الكتابة، فقد كانت مفقودة من المعلم حين زاره في بداية هذا القرن، وهو على كلّ حال لا يثق بصحّتها). وإنّا نتشوّف إلى رسالة جامعيّة ألّفتها باحثة جزائريّة في موضوع الأجدار أو أهرام فرندة لنعرف حقيقة هذا الزبر.

(218) قصر سطيف الأثريّ: هو الحصن البيزنطيّ المشيّد حوالي سنة 540 م: (أطلس قزال، خريطة 16، معلم رقم 364) وكان طوله، حسب تقدير الأثاريين، 158 متراً، وعرضه 107 أمتار. وفي أرقام المؤلّف ما يوافق في الطول ويخالف في العرض.

وقدم إلى الإمام رجل من أولاد مخلد بن كيداد مستأمناً، يدعى أحمد[219] فأمنه وخلع عليه وأعطاه ألف درهم.

.. حيث يجنّد الأسر الكتاميّة لتعمير المنصوريّة

ورحل أمير المؤمنين من مدينة سطيف يوم الأربعاء لستّ خلون من جمادى الأخرى (18 ديسمبر) فانتهى إلى مدينة ميلة عشيّة الجمعة وأقام بها تسعة أيّام، وفيها وافته حشود كتامة وعيالهم، فأنفذهم إلى إفريقيّة مع عبيده وأوليائه[220].

وارتحل من ميلة ليلة الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأخرى (3 جانفي 948) وانتهى (ط 316) يوم الثلاثاء لأربع بقيت منه (11 جانفي 948) إلى مدينة سبيبة. وخلع على جماعة من أوليائه خلعاً نفيسة ليلبسوها حين دخولهم المنصوريّة. واستقبل أهل المنصوريّة وأهل القيروان في مدينة سبيبة. ورحل منها ثاني ذلك اليوم يوم الأربعاء، وما زال الناس يتلقّونه حتى أطلّ على المنصوريّة فاستقبله أهل القيروان من الرجال والنساء والولدان بالتهليل والتكبير، حامدين الله على ما منّ [به] على المؤمنين والمسلمين

476

وصوله إلى عاصمته الجديدة

(219) أحمد بن مخلد: لم يرد اسم أحمد في أبناء أبي يزيد عند ابن حمّاد، 19 وهم: يزيد وأيوب وفضل ويونس.

قتل أيوب، «قتله عبد الله بن بكار غيلة سنة 333» (ابن حمّاد، 38).

وقتل فضل بباحية باغاية في ذي القعدة 336، وطيف برأسه في القيروان والمهديّة، ثمّ أرسل الرأس مع جلد مخلد المحشوّ إلى صقلّية لعرضهما على الناس، فعطب المركب وغرق رأس فضل. أمّا تمثال أبي يزيد فأرجعه الموج إلى شاطىء المهديّة فصلب «على مجرى الخابية» (ابن حمّاد، 38).

وقتل يونس في حصار كيانة سنة 335 حسب إدريس المؤلّف (ص 407).

أما يزيد، فقد انقطعت أخباره منذ محاربته للحسن بن عليّ الكلبيّ على باغاية وتيجس (ص 329).

هذا وسيذكر ابن سادس لأبي يزيد يدعى إبراهيم (ص 72/2).

(220) لا يدقّق المؤلّف هنا: هل بلغوا الأربعة عشر ألف أسرة التي طلبها المنصور؟

ويقول ابن حمّاد، 39 إن بني كملان طلبوا الأمان، فعفا عنهم، شريطة أن يسكنوا القيروان. فكانت اعادة لعمليّة القائم معهم بعد حملته المغربيّة.

من النظر إلى غرّته، سائلين الله أن يتمّ عليهم النعمة بدوام مملكته، شاكرين الله على ما منّ به عليهم من الأمن بعد الخوف العظيم، وتلف الأنفس والأموال وهتك الحريم. فسجد الله جلّ ذكره على عُرف فرسه وحمِده خاضعاً متواضعاً لعلوّ جلاله وعظيم كبريائه.

ووصل قصرَه بالمنصوريّة، الذي ابتناه قدامُ خادمه في غيبته. وكان وصوله (صلع) إلى قصره بالمنصوريّة صلاة العصر من يوم الخميس لِليلةٍ بقيت من جمادى الأخرى سنة ستّ وثلاثين وثلاثمائة 14 جانفي 948 بالنصر والتمكين والفتح المبين[221].

وعن أبي بكر جهور بن عليّ بن جهور بن زيد الهمدانّي الوادعي (ر 185 أ) رحمة الله عليه[222] أنّه قال: «وقال ابن حوقل البغداديّ: المنصورية مدينة بالغرب بناها المنصور (قس)، حسنة عجيبة الأبنية، واسعة الأفنية، معدومة النظير».

477

التطواف بجثّة أبي يزيد

وفي ثاني وصوله (عم) إلى المنصوريّة، أمر بإخراج جلد الدجّال المارق أبي يزيد، فطيف به ثلاثة أيام متوالية وعليه الطرطور والقِردانِ، وهو على جمل كالراكب، ورجل يمسكه من ورائه لكي لا يميل. ثم أمر به إلى المهدية فصُنع به كذلك، ونُصب على سورها حتى خرقته الريح.

---

(221) كان المنصور أمر ببناء المنصوريّة في صفر 335 قبل انطلاقه لملاحقة أبي يزيد (انظر ص 384) فبناء القصر لم يدم أكثر من 15 شهراً. على أنّ استقرار المنصور بالعاصمة الجديدة لم يتم، حسب ابن حوقل، 74، إلاّ في شوّال 337، وهو مخالف لما سيذكره إدريس بعد قليل (ص 478). وانظر التاريخ الصحيح ص 500.

(222) لا نعرف جهور الوادعي هذا. والفقرة المنسوبة إلى ابن حوقل تخالف عبارة الرحّالة: فهو لا يعدو الإخبار بانتقال المنصور إليها من المهديّة يوم الثلاثاء لليلة بقيت من شوّال 337.

ووصل إلى أمير المؤمنين (عم) وهو بالمنصوريّة، ولده ووليّ عهده والخليفة من بعده، معدّ أبو تميم المعزّ لدين الله، وليُّ عهد المسلمين يومئذٍ، صلوات الله عليه * وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين.

دش 291

وأمر أمير المؤمنين المنصور بالله بأن تُطبع الدنانير والدراهم باسمه بالمنصوريّة، وارتفع[223] أوّل الضريبة إليه، فبعث منها إلى عبده الرفيع مكانُه عنده، جوذر الأستاذ، بألف دينار من العين، إلى المهديّة وكتب معها رقعة بخطّه وهي:

دنانير جديدة باسم المنصور

«يا جوذر، صانك الله وسلّمك! بعثنا إليك بألف دينار رباعيّة منصوريّة ممّا ضُرب على اسمنا، فاقبضها لنفسك، مبارَكاً لك فيها، وآحذرْ أن تردّها إلى بيت المال، فإنّي أعرفك وشحّك على أموالنا، وما من أموالنا شيء أزكى من مال وضعناه/ بأيدينا حيث نشاء ابتداء منّا، ولا أعظم بركة على من وصل إليه بطيب أنفسنا. وإنّك عندنا لأهلٌ لكلّ خير، وما ترضى أن تستكثر هذا لبعض مَن تحت يدك، فاعلمْ ذلك»[224].

478

وأقام أمير المؤمنيْن المنصور بالله (عم) في مدينة المنصوريّة التي ابتناها، في عزّ ظاهر، وملك قاهر، قد خضعت له الأعناق، ودانت له في جميع الآفاق، وخمل أهل الشقاق والنفاق.

ثمّ إنّ فضلَ بن مخلد، سليلَ الدجّال المارق، انصرف عن معبد بن محمـد بن خزر إلى جبل أوراس، وموّه على الناس أنّ

---

(223) هكذا في الجميع، ولعلّها: ورفع إليه أو: وأن ترفع ..

(224) سيرة جوذر، 60. وفي تعليق ماريوس كانار، رقم 154، أنّ الدينار الربعي يساوي ربع دينار. وانظر فصل «دينار» في دائرة المعارف الإسلاميّة. فعلى أساس 4,24 غـرام للدينار العادي، يكون وزن الدينار الربعي 1,06 غرام.

أباه حيّ لم يمت. فاجتمع إليه أوباش الناس وطغامهم، من البربر وغيرهم، ممّن يريد الفساد والشغب على المسلمين، ومن تعوّد النهب والفتنة واختلاس أموال الناس وسبي الحريم ظلماً وإثماً *. فنزل (ر 185 ب) بهم فضل المارق من جبل أوراس إلى ناحية قسطيلية ثمّ إلى ناحية قفصة، واجتمع أهل الفساد إليه من كل ناحية، وبلغ إلى موضع يعرف بـ «فجّ الحمار»[225]، فأرجف الناس بأخذه قفصة وقسطيلية.

خروج فضل بن مخلد في الأوراس وقسطيلية

دش 292

واتّصل ذلك بأمير المؤمنين فنهض (عم) ومعه ولده معدّ أبو تميم وليّ عهد المسلمين وابن أمير المؤمنين، وكان مسيره من المنصوريّة/ يوم الاثنين مستهلّ شهر شعبان الكريم سنة ستّ وثلاثين وثلاثمائة (15 فيفري 948) ومعه عسكر كثيف. فانتهى يوم الأربعاء لعشر مضين[226] من شعبان إلى قرية «جمونس الصابون» وكان فيها قوم من أهل الفساد قد تحصّنوا بقصرها. فلمّا دنت منهم جنود الإمام، فرّوا على وجوههم يطؤون الرمال، وتركوا النساء والأولاد والأموال. فأمر أمير المؤمنين (عم) بصيانة النساء والولدان، وانتهاب ما في القصر من الأموال وحريقه بالنار. وأقام هناك ثلاثة أيام ثمّ ارتحل، فترك طريق قفصة يساراً، وجاز في طريقه بقرية يقال لها «برجمانة»[227]، وكان قد أوى إليها قوم من المفسدين. فأمر

479

خروج المنصور في طلبه بجمونس الصابون. .

. . وسبيطلة. .

---

(225) فجّ الحمار عند البكريّ، 47، 75 أيضاً، وفجّ الحمّام عند ياقوت في مادّة طراق. وهو موضع بين قفصة وفريانة حاليّاً، على طريق القيروان. وانظر الورقات، 308/3 - 314 حيث حاول ح. ح. عبد الوهاب تحديد هذه المواقع القديمة.

(226) في الجميع: بقين، ولا يستقيم مع الاثنين غرّة الشهر ولا مع السبت لعشر بقين منه فيما يأتي. هذا وإنّ غرّة شعبان 336 كانت يوم ثلاثاء حسب موافقات كاتينوز (الثلاثاء 15 فيفري 948).

(227) جمونس الصابون: هي قرية بئر الحفيّ الحاليّة في رأي العلاّمة ح. ح. =

دش 293

.. وقفصة...

480

.. وماواس

بحريقها ونهبها. وأقام بمدينة سبيطلة يوماً وطاف في بنيانها ومشى في آثارها، وهي المدينة التي كان فيها جرجير صاحب إفريقيّة[228]، وهي التي افتتحها عبد الله * بن [أبي] سرح أيام عثمان بن عفّان في سنة سبع وعشرين من الهجرة. وهي مدينة أوّليّة مبنيّة بالحجارة والآجرّ، يخرج من تحت سورها نهر. وانتهى إلى مدينة قفصة يوم السبت لعشر بقين من شعبان (4 مارس 948) فنزل بظاهرها بين مشرقها وشمالها، وكان ذلك المحطّ/ كثير العقارب والغبار، فانتقل منه إلى جنوب المدينة مسافة ميلين فنزل بين الأشجار والبساتين، واستراح الناس من الريح. ووقف بها إلى يوم السبت.

واتّصل به الخبر أنّ فضل بن مخلد لمّا علم خروج الإمام المنصور بالله (عم)، رجع هارباً إلى أوراس، وأنّه قصد إلى مدينة في جنوب جبل أوراس يقال لها مديلة[229]، وعاملها من قبل أمير المؤمنين باطيط بن يعلى بن باطيط. فارتحل أمير المؤمنين (ر 186 أ) من قفصة يوم الأحد لثلاث بقين من شعبان (12 مارس) فانتهى عشيّة الاثنين ثاني ذلك اليوم فنزل بحصن يقال له: «ماواس»[230] به نخيل

= عبد الوهاب. وهي عند ابن حوقل، 92. كمونس الصابون. وذكر البكريّ، 75 «قصرها الكبير، وهو مخزن لجماعة (/مجاعة؟) أهلها».

أمّا برجمانة، فلم نجدها في مراجعنا. وإذا كان المنصور قادماً من القيروان تاركاً طريق قفصة على يساره كما يقول المؤلّف، ومتوجهاً إلى سبيطلة، فإنّ برجمانة هذه قد تكون بين قمودة (سيدي بوزيد) شرقاً وسبيطلة والقصرين غرباً.

(228) هو البطريق البيزنطي جريجوريوس الذي قتل في معركة سبيطلة.

(229) مديلة: يذكر ابن حوقل، 87 «مدالة» بين تهودا ونفطة، على الطريق من بسكرة إلى الجريد التوسي. ولم يذكرها البكري حين فصّل مراحل هذه الطريق، ولكن ذكر قرية «قيطون بياضة»، وهو أوّل بلد سماطة، ومنه يتفرع الطريق إلى ثلاثة اتّجاهات: إلى بلد السودان، وآخر إلى طرابلس، وآخر إلى القيروان.

(230) ماواس: لم نهتد إلى موقعها. ولعلّها كانت توجد بين تهودا/ سيدي عقبة غرباً =

وعيون جارية، وهو حصن منيع قد أحاط به وادٍ عميق. وكان أهل ماواس من شيعة فضل بن مخلد المارق، وقد أوى إليهم كلّ مفسد وذاعر وسارق. فأعطاهم أمير المؤمنين الأمان على أنفسهم وأولادهم وأموالهم على أن يُخرجوا الطعام إلى الأسواق لتشتري منه العساكر ما * يقتاتون به، وأعطاهم علمين فخرقوا العلمين وباينوا بالخلاف ونادوا: لا طاعة إلاّ طاعة فضل بن أبي يزيد!/ فكرّر إليهم أمير المؤمنين الإعذار والإنذار، وحذّرهم عواقب الإصرار، فتمادّوا في العصيان والطغيان.

دش 294

481

المنصور يوكل إلى ابنه معدّ أبي تميم قتال المارق..

فأمّر أمير المؤمنين وليّ عهده المعزّ لدين الله، صلوات الله عليهما، لقتالهم، وهو يومئذٍ حدث السنّ ابن سبعَ عشرةَ سنة لم يشهد حرباً ولا حضر قتالاً. فنهض إليهم وأمر الناس بالقتال ووقف موضعاً يرى منه القتال ويدبّره، وكان إذا رأى خللاً في موضع سدّه أو فرصة اهتبلها، وكان يمشي تارة في اليمين، وتارة في الشمال، يحرّض الناس على القتال ويدير أمرهم، ويدبّر لهم ما يصنعون، وهو مع ذلك على سكينة ووقار من غير ترك للمكيدة والحذر. ورئي فيه (عم) من قوّة الجأش وحسن التدبير، مع حداثة سنّه وقلّة ممارسته بالأمور ما لا يوجد في بشر، إلاّ فيه وفي الطاهرين من آبائه (عم) حتى إنّ بعض من حضر ذلك القتال سأل بعض خاصّته: «أشهد مولانا الأمير حروب المهديّة؟

فقال: والله ما رآها ولا شهد شيئاً منها!

= إلى قفصة شرقاً، بين قسطيلية الزاب، تلك المنطقة التي عرّفها شتارن في فصله بمجلة أرابيكا، 345/1954 وافترض انطباق مصطلح «قسطيلية» عليها، وهي في منتصف المسافة بين طبنة وبسكرة، وقسطيلية تونس، أي منطقة الجريد.

482 فكثر تعجّبه. وليس بعجب أن يجعل الله ذلك في سلالة/ النبوّة وفرع الوصاية ومستقرّ الإمامة.

دش 295 ولمّا كان غروب الشمس غلب * الأولياء على الحصن وفتحوه عنوة وقتلوا أهله وانتهبوا ما فيه. ولم ينتهكوا حرمة ولا استباحوا حرّة. وانصرف المعزّ لدين الله إلى أبيه أمير المؤمنين (عم) مؤيّداً مسدّداً، تحفّه ألوية النصر، ويبتهج به وجه الدهر. واستقبله أمير المؤمنين قائماً على رجليه، وقبّل ما بين عينيه وضمّه إلى صدره، وقال له: «أنت ابني حقّاً!». وأمر بجزّ الرؤوس فزادت على ثلاثمائة، وبعث بها إلى المنصوريّة وإلى المهديّة. وأمر أمير المؤمنين بقطع نخيلهم وأشجارهم يوم الثلاثاء مستهلّ شهر رمضان ويوم الأربعاء (14 - 15 مارس 948).

.. فيظهر من التدبير والحنكة مع صغر السنّ..

.. ما تقرّ به عين المنصور

وقال الداعي جعفر بن الحسن منصورِ اليمن، فيما كان للمعزّ (عم) من فتح ماواس:

(كامل)

جعفر بن منصور اليمن يشيد بوقعة ماواس

آنعَم بعزّك يا آبنَ خيرِ الناس	وبما حباك الله في ماواس
من نصرةٍ لك إذ ذهبتَ مطالباً	لعصابة الأرذال والأنجاس
لمّا طغَوا متمرّدين، وغرّهم	شيطانُهم بالمكر والوسواس
فتمنّعوا في حصنهم واستقبلوا	جيشَ الإمام بجندل وتراس
5 فعفا ومنّ عليهمُ فتعرّضُوا	للبأسِ من مِلكٍ شديدِ الباس
/وتحزّبوا طاغين قد عطفتهمُ	للحَيْن شِقوتُهم على الإبلاس

483

* * *

فهناك أنهضَك الإمام عليهمُ	فنهضتَ مثل النور في الإغلاس
في عسكرٍ للمؤمنين أعزّةٍ	بالله لا عُزلٍ ولا أنكاس
فسررتَه يا ابنَ الخليفة بالذي	مارستَ أوّلَ مشهدٍ ومراس (ط 320)
10 وشفيتَ منهمُ صدرَه وأخذتَهُمْ	بالقَسر والإرغام والإتعاس

ساورتَهم في حصنهم متوقِّلاً[231] لهمُ بسَوْرة باسلٍ قِنْعَاس

وعزيمةٍ منصورةٍ قد حفَّهَا جندُ الملائِك من إلاه الناس

سُقْتَ المنايا والحتوفَ إليهمُ فأخذتَهُمْ بمسالك الأنفاس

بالمشرفيّةِ والرماح شَوارعا والنارِ في شُعَل من الأقباس

15 وسحائبِ النُّشّاب تُمطِرُ فوقهم مطَراً كصَوْب العارض الرّجّاس

فأبحْتَ حصنهُمُ ببأسِك عَنوةً فاسلَمْ عقيدَ ندى وليثَ مِراس

وقتلتَهُمْ في رأس حصنٍ لم يكن ليُرامَ في فَطَنٍ ولا بقياس

في مثل رَجع الطرفِ صاروا غُبرةً في الغابرين وعِبرةً للناس

أمسَوْا حصيدا خامدين كأنهم ما كان منهمُ طاعمٌ أو كاسْ [232]

20 ما زلتَ حين وردْتَ تعرُكُ جمعَهم وتدوسُهم بالبيض كلَّ مَداس

حتى صدرتَ بهامِهِمْ مقطوعة فوقَ الأسنّة في الظلام الغاسي [233]

وكأنَّ ما قد كان من أجسادِهم جسَدٌ يسير على البلاد براس

* * *

/فبقيت للمنصور بالله الذي أصفاه بالملك الجليل الراسي 484

ثمّ ارتضاك له وليّاً في الهدى والحقّ، تنصرُ أهلَه وتواسي

25 زَهَتِ العُلا بأبي تميمٍ واعتلت دارُ الهدى ووَهَتْ قُوى الأنجاس

صلّى عليك اللّهُ ما هزّت صباً أعطافَ خُوطِ البانَةِ الميّاس[234]

وكتب أمير المؤمنين (عم) إلى الآفاق بخبر فتح ماواس وبفرار ابن الدجّال. ومن ذلك كتابه إلى عامل المنصوريّة، وهو:

«باسم الله الرحمان الرحيم. تقدّم كتاب أمير المؤمنين لتعريفك حالَ اللعين بن اللعين، وأنّه، لمّا اتّصل به خروج أمير

(231) وقل يقل في الجبل وتوقّل فيه: صعد.

(232) في القرآن: ﴿ جعلناهم حصيداً خامدين ﴾ (الأنبياء، 15).

(233) غسا الليل: اشتدّ ظلامه.

(234) الخوط ج خيطان: الغصن الناعم.

هذا وقد نشرنا هذه القصيدة في الحوليّات، 17/69 - 70.

المؤمنين من المنصوريّة، استولى عليه من شدّة الرعب والرهب ما ولّى له هارباً من قصور قفصة[235] على وجهه إلى قفار الأرض ومفاوزها، متعمّقاً فيها، متروّعاً من موضع إلى موضع، لا يستقرّ به قرار، في ليل ولا نهار، معوّلاً على النجاة بالجدّ في الفرار، وتولية الأدبار. فقد باء بغضب الله وخزيه، وضربت عليه الذلّة والمسكنة، يحسب كلّ صيحة عليه، لفرط الخيفة، وأنّ الأرض تخطفه والسماء تدمغه، مقدّراً، لجهله وذهاب عقله، أنّ العساكر المنصورة لا تقصده بها لقلّة الماء.

رسالة المنصور إلى قدّام..

485 فنهض أمير المؤمنين، مستعيناً/ بالله، واثقاً بنصره، معتمداً على (ر 187 ب) معونته في إهلاك اللعين بن اللعين، وجميع حزبه الأخسرين. فنزل بموضع يعرف بـ «ستوربغين» من عمل قفصة، فوجد أهله من بني يفرن وكلالة وبرّاوية وبني شدّاد وبني وريمت قد هربوا منه وضووا[236] إلى أمثالهم * من ذوي الفسوق والمروق. فقدّم إليهم أمير المؤمنين الجيوش المؤيّدة، وصمّدهم في طريقهم، و[في] الانتقام لدين الله منهم، فتسنّموا في غد يومهم إليهم وإلى بني يفرن أهل بيت اللعين، وإلى بني واسين في الجبل المعروف بجبل ترشوان من عمل قسطيلية، والجبل المعروف بـ «أيّاش» من عمل الزاب، وأوقعوا بهم فيهما، وأنزلوا ما كان لهم بهما من الأموال والأثاث والأغنام والأنعام، وأضرموا خصوصهم ناراً، وهدموا الحصن المعروف بـ «ستامقرا»[237]، قصرِ الفاسق بشر بن منصور المكناسي

دش 299

.. يفصّل فيها وقعة ماواس..

(235) قصور قفصة: مصطلح الجغرافيين العرب للعمران المحيط بمدينة قفصة: «وحولها أكثر من مائتي قصر عامرة آهلة، تطّرد فيها وحواليها المياه. تعرف بقصور قفصة» (البكري، 47).

(236) ضوى إليه يضوي: مال وانضمّ ولجأ.

(237) في هذه الرسالة أماكن كثيرة لم نهتد إلى تحديد مواقعها. فلا ذكر لها عند ابن =

بعمل الزاب، واحتوَوْا على ما كان بهما من مذخور أطعمة قبائل الفسقة مكناسة بني مولاب، ومزرعة أهل فيلاج من أجناد المخذول بشر بن منصور، وبني مناوة من بني مغراوة، فجاسوا خلال ديارهم ودوّخوهم. والتجأ الفسقة إلى أهل بيوتاتهم بالمدينة/ المعروفة بماواس من أعمال الزاب، واجتمعوا إليها من كلّ أوب متظافرين على الغواية مستعدّين، شاكي السلاح وأصناف العدّة، واثقين بكثرة أعدادهم وعتادهم، وقوّة شوكتهم وبأسهم، ووعورة مدينتهم وحصانتها، وشموخ بنيانها، وعظم خندقها الهائل، المعجب منظره، الموئس من رامه، مقدّرين أنّها مانعتُهم وعاصمتهم ودافعةٌ بأسَ الله عنهم. ولم * يعلموا أنّ ذلك من (ر 188 أ) استدراج الله لهم لما يريد من الانتقام منهم. فألفاهم أميرُ المؤمنين مصرّين على ضلالتهم، منهمكين في غيّهم (ط 322) وعمايتهم، متهوّرين في غوايتهم، غامطين نعمة ربّهم، مرتكبين مساخطَه، متعرّضين لحلول قوارع سطواته، قد استحكم غضب الله عليهم، وأذِنَ الله بهلاكهم وتعجيل أرواحهم إلى أليم عذابه وشديد عقابه، بما احتقبوا من الآثام، وارتكبوا من الإجرام، وما الله للعبيد بظلام. فقدّم إليهم أمير المؤمنين الأعذار والأنذار، والتخويف والتحذير، تأكيداً لحجة الله (عج) عليهم، ومظاهرة لمنّه عندهم، ليُنيبوا إلى أرشادهم ويبصروا حظّهم، فلم يزدهم ذلك إلّا عُنوداً وإصراراً، وعتوّاً واستكباراً/.

486

دش 300

487

= حوقل والبكري، ورسم أسمائها غير ثابت، والقبائل المذكورة، لئن كانت تجمعها نحلة الإباضية، فهي متوزعة في مناطق شاسعة من قسطيلية والزاب وجهَة تاهرت، حتى المغرب الأقصى.

والملاحظ أن الداعي إدريس، وقد اعتاد أن ينقل محوى الرسائل قبل إدراج نصّها، لم يبدأ هده المرّة بنقل ما فيها، ففاجأنا بهذا العدد الكبير من المواضع والقبائل.

.. ويشيد ببلاء وليّ عهده أبي تميم المعزّ..

«فـأنهض الأميرَ أبـا تميم، مدّ الله في عمـره وأدام عـزّه، لحربهم، فصمد إليهم جَلْداً مشمّراً في ذات ربّه، وما يُزلف لديه ويُحظيه عنده، فاستبشـر الأولياء والعبيـد به، وبـادروا إلى حسن السمع والطاعة والقبول عنه، والمسارعة إلى مناجزة الكفَرة الفجَرة بأنفس حميّة وقلوب حنقة ونيات خالصةوعزائم نافذة، واثقين من الله الكريم بالعَون والتأييد والتمكين في إعزاز الدين والمسلمين، وإذلال المنافقين والمشاقّين.

دش 301

«واستقدموا إلى الفسقة فوجدوهم جادّين في باطلهم، مُبلِسين * على كفـرانهم مستبسلين بحلول النفاق بهم، غيـرَ مستبقين على أنفسهم، راكنين إلى الموت مستريحين إليه، متهافتين عليه تهافتَ الفراش على النار. فناجزوهم القتال، ودعَوْهم للنـزال، وشمّرت الحرب عن ساقها، وأذاقتهم مرارة مذاقها.

«وولج الأمير أبو تميم، أعزّ الله نصره وأدام عزّه، إليهم من أضيق المسالك راجلاً مصطبراً، ومتوكّلاً على الله محتسباً، متأمّلاً لأحوال الأولياء، راعياً لعوراتهم. وضمّ إلى نفسـه أهلَ البـأس والمراس بالحـروب، والبصر بمـوارد الإقحام ومصـادر الإحجام.

488

وسأل أهلَ المعرفة بوعر المدينة/ عن أيّ ناحية تمكن الفرصة فيها واهتبال الغرّة منها، وحرّض الأولياء على مكافحة عدوّ الله وعدوّهم، ووقّفهم على ما لهم بالاجتهاد في الجهاد من جزيل الثواب وكريم المآب. فصدقوهم المقارعة طعناً بالرماح وضرباً بالسيوف ورشقاً بالسهام ورمياً بالحجارة، حتى ساوروهم بمعقِلهم وأنزلوهم منه عنوة وقسراً، وغلَبة وقهراً (ط 323)، وأدركوهم في كلّ مهرب، وأخذوهم بكلّ نفق ومرقب، وقتلوهم شرّ قتلة وأنكاها. وأضرموا أعراش المدينة ناراً، وألحقوا أعالي جدرانها بحضيضها، وأحلّ الله بهم من الغِيَر والعِبَر ما جعله الله لخليفته في بلاده، وحجّته على عباده، آية واضحة، ودلالة لائحة، على اختصاصه بالفضيلة التي لم يؤتها سواه، وعرّف

دش 302

به ذوي الحجى والنهى مواقع * النعمة والنقمة، ودواعي أسباب السعادة والشقوَة، واهتدى له ذوو البصيرة فسعِدوا، واتّعظ به أولو الشّك فرشَدوا. وآحتوى الأولياء من ديار الكفّار الفجّار من أصناف الأموال النفيسة والأمتعة الجمّة، وكثرة الكراع والإبل، والبقر والغنَم والطعام ما يطول ذكره، ويعظم قدره عن وصف حدّه.

.. ويعدّد أصناف الغنائم..

489

«وآب الأمير أبو تميم، تمّم الله أمره/ وأعزّ نصره بالجيوش المظفّرة إلى مركزهم أفضل أوبة وأرضاها لله، لم يمّسهم سوء ولا كلم، ولله الحمد على ذلك خالصاً دائماً، والشكر خالداً زائداً سرمداً.

«وأمر أمير المؤمنين بعد ذلك بما أفضل الله به وأسبغ، وتطوّل فأوسع، ويبعث رؤوس مُقَدَّمِي الفسَقة ومـذكوريهم وذوي التقـدّم منهم، وكتب أسماءهم في رقاع عليها، لتطوف بها في المحافل فيما قِبَلَك، وتوجّهها (ر 189 أ) إلى جوذر لينشرها فيما قِبَلَه، ويعاين خواصّ الأولياء وعوامّ الرعيّة، من جميل صنع الله ومنائح إحسانه، وفواضل آمتنانه، ما يُسرّون به، ويعرّفون بقدر نعمـة الله فيه، ويقـابلونها بحقّها، ويسعون بشكرها إلى استدرارِ مواردها(237م)، فآعمِلْ به!.

.. ويأذن بعرض رؤوس القتلى بالقيروان والمهديّة

«وكتاب أمير المؤمنين من ماواس، وهو راحل إلى قسطيلية للانصراف منها إلى دار ملكه، إذ قد زال اللعين ابن مخلد، ولبس مهامهَ الرمال وغوامض التلال، إلى حيث غاب شخصه واستتر أثرهُ، ولم يعرف خبره، والله طالبه حيث * كان مهربه، ومنتقمٌ منه بعظيم ذنوبه عاجلاً، بحوله وقوّته.

دش 303

«وكتب يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شهر رمضان في سنة ستّ وثلاثين وثلاثمائة، والصلاة والسلام على محمّد النبيّ وآله».

(237م): قراءة تأليفيّة ففي «هـ»، الأصل المعتمد: واستدرار معادها. وفي «ر»: إلى استبدار مواردها. وفي المطبوع: واستدرار موادّها. وقرأ الدشراوي: واستدرار مواردها. وهٰذه العبارات كلّها تترجم معنى الآية: ﴿ لئن شكرتم لأزيدنّكم ﴾ (إبراهيم، 7).

490 ورحل أمير المؤمنين (عم)/ من ماواس لخمس ليالٍ خلون من شهر رمضان (19 مارس) فوافى قصره بالمنصوريّة يوم الثلاثاء للنصف من رمضان (28 مارس) وأقام إلى يوم الثلاثاء لخمس بقين منه (4 أفريل 948) وسار يوم الجمعة إلى المهديّة فنزل قصره بالمهديّة عشية السبت[238].

عودة المنصور إلى المهديّة

وكان يوم الفطر يوم الخميس مستهلّ شوّال من سنة ستّ وثلاثين [وثلاثمائة/ 14 أفريل 948]. وخرج أمير المؤمنين المنصور بالله (صلع) لصلاة العيد إلى المصلّى الذي ابتناه الإمام المهديّ (عم) خارج المهديّة، ووليّ عهده المعزّ لدين الله أبو تميم خلفه، وسار أعمامه أولادُ المهديّ بالله (عم) وإخوته أولادُ القائم بأمر الله، وأولاده[239]، خلف المعزّ لدين الله. وسار في عساكره بالوقار والاستغفار والتسبيح حتى انتهى إلى المصلّى، فقضى صلاة العيد، وارتقى المنبر وخطب فقال:

باسم الله الرحمان الرحيم

خطبة عيد الفطر 336 بالمهديّة

الحمد لله، شكراً لأنعمِهِ التي لا يُحصى لها عَدَدُ، وتعريضاً للمزيد من فضله الذي لا يَنْفَدُ. ولا إلاه إلّا الله إخلاصاً للتوحيد. والله أكبر، إجلالاً لذكر الله تعالى العليّ المجيد. سبحان الله المستشهَد [ة] آياته على/ قدرته، الممتنع [ـةِ] من الصفات

491

(238) خرج المنصور من المهديّة في شوّال 334 وعاد إليها في أواخر رمضان 336، فملاحقته لأبي يزيد دامت قرابة السنتين.

هذا، وإنّ حساب الأيام من الشهر عند المؤلّف مضطرب: رحل المنصور من ماواس يوم 5 رمضان، فوصل إلى المنصوريّة يوم الثلاثاء 15 رمضان فتوقف بها أياماً. ولكنّ الثلاثاء الموالي يكون يوم 22 رمضان (لثمان بقين منه) ورحيله إلى المهديّة يكون يوم الجمعة 25 رمضان (لخمس بقين من الشهر) ووصوله إليها يوم السبت 26 رمضان (وهو 25 منه في جداول كاتينوز/ 8 أفريل 948).

(239) أي أولاد المنصور، إخوة المعزّ.

ذاتـه، ومن الأبصار رؤيتـه، ومن العقول تحديده، ذي الكبـرياء والعـزّة والجـلال والقـدرة، والسّنـاء والعـظمـة، لـه السمـاوات العلى والأرضـون السفلى، ومـا فـوقهـا ومـا تحت الثـرى، كـلٌّ خاضع لعـظمته، متـذلّلٌ لعـزّته، متصـرّفٌ بمشيئته، واقـعٌ تحت قدرته.

وأشهد أنَ محمداً عبدُه ورسوله، اختاره وارتضـاه، وانتخبه واصطفاه، وكرّمه وأصفاه، وبعثه بالهدى ودين الحقّ، الذي تعبّد به مَنْ في السمـاوات من الملائكـة المقرَبين، ومن في أرضـه من الثَّقَلَيْن، فاضطلع عليه السلام بما حُمِّل، وبلَّغ ما به أُرسِل، صادعاً بأمر ربّه، صابراً على البأساء والضرّاء في جنبه، إلى أن أظهر الله دينَه على الأديان، وأزهق بحقّه أباطيلَ الأوثان. صلّى الله عليه وآله وسلّم، وشرّف وكرّم.

عباد الله،

أوصيكم بتقوى الله وطاعته، وخشية الله ومراقبته، والتقرّب إلى (ط 325) الله بما يرضيه، فإنه بما في قلوبكم عليم، وبأعمالكم بصير لا تخفى عليه خافية، ولا يعزُب عنه في السماوات والأرض مثقال ذرّة، ولا يُنجي من سخطه، ويُوصل إلى رحمته، إلاّ طاعتُه. ﴿ وَمَنْ * يُطعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ (الأحزاب، 71). دش 305

ألا وإنَّ الله (عج) جعل يومكم هذا عيداً عظيماً على الأيام، / 492
ختم به شهراً مفضّلاً على الشهور، وافتتح به أيّام شهور الحجّ إلى البيت العتيق الذي كرّمه وعظّمـه، وجعله قِبلة الصلوات، ومحلّ البركات، ومنـزل الرحمـات، ومثابـةً للناس وأَمَنـاً، ومناراً للدين وعلَماً. فتقرّبوا إلى الله في يومكم هذا بأداء فطرتكم التي هي زكاةُ صومكم، وسنّة نبيّـكم سيّد الأنبياء صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم،

تحديد زكاة الفطر

كلّ آمرىء منكم عن كل واحد من أهله ذكورِهم وإناثهم، صغيرهم وكبيرهم، صاعاً من بُرّ، أو صاعاً من شعير، أو صاعاً من تمر، من طعام أهليكم لا من غيره، فليس بمقبول إلاّ ذاك. وأكثروا من الدعاء، واستشعروا الحذر والرجاء. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آتَّقُوا اللَّهَ، وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ (الحشر، 18) فقريب والله، كأن قد(240).

وإنّه عزّ وجلّ لم يهملكم إهمال الهمَج، ولم يجعل عليكم في الدين من حرج، ولا عذر بعد إيضاح المنهج، وتأكيد الحجج، برسوله وأئمّة الهدى من ذرّيته، عليه وعليهم أفضل سلام الله ورحمته. وفّقنا الله وإيّاكم لما يرضيه ويُزلف لديه، ويقرّبنا إليه، فإنّا له وبه، وصلوات الله أوّلاً وآخراً على محمد خاتَم النبيّين، وسيّد المرسلين وعلى آله الطيّبين الطاهرين الأئمّة المهديّين الذين بالحقّ/ قضَوا ويقضُون، وبه عدلوا ويعدِلون. 493

وجلس جلسة خفيفة، ثمّ قام فقال:

باسم الله الرحمان الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والعاقبةُ للمتّقين، والصلوات الغاديات الرائحات الناميات الزاكياتُ الباقيات على محمد وآله الطاهرين الطيّبين، الأئمّة المهديّين، السادة الأكرمين، الطاهرين الأبرّين. حمداً حمداً! شكراً شكراً! أنجزتَ وعدك، ونصرتَ عبدك، على كَره الكافرين، وصَغار الماكرين الأخسرين الأفجرين (ط 326)،

---

(240) كأن قد: كأنّ الغد قد حلّ لقربه. والتركيب ينظر إلى بيت النابغة:

(كامل)

أفِد الترحّل، غير أنّ ركابنا لمّا تزل برحالنا، وكأن قد

(ديوانه، 93)

أحـزابِ الدجّـال اللعين، المغضوب عليهم الضـالّين، الأنجاسِ الأرجاسِ، الأذلّين الأتعاسِ، الأشقيـاء الأخزيـاء، الملعونين في الأرض والسماء.

حمداً حمداً! وشكراً لك شكـراً! عَوْداً وَبـدْءاً، لا مكافئـاً نَعْمَاءَكَ ولا مجازياً آلاءَك، معترفاً بالعجز عن الشكر، ولو بكلّ لسان طولَ الدهر.

المنصور يترحّم على القائم...

سلام الله وصلواته ورحمته وبركاته وتحيّاته وزكـ[ـيّـ]ـاتُه عليكُما يا أميرَي المؤمنين، يا خليفَتَيْ ربّ العالمين، يا ابنَي الهداة المهديّين، يا أبتاه! يا جدّاه! يا ابنَيْ محمد رسول الله! سلامُ مُسلِّمٍ لله فيما قضاه عليّ من فقدكما، صابراً على ما امتحنني الله به بعدَكُما، أوانَ الحسرة، وشَرَق * العَبرة عليك يا أبتاه يا محمداه! يا أبا القاسِماه! يا جَبَلاه! واشَوْقاه! واألَماه!/ وخالِق الأرض والسماء، باعث الموتى ومميت الأحياء، ما أنا في رَيْب من اختيار الله تبارك وتعالى لك، ونقلِك إلى دار كرامته ومستقرّ رحمته التي بوّأها محمداً رسولَه عليه السلام جدَّك، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب أباك، وفاطمة الزهراء البتولَ أمّك، وآباءك الطاهرين المهديّين الأبرار. لكنّ لوعة المحزون باعثةٌ للشجون، مبكيةٌ للعيون. فإنا لله وإنّا إليه راجعون، ولـه مسلّمون، وعلى كـلّ حال تَصَـرُّفُ بنا حـامِدُونَ، ولنعمـائِه شاكرُونَ.

دش 307

494

.. ويحمد الله على قهره أبا يزيد

فقد أعظم الله (عج) النّعمة، وضاعف المنّة بما ربط على قلبي من الصبر، ثم أكرمني به من العزّ والنصر الذي أرسى به قواعد الإسلام، ونوّر به قلوب المؤمنين بعد الإظلام، وبعد انقطاع الرجاء، لتطاول مدّة البلاء، بالفتنة العظمى وأهـوالها، وبَلْبَـالها، وزلزالها، ظلماءَ بهماءَ، عمياءَ صمّاءَ، جـاهليّة جهـلاءَ، بدجّـال النفاق، وأحزابه المُرَّاق، أعـداءِ الدّين، وأنصـار إبليسَ اللعين،

أمهلهمُ الله استدراجاً، وأملى لهم فزادوا في الغيّ لَجاجاً، ليميّز الله الخبيثَ من الطيّب، وليرى أولو الألباب مصداقَ وعد الله في الكتاب: ﴿ آلم، أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا، وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ؟ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ/ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِين صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ ﴾ (العنكبوت، 1 - 2)، وعداً من الله لا يُخلفه وحكماً لا يبدِّله، في الأولين من عباده (ط 327) والآخرين، إلى يوم الدين، فكانت بحمد الله ونعمته على أعدائنا فتنةً أصمّتهم وأَعْمَتهم، وأضلّتهم وأردتهم، وأتعستهم وأركستهم، وأذلّتهم وأخزتهم، ولنا ولأوليائنا محنةً أكسبتنا أجراً وذخراً، وأعقبتنا عزّاً وفخراً، كان وجهها شتيماً، وعقباها كريماً، لما أراد الله (عج) من تجديد دولتنا وإعزازنا، وإظهار نعمته علينا، وتكفّله بنصرنا، وتمحيص أوليائنا، وتمحيق أعدائنا، حتى إذا انتهت منتهاها، وبلغت أقصى مداها ورجع الشيطان خاسراً، ونطق هادراً، وأذكى ناره، وأدام إصراره، وآسف الله جبّاره [241]، أذن الله بالنقمة فيه بتسليط (ر 191 أ) عبده ووليّه عليه، فجلّى الله ظُلَمَها، ونوّر بُهَمَهَا، وكشف غمّاءها، وصرف لأواءها، بي وعلى يدي، كرامة من الله خصّني بها، وفضيلة حباني بشرفها، ونعمة لي ذُخرها، وعليّ قصرها، ووصل بحديثها قديمَ النعمة على آبائي الطاهرين، وسالف منته على أجدادي الأئمّة المهديّين.

495

فتنة مخلد كانت امتحاناً للدولة. . .

. . وابتلاء لرجالها

شهّرت دون ذلك السيوفُ فكسرها، ودلفت إليّ الزحوف فهزمها، وتظاهرت عليّ جنودُ الكفرة/ فخذلها، وطمحت العيون نحوي فطمسها، ورُفعت الرؤوس فنكسها، وشمخت الأنوف فأرغمها، وصُعّرت الخدودُ * فأضرعها، وأبى جلّ جلاله إلا إتمام وعدي وأمري، وإعزاز نصري، وإظهاري وإظفاري، وتأييدي

496

دش 309

(241) في القرآن: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنهُم ﴾ (الزخرف، 55).

وإعلائي، إنجازاً لوعده محمّداً عليه السلام بإعزاز ملّته، وإعلاء حجّته ونصر أئمّة الهدى من ذرّيته. فأمضى قضاءه قادراً، وكبت أعداءه قاهراً، لا معقّب لحكمه، ولا رادّ لأمره ولا شريك في الحمد له.

يا أهل دعوتنا، يا أنصار دولتنا، يا كتامة!

كتامة هم الأنصار الأوفياء..

آحمدوا الله واشكروه على ما خصّكم به من نعمه، وجسيم مننه، وفضّلكم به على كافّة الخلق، في غرب وشرق. بدأكم عزّ وجلّ بالنعمة العظمى، ثم شفعكم بالمنّة الكبرى، ووالى بينهما عليكم من سوابغ النّعماء بما لا يُحصى: بَصّركم، والناس عميان، وعلّمكم، والخلق جهّال، وهداكم، والعباد ضلّال، إلى دينه، ونصرة حقّه وطاعة وليّه، علَم الهدى وسراج (ط 328) الدجى، وقطب الدين، وحبله المتين، فأرقاكم بالسبق إلى نصرته، والسعي في طاعته، والتفيّء بظلّ دولته، والاستنارة بضياء حكمته، حتى إذا قضى الله زلزال البلاد، واختبار العباد، [و] جلّل الأرضَ الظلامُ، وزلزل الأقدام، وعظمت الخطوب، /واشتدّت الكروب، ويئست القلوب، عصمكم الله، وهدى قلوبكم، وثبّت أقدامكم إلى أن جلاها الله عنكم خاصّة، وعن العباد كافّة بنا وعلى أيدينا، فكانت عليكم نعمة، وعلى العباد حجّة، فانجلت عنكم والله بيضَ الوجوه، موفين بعهد الله، معتصمين بحبله (ر 191 ب).

497

اللّهم إنّي أصبحت راضياً عن كتامة[242] لاعتصامهم بحبلك، وصبرهم على البأساء والضرّاء في حنبك، تعبّداً لنا، واعترافاً بفضلنا، وأداء لما افترضه الله على العباد لنا، وتوسّلاً إليك بطاعتنا.

---

(242) أصبح راضياً عنهم بعد أن وبّخهم عن تقاعسهم في محاربة أبي يزيد (انظر رسالته ص 380).

اللهم فارْضَ عنهم، وضاعف حسناتِهم، وآمحُ سيئاتهم وآحشُرهم في زُمرةِ نبيِّكَ الذي دانوا به، ووليّك الذي والَوْه وأبق نعمتَك عندهم، وأتممها عليهم، وأَكْمِلْ حسناتك إليهم، وخلّد العزَّ في أعقابهم، وأَجْزِلْ ثوابهم، وآهدِهم! وطَهِّرْ قلوبهم، إنَّكَ سميعُ الدعاء قريبٌ مجيبٌ!».

ونزل (صلع) فانصرف إلى قصره، وأمر بإطعام الناس، وفرّق صدقات على الفقراء والمساكين.

ولاثنتَي عشرة ليلة خلت من ذي القعدة (24 ماي) جيء إلى الإمام المنصور بالله (عم) بأبي بردعة أسيراً[243]، وكان قد ثار أيّام شغل المنصور بعدوّه، وقطع السبل وأخافها، وضرب على المنازل وانتهبها. فأمر به أمير المؤمنين فسُلخ على باب المهديّة.

أسر ابن بردعة الثائر

[وفي تاريخ الحسن بن جعفر الأنصاري[244]: وفي سنة أربعين وثلاثمائة، أخرج الإمام المنصور بالله (عم) أسطولاً عظيماً إلى صقلّية للغزو منها، مع فرج[245] الخادم. واجتمع بابن أبي

(243) لاعلم لنا بأبي بردعة هذا وذكر ابن الأثير 47/7 ثائراً اسمه سعيد بن يوسف غلبه بلكين بباغاية.

(244) المؤرّخ الحسن بن جعفر الأنصاريّ: نقل عنه إدريس أربع مرّات، هذه أولاها، ولا نعرف من هو بالتدقيق، إلّا أنّا عثرنا عند السخاوي (الإعلان بالتوبيخ، 110) عن اسم مؤرّخ يدعى الحسين بن إدريس الأنصاري الهروي وشهر باسم «ابن خرّم». وفي أعلام الزركليّ، 251/2 أنه توفي سنة 301 أو سنة 351، ولا يمكن أن يكون صاحبنا لأن أحد النقول عنه (انظر ص 133/2) يذكر خروج المعزّ إلى مصر، أي بعد سنة 362. وهذا النقل، مثل النقول الثلاثة الأخرى، مقحم في نصّ الداعي إدريس أو مزيد عليه في الهامش، وإنّما أدرج في النصّ ضمن الكتاب المطبوع فقط.

(245) في النصّ المقحم: فورج، والتصحيح من ابن الأثير، 339/6 وابن خلدون، 45/4، ولا يأتي الخبر في محلّه من الترتيب التاريخي، إذ يروي حادثة وقعت سنة 340، ونحن ما زلنا في سنة 336.

الحسين،[246] وصارا إلى قلوريّة من بلاد الروم، فكان فتحاً عظيماً، والتقيا بجليان[247] صاحب أسطول الروم آخر ليلة من ذي الحجّة (28 ماي 952) فغنماه وقتلا كثيراً من رجاله، وغنما جميع ما معه من أموال، ورجعا إلى عند الإمام (عم).

[غزوة فرج الخادم الى صقليّة وقلوريّة]

وفي سنة إحدى وأربعين جمع معبد/ بن محمّد/ بن خزر[248] جموعاً كثيرة، وسار إليه زيري بن مناد أمير صنهاجة فهزم عسكره من البربر، وأسر معبداً وحمله (ط 329) إلى المنصور بالله (عم)، فقتل وصلب هو وابنه[249]].

[أسر معبد بن خزر مع ابنه وقتلهما]

498

ووصل باطيط بن يعلى بن باطيط/ برأس فضل المارق ابن مخلد لعشر بقين من ذي القعدة[250]. وكان فضل المارق قد زحف من جبل أوراس إلى مدينة باغاية وحاصرها، فأتاه باطيط مظهراً الدخول في طاعته فوثق به واطمأنّ إليه، فاحتال باطيط حتى اختلى به وفاوضه. فلمّا تمكّن منه باطيط وأمكنته الفرصة فيه، سلّ سيفه وضربه حتى أمضاه واجتزّ رأسه وسار به. ولم يشعر عسكره بذلك

قتل فضل بن أبي يزيد

---

(246) أي الحسن بن عليّ الكلبي (انظر ص 264) وقد ولي صقلّية من 336 إلى سنة 341 (انظر ابن خلدون، 47/4، وسيرة جوذر، تعليق 132 والترجمة، هامش 184 و 422).

(247) في المطبوع: بسلحان، وليس لنا وثوق بهذا ولا بذاك، فابن خلدون، 45/4 يسمّيه «رجار ملك الإفرنج» مع أنه يقول فيما بعد، 209/4 أنّ قسطنطين ملك الروم/ «أرسل بطريقاً في البحر في عسكر كبير إلى صقلّيّة واجتمع هو والسردغوس». وكذلك ابن الأثير، 339/6 يذكر الوقعة ولا يذكر اسم القائد البيزنطي. ويتفق ابن خلدون مع ابن الأثير في تحديد الوقعة: يوم عرفة من سنة 340، خلافاً لما يقول الحسن الأنصاريّ: آخر ليلة من ذي الحجّة.

(248) معبد بن خزر عند الحسن الأنصاري، وفقاً لما رأيناه عند ابن خلدون الذي يجعله أخاً لمحمّد بن خزر.

(249) لم تذكر المصادر ابناً لمعبد بن محمّد بن خزر ثار معه.

(250) رجعنا إلى حوادث سنة 336.

إلّا بعد ساعات طويلة، وقد نجا باطيط. فافترق العسكر وانحلّ أمرهم.

فأمر أمير المؤمنين (عم) بالطواف برأس فضل بن مخلد والنداء عليه. وأحسن إلى باطيط وخلع عليه. وأخمد الله نار الفتنة، وقضى لرايات وليّه بالعزّة والرفعة، وللناس في ظلّ دولته وسعادة أيامه بالأمن والدعة، وأبطل الله سعي المارقين وكيد الباغين، واستأصل شأفة المفسدين. وأمنت (ر 192 أ) السبل والأطراف، وقرّ كلّ من قد وجِل قلبه وخاف.

وقل في ذلك الداعي جعفر بن الحسن منصورِ اليمن بن فرج ابن حوشب رضوان الله عليه (طويل):

ألا يـا أمينَ الله يا عـاليَ اليد ويـا مصطفى آلِ النبيّ محمّـدِ
ويا خيرَ من ألقتْ إليـه قيادَهَـا أمورُ الورى من ذي مَغيب ومشهد
دش 312 * هنيئاً لك التوفيقُ في كلّ حالة منَ الله والتأييدُ في كلّ مقصد
499 ولا زلتَ مســروراً بفتــح مبيَّنٍ مدى الدهر محبُوًّا بنصر مجدّد/

* * *

جعفر بن منصور اليمن يشيد بأخذ فضل

5 أراد النجا إذ فرَّ فضلُ بنُ مخلد لينجُـو فما أنجـاه طولُ التبعّـد
وألفى المنـايـا شُـرَّعـا يقتنِصْنَـه رصَدْنَ له بالحتف في كل مرصد
حتمتَ على كلّ القبائـل أخذهَ وتطْلَابـه في كل خبت وفدفد[251]
وطـاشت به للحَيْن شِقـوةُ جَدّه إلى أجَل وافاه من غيـر موعـد
تعرّض في قصوى النواحي ببغيهِ يريدُ من الأيّام ما لم تُعَوَّدِ (ط 330)
10 فمُدَّتْ عيونُ المـارقين غضيضةً إلى مُبـرقٍ بالتُـرَّهَـاتِ ومُـرعـدِ
فثـارت له بـالمشْرفيَّـات عُصبَـةٌ مخافةَ ليثٍ في المهالك مُـورِد
وقـامت لسلطان الإمامِ وسَعْـدِه ونصـرٍ لمن والاه بالعـزّ مُسعِـد

(251) الخبت: ما اطمأنّ من الأرض واتّسع. والفدفد: المكان الغليظ منها.

* فدارت رحَى الموت المبيد سريعة على الناكثِ بنِ المارق المتمرّد دش 313
فأضحى ابن دجّال النفاق، ورأسُه على صعدة تُهوي به كلَّ فدفد
15 يسير بها من قام في نُصرة الهدى بِداراً إلى باب النجاح المصمَّد
إلى باب خيرِ الخلق، للحمد عندَه ومن يكتسبْ فعلاً من الخير يُحمَدِ
ففاض عليه من عطاياه زاخِرٌ كذي لجَبٍ يطفو على الشطّ مزبد

* * *

ولم يزلِ المنصورُ بالله قادراً يبيد عِداه بالقنا المتقصّد[252]
إذا قيل للطاغين في كل بلدةٍ: سينهض إسماعيل في اليوم أو غد
20 أطارهمُ من قال، في كلّ موضع، وأقلقهمْ بالذُّعرِ في كلّ مقعد
فأمسَوا معاً: إمّا طريداً مُزايلاً/ حِذاراً وإمّا طائعاً لم يُشرَّد 500
فها تلك أقطار الهدى وقراره مسدّدة فيها بهَيْبَة أصيد
فيا خالقَ الدنيا وليُّك قائمٌ * بحقّك فانصره على كلّ مُعتد
أبو الطاهر الميمونُ، أنتَ اصطفيته إماماً مُتِمّا عن رسولك أحمد
25 فمهِّدْ له الدنيا بأن قد جعلتَه إماماً شهيداً في العباد لمشهَد

* * *

ألا يا أميرَ المؤمنين، لقد قضى لك الله حتماً بالعلا فَاعْلُ وازدد
ودُم للهدى والمكرُمات ممتَّعاً بعزّ على طول الزمان مخلَّد
فدونكَها يا ابن النبيّ محمّدٍ نتيجةَ ودّ خالصٍ متجدّدِ
فمُنَّ أوِ افضُل مُنعِماً بقَبولها فمَن يُعطَ حظّاً من قَبولك يسعدِ
30 وصلّى عليك الله ما قال قائل وما خطّت الأقلامُ في الطرس بيد

استقرار المنصور بالمنصورية

وأقام أمير المؤمنين (عم) بالمهديّة إلى سلخ صفر (337/ 7 سبتمبر 948)، واستعمل على المهديّة عبده وعبد آبائه جوذر، وانتقل

---

(252) المتقصّد: المتكسّر، ولعله يعني: حتى وإن تكسّر الرمح بيده، فهو يهزم العدوّ لا محالة.

فسكن قصره بالمنصوريّة، وذلك في شهر ربيع الأوّل من سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة (سبتمبر/ أكتوبر 948)، ومعه وليّ عهده والخليفة من بعده أبو تميم المعزّ لدين الله، وخواصّ دعاته وأوليائه، وسائر أهله وولده[253]. فجعل المنصوريّة مسكناً وأقام بها، وقد انصلح له الجمهور، وقامت/ بسيفه الأمور، ودخل الناس في طاعته مهطعين، وشمَلهم ظلُّ مملكته مكرهين وطائعين. فاستقرّ الملك في قراره، وقام المجد على ساقه، وأخمد الله نيران أعدائه وأهل شقاقه (ر 193 أ) وشمَل الناسَ عدلُه وعمّهم فضله، ونصب عمد الشريعة وأقامها، وأظهر سننها وأحكامها، وأقام باطن الدعوة وظاهرها، وأحكم قواعدها ومشاعرها، وأبان نواهيَها وأوامرها.

501

ونصب أمير المؤمنين المنصور بالله (عم) القاضيَ الأجلّ النعمان بن محمّد بن حيون التميميّ (رضي الله عنه) للقضايا بالمنصوريّة والقيروان وأعمال إفريقيّة، وأمضى حكمه في جميع ما استولت عليه المملكة العلويّة، والدعوة الشريفة الفاطميّة. وجعل قضاتَه في الآفاق، عن أمر القاضي النعمان يصدرون ويوردون، وفي تيّار ما استفاده من علم الأئمّة يَرِدُون. وقد كان قبل ذلك استقضاه بطرابلس، ثمّ أمره بالكون بحضرته في المنصوريّة وقلّده أمر قضائه ودعوته[254].

تعيين النعمان قاضياً على كافّة إفريقيّة

قال القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه): «.. وكان أمير المؤمنين المنصور بالله استقضاني بمدينة طرابلس. ثمّ أنفذ أمره إليّ بالقدوم فقدمت، فلمّا أشرفت على المنصوريّة واجهتُ المعزّ لدين الله صلوات الله عليه خارجاً لبعض ما كان يخرج إليه/

502

(253) هذا التاريخ أوفق لما قالته المصادر الأخرى ممّا سبق للمؤلّف أن ذكر (انظر ص 476 هامش 221).

(254) هنا تنتهي المقتطفاتُ من الكتاب التي نشرها الدشراوي.

في موكب ضخم. فنزلتُ وبادرتُ إليه للسّلام عليه وهيّأتُ كلاماً. فما هو إلاّ (أن) قربت منه وملأتُ عيني [من شخصه الزكيّ حتى][255] ملأتْ صدري هَيْبَتُهُ ورأيتُ جلال الإمامة في وجهه، فوالله ما دريت ما أقول ولا عوّلتُ إلاّ على تقبيل الأرض. ثم أومأ إليَّ بيده فقبّلتُها. وأفْحِمْتُ هيبةً له وإجْلالاً، فابتدأ إليّ بالكلام/ فقال: «قدمتَ خيرَ مَقْدَمٍ وبارك الله فيك وجزاك خيراً عن نفسك، فقد انتهى إلينا خبرُك، سِر راشداً إلى باب أميرِ المؤمنين!». وحَرَّكَ دابّته.

نقل عن النعمان في فرحه بخدمة الأئمّة. . .

ولمّا مثلت بين يدي المنصور بالله صلوات الله عليه، قال لي فيما قال: يا نعمان، إذا جزى الله المحسنين خيراً فجزاك الله عنّا أفضلَ الجزاء!

فما كنتُ بشيء أسرَّ منّي بما سمعتُ يومئذٍ من المنصور والمعزّ لدين الله صلوات الله عليهما.

وقال القاضي النعمان بن محمد (رضي الله عنه): ولمّا استقضاني المنصور بالله صلوات الله عليه على المنصوريّة أمرني بالجلوس للنّظر بين الناس في سقيفة قصره وقال لي: لو اتّسع لي أن أجلسَك بين يديّ في مجلسي داخل قصري لكان ذلك أعجب لي. فإذا كان ذلك لا يمكن فاجلس في سقيفة قصري فإنّه أحقّ موضع أقيمت فيه الحقوق ونَفَذَتْ فيه الأحكام.

503

. . وفي ظروف عمله

فجلست حيث أمرني فيه بالجلوس، فضاقت/ الحال لذلك بأكثر الخصوم سيّما بالنساء والضعفاء ومن يتهيّب الدخولَ من باب قصر أمير المؤمنين (ص). فتبيّنتُ ذلك ورفع إليّ أيضاً. فتهيّبْتُ مفاوضةَ أمير المؤمنين (صلع) فيما رآه وأمر به، إلى أن خرج المعزّ

(255) هذه العبارة غير موجودة في نصّ المجالس والمسايرات، 51 - 52.

بالمنصوريّة . . . لدينِ الله (صلع) يوماً فيما يخرج إليه فسايرته فقال لي: يا نعمان، كيف الحال في جلوسك في السقيفة؟ فتهيّبت أن أقول له في ذلك بخلاف ما قاله أمير المؤمنين، فذكرت له قوله وأمسَكْتُ.

فقال: كيف بالمرأة والضعيف ومن تقتحمه العيونُ ومزاحمةَ رجالنا وعبيدنا؟ وكيف بك إن وجب عندك حدّ أو أدب على أحد؟ فأين يتهيّأ لك أن تقيمه هنالك؟ لا والله ما هو بموضع يصلح لذلك! ولأنْ تكون بارزاً للناس ظاهراً يصل إليك الضعيفُ ويبلغ حاجتَه لديك، وتقف المرأةُ وتبلغ إليك في استتارٍ ويمكنك إقامةُ ما يجب إقامتُه من الحدود والآداب، أهنأُ وأجمل وأفضل (ط 333).

فقلت: الرأي ما رآه الأمير وفّقه الله وسدّده.

وكان ذلك ممّا رأيت أنّ الله عزّ وجلّ فهّمه إيّاه من وجه الصّواب، وهداه إليه من فصْل الخطاب.

ثمّ لمّا انصرفتُ خرج إليّ توقيع من المنصور بالله صلوات الله عليه مع مال أمر به/ لابتناء موضع فسيح أجلِسُ فيه حيث يصل فيه إليّ الناس ويمكنُهم ما يريدونه من أمورهم على ما ينبغي عِنْدي»[256]. 504

وفيما أتى عن القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه) قال:

ولما أرحلني المنصور بالله (صلع) عن مدينة إطرابلسَ إلى الحضرة المرضيّةِ وافقَ وصولي إليها غَداةَ يوم جُمُعَةٍ. فخلع عليَّ يومَ وصولي وقلّدني، وأمرَني بالسير من يومي إلى المسجد الجامع بالقيروان وإقامةِ صلاة الجمعة فيه والخطبةِ إذ لم يكن يومئذٍ بالمنصوريّة جامع، وأمر بجماعة من خاصّة بوّابي القصر الأعظم

(256) المجالس والمسايرات، 69 - 70.

بالمَشْي بين يديَّ بالسلاح إلى أن أقمتُ الصلاةَ والخطبَة وانصرفتُ.

«ثمّ خرج توقيعُه من غدٍ إلى ديوان الرسائل بأن يُكتَبَ لي عَهدٌ بالقضاء بمُدن المنصوريّة والمهديّة والقيروان وسائر مدن إفريقيّة وأعمالها، فذُكِرَ ذلك وانتَشر [في الناس] وعلِمُوا امتثالي، أيّام كنت بإطرابلُسَ، أمرَه (صلع) فيما عهده إليّ في [عهد] القضاء عليها، من إقامة الحقّ على الشريفِ والمشروفِ، والعدلِ بين القويّ والضعيف.

«فانْتَهى إليّ عن جماعة ممّن تعوّد الأثَرةَ ومَن عوّدهم إيّاها للذّمام والطعمة، وعن المخالفين لي في المذهب ممّن تطاعم الرئاسةَ، أنّ ذلك ساءهم وأحفظهم واشمأزّت منه قلوبُهم. فقام فيه من اعتاد/ الأثرة أنفة وحميّة، ومَن عوّدَها الناسَ خيفةً على نفسه [وتقيّة]، ومَن خالف المذهبَ ديانة وعصبيّةً، فأسرّوا فِيَّ النّجوى واجتمعوا عليَّ لاجتماع الأهواء من خاصّ وعامّ، وقريب وبعيد، فخلصوا نَجِيًّا في الحيلة بالبَغْي عليّ، وسدّدوا بالمكر سهامهم إليّ، لغير ذَنْب منّي إليهم ولا جنايةٍ منّي أوجبت ذلك منهم، فشنّعُوا عليّ من الأشانيع ونسبوا إليَّ من المَكروهِ ما اللّهُ يسألُهم عنه ويُثيبُني إن شاء الله بفضله، عليه، وتهيَّأ لهم بذلك بعضُ ما أمَلوه بحسَب ما أوجبَه الزمانُ وتهيّأ في الإمكان، ممّا لم يكن عليَّ [منه] بحمد الله وفضلِ وليّه ضَيْرٌ ولا نقصٌ.

505

.. وفيما لقيه من حسد الحسّاد..

«ولمّا صرتُ إلى ما أصارني إليه المنصورُ وقمت بما وجب عليّ القيام به منه، وسمعُوا ثناءَ الناس ممّا تطاعَمُوه من العدل ورأوه من الإنصاف، جعَلُوا يُشيعُون فيهم الأشانيعَ، ويدُسّون مَن يَبثّها فيهم أنّي أنسِبُ المكروه إليهم وأسعى بهم وأحرّكُ ما فيه حتفُهم، وما علِموا أنّهم يكرَهُونَه، نسبوه إليَّ ليُوغِرُوا صدورَهم عليَّ ويذهبوا بشكرهم لي، مع أصنافٍ من الحيل والأذى والمكروه لا يفتُرُون

عنها ولا يملّون منها ـ يطولُ ذكرُها ـ ووجوهٍ من الأذى كثيرةٍ ثَبَتَتْ عندي وصَحَّت لي.

«فضاق صدري بها وحمَلني ذلك بعد صبر طويل على رَفْعِها إلى المعزّ لدين الله (صلع)/ فضمّنتُ جُمَلاً منها رقعةً ودفعتُها إليه. 506

.. وما وجده عند المعزّ من عطف وتأييد

«فوقّع إليّ بخطّه في ظهرها: يا نعمان، والله لولا معرفتي بك لَنَسبْتُك عند وقوفي على رقعتك هذه إلى الجهل، إذ كنتَ قد علمتَ ما مرّ على مواليك من أذى مَن نصب لهم وعاداهم وردَّ أمرَ الله (عج) وكذّب رسولَه فيهم، من المِحَن العظيمة. لكنّ أنفسَنا قد تمرّنت على حَمْل المكروه، وظهورُنا قد قويَت على النهوض بأثقاله. وأنتَ بحمد الله، فلم ينَلْكَ ما يدخُلُ عليك منه نقصٌ في دينك ولا ذلٌ في دنياك، وقد ضِقتَ من هذا الذي وصفتَه وبلغَ منك. أفَمَا علمتَ أنّك الجاني على نفسِك ما منه ضجِرتَ إذ قد تَبَيَّنَ لك مخالفةُ السِّفل الرَّعَاع لأولياء الله ورفضُهم لأحكام الله ونصبُهم وطعنُهم على أتباع الحقّ وأهله، وأردت أن لا يكون منهم ما قد كان إليك. وكنت تدَعُنا وتتّبعُهم [وتتعافى] ممّا قد بُلِينَا ويُلِي أتباعُنا [به منهم][257].

«وإذا كنت اتّبعتَنا على بصيرة ومعرفةٍ فاصبر على ما لا بدَّ منه فقد قال مولاك عليّ (صلع): رضى الناس غايةٌ لا تُدْرَكُ [258]. وحسبك عملُك بطاعة الله وعملُهم بمعاصيه. وأنت أعلم بنفسك منهم بك. فإن كان بينك وبين الله شيء تخافُه، فمنه فاحذَرْ! وإن لم يكن، فهذا لك زيادة في الأجر. ولقد كان الواجبُ عليك أن تسألَ اللّهَ الزيادةَ لك من هذا/ الحسَد، فإنّك لا تزدَادُ بقُرْبنَا رِفعَةً إلا زدتَ 507

---

(257) الزيادات من المجالس، 348. وفي الجملة: وكنتَ تدعُنا... إشارةٌ إلى أنّ النعمان كان سنّيًا مالكيًا في أوّل أمره.

(258) شرح ابن أبي الحديد، 939/5 رقم 501.

مِن كثرة الحاسِد وكَيْد الكائدِ. فإن كنتَ تَسْألُ الله رفعَ ذلك عنك في حين ضيق صدرِك فاستقلِ الآن! فقد كان بعض الحكماء إذا دعا الله لنفسه قال: «ربِّ اجعلني محسوداً ولا تجعلني مرحوماً!» ثق بالله ربِّك وبنا، فوالله لا ينالُك معَ الثقة بالله وعزِّ الدولة مكروه تحذَرُهُ في دين ولا دنيا! هذه الألسنةُ الحداد هي متاجـر النِّساء والسِّفل والأوغادِ، تذهب بالإعراض عنها وتزول بالاطِّراح لها، وتزيدُ وتعظُم ما علم السِّفل نَفاقَها. فلا تُصغِ إلى سماعها وَلَا تُلْقِ بالاً بِهَا! فواللّهِ ما سبيلهم عندي إلا كسَبيلِهم عند المنصور (صلع)، فلقد سمعتُه يقول ويؤكِّد ذلك ويحلف عليه ـ وذكر كلاماً ـ: ولأَهُـمُ اللّهُ ما تولَّوْه وجزاهم بما اعتقدوه! ومع هذا فللمُلكِ سياسةٌ يساس بها، ولنا حدودٌ لن نتعدّاها. واللّهُ يُظهِرُ أمرَه على رغم الراغمين ولو كره المشركون! والله/ يؤتي فضله من يشاء، والله سميع عليم.

«فلمّا قرأت توقعيه هذا سلوتُ ممّا كان ضاق به صدري. وكأنّما كنت في غفلة عمّا ذكرَه (صلع)».

508 ونقول: ما أبلغ هذه الموعظة من وليّ الله/ وأثبتها، وأسماها في الفضل وأبلغها! فإنّه لا يحسد إلّا أهل الفضل على ما آتاهم الله من فضله، وأولاهم من جزيل خيره وبرّه. وما أحسن الإعراض عن كلام الأرذال والأوغاد، وأسلى ذلك للقلب وأبرده في الفؤاد! ومن أصغى سمعه لما يقولون وينقلون، ويفصّلون من المحال ويحملون، وقع من ذلك في العويص، ولم يكن عن شغل قلبه من محيص، إذ هو، إذا جاراهم في ميدانهم، أهان نفسه وساواهم في النقص، ولا يستريح إلّا بالإعراض عن الخوض في مداحض جهلهم (ط 336) وترك البحث عن أمورهم والفحص. وقال تعالى في كتابه الكريم، المنزل على خير المرسلين: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ ﴾ (الأعراف، 199). ولو أوردنا ما أتى عن أولياء الله (صلع)، لطال القول به، واحتجنا

إلى أبواب كثيرة تتّسع في أمر ذلك وسببه، ولا يزال أهل الفضل محسودين على قدر فضلهم، ممتحنين ممّن ينتقص (ر 195 ب) من قدرهم، وليس كمثلهم.

وفيما أتى عن القاضي النعمان (رضي الله عنه) في فضل المنصور بالله (عم) قال:

نقل آخر عنه في صبر المنصور على الضيق...

«سمعت المعزّ لدين ار (صلع) يقول: كنت مع المنصور بالله أمير المؤمنين، عليه السلام في بعض أسفاره، وقد نزل منزلاً أقام فيه في قصر له بذلك/ المنزل وبستان قد أحاط به فيه ماءٌ جارٍ. فخرجت يوماً أمشي في نواحي ذلك المنزل، فلمّا انصرفتُ أتيْتُه بحسَب العادة فوجدتُه تحتَ بعض تلك الأشجارِ في يوم صائف حارّ، حاسرَ الرأس وقد حلَّقه، وإنَّ العرَقَ ليرشحُ منه، وهو يُؤلِّفُ كتاباً يكتُب نُسْخَتَهُ. فقلت: يا مولاي، في مثل هذا الحرّ؟ ألاَ تقومُ إلى مجلسك؟

509

فقال: دعني! فقد قطَعَ عليَّ كلامُك شيئاً كان اتّصل عندي، ولمثل هذا جلستُ وتحمّلتُ هذا الحرَّ، لأنّه قد تَهيَّأَ لي من القول ما خشيتُ إنْ قمْتُ عن مكاني أن ينقطِعَ عنّي.

«فجلستُ حتّى قضى حاجته، ودخل فأقام مليّاً لم يخرُج، فخشيت عليه أنّه عَرَضَ له عارضٌ من ذلك الحرّ، فأرسلتُ إليه أسألُه عن ذلك، فقال: ما عليَّ من بأس بحمد الله. ثمّ تمادى قعوده. وأذِن لي فدخلتُ إليه، فأصبتُه على حال ما أحِبّه من السلامة والعافية. فقلت: يا مولايَ،! إلى كم تُقيمُ في هذا البيتِ وأنت بموضع نُزهة وتَفَرُّج ونظرٍ إلى هذه المياه والأشجارِ؟

فقال: أخبرك والله: إنّي رأيت أنَّ بعضَ هذا الحيوان العظيم الخلق يعلو ظهري فخشيتُ أن يكونَ ذلك بعضَ أسودِ هذه الغيَاضِ وأَعُوذُ بالله!

فقلت: كلّا! لا يفعل الله ذلك!

قال: نعم، كلّا! لا يفعله/ إن شاء الله تعالى، ولكنّي عرّفتُك ما عرض لي. 510

ثمّ ركب من ذلك المنزل في غلَس الصّبح يريد غيره، ودعاني، فَسايرتُه وتحتي فرس، فقال: حرِّكْهُ لأنظُرَ إليه! فحرّكتُه، وحرّكَ هو فرسَه، فدارَ به دورةً خاف لها أن يسقُط به فترامى عنه وشبَّ الفرس[259]، فعلا ظهرَه ولم يَضُرَّه، فبادرتُ إليه ونزلت عن فرسي فأصبتُه قد ركِب ولم ينلْه مكروه. وقال: هذا ما ذكرتُه لك! وحمد الله وأثنى عليه[260].

.. وتمرّسه بالشدائد

«وقال المعزّ لدين الله (صلع) وقد ذكر التنجيم: كان (ر 196 أ) المنصور بالله (عم) فيه ماهراً. (قال) وقال لي (صلع): والله ما طلبتُ علمَهُ لشيءٍ ممّا يراه الناس من القضاءِ بهِ ولقد وقفتُ في مواقفِ الحروب التي وَلِيتُها أيّامَ الفتنةِ إلى حين انقضائها، فما وقفتُ قطُّ موقفاً منها باختيار بِعِلم من علوم النجوم. ولكثيراً ما كان الأمرُ يقع بقلبي، وَيُحبّب إليّ، وقضايا النجوم تُخالِفُه وتمنَعُ منه، فلا ألقِي لتلك القضايا بالاً ولا ألتفتُ إليها، وأعمَلُ ما يقع بقلبي ويُحبَّب إليَّ، فيكونُ في ذلك التوفيقُ والنصر، وضدُّ ما تُوجبه أحكامُ النجوم. والله ما طلبنَا هذا العلم إلّا لما يدلُّنا عليه من توحيد الله جلّ ذكره وتأثير حكمته في منفعلاته، فإيّاك أن تشغل نفسك بغير هذا، ولا تلتفت إليه!»[260].

وخرج أمير المؤمنين المنصور بالله (عم) من المنصوريّة/ إلى 511

---

(259) شبّ الفرس: رفع قائمتيه الأماميّتين.

(260) المجالس والمسايرات، 132 - 133.

المنصور يخرج الأسطول لغزو قلورية

ناحية تونس، فأخرج الأساطيل لغزو الرّوم مع الحسن بن عليّ، وشحن الأساطيل بالرجال والعدّة والأموال. فخرج بها الحسن بن عليّ فانتهى بها إلى بلد الروم، ومعه بعض قوّاد أمير المؤمنين، فغزّوا وسبّيا وملكا قلوريّة، ثمّ رجعا منها إلى جزيرة صقلّيّة بالعساكر ليُشتّيا بها، وقد كان أمير المؤمنين أمرهما بالمقام. فلمّا انصرفا، كتب إليهما أمير المؤمنين (عم) كتاباً غليظاً، وشدّد عليهما فيه، وأمرهما بالرجوع إلى حيث أمرهما به، ساعةَ وصول كتابه. وكان في كتابه (عم) إليهما: «كأنّي بكما قد قلتما حين رأيتما الانصراف: «إنّ الحاضرَ يرى ما لا يرى الغائب»، وقدّرتُما في أنفسكما أنّكما الحاضران لما قِبَلَكما، وأنا الغائب عنه، وليس كما ظننتما: بل أنا الحاضر وأنتما الغائبان عنه». قال القاضي النعمان ابن محمّد (رضي الله عنه): «ففعلا ما أمرهما أمير المؤمنين، فكان لذلك الفتحُ العظيم، وسبقا طاغية الروم إلى موضع لو سبقهم إليه لمَا تهيّأ ذلك الفتح. فهزماهم، واحتوت عساكر المسلمين عليها وأثخنوا بالقتل فيها. وكان ذلك بسبب رأيه المقرون بالتوفيق. وعادا (ر 196 ب) بمن معهما سالمين، وحصلت الهيبة في قلوب المشركين»[261].

512

وجاءت الهدايا إلى أمير المؤمنين (عم) من/ ملك الروم، وسأله الهدنَةَ. فأراد (عم) أن يُرِيَ ملك الروم نعمة الله عليه وقوّة الإسلام، وأنّ ما آتاه الله خير ممّا آتاهم، وأراد أن يصرف رسل طاغية الروم بأفضلَ ممّا جاؤُوا به وأحسنَ. فكتب إلى الأستاذ جوذر عامله على المهديّة بأن يحمل إليه من الخزائن التي تحت يديه

(261) نفس المصدر، 240. والقائد مع الحسن الكلبيّ هو فرج الخادم. ويبدو أنّ هذه الغزوة إلى قلوريّة هي التي نقل المؤلّف خبرها فيما سبق (ص 497) عن الحسن الأنصاري، وأرّخها صاحبه بالتاسع من ذي الحجّة سنة 340.

أشياء وصفها له، ممّا يصلح أن يُبعث به إلى الملوك. وكان فيما كتبه إلى جوذر قوله في الكتاب:

المنصور يدعو جوذراً إلى انتقاء هديّة سنيّة لملك الروم

«وأنا أعرف من حرصك على أن لا يكون في الدنيا شيء حسَنٌ إلا وهو عندنا وفي خزائننا، ممّا أظنّه يحملك على الشحّ على النصارى بمثل هذا الذي أمرناك بإنفاذه إلينا. فلا تفعل! فإنّ ذخائر الدنيا في الدنيا تبقى، وإنّما ادّخرناها لمباهاة الأعداء، والدلالةِ على شرف أنفُسنا وعلوّ هِمّتنا وسخاء قلوبنا بما تضِنّ به النفوس ويشحّ به كلُّ أحد»[262].

قال منصور الجوذريّ العزيزيّ: «وكان المنصور بالله (صلـع) من النظر إلى الدنيا بمثل هذه العين وسماحة نفسه، على حال مشهور ظاهر معروف، قدّس الله روحه وصلّى عليه. فبعث (عم) بذلك إلى ملك الروم، إظهاراً لعزّ الإسلام/ وما آتى الله أولياءه من خزائن الأرض، وسماحة أنفسهم بالحطام».

513

قال القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه): «وسمعت المعزّ لدين الله (عم) يقول في فضل المنصور بالله (صلع): لمّا خرج المنصور بالله، صلوات الله عليه إلى ناحية تونس في حين إخراجه الأساطيل إلى غزو الروم نزل خربة (ط 339) قرطاجنّة وهي لَمِنْ إحْدَى عجائب الأوّلين في البناء، فأقام بها أيّاماً.

نقل آخر: إعجاب المنصور بآثار قرطـاج...

«(قال): فدخلت عليه في صبحة يوم من تلك الأيّام، فقال لي: أخبرُك برؤيا رأيتُها البارحة عجيبة: أفكرت من الليل في عجائب هذا البنيانِ، فاشتغل قلبي به، وقلت في نفسي: ليت شعري من بناه؟ وهل هو واحد أم تعاقبه جماعة؟ وكيف كان

(262) سيرة الأستاذ جوذر، 61.

اقتدَارُ من بناه عليه مع عِظَمه واتّساعه؟ (ر 197 أ) وقلت: إن كان الذي بنى هذا ملكاً واحداً، فكيف اتّسع لِذلك والعمْرُ لا يبلغه؟ وإن تداولَه ملك بعد ملكٍ، فكيف اتّفقَتْ آراؤهم على هذاالمكان وقلّما تتّفق الأهواءُ على سكنى البلدان، سيّما الملوك؟

«فنمْتُ وأنا أفكّر في ذلك. فرأيتُ في المنام كأنَّ رجلاً دخل عليّ، آدمَ شديدَ الأدمة، تعلُوه صُفرة، خفيفَ العارضين مَحْدوراً[263] معتدلَ القامة، عليه ثوب أبيض/ قد اْتشـح به فسلّم عليّ، فرددت عليه السلام وقلت: من أنت؟

514

قال: عبد من عباد الله بُعِثتُ إليك.

قلت: مـرحباً بـك! ورفعت يدي إليـه، فأكبّ عليّ وقبّـل عَضُـدي. وقلت له: اجلس! فجلس. وسكتّ أنـظُر ما يقـول، فسكَتَ وتبسّم في وجهي تبسّماً خفيفاً.

فقلت: يا هذا من أنت، وما له جئتَ؟

فقال: أنا صاحب هذه المدينة.

قلت: وكيف أنت صاحبها؟

قال: أنا الملك الذي ابتَنَيْتُها، وملَكتُ أهلها.

فقلت: وحدك أم شاركك فيها غيرك؟

قال: بل وحدي ابتنيتها حتّى أكمَلْتُها وسـكَنْتُها وأقمت عمري بها إلى أن متّ فيها.

فقلت له: لقد أعطِيتَ مُلكاً عظيماً وبَسْطَةً، أفما كان لك عدوّ فحاربْتَه فشَغَلَك عن هذا البناء؟

فحرّك يده وجمع أصابع يديه جميعاً وقرّبهما وقال: كان لي عدوّ كثير، ومن ذا يخلُو من الأعداء؟

---

(263) محدور بالحاء المهملة: سمين في غلظة.

قلت: فما كان دينُك ومذهبك؟

قال: التوحيد.

قلت: فما صرتَ إليه؟

قال: إلى خيرٍ والحمد لله!

قلت: قد جمع الله لك أمرَ الدنيا والآخرة.

قال: وما تنكر من ذلك؟ إذا كانت هذه البقاع من هذه الأرض قد منحت ما تراه من المنحة، فكيف بالأرواح الشريفة وما يخصّها الباري إذا ارتضاها؟

قلت: أجل، فما اسمك؟. فتسمّى لي باسم لم أسمع بمثله في لغة من اللغات ولا /عرفتُ معناه، إلاّ أنّه كثير عدد الحروف. 515

«وقال المعزّ عليه السلام: أظنّه قال: فيه مثل عشَرة أحرف وذكر بعضَها. وقال: كتبها المنصور عليه السلام. (قال) ثمّ تحرّك للقيام، فقلت: ألا تجلس؟ أنست بك.

فقال: ما بُعِثت إليك إلاّ وأنا على شغل، فإن أحْبَبْتَ أن تسأل عن شيء فاسأل عمّا بدا لك!

«(قال): فسكتّ مفكّراً فيما أريد أن أسأله عنه، فقام ومضى، وَانتبهتُ»[264].

فضائل المعزّ وليّاً للعهد

وأقام أمير المؤمنين المنصور بالله (عم) بالمنصوريّة التي ابتناها، في عظيم ملك ورفيع عزّ، قد فتح أبواب رحمته للمؤمنين وأفاض عليهم علوم آبائه الطاهرين، وسقاهم من صافي تيّارها المعين، وأفاد الراغبين وهدى الطالبين، وولده وليّ عهده والخليفةُ من بعده المعزّ لدين الله (صلع) قد انتصب معه وآستقام أمره، وعلا ذكره، ولاذ الدعاة به، وجعلوه السبب بينهم وبين أمير المؤمنين، وهو (عم)، مع فضله وسامي محلّه، أقرب قريب إليهم، يدنو منهم

(264) المجالس والمسايرات، 201 - 202.

ويؤنسهم ويخصّهم بقربه وبرّه، ويدنيهم إلى والده ووليّ أمره، وقد اعتدلت الأمور، وخَفَتَ أهلُ الشقاق والنفاق، لهيبة سيف وليّ الله الإمام المنصور.

516 ولم تطل الأيّام حتى اعتلّ أمير المؤمنين المنصور بالله (عم) العلّةَ التي كانت سبب وفاته. قال منصور العزيزيّ الجوذريّ فيما أتى عنه: «وآخر كتاب قرأته من كتب أمير المؤمنين المنصور بالله إلى الأستاذ جوذر عامله على المهديّة، جواباً عن كتب كثيرة كتب بها الأستاذ فألفَتْ الإمامَ عليلاً ثقيلاً فتأخّرت الجواباتُ مدّةً، ثمّ انتبه (صلع) من علّته فكتب إلى الأستاذ بخطّ يده بعد البسملة:

مرض المنصور

«صانك الله يا جوذر! وردت كتبك فوقفتُ على ما فيها وفهمتُ ما ذكرتَه من جميعها. وتأخّر الجواب لشغلٍ مرّةً وعللٍ مرّةً، وضُعف شامل للجسم كلّه. والحمد لله على كلّ الأحوال. وكلّ ما يكتب إليك أبو تميم، فممّا أشافهه به. أستودعك[265] الله».

فأمّا ما نعى به أمير المؤمنين المنصور بالله نفسه وأخبر باقتراب أجله، فمن ذلك ما رواه القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه) قال: «وقلّب المعزّ لدين الله (صلع) يوماً كتباً وأنا بين يديه، وتصفّح كتاباً منها فأدام النظر فيه ثمّ استعبر (ر 198 أ) وقد نظر إلى شَيْءٍ في عرض الكتاب. ثمّ قال (عم): نظرت في هذا الكتاب وهو بخطّ المنصور بالله، فرأيته قصّر فيه وحال عن جودة/ خطّه المعروف، فلم أدر لمَ كان ذلك حتى رأيتُ هذا البيت في عرضه، وهو بيت تمثّل به، وهو قول لبيد:

517

(265) في النسخ، وفي سيرة جوذر، 72: أستودعه.

(طويل)

بَلِينا وما تبلى النجـومُ الطوالـع وتبقى حصونٌ بعدنا ومصانعُ[266]

ثمّ قال المعزّ: هذا نعي نعى به نفسه فحال خطُّه، وأظنّ ذلك كان في علّته، وإلى هذه والله المصير»[267].

وعن القاضي النعمان بن محمّد قال:

نقل عن النعمان: شعور المنصور بقرب أجله..

جلست يوماً بين يدي الإمام المعزّ لدين الله عليه السلام، فجرى كلام قيل إنّه في بعض الكتب، فدعا بالكتاب الذي قيل إنّ ذلك فيه لينظر إليه، فأتي برزمة من الكُتُب فوُضعَت بين يديه فجعل يتصفَّحُها كتاباً كتاباً [ليجد الكتاب الذي طلبه] إلى أن مرّ على يديه كتاب فيه تعليقات بخَطّ المنصور في ما كان يؤلِّفُه، فلمّا رآه استعبر وجعل يتصفّحه حتى مرّ على موضع فأدام النظر فيه، ثمّ تنفّس الصعداء وقال: والله لو لم يكن له غير هذا لكفى به معجزة من أمره. وما رأيته قبل وقتي هذا.

«ثمّ أرانا ذلك وقال: هذه الخطبة التي ألّفها وخطب بها في عيد الفطر الذي قُبِضَ بعَقِبِه[268]، كأنّه أراد أنّ يقول، ثمّ بدا له من ذلك فتركه.

518

فنظرنا إلى ذلك بخطِّه/ نعرفه وقد ضرَب عليه بعدَ أن كتبه، وفيه: وقد مضت ليالي الشهروأيّامُه، وحان انقضاء العُمر وانصرامُه.

ثمّ قال المعزّ عليه السلام: أراد والله أن ينْعَى إلينا نفسَه ثُمّ بدا له من ذلك.

(266) مطلع مرثية في أخيه أربد (ديوان لبيد، صادر، 88).

(267) المجالس والمسايرات، 104.

(268) توفّي المنصور في آخر شوّال 341 (19 مارس 952).

فأبكاني ذلك وقلت: وأيّ نَعي أكبرُ من قوله يومئذٍ وقد انصرف من المصلّى ووقف بصحن القصر (ط 342) ويده على كتف أمير المؤمنين يوصيه بأوليائه وأهلِ مملكتِه وقد أحاط الناسُ به وهو يستعبر، وصيّةَ من قد أيقَنَ بقُرب الأجل؟ والله لقد كادَ يومئذٍ كلامُه أن يصدع الأكباد. فكان من أعجب ما ظهر منه يومئذٍ للناس فرأوْه عياناً وسمِعوه، وإن كان قليلاً من فهِم ذلك، إلاّ بعد أن قُبض عليه السلام[269].

(قال): وذكر الإمام المعزّ لدين الله (صلع) يوماً ـ وأنا جالس بين يديه ـ ما لاقاه المنصور، ـ قدّس الله روحه وصلّى الله عليه وعلى آله وآبائه ـ من حرب أهل الفتنة إلى أن جَلاّها اللّهُ (تع) على يدَيْه، وما مرّ عليه (صلع) في ذلك من التّعب والنّصَب، ومقاساةِ السّفَر ومباشرة الحرّ والقُرّ، وما خرج إليه من ذلك دفعةً بعد الخَفضِ والدّعة من غير دُربةٍ في ذلك ولا ممارسة، وما عرض له لذلك من العلل.

519 فقلت له: يا مولاي، / لئن كان قاسى لذلك جسيماً، فقد كشف الله (تع) بذلك على يدَيْه عن الأمّة بلاءً عظيماً، وحصّن به (عج) دينَه من أن يبدّل، وسنّةَ نبيّه محمّد (ﷺ) من أن تُغيّر.

... وجزع المعزّ عليه

فقال: أجل، وما زال (صلع) في محنة عظيمة ومزاولة شديدة إلى أن نقَلَه الله إلى دار كرامته ومَحَلّ راحتِه وقرار جنّته.

ثمّ قال (عم): لقد دخلت إليه في آخر أيّامه (صلع) وقد اشتدّت عِلّته، فرأيت منه ما عرفتُ له الموتَ في وجهه، فما تمالكت أن استعبرتُ، فنظر إليّ وقال: ما لك؟

---

(269) المجالس والمسايرات، 240.

قلت: أفكرت فيك وفي المهديّ بالله ـ قدّس الله روحه ـ وأنّه قدْ أفضى الله (تع) إليه بما أفضى به من كرامته وإن كانت المحن قد عارضته، فقد آل أمره إلى راحة طويلة ودَعة ونِعمة. وأنت ـ صلوات الله عليك ـ فمذ أفضى الله (عج) بهذا الأمر إليك لم تنفكّ مِن الحروب والمقارعة والأسفار والمزاولة إلاّ إلى العِلل والأسقام والأمراض والآلام، فأسألُ الله لأمير المؤمنين تعجيلَ الراحة ودوامَ العافية.

فقال: لئن قلت ما قلت فيما عرفته وظهر (ط 343) إليك، للّذي استتر وغابَ عنك أكثرُ. أتدري مُذْ كم أنا أزاول المحن؟

قلت: مُـذْ كم يا أميرَ المؤمنين؟

520 قال: مذ والله قبَض الله المهديّ بالله (عم) صُرفَتْ/ إليَّ المحَنُ العظام، وإن كنت لممتَحَناً قبل ذلك بمِحَنٍ كثيرة: إنه لمّا كان من أمر الله في المهدي (صلع) ما كان، لم يتقدّم القائمُ (عم) للصّلاة عليه حتّى أخذَ بيدِي وخلا بي فقلّدني عهدَه [وأسرّ إليّ ذلك واستكتَمَنِي إيّاه. فوالله، ما علم بذلك منه إليّ، بعد الله، غيري][270] وأقمتُ مدّةَ أيّام حياته ثلاثَ عشرة سنة أنظر إلى من قرُبَ منه ومن بعُد عنه (صلع) يسعَوْنَ بالفساد في دولة هي لي قد قلّدَنِي الله أمرَها، وأنا كأقلّ الأبعدين لا آمرُ ولا أنْهى، ولا أتعرَّضُ

---

(270) سقطت هذه الفقرة من النقل هنا، وقد وردت في النقل الأوّل لكلام المنصور هذا (ص 240) وفي المجالس والمسايرات، 448.

وفي قضيّة كتمان القائم والمنصور للتعيين، ينظر التعليقات في ص 448 من المجالس والمسايرات، مع الإحالات.

هذا، وقد تعرّض الداعي إدريس إلى هذا الموضوع فيما سبق (ص 332 وهامش 209).

لشيء أنكره ولا أومِئ إليه، ولا إلى شيء يتُوَهَّمُ من أجله عَلَيَّ شيءٌ ممّا أنا فيه، وأهلُ خاصّتي يُؤْذَوْنَ ويُسْتَطَالُ عليهم فلا يجد عندي أحدٌ منهم نُصْرَةً ولا قياماً أكثر (ر 199 أ) من أن أقصيَهم عن نفسي وأبعِدهم عن قربي، ويُنال منّي وأسمَعُ، وتُهْضَم أموالي وتؤكَلُ، وأنا في ذلك كلّه بمعزل أتجرّعُ غُصصَ الغُموم وأتحمّل فادحَ النّوازل صبْراً على ما حُمِّلت، وقياماً بما قُلِّدتُ، وحفظاً لما استُرعيتُ، وصيانةً لما استُودعت، من أن تشخصني فيه أبّهةُ القدرة أو أن يظهرَ عليّ منه عزُّ المملكة. ولو بقيتُ على ذلك أيّامَ حياتي ما عدوتُ ما كان منّي، ولو شئت لبسطتُ يدي ولساني وأنفَذْتُ أمري، لأنّ الله (تع) قد جعل إليّ ذلك. ولكنّي/ لم أزل على ذلك من حالِي إلى أن كان من أمر الله (تع) في القائم (عم) ما كان، وكان من الأمر ما قد انتهى إليك وشاهدتَهُ، وذلك هو الذي علِمتَ. وإنّه - في جانب ما قد مضى عليّ ولقيتُه من قَبْله - لأقلُّ من أن ألتفِتَ إليه أو أذكره.

محنة المنصور في أيّام القائم..

521

فاستعْبرت لما سمعتُه من ذلك، وأكثرتُ من الصّلاة على المنصور (عم) وقلت: يا مولاي، هذا والله الصّبر الذي وعد الله (تع) أن يُوفّيَ أهلَه أجرهم بغير حساب.

.. بكتم ولايته للعهد

ولقد روينا عن عليّ (صلع) ما ذكره ممّا امتحنه الله به في حياة رسول الله (ﷺ) وبعد وفاته من المِحن التي يَمتحِن بمثلها أولياءه، فما بلغَتْ كلُّها ما ذكره المنصور (صلع) في هذه الواحدة وما قد عَرفنا من حاله يومئذٍ وما جرى عليه ممّا أجْرَى جملةَ خبره في حديثه هذا. ولقد كنّا نَتعجّب من خموله وتواضعه وتوقّيه [أيّام القائم][271]، ومحلُّه منه محلُّه، ونحن لا ندري ما أفضى الله به إليهِ يومئذٍ ونستعظِم ذلك منه. فكيف لو علِمْنَا بما أصاره الله (تع) إليه؟

(271) الزيادة من المجالس، 449.

522 فقال المعزّ لدين الله (صلع): إنّ عليّاً وإن كان قد امتُحن بما/ امتحِن به، لم يكن يدَع (صلع) شيئاً في نفسه يحمل لَهُ عليه حتّى يَضربَ به وجوهَ المخالفين له والمُعاندين عليه والمتخلّفين عنه، إمّا تصريحاً وإمّا تعريضاً، وفي ذلك بعضُ ما يُسلّي الغمّة ويذهب الغُلّة. والمنصور (صلع) كالمغضي على شوك القتاد والقابض على جمر الغضا، ثمّ لا يرى أنّه في شيء من ذلك أخصُّ الناس به وأقربُهم إليه، صلاة الله ورحمته وبركاته عليه من صابرٍ على أمر الله محتسِب فيه. فضاعف الله له أجرَ ذلك وأحسن عليه جزاءه!»[272].

وفيما رواه عن المعزّ لدين الله (عم) قال: «سمعت المنصور بالله (صلع) يقول: «إنّما يستحبّ الفاضلُ البقاءَ في الدنيا ليُظهر الله (عج) منه ما هو كامن من الخير فيعظم ثوابه، ويجلّ في الدار الآخرة قدره، وإلّا، فإنّ الذي له عند الله في الآخرة أفضل ممّا في الدنيا»[273].

قال القاضي النعمان (رضي الله عنه): «وسمعت المعزّ (صلع) يقول: لمّا احتُضر المنصور (عمّ) وقرب منه من أمر الله ما قرب، أغميَ عليه، فرأيت منه منظراً لم أتمالك له أن بكيتُ. وأفاق وأنا أبكي. فقال: مالك؟ ألم أنهك عن البكاء؟

523 وقلت: وكيف يحسن الصبر بمن يراك/ على هذه الحال (ط 345) يا مولاي؟

المنصور ينهى المعزّ عن الجزع عليه

فقال: ما جازيتني جزائي: أنا أُسَرُّ لك وأفرح بما يصير إليك بعدي من عاجل الدنيا، ويسوءك أنت وتحزن بما أصير إليه من نعيم الآخرة! لا تعد إلى هذا! ولا تستقبل ما خوّلك الله من دولتك

(272) المجالس والمسايرات، 248 - 250.

(273) هذه الفقرة من غير المجالس.

بالحزن والبكاء، بل فٱفْرَح بما آتاك الله من دنياك، وما أصارني إليه وأعطاني في آخرتي»[274].

«قال المعزّ (صلع): وكان فيما أوصاني المنصور (صلع) عند وفاته أن قال لي: دع عنك ملازمة قبري والاختلاف إليه! فإنّ ذلك يبعث الحزن ولا يؤدّي إلى غاية من الحزم، وإنّما يفعله الجهّال من الرجال. فإن لم يكن لك من ذلك بدّ، فالوقفة بعد المدّة للترحّم، ثمّ تنصرف بسرعة. ومن عرف مصير الأرواح، لم يلتفت إلى محلّ الأبدان»[275].

قال القاضي النعمان بن محمد: سمعت الإمام المعزّ لدين الله (صلع) يقول: دَخلت على المنصور بالله عليه السلام في مرضه الذي توفّي فيه وقد اشتدّ به. وبين يديه الدواة وقد أخذ صحيفة ليكتب فيها، وتناول القلمَ فلَمْ تُثبْته يدهُ فسقط على ثوبه فغيَّره مِداده. فلمّا رآني قال: أتدري ما هذا؟

قلتُ: ما هو يا مولاي؟ (ر 200 أ).

524 قال: «ظهر والله/ في قلبي واطَّلَعَتْ [نفسي] الآن من علم الله وحقيقةِ توحيده وغيبِ مُلكه[276] على ما لمْ أكُن أظنُّ أنّي أطّلعُ على مثله ولا أستطيعُ، لما أنا فيه، اللفظَ به. فدعوتُ بالدواةِ لأكتُبَ ذلك وأفيدَك إيّاه، فلم أملكِ القلمَ». وأخذَ مكانَ المداد في ثوبه بأطرافِ أصابعه وقال: هذه معْذِرَتي إليك!

---

(274) هذه الفقرة من غير المجالس.

(275) المجالس والمسايرات، 131.

(276) في المجالس، 129: ملكوته. وسقطت «على» منها ومن النسخ، فزدناها وفقاً للسياق.

ثمّ قال: وهذه بشرى من الله في مثل هذا المقام وما يُطلِعُ أولياءَه عليه في حين قَبْضِهم إليه.

قال المعزّ عليه السلام: فما أدري كيف فُجعت به من ذلك وما داخلني له. ولكنّي تجلّدْتُ وقلتُ: يُبقي اللّهُ أميرَ المؤمنين ويُمدُّ في عُمُره ويُنْسىء في أجَله.

فقال: هيهات! قد والله قرُب الأجلُ وأزِفَ الوقتُ!

فما كان بأوشَك من أن قُبِضَ صلواتُ الله عليه ورحمتُه وبركاته»[277].

«(قال): وخدمت المهديّ بالله صلوات الله عليه من آخر عمره تسع سنين وشهوراً وأياماً[278]، والإمامَ القائم بأمر الله من بعده (صلع) أيّام حياته، في إنهاء أخبار الحضرة إليهما في كلّ يوم طولَ تلك المدّة إلاّ أقلّ الأيّام. وكانَ لهما صلوات الله عليهما من النِّعم والفضل عليّ في ذلك ما لا أحصيه عدداً ولا أقوم ببعض شكره أبداً.

525

«وكنت أخدم المنصور بالله صلوات الله عليه/ بعض أيّام المهديّ بالله صلوات الله عليه وأيّامَ القائم (صلع) كلّها، وكانت له عليّ من النعم والآلاء ما لا أحصي عددها. وكانت خِدمتي إيّاه في جمع الكتب له وانتساخها[279]. فلمّا قُبضَ القائم صلوات الله عليه،

جزع النعمان على المنصور..

---

(277) المجالس والمسايرات، 129.

(278) في خصوص دخول النعمان في خدمة الخلفاء الفاطميّين ماشرة، انظر ص 79 من المجالس والمسايرات، التعليق رقم 1، وقد خضنا أيضاً في سنّ القاضي وتاريخ ولادته وناقشنا الافتراضات المختلفة.

(279) بحثنا كذلك ـ ص 80 من المجالس، هامش 3 ـ مسألة الخطط التي تولاّها النعمان، ومنها «صاحب الخبر» كما تدلّ عليه عبارته «وإنهاء أخبار الحضرة إليهما»، وأمين مكتبة المنصور.

استقضاني قبلَ أن يُظهر أمره[280] ـ وكنت أوّل من استقضاه من قُضاته ـ وأعلى ذكري ورفع قدري، وأنعم عليّ من النعم بما لو أخذتُ في وصفه لقُطعَ بطوله ما أردتُ ذكره. فلم تكن قبله عليّ نعمةٌ أعظمُ من نِعمتِه مع الذي افترض الله عزّ وجلّ عليّ من معرفة حقّه ومودّته. فلم يكن في أيّامِه أحدٌ أعزُّ عليّ منه ولا أعظمَ قدراً ولا أجلّ في قلبي خطَراً. وكنتُ إذا تَمَنّيْتُ كان أفضلُ ما أتمنّاه أن أموتَ في أيّامه وعلى رضاه (ر 200 ب).

«فلمّا اعتلّ صلوات الله عليه العلّةَ التي قُبِض فيها تداخلني لذلك ذُعرٌ شديد وخوف عظيم. وكان المعزّ لدين الله صلوات الله عليه في أيّامه سببي إليه، ومعوّلي في جميع أموري عنده عليه، وكنت ألقاه، والمنصور على عِلّتِهِ، فأسأله عنه فيذكر من صلاح حاله ما أسكُنُ إليه. ثمّ استأذنَ لي يوماً في جماعة من الأولياء فأدخَلَني عليه، فرأيتُه شديدَ العِلّة ضعيفاً، فما خرجت من بين يديه حتّى كاد قلبي يذوبُ وجعلت ألقى المعزّ [كلّ يوم] فأسأله عن حاله/ فيذكر أنّه صالح الحال، وأنا أرى في وجهه صلوات الله عليه من أثر الغمّ ما غيّره وأحاله عمّا كان عليه من الإشراق والنّضارة، وأرى كلّ يوم ذلك يزيد به، والغمّ بذلك يتضاعف عليّ، حتى رأيت من حال المعز لدين الله صلوات الله عليه ما أربى غمّي به على غمّي بما كنت أتوقّعه في المنصور صلّى الله عليه وآله.

526

.. ومواساة المعزّ له

«حتّى خرج في اليوم الذي قبض فيه، (ط 247) ولا علمَ لي بذلك فلقِيتُه بحسَب ما كنت ألقاه. ورأيتُ ظاهرَ حاله أصلحَ ممّا كنت أراه، فسُررت بذلك ثمّ سألته سؤالَ مستبشِرٍ عن المنصور قدّس الله

(280) أي قبل أن يعلن عن وفاة القائم بصفة رسميّة بعد الظفر بأبي يزيد في المحرّم 336.

روحه، فقال لي: يا نعمان، إذا كانت هذه الشمسُ والقمرُ والنجوم والسماء والأرض والجبال زائلة ذاهبة فَانيةً، فما ظنُّك بما دونَها من هذا البشر؟ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران، 185) كما قال الله جلّ ذكره: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ/ إِلاَّ وَجْهَــه﴾ (القصص، 88). فعلمتُ أنّ المنصورَ قد قُبض (صلع). وهجم عليّ من ذلك ما كدتُ أن أسقُطَ له إلى الأرض. ثم تداركتُ نفسي، ورأيت الناسَ حولي، فاستَكَنتُ وقلتُ كلاماً نحوَ ما قاله المعزّ صلوات الله عليه لا أفهَمُه، وَأنسانِيهِ ما كنتُ فيه. وانصرفتُ عنه والعَبرة تخنُقُنِي والدموعُ تَبدو من عَيْنِي حتّى صرتُ إلى خَلاءٍ في الفَحْصِ، فأرسلتُ عَبْرَتي/ ورفعتُ (ر 201 أ) عَقِيرتي وبكَيْتُ كذلك مليّاً حتّى خفَّ ذلك عنّي وأقمتُ أيّاماً على ذلك: إذا امتلأ صدري وعِيل صبري خرجتُ إلى ذلك المكان فاستفرغت ما عِنْدي»[281].

527

وكانت وفاة أمير المؤمنين المنصور بالله، صلوات الله عليه وسلامه ورحمته وبركاته ورضوانه، عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، في آخر شوّال من سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة (19 مارس 953). فأظهر أمير المؤمنين المعزّ لدين الله من الصبر من بعده والتأسّي لفقده ما أظهر المنصورُ بالله أوانَ وفـاة القائم بـأمر الله (عم)، ولم يُشَقّ عليه جيب ولا ضُرب عليه وجه، وذلك لما أوصى به المعزّ.

وفاة المنصور (آخر شوّال 19/341 مارس 953)

وكتب أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (صلع) إلى عبده جوذر عامله على المهديّة، فكان كتابه[282]:

(281) المجالس والمسايرات، 79 - 82.

(282) سيرة الأستاذ جوذر، 73 - 74.

«باسم الله الرحمان الرحيم».
«الحمد لله على ما أبلى وأولى حمداً كثيراً.

«سلّمك الله يا جوذر! قد نعلم اتّصالك بنا وتمسّكك بولايتنا ومحلّك في صدورنا، وتقرّر عندك من ذلك ما يكفي ويغني عن التعداد، وما أظنّه (ط 248) يخفى على المَوَسْوَسِين والقِرَدة المخزّيين، فضلاً عن ذوي الولاية والطاعة. فكيف بمن اجتمعت له الولاية مع القدم، والرضى من جميع الأئمّة المهديّين الفاضلين /صلوات الله عليهم أجمعين في الأوّلين والآخرين؟ إنّ الله، وله الحمد، خلق الخلق لإظهار جوده وفضله، ورزَقَهم بمنّه وإحسانه، وقهرهم بالموت ليُعلم المخلوقين أنّه، جلّ جلاله، هو المتفرّد بالبقاء والوحدانيّة. فلم يبق في هذه الدنيا الدنيئة الخسيسة نبيّ مرسل ولا ملك مقرّب ولا إمام فاضل ولا خسيس رذل، إلّا صاروا إلى الحَكَم العدل، فتعالى الله ذو الجلال والإكرام.

528

المعزّ ينعي المنصور لجوذر..

«ومن كانت حاله عندنا كحالك، وجب أن نُشركه في سرورنا وحزننا، وفي جميع ما تصرّفت به أحوالنا. وكان من قضاء الله السابق وأمره النافذ أن أجرى على (ر 201 ب) مولانا وسيّدنا أمير المؤمنين من حكمه وقضائه ما أجراه على آبائه المهديّين وجدّه محمّد خاتم النبيّين، صلوات الله عليهم أجمعين. فامتحنني بفقده وأوحدني من بعده في الديار الموحشة والقصور الخالية، والبلد المشاقق، بين كلّ عدوّ وفاسق، قد اجتمعوا من أقطار الأرض من شرق وغرب، وبرّ وبحر. فأنا فيهم الفريد الغريب الوحيد، المتوكّل على ذي القوّة المجيد، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم!

«ما أعظم محنتي، وأشدّ بليّتي، وأكبر رزيّتي! فعلى الله أتوكّل وإليه أفوّض.

على محمد خاتم النبيين وعلى الإمام المنصور صفوة الوصيين
والحجة رب العالمين قال القاضي النعمن ابن محمد رضي الله عنه
واستفاض امر المنصور صلع وري امير المومنين المعز لدين الله صلع
كل يوم يسل ويزيد صبره ويحسن ظاهره وانا اعلم من مكانه
عنده ومحله كان لديه وموقعه من قلبه ما قد كنت اخاف عليه
ان احدث به حادث من اجله فرايت منه من العزا والصلابة
والتجلد وجميل الامر ما قد ايقنت ان ذلك لانتقال الامامة
اليه ورايت تاييدها وبخاياتها فيه وانا على ذلك مما اعالج جزعا
غير انه سهل علي بعض ما رايته من صبر امير المومنين المعز لدين
الله وحسن عزائه وما منحه الله من البسط والكفاية واولاه
من الصنع والرعاية واظنه صلع رى فيما ظاهر حالي ما بين لديه
الجزع عندي وقل صبري في فقد ابيه ما يحفظه فقال يا نعمان ليحسن
عزاوك ويجمل صبرك وانما فقد الشخص وهو الاحي باقي وانت واجد
عندنا ما كنت واجدا عنده ونحن كنا سبب ذلك اليه ولن ينقطع
ذلك السبب لدينا لك ان شاء الله فطب نفسا وقر عينا واحسن
بنا ظنك وتسكن الى ما تحبه لدينا نفسك فبينا كنت اخشى
من الوجد عليه اذ صار بعد بني عنه صلع لتاييد الله له وتوفيقه
اياه وما وهب له من جميل الارشاد وحسن الاعانة من حسن العبادة والحمد
الذي اليه مرجع الامور كلها المنزل على نبيه ما ننسخ من اية
او ننسها نات بخير منها او مثلها وصلى الله على محمد الغاير من
اعتصم من عادته بمنجيات حبالها وعلى وصيه وعلى عترته الابرار ابناء

الصفحة 202 أ من نسخة «ر»

529 «فعليك فيما/ قبلك بالاحتراز ما أمكنك، والضبط ما استطعت، ومنع هؤلاء القِردَة من الوصول إلينا، والخروج من أبواب بيوتهم، فضلاً عمّا سوى ذلك. والكتمان ثمّ الكتمان، عن الأهل والخاصّ والعامّ[283]! وإن اتّصل بهم شيء من ذلك فكذّبه ما استطعت، وخوّفهم ما قدرت! ولا تحمّل نفسك من الهمّ والغمّ ما لا تحمله، وأعلم أنّه لو كان ذلك نافعاً، لتقدّمتك فيه أنا، والخلقَ أجمعين، واصْطَلَمَتْ نفسي من قبل هذا اليوم. ولكن لا رادّ لأمر الله، ولا دافع لقضائه، ولا متوفّى دون أجله! يقول الله جلّ من قائل: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (الأعراف، 34). فواغوثاه بالله من شدّة فجيعتنا! وواغوثاه من عظيم مصيبتنا! عجّل الله لنا الاجتماع معه، والحشر في زمرته، والورود معه على حوض جدّه! فيا سروراً اتّصل بالمهديّ بالله، والقائم بأمر الله، وبآبائه البررة من كريم هذه الجوهرة! ويا عظيم داهية وَلَد فاطمة بعده!

.. ويأمره بكتمان الخبر عن الخاصّ والعامّ

«أستغفر الله لنفسي من الزلل، وأتوكّل عليه في التوفيق للعمل بما يرضيه ويزلف إليه. والسلام عـليكَ.

«وصلّى الله (ر 202 أ) على محمّد خاتم النبيّين وعلى الإمام المنصور صفوة الوصيّين، والحمد لله ربّ العالمين».

530 قال القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه): /«واستفاض

(283) التكتّم عن موت المنصور. يرى ماريوس كانار في ترجمة السيرة، تعاليق 159، 161 و203 أنّ المشبوه فيهم والمحذّر منهم هم إخوة المنصور وعمومته، وهم المقصودون في نظره بعبارة «القردة المخزيين». وقد نبّه ناشرا السيرة أيضاً إلى الخصومات والدسائس الجارية في قصور الخلفاء وأولادهم (انظر التعليقين 68 و69 من هوامش السيرة وكذلك التعليقين 74 و80). والرسالة إلى جوذر توجد في السيرة، ص 73 - 74 كما قدمنا.

أمر المنصور (صلع) وأرى المعزّ لدين الله كلّ يوم يتسلّى ويزيد صبره ويحسن ظاهره، وأنا أعلم من مكانه عندَه ومحلّه لدَيْه وموقعِه من قلبه ما قد كنتُ أخاف عليه إنْ حدث به حادِث من أجله. فرأيتُ من العزاء والصّبر والتجلّدِ وجميلِ الأمر ما قد أيقنتُ [معه] أنّ ذلك لانتقال الإمامةِ إليه. ورأيت تأثيرها ومخايلَها فيه. وأنا على ذلك ما أتمالك جزَعاً [وهلَعاً]. غير أنّه سهّل عليَّ بعضَ ذلك، ما رأيتُه من صبر المعزلدين الله صلوات الله عليه وحسنِ عَزائه وما منحَه الله جلَّ ذكرهُ من القسط والكفاية وأولاه من [لطيف] الصنع والرعاية.

تجلّد المعزّ في مصابه

«وأظنه (صلع) رأى في ظاهر حالتي ما بيّن له شدّة جزعي وقلّة صبري. فوقّع إليّ يوماً بخطّ يده [أعلاها الله]: يا نعمانُ، ليحْسُنْ عزاؤك ويجمُلْ صبرُك! فمولاك مضى، ومولاك بقي. وأنت واجد عندنا ما كنت واجداً عِنْدَه. ونحن كنّا سببَك إليه ولن ينقطع ذلك السبب لدينا لك إن شاء الله تعالى، فطِب نفساً وقرَّ عيناً وَلْيَحْسُنْ بنا ظنّك وتسكُنْ إلى ما تحبُّه لدينا نفسُك!

فبينا أنا كنت أخشى من الوجد عليه إذ صار يعزّيني عنه، صلوات الله عليه، لتأييد الله له وتوفيقه إيّاه وما وهب له من جميل المادّة وأجراه عليه من حسن العادة»[284].

والحمد لله الذي إليه مرجع الأمور كلّها، المنزل على نبيّه ﴿ ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ (البقرة، 106). وصلّى الله على محمّد الفائز من اعتصم من عترته بمتين حبلها، وعلى وصيّه وعترته التي أبان الله عظيم فضلها. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(284) المجالس والمسايرات، 82.

قبلك بالاحتراز ما امكنك وانبسط ما استطعت ومنع

هؤلاء القرده من الوصول الينا والخروج من ابواب بيوتهم فضلا

عن ما سوى ذلك والكتمان ثم الكتمان عن الاهل والاخوان والنعام

وان اتصل بهم شيء من ذلك فكذبه ما استطعت وخوفهم

ما قدرت ولا تحمل نفسك من الهم والغم ما لا تحمله واعلم انه لو كان

ذلك نافعا لنفديته بنفسي وباولادي والخلق اجمعين ولصانت نفسي

من قبل هذا اليوم ولكن لا راد لامر الله ولا دافع لقضائه ولا

متولي دون اجل يقول الله جل من قايل فاذا جا اجلهم

فلا يستاخرون ساعة ولا يستقدمون فواغوثاه بالله من

شدة فجعتنا وواغوثاه من عظيم مصيبتنا وجل املنا

الاجتماع معه والحشر في زمرته والورود معه على حوض

جده فيا سروري بالاتصال بالمهدي بالله والقائم بامر الله

وبابايه البررة من كريم عنده الجوهرة ويا عظيم ذا صيده وله

فاطمة بعده استغفر الله لنفسي من الزلل واتوكل عليه في

التوفيق للعمل بما يرضيه ويزلف لديه والسلام عليك وصلى

الله على محمد خاتم النبيين وعلى الامام المنصور صفوة المرسلين

والحمد لله رب العالمين قال القاضي النعمان بن محمد رضوان الله

عليه

الورقة الأخيرة من نسخة «هـ»

بابيه واستفاض امر المنصور صلوات الله عليه وابي

امير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه الي بالسلا[م]

وبينه بسيره وبحسن تناصره وانا اعلم من مكانه عنده ومحله

كان لديه وموقعه من قلبه ما قد كنت احاذر عليه ان حدث

به حادث من اجله فرايت منه من العزاء والصبر والتجلد

وجميل الامر ما قد ايقنت انه لذلك لانتقال الامامة اليه

ورايت تاثيرها وشعايلها فيه وانا على ذلك لما الكمد عليه

غير انه سهل علي بعض ذلك ما رايته من صبر امير المؤمنين

المعز لدين الله وحسن عزايه وما منحه الله من القسط و

الكفاية واولاه من الصنع والرعاية واخذ صلوات الله عليه

براعية ظاهر حالي ما بين له شدة الجزع عنه [illegible] وقلة صبري

فوقع الي يوما بخطه [illegible] يحسن عزاك ويجمل صبرك

فولاك مضى وبقي لك بقي وانت واجد عندنا ما كنت واجد

عنده [illegible] كما سببك اليه ولن ينقطع ذلك السبب لدينا

ان شاء الله فطب نفسا وقر عينا وليحسن بنا ظنك ولا تسكن

الى الغم بل الدنيا فنفسك [illegible] كنت اخشى من الوجد عليه

اذ صار يعزيني عنه صلوات الله عليه لتاييد الله له

الورقة الأخيرة من نسخة «هـ»

خاتمة الأصل المعتمد، وهو نسخة «هـ» (الهمدانيّة)

تمّت تمام بعون الله تعالى وحسن توفيقه ومادّة وليّه في أرضه، سلام الله عليه، في تاريخ الثامن عشر من جمادى الأخرى، يوم الجمعة، من سنة 1310 / (1898). كتبه عبد سيّدنا ومولانا طوّل الله عمره، يوسف ابن المرحوم محمّد عليّ، ساكن سورت، غفر الله ذنوبهما وحشرهما في زمرة سيّدنا محمّد وآله الطاهرين أجمعين.

يا قارىء الخطّ، قل بالله، مجتهداً آغفر لكاتبه، يا خير معبود

خاتمة المخطوط المقابل به، نسخة «ر» (رحمة الله)

تمّت النسخة المباركة الموسومة بـ «عيون الأخبار» من تأليف الداعي الأجلّ، الذي كان مثواه في العلوم أحلّ، ولم يجار فيما أتى به وجعل، واستنبط من العلوم الإلّهيّة ونقل، سيّدنا ومولانا إدريس عماد الدين بن الحسن، قدّس الله روحه، ورزقنا شفاعته، ولا حرمنا مقبول ضراعته، بقلم أحقر الغلمان وعبيد داعي الزمان غالب بن عليّ حسين محسن الجبليّ اليعبريّ، في عام غفرانك في الهجرة المنوّرة على صاحبها أفضل الصلوات وأتمّ التحيّات وأزكى التسليمات الطاهرات، في عصر عصرة الدهور، وداعي النشور، وسلطان النضور، ومعنى البيت المعمور، الراقي على الذروة من الطور، سيف الله المشهور، وعلمه المنشور، سيّدنا ومولانا أبي محمّد طاهر سيف الدين، أطال الله عمره في التأييد، وحشرنا معه في المآب، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه، بمنّه وفضله، نهار الجمعة لخمس عشرة ليلة خلت من شهر شوّال 1351 / (1931).

الفصل السّابع

خلافة المُعزّ

(953/341 - 975/365)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله الجاعل أولياءه لخلقه أسباب النجاة القائل تعالى في كريم كتابه تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات، وصلى الله على رسوله محمد الوسيلة الى الله الذي به تستجاب الدعوات، وعلى وصيه علي ابن ابي طالب وآلهما أفضل السلام وأسنى التحيات، ذكر نبذ من الاخبار الكائن في ايام الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين أبي تميم ابن اسمعيل المنصور بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليهما وعلى آبائهما الطاهرين وابنائهما الأكرمين قد ذكرنا في أخبار الامام المنصور بالله صلوات الله عليه وأخبار ولده الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه والطاهرين من ابنائه ونذكر الآن من بعض ما أتاه الله من فضله وخصه من جلائل ... وما كان من الفتوح في أيامه ونأتي بنبذ من القول

الصلوات

تأتي بعد ... (المجالس)

ما يأتي ذكره من أخبار ... وآبائه

السبع السادس: الورقة الأولى.

القول

نختصرها ونأتي منها بجملها وبالله نستعين وعليه

نتوكل وهو سابع اسبوعين من ايمة دور النبي محمد صلعم

القائمين بعد الوصي امير المؤمنين علي ورابع اربعة من

ايمة الظهور الذين اولهم جده امير المؤمنين ابو محمد

الامام المهدي بالله صلعم وكان القاضي النعمان رض

ممن تقدمت له القدم في خدمة الامام المهدي بالله عم

في اخر خلافته وكان قد ظهر فضل القائم بامر الله عم

له ولغيره ثم اطلعه الامام المهدي بالله على فضل

ولد ولده الامام المنصور بالله وانه ثالث الايمة

في الظهور قال يا امير المؤمنين ثلاثة ايمة في عصر واحد

يستكثر ذلك فأراه الامام المهدي بالله المعز لدين الله عم

وهو صبي في مهده وقال هذا رابعنا يا نعمان وقد اجتمع

في وقت ابراهيم الخليل النبي صع اربعة وهم ابراهيم الخليل النبي

المرسل في دوره الذي اوحى الله اليه فقال اني جاعلك

للناس اماما قال ومن ذريتي فكان معه اسمعيل و

السبع السادس: الورقة الأولى.

ذكر نُبَذ من الأخبار ممّا كان في أيّام الإمام
المعزّ لدين الله
أمير المؤمنين معدّ أبي تميم بـن إسماعيل المنصور بالله،
صلوات
الله عليهما وعلى آبائهما الطاهرين وأبنائهما الأكرمين.

بسم الله الرحمان الرحيم.

الحمد لله الجاعلِ أولياءه لخلقه أسباب النجاة، القائل (تع) في كريم كتابه: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ (البقرة، 253).

وصلّى الله على رسوله محمّد، الوسيلةِ إلى الله، الذي بفضله تُستجاب الدعوات، وعلى وصيّه عليّ بن أبي طالب وآلهما أفضل السلام وأسنى التحيّات.

قد ذكرنا في أخبار الإمام المنصور بالله (صلع) ما تأتّى ذكره من أخبار الإمام المعزّ لدين الله أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه والطاهرين من أبنائه. ونذكر الآن بعض[1] ما آتاه الله من فضله وخصّه به، وما كان من الفتوح في أيّامه، ونأتي بنبذ من القول نختصرها، ونأتي منها بجُملِها، وبالله نستعين وعليه نتوكّل.

---

(1) في الأصل وفي المطبوع: من بعض.

هو سابع أسبوعين من أئمّة دَور النبيّ محمّد (ﷺ) القائمين بعد الوصيّ أمير المؤمنين عليّ، ورابع أربعة من أئمّة الظهور الذين أوّلهم جدّه أبو محمّد الإمام المهديّ بالله (صلع).

وكان القاضي النعمان (رضي الله عنه) ممّن تقدّمت له القدم في خدمة الإمام المهديّ بالله (عم) في آخر (ط 10) خلافته. وكان قد ظهر فضل القائم بأمر الله (عم) له ولغيره. ثمّ أطلعه الإمام المهديّ بالله على فضل ولد ولده الإمام المنصور بالله، وأنّه ثالث الأئمّة في الظهور. قال: «يا أمير المؤمنين، ثلاثة أئمّة في عصر واحد؟» يستكثر ذلك. فأراه الإمام المهديّ بالله المعزّ لدين الله وهو صبيّ في مهده، وقال: «هذا رابعنا يا نعمان!».

وقد اجتمع في وقت إبراهيم الخليل النبيّ أربعة، وهم: إبراهيم الخليل النبيّ المرسل في دوره، الذي أوحى الله إليه فقال: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ (البقرة، 124). فكان معه إسماعيل/ وإسحاق ويعقوب. 2/2

ثم كان في وقت موسى بن عمران: كان معه أخوه هارون، ويوشع بن نون، وفنحاص بن هارون.

لا مانع من وجود أربعة أئمّة في زمن واحد...

ثم في وقت نبيّنا محمّد (ﷺ) خير الأنبياء وخاتمهم، الذي ختم الله بنبوّته وبرسالته النبيّين المُرسَلين، وفضّله على خلقه أجمعين، وجعل شرعه باقياً إلى يوم الدين: كان في عصره أخوه وناصره، ومعاضدُه على إقامة دين الله ومُظاهِرُه، وأبو الأئمّة من ذرّيّته ومُصَاهِرُه، عليّ وصيّه أمير المؤمنين وخاتم الوصيّين، وآبناهما الحسن والحسين.

وكان مع جعفر الصادق ابنه إسماعيل بن جعفر، وآبن آبنه محمّد بن إسماعيل، ثلاثة أئمّة في عصر واحد.

وكان كذلك المهديّ بالله، والقائم بأمر الله، والمنصور بالله، والمعزّ لدين الله.

... مثل الأنبياء وأوصيائهم

ولا تكون الإمامة إلاّ في واحد بعد واحد، هو المختصّ بفضلها، والحائز لشريف محلّها، يشير إلى الخليفة من بعده، وينصّ عليه، ويبيّن لأهل دعوته القائمَ مقامه، ويُسلّم إليه. فكانت تظهر في المعزّ لدين الله الفضائل، وتقوم بٱستحقاقه لخلافة آبائه الطاهرين الدلائل.

(ط 11) وقد أتى عن القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه) فيما رواه عن الإمام المعزّ لدين الله (عم) أنّه قال: «إنّي لأذكر من أمير المؤمنين المهديّ بالله (عم) يوماً كنتُ حُملت فيه إليه، وأنا يومئذٍ فطيم أعقل الكلام وأحفظ ما يكون، فتناولني وقبّلني، وأدخلني تحت ثوبه، وكشف عن بطني وألصقها ببطنه ثمّ أخرجني وبارك عليّ، وسألني عن حالي، وأجلسني في حجره، ودعا لي بمأكل. فأتيتُ بطَبَقٍ من فضّة مذهّبٍ فيه مَوْز وتفّاح خريفيٌّ وعِنَبٌ، فوُضِعَ بين يديّ، فلم أتناول منه شيئاً. فأخذه بيده وناوَلَنِيه، فأخذتُه بيدي، فقال: امضِ به فكل أنت ما فيه وأعْطِ الطبقَ فلانة ـ وذكر بعض البنات وهي يومئذٍ في مثل سِنّي ـ فقلت له: لا، بل آخذ أنا الطبق، وأعطيها ما فيه. فضحك وتعجّب من انتباهي لذلك، ودعا لي بخير، وقال للخادم: احمله! فحُمِلتُ وحُمِل معي الطبقُ بين يديّ، وقال: سيكون له نبأ، / ومثل هذا من الكلام، لم أضبطه أنا عن المعزّ (صلع)[2].

فطنة المعزّ منذ الصغر

3/2

«ثمّ قال المعزّ: كان المهديّ واحد الزمان وخبيئة آل محمّد، وعالمهم، وكاشف جلباب المحنة عنهم».

(2) المجالس والمسايرات، 541.

(قال): وكان المعزّ لدين الله (صلع) يحلّ من جدّه القائم (صلع) محلاً خصيصاً مذ نشأ. وكان يقرّبه ويدنيه ويسرّ إليه دون أبيه. وكان رسولَه وسفيرَه إلى الناس فيما يأمر به وينهى عنه ويحتاج إليه. فإذا خلا كان بين يَدَيه، ومتى غاب عنه أرسل إليه.

حظوته عند جدّه القائم..

«وكذلك كان الإمام المنصور من جدّه المهديّ بهذه المنزلة، لا يفارقه (ط 12) ويحدّثُه سرّاً ولا يعلم أحد ما يجري بينهما. فأخبرني بعض من كان يدخل إلى المهديّ (صلع) في أكثر الأوقات لما لا بدّ له منه، أنّه لم يكن قطّ دخل إليه في خلوة إلاّ وجد المنصورَ (عم) بين يدَيْه يناجيه، فإذا رآه تنحّى من بين يدَيْه حتى يقضي ذلك الرجل حاجته، فإذا خرج، عاد إليه (قال): وما سمعت قطّ ما يجري بينهما. وما علمت أحداً ممّن يقرب من المهديّ كان يحلّ منه محلّ المنصور، ولا رأيت أحداً يخلو معه فأدخل عليه على ذلك إلاّ كلّمه بحضرتي وسمعت ما يجري بينهما، إلاّ المنصور.

.. مثل حظوة المنصور عند المهديّ

«فذكر المعزّ يوماً مثل هذا من حاله، وأنّ المهديّ بالله كان يغذّيه بالحكمة ويرشّحه للإمامة، بحسب ما كان القائم بأمر الله يفعل به هو»[3].

وعن القاضي النعمان قال:

«وسايرت المعزّ لدين الله (صلع) في بعض أسفاره فذكر القائم (صلع) واختصاصَه إيّاه ومحبّته له وقُربَه منه وما كان امتَحَنَ به المنصورَ (صلع) من طول سَتر أمره وتركِهِ إظهارَه إلى أن قرُب وقتُ انتقاله.

---

(3) المجالس والمسايرات، 501.

فقال المعزّ (صلع): دخلت إليه بعد أن أظهر المنصورَ (صلع) ونصبه للناس بعد مدّة اثنتي عشرة سنة من يوم أفضى إليه بذلك[4]، وذلك قبل وفاته (صلع) بثلاثة أيّام[5]، وعنده بعض حرمه، فأمرها فتنحّت عنه، ثمّ أدناني من نفسه، وضمّني إلى صدره، وقبّل بينَ عَيْنَيّ، وبكى فبكَيْت لبكائه، ولا أدري ما أبكاهُ.

ثمّ قال لي: يا بنيّ إنّ مولاك ومُحبّك مفارِقُك بعد ثلاثٍ. وعَقَدَها بيده.

4/2 قلت: بل يُبقي الله أميرَ المؤمنين / ويُمدُّ في عمُره ويُقدّمُنا قبله.

قال: اسْمَعْ ما أقولُ لك: إنّ أخوَفَ ما أتخوّفُه عليك من أبيك (ط 13) ما علِمه من إيثاري إيّاك وإيثارك أمري على أمره، وميلك إليّ دونه، وما أعلَمُه من ميله إلى أمّهات إخْوَتكَ[6]. فأخشى خِشيةَ المُشفِق عليك أن يعدل بهذا الأمرِ [عَنْكَ] إلى غيرك منهم. وكلّا لا يفعل الله ذلك إن شاء الله! ولكن متى رأيتَ منه أثَرَةً عليك أو ميلاً عنك فاصبرْ صبرَ من أحلّه الله محلّك، وأقامه مقامك. فأنت والله صاحبُها، ولولا صِغر سنك اليوم ما عَدَتْك[7]. وعن قريب تصير إليك فأوصيك بتقوى الله واحتمال ما حُمّلتَ والصبرِ على مَضَض ما يُؤتى إليك. وإخْوَتَكَ إخْوَتَكَ! فأحْكِم مُعَامَلَتَهم في يومك وغدِك!

(4) في الأصل: إليه الأمر بذلك، وفي المطبوع: إليه بذلك الأمر: واستبقينا قراءة المجالس، 468. هذا وإنّ تعيين المنصور وليّاً للعهد وقع عند دفن المهدي، في ربيع الأوّل 322، وقد نبهنا إلى تضارب الروايات في خصوص شهود التعيين ومدّة كتمانه: انظر هذا الكتاب، ص 236 وكذلك المجالس والمسايرات، 468 - 469 والهوامش مع إحالاتها.

(5) توفّي القائم، حسب رواية إدريس (ص 339) يوم 13 شوّال 334 (ماي 946).

(6) كان للمنصور خمسة أبناء وخمس بنات (اتّعاظ الحنفاء، 133)، ويبدو أنّهم من أمّهات مختلفات.

(7) عدتك: جاوزتك.

أصداء الخلاف والتنافس في الأسرة الحاكمة

ثمّ أدركه ضعف وبهَرٌ، قطع الكلام له ساعة ثمّ تنفّس الصّعداءَ فقال: الإخْوَةُ وما الإخوةُ؟ يتهوّلُ أمرَهم، لما كان ناله (صلع) من المشقّة في سياسة أمرهم. ثمّ خَفَقَ. ورأيتُ أنّ الكلام أجهده، فقُمْتُ عنه وخرجت. فإذا بالمرأة من وراء الباب تسمَعُ ما جرى من الكلام - وهي بعض أمَّهَاتِ الأولاد - فهنّأتْني بما سمِعَت وقُبض (صلع) ثَالثَ ذلك اليوم [كما قال][8].

فحين أفضت خلافته إلى المنصور بالله (عم) ورأى الخير كلّه في ولده الإمام المعزّ لدين الله، عهد إليه بعهده، وأطلع على ذلك خلصاء أهل ولايته وودّه، وأقام جوذراً خادماً له في قصره بالمهديّة، وفوّض إليه جميع أمورها بالكليّة، وخرج لحرب الدجّال حتى فتح الله عليه، فأظهر النصّ على المعزّ لدين الله، وأشاد ذكره وأعلى أمره. وكان قرينه في سفره وحضره، وخليله في كلّ أمره، وموضع أمانته وسرّه. ولم يكن أحد يتّصل إليه من الأبواب والدعاة وأهل المملكة، إلاّ على يد المعزّ (عم) وتسبّبه إليه. وكان يظهر له فيه من مخايل الفضل، ويشاهد فيه من علوّ القدر، ما يزيده منه قرباً وعلوّاً، ورفعة لديه وسموّا (ط 14).

المنصور فوّض أمور الدولة إلى وليّ عهده المعزّ

وقد جاء عن القاضي النعمان (رضي الله عنه) قال:

«خرج أمير المؤمنين المنصور بالله (صلع) في أيّامه لبعض ما كان يخرج إليه من اطّلاع الحال. فانتهى إلى طنباس[9] وخرج المعزّ عليه السلام معه، وكنت فيمن خرج معهما. فانتهى إلى وادٍ يجري فيه ماءُ المطر/ فيسقي أراضي كثيرة لمنازل شتّى فإذا فيه سدّ عظيم. فلمّا انتهى إليه ووقف عليه، وقف إليه رجلان من وكلاء

5/2

(8) المجالس والمسايرات، 468 - 469.

(9) طنباس: حاولنا أن نعرّف بهذا الموضع في ص 268.

الضياع، فذكر أحدهما أن الآخر سدّ بذلك السدّ عن الضياع التي يتولّاها، ما كانت تشرب به من سيل المطر. وذكر الآخر أنّ ذلك من حقّه، وممّا يجب له أن يفعله. واحتجّ كلّ واحد منهما في ذلك بحجج كثيرة وعلت أصواتُهما واعتكر الكلامُ بينهما. وكان تنازُعُهما، والمنصورُ صلوات الله عليه [يسمعُ كلَّ ذلكو] لم يفصل بينهما، والمعزّ صلوات الله عليه قائم على فرسه ناحيةً، والناس بالبعد ركوب على دوابّهم، وقيامٌ، ينظرون إلى ذلك ويسمع أكثرهم كلامَ الوكيلين. وكنت فيمن يسمع ذلك ولا أرى وجهاً لفصل ما بينهما، وكلّما قلت في نفسي: قامت الحجّة لأحدهما، أدخل الآخر عليه حجّةً.

فقال لي بعض من كان في الموكب ممّن قرب منّي: أما تسمع ما دار بين هذين؟

قلت: نعم.

قال: فما ترى فيه؟

المنصور والمعزّ في حكمتهما...

فقلت: والله ما وقفت من ذلك على حقيقة أمر أقطع القول به ولقد اشتبه عليّ أمرهما، وحسبك ما ترى من توقّف أمير المؤمنين (صلع) عن الفصل بينهما، ولكنّي أقول: إنَّهُمَا لو وقفا بين يدي الأمير - أعني المعزّ لدين الله صلوات الله عليه - لفصل بينهما.

قال: ومن أين قلتَ ذلك؟ (ط 15).

قلتُ: لعلمي به. والله ما ضاق عليّ أمر رأيته ولا آشتبه عندي وجهُ الحقّ فيه فرفعته إليه إلاّ أجابَني عنه قبل استيفائه آخرَه، أو عندما يستوفيه، بجواب ما خطرَ ببالي بعد الرويّة له والفكر فيه الأيّام الكثيرة والليالي العديدة، ممّا لا أشكّ فيه أنّه الحقّ الذي لا وجه له غيره. وذكرتُ له وجوهاً من ذلك.

فإنِّي لعلى ذلك أحدِّثُه عنه وهو يتعجَّب ممّا يهيِّئُه الله لـه ويَهديه إليه من الصواب في ذلك إذْ نظرنا إلى الرجلين قد انصرفا من بين يديِ المنصور بالله عليه السلام، إليه، فوقفا بين يديه، وكان أقرب إلينا من المنصور (صلع). فما هو إلاّ أن وقفا بين يديه حتّى انصرفا إلينا، وما سمعنا لهما كلمةً. وجاء أحدهُما حتّى وقف بيني وبين الرجل الذي كنت أخاطبه ورأيت وجهه يتهلّل. فقلت له: ما كان من أمركما؟

قال: انقطع كلامنا، وفصل الأمير بيننا في كلمة واحدة بعد ما سمعت مَا كان بين يدي مولانا عليه السلام/ . 6/2

فقلت: وكيف ذلك؟ ونظرت إلى الرجل الذي كنت قلت له من ذلك ما قلت، وقلت له: ألم أقل لك؟

قال له الرجل: وكيف كان ذلك؟

قال: إنّه لمّا طال مقامنا وكثر كلامنا بين يدَي أمير المؤمنين، قال لنا: اذهبا إلى مولاكما ينظرْ فيما بينكما!

فانصرفنا إليه فلمّا مثلنا بين يديه وأردنا أن نتكلّم قال: اسكتا! أكفيكُما ونفسي. ثم نظر إلى صاحبي فقال: أليس هذا الوادي وما يجري فيه من الماء وما يسقي من الأراضي لنا؟

قال: نعم.

قال: وأنتُما تنازعتُما في هذا السقي ليطلبَ كلّ واحد منكما به توفيرَ ما يجري لنا على يديه؟

قال: نعم.

قال: فأخبرني! لو كنتَ وكيلاً على الموضعين جميعاً، أكنتَ تسقي موضعاً وتدعُ موضعاً بلا شرب؟ فسكت.

فقال: قل: لا، إن كنت تؤثرُ قولَ الحقّ!
قال: يا مولاي ما كنت أفعل ذلك.

قال: صدقتَ! فما كنت لا تفعلُه لنفسك فلا تُلزِمْه لغيرك. اذهب فأزِلِ السَّدَّ وآسقِ أنت ما عندك، وهذا ما عِنْدَهُ، بحسب ما يُعطيك الماء ويُعطيه. فحكم لي بما كنت طلبتُ، فانصرفت.

فنظر إليَّ الرجل الذي كنت خاطبتُه وقال لي: كأنّما والله كُشف لك عن غيب هذا الأمرِ!

قلت: ما ذاك إلاّ بما جرّبتُه وعرفتُه بما قدّمت عندك ذكرَ البعض منه.

مثل داود وسليمان

ثمّ نظرتُ في هذه القضية العجيبةِ التي ألهَمَهُ اللّهُ عزّ وجلّ إيّاها وستَرها عن الإمـام. فذكـرت قول الله عـزّ وجلّ: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحَرْث إِذْ نَفَشَتْ فِيه غَنَمُ القَـوْم وَكُنَّا لِحُكْمِهمْ شَاهِدِينَ، فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَـا حُكْماً وَعِلْمـاً ﴾ (الأنبياء، 77)، وما روى لنا الرواة عن أئمّتنا صلواتُ الله عليهم من أنّ رجلَيْنِ اخْتَصَمَا إلى داود النبيّ عليه السلام في غَنَم لأحدهما وقعت في زرع الآخر فأفسدَتْه، فقال داود عليه السلام في ذلك قولاً ثم صرفهما إلى سليمانَ عليه السلام لينظرَ بينهما، فقال سـليمان: إن كان صاحب الغنم تعمّد إرسَالَهَا في الزرع فهـو ضامن لمـا أفسدَتْ. فإن لم يتعمّدْ ذلك وأفلتَتْ من غَيْر إرادة منهُ ولا قصدٍ لذلك، فلا شيء عليه، والعجمـاءُ جُبَارٌ (من العُجْم: البهـائمُ، والجُبارُ: الهَدَرُ)، يعني أنّ ما أصابت البهائمُ من ذات أنفسها فهو هدرٌ.

(قال): وهذا فإنّما يكون في النهار (ط 17)، وعلى أصحاب الحوائط حياطةُ حوائِطهم بالنهار. فأمّا إن أفلتَتْ بالليل/ فصاحبُها ضامنٌ لما 7/2

أصابَتْ، تعمّد ذلك أو لم يتعمّدْ، لأنّ أهل المواشي عليهم أن يحوطوا مواشيَهم ليلاً ويمنعُوها من الخروج عن منازلهم، وليس على أهل الحَوائِط أن يحفظوا حوائطهم ليلاً. ففهّمَ الله سليمانَ هذه القضيّة في حياة أبيه، وحجبها عنه ليريَه فضلَه في حياته ويَسُرَّه بما أودعه من حكمته. وكذلك فهّم المعزَّ لدين الله صلوات الله عليه هذه القضيّةَ في حياة أبيه المنصور (عم) وحجبها عنه ليريه فضله في حياته ويسرّه بما ألهمه من الحكمة، ويبيّن له ما آتاه لِيقرّ به عينه.

وكما روى لنا الرواة أيضاً عن أئمّتنا صلوات الله عليهم أنّ أعرابيّاً أتى إلى مسجد رسول الله (ﷺ) في أيّام عمر فأتاه فقال له: إنّي رجل مُحْرِم مررتُ على بَيْض نَعام فجنيتُ وشَوَيْتُ وأكلتُ. فقال: ما عِنْدِي في هذا علمٌ، ولكن اجلس! فالسّاعةَ يجيءُ مَن عِنْدَه علمُ ذلك. فجلس حتّى أقبل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه. فقال عمر للأعرابي: سل هذا! وكان الحسن (صلع) يومئذٍ غلاماً مع عليّ، فأتى الأعرابيّ إلى عليّ (صلع) [فقال: إنّي رجل مُحرِم مررتُ على بَيض نعام فجنيت وشويت وأكلت][10].

كذلك الحسن بن عليّ كان فقيهاً حكيماً على حداثته

فقال له عليّ: سل هذا! وأومأ إلى الحسن (صلع).

فقال الأعرابيّ: يا وَيْلَتَاهُ! ما لي ولكم يا أصحابَ محمّد؟ أعَجزتم عن الجواب؟ كلّما سألت واحداً منكم أحالني على الآخر!

فقال له عبد الله بن مسعود: سله يا أعرابيّ فإنّه من أهل بيت النبوّة!

(10) في النسخة: فأعاد عليه السؤال، وقد أعاد النعمان السؤال فعلاً.

فسأله الأعرابيّ. فقال له الحسن (صلع): يا أعرابيّ، ألك إبل؟

قال: نعم.

قال: فخذ بعِدّة البيْض نوقا فاضربهنّ بالفحل، فما حمل منهُنَّ وفصَل من أولادهنَّ، فاجعله هَدْياً.

فقال (ط 18) الأعرابيّ: فرّجتَ عنّي فرّج الله عنك! وقام. فاستَقْبَلَه عمر، فقال: ما الذي قال لك؟ فأخبره، فقال: ارجع [إليه]، فقل له: أما علِمْتَ أن النُّوقَ يُزْلِقْنَ[11]؟

فقال له الحسن (صلع): قل للّذي قال لك هذا/: أوَ ما علمت أن البَيْض يمرَقْنَ[12]؟.

فقام إليه أبوه (صلع) فقبّل بين عينَيْه وقال: ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (آل عمران، 34).

8/2

الشاهد في قضيّة البيض المأكول

فقال/ عبد الله بن مسعود: إنّ الذي فهّم هذا الغلامَ هذه القضيّةَ العجيبة، هو الذي فهّمَ سليمان بن داود عليهما السلام تلك القضيّة، والذي أنطق هذا الغلام بالحكمة هو الذي أنطق يحيى بن زكريا بالحكمة. واللّهِ لو رَدُّوا الأمر في نصابه لأكلوها خضراء خضِرةً عن أيْمَانهم وعن شمائِلهم! فقال له عمر: يا ابن مسعود، أتؤلّب علينا الناس؟ فقال له الحسن عليه السلام: كنتَ تفتيه ولا ترشده إلينا.

فهذه القضيّة أيضاً كانت من الحسن (صلع) بحضرة عليّ

(11) أزلقت الناقة: رمت بولدها قبل تمامه، أجهضت.

(12) مرقت البيضة (وزن فرح): فسدت فصارت ماء.

(صلع) إلهَاماً من الله له ليُقرَّ بِهِ في حياته عينَه كما ذكرنا في قضيّة المعزّ (صلع).

ودلّ قول الأعرابيّ أنّه شوى البيض وأكلهنّ على أنّه لم يكن فيهنّ فِراخ فأمره الحسن (صلع) لذلك بأن يرسل الفحلَ في عدّة نوق كعدّة ما أصاب من البَيْض فما حمل من ذلك الضرب ونتج، أهداه. وإن لم يحمل أو حمل بعضُها لم يكن عليه غيرُ هديٍ ما نَتَجَ لأنّ البَيْضَ كذلك قد تفسد كما قال الحسن (عم)، وإن كان فيها فراخ لم تنشأ فيها الأرواحُ كان عليه أن يضرِبَ النّوقَ بالفحل حتى يتبيّن حملَها فما نتج منها كان هدْياً. وإن كانت قد نشأتْ فيها الأرواحُ كان عليه أن يضرِب النّوقَ بالفحلِ حتى تحمل وتتحرّك أجنّتُها في بطونها فما نتج بعد ذلك منها أهداه، وما مات في بطونها لم يكن عليه بدَلُه لأنّ الفراخ كذلك قد تموتُ في البَيْض[13].

الفقه الإسماعيليّ يرفض نكاح المتعة

وقول المعزّ عليه السلام للرجل: ما لم تكن تفعله لنفسك فلا تُلزمه لغيرك، من قول آبائه (صلع): أحِبَّ للناس ما تحبُّ لنفسك وحسبُك أدبا لنفسك ما كرِهتَه من غيرك. ومن قول بعضهم لبعض من سأله عن نكاح المُتعة فقال: هل ترضى لنفسك أن تُنْكَحَ ذاتُ مَحْرَمٍ منك نكاحَ متعة؟

قال: لا والله؟

قال: فكفاك بهذا أن لا ترضى لغيرك إلّا ما ترضاه لنفسك[14].

(13) لم يذكر القاضي النعمان هذا الحكم في باب الديات من كتابه «دعائم الإسلام»، وإنما ذكر قضية حكم فيها عليّ حكماً مماثلاً أقره الرسول (ﷺ) بعد أن عجز عنه الشيخان (دعائم ج 2 ص 424 عدد 1477).

(14) الإسماعيلية ينكرون نكاح المتعة. انظر قول القاضي النعمان في كتاب الاقتصار =

وكلام الأئمّة (صلع) كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً ويشهد بعضه لبعض/، لأنّهم بنور الله يستبصرون، ومنهُ يقتبسون، وبحكمه ينطقون، وعن أسلافهم يأخذون، فهم حجج الله عزّ وجلّ في الأرض كما قال الله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾[15].

9/2

هذا قول القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه). وممّا أتى عنه قال[16]:

«حدّثني بعض إخواننا عن المنصور بالله (صلع) أنّه قال: أردت أن أستعمل على بعض الثغور عاملاً، فأجلت فكري في اختيار من أراه يصلح لذلك، فلم يقع اختياري إلاّ على رجل - سمّاه لي الرجل - (قال): فلم أرَ اختياري كلّما أجلته، وفكري كلّما صرفته يقع إلاّ عليه، فعلمت أنّ ذلك من توفيق الله.

فأردت امتحان ما عند الله (عج) لمن رجوته لمقامي وآثرتُه بأمري. فكتبت اسمَ الرجل الذي خطر ببالي في ورقة وختمتُ عليها ووضعتُها بين يديّ ودعوت به - يعني المعزّ لدين الله صلوات الله عليه - فسلّم ثم وقف، فقلت: يا بنيّ أردتُ إخراجَ عاملٍ إلى بلد كذا وكذا - وذكرتُ البلد - فمن تراه يصلح لذلك؟

فقبّل الأرضَ وقال: يا مولاي، وأيُّ رأيٍ لي مع رأيك، والله يُمِدُّك بالتوفيق؟

= (دمشق 1957 ص 109). «ولا يحل نكاح المتعة». فهو إنكار صريح وانظر كذلك دعائم الإسلام ج 2 ص 229 حيث ينقل القاضي إنكار عليّ الشديد لهذا النوع من النكاح.

(15) هذا النقل الطويل من المجالس والمسايرات، 60 - 65.

(16) المجالس، 71.

فقلت: قُل لي على ذلك! فامتنع عن القول وجعل يعتذر ويستعفي.

مثالٌ آخر من توارد الحكمة عند المنصور والمعزّ..

فقلت له: لا بدّ من أن تـقولَ في ذلك، فإنّي ذكرتُ رجلاً، واسمُه في هذه الرُّقعة فخُذْ أنتَ رقعةً فاكتب من تراهُ.

(قال): فلمّا لم يجد من ذلك بدّا تناول قلما و رقعةً وكتب، ودفع إليّ الرقعة، فإذا فيها اسم الرجل الذي وقع اختياري عليه، فحمِدت الله على ما أنعمَ به عليَّ فيه، ورميتُ إليه بالرقعة التي ختمتُ عليها، وفيها ذلك الاسمُ وقلت له: فُكَّهَا وانظُرْ ما فيها! ففعل. فـلمّا رأى مـا وافق من ذلك من رأيي حمِـد الله تعالى واستبشر وتهلَّل وجهُه لذلك.

وهذا ممّا قدّمت ذكره وكرّرته من إدخال اللهِ السرورَ على أوليائهِ بما يُريهم فيمن أقامُوه مقـامَهم وفوّضـوا إليه أمَرهم. ثمّ أخبرني المعزّ عليه السلام بهذا الخبر بعد ذلك.

وفيما رواه أيضاً عن الإمام المعزّ قال[17]:

10/2

وسمعته (صلع)/ يقول: انتهت إلى/ القائم بأمر الله (صلع) في آخر إيّامه وفاةُ داع من دعاته ببعض جزائر المشرق[18]، وتنازع وصيّته رجلان من أهل دعوته، كلاهما زعم أنّه أوصى إليه. فلَم

(17) المجالس، 265.

(18) قد مرّ التعريف بالجزيرة (ص 39) وانظر: أفتتاح الدعوة 1 والمقدمة الفرنسية 39، الحاشية 1.

يُمْض القائم (عم) من أمرهما شيئاً حتّى قُبض قدّس الله روحه. واشتغل المنصور (عم) بما كان فيه من أمر الحرب إلى أن أخْمَدَ الله (عج) به نار تلك الفتنة[19] وأزال به المحنة. وكاتب الدعاة، فاحتاج إلى إثبات داعٍ بتلك الجزيرة وكان لكلا الرجلين اللذَيْن ادّعيا الوصيّة من الداعي المتوفّى رسولٌ بالحَضْرة أتى من عنده بكتاب يذكر أنه أوصى إليه ويسأل إطلاقه.

فقال لي يوماً: من تراه يصلح من هذين الرجلين لهذه الجزيرة؟

فقلت: الله ووليّه أعلم.

قال: قل على ذلك.

فتوقّفت واستعفيتُه.

.. ومثال ثالث

فقال: لا بدّ من أن تقول، وقد قلت أنا في ذلك ولكنّني أردت أن أعلم ما عندك فيه، هل يوافق ما قلتُه أم يخالفه (ط 21).

فقلت: يُنظِرُني أمير المؤمنين (عم).

فقال: أنْظَرتُك.

فانصرفت فأجلت فكري وأدرت نظَري فوقع اختياري على أحدهما، فكتبتُ اسمَه في رُقعة وجئت بها إليه فوضعتها بين يديه، فقال: ما هذه؟

فقلت: اسم الرجل الذي وقع اختياري عليه. فتركها مكانها وأخرج رقعاً مُدرَجَةً فقال: وفي هذه اسم مَن وقع اختياري

---

(19) فتنة أبي يريد.

أنا عليه منهما. وفتحَهُما فإذا اختياره واختياري قد وقعا على رجل واحد. فسُررت بذلك وحمِدت الله (تع) عليه.

ثم جئته بعد ذلك فقال: أسرّك موافقتُك إيّايَ في أمر الرّجل؟

قلت: وكيف لا تسرّني موافقة مولاي؟
قال: أفأزيدك سروراً؟.
قلت: إن تفضّل أمير المؤمنين (عم).

فأخرج إليّ رقعة فيها توقيع القائم عليه السّلام بخطّه باختيار ذلك الرجل.

وقال: قلّبت كتُبه فمرّت بي على غير تعمّد.

ورأيت الرّقاع الثلاث التي كتب القائم والتي كتب المنصور والتي كتبت أنا كأنّها كُتبت من نسخة واحدة يقابل بعضُها بعضاً. وكان فيها: ادّعى وصيّة /فلان فلانٌ وفلانٌ، فنظرت إلى كتاب كلّ واحد منهما فرأيت أنّ فلاناً أحقُّ بذلك لوجه كذا ووجه كذا، لم يزد ما في رقعة منها على أخرى.

11/2

(قال): فأدناني المنصور بالله إلى نفسه واعتنقني وضمّني إلى صدره وقبّل صفحة عُنُقي وألصق خدَّه إليها مدّة طويلة وهو يبكي حتّى بلّ بدموعه أطواقي وبكَيتُ لبكائه. ولا والله ما علمت ما كان معنى ذلك البكاء حتّى قبض (صلع) فعلمت حينئذٍ أنّ ذلك كان وداعاً منه لي، وأنّه رأى ـ لمّا رآه ـ أنّ في ذلك أجلَه قد قُرب لمّا رآه انتقل إليّ من التّأييد.

قال القاضي النعمان بن محمد (رضي الله عنه):

وليس هذا الذي قاله المعزّ (صلع) بخلاف ما قاله من انتقال ما

عند الماضي، وإنّما ينتقل إلى الباقي في آخر دقيقةٍ تبقَى من نفَس الماضي، إنّما ذلك في استكمال الأمر واستحقاق الإمامة ووجوب الطاعة، لأنّ ذلك لا يكون في اثنَين باقيَيْن.

وأمّا الدّلائل والبرَاهينُ والقوّةُ والتأييدُ فإنّها توجد في الحجج في حياة الأئمّة كما ذكر (صلع)، وتزيد حالاً بعد حال إلى وقت الكمـال، كلّما قرُب أجَـل الأوّل تقوّت أسبـابُ حجّتـه وظهـرت علاماتُه. ولذلك ما كان من بكاء المنصور (صلع): لمّا نظر إلى المعزّ (صلع) قد وافقَه ووافقَ القائمَ (عم) علِم أنّ ذلك من قوّة الدلائل، وأنّ أجلَه قد قرب.

وعلى مثل هذا تجري أمورُ أكثر العالَم، لا ينتقلُ الشّيء إلى الشيء دفعة واحدة ولا يكون ذلك إلّا على التّدريج والنموّ شيئاً بعد شيء كنموّ الخلق ودخول الفصل من الزمـان في الفصل، حتّى ينقضيَ الشيءُ من الشّيء ويخلُص بنفسه ويَتَبَيّن بحالته وينسَخَ ما قبله.

ومن ذلك ما رُوي عن جعفر بن محمد (صلع) أنّه قال: عليّ (صلع) عالِم هذه الأمّة ونحن نتوارث علمه، وليس يهلَك منّا هالك حتّى يرى مِن أهلِه مَن يعلَم مثلَ علمه (صلع).

وفي مثل بكاء المنصور (صلع) لمّا رأى اتّصال المادّة[20] بالمعزّ صلوات الله عليه، قال بعض الحكماء: من سَرَّهُ بنوه ساءَتْه نفسُه[21]، يعنون أنّـ[ـه] بكمال الولد وزيادته يكون نقصانُ الوالد وانحطاطه. وفي ذلك يقول بعض الشّعراء:

---

(20) المادّة هنا: النفح الإلآهيّ والإلهام الربّانيّ في قلب الأئمّة.

(21) هذا من أمثال العرب (مجمع الميدانيّ، رقم 4017).

(رجز):

12/2 /إذا الرِّجالُ ولَدَت أولادُها واضطربَتْ من كِبَرٍ أجسَادُها
وجعَلَت عِلاّتُها تعتَادُها فهي زُرُوعٌ قد دنا حَصَادُها[22]

فإذا كان هذا في ظاهر خلق الأبدان وما يداخلها من الزِّيادة (ط 23) والنّقصان، فكيف به في باطن علم الأديان؟!

وفيما رواه عن المعزّ لدين الله (صلع) القاضي النعمان (رضي الله عنه) قال[23]:

وسمعته (صلع) يقول يوماً: لمّا احتضر المنصور بالله صلوات الله عليه جعل يوصيني بما أعمل عليه بعده، وهذا قائم - وأومأ إلى رجلٍ من عبيده كان قائماً بين يديه - (قال): ثمّ نظر إليه وقد دمعت عيناه فقال: واللّهِ لتُعَايِنَـ[ـنَّ] من مولاكَ هذا ومن جميل أفعاله وسيرَتِه وما يُجريهِ الله من الخير لَهُ وعلى يديه، ويضعه من الجميل له، ويؤيّدُه به ويمكّنه له ويفتحه عليه، ما لم تَرَ قطّ ولا سمعتَ بمِثِله.

ثقة المنصور بالمعزّ

فقال له الرجل: يا مولاي، وأيّ شيء بقي له من ذلك لم تفعَلْهُ أنتَ؟

قال: كثير، والله، جدّاً، هو في القوّة لم يظهر بعد إلى الفعل، يُظْهِرُهُ الله له ويجريه على يديه.

وقال القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه): «قال المعزّ (صلع): شهدت مشهدين لو حمّلت الجبال ما حُمِّلْتُه لما أطاقته: وهما وفاة القائم بأمر الله، ووفاة المنصور بالله».

---

(22) البيتان خرّجهما الطيّب العشّاش في الحوليّات، 1972/9 ص 129 منسوبين إلى أيمن بن خريم.
(23) المجالس، 93.

وحين أفضت خلافة الله إلى أمير المؤمنين الإمام المعزّ لدين الله معدّ بن إسماعيل أبي تميم قام بالأمر والتزم بالصبر على جليل المصيبة وعظيم الرزيّة، كما قال القاضي النعمان في بعض ما أتى عنه، وقد ذكرناه، وهو قوله في المعزّ: «فبينا كنت أخشى من الوجد عليه، إذ صار يعزّيني عنه، وأنا أعلم من مكانه لديه وموقعه من قلبه، ما كنت أخاف عليه إن حَدَثَ به حادثٌ من أجله. فرأيت منه من العزاء والصبر، والتجلّد وجميل الأمر، ما قد أيقنت [معه] أنّ ذلك لانتقال الإمامة إليه (ط 24)، ورأيت تأثيرها ومخايلها فيه، لتأييد الله له، وما وهبه من جميل المادّة، وأجراه عليه من حسن العادة»[24].

13/2

وكتم أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (ص) وفاة والده أمير المؤمنين من آخر/ شهر شوّال يوم وفاته إلى عاشر ذي الحجّة يوم النحر (28 أفريل 953)، فخرج لصلاة العيد وعليه شعار السكينة وهيبة الإمامة، فصلّى صلاة العيد ثمّ ارتقى المنبر وخطب خطبته التي أظهر فيها وفاة أمير المؤمنين المنصور بالله فقال:

«باسم الله الرحمان الرحيم، وبه نستعين.

«الله أكبر! الله أكبر! لا إلّه إلّا الله!.

المعزّ يعلن عن وفاة المنصور بعد شهر وعشرة أيّام .

«والله أكبر، الأعزّ الأقدر، الخالق المدبّر، ذو الكبرياء والجبروت، والعزّة والملكوت، الأحد الصمد، الفرد المتفرّد، الأعلى القاهر، الباطن الظاهر، الأوّل والآخر، مبدع السموات والأرض بالقدرة، ومالكها بالعزّة، ومدبّرها بالحكمة، وخالقها بما فيها من عجائب الفطرة، وبدائع التركيب والصنعة، الذي كلّ شيء من موات وحيّ ناطقٌ بالدعاء إليه، والدلالة عليه، والشهادة له بالتوحيد والتعظيم والتمجيد، فتكوينُه الأشياءَ كلَّها من عدمٍ شاهدٌ بأن لا شيء قبله، وانتهاؤُها إلى الغايات دليلٌ على أَنْ لَا غايةً له،

(24) المجالس، 82، والنّقل هنا بتصرّف.

وإحاطتُه بحدودها منبىءٌ بأن لا حدَّ له، فالضعف والعجز والفقر والنقص الذي لم يخل منه مخلوق أفصحُ ناطق وأصدق شاهد للخالق وحدَه جلّ ثناؤه بالإلّهيّة والفردانيّة، والقدرة والربوبية، والتمام والكمال، والأزل والدوام، تبارك الله ربّ العالمين، أحسنَ كلَّ شيء خلْقَه (ط 25)، وتكفَّل لكلّ حيّ رزقَه، ثم هدى بالعقل الذي قامت حجّتُه ووجبت طاعته، والكتبِ والرسلِ الذين تمّت بهم كَلِمتُه، فصلّى الله عليهم أجمعين، وعلى محمّد سيّد المرسلين الذي رفع ذكره، وأعلى قدرَه، فأكرمه بالوسيلة، وآختصَّه بكلّ فضيلة، وآبتعثه هادياً للعباد، ونوراً في البلاد، علّم به من الجهل، وهدى به من الضُّلّ، وكثَّر به من القُلّ، وأعزّ بهه من الذُّلّ، فألّف به بعد الشتات، ونوّر به دياجي الظلمات، صلوات الله عليه وعلى آله المهديّين، الأخيار الطيّبين.

14/2 أيها الناس، إنّ الله/ لم يخلقكم عبثاً، ولم يُهملْكم سدى، ولم يجعل عليكم في الدين حرجاً، ولم يضرب الذكر صفحاً، بل للعبادة خلقكم، وبطاعته وطاعة رسوله أمركم، وجعل للطاعة أعلاماً منصوبة وفروضاً مكتوبة، ومِن أفضل أعلامها وأكرم أيّامها يومُ الحجّ الأكبر إلى بيت الله العتيق، مَبْوَإِ[25] إبراهيم خليل الله، وقبلةِ محمد رسول الله ﷺ، فتقرّبوا إلى الله بما أمركم به ورزقَكم إيّاه، من بهيمة الأنعام، مقتدين بِسُنَّة محمد نبيِّ الرحمة والهدى، ومستشعرين لله التقوى، فإن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ (الحجّ، 37) فبالقتوى تُقبل الأعمال ويُدرك الأمل. وكبّروا الله على ما هداكم وآشكروه على ما أولاكم.

.. في خطبة عيد الأضحى

ألا وإنّ خير الهَدْي الإبل، وخير الإبل إناثُها، وكذلك من

---

(25) المَبْوَأ: المنزل.

البقـر ثم الفحولُ من الضـأن. وسلامـة الضحايـا سلامـة الأعين والآذان، وأن تكون من حلال الأموال.

نسأل الله لنا ولكم قبول (ط 26) العمل بامتنانه وبلوغ الأمل من رضوانِه، ورحمته وإحسانه».

ثمّ جلس جلسة خفيفة وقام للخطبة الثانية فقال:

الله أكبر! الله أكبر! لا إلّه إلا الله.

والله أكبر! الله أكبر شأناً وأعظمُ سلطاناً، وأوضحُ آياتٍ وبرهاناً عن أن تنكر العقول توحيدَه، أو ترومَ تحديدَه، خالق السموات والأرض، ومالكهما ومدبّرهما الفرد الصمد، الواحد الأحد، الذي لا شريك له ولا نِدّ، الخالق القدير، الرحمان الغفور، النافذ قضاؤه، الكائن ما يشاؤه، المتقن كلَّ شيء صُنعا، الموسعُ كلَّ شيء رزقاً، والمحيط بكلّ شيء علماً، أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه، وأفوّض إليه وأتوكّل في كلّ الأمور عليه.

أشهد أن لا إلاهَ إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً خيرته من عباده، ونجيبه من بريّته، وصفوته من المتطهّرين، ورسوله إلى كافّة العالمين، وبعيثه بالإمامة إلى الثقلين ليبلّغ حجّة الرب، ويوضّح محجّةَ الحقّ، فأدّى رسالة الله ورحم ورأف بعباد الله، وصبرَ على الكبّار من مكـر الكفار إلى أن أدالَ الله للحقّ على الباطل، والهدى على الأضالل[26] وألهب فيه المجاهل[27]، محمّد

15/2

(26) في الأصل وفي المطبوع: الأضائل، ولا وجود لهٰذه الكلمة في المعاجم. وآخترنا أضالل من الضلال لمقابلتها للهدى، رغم أنّ جمع أضلولة هو أضاليل، ولكنّ الخطيب اختصر المدّ لموافقة السجع.

(27) ألهب المجاهل: سقطت من المطبوع وكذلك من سيرة جوذر، 78. ولعلّ المعنى: أضاء الحلكات أو الطرقَ في الظلام، مثل البرق إذا ألهب، أي استمرّ وميضُه.

عليه أفضل الصلاة وأزكاها وأكملها وأنماها، وأخلدهـا وأبقاهـا، وعلى الأئمة المهديّين من عترته الكـرام الأبرّين الـذين اختارهم للخلافة، وارتضاهم للإمامة، وأكّد بوصيّة الرسول حجّتهم وأوجب في التنزيل طاعتهم، بعد تفضيله إيّاهم على (ط 27) العالمين بأبوّة محمد سيّد المرسلين، وعليّ أفضل الوصيّين، ومن أمُّهم سيّدة النساء، خامسة أصحاب الكساء، صلوات الله عليهم أجمعين، وعلى أميرَي المؤمنين المهدي بالله والقـائم بأمـر الله، سيدَي الـورى وإمامَي الهدى، اللذَين أعلى الله بهما دعوة الحقّ، وأنطق بهما الإيمان والمؤمنين، وأقام بهما دعائم الدين، وأزهق بحقّهما باطل المدّعين، وأكاذيب المتخرّصين، وقطع بسيوفهما دابر الظالمين.

المعزّ يترحّم على المنصور..

اللهمّ آخصص الإمـام الفاضـل، والـوصيّ العـادل، والبَرّ الكـامل، والغيث الـوابـل، ذا الآيـات البـاهـرات، والمعجـزات النافذات، الباذل نفسه الكريمة في حين الأزل والكربات، الصابر في البأساء والضراء حتى طهّر الأرض من جبابرة الأعداء، عبدك ووليّك ونجيبك وصفيّـك أبا الطاهر المنصور بك، والمتوكّل عليك والمفوّض إليك، العامل بما يرضيك ويقرّب إليك ويزلف لديك، الذي فجَعْتنا بفقده، وأوحدتنا من بعده، وأفـردتنا منـه وأوحشتنا فقبلت دعاءه، وأجبت نداءه، وجمعت بينه وبين أحبّته في مستقرّ جنّتك وسعة رحمتك.

وإنّ القلق وشـدّة الحرق عليـك يا أبتـاه! يـا سيّـداه! يـا إسماعيلاه! يا أبا الطاهراه! يا بحر علوم الأئمة الطاهرين الهداة المهديّين! يا بقيّة أبناء الرسول، وأبناء الوصيّ والطاهرة البتول! يا إمام الأمّة ومفتاح باب الرحمة، يا سراج الهدى وشمس الورى، ومجلّي الطخياء![28]، يا مخصوصاً من الله بتعجيل الكرامة! عظُـم

---

(28) الطخواء والطخياء: الليلة الشديدة الظلمة.

16/2

والله علينا المصاب بك ، وجلّ البلاء، وعدم العزاء لفقدك، وقصرت الألسن عن (ط 28) درك إحصاء فضائلك، وتعداد مناقبك، فوَالذي اختصّك بكرامته، وحباك بجزيل عطائه، وشرّفك بأبوّة رسوله، لولا ما أوعزت إليّ به وأكّدته عليّ، من القيام بحقّ الله والذبّ عن أمّة جدّك رسول الله، واستنقاذهم من غمرة الجهالة، وبحار الضلالة، ومهاوي الفتن، ومعاطب المحن. وما تقرّر عندي، ورسخ في صدري من الجزاء بمقدار الوفاء لله ولرسوله، ولأئمّة الهدى، لضربت على وجهي سائحاً في البلاد، قالياً للمهاد، راضياً ببلغة مِن الزاد، إلى أن يلحقني الموت سريعاً بك، فأفوز بقربك، ورحمة ربك.

.. ويتوجّع لفقده..

لكنّي فكرت ونظرت وتدبّرت، فلم أرَ لي وجهاً أستوجب به درجتك واللحاق بشرفك سوى الصبر والاحتساب، فتجلّدت، وصبّرني ربي فصبرت، وغلب عليّ اليقين فأمسكت، فأقول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم الرحمانِ الرحيم، له الحمد على ما أبلى، والشكر على ما أولى.

معاشر أوليائنا، والقائلين بطاعتنا، والمتمسّكين بولايتنا! هذه والله المحن الشداد، المنضجة للأكباد، هذه الزلازل العظامِ التي لا تثبت لها الأقدام، هذه المشاهد التي لم تألُكم أئمّتكم لها تبييناً ولم تزل راغبة إلى الله في تثبيت أقدامكم وعصمة قلوبكم عند حلولها بكم، ووقوع المحنة فيها عليكم. فتثبّتوا تسلموا، ولا تضلّوا فتندموا! فلن يُخلي الله أرضه وعصره في كلّ زمان من قائم لله بالحقّ، شاهد على الخلق، يقرّ به المؤمنون، ويجحد به الكافرون الضالّون الأخسرون. إنّ الله بحمده خلق الخلق من غير حاجة كانت منه إليهم، لكن لعبادته وإظهار فضله وجوده عليهم (ط 29)، وجعل الحياة فيهم قوّة عاملة، والموت كأساً دائرة، وما بعد الموت جزاء للعمل، وبيّن لكم بين هذين نهج السبل برسله المنتجبين، وبأئمّة

.. ويدعو الأتباع إلى التمسّك بحبل الأئمّة..

الهدى المختارين، وجعل ثوابهم وحظّهم على مقدار بلاغهم وقيامهم، واضطلاعهم بأمره وإرشاد خلقه، وجعل بينهم درجات في الفضل فقال جلّ ثناؤه: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ الذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ، ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (فاطر، 32). تبارك الله ربّ العالمين، الذي لم يرض بالدنيا ثواباً للمؤمنين، ولا عقاباً للكافرين.

17/2

أيها الناس! ما من حيّ إلاّ وهو رهين بالموت، ولا موتَ إلا وبعده نشور، ولا نشور إلا بحساب، فثواب أو عقاب. فطوبى لمن لقي الله متمسّكاً بحُجْزَةِ[29] أوليائه، معتصماً بعصمتهم، قائماً بلوازم الطاعة المفروضة عليهم بحججه وأصفيائه، متفيّئاً بظلال ألوية عترة سيدنا محمّد رسول الله سيّد المرسلين، يوم لا ينفع إلا الدين، ولا يُنجي إلاّ صحّة اليقين، ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً، وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ ﴾ (آل عمران، 30).

أيها الناس! إنما الأعمال بخواتمها، والجزاء من الله بحسب الوفاء لله ولرسوله، ولأئمة الهدى من ولد الرسول، وقد شاهدتم سيّد الأئمة وراعيَ الأمّة وسراج الدجنّة في مواطن ومشاهد قضى فيها فرض ربّه عليه، وأدّى وديعة جدّه محمد لديه، وبيّن لكم من سننه ما إن اقتديتم به لن تضِلّوا ولن تَتْبَتَّ (ط 30) أيديكم من رحمة الله، ولن تعشُوَ أبصاركم عن قصد السبيل الأقوم، والتمسّك بالدليل الأعظم، وما من وليّ سالف إلا وبعده وصيٌّ خالف قائم لله بحقّه مُستنجز ثوابه، عامل بما يرضيه حسب طاقته، ومنتهى استطاعته، ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا ﴾ (البقرة، 286)، ولا يرتضي للقيام بدينه وهداية

(29) الحجزة بالضمّ. عقدة الإزار والثوب.

خلقه ورعاية أمّة نبيّه إلا الأفاضلَ الأمجاد، الآحادَ الأفراد، ذوي الهمم العالية، والأخلاق الرضيّة، والنفوس الأبيّة، من خالص الذرّية. وقد جرت سنّة الله في خلقه، ونفذ في حكمه ما لا يُستطاع له جحد، ولا للقول به ردّ، من مواصلة الرسل لتبيين السبيل في الزمان بعد الزمان، لإعلان دينه حسب الإمكان، فأوجبَ للعباد الثوابَ بطاعتهم وإجابة دعوتهم وقبول هدايتهم، والعقابَ بإسخاطهم وجحدهم وإنكارهم، وليس لِلْمُؤْمِنِ بأوّلهم جَحْدُ آخرهم، ولا ينفع جاحدَ أوّلِهم تصديقُ آخرِهم، للثواب والرحمة من العذاب الأليم، والخزي المقيم. وقد قرن الله طاعة أئمّة الهدى بطاعة الرسل، وطاعةَ الرسل بطاعته، فقال ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي ٱلأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (النساء، 59). بذلك جرت عادته في الأنبياء والمرسلين، ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾ (فاطر، 43). وهل لمقرّ نبوّة موسى ورسالة عيسى عليهما السلام حاجة بتفضيل سيّدنا محمّد خاتم النبيّين وسيّد المرسلين إذا أنكر نبوّته، وهل له انتفاع بأعماله أو ثواب لعبادته؟

.. ويؤكّد أنّ الإمامة لا تنقطع...

18/2

النور ـ أيها الناس فينا مَصون، وعطاء ربّك لنا غيرُ ممنون، فأين تذهبون، وفي أيّ أرض تتيهون، ﴿ هَيْهَاتَ! هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ! ﴾ (المؤمنون، 36). فأطيعونا تهتدوا، وتمسّكوا بحبلنا ترشدوا، واعملوا بما (ط 31) تفوزون به في أخراكم تسعدوا! ولا تجعلوا أكبرَ همِّكُم دنياكم، فإنّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب أبا الأئمة المهديّين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، قال: «إنّ الله أحلّ حلالاً وأعان عليه، وحرّم حراماً وأغنى عنه»، فدعوا ما قلّ لما كثر، وما ضاق لما اتّسع! فقد أمرتم بالعمل، وتكفّل لكم بالرزق، فلا يكون طلب المضمون لكم أولى بكم من طلب المفروض عليكم!

.. ويحثّ على طاعة الأئمّة

اللهم أوزعني شكر نعمتك ووفّقني لما يرضيك ويقرّب إليك،

ويوجب المزيد من فضلك، والذخرَ عندك بإتمام نعمتك عليّ في الدنيا والآخرة، إلاهَ الخلق ربَّ العالمين! اللهمّ أيّدني بنصرك، وافتح لي على أعدائك فتحاً تحيي به الدين، وتعزّ به ملّة محمّد سيّد المرسلين، وآرزُقنا زيارة قبره والارتقاء على منبـره، وحلولَ داره، وقضاءَ الحجّ إلى بيتك الحرام، والـوقوفَ بتلك المشـاهد العظام براياتنا، وقد جدَّدْتَ لنا العزّ ولأوليائنا، وقد أيّدتنا وإيّاهم بالنصر، وأكرْمتَنا بالظفر وأظهرتنا على القوم الظالمين، وأخضعت لنا رقاب المعاندين العاصين. وقد تقدّم منك الميعاد للآباء والأجداد، ولا خُلفَ لوعدك، ولا رادّ لأمرك، والرضا والتسليم بما قضيْتَ، عجّلتَ أو أجّلت.

19/2

اللهم اجعل ما منَنت به من إحسانك، وما تجدّد لي من فضلك ونعمتك عليَّ وعلى العباد، رَحْمةً منك. اللهم، واقرن بكل عزّ تجدّده لي ذُلاً تُسكنُه قلبي لعظمتِك وجلالك وهيبتك، فلا عزّ إلّا في الخضوع والعبودية لك، ولا غنى إلّا في الفقر إليك، ولا أمنَ إلّا في خوفك، ولا سعادةَ في الدنيا والآخرة إلا برضاك، يا ربَّ العـالمين! اللهم، اغفـر للمؤمنين والمؤمنـات، والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، وآخصص أولياءَ دولتنا وأنصار دعوَتنا المُجاهدين الصابرين الشاكرين، من رحمتك، بما استوجبوه بطاعتك وقضاء فروضك (ط 32) وموالاة أوليائك ومعاداة أعدائك.

وصـلّى الله عَلى محمّد سيّد المرسلين في الأوّلين والآخرين، اذكروا الله العظيم يذكُرْكم. وأستغفرُ الله لي ولكم، والحمد لله وصلواته وسلامه على سيّدنا محمّد وآله أجمعين»[30].

وخرج أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (صلع) بعد انقضاء عيد

(30) الخطبتان مدرجتان بسيرة جوذر، 77 - 84، ولم يصرّح المؤلّف بنقلِهما عنها.

الأضحى بشريف نفسه، وقد أوعز إلى كتامة فجاءته منهم جنود عظيمة يوم عيد الأضحى. وجمع جُندَه وعبيده، فاجتمع الكلّ له يوم الأضحى وسمعوا خطبته التي قدّمنا ذكرها، وذلك في سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة[31].

المعزّ يجهّز جيشاً الى جبل أوراس

وقصد (صلع) إلى جبل أوراس[32]، على حصانته ومنعته وكثرة أهله، والناسُ بعقِب فتنة، وأطراف المملكة على سبيل المعصية، والسبلُ خائفة، ولهَب نار الفتنة لم يخمد، وحرّها لم يبرد، ورؤساء القبائل الذين هاجوا الحرب وعتَوا واستكبروا وتمادَوا في إثارة الفتنة والشغب، ممتنعون في معاقلهم في الجبال والأطراف.

20/2

فنهض إليهم أمير المؤمنين (عم) بجنوده المنصورة، وأعلامه المشهورة، فأنزلهم من صياصيهم، ودان له دانيهم وقاصيهم، وقذف الله الرعبَ في قلوبهم. وملك عليهم جبل أوراس عنوة، وأخذهم بالعفو على عظيم الذنب والهفوة، وسار فيهم بالصفح والعدل، وأجرى فيهم من حسن السياسة ما اعترفوا جميعهم له بالفضل، فدانوا له خاضعين، وأقبلوا إليه متواضعين، وكان له في ذلك الفتح العظيم، والظفر العميم، وحقنت الدماء، وسكنت الدهماء وأمنت الروعات واطمأنّ الناس، وألّف الله له قلوب العباد، وقطع به أسباب الفساد، فلم يعرض له عارض، ولم يبق معارض.

وفود محمّد بن خزر خاضعاً مبايعاً..

وأتاه محمّد بن خزر أبو (ط 33) معبد، أمير البربر وابن أميرها، ومن له رئاستها وسياستها، فألقى بيده إليه، وتطارح بنفسه عليه، وأنار

(31) إن كان إدريس يعني تاريخ الخطبة، فهي سنة 341. وإن كان يعني الحملة على أهل أوراس ففي 342 كما قال.

(32) هذه الحملة في الأوراس ذكرها المقريزي (اتّعاظ، 134) وابن حمّاد، 40، دون أن يصرّحا أنّها كانت بقيادة المعزّ بل يقول ابن حمّاد انّ المعزّ توقّف بالأربس، وقوّد على الجيش زيري بن مناد.

الله طريق رشده، وطلعت لـه طوالـع سعده، فـدخل في دعـوة الإمـام (عم) وأُخـذت عليـه البيعـة، وعـاد بعـد النصب[33] إلى رأي الشيعـة، متـواليـاً لعليّ بن أبي طـالب أميـر المؤمنـين والأئمّة من ذرّيّته الطاهرين. فشمَله من تطوّل الإمام المعزّ لدين الله وإنعامه، وجوده وإكرامه، ما صار به كأحد العبيد المملوكين، وهو في ذلك في المكان المكين، لم تتّضع رئاسته، ولم تدنُ مكانته. وهو وآباؤه مملّكون على البربر من قبل الإسـلام، ولهم الانقياد إليهم، وهم فيهم جارو الأحكام. ونقل أولادَه وعياله وأهل بيته إلى بـاب أمير المؤمنين وحضـرته، وحـلّ عنده ومعـه في قراره ودار مملكته، راغباً في ذلك أشدّ الرغبة، جاعلاً طاعة إمامه إلى الله أفضل وسيلة وقربة.

.. وشافعاً في أصحاب أبي يزيد الباقين

وسار معه قوّاد البربر ووجوههم والمشهورون بالرئاسة منهم، كأيّوب بن سماك[34] وأبي الغزو[35] مسنويه وغيرهم، طائعين غير مكرهين، خاضعين مستسلمين. فأحبّوا الكون في جملة الإمام (عم) والحلول في دار مملكته، لما شمَلهم من الإفضال والإنعام.

21/2

وانصرف أمير المؤمنين من سفره ظاهراً ظافراً، عزيزاً/ قاهراً، قد دانت له الجبابرة، وذلّت العظماء صـاغرة. ووصـل إلى دار مملكته بالمنصوريّة سالماً غانماً. ثمّ وصل إلى المهديّة مدينة جدّه فأقام بها أياماً. وأقبل على الأستاذ جوذر إقبالاً حسناً، وأفضل عليه إفضالاً واسعاً.

---

(33) النُّصب: عداوة الشيعة وكراهيّتهم وانتقاص أئمّتهم.

(34) لا نعرف أيّوب بن سماك، ولكن نعرف أيوب بن خيران الزويليّ أبا سليمان، وهو أحد قوّاد أبي يزيد المرهوبين (انظر ص 259 و267 وما يليها).

(35) لعلّه مسنويه بن بكر الكملانيّ الذي كانت له مشاركة في صفوف أبي يزيد، ولا سيّما في احتلال تونس (انظر ص 316 - 318 و385).

وراجعه الأستاذ في حاجة طلبها منه في حوائج الدين، وممّا يُنتفع به في الآخرة من العلم، فكان جواب أمير المؤمنين (عم):

المعزّ يكرم جوذراً...

«يا جوذر صانك الله! والله ما وعدتك بشيء وأنا أرجع (ط 34) لك فيه، وإنك لمحقوق عندنا لكلّ خير، وبالله ما ادّخرنا عنك شيئاً نُحبُّ إعطاءَهُ لغيرك، وما في نيّتك وولايتك كدر نَحتاجُ إلى تصفيته، ولم يبق لك علينا إلاّ إسعافك بما سألت. ونحن فلم نجىء إلى المهديّة إلا بالمستخف من القشّ[36]، ولا يتهيّأ وصول هذا إليك إلا من يدي إلى يدك، ونحن نصل إلى المنصورية على خير وعافية إن شاء الله. والذي تطلبه بها، ولا يتهيّأ أن يُخرجه غيرُنا. فبعد يومين أو ثلاثة إن أمكنك أن تُظهر أنك عليل، وتختفي عن الناس، بعد أن تسكن وحشتهم منّا، ثم تنسلّ إلينا بالليل من حيث لايعلم بك إلاّ من تثق به، إلى أن يكون نزولك عندنا، فتنال ما أملت، وتشاهد زيارة قبر المنصور بالله صلوات الله عليه، وتنصرف من وقتك. فإنّ وصولنا من المهديّة يبعد من الساعة إلى حين الربيع، والموت بيد الله، وقد قال عز وجل: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (لقمان، 34). وأنا أوّجه إليك بكتاب مليح هو بخطّ المنصور بالله صلوات الله عليه فيه كلام الأئمة عليهم أجمعين أفضل التحيّة والسلام، ومواعظ، تتدبّره هذين اليومين، ونحن لك على إتمام ما أملت، فكن من ذلك على ثقة إن شاء الله»[37].

وخرج الإمام أمير المؤمنين راجعاً إلى المنصوريّة. فبعد أيّام

(36) القشّ بالفتح: يابس النبات، وكناسة المنزل وما خفّ من متاع البيت ولوازم السفر وهو استعمال قريب من معناه في العاميّة: الأثاث والمتاع.

(37) سيرة جوذر، 85.

قلائل (ط 35)، نفذ الأستاذ على حسب ما أمر به الإمام، فبلغ الأمل من حاجته، وانصرف مسروراً لم يشعر به أحد[38].

ولم يقم جوذر الأستاذ بعد ذلك بالمهديّة إلّا قليلاً. ثمّ نقله أمير المؤمنين/ إلى المنصوريّة، وأسكنه عنده في دار البحر داخل قصره[39] كما جرت به عادته من السكنى مع مواليه حيث كانوا[40].

22/2

وهو الذي عناه القاضي النعمان حيث قال: «سمعت المعزّ لدين الله (صلع) يقول لبعض خاصّة عبيده وقد قدم عليه من المهديّة، وكان مقيماً بها، وأمره بالمقام بحضرته وخصّه بالقرب منه لقديم وَلايته وصحبته وعفافه: إنّك لَنْ تَعْدَمَ بقربك منّا خيراً تُفيده ومسرّة تغتبط بها وتطيب نفساً بورُودها ونعمةً تحُوزها وتستفيدها كما لا يعدَم من قرُب من عدوّنا وحلّ من خاصّته محلّك منّا، من غضب الله ولعنته وخزيه ومَقته في عاجل دنياه حسب ما يستحقُّه، ولَمَا أعدَّ لهم في الآخرة أنكى وأشقى، ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ (طه، 127). كما أنّ ما أعدّ لأوليائنا ولمن سعِدَ بقربنا ورضانا من ثواب في الدّار الآخرة عنده أجلّ وأعظمُ ممّا يظنّه ويسمو إليه أملُه.

.. ويسكنه بقربه بالمنصوريّة

(38) إن كانت حاجة جوذر هي الوقوف على قبر المنصور، فإنّا نتساءل عن سبب هذا التكتّم في خروجه من المهديّة: أحتياطاً من عناصر الشغب ضمن الأسرة الحاكمة؟ كما نستغرب أن يجعل الداعي إدريس هذه الرغبة من جوذر «حاجة من حوائج الدين، وممّا ينتفع به من العلم في الآخرة». على أنّ سيرة الأستاذ ـ وعنها ينقل صاحبنا بالحرف أو بتصرّف ـ لم توضّح حاجة جوذر «المتقدّم ذكرها»، ولعلّها أنموذج من خطّ المنصور، بدليل قول المعزّ: والذي تطلبه يوجد بالمنصوريّة ولا يخرجه غيرنا. ولم ينتبه ماريوس كانار ولا ناشرا السيرة إلى غموض هذه الفقرة. وقد أخطأوا جميعاً في فهم عبارة «القشّ» المتقدّم شرحها، لأنّ نصّ السيرة يقول: بالمستحفّ من القيروان.

(39) في خصوص دار البحر بالمنصوريّة، انظر المجالس والمسايرات، 326 هامش 2، وص 552 هامش 1.

(40) نقل عن السيرة، 85، ولكن بتصرّف كبير.

فقبّل الأستاذ[41] الأرض بين يديه، ومن حضر ممّن خصّه بقربه، وحمدوا الله على ما أولاهم من فضله، وشكروا له ذلك بما قدروا عليه[42].

وكان العمّال في المهديّة على يد جوذر من تحت أمره، وهو المورد فيهم والمصدر عن أمير المؤمنين مولاه. وكان «نصير» خليفته في المهديّة، و «نظيف» صاحب بيت المال، و «حسين بن يعقوب» (ط 36)، صاحب البحر، وكلّهم من مماليك الأئمّة وعبيدهم الذين نشأوا على يدي جوذر في الطهارة والأمانة والخصال المحمودة والأفعال الصالحة، اقتداء بأئمتهم وسيراً على نهجهم، واستنارة بأنوار سرجهم.

قال القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه):

وكان اعتمادي أيّام المنصور بالله (صلع) فيما أحاوله عنده وأرفعه إليه، وأطالعه فيه، على المعزّ لدين الله (صلع). فما أردته من ذلك بدأته به ورفعته إليه وسألته حسن رأيه فيه: فما أمرني أن أفعله من ذلك، فعلتُه. / وما كرهه لي، تركته. فكان لي في ذلك رِفْدٌ عظيم وفرَح كبير، ولم أكن أعمل [شيْئاً] على رأيه إلاّ ظهرَتْ لي بركتُه والسعادة فيه، ولم يَنْهَنِي عن شيء فتركته، إلاّ تبيّن لي بعد ذلك غِبّه[43].

23/2

فلمّا قبض المنصور بالله صلوات الله عليه وبركاته ورحمته،

---

(41) في المحالس، 464: فقبّل ذلك الرجل، ولا ندري لماذا يكتم القاضي اسم جوذر.

(42) المجالس، 463 - 464

(43) غبّ الأمر بالفتح والكسر: عاقبته وأيضاً فساده، من غبّ الطعام (نصر): بات ففسد.

احتجتُ إلى مطالعة المعزّ (صلع) ومعاملته بما كنت أعاملِ المنصور وأطالعه به، فعدمتُ من دونه ما كنت وجدتُه فيه دون المنصور (عم)، فبَقِيتُ وقتاً طويلاً أتهيّب ذلك وأخاف التقحّم فيه. فلمّا طال ذلك عليّ كتبت إليه رقعة رأيت أن أقدّم فيها عذراً عنده فيما عسى أن أرفعه إليه وأخاطبه فيه، كان فيها:

قد علم أمير المؤمنين (صلع) اعتماد عبده، فيما كان يرفعه إلى المنصور قدّس الله روحه، على فضل رأيه ومطالعته به قبل رفعه، وعملَه فيه بعد ذلك على أمره ونهيه، وأنّ ذلك ممّا وَجد غِبّ عاقبته ودامت السلامة وحسُنت الحال له به. ولم يجد عَبْدُ أمير المؤمنين (ط 37) الآن دون مولاه مولى يَعتمد في مثل ذلك عليه فيما يخاطبه به ويرفعه إليه. وقد روى فيما يرويه عن مولاه عليّ أمير المؤمنين (صلع) في فصل من فصول كلامِهِ ذكر فيه الواجبَ على الأمّة للأئمّة، فقال فيه: وإذا كان العلماء في زمان إمام حقّ وأهلُه فاسقون، وجب على العلماء عرضُ أنفسهم على إمامهم، وتعريفُه من الكفاية والأحوال الصالحة ما لديهم وتسليم أنفسهم إليه ليُسلِمَهم إلى الأشكال والحدود التي يجدها أبلغَ وأنفَعَ لما يريده.

وَالذي يجب على عبد أمير المؤمنين من هذا كشفُه لمولاه من حال نفسه، اعتقادُ ولايته والإخلاصُ له فيها، وذلك أصلُ ما لا يزكو عمل إلاّ به، والصدقُ فيما يقوله له وعليه. لا يسأله الله عن كَذِبٍ إن شاء الله لا يتعمّده ولا يقصده، والتسليمُ لمولاه واستفراغُ المجهود فيما يتحرّى به رضاه.

وأمير المؤمنين أعلم بعبده وما يراه أهلاً له. فإن وقع من أقواله وأفعاله شيءٌ/ بخلاف [موافقة مولاه][44] فمن حيث رأى أن 24/2

(44) سقط من المخطوط.

يقعَ ذلك بموافقته وهواه، وقد قال جدّه رسول الله (ﷺ): «تجاوز الله لأمّتي عن خَطَئِها ونسيانها وما أكرهَت عليه»[45] وأمير المؤمنين (صلع) مُحْيي سنّةِ جدّه ومقتفي أثره ومنجزُ وعدِه لأهل عصره ومتّبعُ أمرِه، فإن أمر عبدَه بإيراد أموره عليه على جميل الظن في الصفح به وبلوغ الأمل من التجاوز عنه، فعل من ذلك ما هو أهله.

فوقّع إليّ في ظهر الرُّقعة بخطّه: صانك الله يا نعمانُ، وقفتُ على كلّ الذي وصفتَه في رقعتك هذه واستدللت من لفظك على شيء قد تبيّن لي منك ولم أتحقّقه إلّا عند وقوفي على رقعتك هذه: والذي تبيّن لي منك، فِنفَارُك عمّا كنت عليه منَ الانبساط (ط 38) والاستراحة إلينا فيما عساه يعرض لك ويقعُ إليك. فرأيتُ منك انقباضاً أوحشَني إذ لم يكن له سبب ولا علّةٌ تُوجبُه، بل الأمل فيك خلافُ ما يسمو إليه أملُك من التشريف والتنويه باسمك ورفع منزلتك إذ لم أكن أطّلع إلّا على خير وأحوال يجب أن يكون عليها كلّ وليّ لنا مثلك. وكان الأولى بك التزيّد في السعي المحمود ليكون حالك حالاً يغبطك بها الوليُّ ويكيدُك عليها العدوُّ، وفّقك الله وسدّدك.

والذي وصفتَه من حالك مع مَن صلّى الله عليه[46] وألحَقَنا به، فحالُك لم تخْفَ علينا بل كنّا أصلها وفرعَها وإن كان الشخصُ الجسمانيّ المقدّس قد غُيّب عن أبصارنا ونُقل إلى سعة رحمة الله، فإنّ المادّة الروحانيّة متّصلةٌ غير منْقَطِعَة، والحمد لله ربّ العالمين. فمولاك مضى وإمامُك خُلِف، فاحمد الله واشكره وسلّم لأمره،

(45) هذا الحديث رواه النعمان في دعائم الإسلام، 281/1 بغير إسناد. وأخرجه مسلم في صحيحه، 146/2 عن معمر عن قتادة، بلفظ مغاير.

(46) أي المنصور بالله، والجملتان دعائيّتان وإلحاقهما بالاسم الموصول غريب عن العربيّة.

واكتب إليّ بما عساك تُحبُّ ذكره ليأتيَك من أمرنا ما تعمل عليه إن شاء الله (تع)، والسلام عليك.

(قال القاضي):

فما أعلَمُ أنّي سررت منذ كنت، سروري يومئذٍ، لمّا قرأت هذا التوقيع وأسقطتُ عن نفسي وحشة التعقّب وأزحت عنها مؤنة التّحفّظ واعتمدت فيما أعامله به وأرفعه إليه/ وأخاطبه فيه على حسن النيّة وسلامة الطويّة وتركِ التصنُّع في [كلّ] الأمور. فما زلت أتعرّف على ذلك منه صلوات الله عليه فضلاً عندي يتجدّد ونعمة تتّصل وأسبابَ خير تتأكّد، أَكْمَلَ شكرَها عندي الإقرار بالعجز عنه، وأبلغ وصفَها لديّ الاعتراف بالتقصير فيه[47].

25/2

وكان للقاضي النعمـان (رضي الله عنه) مـع الأئمّة الـذين عاصرهم المكان المكين، والمنزلة التي يقلّ فيها المماثل والقرين. وقد ذكرنا خدمته للإمام المهديّ (ط 39) بالله، والقائم بأمر الله، والمنصور بالله، وهو يزداد في وقت كلّ إمام رفعة، وترفع درجته مع كلّ إمام، ومن آمن معه. وازداد في أوان المعزّ لدين الله سمّواً ورفعة وعلوّاً، وقرباً منـه ودنوّاً. ورفع ذكره، وأبان فخره، وجعله قاضي القضاة، وأضاف إليه الدعوة، وأسماه في مراتب الدعوة إلى أسمى ذروة. وجعل إليه إزالة المظالم، وأمضى حكمه على كلّ حاكم. وأمره بقراءة كتب الأئمّة من آبائه، ونشر علومهم على أتباعه وأوليائه، وأن يرتّبهم على مراتبهم، ويوليهم من منن وليّ الله بحسب علومهم وما هو من واجبهم.

منزلة النعمان تعلو عند المعزّ...

قال القاضي النعمان:

ولمّا فتح المعزُّ لدين الله (صلع) للمؤمنين بابَ رحمته وأقبل

(47) المجالس والمسايرات، 351 - 353.

على أوليائه بوجهِ فضلهِ ونِعمتِه، أخرج إليّ كتُباً من علم الباطن وأمرَني أن أقرأها عليهم في كلّ يوم جمعة في مجلسٍ في قصره المعمور بطول بقائِه. فكثُر ازدحامُ الناس وغصَّ بهمُ المكان وخرج احتفالهم عن حَدّ السماع وملَؤُوا المجلسَ الذي أمر بإسْمَاعِهِم فيه، وطائفةً من رَحبة القصر، وصاروا إلى حيث لا ينتهي الصوتُ إلى آخرهم. وقيل له في ذلك (صلع) ووُصف له أنّ فيهم ممّن قد شملَتْه الدعوة أهلَ تخلّف ومن لا يكاد أن يفهم القولَ، وأنّ مثل هؤلاءِ لو مُيّزُوا وجُعل لهم مجلس يُقرأ عليهم فيه ما يَحتمِلون ويفهمُون، لكان أنفعَ لهم.

فهمّ بذلك (صلع)، فعظم الأمر على أهل هذه الطبقة ورأوا أنّه إنّما قصّر بهم من أجل تخلّفِهم في حالهم. وجرى ذكر ذلك/ بين يديه وأنا حاضر وقد دعا بالحجّام ليأخذ من شَعْره[48] فدخل، وقمت وتَنَحّى من كان بين يديه فدعاني ووقف الحجّامُ على رأسه، فقال لي: لقد مرّ بي البارحةَ في أمرِ هؤلاء ما منَع من إبعادِهم من كتاب الله، وذلك ما ذكره (عج) في سورة هود، فانظر ما هنالك.

26/2

فلم يتهيّأ، لما كان عليه، أن أستفهمَه عن ذلك (ط 40) ولا كيف مرّ به ذلك: أمِن قراءةٍ قرأها أم في رُؤْيَا رآها؟ غير أنّي قلت: أنظرُه يا مولاي.

.. فيقيمه لقراءة كتب الباطن في مجالس الدعوة

فانصرفت ونظرت في سورة هود فوجدت في قصّة نوح قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ فَقَالَ الْمَلأُ الذِينَ كَفَـرُوا مِنْ قَوْمِهِ: مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وما نَرَاك اتّبَعَك إِلَّا الذِينَ هُمْ

(48) الحجّام هنا الحلاّق، وقد رأينا في أخبار المهديّ نتقيوس: المزيّن بمعني الحلاّق أيضاً.

أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ
قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ
فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ؟ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ
عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ
مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ
إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ
الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ
اللَّهُ خَيْراً، اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾
(هود، 25 - 31).

فعلمت [من] هذه الآيات [أنّه] أراد وأمر - أدام الله عُلُوَّ أمره -
بإسباغ رحمته على كافّة المؤمنين، وأوْسَعَهُم منها جمّا من عطائه
وجزيلاً من نعمائه، وإن كان ذلك لا يستقرُّ إلّا في قراره ولا يعيه إلّا
أهلُه ولا يأخذ كلُّ آمرىءٍ إلّا قسطَه بحسَب ما فيه من القوّة وما
يتّصل به من المادّة، كما أنّ ضوءَ النهار قد يتّصل بالأبصار وإنّما
يقبل منه كلُّ بصَرٍ بقدر صِحّته وقوّته، والذي لا صحّة له ولا قوّة فيه
منها لا يتّصلُ به شيءٌ من ذلك الضَّوءِ، كما أنَّ آنيةً لو وضعت
تحتَ سماء ممطرةٍ لم يستقرَّ الماء إلّا فيما كان منها أجوفَ، وما
كان مسطّحاً ومكبوباً على رأسِه أو ملقىً على جانبه لم يدخُلْ فيه
شيء من ذلك الماء، وما استوى (ط 41) على اعتداله منها وكان ذا
جَوْفٍ أخذ من الماء بقدر سَعَتِه/ واحتماله وصِغَره وكبره. 27/2

وكذلك هذا الأمر. وقد قيل إنّ بعض الأئمّة أطلق لبعض
المؤمنين قولاً من الباطن وبحضرته بعض غِلمانه، فظنّ بعض من
حضره أنّه لم يره فنبّه عليه وأشار له إليه فقال: قد رأيته، وليتَكم
أنّكم تفقَهُون ما أقول!، وقد أخبر الله (تع) بمثل ذلك عن قوم
سمعوا من رسول الله (ﷺ) ما لم يَفْقَهُوه ولا وعَوْه فقال: ﴿ وَمِنْهُمْ

من يستَمِعُ إلَيْكَ حَتَّى إذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفاً؟ ﴾ (محمد، 16). فأخبر الله (عج) أنّهم شهدُوا وسَمِعُوا ما سمِع أولُو الْعِلم فلم يعرفوه ولم يعرفُوا ما قَالَهُ رسولُ الله (ﷺ)، فأخبر عن رسول الله (ﷺ) أنّه قد جَمَع مثل هَؤلاءِ فيما أسمَعَهُم مع ذوي الْعلم. وقد شاهدنا مثل هذا ورأينَا كثيراً من قوم يسمَعُون ولا يعلمون ما سمِعُوه ولا تعلَّقَ شيءٌ منه بقلوبهم، وقوم سمعوا ذلك معهم ووعَوْه وعلموه وانْتفعوا به، وأولياءُ الله أعلمُ بما يفعلون وبمن يخصُّون ومن يَجْمَعُون وعلى أيّ شيء يجمعون ويُفَرّقون، كلّ شيء عندهم من ذلك بمقدار ووزن وعلى منهاج وسَنَنٍ[49]. هذا ما رواه القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه).

[مناقب القاضي النعمان]

وكان القاضي النعمان من أهل العلم والفضل، وله تأليفات كثيرة وعلوم مشهورة. وقد أقرّ المخالفون بفضله واتّساع علمه. وإنّما ألّف ما ألّف وجمع ما جمع، وصنّف ما صنّف، ممّا أخذه عن أئمّته الذين عاصرهم، ممّا ألقاه إليهم آباؤهم الطاهرون (صلع). ولم يؤلّف تأليفاً ولا جمع كتاباً حتّى عَرضه[50] عليهم شيئاً فشيئاً فثبّتُوا الثابت منه الصحيح، وَقَوّموا الأود بالتصحيح. ومن (ط 42) بحرهم اغترف، وبهم عرف ما عرف، وبفضلهم فيما ألّف وصنّف اعترف.

النعمان في تآليفه الكثيرة يصدر عن وحي الأئمّة

فمن تآليفه في الفقه:

كتاب الإيضاح[51]، إيضاح ما أجمعت الرواة عليه في الفقه،

---

(49) المجالس والمسايرات، 386 - 388.

(50) «حتّى يعرضه» في المتن، وجاء التصحيح في الهامش.

(51) كتاب الإيضاح مفقود (بوناوالا، 51) ولم يبق منه إلّا جزء من كتاب الصلاة.

والثابت منها بالأسانيد الصحيحة والروايات المتّفقة، وهو مِئتان وعشرون جزءاً كما ذكر في قصيدته المختارة المنتخبة[52]:

ألّفت منها مائتَيْ كتاب تزيد عشرين على الحساب

وكتاب «مختصر الإيضاح»[53]، في الثابت منه فيما رواه عن الأئمة/ الطاهرين. وكان ابتداؤه في تأليف هذا الكتاب على عهد أمير المؤمنين المهديّ بالله (صلع)، بأمره، على ما أراه وأصّله، وبيّنه له وفصّله.

28/2

كتبه في الفقه...

وكتاب الأخبار، في الفقه: ثلاثة عشرة جزءاً.

وكتاب الاتّفاق والافتراق، فيما اختلف فيه الفقهاء، ووافق قول أهل البيت (صلع): سبعون جزءاً.

وكتاب المقتصر، اختصره عن «الاتّفاق والافتراق».

... منها «دعائم الإسلام»

ثمّ إنّه ألّف كتاب «دعائم الإسلام في الحلال والحرام، والقضايا والأحكام»، عن الإمام المعزّ لدين الله أمير المؤمنين. وذلك أنّه حضر النعمانُ وجماعة من الدعاة عند أمير المؤمنين المعزّ، فذكروا الأقاويل التي اختُرِعت، والمذاهب والآراء التي افتَرَقت بها فرقُ الإسلام وما اجتمعت، وما أتت به علماؤها وابتدعت، وتسامت إليه من العلم بغير برهان مبين وآدّعت. فذكر أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (صلع) قول جدّه رسول الله (ﷺ) فيما أثبت روايته آباؤه الطاهرون: «لتَسْلُكُنّ سبلَ الأمم قبلكم حذو النعل بالنعل، والقذة بالقذة، حتى لو دخلوا جُحرَ ضبّ لدخلتموه»[54].

(52) الأرجوزة المنتخبة كثيرة النسخ (بوناوالا، 52)، وهي في الفقه أيضاً.

(53) مختصر الإيضاح مفقود أيضاً (بوناوالا، 52).

(54) في الجامع الصغير للسيوطيّ، 122/2: لتركبّن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى..

وفي حديث آخر: «لتركَبُنّ سنن من كان قبلكم ذراعاً بذراع، وباعا بباع، حتى لو سلكوا خشرم دبر لسلكتموه». ثمّ ذكر لهم المعزّ (صلع) قول رسول الله (ﷺ): «إذا ظهرت البدع في أمّتي فليُظهر العالمُ علمَه، وإلاّ فعليه لعنة الله!»[55]. ونظر (ط 43) إلى القاضي النعمان فقال: «أنت المعنيُّ بذلك يا نعمان!» ثمّ أمره بتأليف كتاب الدعائم، وأصّل له أصوله، وفرّع له فروعه، وأخبره بصحيح الروايات عن الطاهرين من آبائه، عن رسول الله (ﷺ) دون ما أتت به الرواة على اختلافها، وابتدعته على تفرّق أنواعها وأصنافها، وقال له: «إنّا قد روينا عن الإمام الصادق جعفر بن محمّد (صلع) أنه قال: بُنـيَ الإسلام على سبع دعائم:

.. الذي أصّله له المعزّ..

1 —الولاية، وهي أفضلها، وبها وبالوليّ يوصل إلى معرفتها.
2 — الطهارة.
3 —الصلاة.
4 —الزكاة.
5 —صوم شهر رمضان.
6 —الحجّ إلى بيت الله الحرام.
7 —الجهاد.

.. اعتماداً على جعفر الصادق

وأمره، فابتدأ بذكر ولاية أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (صلع)/ وتبيين ما خصّه به النبّي (ﷺ) من فضله، وأنّه أوْلى الأمّة بخلافته، بعد ذكر الإيمان الذي لا يقبل الله عملاً إلاّ به، ولا يزكو إلاّ من كان من أهله. وذكر ولاية الأئمّة من ذرّيّة الرسول (ﷺ) وإيجاب الصلاة عليهم، والبيان بالتوقيف على الأئمّة، وأنّ الإمامة لا تكـون إلاّ بالنصّ والتـوقيف، ومنازل الأئمّـة عنـد الله (عـج)

29/2

(55) الجامع الصغير، 31/1 مع اختلاف كذلك.

وبراءتهم ممّن غلا فيهم، وشيئاً من وصاياهم لأوليائهم وشيعتهم. وذكر ما أوجب الله (تع) من مودّتهم، والحضّ على أخذ العلم من الذين أوجب الله الأخذ عنهم.

ثمّ ذكر فرائض الإسلام من طهارة، وصلاة، وزكاة، وصوم، وحجّ وجهاد، وما يلي ذلك من ذكر الحلال والحرام، والقضايا والأحكام، والأشربة والبياعات، والمأكولات والمشروبات، والطلاق والمناكحات، والمواريث والديات، والشهادات، وسائر أبواب الفقه المثبتات الموجبات. فأتمّ القاضي النعمان هذا الكتاب الموسوم بـ«دعائم الإسلام». على ما وضعه له أمير المؤمنين (ط 44) المعزّ لدين الله (صلع) وأصّله، وكان يعرضه عليه فصلاً فصلاً وباباً باباً، فيثبت الثابت منه، ويقيم الأود، ويسدّ الخلل حتّى أتمّه، فجاء كتاباً جامعاً مختصراً على غاية الإحكام، وتلك معجزة أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (صلع)، أظهرها على يد داعيه ووليّه النعمان بن محمّد (رضي الله عنه)، وبيان لشريعة جدّه محمّد رسول الله (ﷺ)، رفعا لمعالم الإسلام، وأمراً بالسنّة، وتركاً للبدعة التي قال عنها النبيّ (ﷺ): «كلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار»[56].

ثمّ أمر أمير المؤمنين القاضي النعمان، فاختصر من كتاب دعائم الإسلام «اختصار الآثار، في ما روي عن الأئمّة الأطهار»، وقرّبه للراغبين، وأبانه للطالبين. قال القاضي النعمان:

سألني بعضُ القضاة والحكّام والطَّلَبَةِ بسطَ كتاب مختصَر من قول أهل البيت (صلع) يقرُب معناه ويسهُل حفظه وتخفّ مُؤْنَته. فابتدأتُ شيئاً منه، وقدّرت أنَّ الكتابَ إذا كمل قام على من يريد انتساخه بدينار فما دونه، وسميّتُه «كتاب الدينار» وذكرت ذلك في

(56) لم نجد هٰذا الحديث فيما لدينا من مراجع

30/2

بسط افتتاحه ورفعتُ ما ابتدأتُه منه إلى المعزّ (صلع)/ وطالعتُه فيه وسألتُه قراءته عليه وسماعَه منه ليكون مأثوراً عنه. وكتبت مع ما رفعتُه منه إليه رقعةً ذكرتُ فيها ذلك له.

فوقّع إليّ صلوات الله عليه بخطّه في ظهرِها:

المعزّ يغيّر عنوان كتاب الدينار

باسم الله الرحمان الرحيم، صانك الله يا نعمان، وقَفْتُ على الكتاب وتصفّحتُه فرأيت ما أعجَبَني فيه من صِحّة الرواية وجودةِ الاختصار. ولكنّ فيه كلمات يَعْتاص على كثير من أوليائنا معرفتُها فاشرَحْها بما يقرب من أفهامِهم، فيستوي في معرفته والإحاطة بعلم ألفاظه الشريفُ والمشروفُ، فإنّه يجيء طريفاً قريبَ المأخذ. وسمِّه «كتاب الاختصار لصحيح الآثار عن الأئمّة الأطهار»[57]، فإنّ ذلك (ط 45) أشبَهُ به من «كتاب الدينار» لأنّ فيه من علم أولياء الله ما يحِقّ على كافة الخَلق طلبُه بأرواحهم فضلاً عن أموالهم. وهذا الاسم يضَع من قدره عند ذوي النّعم ويرَوْنَ أنّهم يصِلون إليه وإلى ما هو أجلّ منه ببذل اليسير من حُطام دنياهم، ويَرَوْنَ أنّ الذي جمعوا وقَمَشُوا من سُحْتِهم[58] هو الغنيمة التي عليها المدارُ إذ كان الفسادُ على عقولهم أغلبَ طباع اللُّؤْمِ عليهم، إلاّ من عصم الله منهم، وقليل ما هم.

ثمّ وقّع بعد ذلك [بـ]ـإصلاح أشياء تُصْلَحُ فيما رفعته منه، وحذفِ أشياء ممّا كتبتُه وأثبتّه فيه، ذكرها وعلّم عليها. وقرأته بعد ذلك قراءةً عليه وأثبتُّ فيه كلَّ ما صحّحه وارتضاه وأسقطتُ ممّا كنت كتبتُ فيه ما أمرَ بإسقاطه منه وأخذتُـه لفظاً. وأذِن لي أنْ

---

(57) ذكره إيفانوف برقم 65 وعنوان: مختصر الآثار، أو: اختصار الآثار.

(58) قمش، على وزن ضرب ونصر، جمع فتات الشيء من هنا وهناك والقُماشُ والقُشاشُ بمعنى، مثل القَمْش والقَشِ. والسحت بضم السين، ما خبث من الكسب.

أروِيَه ـ لمن أخذه عنّي ـ عنه، عمّن ذكره فيه من آبائه الطاهرين (صلع) بعد أن أثْبَتَ[59] ذلك عنهم. فعظُمَتْ فائدتي فيه وجلّت نِعمتُه عليّ به، ولم أكن تعرّضت برفعي ذلك إليه [إلى] غير ذلك ليصِحّ لي ما كنت قد أثَرْتُه عن آبائه وجمعته من كُتب الرواة عنهم وسمعته قبلَ ذلك منهم. وفتق لي فيه (صلع) وأمدَّني من بحرٍ علمه بما صار به هـذا الكتاب مشتمِلاً على جميـع الحـلال والحـرام، والقضايا والأحكام. وصحّ لي ذلك عنه فيما أعملُ به من الفرائض المفروضة عليّ وأفْتِي به مَن يسألني، وأقضي به في أحكامي بحمد الله ونعمته وفضل وليّه. وأنا أؤمّل إنْ مُدّ/ في عمري [أن] أعْرِضَ كلّ شيء أتديّنُ به كذلك وآخذَه صحيحاً عنهُ. والله يُبلغني ذلك ويمُنّ عليّ به بحَوْله وقوّته. فقد رُوِّيتُ عن بعض مَن لحق جعفرَ ابن محمد الصادق (صلع) أنّه قال له: يا مولاي، أحِبُّ أن أعرض ديني عليك. (قال): وذلك من الفرض الواجب. فشهدَ (ط 46) الشهادتَين وأقرّ بالأئمّة واحداً بعد واحد يسمّيهم حتّى بلغ إليه.

31/2

فقال له: اعلَمْ أنَّ مَنْ دان الله (عج) بهذا، فقد دانَهُ بالدين الذي لا يَقْبَلُ غيرَه ولا يرضى من أحدٍ سواه، واستحسَنَ ذلك منه وصوَّبَه من قوله، فمَن فتح الله له في عَرضِ أصولِ دينه وفروعِه على وليِّه، فقد أتمّ نِعمته إذْ وفّقَه إلى أخذِها عن إمامه وتصحيحِها عن وليّه.

والحمد لله على ما فتح لي فيه من ذلك. وأسألُه البلوغَ إلى ما أؤمِّلُه ممّا بقيَ منه وقَبولاً لذلك وتوفيقاً لما يَرْضَاهُ منه[60].

---

(59) آثرنا الإسناد إلى المعز على الإسناد إلى النعمان المتكلم.

(60) المجالس والمسايرات، 360 - 361.

وللقاضي النعمان بن محمّد من التآليف في الفقه:

- كتاب يوم وليلة، / وهو كتاب/ لطيف في الصلاة المفروضة.

وله - كتاب الطهارة والصلاة وفروضها وسننها.

وله رسالة الأرجوزة المنتخبة :قصيدة مزدوجة نظمها في أبواب الفقه.

وله كتاب كيفيّة الصلاة على النبيّ (ﷺ): كتبه ردّاً على من خالفه.

وله كتاب: التقريع والتعنيف لمن لم يعلم العلم فتعاطى التصنيف: جزءان كبيران.

وله الرسالة المصريّة في الردّ على الشافعي: جزءان كبيران.

وكتاب في: الردّ على أحمد بن سريج البغداديّ[61]: جزءان.

وله رسالة البيان: يردّ فيها على ابن قتيبة[62].

وله كتاب اختلاف أصول المذاهب: جزءان.

وله كتاب نهج السبيل إلى معرفة علم التأويل: جزءان.

وله القصيدة المختارة: الأرجوزة في الإمامة والحجّة فيمن يستحقّها، ومن ادّعاها وليست له[63].

---

(61) أحمد بن عمر بن سريج البغداديّ، أبو العبّاس (ت 918/306): كبير الشافعيّة في عصره، نشر المذهب في أكثر الآفاق، وله تآليف كثيرة بلغت فيما قيل أربعمائة مصنّف. وله مساجلات مع علماء المذاهب الأخرى، مثل محمد بن داود الظاهريّ. وإليه تنسب مسألة «دور الطلاق» أو «المسألة الدائرة» التي عرفت بالمسألة السريجيّة (انظر دائرة المعارف الإسلاميّة وأعلام الزركليّ)

(62) عنوانها الكامل، كما ذكره بوناوالا، 63: رسالة في البيان في الردّ على ابن قتيبة وكتابه عيون المعارف في بعض الأحاديث المرويّة عن رسول الله (ﷺ) في القضايا والأحكام.

(63) نشرها بوناوالا بعنوان «الأرجوزة المختارة» (رقم 25 من مؤلّفات النعمان). ويبدو =

وأمّا الّذي له في الأخبار، فله:

كتاب شرح الأخبار في فضائل الأئمّة الأطهار: ستّة عشر جزءاً.

كتب النعمان في التاريخ والسير. . .

وله كتاب مناقب بني هاشم ومثالب بني أميّة: جزءان.

وله كتاب افتتاح الدعوة وابتداء الدولة: جزءان[64].

وقال القاضي النعمان: «أمرني أمير المؤمنين بجمع أخبار الدولة في كتاب، ومناقب بني هاشم ومثالب بنى عبد شمس في كتاب، ففعلت، وجمعت في كلّ فنّ من هذين الفنّيـن كتاباً جامعاً ضخمـاً يشتمل على أجـزاء كثيرة، على مـا رتّبه لي وأفـادنيـه. ورفعتهما/ إليه فاستحسنهما وارتضاهما واستجاد معناهما وقال عليه السلام: أمّا أخبار الدولة ومن قام فيها وسعى في إقامتها من الدعاة والمؤمنين، فإنّي أحبُّ أن تُخلّد أخبارهم هكذا في الباقين، ويبقى ذكرُهم بالخير في الغابِرين، ويخلفهم فيها دعاءُ السامعين، ويُعرَّفَ ذلك لأعقابهم من بعدهم ممّا أعدّه الله عزّ وجلّ لهم من الكرامة في دار المقامة، وهذا ممّا يجب علينا لهم من الحفظ والحقّ إذ لم يلحقونا فَنُؤَدّي ذلك إليهم.

32/2

وأمّا فضل الآباء ومناقبهم، وضَعةُ الأعداء ومثالبُهم، فإنّ ذلك ممّا ينبغي أن يَعْرِفَهُ الأبناءُ والذُّرِّيَّةُ والأوْلياءُ، ويُبْكَتَ به المخالِفون والأعداءُ، ويُنْشَرَ في الأنام ويبقى على الأيّام، وإن كانَ فضلُ أهل الفضل وضَعَةُ أهل الضَّعة معروفيْن غيرَ مجهـولَيْن وظاهـرَيْن غيرَ

= من كلام الداعي إدريس أنّها هي كتـاب الإمامة الذي يذكره بوناوالا كمؤلَّف مستقلّ (رقم 26).

(64) بلغت قائمة مؤلّفات النعمان في ثبت بوناوالا 62 عنواناً (ص 48 - 68). وافتتاح الدعوة نشر في تونس وبيروت وهو غير ذي جزءين.

مستُـورَيْن، فقد ألقَـوْا كثيراً من الشُّبُهـات واحتالُـوا بصنوف من الاحتيالات، وهـم في ذلك كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطفِئُوا نُورَ اللَّه بِأفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾ (الصف، 8).

وله كتاب معالم المهديّ: جزء واحد.

ولـه كتاب حـدود المعرفـة في تفسير القـرآن والتنبيه على التأويل: سبعون جزءاً.

وله كتاب تأويل الدعائم: المـوجود منـه اثنا عشـر جزءاً، إلى آخر كتاب الجهاد.

وله أساس التأويل (ط 48): ألّفه قبل تأويل الدعائم، وفيه: تأويل الولاية وقصص الأنبياء (صلع). والموجود منه سبعة عشر جزءاً.

.. وفي الجدل والمناظرة

وله دامغ الموجز في الردّ على العتقيّ[65]: أربعة أجزاء.

وله كتاب التعقّب والانتقاد: جزء واحد.

ولـه رسالـة إلى مرشـد[66]، الداعي في مصـر، في تربيـة المؤمنين: جزء واحد.

وله كتاب تأويل الرؤيا: جزء واحد.

وله كتاب منامات الأئمّة: جزء واحد.

وله كتاب التوحيد والإمـامة من خـطب أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب: جزءان.

---

(65) العتقيّ: ذكر إيفانوف (رقم 91) وبوناوالا (رقم 31) الكتاب، ولم يعرّفا بالعتقيّ. وهو ابن عبد الرحمان العتقيّ الشاعر الذي مرّ ذكره ص 462 (هامش 186 و189). ولعلّه هو المؤرخ أبو عبد الرحمان العتقيّ صاحب «التاريخ الجامع» الذي ألّفه للعزيز الفاطمي، وكان ذكر فيه بعض فضائل بني أميّة وبني العبّاس فغضب عليه العزيز. هذا مع التنبيه إلى أنّ النعمان مات قبل تولّي العزيز.

(66) افترض بوناوالا، 66 أنّ هذا الداعي هو أبو عيسى المرشد الذي سيكلّفه جوهر بولاية المظالم بعد فتح مصر (انظر الاتّعاظ، 165).

وله كتاب الدعاء: جزءان.

وكتاب إثبات الحقائق في معرفة توحيد الخالق: جزء واحد.

وكتاب في الإمامة: أربعة أجزاء.

وكتاب الهمّة في آداب أتباع الأئمّة: جزءان.

والأرجوزة الموسومة بـ«ذات المنن» في سيرة الإمام المعزّ: جزءان.

والأرجوزة الموسومة بـ«ذات المحن» في سيرة مخلد بن كيداد المارق الدجّال: جزءان.

33/2 وكتاب المجالس والمسايرات مع المعزّ لدين الله (صلع): أربعة أجزاء[67].

وكتاب الحلي والثياب: جزء واحد.

وكتاب الشروط.

وله رسائل كثيرة إلى القضاة وغير ذلك.

فهذا ما ذكره صاحب «سيرة كتامة»[68]. ومن هذه الكتب ما هو موجود في جزيرة اليمن معروف مشهور، وهو الأكثر منها. وقليل منها هو مفقود[69]، ولا شكّ في وجود ما فُقِد منها حيث مقام الإمام العظيم، وحجّة الله على خلقه أجمعين، الذي لا يخلو منه زمن، الوارث لمقامات آبائه (صلع)، ما همل غيث وهتن، وآبائه الأكرمين وعقبه الباقية فيهم الإمامة إلى يوم الدين[70].

---

(67) كتاب المجالس يشتمل على ثمانية وعشرين جزءاً، فلعلّ الداعي إدريس يعني بالجزء تارة الكراسة وتارة المجلّد.

(68) سيذكر إدريس اسمه في ص 129/2: حيدرة بن محمّد بن إبراهيم. ولا نعلم عنه شيئاً.

(69) بل المفقود أكثر من الموجود، وإن وجد، فإنّه مضنون به عند أصحابه ممنوع عن عامّة الباحثين.

(70) لعلّ الداعي إدريس يعني هنا مستقرّ الدعوة الإسماعيليّة في وقته باليمن.

المنصور أيضاً أوحى إلى النعمان بمادّة بعض كتبه

وفيما ورد عن القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه) قال: «خرج إليّ من (ط 49) المنصور (عم) توقيع يقول فيه: يا نعمان، استخرجْ من كتاب الله ما رفضَتْهُ العامّة وأنكَرَتْه. فقلت في نفسي: وأيّ شيء في كتاب الله يتهيّأ لأحد يدينُ بدينِ الإسلام أن يُنكره ويرفُضَه؟ وتعاظمت ذلك ورأيت في الوقت أنّي لا أجد منه حرفاً، ولم أستحسن مراجعته. ثمّ استعنتُ بالله عزّ وجلّ وعلمت أنّ ذلك لم يقله وليُّ الله إلاّ وهو موجود، ففتحت المصحف لأقرأه، فأوّل ما وقعَت عيني عليه: بآسمِ اللهِ الرَحْمَانِ الرَّحِيمِ. [فـ]ـذكرت قول من قال إنّها ليست من القرآن فأثبتّ[71] ذلك، وَانفَتَحَ لي القول حتّى جمعتُ من ذلك جزءاً فيه عشرون ورقةً. فرفعته إلى المنصور صلوات الله عليه فاستحسنه وأعجِب به ثمّ قال: تمادَ! فانتهيت إلى سورة المائدة، من أوّل فاتحة الكتاب والبقرة، وقد جمعت من ذلك أزيَدَ من ستّمائة ورقة. وكان المنصور عليه السلام إذا لقيتُه أعجبه مَا رفعته إليه منه، وقال: ما تقدّم لأحد مثلُه. ثمّ قُبِض صلوات الله عليه ورحمته وبركاته ولم أتممه»[72].

وفضائل القاضي النعمان بن محمّد مشهورة، ومناقبه مأثورة مذكورة. وهو الذي قال فيه أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (صلع) «من أتى بعشُر عشير ما أتى به النعمان، ضمنت له على الله الجنّة! وأمّا جعفر، فلنا فيه قول آخر»، يعني جعفر بن الحسن منصور اليمن، وكان أبوه من أكبر الدعاة وأفضلهم.

(71) فأثبّت ذلك: لعلّه يعني أنّه قرّر أنّ البسملة هي من صلب القرآن كما يقول الشافعيّ، خلافاً لقول مالك (انظر فصل «بسملة» في دائرة المعارف الإسلاميّة).

(72) المجالس والمسايرات، 135. وذكر بوناوالا (رقم 35) هذا الكتاب بعنوانه الذي ذكره المنصور في أمره للنعمان: ما رفضته العامّة من كتاب الله وأنكرته. ولم يرد كتاب البسملة في قائمة مؤلّفاته.

[مناقب جعفر بن منصور اليمن]

منزلة جعفر بن منصور اليمن كذلك رفيعة 34/2

وهـذا الداعي، جعفـر، ابن منصور (ط 50) اليمن، هجـر مملكة أبيه وترك حطام الدنيا ولم يطمع فيه. وهاجر إلى حضرة الأئمّة (صلع) فكان له عندهم الفضل العظيم، والمكان الـكريم. /وبلغ جعفر بن منصور اليمن مع أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (صلع) مبلغاً يقصر عنه المدى، وصار في الفضل والزهد علَماً مفرداً.

ويروى أنّ القاضي النعمان بن محمّد اعتلّ بعلّة، فزاره جميع الدعاة وأولياء الدولة وقوّادها، ثمّ نقِهَ من علّته وزال عنه ما كان يجده، فأتى إلى حضرة أمير المؤمنين المعزّ بعد زوال علّته فسأله عن حاله وألمه وحمِد الله على ما منّ به من عافيته. ثمّ قال له: من زارك من أوليائنا؟.

قال: كلّهم زارني، إلّا جعفر بن منصور اليمن.

فأخذ أمير المؤمنين (ص) في حديثه. ثمّ أمر بكتب فأُحضرت إليه ففتح كتاباً منها وقال للنعمان: «انظر في هذا الكتاب!» فلمّا نظر فيه وتصفّحه، قال أمير المؤمنين: ماذا تقول في هذا؟.

قال: وما عسى أن أقول في قولكم، صلوات الله عليكـم؟.

فقال له الإمام: هذا تأليف مولاك جعفـر[73] إعلاماً له بعالي فضله وبياناً لسامي محلّه. فلمّا خرج القاضي النعمان من حضرة إمامه، لم يكن له قصد غير دار جعفر. فلمّا استُؤذن له عليه، خرج مبادراً إليه، إجلالاً له ومعرفة بعالي محلّه. فلم يتمالك القاضي النعمان أن وقع على رجليه يقبّلهما، اعترافاً له بالفضل وتواضعاً، غيرَ مستنكف ولا مستكبر، ولا حاسد له على علوّ مقامه ولا منكر.

---

(73) ورد في هامش المخطوط: وهو كتاب «سر النطقاء». وذكر هذا الكتاب عند بوناوالا (ص 72) تحت رقمي 1 و 2 بعنوان: سرائر ثمّ أسرار النطقاء.

ه من أولياء عظّم الله محلّهم ورفع قدرهم عند أوليائـه
أولائك إخوان الصفاء وخلّان الوفاء الذين لا يتعارضون ولا
ولا يترافضون! جعلنا الله ممّن اتّبعهم واقتدى بهداهم
ثَالَتِهم[74] ولا قطع بنا عنهم، بحقّ صفـوته من خلقـه،
ن عباده! (ط 51).

لداعي جعفر بن منصور، أعلى الله قدسه، تأليفات كثيرة
أهل البيت، من توحيد الله جلّ جلاله، ومعرفة ملائكته
،، وابتداء خلقه، وقصص الأنبياء، وعلم الملائكة، وذكر
لشريعة، [مـ]ـمّا هو الحقّ المبين الذي تتجلّى به قلوب
وله سيرة في ذكر أبيه المنصور وافتتاحه اليمن[75] وقد
ذلك.

* * *

ن لأمير المؤمنين المعزّ لدين الله (صلع) من الحلم والصفح
له العدوّ البعيد، وجعله له من جملة الخوَل والعبيد. وقد
كان له من دنوّ أهل جبل أوراس، وخضوعهم له بعد العتوّ
. قال القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه):

35/2

أحصي ما رأيت المعزّ عليه السلام في مجلسه/ وتصرّفه
جه يُعترَض بما يوجب العقوبة والغضب، وربّما اعترض
ن عبيده في رأيه، وقطع عليه كلامه واحتجّ عليه من يأمُرُه
وراجعه فيما لا ينبغي المراجعة فيه، ممّا يضيق لذلك
حضرَهُ وسمعه، فما رأيته قطّ غضِب لشيء من ذلك ولا

عود إلى فضائل المعزّ

بالفتح: الفضل.
بوناوالا 12/74 بعنوان: سيرة ابن حوشب. والداعي إدريس لا يذكر شعر
رغم أنه نقل منه كثيراً.

وأكبر ما رأيت منه أنّه خرج يوماً إلى خارج المنصورية في بعض ما يخرج له، فازدحَم الناس على ركابه وأحاطوا به من كلّ جهة يسألونه حوائجهم ويرفعون إليه قصصهم، وقد أقام لذلك من يتولّاه فأبَوْا إلّا مواجهتَه به، وهو في ذلك يُقبِل عليهم ويسمَع منهم ويأمر بقضاء حوائجهم، إلى أن جاء من ذلك ما لم يُمكنْه معه المشيُ، ونفر به الفرس تحته، ودار به. فأمرهم بالانصراف، وأمر مَن بين يديه من المُشاة بصَرفهم، فألحّوا عليه ولم ينصرفوا عنه وقصَّر المشاة عَن دفعهم، فتناول رمحا من يد بعضهم وقال: ما جزاء أحدكم إلّا ضربُه بهذا! ثمّ نظر (صلع) إلينا وتبسّم في (ط 52) الوقت بعقب ذلك وقال: أما ترون ما نحن فيه؟ وتَحَدَّثَ، كأنّه لم يعارَض بشيء.

ولقد نالني ومن رأيته حولي ممّن كنّا نسايره لما رأينا من ذلك، غمّ وغضَبٌ شديد، فلا والله ما كان منه في ذلك إلّا ما ذكرتُه ممّا استعملَه، وطَبعُه الكريم يظهر استعماله إيّاه كما يُستعمل القضيب على الطّفلِ إذا جهل ليُروَّعَ ويُفْزَعَ من أجله.

ولقد تأسّيت به في الحلم عمّن يجهل ويخالف الواجب من دخلتي وعبيدي والإعراض عن زلّاتهم والصفح عن هفواتهم: ولقد بَطِروا لذلك وحَال عليّ كثير من أمرهم. ثمّ قرنت ما كنت أجده من ألم الغيظ والعقوبة بما صرت إليه من راحة الحِلم ولذّة العفو والإغضاء، فرأيتُ أنّ الذي صرت إليه من ذلك أفضل. وقد كنت كثيراً ما أعاقِبُ فأندم على العقوبة إذا سكن غضبي، وأعاتب في ذلك نفسي. ثمّ صلح لي بحمد الله مع الدوام على ذلك كثير من الأمور ممّا لم يكن يصلح بالعنف.

وكذلك رأيت أَمْرَ المعزّ عليه السلام على ما منحه الله من الحِلم والأناة والصبر يأتي مع ذلك بحسن العواقب وجميل الأمور.

وكثيراً ما فكّرت في ذلك فذكرتُ له قول بعض أهل الأدبِ وقد رأى بعضُ الناس عبيداً له يفعلون في أمورِه غيرَ/ الواجب فقال له: ألا تُؤَدّبُ عبيدَك هؤلاء وتُصلحُهم؟ فقال: قد رمت ذلك فرأيتُ أنّ إصلاح حالي أعوَدُ عليّ من إصلاح أحوالِهم فتركتُهم كذلك، يصفو منهم من صفا ويَكدُرُ منهم مَن كدُر[76].

36/2

(قال): وركب المعزّ (صلع) يوماً من أيّام الرّبيع إلى مكان وُصف له أنّ فيه زهراً حسناً ونبتاً عميماً، وفي الطّريق الحامل إليه مثلُ ذلك. فلمّا خرج (صلع) من باب المنصوريّة اكتنفه النّـاس يسألونه حوائجهم ويرفعون أمورهم (ط 53). فما زال يُقبِلُ بوجهه على الواحد بعد الواحد والجماعة بعد الجمـاعةِ منهم ويكلّمُهم ويجيبهم حتّى انتهى إلى المكان الذي وُصف له، وانصرف وهو على مثل ذلك ما ملأ عينَه ممّا أراد النّظر إليه ولا أعاره الطّرفَ إلاّ اختلاساً، ولا أضجره ما كان من أمر النّاس. وإنّا حولَه لنضجَر له لذلك، وإنّ المُشاةَ بين يديْه يدفَعُون النّاس فيأمرُهم بتخليـة مَن يدفعونه منهم، وإنّ كثيراً منهم ليُطيل مسايَرَته ويكرّرُ حاجتَه فيأمرُه مَن حوله بالانصراف ويغمِزُه بعضهم إرادةَ التخفيف عليه وأن ينظُرَ إلى ما خرج إليه، فينهاهُم عن ذلك ويأمر أن يدَعُوا مَن كلّمه إلى أن يقضيَ حاجتَه وينصرِفَ عن رأي نفسه.

بشاشته نحو رعاياه

وهذا دأبه في أكثر خروجه صلوات الله عليه، ولا أعلَمُ ولا سمعتُ أحداً وُصف بمثل ذلك من الصّبر[77].

(قال): ولقد حضرت يوماً مجلس أمير المؤمنين المعزّ لدين

(76) المجالس والمسايرات، 211 - 212.

(77) المجالس والمسايرات، 259.

الله (صلع) فتحدّث مليّاً. ثم قال لبعض الخدم بين يديه: أصلح الحمّام.

قال: نعم.

فجلس بعد ذلك طويلاً ولا أشكّ إلاّ أنه قد كان أَمَر قبل ذلك بإصلاحه. ثمّ دعا بالفرس فركبَه ومشَينا بين يديه إلى الحُجرة التي فيها الحمّام من قَصره. فدخل فنزل ليدخلَ الحمّامَ فأصاب بابه مقفلاً ولم يُصْلَحْ بعدُ، فسأل عن المفتاح، فلم يوجَدْ. فوقف طويلاً وما تنكّر وما بدا منه غضَب ولا قال في ذلك قولاً. ثمّ دعا بِالكرسيِّ فجلَس عليه وجعل يتحدّث حتّى أتِيَ بالمفتاح، وأصلِحَ الحمّامُ. وقام فدخل، وما حرّك ذلك منه ساكناً ولا أهاج كامناً. وإنّ الذي زعم له أنّه أصلح الحمّام من العبيد (ط 54) لقائم بين يدَيْه. ولقد تداخلني من ذلك غيظ شديدٌ عليه وعلى من يلي إصلاح الحمّام(78).

وممّا رواه القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه) من حلم أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (صلع) وصبره وتغمّده/ قال: 37/2

وذكر المعزّ لدين الله (صلع) يوماً رجلاً كان ورد عليه من جهة المغرب يُعْنَى بعلم النجوم، فأحسن أمير المؤمنين (صلع) نزله وكَسَاهُ وحملَهُ ووصلَه وأجرى عليه جرايةً لقصده إيّاه [من بعيد] ورحلته إليه، ولم يلْبَثْ إلاّ قليلاً حتّى سأل الإذنَ له في الانصراف فأذِن له. وكنّا نتعجّب لذلك منه. فقال المعزّ لدين الله (ص) لي يوماً - وأنا بين يديه -: ألا أخبرك بسبب انصرافه؟

حلمه مع منجّم مخادع

قلت: يفعلُ من ذلك أمير المؤمنين ما رآه.

(78) المجالس والمسايرات، 210.

فقال: إنّ هذا الرجل لمّا وفد علينا وصار إليه من فضلنا ما صار، حسدَهُ بعضُ أهل صنعته ممّن أولِعَ بالشّناعة علينا، فذكر له مولداً من المواليد فقال: ما ترى لمن وُلِدِ بهذا المولدِ؟

قال: أرى النُحُوسَ قد أظلّته، ولا أشكّ أنّ أيّامَه قد انقضت.

قال له: فذلك الذي أنت في نزله وقصدك إليه، (قال ـ عم ـ: يعنينا) وهذا مولدُه. فرأى الضعيفُ العقلِ أنّ انصرافَه بما نال منّا غنيمةٌ، فسألَنا الإذن ـ وقد انتهى إلينَا ما قيل له ـ فأذنّا له، فانصرف. ولقد رفع إلينا في حين انصرافه رقعةً تعرَّضَ فيها لِلمسألة. وقد كنت قبل ذلك أمرت له بمائتَيْ دينار، فَصُرَّتْ في صرّة، وكنت على البعث بها إليه، ثمّ نظرت إلى وقت رَفعه فرأيته وقتَ سعد. فقلت: لا أظنّه إلاّ وقد تحرّى لرقعته هذا السّعد ولكنّي والله لَأُبْطلَنَّ ذلك عنده، فتركتُها على أن نجعَلها له في وقت آخر على غير (ط 55) سُؤاله. فأنسأتُها وخرج محروماً.

فقلت له: لقد أعطى الله وليّه من الصّبر والحلم والتغمُّدِ ما لا أظنّه أعطاه أحداً.

فقال (عم): أوَلَمْ أخبرْك عن فلان مذ مدّة بأنّه يتكلّمُ فينا وكنّيتُ لك عن كلامه، فرأيت ذلك أغضبَك وأهاجَك عليه، وقلتَ لي: وددت أنّي ظفِرت به فيما يوجب بسطَ اليد بالمكروه إليه، فأنيلَه من ذلك ما أشفي به صدري منه؟

قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قد كان ذلك وإنّي عليه.

قال: أفكنتَ فاعلاً به ومنتقِماً منه بمثل انتقام الله (عج) لنا؟

قلت: وكيف ذلك؟

قال: أوَمَا بلغك خبره؟

قلت: لا والله.

قال: قد هلك منذ ثلاثة أيّام بأكَلَةٍ أصابته في فمه فأكلَتْ داخلهَ وخارجه.

قلت: إلى غضب الله.

قال: نعم، إلـى سعير ناره. أتدري ما كتب[79] فيما بلغَنا عنه؟

قلت: لا، إلاّ أن يخبرَني أمير المؤمنين.

قال: حكم علينا فيما دلَّته بزعمه عليه النجوم بأنّ أمرَنا ينقطعُ ويزول في الوقت الذي قطع الله فيه مدّتَه بالآفة التي أصابَتْ/ ما لفَظ ذلك به، أفكُنَّا نقدِر على أن نفعل به أكثرَ من هٰذا؟ إنّ كثيراً ممّن يتّصل بنا أذاهُ وقولُه فينا لربّما قيل لهم: أما تخافون أن يعلم بمثل هذا منكم؟ فيقولون: هو ممنوع منّا. ثمّ تبسّم (ص) وقال: نعَم والله، إنّي لَمَمْنُوعٌ منَ الظّلم والتعدّي، وإنّ الله (عج) لينتصر لي وَيَنْتَقِم ممّن تناول منّي ما ليس له. أما والله لو شئت لبطشت بهم ولانتصفت منهم، ولكنّي لو فعلتُ ذلك وعلِم الناس أنّي أنتصر لنفسي من مثل هذا لأكثروا من البغي على بعضهم من بعض، وشغلوا صدري بذلـك كما شغلوا بـه مَن قَبلي، ولكنّي تغافلْتُ عنهم، وما الله بغافل عمّا يعمل الظالمون، وهو أعلم بما يُسِرّون وما يُعلنون (ط 56).

38/2

قلت: الحمـد لله الذي منـح أمير المؤمنين هـذا الفضـل العظيم، وأبانه بهذا البرهان المبين، ووسمه بالأناة والصبر والحلم ووليَّ الانتقامَ له من أهل البغي والظلم. وأميُر المؤمنين وسلفُه، كما قال أصدقُ القائلين: ﴿ ذُرِّيَّةً بعضُها مِنْ بَعْضٍ واللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (آل عمران، 34).

---

(79) في المخطوط: ما كتَبْتُ. وفي المطبوع: ما كنيت عندك.

ثمّ ذكرت في مثل ما ذكر مِن منعه المنجِّم المحروم ما منعَه لئَلاّ يرى أنّ علمَه بالنجوم وتوخّيَه ساعة السّعد، به نال ذلك، ما رويناه عن جعفر بن محمد (ص) أن داراً صار له نصفُها عن بعض مواليه ونصفُها لرجل كان يعنى بعلم النجوم، وأنّه دعاه (ص) إلى قسمتها فسوَّفَ ذلك إلى أن اختار لنفسه ساعةَ سَعد، فأتاه فيها بعد مدّة يسأله القسمة، فأرسل معه من يقاسمه، فانصرف إليه يذمّ علم النجوم وقال: يا ابنَ رسول الله (ﷺ) كنت أحبّ ناحية من هذه الدار فَمَطَلْتُ بقسمتها إلى أن تخيّرتُ لنفسي ساعةَ سَعد ووثقت فيها بأنّي أنالُ بُغْيتي. فلمّا قُسّمَتِ الدار ورُمِي السّهم وقع لك ما كنت أحبّ ولي ما كنت أكرَهُ.

جعفر الصادق
كذلك كان
لا يعمل بالتنجيم

فقال له أبو عبد الله (صلع): لولا أن ترى أنَّ اختيارك أصارك إلى ما تحبّ لأعطيناك ما أحببتَ، نعم، ولتركْنا الكلَّ لك، ولكن لا، والله ما تَأخُذ إلاّ ما صار لك. ولكنّي أفيدُك ما إن قَبِلْتَه كان خيراً لك ممّا أردتَه.

قال: وما هو، جعلني الله فداك؟

قال: إذا أصبحتَ فتصدّقْ بصدَقة/ فإنّها تُذهب عنك نَحسَ يومك، وإذا أمسيْتَ فتصدَّقْ بصدَقة فإنّها تذهِبُ نحس ليلتك.

39/2

فتبسّم المعز لدين الله (ص) وقال: هو كما قال (عم).

* * *

وقام أمير المؤمنين (عم) بأمور دعوته وفتح أبواب (ط 57) علمه وحكمته. وكان يجلس بنفسه ويعظ شيعته وأولياءه بالمواعظ الجليلة ويشوّقهم للعلم والعمل، ويعلّمهم بنفسه، ويدنو لصغيرهم وكبيرهم، وظهر عنه من الحكمة والعلم والبيان ما لم يشاهد مثله. وكان مبرّزاً في فنون العلم بالغاً منها مبلغاً يقصر عنه أولو الفهم. وقد ذكر القاضي النعمان بن محمّد من فضائله ومناقبه وعلمه ما لا

شغف المعزّ بالعلم
والحكمة

يكون إلّا عنه وعن أمثاله من حجج الله وأوليائه الذين أقامهم الله (عج) لهداية عباده، واختارهم في بلاده، وجعلهم خلفاء النبيّين وأئمّة المؤمنين. وظهر من المعزّ لدين الله (ص) من البلاغة والعلم ما دلّ على تأييد الله له، إذ كان ذلك على قرب عهده وممارسته، ولم يعلم الناس أنّ معلّماً علّمه، ولا ملقّناً لقّنه غير وليّ الله الذي أفضى إليه بسرّه وألقى إليه زمام أمره، وأودعه علم ما عنده من علم آبائه وأجداده الذي أخذوه عن رسول الله (ﷺ)، ممّا نزل به الروح الأمين على قلبه. وهو مع ذلك حريص في العلم مجدّ في طلبه، مستكثر منه، راغب فيه.

ولقد روي عن القاضي النعمان قال:

وسمعته صلوات الله عليه يقول فيما يجده في نفسه: والله إنّي لأجدُ من اللذّة والراحة والشهوة في النظر في الحكمة ما لو وجده أهلُ الدنيا لاطَّرَحُوها لَهُ، ولولا ما أوجب الله سبحانَه عليّ من أمور الدنيا وإقامة ظاهرها لأهلها ومصالِحِهِم فيها، لرفضتُها للتلذّذ بالحكمة، والنظر فيها، وإن كان الذي قُلِّدتُه من أمور الدنيا والنظر فيها حكمةٌ بالغةٌ لمن أبصَرَ وحجّةٌ لمن تدبَّرَ ونظَرَ[80].

وممّا أثره القاضي النعمان من مثل ذلك عن الإمام المعزّ لدين الله (ص) قال:

وسايرت المعزّ لدين الله (صلع) يوماً في بعض ما خرج إليه فذكر شيئاً من العلم في فنّ جرى الذكرُ فيه منه، فقال: ذكرت مثلَ هذا مذ ليالٍ، وأنا أعرف كتاباً فيه كلامٌ منه مستقصىً فأمرت بإحضاره، فلم يعلَم من يقوم على الكتب مكانَه، فقمت بنفسي إلى

(80) المجالس والمسايرات، 94.

40/2

خزانة الكتب، وفتحتُ بعض الصناديق وأنا قائم أطلب ذلك الكتاب من المكانِ الذي قدّرتُ أنّه فيه، وذلك في أوّل الليل، وقلّبت الكتبَ، فجعلت إذا مرّ بي كتاب أتصفّحه فيعرض لي فيه ما أحبّ أن أستقصيَه، ثمّ يمرّ على يدي غيرُه فيجري منّي كذلك مجراه، فلم أزلْ قائماً كذلك أتصفّح كتاباً بعد كتاب وقد شغلَني ذلك عن أن أذكر ما أنا فيه فأجلس، حتّى جاز نصفُ الليل، ونبّهني على ما أنا عليه وجَعٌ شديد بقدَمي من طول القيام. فانصرفت، وأصبحتُ وقد عرض لي من ذلك وجع مؤلمٌ برجلي كان من سبب ذلك.

فقلت: هذه والله يا مولاي الشهوة للعلم، والرّغبة فيه التي لم يُتَحَدَّثْ بمثلها عن أحد قبل أمير المؤمنين (ص)، فهنّأه الله ما وهبَه من ذلك، وبارك له فيه.

فأطرق (ص) كالمستحيِي من ذلك وتكلّم بكلام خفيّ لم أفهمه عنه[81].

فهذه رواية القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه). وسيرة الأئمّة من آل رسول الله (ﷺ) معروفة، وفضائلهم موصوفة، فلا يوجد في أخبارهم وآثارهم إلّا ما يشهد بفضلهم وعلوّ محلّهم من أمر بمعروف ونهي عن منكر وموعظة وذكرى للمؤمنين، وقول حسن، وعبادة لله، مع زهد في الدنيا وتذكير بالآخرة، ونشر (ط 59) علم الرسول ووصيّه.

شتّان بين سيرة الأئمّة وسيرة بني أميّة وبني العبّاس

وليست كسيرة بني أميّة وبني العبّاس وأخبارهم، التي هي لهو بطنبور، وذكر قذع، وإحياء باطل، وإماتة سنّة، وإظهار بدعة، وملاعبة قينة.

---

(81) المجالس والمسايرات، 533.

فماذا الذي يطعن فيهم الطاعنون، ويقول فيهم القـائلون، الذين على أولياء الله يفترون، إلّا بغياً عليهم، وحسداً لهم، وإنكاراً لفضلهم، ممّا آتاهم الله (تع) من المجد الأسنى، والمقام الأشرف الأعلى، ولأنّهم مالوا بالناس عن عاداتهم الدنيّة، و[عن] إقبالهـم على الشهوات المحرّمة في الشريعة الحنيفيّة. فلذلك مالوا عنهم وعادَوهم وافترَوا عليهم آفتراءً عظيماً وقالوا فيهم قولاً منكراً. ولَمَنْ أنصف في قوله وحكّم عقله، وجد فضلهم عظيماً ومقامهم عند الله كـريماً وآمن بالله وبهم، وسلّم لله فيما أوجب من طاعتهم تسليماً.

وقد روى القاضي النعمان عن أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (صلع) قال:

وسمعتُه يوماً صلّى الله عليه وآله يقول في مجلس: «أمَا إنّي لو شئتُ رضَى الناس لبلغتُ رضاهم بأيسَر الأمور عندَهُم. ولكنّ ذلك، لو تَدرُونَ ، فيه اقتحامُ النـار.

41/2

فقيل له: وما هو يا أميرَ المؤمنين؟

قال: التَّخْلِيَةُ بينهم وبين شهواتهم: نُبيحُ لهم - ونعوذ بالله المُظاهرة بشُرب الخمور والزّنَى واللِّواطِ وإظهارِ الملاهي والمعازِف، كما يفعلُه اليوم المتغلِّبون من ملوك الأرض لأنفُسِهم، ويُبيحُونَه لمن تغلّبُوا عليه. فما كنّا نسمعُ منهم إلاّ الثناءَ والشكرَ. ولكنَّ الله عزّ وجلّ قلّدَنا أمورَهم وافترض علينا تقويمَهم واستنقاذ مَن أناب إلينا منهم، والأمـرَ بالمعـروف والنّهيَ عن المنكر فيهم. فنحن نـريد نجاتَهم من النار، وهم يسخَطون علينا، ونُحبُّ (ط 60) إدخالَهمُ الجنّةَ، وهم يكرهون ذلك منا.

فذكر له بعض من حضر المجلس أمرَ المتغلّبين من بني أميّة بالأندلس، وأنّهم ورعايَاهم يشربون الخمر ويبتاعونَها في أسواقهم

فسوق بني أميّة علني

جهاراً، ويتفكَّهُونَ بالغِلمان صراحاً ويزنُون علانيَةً، وأنَّ حبس[82] النساء عندهم ليأتِي إليه من أراد ذلك فيدخُلُ إلى السّجّان فيختارُ مِنَ النساء على عَيْنِه من أراد، ولكلّ واحدةٍ منهنّ رسمٌ معروفٌ، فأيّتُهنّ اختارَ دَفَعَ رسمَها وفجرَ بها، في وجوهٍ كثيرة من المُنكَـر ظاهرةٍ بيّنةٍ، ذكرَهَا.

فقال عليه السلام: «هـذا الذي قدّمْنا ذكرَه. ونحن نَعْلَمُ أنّ استصلاحَ ظاهرِ العامّة واستمالة قلوبها أيسرُ وأقربُ من استصلاحها واستمالتها بـالدين والحمـلِ على الحقّ، لأنَّ الحقَّ مرٌّ إلاّ عنْـدَ القليل، وما كرِه الناس منّا في القَديمِ والحديثِ غيرَه، ولَوْلاَ حَمْلُ عليٍّ، عليه السلام، الناسَ عليه جميعاً وتركه الإغضاءَ عن شيءٍ منه، والرخصةَ فيه والمداراةَ عنه، لما عدل إلى معاويَةَ من عدَل، ومـال إليه عنـه. فالـرخصةُ في البـاطـل، والإدهـان في الحقّ، والحيفُ، والأثَرَةُ بالدنيا، وتركُ الأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكر وإقامةِ حقوقِ الله وحدودِه التي أمرَ بإقامتها، كان سببَ تغلُّب بني أميّةَ أوّلاً، وبه تمسّكوا إلى اليوم. وتمسُّكُنا بالحقّ هو الذي قصّر بنا عند عامّة الناس. لا والله، لا ندعه حتى يُظهر اللّهُ أمرَه، فقد قال جلّ ثناؤُهُ: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ (الأنبيـاء، 18) وأرجو أنَّ ذلـك قد قـرُبَ أوانُه وحـان حينُـه إن شاء الله»[83].

وفيما أتى عن القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه) قال (ط 61):

وانتهى إلى أمير المؤمنين المعزّ (صلع) أنّ مركباً لبني أميّة

---

(82) في المجالس: سجن.

(83) المجالس والمسايرات، 92 - 93.

42/2

قدم من المشرق، فلمّا صار بين صقليّة وإفريقيّة مرّ بجزيرة فصادف فيها قارباً فيه نَفَرٌ قدِموا من صقليّة يريدون إفريقيّة، وفيه كتاب من عامل صقليّة إلى أمير المؤمنين. فخاف الأندلسيّون أن ينذروا[83] بهم فأخذوا رِجْلَ[85] قاربهم واختطفوا بعضَ أمتِعَتِهم وأخذوا فيما أخذوا الخريطة[86] الّتي فيها كتاب عامل صقليّة، وتركوا القاربَ بمن فيه بالجزيرة لا يجدون ما يحملهم إلى أن مرّ بهم مركب، فركبوا فيه وأتَوْا بالخبر.

غزوة الحسن بن عليّ على المريّة

فغضِب أميرُ المؤمنين صلوات الله عليه لذلك وأمر بإخراج مراكبَ حربيّةٍ وأدخل فيها رجالاً من رجال البَرّ والبحرِ وأمَّرَ عليهم حسن بن عليّ[87] عامل صقلية في سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة وأمره بطلب المركَب حيث أخذَ، وإن وصل إلى الأندلس فلا ينصرف عنه حتّى يُحرقَه. فلم يلحَق المركب إلّا وقد أرسى بألمريّة مرسى الأندلس ومجمع مراكبِها وأساطيلِ الأمويّ المتغلّب عليها ودار صناعة مراكبه وبها عُدّته. واتّصل الخبرُ بالأمويّ أنّ الأسطول قد نفذ إليه[88] فأعدّ عساكره وعمّر مراكبه بالعُدّة والسلاح والرّجال،

(84) في المخطوط: أن يبدروا، ويدر يتعدّى بإلى فأصلحنا من المجالس، 164.

(85) رجل القارب: سكّانه، أي دفّته. انظر ملحق دوزي في المادّة.

(86) الخريطة: وعاء أو كيس من جلد تدس فيه الأوراق وغيرها.

(87) الحسن بن علي الكلبي، وقد مر ذكره كثيراً في هذا الكتاب (انظر ص 264 و 497 خاصة). وتوفي هذا القائد الكبير بصقليّة في 18 ذي القعدة 15/354 نوفمبر 965 «فرحا بانتصار وقعة المجاز». وفي خصوص الحادثة التي يرويها المؤلّف هنا عن النعمان، ينظر ملخصها في الافتتاح، 336، وابن خلدون، 46/4، والعيون والحدائق، 488/2 و 575 وابن الأثير، 349/6، في أخبار سنة 344، وهو التاريخ المشهور، لا كما قال المؤلّف: سنة 343، وهي إضافة وردت في الهامش، ولم ترد عند النعمان. وسيأتي بعد قليل تاريخ عودة الأسطول: 24 ربيع الأوّل (من سنة 344)، وهو غير موجود في المجالس، 165.

(88) في المجالس، بعد هذا. «وسبقت مراكبَهُ راءةٌ في البحر بخبره». والراءة: المراقبون والطلائع.

وجـاء حسن بن عليّ في مراكبـه، وكانت قليلةَ العـدد [و] إنّمـا أُخرِجَتْ لِطلب المركب، فأيّد الله وليّه ووهب له النصر، فاستولى حسن بن عليّ ومن معه على أساطيل الأمويّ وأضرموها ناراً وغادر ما فيها رماداً. ونزل من بالأسطول من الرجال واستولوا على ألمريّة [فأحرقها وخربها بعد أن قتل من وقف له بها][89]، وانهزم جمع الأموي، فأحرقوا ما بها من المـراكب والخزائن والعـدد (ط 62) والقوة، وانتهبُوا جميع ذخائرها، وهـرب من استطاع الهـرب من أهلها. ولم يعرضوا لمن بقي بها ممّن استسلم، بمكروه، وقاتلوا من ناصبهم أولاً، وأحرقوا المركب الذي صنع أهله ما صنعوه، فيما أحرقوه. ولم يكن أمير المؤمنين أمرهم بغير ذلك، فانصرفوا سالمين غانمين لم يُرْزَأْ أَحَدٌ منهم بسوء، فوصلوا يوم الجمعة لستّ بقين من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة (18 جويلية 955)[90].

وحلّ بالأمـويّ الدّاهيـة واضطرب عليـه البلدُ وخاف خـوفاً شديداً، فألّف مراكب وجمع جميعَ رجاله ومَن يوصف بالنّكاية ببلده وأخرج أسطولاً في العام المقبل بعد أن كتب إلى طاغية الرّوم[91]

---

(89) إضافة لا توجد في المجالس، 165، وهي من نص مغاير لا ينقل عنه النعمان، بدليل اضطراب الضمائر. وبوجه عام، بدأ الداعي إدريس ينقل عن النعمان بشيء من التصرف.

(90) السنة المذكورة هي 344 لا 343 كما مر. والإشارة لا توجد في المجالس. وهي في المخطوط - وفي المطبوع - وردت في الطرة، فلا ندري هل هي من كلام إدريس حقاً. ولا يدقق ابن خلدون، 46/4 التاريخ، ولا ليفي بروفنصال: تاريخ إسبانيا الإسلامية، 208/2، ولا الدشراوي في أطروحته، 226 - 227. أمـا ابن الأثير، 349/6، فلا يعدو ذكر السنة: 344، ويضيف أن الحسن بن علي استولى بألمرية على المركب المعتدي، وكان فيه جوار مغنيات جُلِبن من المشرق إلى عبد الرحمان الناصر.

(91) طاغية الروم هو المصطلح الذي يعيّن به النعمان الأمبراطور البيزنطي، وهو في هذه الآونة قسطنطين السابع «الفرفوري» (905 - 959 م).

يسأله النّصرة، وأهدى إليه هدايا وأرسل إليه رسلاً من قِبَلِه، فأجابه إلى ذلك. وجاءت أساطيل الرّوم من القسطنطينيّة مع الدمستق ومراكب بني أميّة من الأندلس.

43/2

فجمع أمير المؤمنين المعزّ لدين الله عليه السلام الأولياء وعرّفهم ذلك وأنّ الرّوم سألوه عقد هدنة إلى مدّة طويلة على أن ينصرفوا عنه، وقال لهم: ما ترون في ذلك؟

فقالوا: أمير المؤمنين أعلى عينا. والذي نراه نحن مهادنةُ الرّوم، فما علينا من ذلك، وأن نصرف وجوهنا إلى هؤلاء بجُملتنا.

فقال: معاذ الله! ما كنت بادئاً إلاّ بمن بدأ الله عزّ وجلّ به، قال تبارك اسمه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ (التوبة، 73)، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ﴾ (التوبة، 123). فهم أقربُ إلينا، وحسبُنا انتصاراً بالله على هؤلاء الفسقة بني أميّة انتصارهم بالمشركين إخوانِهم في الدّين علينا ودخولُهم في جُملتهم وكونهم في حزبهم، وكفاهم بذلك خَزيةً وعاراً في دنياهم وأخراهم[92].

.. وغزوة شقيقة عمّار إلى قلوريّة

وأخرج عمار بن علي[93] بن أبي الحسين في عساكر عظيمة، فانتهى إلى صقلية فظفر بالروم وغرّق كثيراً (ط 63) من أساطيلهم، وذلك في سنة خمس وأربعين وثلاثمائة.

وخرج أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (ص) من المنصوريّة

---

(92) المجالس والمسايرات، 165 - 166.

(93) في المخطوط والمطبوع: عمّار بن الحسن، وهو وهم، لأنّ عمّاراً هو أخو الحسن بن عليّ. وقد غلظ البحر في هذه الحملة فعطبت المراكب الفاطميّة وغرق عمّار (انظر أعمال الأعلام لابن الخطيب، نشر ح. ح. عبد الوهاب، ص 476/50. وانظر كذلك الترجمة الفرنسية لسيرة جوذر، الهامش 422 و462).

متوجّهاً إلى المهديّة بعد أن جمع كتامة وأهل إفريقية في جيوش تملأ الفضاء، ورايات تخفق في جوّ السماء، وقوّة تبهـر، وعدّة تزهر. فحين صار في المهديّة، أمر بعمل الأساطيل، وانتقى فيها الحماة والكماة، واختار فيها أولي النجدة والمراس، ممّن لا يهولهم باس، وقدّم عليهم جوهراً عبده، الكاتب، وحسن بن عليّ عامل صقلّية، وأنفذ الأساطيل، وأمر بكون العساكر في كلّ مرسى بطريق الأندلس[94].

وأقبـل أسطول الـروم فلقي أساطيـل[95] أميـر المؤمنين في صقليّة. وأقبل أسطول بني أميّة لميعاد المشركين. وفتح الله لوليّه على الروم فانهزموا في البحر، بعد أن وقعت بينهم وبين عسكر أمير المؤمنين وقعة عظيمة ومعركة شديدة قتل فيها وغرق خلق عظيم من الروم. وولّوا هاربين بين يدي أساطيل أميـر المؤمنين (عم) إلى مجاز ريّة[96] ليحموا بلدهم، واتّبعَتْهم فيما هنالك، فلقوهم في البحر أيضاً فهزموهم وفلّ الله شـوكتهم. ونزلت عسـاكر أميـر المؤمنين

---

(94) تختلف رواية الداعي إدريس عن كلام النعمان، بإضافة اسم جوهر قائداً على الأسطول. ولا ذكر لحملة بحريّة قادها جوهر في كتب التاريخ، ما عدا إشارة من ابن الخطيب (ج 3 من أعمال الأعلام، ترجمة رفائيلا كستريلو، 32) تقول إنّ القائم بأمر الله جهّز أسطولاً إلى جنوة بقيادة جوهر، ولعلّ ابن الخطيب خلط بين جوهر وجعفر بن عبيد. وقد ذكر ابن الأثير، 249/6 حملة جنوة تحت سنة 323، ولم يذكر جوهراً فيها.

(95) الأساطيل هنا بمعنى المراكب. انظر دوزي في المادّة.

(96) مجازريّة أو ريو: اليوم مجاز مسينا الفاصل بين صقلّيّة ومقاطعة قلوريّة Reggio di Calabria من جنوب إيطاليا. والواقعة التي يروي المؤلّف تفـاصيلها بخـطابته المعهـودة دارت سنة 956/345، وهي غيـر وقعـة «المجـاز» التي تلت وقعـة «الحفرة»، وكانت انتصاراً للفاطميّين برّاً ثمّ بحراً سنة 353. وإلى هذه الوقعة الثانية يتعرض ابن هانىء في قصيدته اللامية الآتية بعد قليل، خلافاً لما يوهم به سياق الكلام عند المؤلف.

بأرضهم وأكثرت القتل فيهم، وأحرقت مدائنهم، وأخربت كنائسهم، ونالت فيهم غاية الأمل من النكاية.

قال الحسن بن جعفر الأنصاريّ في تاريخه: «فقتل الروم قتلاً ذريعاً ما سمع بمثله إلاّ في وقعة اليرموك مع الروم بالشام عند طبريّة»[97].

وانتهى أسطول بني أميّة إلى بعض مراسي المغرب الخالية القليلة العدد فنزلوا بها يريدون أن يُؤثروا أثراً يرجعون به إلى بلدهم ليسكُنوا به مَن خلفَهُم، فخرج إليهم أهلُ تلك النّاحية فقتلوا منهم بشراً كثيراً فهزموهم فمات في البحر أكثرُ ممّن قُتل، وغنِموا ما كان معهم من السّلاح، ووجّهوا برؤوس مَن قتلوه وبما غنِموا. واتّصل بأهل الأندلس خبر الرّوم فانصرفوا منكوبينَ خاسرينَ.

44/2

وقعة مجاز ريّو سنة 345

ووصل البريد إلى أمير المؤمنين المعزّ لدين الله، وقد خرج للتنزّه، وهو في جحفل عظيم، فنزل عن فرسه وخرّ ساجداً لله (تع) شكراً وتواضعاً، وعفّر وجهه الشريف في التراب. فقال محمّد بن هانىء الأندلسيّ الأزديّ يصف الفتح وانهزام الدمستق ومن قتل معه من الروم النصارى، ووصول البريد، ويمدح أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (كامل):

يومٌ عريضٌ في الفَخارِ طَويلُ ... ما تَنقَضي غُرَرٌ لـهُ وحُجُول
يَنجابُ منهُ الأفْقُ وهو دُجُنّةٌ ... ويَصِحُّ منْهُ الدهرُ وهو عليلُ
مَسَحَتْ ثُغورُ الشامِ أدمُعَها بهِ ... ولقد تَبُلُّ التُّرْبَ وهي هُمُول

---

(97) قول الحسن الأنصاريّ هذا ورد في الهامش، ولا ندري هل هو من متن الكتاب أصلاً. على أنّ المطبوع أورد أيضاً هذه الفقرة (ص 63) ولقّب المؤرّخ بـ «الهلالي». وانظر ما قلناه عن هذا المؤرخ ص 497.

وجَـلا ظَلامَ الـدِّين والدُّنْيا بـهِ مَلِكٌ لِمَا قـال الكِـرامُ فَعُـول

5 مُتَكَشِّفٌ عـن عَـزمَـةٍ عَلَوِيَّـةٍ للكُفْـرِ مـنهـا رنَّـةٌ وعَـويـل

فَلَوَ انَّ سُفْنـاً لم تُحمِّلْ جَيْشَهُ حَمَلَتْ عـزائمُـهُ صَبـاً وقَبـول

ولـوَ انَّ سَيْفاً لَيسَ يَبْتِكُ حَدُّهُ جَـذَّ الـرِّقـابَ بكَفِّـهِ التَّنـزيـل

مَلِكٌ تَلَقَّى عن أقـاصي ثَغْـرِهِ أنبـاءَ ذي دُوَلٍ إليـه تَـدول

بُشْـرَى تَحَمَّلُهـا اللّيـالي شُـرَّداً خَيرُ المَساعي الشاردُ المحمول

10 تـأتي الوُفُـودُ بها فـلا تَكرارُهَـا نَـصَبٌ ولا مـقـرونُهَـا مـملول

ويكـادُ يَلقـاهم على أفـواهِمْ قبـلَ السَّماع الـرَّشْفُ والتَّقبيـل

يجلو البشيـرُ ضياءَ بِشْـرِ خَليفةٍ ماءُ الهُدى في صَفحَتَيـهِ يجولُ

* * *

للهِ عَـينَـا مَـن رَأى إخبـاتَـهُ لمّـا أتـاهُ بَـريدُهـا الإجْفِيـل

وسُجودَه حتى التقى عَفْرُ الثرى وجَـبينُـهُ والـنُّـظْمُ والإكـليـل

15 لم يَثْنِـهِ عِـزُّ الخِـلافَـةِ والعُلى والمجْـدُ والتَّعـظيمُ والتبجيـل

بينَ المواكبِ خاشِعاً مُتَواضِعاً والأرضُ تَخشَـعُ بالعُلى وتَميـل

فتَيَمَّمُـوا ذاكَ الصَّعيـدَ فـإنّـهُ بـالمِسـكِ من نَفَحـاتِـهِ معلول

سيَصِيرُ بعـدَك لـلأئمّـةِ سُنّـةً في الشكر ليس لمثلها تحـويل

من كانَ ذا إخلاصُهُ لم يُعْيِهِ في مُشْكِـلٍ رَيْثٌ ولا تعجيـل

20 لو أبصرَتـكَ الرّومُ يـومئذٍ دَرَتْ أنّ الإلٰـهَ بمـا تَشـاءُ كَـفيـل

يا لَيْت شِعري عن مَقَاوِلِهم إذا سمعتْ بذلك عنك، كيفَ تقولُ؟

ودُّوا وَداداً أنَّ ذلـكَ لم يَكُنْ صِدْقاً وكـلُّ ثـاكِـلٌ مَثكـول

هـذا يـدُلُّهُمُ على ذي عَـزْمَـةٍ لا فيـهِ تسليمٌ ولا تـخـذيـل

أنْتَ الـذي تَرِثُ البِـلادَ لَدَيْهِمُ فالأرضُ فَألٌ والسجودُ دَليل (ط 66)

* * *

25 قُلْ للدُّمُسْتُق مُورِدِ الجمعِ الذي مـا أصْـدَرَتْـهُ لـه قنـاً ونُصُـول

سَلْ رَهطَ مَنويـلٍ وأنتَ غَرَرْتَـهُ في أيِّ مَعـركَـةٍ ثَـوى مَنـويل؟

منَعَ الجنودَ من القُفـول رواجعاً تَبّـاً لـهُ بـالمُنْـدِيـاتِ قُفُول!

شعر ابن هانىء في الإشادة بوقعة المجاز...

45/2

لا تُكذَبَنَّ! فكُلُّ ما حُدِّثتَ مِن خَبَرٍ يَسُرُّ فإنّهُ منحول
وإذا رأيتَ الأمْرَ خالَفَ قَصْدَهُ فالرأيُ عن جِهَةِ النُّهَى مَعدول
30 قد فالَ رأيُكَ في الجلاد ولم تزَلْ آراءُ أغمارِ الرِّجالِ تَفِيل
ويعثتَ بالأسطول يحملُ عُدّةً فأثابَنا بالعُدَّةِ الأسطول
ورمَيْتَ في لَهَواتِ أُسْدِ الغابِ ما قد باتَ، وهيَ فَريسَةُ مأكول
أدّى إلينا ما جمعْتَ مُوَفَّراً ثمّ انثنى في اليَمِّ وهو جَفول

حتى قال في قصيدته فيما يقول:

إنّ التي رامَ الدُّمُستُق حَربَها للهِ فيها صارمٌ مسلول
لا أرضُها حَلَبٌ، ولا ساحاتُها مِصْرٌ، ولا عَرْضُ الخليجِ النِّيل
55 ليْتَ الهِرَقْلَ بدا بها حتى انْثَنى وعلى الدُّمُستُقِ ذِلّةٌ وخُمول...
فلْتَعْلَمِ الأعلاجُ عِلماً ثاقِباً أنّ الصّليبَ وقد عَزَزْتَ ذليل
70 وليَعْبُدُوا غيرَ المسيحِ فليس في دينِ الترَهُّبِ بعدها تأمِيل
ما ذاك ما شهِدَتْ له الأسرَى بهِ إذ يَهْزأُ الطّاغي بهِ الضِّلِّيل (ط 67)
بَرِئَتْ منَ الإسلامِ تحتَ سيوفِهِ ألاّ اعْتِدادَ الصّبر وهو جميل؟
سلكتْ سبيلَ المُلحِدينَ ولم يكُنْ من بعد ذاكَ إلى الحياةِ سبيل

حتى يقول في مدح أمير المؤمنين:

مَن يهتدي دونَ المعِزِّ خليفَةً إنّ الهِدايةَ دونَهُ تضليل!
مَنْ يَشْهَدُ القرآنُ فيه بفضلِهِ وتُصَدِّق التّوراةُ والإنجيل
105 والوَصْفُ يُمكِنُ فيهِ إلاّ أنّهُ لا يُطْلَقُ التّشبيهُ والتّمثيل
والناسُ إن قِيسوا إليه فإنّهُمْ عَرَضٌ له في جوهرٍ محمولُ
تَرِدُ العيونُ عليه وهي نَواظِرٌ فإذا صَدَرْنَ فإنّهُنَّ عقول
غامَرتُهُ فعَجَزتُ عن إدراكِهِ لكنّه بضمائري معقول
كلُّ الأئِمّةِ من جُدودِكَ فاضِلٌ فإذا خُصِصْتَ فكُلُّهُمْ مفضول
110 فافخَرْ فمِن أنسابكَ الفِرْدَوسُ إن عُدّتْ، ومن أحسابكَ التنزيل
وأرى الورى لَغْواً، وأنتَ حقيقةٌ ما يَستوي المعلومُ والمجهول

شَهِدَ البريّةُ كلُّها لكَ بالعُلى   إنّ البريّةَ شاهدٌ مقبول
واللهُ مدلولٌ عليهِ بصُنْعِهِ   فينا، وأنْتَ على الدّليلِ دَليل[98]

وقال أيضاً يمدح الإمام المعزّ لدين الله (صلع) ويذكر خيبة/ 46/2
بني أميّة وقصورهم فيما تطاولوا إليه[99] [بسيط]:

أَلُؤلُؤٌ دَمْعُ هذا الغيثِ أم نُقَطُ؟   ما كان أحْسَنَهُ لو كان يُلتَقَطُ!
بينَ السّحاب وبين الريحِ مَلْحَمَةٌ،   قعاقعٌ وظُبىً، في الجوِّ، تُخْتَرَطُ
كأنّه ساخِطٌ يَرضى على عَجَلٍ،   فما يدومُ رِضىً منه، ولا سَخَط (ط 68)
أهْدى الربيعُ إلينا روضةً أُنُفاً،   كما تَنفَّسَ، عن كافورِهِ، السَّفَط
5 غمائمٌ، في نواحي الجوِّ، عاكفةٌ،   جَعْدٌ، تَحَدَّرَ منها وابلٌ سَبِط
كأنَّ تَهْتانَها، في كلِّ ناحِيَةٍ،   مَدٌّ من البحرِ، يعلو ثم ينهبط
والبَرقُ يَظهَرُ في لألاءِ غُرَّتِهِ،   قاضٍ، من المُزْنِ، في أحكامه شَطط
وللجديدَين، من طولٍ ومِن قِصَرٍ،   حَبْلانِ: مُنقبضٌ عنّا ومُنبَسِط
والأرضُ تَبْسُطُ في خدِّ الثرى ورَقاً،   كما تُنَشَّرُ، في حافاتها، البُسُط
10 والريحُ تَبْعَثُ أنفاساً معطّرةً،   مثلَ العبيرِ، بماءِ الوَردِ يختلط
كأنّما هي أنفاسُ المُعزِّ سَرَتْ،   لا شُبْهَةٌ للنّدى فيها، ولا غلَط
تاللهِ! لو كانتِ الأنواء تُشْبِهُه،   ما مَرَّ بُؤسٌ على الدنيا، ولا قَنَط
شَقَّ الزمانُ لنا عن نورِ غُرَّته،   من دولةٍ، ما بها وَهْنٌ ولا سَقَط
حتى تسلّط منه، في الورى، مَلِكٌ،   زِينت بدولته الأملاكُ والسُّلَط
15 يَخْتَطُّ، فوق النجوم الزُّهر، منزلةً،   لم يَدْنُ منها، ولم يُقْرَنْ بها الخِطَط
إمامُ عدْلٍ وَفَى في كلِّ ناحيةٍ،   كما قَضَوْا في الإمام العدلِ، واشترطوا
قد بانَ بالفضلِ عن ماضٍ ومُؤتَنِفٍ،   كالعِقْدِ، عن طَرَفيه، يَفضُلُ الوسَط
لا يغتدي فَرِحاً بالمالِ يجمعه،   ولا يبيتُ بدُنْيا، وهو مغتبط (ط 69)

(98) القصيدة 40 من طبعة زاهد علي، وفي طبعة صادر، ص 256.
(99) القصيدة 26 من طبعة زاهد علي، وفي طبعة صادر، ص 184، والتوطئة منقولة من الديوان.

لكنّه ضِدُّ ما ظنَّ الحسُودُ بـه، وفوقَ ما ينتهي غـالٍ ومُنبسِط
يُزري بفَيض بحار الأرض، لوجُمعتْ، بنـانُ راحتـه المُغلَولِبُ، الخَمِط
20 وجْهٌ، بجَوهرِ ماءِ العرش، مُتَّصِلٌ؛ عِرْقٌ، بمحضِ صريحِ المجدِ، مرتبط
شمسٌ من الحقِّ، مملوءٌ مطالعُها، لا يهتدي نحوها جَورٌ، ولا شَطَط
يُرَوِّعُ الأسْدَ منه، في مَكامِنِها، سيفٌ له، بيمينِ النّصرِ مخترَط

* * *

خابت أُميّةُ منه بالذي طلبتْ، كما يَخيبُ برأسِ الأقرَعِ المُشُط
25 وحاولوا من حضيض الأرض، إذ غضبوا، كواكباً، عن مرامي شأوها شَحَطوا
هذا، وقد فرَّقَ الفُرقانُ بينَكما، بحيثُ يفترقُ الرِّضوانُ والسَّخَط
الناسُ غيرُكمُ، العُرقوبُ في شَرَفٍ، وأنتُمُ، حيثُ حَلَّ التاجُ والقُرُط
ولستُ أشكو لنفسي في مودّتكم، لأنكُم، في فؤادي، جيرةٌ خُلُط

.. وفي التهكّم ببني أميّة أحلاف الروم

* * *

ياأفضلَ الناس، من عُربٍ، ومن عَجَمٍ، وآلِ أحمدَ، إن شَبُّوا، وإن شَمِطوا
30 لِيَهْنَكَ الفتحُ، لا أنّي سمعتُ به؛ ولا على الله، فيما شاءَ، أشترِط
47/2 /لكن تَفاءلتُ، والأقدارُ غالبةٌ، والله يَبسُطُ آمالاً، فتنبسط
ولستُ أسألُ إلاّ حاجةً بَلَغتْ، سُؤلَ الإمامِ بها، الرُّكّاضةُ النُّشُط
من فوقِ أدهَمَ، لا يَجتازُ غايتَه نجمٌ، من الأفقِ الشمسيِّ، منخرط (ط70)
يَحثُّه راكبٌ، ضاقتْ مذاهبُه، بادي التشحُّبِ، في عُثنونه شَمَط
35 إنَّ الملوكَ، إذا قيسوا إليك معاً، فأنت، من كثرةٍ، بحرٌ، وهم نُقَط

سفارة بيزنطيّة تطلب هدنة

وأرسل ملك الروم إلى أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (صلع) بأموال جليلة وهدايا عظيمة، ورغب في التوقّف عمّن بقي من الروم بأرض قلوريّة، على مال قطعه على نفسه يؤدّيه، وجزية يحملها إلى أمير المؤمنين، وأسرى من أسرى الشرق المسلمين يطلقهم.

ورأى ذلك أمير المؤمنين صلاحاً للدين وللمسلمين بعد أن أقدره الله وأمكنه وشفى صدره وصدور المؤمنين به[100].

(100) استأنف إدريس النقل عن المجالس والمسايرات، 167 .

قال القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه): والـذي قدم إلى المعزّ بطريق من بطارقة الروم وأشرافهم، رسولاً من طاغيتهم صاحب القسطنطينيّة، بما أوجبه على نفسه من مغرم الجزية عن أهل أرض قلوريّة. وجاء منه بهدايا كثيرة من آنية الذهب والفضّة مرصّعة بالجواهر، وديباج وحـرير، وغيـر ذلك[101] من نفيس مـا عندهم، وبكتاب من مرسلهم يخضع فيه إلى أمير المؤمنين (عم) ويرغب ويسأل، ويطلب الكفّ عن حربه ويسأل الموادعة. وبعث بعدد كثير من أسرى أهل الشرق، [مـ]ـمّا لم يكن قطّ قبل ذلك طاغية الروم بعث بمثلهم إلى ملك من ملوك المغرب، ولا إلى أحد ممّن مضى من الأئمّة قبل المعزّ (ص)، ولا [كـ]ـان طاغية الروم يؤدّي خراجاً ولا جزية عن أهل مملكته إلى غيره (صلع). فقبّل ذلك الرسول الأرض مراراً بين يدي المعزّ لدين الله (ص) ومثل بين يديه، وأدّى إليه رسالة مرسله ودفع إليه كتابه واستأذنه في إدخال هديّته، وذلك بعد أن أوصل مال الجزية إلى عامل صقلّيّة على الرسم الجاري في ذلك.

فأذن له أمير المؤمنين (صلع) في إدخالِها وأسعفه بقَبُولها وكان أكثرُ ما أدّى إليه الرسول عن طاغية الروم وما جاء في كتابه إليه سؤاله الهدنة مؤبّدةً على ما أجراه من/ الخراج والجزية على أهل قَلْوَرِيّةَ، وبأن يرسِلَ رسولاً من قِبَله ليُسَرَّ بذلك ويفْعَلَ فيه ما يجِبُ على مثله لمحبّته بزعمه. 48/2

فأجاب المعزّ (صع) رسوله عن ذلك بأنّ الدينَ والشريعـةَ يمنَعان منَ الذي سألَه من الهُدْنَة المؤبّدة لأنَّ الله (عج) إنّما ابتَعَثَ محمّداً رسوله (ﷺ) وأقام الأئمّة من وَلَدِه من بعده يدعُون إلى دِينه

المعزّ يرفض الهدنة الدائمة..

(101) في المجالس، 367: وبرذون وغير ذلك.. وحذف الداعي إدريس البرذون.

ويجاهدُون مَن خالفَه حتّى يدخُلُوا فيه أو يُعْطُوا الجزية عن يدٍ وهم صاغِرُون داخلُون في حكم إمامِ أهلِ الإسلام وذِمّتِه، وأَنَّ الموادعةَ إنَّمَا تجوز لمُدّةٍ معلومةٍ على ما يراه إمام المسلمين صلاحاً لهم وللدِّين، ولو كانت مؤبّدَةً لبطَل الجهاد المفروضُ على العباد، وانقطعَتْ دعوةُ الإسلام وخولِفَ حكمُ الكتابِ.

وعرّفه أنّه ممّا ينبغي لمثل من كان في محلّ مَلِكِه الذي أرسلَه ألاّ يغيبَ عنه مثلُ هذا من شريعة مَن يخاطِبُه ويكاتِبُه وألاّ يسألَ ما لا تُوجِبُهُ الشريعة لمن يسألُه.

(قال): فاعترف العلجُ بذلك على مُرسِلِه وسأل الزيادةَ في مدّة الهُدنة عنه له.

فقال المعزّ (ص): جوابُ هذا ما ذكرنا له في كتابنا[102] أنّه ما دام على ما شَرَطْنَاهُ عليه وأوْجَبَهُ لنَا على نفسِه لم نبدَأه بحرب حتّى ننبُذَ إليه عهدَه، أو بعدَ أن تنقضيَ مدّةُ الموادعةِ بيننا وبينَه، لا نخفُرُ ولا نغدِر كما تخفُرون أنتم وتغدِرُون.

وعدّد عليه أشياءَ من ذلك فعَلُوها، فاعتذر منها عن ملِكِه بأنّ ذلك لم يكن عن علمه وأنّه أنكَرَه وطالَبَ مَنْ فعَلَهُ فأعجزه.

فقال له أمير المؤمنين المعزّ (صلع): فإذا كان الأمر على ما تصِفُه من ملكِك أنّه يُغْلَبُ على أمره ويعجِزُ عمّن خالَفَه وغلَب عليه من أهل مِلّته، فأيّ فائدةٍ في موادعَتِهِ إذا كان عاجزاً مَغْلُوباً؟.

(102) في المجالس، 368: في كتابنا المقدّم معك قبل اليوم إليه. فهذه إذن وفادة ثانية للمبعوث نفسه (انظر الدشراوي: الخلافة، 243 و250، وكتاب شلومبرجي عن نقفور فقاس، 468). والوفادة التي يرويها النعمان هنا وينقلها عنه المؤلّف هي سفارة سنة 969/358، في عهد الدمستق نقفور فقاس. أمّا السفارة الأولى، فعلى عهد قسطنطين السابع.

.. ويعرض على المبعوث عقداً يهمّ واجهتي الشام وقلوريّة..

ولكن هل لَكَ ولَهُ في أن أعقِدَ له ما يتّفِقُ معي على عَقْدِهِ، على مَن يَرى أنّه في غير مملكتي ممَّنْ يقاتلُه من أهل المشرق كابن حِمْدَانَ وغيرِه؟. فإن خَرَجُوا عمَّا أعقِدُه عليْهم فلا عَقْدَ بيني وبينه. فأمّا مَن حَوَتَهُ مملكتي وحدود طاعتي فقد علم وعلمتَ أنّهم أقدُر على أهلِ دينِه ومملكتِه وبلده ـ لو قد أرادوا الخَفْرَ والغَدْرَ ـ منهم. فهل بلَغَهُ أو/ بلغَكَ أنّ أحَداً منهم تعدّى لي، فيما جعلتُه له، أمراً وخالفَ شيئاً منه؟

49/2

فجعل العلج يعترف بذلك وبالفضل لوليّ الله (ص) ويسألُهُ ويرغَبُ إليه. فأعرض المعزّ عن جوابه عن ذلك وجعل إيسألـه عن كيف الحـال بينهم وبين أهـل طـرسـوس وابنِ حمـدان في حروبهم ومعاملتِهم إيّاهم، في حديث أطاله. وكـان ذلك العِلجُ يُجيبه عمّا يسأله من ذلك عنه[103]. فنظر بعضُ مَن في المجلس إلى بعضٍ كمَن لا يدري ما معنى السؤالِ عن ذلك والمفاوضةِ فيه. ثمّ عاود العلجُ في سؤال رسولٍ يرسِلُه إلى مَلِكِهِ وذكرَ له تواتُرَ رسِلهِ عليه وعلى آبائه مذ أفضى الله (عج) بالأمرِ إليهم وأنّه لم يَمْضِ (ط 73) رسولٌ منه ولا مِنْهُم إليه.

.. ويرفض إرسال سفير عنه إلى ملك الروم

فقال المعزّ (ص): إنّ أحداً من الناس لا يرسل رسولاً إلى أحد إلّا لحاجةٍ تعرض له إليه أو لأمر يجب له عليه. ونحن بحمد الله، فلا نعلَمُ أنّ لنا إلى صاحبك من حاجة ولا له علينا واجبٌ. فلماذا نُرسِلُ إليه؟ اللهمّ إلّا أن يكونَ أمراً من أمور الدين ينبغي لنا مراسلتُه ومفاوضتُه فيه وهـو من المُباحِ في دينه، ولكنّا نظنُّ أنّه يكبُر عليه. فإن نحن أرسلْنا فيه إليه، فعلمتَ أنّه يجيبُنـا فيه، سهُل علينا أن نرسلَ إليه رسولاً كما سألَ وسألتَ عنه. فلولا أنَّ ذلك لله

(103) أي: عمّا يسأله عنه من ذلك، والثقل ناتج عن التأخير، وهـو من القاضي النعمان.

(عج) ولدينه لم نفْعَل ذلك، ولا ينبغي لنا أن نفعلَه، إلاّ بعد أن يتحقّقَ عندنا أنّه يجيبُ إليه، لأنّا لا نرى أن نَسْألَ أمراً، وإن كان لله (عج) فَنُجْبَهَ[104] فيه. وَلأنَّ ذلك، لو كان، لكان سوءُ عاقبته عليه. ونحن لا نُلزِمُك الجواب في ذلك عنه، والقطع فيه عليه، إذ ذلك ممّا لا يَلْزَمُك ولا ينبغي لك، ولكنّا سنأمُرُ بذكرِ ما نريد ذكرَه لك وتَنْصرِف وتقف على ذلك منه لأنّه أمرٌ كبير. فإذا علمت منه بالحقيقة أنّهُ يجيب عنه، عرّفتَنا ذلك عنه فيسهُل علينا أن نُرسل فيه إليه. ولو كان ذلك فيما تحويه الدنيا بحذافيرها واشتملت عليه بأقطارها، لما سهُل علَينا أن نرسلَ فيه رسولاً من قِبَلنا. ولكنّه لمّا كان لوجه الله (عج) وابتغاء ثوابِه سهُل علينا ووجَب لدينا.

فاستعظم العلج القولَ في ذلك وأقبل على أمير المؤمنين بالمدح/ والشكر حتّى خرَج في قوله ذلك إلى الكفر والتشبيهِ الذي يعتقدُه. فردّ ذلك المعزّ (صلع) عَليه وتواضع لله (عج) كما يجب أن يتواضع له، وعرّفه ذلك ليعلم أنّه لم يرضَهُ من قوله وإن كان عند نفسه إنّما قصد به تعظيمَه ورأى أنَّ ذلك ممّا يجوزُ عنده. ثمّ أمره (صلع) بالانصراف إلى المكان الذي (ط 74) أنزلَه فيه، فانصرف.

50/2

ثمّ عطف على من كان في المجلس كأنّه اطّلع على ما كان في قلوبهم، فقال: «لعلّ بعضكم أنكر ما أطلْنَا سؤَالَه عنه عن أمرهم مع أهل المشرق؟ ولم نُرِد بذلك منه الحديثَ والمذاكرةَ، ولكنّي علِمتُ أنّه رسولٌ قد لُقِّنَ ما يقول وأوقِفَ عليه، وعلى ما يُجيب فيه ممّا قد لعلّ مُرسِلَه علِم أنّه سيُسألُ عنه. فأتيْناه من مكان نَعلمُ أنّه لم يُتَقَدَّمْ إلَيْهِ فيه، ولم يعلَمْ مرسلُه أنّه يُسأل عنه، حتّى أخذْنا منه مِن قِبَله مَا تقوم به حُجَّتُنَا عليه من وجه كذا ووجه كذا». وعدّد وجوهاً

---

(104) جبهه بالمكروه: استقبله به فأصابته الجبهة، أي المذلّة. والمعزّ، بهٰذا الجواب الملتوي، يقترح على الامبراطور مناظرةً في الدين.

كثيرة ممّا سمعناه جرى بينهُما لم ندرِ أنّ في ذلك حجّةً حتّى ذكره (صلع) فإذا فيه حجج وكيدة لم تظهر لإحدٍ ممّن حضر إلاّ عند ذكره إيّاها وبيانه لها.

فقبّلوا الأرض بين يديه وأظهروا السرور بما وهب الله من التأييد له وأمدّه من الحكمة والعلم به. وكان ذلك منه (صلع) بعد أن سألهم ما رأوْه في مخاطبته إيّاه فيما خاطبه، وما توهّموه في مراده بذلك، فلم يكن عند أحدٍ منهم عِلمٌ من ذلك. ثمّ سألهم هل فيما سمعوهُ منهُ حُجّةٌ يرَوْنَ أنّها تقوم عليه أو على مرسله؟ فما علِمَ أحدٌ منهم ذلك. فبعد ذلك قال ما قاله لهم ممّا ذكرته عنه (صلع).

هذا قول القاضي النعمان[105] فيما ثبت وروده عنه.

وقال محمّد بن هانىء المغربيّ يمدح أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (ص) ويذكر ورود رسل الروم يضرعون في الصلح:

(طويل)

شعر لابن هانىء في ذكر سفارة أخرى

ألا طَرَقَتْنا، والنُّجومُ رُكُودُ، وفي الحيِّ أَيْقاظٌ، ونحن هُجُودُ

وقد أَعْجَلَ الفجْرُ المُلَمَّعُ خَطوَها، وفي أُخرَياتِ اللَّيل منه عَمودُ

سَرتْ عاطِلاً، غَضبى على الدُّرّ وحدَه، فلم يدرِ نحرٌ ما دَهاه، وجِيد

فما بَرِحَتْ، إلاّ ومن سلكِ أدمُعِي قلائدُ في لَبّاتِها، وعُقود (ط 75)

5 /وما مُغْزِلٌ أدْماءُ، دانٍ بَريرُها، تَرَبَّعُ أَيْكاً ناعِماً، وتَرُود

51/2

بأحسنَ منها، حينَ نصَّتْ سوالِفاً، تَرُوعُ إلى أَتْرابِها وتَحِيد

ألم يأتها أنّا كَبُرْنا عن الصِّبَا، وأَنّا بَلِينا، والزَّمانُ جَديد؟

فليتَ مَشيباً لا يزالُ، ولم أَقُلْ، بكاظمةٍ: ليتَ الشبابَ يعُودا

---

(105) المجالس والمسايرات، 367 - 370. وقد نشر فرحات الدشراوي هذه الفقرات في حوليّات الجامعة التونسيّة، عدد 1965/2 ص 28 - 31.

(106) القصيدة 13 من طبعة زاهد عليّ، وفي طبعة صادر: ص 96.

ولم أرَ مثلي، ما له من تجَلُّدٍ؛ ولا كجفوني، ما لهُنَّ جُمُود

10 ولا كالليالي، ما لهُنَّ مواثِقٌ؛ ولا كالغواني، ما لهنَّ عُهُود

ولا كالمُعزِّ، ابْنِ النبيِّ، خليفةٌ، له الله، بالفضلِ المبينِ، شَهيد

وما لسماءٍ أنْ تُعَدَّ نجومُها، إذا عُدَّ آباءٌ له وجُدود

فأسيافُه، تلك العواري نصولُها، إلى اليوم، لم تُعْرَفْ لهنَّ غُمود

ومِنْ خَيْلِه تلك الجوافِلُ، إنَّها إلى الآن لم تُحطَطْ لهنَّ لُبُود...

إلى أن قال فيها:

ألَا في سبيلِ الله تبذُلُ كلَّ ما تَضِنُّ به الأنواءُ، وهْيَ جُمُود

فلا غَرْوَ أنْ أعزَزتَ دينَ محمَّدٍ، فأنتَ له، دونَ الأنامِ، عقيد

60 وباسمِكَ تدعوهُ الأعادي، فإنَّهم، يُقِرُّونَ حَتْماً، والمُرادُ جُحود

غَضِبتَ له أنْ ثُلَّ، بالشامِ، عرشُه، وعادَكَ، من ذكرِ العواصم، عِيد

فبتَّ له، دونَ الأنام، مُسَهَّداً، ونام طليقٌ خائنٌ، وطريد[107]

بِرَغْمِهِمُ أنْ أيَّدَ الحقُّ أهلَه؛ وأن باءَ، بالفعلِ الحميدِ، حميد

فللوحي منهم جاحِدٌ ومكذِّبٌ، وللدين منهم كاشِحٌ وعَنود

65 وما سرَّهم ما ساءَ أبناءَ قيصَرٍ، وتلك تِراتٌ لم تزَلْ، وحُقود

هُمُ بَعُدوا عنهم، على قُربِ دارِهم، وجَحْفلُك الدّاني، وأنت بَعيد

وقلتُ: أناسٍ ذا الدمستقُ شكرَه، إذا جاءه، بالعفو منك، بَريد

وتقبيلَه التربَ، الذي فوق خدِّه إلى ذِفْرَيَيْهِ، من ثَراهُ، صَعِيد

تُناجيك عنه الكُتْبُ، وهي ضَراعةٌ، ويأتيك عنه القولُ، وهو سُجود

70 إذا أنكرتْ فيها التراجمُ لفظَه، فأدْمُعُه، بين السُّطورِ، شُهود

لياليَ تَقفو الرُّسْلَ رسلٌ خواضعٌ، وتأتيك، من بعد الوفود، وفود...

(107) الطليق: كناية عن العبّاسيين، وقد كان جدّهم الأعلى العباس أسر في بدر ثم أطلق. والطريد كناية عن بني أمية وكان جدّهم مروان بن الحكم لعين رسول الله (ﷺ) وطريده من المدينة.

ويقول فيها:

فليتَ أبا السبطين، والتربُ دونه، يَرى كيف تُبْدي حُكْمَه وتُعيد
90 ومَلْكَكَ ما ضمَّتْ عليه تهائمٌ، ومَلْكَكَ ما ضَمَّتْ عليه نُجود
وأَخذَكَ قسراً، من بني الأصفر، الذي تَذبذبَ كِسرى عنه، وهو عنيد[108]
إذاً لرأى يُمناكَ تخضِب سيفَه، وأنتَ عن الدِّين الحنيفِ تَذود
شهدتُ! لقد أوتيتَ جامعَ فضلِه، وأنتَ، على علمي بذاكَ شَهيد
ولو طُلِبَتْ في الغيثِ منكَ سجيَّةٌ، لقد عَزَّ موجودٌ، وعزَّ وُجود (ط 77)
95 /إليك يفرُّ المسلمونَ بأسرِهم، وقد وُتِروا وَتْراً، وأنتَ مُقيد 52/2
وإنَّ أميرَ المؤمنينَ كعهدهم، وعندَ أميرِ المؤمنينَ مزيد

ولم يزل ملك الروم يردِّد رسله وبطارقته إلى أمير المؤمنين ويتضرّع بألطافه وهداياه في طلب الهدنة. وهو نقفو[ر][109]. ولأمير المؤمنين المعزّ لدين الله (عم) كتاب ألّفه وأرسل به إليه في الحجّة على النصارى في إثبات ما جحدوه من نبوة محمد (ﷺ)، وما يشهد بذلك ممّا في التوراة والإنجيل وفي صحف الأنبياء، [مـ] ـمّا لم يعرفه إلاّ أولياء الله (صلع) ولا يوجد علمه إلاّ عندهم، وهو كما قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (صلع): «لو ثُنيت لي وسادة، لحكمتُ بين أهل التوراة بتوراتهم، وأهل الإنجيل بإنجيلهم». ولا شك أن ذلك السيل من ذلك الجبل، وهل ينبت الخطّيَّ إلاّ الأسل؟

«الرسالة المسيحيّة» من المعزّ إلى طاغية الروم

---

(108) بنو الأصفر: الروم.

(109) في المخطوط: يقفو، وفي هاشمه: يعفو وفي المطبوع: وهو يتوسل إلى. ونظنّ أنّه اسم الأمبراطور البيزنطي - الدمستق نقفور فقاس - الذي ارتقى إلى العرش سنة 963/352.

والرسالة المشار إليها هنا هي «الرسالة المسيحية» المنسوبة إلى المعز خطأ (انظر: البيبليوغرافيا القرمطيّة لماسينيون، رقم 19، وفهرس دي سلان للمكتبة الوطنية بباريس رقم 131). وقولة عليّ الآتية توجد في شرح النهج 923/5 رقم 242.

ولا تؤخذ الجواهر إلّا من معادنها، ولا يوجد اللجين والعِقيان إلا في خزائنها[110]. ولو ردّت الأمّة الكتـاب إلى الله وإلى الرسـول لعلموا، ولو سلّموا في الطاعة لولاة الأمر من آل محمد لسلِموا. ولكنهم رضُوا بالحياة الدنيا عن الآخرة، فآبوا بالصفقة الخاسرة، وتولّوا غيرَ العترة الطاهرة، وقدّموا برأيهم الطُغاة الجبابرة، بغير نصّ من رسول عليه يُعوِّلون، ولا بردّ إلى أهل الذكر الذين هم عن المشكلات يُسألون، فتعساً لهم! ولا يخسر إلا المبطلون!.

وهذا الكتاب الذي أمر به أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (عم) إلى صاحب الروم معروف موجود، مباحٌ لمن أراد الاطلاع عليه والورود[111].

ولما انتهى إلى الأمويّ صاحب الأندلس أمرُ الروم ومطالبة ملكِهم في الصلح، ساءه ذلك وكثر وجله، وخاف الوقعة به. قال القاضي النعمان: «... فدسَّ رسولاً من قبَلِه، وكتب كتَاباً على لسان بعض رجاله إلى بعض رجال أميـر المؤمنين في المـوادعـة (ط 78) والصُّلح وكفّ الحرب، ويذكر ما يُتوقّع في ذلك من سفك دماء المسلمين واشتغال بعضهم ببعض عن غزو المشركين. وجاء الرسول بالكتاب وأدّى بلسانه عن صاحبه ما لم يَرِد الكتابُ بِه من طلب الصلح والألفة وكفّ الحرب والفتنة. وذكر الرسول ذلك لأميرِ المؤمنين (صلع) شفاهاً. فقال له:

الناصر الأمويّ يطلب الصلح بطرق ملتوية..

53/2

أمّا تخوّفه من الحرب والفتنة وسفك الدماء، فما ظهر منّا ما يتخوَّفُ منه ذلك، وما نحن بمن يُؤمِّنُه منه. ولكن بغى علينا مَن بغى من أهل عمله فانتَصَرْنَا بالله فنصرَنا اللّهُ وبلّغنا فوق آمالنـا،

(110) يستعمل الداعي إدريس «الخزائن» في معنى معدن الشيء وموضع خزنه. وهذه الجمل المسجّعة تبدو كأنّها حِكم مأثورة، ولكنا لم نجدها في كتب الأمثال.

(111) تحدّثنا عن هذه الرسالة المسيحيّة في كتابنا عن ابن هانىء (ص 77 و 298).

فقام وقعد وأبرق وأرعد، وَوَالَى علينا المشركينَ الذين رأى الآن اشتغالَنا به واشتغالَه بنا داعياً إلى ترك قتالهم وجهادهم، وأنّ ذلك نقصٌ و وكَفٌّ على الإسلام. فهلّا رأى ذلك إذ بعثَ أموالَه وهدايَاه ورُسُلَه إليهم واستَنْصَرَ عَلَيْنا بهم؟! فكيف رأى الله عزّ وجلّ فعل بهم وبجمعَيْهم[112]؟ ألَم يَصْرِف الجمعَيْن مغلوبَيْن خائبَيْن خاسرَيْن؟ ونحن بُعُدٌ فما رأى منّا إليه حركَةً. فما هذا القلق؟ ومَا هذه العَجَلَةُ؟

وأمّا ما دعا إليه من السّلم والكفّ والموادعة والصُّلح ـ وهو يزعم أنَّهُ أميرُ المؤمنين، كما تسمّى دون من سلَف من آبائه[113]، وإمام الأمّة بدعواهُ وانتحالِه، ونحن نقول: إنّا أهلُ ذلك دونَه ودونَ من سواه، ونرى أنّ الله (عج) فرضَ علينا محاربةَ مَن انتحل ذلك دونَنَا وآدّعاه، مع ما بينَ أسلافِنا وأسلافِه ومن مضى في القديم والحديث من آبائنا وآبائِه من العَداوةِ القديمة الأصليّةِ والبِغْضَةِ في الإسلام والجاهليّة، وما اعتقدوه لنا في ذلك في الإسلام وطالبونا به في قديم الأيّام (ط79)، من لَعْن رسول الله صلّى الله عليه وآله أبَاهم وقتلِ من قتلَهُ على الشرك والكفر منهم، وطلبِهم بثأرِهم ودمائِهم، وطلبِنا نحن [إيَّاهم] بمَن قتلُوه منّا كذلك في سلطانِهمْ وأيّامِ تغلُّبِهمْ ـ فكيفَ بالصُّلحِ الذي ذكرَهُ بعدَ هذا النّبَإِ الجليلِ خطرُه؟ يأبى لنا ذلك قَوْل الله عزّ وجلّ: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ (المجادلة، 22). ما أنا

.. فيذكّره المعزّ بالترات القديمة بينهم...

---

(112) جمعيهم: أسطوليهم: الروميّ والأمويّ.

(113) أي من سلالة عبد الرحمان الداخل. ومعلوم أن الناصر هو أوّل من تلقّب بالخلافة، وكان ذلك سنة 317.

بالمداهِن في دين الله ولا بالراكن في المودَّةِ إلى أعداء الله ولا بالمخادِع في أمر من أمور الله!

آرجع بجوابي هذا إليه فما له عندي سواه، وما لي من الأمر من شيءٍ إنّ الأمر كلّه لله ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (الشورى، 10) وإن حرّكني الله إليه وقذَفَ في قلبي حربه وغزوَه فلا أشكُّ أنّ الله عزّ وجلّ أراد قطعَ دابِره وآصطلام شأفته وتطهيرَ الأرض من رِجسه وحَسْمَ أيّامه ومُدّتِه، وإنْ لا يقذفْ ذلك في قلبِي ويصرِفْ إلى من سواه وَجْهِي، فَلِلأَمْرِ هو بالغه فيه وإمْلاءٍ هو محتجٌّ به عليه ومُدّة سبَقت في علم الله له/. قال الله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ مَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً ﴾ (آل عمران، 178). فلينظر أحدَ الأمرَيْن وليَتَوَقَّعْ وجهاً من الوجهين: إمّا هلاكٌ يُعَجِّلُ آصْطِلاَمَهُ، وإمّا إملاءٌ من الله يوفِّرُ آثامَه. ونحن ننتظر من الله عزّ وجلّ إحدى الحُسْنَيَيْنِ ونرجو لنا منه خيرَ الأمْرَيْن: إمّا نصر من الله يعجّلُه لنا عليه فيشفِي قلوبنا وقلوبَ المؤمنين، وإمّا أن يُمْلِيَ له على ما هو عليه من معاصيه ومَسَاوئه ومخازيه، ففي ذلك سرورُ من رأى عدوَّه عليه. فقد كان يقال: حسبك درك أمل من عدوّك أن تراه عاملاً بمعاصي الله، وذلك أنَّ المعاصي تعجِّل الدَّمارَ (ط 80) وتُولج عمّا قليل عذاب النّار.

54/2

.. ويرفض المصالحة

وصرف أمير المؤمنين الرّسول وأمر الذي وردَ عليه الكتاب[114] أن يُجِيبَ عن كتابه إليه جواباً غليظاً و[أن] يتوعّدَه فيه، ففعل. وانصرف الرّسولُ بالجواب والكتاب[115].

(114) المراسلة لم تكن مباشرة بين الناصر والمعزّ، ولكن بواسطة رجلين من خاصتهما، والنعمان لا يذكر الأسماء إلاّ قليلاً.

(115) المجالس والمسايرات، 168 - 169.

قال القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه): وجاء الرسول الثاني بكتاب آخر من الأمويّ، فرفع الكتابان إلى أمير المؤمنين (عم) وقرئا جميعاً علينا بين يديه. وفيهما من التغاير والفساد وسوء التوجيه ما قد ذكره القاضي النعمان في كتاب المجالس والمسايرات[116]. وذكر احتجاج أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (عم) على كلّ فصل منه، وتبيين فساده وعواره.

وصرف الرسولَ بلا جواب منه سوى أن قال له: قد قيل إنّ الصّدق يُنْبِيءُ عَنْكَ لا الوعِيدُ، وكتب المنصور عليه السّلام إلى ملك الرّوم: إذَا نطقَ السّيفُ سكت القلَمُ.

وأمر الذي ورد عليه الكتابُ أن لا يجيبَ عنه بحرف، وانصرف الرّسول خائباً. وأمر بتجهيز الجيوش إلى أرض المغرب لتتبّع كلّ من مال إلى بني أميّة بالقتل واجتياحهم عن جديد الأرض.

فأخرج أمير المؤمنين (عم) عبده قائد القوّاد جوهر الكاتب في جيوش عظيمة، فخرج إلى المغرب واستفتح البلاد، ونفى أتباع بني أميّة والقائلين بإمامتهم، عنها. وكانت في ذلك فتوح عظيمة.

وكان أمير المؤمنين على العزم في أن يرسل أساطيل في البحر إلى الأندلس لقطع (ط 81) دابر بني أميّة واستئصال شأفتهم، إلى أن حصل من الروم النصارى ما حصل من الغلبة على حلب والشام، واستذلالهم أهل الإسلام. فانصرف عزم/ أمير المؤمنين من المغرب إلى الشرق والشام، وافتتح مصر والشام. وسنذكر أخبار

55/2

(116) هذه المرّة الأولى التي يذكر فيها الداعي إدريس نَقْلَهُ عن كتاب المجالس والمسايرات.

ذلك إذا انتهينا إليه بعون الله سبحانه وببركات أوليائه عليه
وأملى الله لبني أمية الظالمين، ومتّعهم إلى حين حتى ا
ما أملى لهم، ونالوا من الدنيا ما هو في الآخرة أشدُّ وبـ
وسوف يلقَون عملهم بما ظلمـوا بـه العباد، وسعـوا ا
بالفساد، وذلك كما قال أمير المؤمنين (عم) فيما ذكرنـ
الأمويّ حيث قال: «وإن حرّكني الله إليه وقذف في قلبي
إلى قوله: وإن لا يقذف ذلك في قلبي ويصـرف إلى
وجهي، فلأمر هو بالغه فيه، وإملاء هو محتجّ به عليه، ا
في علم الله له. قال الله (عج): ﴿ وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَـ
نُمْلِي لَهُمْ خَيْـرٌ لِأَنْفُسِهِمْ، إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَـزْدَادُوا إِثْـ
عمران، 178). فلينظر أحد الأمرين وليتوقّع أحد الوجهين

حملة جوهر المغربيّة

وانتهى جوهر القائد إلى البحر المحيط بالمغرب و
إلى أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (عم) يجلّ قدرها ويبعـ
وفي ذلك يقول محمّد بن هانىء المغربيّ[118] يمدح أمير
المعزّ لدين الله (صلع) ويذكر هديّة القائد جوهر:

(طويل)

شعر ابن هانىء في فتوح جوهر بالمغرب

ألا هكذا فَلْيُهْدِ مَن قاد عسكراً وأوردَ عن رأي الإمـ
هديَّةُ مَن أعطى النَّصيحةَ حقَّها وكانَ بما لم يُبصِرِ الـ
ألا هكذا فلتُجْلَبِ العِيسُ بُدَّناً ألا هكذا فلتُجنَبِ الـ
مُـرَفَّلَةً يسْحبـنَ أذيـالَ يُمنَـةٍ ويـركُضْنَ ديباجـاً ووَ
5 تَـراهُنَّ أمثـالَ الـظبـاءِ عَـواطِياً لَبِسنَ بِيبَـرينَ الـربيـ

(117) مرّت هذه الفقرة ص 53/2 - 54.

(118) يدعى ابن هانىء «المغربيّ» أيضاً، إلى جانب «الأندلسيّ»، وقد
ح. ح. عبد الوهاب: هو مغربيّ ابن مغربيّ.

يُمَشِّينَ مشيَ الغـانيـاتِ تهـاديـاً | عليهنّ زِيُّ الغـانِيـاتِ مُشَهَّـرا
وجَرَّرنَ أذيالَ الحِسـان سوابغـاً | فعلَّمْنَ فيهنَّ الحِسـانَ تَبختُـرا
فلا يَستُرُنَّ الوَشيُ حُسنَ شِياتِها | فيَسْتُرَ أحلى منه في العين منظَرا

إلى قوله:

25 ألا إنّما تُهدَى إلى خير هاشمٍ | وأفضلِ مَن يَعلوجَوادًأومنبَرا (ط 82)
مَن استَنَّ تفضيلَ الجِياد لأهلِها | فـأوطأَهَـا هامَ العِـدى والسَّنوَّرا
وجَلَّلَهـا أسـلابَ كـلِّ مُنـافِقٍ | وكـلِّ عنيـدٍ قـد طغى وتجبَّـرا
وقلَّدها الياقوتَ كالجمرِ أحمراً | يُضيءُ سَناهُ والـزُّمـرُّدَ أخضـرا
وقَـرَّطَها الـدُّرَّ الذي خُلِقَتْ لـهُ | وِفاقاً وكانتْ منه أسْنى وأخْـطرا
30 فكم نظمِ قُرطٍ كـالثُّريّـا مُعَلَّقٍ | يزيدُ بهـا حُسناً إذا مـا تمَرمَـرا
/ وكم أُذُنٍ من سابحٍ قد غدتْ بهِ | يُناطُ عليها مُلْكُ كِسرى وقيصرا 56/2
تُحلّى بما يستغرِقُ الدهرَ قيمـةً | فتختـالُ فيـه نخـوةً وتكبُّـرا

وانتهى فيها إلى قوله:

ألا إنّمـا كانت طلائـعُ جـوهَـرٍ | ببعضِ الهدايا كالعُجالـةِ للقِرى
ولو لم يُعجِّلْ بعضَها دون بعضِها | لضاقَ الثَّرى والماءُ طُرْقاً ومعبَرا
أقـولُ لِصَحْبي إذ تلقَّيْتُ رُسْلَهُ | وقد غَصَّتِ البَيداءُ خُفّـاً وَمنسِرا
وقد مارَت البُزلُ القناعيسُ أجبُلاً | وقد ماجتِ الجُرْدُ العناجيجُ أبحُرا
45 فـطابَتْ لِيَ الأنبـاءُ عنـهُ كـأنّـهُ | لَطائمُ إبْلٍ تحملُ المِسكَ أذفَرا
لعَمري! لئن زانَ الخلافةَ ناطِقاً | لقـد زانَ أيّامَ الحـروبِ مُدبِّـرا
تَضِجُّ القَنا منْهُ لمَا جَشَّمَ القَنا | وتَضْرَعُ منه الخيلُ والليلُ والسُّـرَى
هو الرمحُ فاطعنْ كيفَ شئتَ بصدره | فلن يَسـأَمَ الهَيجا ولن يتكسَّـرا
لقد أنجَبَتْ منه الكتائبُ مِدْرَهاً | سريعَ الخُطى للصّالحاتِ مُيسَّرا
50 وصَرَّفَ منه الملْكُ ما شاء صارماً | وسهمـاً وخَطّيّـاً ودِرعـاً ومِغفـرا
ولم أجدِ الإنسانَ إلّا ابنَ سعيِهِ | فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا

وبالهِمَّةِ العَلياءِ يُرقى إلى العلى	فمن كان أرقى هِمَّةً كان أظهرا
ولم يَتأخَّرْ مَن يريد تقدُّماً	ولم يَتَقَدَّمْ من يريد تـ
وقد كانتِ القوّادُ من قبلِ جوهرٍ	لَتَصْلُحُ أن تسعَى لِتخدمَ
55 على أنهم كانوا كواكبَ عصرهم	ولكن رأينا الشمسَ أبهى
فلا يُعْدِمَنَّ الله عبدَكَ نَصْرَه	فما زالَ منصورَ اليدَين
إذا حاربتْ عنهُ الملائكةُ العِدى	ملأنَ سماءَ الله باسمكَ
وما اخترْتَه حتى صفا ونفى القَذى	بلِ اللهُ في أُمِّ الكتاب
ووكَّلْتَهُ بالجيشِ والأمْرِ كلِّهِ	فوكَّلت بالغِيلِ الهِزَبرَ الغضنفـ

قال القاضي القضاعيّ(120) رحمة الله عليه:

ترجمة جوهر

وأصل جوهر روميّ. جاء به خادم يعرف بـ «صابر»، من صابر إلى «خيران»، ومنه إلى «خفيف». وحمله خفيف(121) الإمام المنصور بالله، فعلا ذكره معه وسايره في غزواته(122). كاتبَه وكاتبَ أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (عم). ثمّ انتهـ

---

(119) القصيدة 23 من طبعة زاهد عليّ. وفي طبعة صادر، ص 140.

(120) القاضي القضاعي: أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي. خدم الـ بمصر وتولّى القضاء لهم. له كتابان في التاريخ. أخبار الخلائف الخلفاء، ولعلّ ترجمة جوهر منقولة عن أحدهما. توفي القاضي القضا 1062/454 (أعلام الزركلي).

(121) في المخطوط والمطبوع: ضامن. وقد مر بنا ملتبساً بصائن وصابر وغيره ص 214). وقرأ العلامة أماري في نقله عن القضاعي: صابر وخيران (المكتبة العربية ـ الصقليّة، 197). وعند ابن عذاري، 221/1: صابر دون المرور بخيران.

ولا غناء في كتاب عليّ إبراهيم حسن عن جوهر الصقليّ، في مبدإ خدمته للفاطميين. وذكر المقريزي (اتعاظ، 140) «خفيفاً الـ صاحب الستر»، مبعوثاً من المعزّ إلى كتامة.

(122) رغم هذه المشاركة للمنصور في غزواته، لم يرد ذكره قط في الوقائع يزيد.

الحال إلى أن بلغ مع الإمام المعزّ المنزلة السنيّة والمكانة الجليلة. وآخى بينه وبين جوذر، وقرن بينهما لفضلهما ودينهما وأمانتهما ولمودّتهما للأئمّة ونصيحتهما. وجعل جوهراً[123] قائد القوّاد وسيّره في عساكره وأمّره على جنوده فاستفتح/ البلاد، وجرى في خدمة الأئمّة بالصلاح والسداد.

57/2

وثار ابن واسول[124] فتغلّب على سجلماسة وخلع طاعة الأئمة وتسمّى «بالشاكر لله أمير المؤمنين» وكذلك أحمد بن بكر[125] تغلّب بمدينة فاس. وكان أمير المؤمنين القائم بأمر الله (عم) قد أمكنه الله منه بعد أن كان تغلّب، وأُتيَ به إليه أسيراً فأمر باعتقاله فاعتقل بالمهديّة مدّة القائم. ثم منّ عليه المنصور بالله وأطلق سبيله، فعاد إلى تغلّبه وفسقه، وخلع طاعة الأئمة من عنقه، ودعا إلى بني أميّة وأظهر، لعنه الله، لَعْنَ الأئمّة على منبره. فكان من رأي أمير المؤمنين إخراج عسكر إلى سجلماسة ثمّ إلى فاس. والطريق (ط 84) فيه المشقّات والبعد، والانقطاع والمخافات، على ما يعظم في صدور الناس أمره ويتهيّبون سلوكه لذلك واقتحامه.

(123) في المخطوط: الجوهر.

(124) محمّد بن الفتح المدراري ابن واسول: تغلب على ابن عمه المنتصر واستولى على إمارة سجلماسة وانشغل عنه الفاطميون بمقاومة موسى بن أبي العافية في المغرب ثم أبي يزيد. وقبض عليه جوهر في حملته هذه سنة 347 وأرسله أسيراً إلى المنصورية وقال ابن عذاري، 222 إن جوهراً قتله في رجب (سنة 348)، وهذا مخالف لما عند ابن خلدون، 47/4 من أنّه وصل أسيراً في قفص إلى إفريقية. وبقي مدة في الأسر كما يشهد بذلك كتاب المجالس والمسايرات، 411.

(125) أحمد بن بكر بن سهل الجذامي «صاحب مدينة القرويّين بفاس» (المقتبس، 348). أسره جوهر بعد فتح فاس سنة 348 وبعث به إلى المنصوريّة مع ابن واسول. وكان أسر مرة أولى سنة 323 على يد ميسور الفتى وبقي مدة أسيراً بالمهدية (انظر المجالس، 385، هامش 2).

فأمر أمير المؤمنين (ص) أن يُندَبَ إلى ذلك من سار إليه من شبّان كتامة طائعاً. فلم تمضِ أيّام حتى أتاه منهم من العدد فوق ما أراد، مسارعين إلى ذلك فرحين به. وأسبغ عليهم العطاء وأجزل لهم الحِباء، وقدَّم عليهم أبا الحسن جوهراً غلامه وغلام أبيه المنصور، وجعلهم تحت رايته وفي جماعته.

قال القاضي النعمان (رضي الله عنه):

فلمّا أرادوا الخروجَ حضر الشيوخ من كتامة وحضرت معهم مجلس أمير المؤمنين، فذكر مسارعة مَن سارع منهم إلى الخروج في ذلك الجيش، وأنّه كان فيما تقدّم يتهوَّل ذكرَ سلوك ما ندَبَهُم إليه دون تعاطي الخروج إليه وذكر تثاقُلَهم ـ قَبْلَ ذلك ـ عمّا هو دون ذلك.

ثمّ قال (صلع): وهذا الذي كنت ذكرتُه لكم في غير مجلس ومَقامٍ، أنّي لو ندبْتُ من عَسَيْت أن أندُبَه منكم لوجدتُ فيه ما أريده.

ثمّ أذن لمَن سارع منهم إلى الخروج، فدخلوا عليه فوجاً فوجاً، وغصَّ القصرُ بهم فأثنى عليهم خيراً وقال لهم قولاً جميلاً طويلاً، كان فيما حفظت منه أن قال لهم:

بارك الله فيكم وأحسن صحابتَكم والخلافَةَ عليكم! فقد صدقتُم ظنّي فيكم وأمَلِي عنِدَكم وأنتم من معدن البرَكة وعنصر الخير. بكم بدأ اللّهُ إظهارَ أمرنا وبكم يُتمُّه ويصلِهُ بحَوْله وقوّته، وقد علمتُ مسارعتَكم إلى ما نُدِبْتُم إليه وإجَابَتَكم لما أُردْتُم له، وأرجو أن تبلُغُوا من ذلك بحسب الأمَلِ فيكم، ويرفَعُ الله (عج) (ط 85) بذلك درجاتِكم ويُعْلِي ذكرَكم. أنتُمُ البَنونَ والإخوَةُ/

المعزّ يطري كتامة لخدمتهم الطويلة...

58/2

والأَقْرَبُونَ ما يعدِلُكُم عندي أحدٌ ولا يبلُغُ مبلغَكُم مِن قلبي بشَرٌ، وما ذلك إلاّ لما لي في قلوبكم.

ما نصر الله وليّاً من أوليائه قبْلَنا بمثل نُصرتكم لنا. على ذلك مضى أوّلُكم وعليه أنتُم، على محبّتنا ونصرتنا وموالاتِنا تتناسَلُون وتَنْشَأون، وبها غُذّيتم وعليها فُطِرتُم. فأبشروا بما قسم اللّهُ (عج) من الفضل لكم، فأنتم حزب الله وأنصارُه وجُندُه وأحبّاؤه. واللّهِ ما أردتُ بهذا البعث الذي بعثتُكُم فيه شرّاً أستدْفِعُه ولا دفعَ مكروهٍ أخافُه ولا استكثاراً من دنيا أصيبُها:

أمّا المكروهُ فقد علِم الخاصّ والعامّ والقريبُ والبعيد أنّ غايةَ أماني مَن حَوْلَنا من أهل الأرض من المتغلّبين ممّن دان بمِلّةِ الإسلام، والمشركين، أن يسلَمُوا منّا ويَتَعَافَوْا من بأسنا وما أحدٌ منهم أمسى وأصبح اليومَ بحمد الله يطمَعُ في شيءٍ ممّا عِنْدَنَا.

وأمّا اكتسابُ حُطامِ الدُّنيا فها[126] نحنُ نُنْفِقُ مِن أموالنا على هذا البعث ما لا نرى أنّا نرتَجِعُ مثلَه وإن مَكّنَنَا اللّهُ وأيّدَنَا ونَصَرَنَا، ولكنّا أرَدْنا بذلك وجوهاً: منها ما افترضه الله (عج) علينا من جهاد مَن خالف أمرَنا وتسمّى بأسْمائنا وادّعى ما جعلهُ الله (عج) لنَا. ومنها أنّ الله (عج) قد امتحن عبادَه بالجهاد في سبيله معَنا، فنحن نندُبهم إليه لنعلَمَ المجاهدين منهم والصّابرين، وليرفع الله (عج) به درجاتِهم ويُجزِل مَثُوبَاتهم ويَنقُل حالاتِهم[127]. فكم منكم اليوم ممّن ينفُذُ في هذا الجيش تابعاً يعود (ط 86) متبوعاً، ومرؤوساً يصيرُ رَئيساً! إنّما يَرفَعُكم عندَنا وعند ربّكم نيّاتُكم وأعمالُكم، وبها

(126) في المخطوط، وكذلك في المجالس: فهذا نحن.

(127) أي: تتحسّن أحوالهم وتكثر أرزاقهم.

تتوسّلُون إلينا، وإلى بارئكم. لولا السنّة التي أمرَ الله عزّ وجلّ باتّباعها، التي لا يَصلُح العبادُ إلاّ بها، ما قدّمتُ عليكم أحداً منكم ولا مِن غيركم إذ كلّ واحد منكم عندي يستحقّ أن يكون المقدّمَ، ولكن لا يصلحُ النّاس إلاّ برئيس. وقد قدّمت عليكم من قد علمتموه ـ يعني جوهراً ـ[128] وأقمتُه فيكم مقامَ نفسي وجعلْتُه معكم كأذُني وعَيْني، وكلّ امرئٍ منكم على نفسه بصيرة، وقد أمرت لكم بأجزل عطاء أعطيتُه مَن قَبْلَكم إلى أبعدَ من مسافتِكم هٰذه وقد علمتُم أنّه لم يُعْطِ مَن قبلَكُم أحدٌ قَبْلِي مثلَ ما أعطيتُكم، ولا استكثرتُ لكم ذلك بل أستقلّه لأقلّكم. والذي لكم عند الله وعندي في الذي تستقبلونه/ أجلُّ وأكبرُ. فسِيرُوا على بـركـةِ الله ويُمنـه وسعادَتـهِ ونَصْره وتأييدِه! كونوا عند ما رجوتكم له من الغَناء والكفاية وصلاح الحال بينَكُم! أحسنُوا عشرةَ بعضِكم لبعض وعشرة من تَصْحَبونه من غيركم، وأنزِلوا من ينفُذ معكُم من عبيدي منازلَ إخوانكم، وأجمِعُوا معهُم كلمتكم، فهم لكم عضُدٌ ولُحمة، وموالاتي تجمَعُكُم وإيّاهُم، فلا تجعَلوا بينكم وبينهم فَرْقاً، أحسن الله لكمُ الصّحابةَ وعليكم الخِلافةَ.

.. ويبرّر تقديم جوهر عليهم..

59/2

.. ويدعوهم إلى مؤاخاة العبيد..

فقبّلُوا الأرضَ مراراً بين يديه وشكَروا ما كان منه ووَعَدُوا من أنفسهم الوفاءَ بما أمرَهم به، وغلب عليهم من السّرور بما سمِعوا منه ما ظهَر فيهم وتبيّن على وجوههم.

ثمّ أمر بإدخال من نفَذ في ذلك الجيش من الحضرة من قبائل البربر ممّن كانوا قد دخَلوا في الفتنة وأنابوا، بعد المقدرة عليهم،

(128) هذا التوضيح غير مذكور في المجالس، 256. وفي «اعتذار» المعز لكتامة عن إسناد قيادة الحملة إلى جوهر دليل على وجود منافسة بين كتامة والعبيد الصقالبة.

إليه، فقبِلهم وعفَا عنهم، كبني كملان وغيرهم، وقد سارعوا أيضاً إلى الخروج. فلما صاروا بين يديه (صلع) قبّلوا الأرض وَوقفوا (ط 87)، فقال بعضُ من حضر من شيوخ كتامة: هؤلاء يا مولانا ممّن قال الله (عج) فيهم /: ﴿عَسَى اللّهُ أنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً﴾ (الممتحِنة، 7).

قال: نعم! قد فعل الله ذلك بهم لما سبق لهم عنده من السّعادة ففازوا بالوَلاية بعد العداوة، وبالهدى بعد الضّلالة، وبالنّصرة بعد القطيعة والمنابذة لنا والمحاربة، فتوبَتُهم مقبولة وذنوبهم إن شاء الله مغفورة.

فقبّلوا الأرض بين يديه واعترفوا بنعمته وشكروا فضلَه وعفوَه.

فقال: كم سارع منكم إلى الخروج في هذا العسكر المنصور؟

قالوا: كلُّنا يا مولانا مُسَارِعٌ إلَيْهِ، فمن قَبِلْتَهُ فهو السعيد!

قال: بارك الله فيكم ووفّقكم، وأنا أنظر إن شاء الله فيما يصلحكم.

.. ويوصي العبيد بالمثل

وأدخل العبيدَ فأوصاهم بمثل ما أوصى به الأولياء. وأمرهم بأن يكونوا لهم إخوة ومعهم ألفة. وودّعوا وخرجوا[129].

ولمّا سار القائد أبو الحسن جوهر الكاتب بمن معه من عساكر أمير المؤمنين وجنوده في سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، تقدّم إلى أهل سجلماسة من قبل أن يحلّ بهم بمدّة، بكتب منه بالتحذير لهم، وأوعز إليهم في القبض على ابن واسول، وأنّهم، إن فعلوا ذلك، أمّنهم وأحسن إليهم وعفا عن ذنوبهم / التي اقترفوها بطاعته على ما ارتكبه من عظيم جرمه وإلقائهم بأيديهم إليه.

60/2

(129) المجالس، 255 - 258

جوهر يظفر بابن واسول..

ولما قرب العسكر منهم، خرج [ابن واسول] من مدينة سجلماسة هارباً بنفسه، فلقيه نفر من أهل المدينة فأخذوه وأتوا به القائد. فعاتب القائد أهل سجلماسة في تركه، ثم رأى الصفح عنهم، وولّى عليهم والياً منهم، وانصرف بجميع عساكر أمير المؤمنين إلى مدينة فاس. فقتل جوهر في طريقه يعلى بن محمد الزناتي[130] في إفكان (ط 88). وكان صاحب فاس تسمّى بـ «الإمام» وجعل على قصره مظلّة ينصبها علامة لجلوسه، وتُرفع إذ قام.

فلما صار القائد بذلك الصقع الذي فيه أحمد بن بكر المتغلّب بمدينة فاس، الخالع لطاعة الأئمّة (عم) من عُنُقه، الداعي إلى بني أمية، أجاب وأناب كلّ من في ذلك الصقع، وفاؤوا إلى الطاعة، سوى أحمد بن بكر، فإنه أصرّ وتمادى على غيّه.

وأحاطت العساكر بمدينة فاس، وطال عليها الحصار واشتدّ الأمر، وكاد الناس أن يغلبهم اليأس لطول إقامة الجيوش عليها وهرب من هرب من العسكر عنها. قال القاضي النعمان[131]:

.. وبأحمد بن بكر..

قال المعزّ يوماً، وقد ذكر أحمد بن بكر وهو في هذه الحال يعني من الحصار ـ: لقد رأيت البارحة عدوّ الله، وكأنّي أُتيتُ به فأمرت بقتله فجعل يسترحمني فقلت: والله لو وجدتك تحت أستار الكعبة لما أَقَلتُك ولقتلتُك. فجعل يراجعني كالمحتجّ عليّ في قولي هذا ويقول: وما يوجب قتلي تحت أستار الكعبة؟

(130) يعلى بن محمّد اليفرني، صاحب افكان: كان منافساً لمحمد بن خزر وكلاهما من زناتة. فلما لحق ابن خزر بالمعز وحظي عنده، أعلن اليفرني ولاءه لبني مروان، فقتله جوهر وأحرق مدينته.

(131) المجالس، 358.

فقلت: أقلّ ما يوجبه مراجعتك إيّاي هذه ـ فأسمع قائلاً من خلفي يقـول، ولم أره: أحسنت والله! أصبت، أصاب الله بـك المراشد! إيه والله! لَمراجعَتُه إيّاك هـذه توجب قتله لعنـه الله! ـ فالتفتّ فإذا الذي يقول ذلك المنصور بالله (عم).

(قال): فلم يكن بين هذا اليوم الذي حدّثنا بهذا الحديث فيه، وبين اليوم الذي فتح الله فيه عليه وأقدره على اللعين ابن بكر وأخذه أسيراً إلاّ أقلّ من عشرة أيام.

(قال): سمعت أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (صلع) وقد أتاه فتح مدينة فاس بعد أن كان أكثر الناس يئسوا من ذلك لطول إقامة الجيوش عليها (ط 89)، وهرب من هرب منهم عنها لقوّة أهلها وكثرة الأطعمة فيها ووعر خنادقها وحصنها ـ قال حسن بن جعفر الأنصاري في تاريخه: «وكانت في فاس حروب وملاحم وحصار أحدَ عشرَ شهراً من ظاهر السور، ومات في الحصار أحمد بن بكر، وبقي ولده محمّد بن أحمد بن بكر ومحمّد بن واسول فأسرا جميعاً»[132] ـ فقال (صلع): هـذا من قـول الله (عـج): ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْـأَسَ الرُّسُلُ/ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَـا﴾ (يوسف، 110). واللّهِ ما استيأس رسل الله من فضله (عج) ونصره إيَّاهم، ولكنّهم استيأسوا ممّن خذَلهم ولم يَقُمْ بواجب حقّ الله (تع) الذي افترضه

.. بعد حصار شاقّ

61/2

(132) هذه الإضافة مقحمة في هامش النسخة، وهي تقطع كلام المعز بصفة واضحة. وقد سبق نقل عن هذا المؤرخ المجهول في ص 43 من هذا السبع.

هذا وإن تحديد مدة الحصار بأحد عشر شهراً لا نجده إلاّ عند الأنصاري هذا. فرواية ابن الأثير 354/6 تقول إنه دار على مرحلتين الأولى سنة 347 بعد قتل اليفرني وإحراق افكان في جمادى 2 فلم يقدر جوهر على فاس فسار إلى سجلماسة وأخذ ابن واسول ثمّ عاد إلى فاس فنصب الحصار من جديد فطال ـ دون تحديد ـ فصعد زيري بن مناد على السلاليم إلى سورها فأخذهـا في رمضان 348. ولم يتعرّض الدشراوي في رسالته 231 - 232 إلى مدة الحصار.

في جهاد عدوّهم، فقطعوا منَ الخلق رَجاءهم، ووصلوه بالله ربّهم، فآتاهم نَصْرَه الذي به وعدَهم.

وقد كان المعزّ لدين الله (صلع)، كلّما ورد عليه من أمر فاس هذه أمرٌ يئس مَعَهُ مَنْ سَمِعَهُ مِنْ فتحها، يقول - ونحن نسمعه من غير موطن، إذا أتى مثل هذا -: ما أتوكّل في أمرها وكلّ أموري إلاّ على الله (عج)، ولا أرجو غيرَه، وإنّي لواثقٌ بفضله ونصره.

ثمّ قال (صلع) لمّا أتاه الفتح: واللّه إنّي لربّما أريد أن أسأل الله - تعالى - في الزيادة من فضله فيما يكون من مثل هذا فأستحي أن أسألَه ذلك لكثرة ما أولاني منه، له الْحَمدُ لا شريكَ له. وإنّي لربّما سألتُ الله (تع) طول البقاء لعدوّي ليُخزِيَه الله بذنوبه، ويرى ويَسْمَعَ من صنع الله عندي ما يُنكِيه ويؤلمه.

ثمّ قال (عم): أتدرون ما أردْتُه بالكتاب الذي كتبته منذ قريب لأهل فاس هؤلاء الأشقياء؟ - وقد كان كتب إليهم كتاباً بالأمان إن (ط 90) أنابوا، وعَرَّفَنا به، فلمّا انتهى إليهم ردّوه فلم يَقْبَلوه -.

قلنا: الله ووليُّه أعلم.

قال: والله إنْ أردتُ بذلك إلاّ هلاَكَهم بإقامة حجّة الله تعالى عليهم، وإلاّ فقد علمتُ أنّهم، متى جاءهم وهم يرون أنّهم في قوّة وأنّ عساكرَنا قد سئمَتْ من المُقام عليهم وانحلّ بعضُها عنهم، وجاءهم مثل هذا من عندي، أنّهُم يدفعونه. فأردت أن أجعلَه ككتاب رسول الله (ﷺ) إلى صاحب فارس[133] إذْ أتاه فمزّقه فمزّق الله تعالى ملكه، وككتاب المنصور بالله (صلع) إلى مخلد اللّعين

(133) رسالة النبيّ (ﷺ) إلى كسرى «يدعوه فيها إلى الإسلام. أوصلها عبد الله بن حذيفة القرشيّ فمزقها فقال رسول الله: اللهم مزق ملكه. فقتله ابنه شيرويه» (أسد الغابة في ترجمة الصحابيّ، رقم 2889).

وأصحابه، وقد حاصرهم بقلعة كيانة، إذ كتب إليهم الأمان فردّوا كتابه، فأمكنه الله (تع) منهم في أقرب وقت. وكذلك أردتُ بكتابي الذي رأيتموه، وكان كما أردت ذلك بحمد الله ونعمته.

ثم حمد الله (تع) بما هو أهله، وشكر فضلَه بما قدر عليه وأمكنه[134].

(قال): ولمّا قرب وصول الجيش من المغرب إلى الحضرة أمر الإمام المعزّ لدين الله (عم) لابن واسول وابن بكر بعمل عجلتين ليكون كلّ واحد منهما على واحدة تجرّ به في حين النّداء عليه. وذلك ممّا لم يُعلَم أنّه سُبق إليه ولا رآه أحد. وجعل يصفُهُما للنّجّارين، فقال: يُجعَل سطحٌ من ألواح وعلى خشبَة مصلّبة ويُرفَعُ / على أربع فِلَك ويُبنى عليه بُرْجٌ من ألواح واسع الأسفل ضيّق الأعْلَى، يكونُ طوله عشَرة أذرع، ويكون في أسفله قفَص من خشَب، ويشقُّ له من خلفه بابٌ يُدخَلُ فيه أسِيرٌ[135] ويغلق عليه، وله سقفٌ، فوقَه تابوتٌ من البرج؛ له باب يُفتَح ويُغلَقُ، وفيه شبّاك يسير (ط 91) بقدر ما يدخل منه الضّوْء، وفي وسط القفَص خشبة عظيمة كصاري المركبِ في أسفَلها مرْوَد على سَطح السّرير يخرج من وسَط سقف القَفص وسقفِ التّابوت الذي فوقَه، ويظهر على سقفه منها مثلُ قامةٍ، وعلى رأسها سريرٌ بمقدارِ ما يجلس فيه الجالس حوله حاجزٌ من شبّاك مخروط يمنع من السّقوط عليه. ويكنّ في التابوت رجلاَن لا يُرَيان وفي الخشَبَة معَهُما وتدان بهما يُديرَانها فيدُورُ السرير الأعلى بمَنْ يكُونُ عليه ليرى كلُّ مَن حولَه وجهةَ ولا يعلمون بما يديره.

62/2

المعزّ يخترع قفصين لعرض الأسيرين على الرعايا

(134) المجالس، 492.

(135) في جميع: أسد، فأصلحنا بما يوافق الغرض.

فتعجَّبْنا لذلك لمّا عُمِل[136] ورأيناه، كيفَ اخترع ذلك واهتدى إليه صلوات الله عليه.

فقال (عم): رأيتُه فيما يرى النائم قبل أخذِ هذيْن الفاسقَيْن بمدّة فجعلت أنظر إليه كما هو الآن بين يديَّ وأقلِّبُه وأقول: ما هـذا؟ فيقال لي: هذا يكون ينادى على أعدائك عليه، ففهمتُ صورتَه وعَملْتُه على ذلك[137].

(قال): ولمّا قفل الجيش المنصور من أرض المغرب بعد أن أظفر الله (تع) وليّه بابن واسول المدّعي الإمامة وابن بكر الناكث المتغلّب بفاس، وفتحها الله على وليّه وما والاها من أرض المغرب [في سنة ثمانٍ وأربعين وثلاثمائة، وكانت غيبة القائد جوهر إلى أن رجع اثنين وثلاثين شهراً][138]، أخذ القائد جوهر أبناء جميع وجوه أهل المغرب ورؤسائه رهائنَ عنده، وقدم بهم ويكلّ وجه كان بذلك الصقع ممّن يطاع لَـهُ ويخاف جانبه. وجاء فيهم بجماعة من الحسنيّين الذين تناسلوا من ولد إدريس [بن عبد الله] بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب ـ وقد قدّمنا من خبره[139] ـ وكانوا قد

---

(136) القفصان صنعا إذَنْ بإفريقية ولم يتحذهما جوهر بالمغرب كما يقول المؤرّخون.

(137) للمعزّ معرفة بعلم الحيل وباع في الاختراع. انظر استنباطه للقلم الخزّان في المجالس والمسايرات.

(138) هذه إضافة في هامش المخطوط، وليست من كلام النعمان في المجالس. ولا ندري هل هي من كلام الداعي إدريس أم من تعليقات صاحب المخطوط: فقد يحدث أن يضيف في الطرة بعض الشروح والتفاصيل من مطالعاته، مثل المعلومات التي ينقلها عن طبعة زاهد علي لديوان ابن هانىء.

وفي خصوص جوهر، ننّبه إلى أن القاضي النعمان لا يذكر اسمه بل يكتفي بعبارة «القائد».

(139) تقدم خبره في السبع الرابع، 344. وفي النسخة: إدريس بن الحسن. وهو إدريس بن عبد الله بن الحسن كما بيّنا (انظر كتاب الاستقصاء، 155/1).

تأمّروا في القبائل وادّعَوا الملك. فلمّا وصلوا إلى الحضرة، أمر أمير المؤمنين (ص) بـإنزالهم، وكسـاهم، ووصلهم وحمَلهم، وأجرى عليهم النّزل الواسع فأقاموا على ذلك مدّة ثمّ منَّ عليهم بتسريحهم وإطلاقهم إلى بلدانهم، وأمر لهم بِصلاتٍ وخِلَعٍ وحُمْلاَنٍ. وبعث معهم إلى آبائهم وأكابرِ أهلهم بكُسىً وصلات وسُرُج مُغْرَقَة.

63/2

المعزّ يحسن إلى الأدارسة ويسرّحهم إلى بلادهم. . .

/وأمر بإدخالهم في حين خروجهم ليودّعوه، فصُفّوا بين يديه، وأدنى الحسنيّين منهم، وأمرهم بالجلوس. ثمّ قال للجميع: قد علِمتُم ما كان من إحساننا إليكم، وفضلِنا عليكم، وعَفْونا وصفحنا عمّا سلَف من أموركم، وقد سرّحناكم لما اتّصل بنا من شهوتكم ومَن خلّفتُموه وراءكم، في سراحكم، وشوق بعضكم لبعض، فآثَرْنا إسعافَكم بذلك والمنَّ به عليكم. فاعرفوا ذلك وتلقّوه بالشكر وحميد السعي وحسنِ الطاعة تعرفوا منّا المزيـدَ عندكم، ويتّصـلْ فضلُنا لديكم ومعروفُنا عندكم. وليعلَمْ من أدلى إلينا بالنّسب منكم أنّ ذلك إنّما يَتوسّل به من اعتَصَم بالطاعة وتَمَسّك بها، فأمّا من عصى أولياءَ الله وخالَفَهم فقد انقطع نسبه منهم، كما قطع الله (تع) نسب ابنِ نوح منه لمّا عصاه، ولولا أنّ الله أفترض الطاعة لنا على كافّة خلقه وقرَنَها بطاعته وطاعة رسوله، وجعلها ديناً تعبّد العبادَ به، وأقامنا لإقامة دينه، لما عبأنا بمن أطاع منكم ولا من عصى، ولكنّا إنّما نريد بذلك إقامَة ما أمرَنا الله ـ تعالى ـ به من إقامة دينه. ولو أنّ هذا الفاسق ابن بكر أطاعنا ما بخلنا عليه بفاس وما هو أعظم منها، وما لذلك عندنا ولا للدنيا بأسْرها من خطرٍ نَبْتَغِيه ممّن تغلّب، ولا نقيم أنفسَنا لمحاربَته لولا ما افترَض الله (تع) علينا من ذلك واستخدَمَنا له. ولو سلّم ذلك إلينا الفاسقُ ومَن تمسّك به وأطاعه على معصيتنا لما عرّضوا أنفسهم للتّلف (ط 93) وحُرَمَهم للانتهاك، وإن كان مَا جَبَلَنَا اللّهُ عليه من الصّفح والرحمة منعَنا من انتهاكها ـ وقد عرّضوها

للانتهاك ـ ومن سفك دمائهم وهلاكهم عَن آخرهم ـ وقد استهدَفوا بها للسفك وبأنفسهم للهلاك ـ ولكنّا عفونا عند المقدرة، وصفحنا بما جَبَلَنا الله (تع) عليه من الصفح والمرحمة، وأبقَيْنا على من بقِيَ منهم ومن أقدَرنا الله تعالى عليه من جميعِهم، وصُنّا حُرَمَهُم، وعفَفْنا عن دمائهم. وَمَا لهذا الفاسق الذي أقدرنا الله (تع) عليه، بعد الذي كان منه من الحرب والمناصبة بعد عفونا قديماً عنه وإحساننا إليه[140] من المِقدار ما يُوجب عُقلتَه وإبقَاءَهُ إلاّ لما أردنا أن يديم الله (تع) به حَسْرَتَه من كَوْنه في الأسر، ونظرَه إلى فضل الله علينا وعلى من نُنيلُه إيّاه ممّن رأينا المنَّ عليه والإحسانَ إليه منكم ومن أمثالكم ممّن آثَرَ طاعتَنا والتسليمَ لأمرنا وأناب إلينا ولم يصرَّ على معصيتنا، فيعلم أنّ الله (تع) لو أراد به خيراً لوفّقه إلى ذلك وقدّره له، فنال من فضلنا وإحسانِنَا ما قد نال غيره. ففي ذلك ما يُنكي اللّهُ (تع) به صدرَه، ويديمُ له حسرَتَه وأسفه، فينال من ألم عذابه ـ جلّ ثناؤه ـ في دنياه صدراً ممّا أعدّه له قبلَ مصيره إلى عذابه الدائم والخلودِ في خِزْيِهِ اللاّزم.

64/2

إنّا والله ما نبتغي من طاعتكم لنا وتسليمكم لأمرنا وإنابَتكم وإنَابَةِ غيركم إلينا عزّاً إلى عزّنا نستفيدُه، ولا عَرضاً من أعراض الدنيا نستزيده. ولقد خوّلَنَا اللّهُ (تع) من ذلك وملّكنَا وأعطانا بفضله علينا وإحسانه إلينا ما لا نتعاطى أن نقومَ بشُكره، ولا تمتدّ أعيُننا إلى غيره استقلالاً لما خوّلنا اللّهُ (تع) وأعطانا من جزيلِ كرائمه وأفضلِ علائقه، وأعزّنا به من عزّ سلطان حقّه، وأمجدَنا من مجد شرف دينه، وما وصل من أسبابنا بأسباب جدّنا محمّد نبيّه (ﷺ)،

(140) أي: إطلاق سَراحه من المهدية سنة 341 ورده إلى إمارته بماس. انظر كتاب الاستقصاء، 189/1 - 190. وكان ميسور الخادم قبض عليه سنة 323 وبعث به إلى المهدية (المقتبس، 348، البكري، 128).

وأن جعلنا (ط 94) أئمَّةَ خلقه الذين لا يقبَلُ منهم إلاّ من أقْبَل عليهم، ولا يرتضي إلاّ مَن ارتضوه. فما بعد ما عِندنَا من فضله ونعمته فضلُ نعمةٍ ينبغي أن نتناولها من أحد من عباده ولا فوقَ ما أعطانا من الشرف والمَنزلَة ما يؤمَّل أن نرتقيَ إليه بشيء نستزيده من قِبَل أحدٍ من خلقه، بل قد أحوجَ اللّهُ (تع) جميع العباد إلينا، دُنْيا ودِيناً، وله الحمد على ما خوَّلنا وأعطَانَا ومَنَّ به علينا، ولكنّا نُدْئِبُ أنفُسَنَا وأبدانَنا ونستعمل أولياءنا ونُنفقُ أموالنا فيما استعمَلَنا الله فيه، واستَخْدَمَنَا له، وأمرَنا بإقامته من معالم دينه والـذبِّ عنه وإقـامةِ شرائعه، وإحياء ما أماته المُبطلون من سُننِه وأحكامه. فنحن ندعو مَن أناب إلى ذلك ونَحُضُّهم عليه، ونجاهد من عَنِد عَن ذلك وصَدَفَ عنّا فيه.

.. ويحذّرهم من نبذ ولاء الأئمّة

فاعْلَمُوا ذلك منّا وعرِّفوه مَن تصيرون إليه، وإنّكم لن تَعْدَموا فضلاً من الله ومنّا ما اعتصمتُم بحبلنا وتولّيتُمُونا، ولن تفُوتوا الله (تع) وتفوتُونا إن صدَفتم عن أمرنا وأصغَيْتُم إلى/ عَدُوّنَا، ويد الله العليا وأيدينا عليكم وعليهم، وعلى كلِّ مَن عصانا وصدف عن أمرنا، وَعْداً وَعَدَنَا (عج) إيَّاهُ في كتابه، وواجباً أوجبَه تبارك وتعالى في إيجابه. [فـ]ـإلى مَن عسى أن تَميلوا عنّا؟ ومن تستبدِلُون بنا؟ ودعوةَ مَن تُؤثِرون على دعوتنا، وهي دعوة جدّنا محمّد (ﷺ)؟

65/2

وطواغيت بني أميّة الذين مال نحوهم ودعا إليهم وأصغى إلى باطلهم هذا النذل ابن بكر واستبدَلَهم بنا، هم عدوّ جدّنا محمّد (ﷺ) وحربُه ولعناؤه وطردَاؤُه وحزبُ الشيطان وجنوده. ونحن حزب الله وحـزبه ـ كمـا وعد ـ الغـالبون، وحـزبُ رسـول الله، وذُرّيّتُـه المطهّرون. والله ما تَثْبُت أنفسهم الخسيسة، ولا تتعاطى مقاومة فضلنا، ولا ينكرون ـ وإن أبدوا ما أبدَوْه من محاربتنا ومعاداتنا ـ حقّنا. وإنّ قلوبَهم لتَخافُنا وجلودهم لتَقْشَعِرّ منّا. ولو قُرِّب جِلد مَيْتٍ

منهم إلى جِلْدِ مَيْتٍ منّا لاقشعَرَّ منه، كما (ط 95) قد قيل إنّ ذلك يعتري جلودَ بعض الحيوان إذا قُرِّبَ من جلود بعض السباع. ولَلَّذِي جَعَلَهُ الله لنا من الهيبَة في صدور عدوّنا والخوفِ هُوَ أشدُّ ممّا جعله الله ـ تعالى ـ في قلوبِ الحيوان للسباع لا محالة.

فمَنْ ذا يعدِلُنا بالأرجاس من بني أميّة ومَن هُوَ في مثل حالهم، إلّا من أعمى الله قلبَه، وغلبت عليه شِقوتُه وحَيْنُه؟ فاعرفوا فضلَ ما وفّقكم الله (تع) إليه وحباكم به، وقُوموا بفرضه واشكُرُوه على ما وَهَبكم منه، ومَنّ عليكم به من رضانا، تستديموا نِعمتَه بذلك وتستزيدوا فضله. أمَا إنّي لم أَقُلْ ما قلتُه في نفسي تكبّراً، ولاَ وَصَفْتُ ما وصَفْتُه من فضل الله (تع) عندي فَخْراً، بل قلت ذلك اعترافاً بفضله عليَّ، وشُكراً لنعمته، وأنا أقلُّ عباده عندَ نفسي، تواضُعاً لعظمته، وأذلُّهم لديها، تذلُّلاً وخضوعاً لقُدرَتِه.

واستعبر (صلع)، وظهرت خِشيةُ الله على وجهه فقبّلوا الأرض بين يديه، واعترفوا بفضله، وشكروا له بما قدروا عليه، وذكروا ما يعتقدونه وما يعلمونه ممّن خلّفوه وراءهم من أوليائهم واعتقادهم طاعتَه ووَلايتَه، وودّعوا وانصرفوا.

وكان قد أدخل قبلَهم وجوه أوليائه من كتامة وغيرهم وخاصّة عبيده، فحضروا المجلس. فلمّا انصرف القومُ نهض من كان جالساً منهم للقيام، فأمرَهم/ بالجلوس فجلسوا. ووقف كذلك من كان منهم واقفاً، فأقبل عليهم وسألَهم عن أحوالهم، وذكر مَن مضى من أسلافهم وترحّم عليهم، وحضّهم على ما كان عليه أسلافُهم من الرَّغبة في الحكمة وطَلَبِها وسماعِها والمواظبة عليها.

66/2

فذكرت له مواظبَتَهم على ذلك واجتماعهم في كلّ يوم جمُعة واحتفالَهم وغيرَهم من أوليائِهِ إلى الجامع لشهود الجمعة والتهجير إليها، ثمّ (ط 96) مُقامَهم بعد انقضاء الجمعة لسماع الفقه والمناظرة

مواظبة الأولياء على الصلاة وسماع الحكمة

فيه قبل انقضاء صلاة العصر، ثمّ احتفالهم بأجمعهم ومن عسى أن فاتته صلاةُ الجمعة منهم إلى القصر المعمور بطول بقائه لسماع الحكمة وما يظهر من إقبالهم عليها ورَغبتهم فيها (140م).

فقال: هذا الذي نريده منهم ومن غيرهم ممّا فيه حظُّهم وصلاحُ أحوالهم وتمامُ نعمة الله عليهم. إنّهم، ومن مضى من أسلافهم، كانوا مع من مضى من آبائنا (قدّس الله أرواحهم)، وقليلاً ما يُنْعِمُونَ عليهم مثل ما نُنْعِم نحن على هؤلاء بحسب ما أوجبَه الزمان وجرت به الحكمة في أعصارهم (صلع) وعصرِنا هذا المباركِ من بعدهم. إنّهم كانوا يأخذون أقلّ ما سمحُوا لهم به من العلم والحكمة، فلمّا أخذوا ذلك عنهم تركُوهم، ولم ينقَموا عليهم تركَهم لسؤالهم المزيدَ من فضل الله (تع) لهم. ونحن نبذُل لأهل عصرنا ما يجب في بَدْءِ الأمر بذلُه لهم، ونزيدهم ما رأينا الرَّغبة والإقبال منهم، ونُنعِمُ عليهم إذا سكتوا عن طلب الزيادة منّا لهُم ونُحبّ أن نجعَلَ جميعهم أعلاماً يُهْتَدَى بهم، وسُرُجاً يُستضاء بنورهم، وعلماء يقْتَبِسُ الخلائقُ منهم.

فقبّلوا الأرض بين يديه، وشكروا فضله وجزيل ما أولاهم من نعمه.

فقال (عم): أحبّ لكم ولغيركم خاصّةً ولجميع مَن تمسّك بوَلايتنا عامّة أن يكونَ ما تُكِنُّه صدورُكم لنا موافِقاً لما تَنْطِقُ به ألسنَتُكم عندنا، فإنّ الله (تع) إنّما يَجْزِي العبادَ بنِيَّاتهم، وإلّا، فمِثْلُ مَن يَسْمَعُ الخائبَ اللعينَ - يعني رَجُلاً يُسَمَّى قيصر[141] كان قد

(140م) هذا دليل على أنّ النعمان ينظمّ مجالس المناظرة - كالتي كانت تقع أيّام أبي عبد الله وأخيه أبي العبّاس مع فقهاء القيروان - وكذلك مجالس الحكمة، أي تعليم مبادىء الدعوة الإسماعيليّة. والمجالس الأولى عموميّة تدور في المسجد الجامع. أمّا مجالس الدعاية فخاصّة وتقع بقصر الخليفة بالمنصوريّة.

(141) قيصر: تحدثنا عن هذا الخادم الصقلبي في ص 237. وقد قتله المعز مع صاحبه مظفر سنة 960/349.

نَافق ـ وقد سأله بعضُ رجالنا رفعَ حاجة إلينا فأعرض عنه، وقال: إنّما تُقْضَى حوائجُ الرِّجال إذا احتيج إليهم، واليومَ فليس لمولانا عدوٌّ يحْتَاجُ معه إلى الرجال ـ فيطوي هذا عنّا ويرضاه (ط 97) مِن قوله، ويصحبه ويتولّاه بعدَه، أيكون/ قد حفظ ما أُخِذَ لنا عليه وصحّت لنا نِيَّتُه؟

67/2

المعزّ يحذّرهم من النفاق الذي وقع فيه قيصر الخادم

فقالوا: لعن الله من فعل ذلك.

قال (عم): نعم، ورحم الله من بلّغه إلينا نصيحةً لنا كما أخذناه عليه وأنكرَه بقلبه لمّا سمعه منه. فمثل هذا فارغُوه من أنفسكم ولا تتّخِذُوا لكُم ولائج من دوننا، فوالله ما أحوَجْناكم إلى ذلك، وإلاّ فأخبروني: أيُّ كبيرٍ منكم أو صغيرٍ كتب إليّ رُقْعةً في ليل أو نهار يقول إنّه يريد الدخولَ إليّ فحجبته، أو الاجتماع معي لحاجة يريدها أو لأمر يُنهيه إليَّ فمنعتُه أو دفعتُه؟ إذاً والله لا يقولَ ذلك قائل منكم ولا يتعلّق به عليّ، فأيّ حجّة لكم في وضع أنفسكم لمن هو دوني، وأنا أريد رفعتَكم وتشريفكم؟

فقبّلوا الأرض بين يديه وشكروا له واعترفوا بفضله وإحسانه[142].

وقال محمد بن هانىء المغربيّ الأندلسي يمدح القائد جوهراً ويذكر ابن واسول وأسره ويشير إلى ابن بكر من قصيدة[143] يقول فيها:

(طويل)

كثيرُ وُجوهِ الحَزم أردى به العِدى، وأنحى به ليثَ العَرينَةِ، فانتَحى

(142) المجالس والمسايرات، 483 - 488.

(143) القصيدة العاشرة من طبعه زاهد عليّ، وفي طبعة صادر، ص 75

20 ولمّا اجتَباهُ، والملائكُ جُنـدُه، لمَهلكهم، دارت على قُطبِها الرَّحى
فقلّدها جَمَّ السِّياسةِ، مِدرهاً، إذا شاءَ رامَ القصدَ، أو قال أفصَحا
نحاهم به أَمضى من السيف وَقعُهُ، وأَجزَلَ من أركانَ رضوى، وأَرجحا
وقد نَصَحَتْ قُوّادُهُ، غيرَ أنّني رأيتُ ربيبَ المُلكِ، للملكِ، أنصَحا
رآه أميرُ المؤمنينَ كعهدِه لديه، ولم تَنزَحْ به الدارُ مَنزَحا
25 ولمّا تَغَشَّتْ جانِبَ الأرض فتنةٌ، تشُبُّ لَظى الهيجاءِ ألفَحَ ألفَحا
رَمى بك قارونَ المغاربِ، عاتياً، وفرعونَها، مُستَحيياً ومُذَبِّحا
ورامَ جِماحاً، والكتائبُ حَولَه، فَوافاكَ في ظلِّ السُّرادِقِ، أجمَحا (ط98)

شعر ابن هانىء في أسر ابن واسول

ويقول فيها:

وأَدركتَ سُولاً في ابن واسولَ عَنوَةً، وزحزَحتَ منه يَذبُلاً، فتَزَحزَحا
وإلاّ أَبِنْه في العُصاةِ، فإنّني أرى شارباً منهم يَميلُ مُرَنَّحا
35 يَموتُ ويَحْيَا بينَ راجٍ وآيسٍ، فكانَ له الهُلْكُ المُواشِكُ أَرْوَحا
تضمَّنَه حَجْلُ كلَبّةِ أرقَمٍ، إذا خَرِسَ الحادي ترنَّمَ مُفْصِحا
أُريكَ بمرآةِ الإمامةِ كاسْمِها، على كُورِ عَنْسٍ، والإمامَ المرشَّحا
وقد سَلَبَتْهُ الزّاعبيَّةُ ما ادَّعى، فأصبحَ تِنِّيناً، وأمسى ذُرَحْرَحا
فما خَطْبُهُ، شاهَتْ وجوهُ دُعاتِه، وجُدِّعَ من مأفونِ رأيٍ، وقُبِّحا
40 /وكان الجُذاميُّ، الطويلُ نِجادُهُ، بهيماً مَدى أعصارِه، فتوضَّحا

68/2

. . . أقولُ له، في مُوثَقِ الأسرِ، عاتباً، تُجاذِبُه الأغلالُ، والقيدُ مُقْمَحا
لئن حَمَلَتْ أشياعُ بَغْيِكَ فادحاً، يغولُ، لقد حُمِّلتَ ما كان أَفدَحا

وكان لابن واسول ولد شجاع هو الذي أذكى نار الفتنة وحمل أباه على المنابذة للأئمّة، فقتله بعض عساكر القائد في توجّهه إلى سجلماسة. ففيه يقول محمّد بن هانىء من هذه القصيدة:

45 ولا كابنه أذكى شهاباً بمعركٍ، وأجمحَ، في ثِنْيِ العنانِ، وأطمَحا
مَرَت لك، في الهَيجاءِ، ماءَ شبابه، يدٌ، فجَّرَتْ منه جداولَ سُيَّحا

وأَثكَلْتَـهُ منه القضيبَ تهصَّـرَتْ أعاليه، والرَّوضُ المُفَوَّفُ صُوَّحا
لَعَمـري! لَئِنْ ألحقتَـه أهـلَ وُدِّهِ، لقدكانَ أوحاهُم إلى مأزِقِ الرَّحى (ط99)
وكم هاجعٍ ليلَ البَياتِ اهتَبَلتَهُ، فصَبَّحتَـهُ كأسَ المنيَّـةِ، مُصبِحا
50 وهدَّمتَ ما شادَ العِنادُ، وقد رَسَتْ أَواخِيهِ، في تلك الهَزاهِزِ، رُجَّحا

قال القاضي النعمان بن محمد(144):

وأدخل المعزّ لدين الله (ص) ابن واسول إلى نفسه بعد عدّةِ أيّام من وصوله، وهو في وثاقهِ. فلمّا مثل بين يديه أمره بالجلوس فجلس، فأمسك عنه حتّى رأى أنّه سكن روعه. ثمّ أقبل عليه من غير تجهّم فقال: ما الذي حملك على ما ادّعيتَه وتسمّيتَ به؟

قال: الحَيْنُ والجهل يا أمير المؤمنين.

قال: أوَ تحتجّ على ذلك بحجّة؟

قال: معاذ الله! ما عندي في ذلك من حجّة إلّا الاعترافُ بالجهل والخطإ على نفسي.

(قال) ونظر إليّ كالمستشهد بي. وذلك أنّه قال لبعض من فاوضه: بلغني أنّ القاضي له تآليفُ وكتبُ أحِبّ أن أرى منها شيئاً. فلمّا عرّفني ذلك الذي قال له، بسطتُ له كتاباً في الحجّة عليه فيما ادّعاه من الإمارة بغير عَقد إمام، وما تعدّى إليه بعد ذلك من ادّعائه الإمامة وتسمّيه بأمير المؤمنين وتلقّبه بالشاكر لله، والرّد فيما بلغنا عنه أنه آحتجّ لنفسهِ بهِ. فتعاظم ذلك لمّا انتهى إليه، واعترف بالخطإ والجهل على نفسه. وعلم بذلك أمير المؤمنين (ص)، فقلت له: يا أميرَ المؤمنين (ص) بمثل هذا من قوله اعتصم وعليه عوّل. فقال له (ص): أفتحلف بالله وتشهدهُ على قولك أنّه اعتقادك ونيّتك؟ فحلف

(144) المجالس والمسايرات، 414 - 417.

على ذلك وأشهَد الله (عج) على نفسه أنّه اعتقادُهُ ونيَّته كالذي أظهر وقال به.

ثمّ جعل أمير المؤمنين (ص) يبسّطه ويسأله عن أخباره وأخبار البلد الذي كان به. ثمّ إذا مضى في ذلك/ عاوده في ذكر (ط 100) حجّةٍ إن كانت عنده في دعواه، فيرجع إلى الاعتراف بالخطإ والجهل على نفسه.

69/2

المعزّ يجادل ابن واسول..

فكان فيما سأله عنه (صلع) أن قال له: ما كان يقول الناس عندك فينَا وينسِبونَنَا إليه في الذي ننتحِلُه ونقول به؟ فسكت. فقال له: قل ما عندك من ذلك وما قيل لك فيه فإنّا لا نأنف من سماعه، ولا نُنكرُ عليك أن تقوله وإن كان من أفحش ما قاله المُبطلون الظّالمون. إنّما يأنف من سماع المكروه فيه عمَّن نسَبه إليه، مَن كان من أهله، وكان يعلم أنّ الذي قيل هو عليه، فيغتمّ لذلك إذا أبداه الله (عج) عليه، وأشهره به، وعلِمه الناس منه، فيستحي لذلك. فأمّا من علم مابينه وبين الله، وأنّه نسب إليه من المكروه ما ليس فيه وما لم يفعله، ممّن له تَمَيُّزٌ وعَقلٌ، فإنّ سماع ذلك ممّا يحبّه لما يرجوه من ثواب الله (عج) عليه، وانتقامه ممّن قاله فيه ونسَبه إليه. ونحن نُحبّ سماعَ مثل ذلك ونشتهيه. فقل ما بلغك عنّا ولا ترجع عن شيء منه!

.. ويستفسره عن الأقاويل في الأئمّة...

فقال: إن رأى أمير المؤمنين (ص) أن يُعفيني من ذلك فليفْعَلْ، فإنّ لساني لا ينطاعُ للقول بذلك.

فقال له: أليس فيما بلَغنا أنّه انتهى إليك عنّا أنّا ندفَعُ نبوّة محمد (ص) وندّعي النبوّةَ بعدَه، وندفعُ سُنّته وشريعَتَه وندعو إلى غيرِهما؟ فسكت. فقال لَهُ أمير المؤمنين: ويحك قل! أليس قد بلغك أنّ ذلك ممّا قيل عنّا ونسب إلينا؟

قال: نعم.

فقال (عم): فلعن الله من قال بهذا وانتحلَه وادّعاه ومن تقوَّله علينا، ورمَانا به ونسبه إلينا! فكيف نقول ذلك أو ندّعيه، وشرَفُنَا الذي جَلْبَبَنا اللّهُ جلبابه وفخرُنا الذي ألبسنا أثْوابَه، بجَدّنا محمد (ﷺ)؟ فبه علَوْنا على الأمم، وبه فخرنا على العرب والعجم! فكيف ندفَعُ نبوّتَه أو نُنكِرُ فضلَهُ أو ندّعِي أنَّ ذلك لنا دونه؟ واللّهِ لو بعث الله نبياً بعده - وكلاّ، لا يكون ذلك! - لكُنّا لتمسُّكِنا به أبعدَ الناس وأرغَبَهُمْ عنه. إنَّ بني عبد شمس عادَوْنا فيه وأبغضونا من أجله لمّا قال قائلُهم: أطْعَمْنَا (ط 101) وأطْعَمْتُمْ وفعَلْنا من الجميل مثلَ ما فعلْتُم حتّى إذا كنّا كفَرَسَيْ رِهان قلتُم: مِنَّا نبيٌّ! واللّهِ لا سلَّمْنا ذلك ولا أقرَرْنَا به إلَيْكُم.

فإذا كنّا نحنُ ندعو إلى البراءة من شريعة جدّنا محمد (ﷺ)، فمن ذا يدعو إلى الاعتصام والتمسّك بها؟ بلى والله! فإنّنا إن قلنا إنَّ الله (عج) أورَثَنا شرفه ومجده وفخرَه، وأقامنا أئمّةً للأمّةِ بعده، وأوجَب لنا على الناس من الطاعة بعده مثل الذي كان يجب له، لصدقنا، لقول الله (عج): ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (النساء، 59). فنحن والله أولو الأمر الذين تعبّدَ اللّهُ الخلقَ بطاعتنا، وأهل الذكر الذين أمرَهم بسؤالنا على رغم مَن جَحَد ذلك وأباه لنا. فهذا هو فضل الله (عج) علينا ونِعمتُه لدَيْنا، التي لا ننهض بأعباء شكرها إلاّ بعونه لنا. وهي الخطّة التي لا ينافسنا فيها إلاّ دعيٌّ مكابِر ولا يدفعُها عنّا إلاّ ضالٌّ كافر. وما بعدَها من خطّة فندّعيَها ولا فوقَها من رتبة فنسمُوَ إليها. وحسبُنا إن بلغْنا شكرَ نعمة الله (تع) عليها، فكيف ندَعُها وندّعي ما يَصْلِي اللّهُ من ادّعاه النارَ، ونقول بقول من أبطل نبوّةَ جدّنا محمد (ﷺ) من الكفّار؟ والله سائلٌ مَن قَوَّلنا من ذلك ما لم نقُلْهُ ومؤاخِذُه بقوله.

70/2

المعزّ ينفي هذه التهم

ثمّ قال له (عم): هات غيرَ هذا ممّا قيل لك فينا.

قال: ما أعرفه يا أمير المؤمنين، وفيما قلتَه محضُ الإيمان واليقين.

قال: بلى! لقد بلغنا أنّه قيل لك إنّا نعبُد رأساً عندنا ونسجُد له من دون الله، وينثر لنا الدنانير مِن فيه.

قال: سَمعْنا من يقول ذلك.

قال له أمير المؤمنين: فأيُّ رأسٍ قالوا هذا الرأسُ، رأسُ إنسان أم بهيمةٍ أم حيّةٍ أم ما هو؟

قال: لا أدري ما يقولون لعَنهم الله.

فقال (عم): بلى والله، إنّا لنعبُد رأسَ كلّ (ط 102) شيء وَإلاَهَهُ وخالقَه: اللّه ربُّ العالَمين، وهو الذي أعطانا وفضّلنا واصْطفانا وكرّمنا.

قال: كذلك هو والله يا أمير المؤمنين.

قال أمير المؤمنين: فالعجَب من هذه العقول الناقصة والأوهام الفاسدة التي تقبل مثل هذا المُحال من المقال وينطبع فيها ويثبُت عند أهلها حتّى ينسبُوه إلى أحد أو يقبلُوه من قول قائل، أو يصدّقوا به لو قد رأوه بأعيُنِهم أو سمعوا من يدّعِيهِ بآذانِهم.

وقال القاضي النعمان بن محمد[145]: وأمر أمير المؤمنين بابن واسول المدّعي الإمامة والمتسمّي بأمير المؤمنين، لمّا أتي به، فأنزل في سقيفة في القصر في وثاق. ودخل شهر رمضان، فسأل ابنُ واسول أن يصلّيَ الجمعة خلف أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (ص)/ وأخبر بذلك عنه. فقال للذي أدّى إليه ذلك عنه: قل له: إنّ الصلاة وجميع الأعمال لا تقبل إلاّ بنيّة واعتقاد، 71/2

(145) المجالس والمسايرات، 411 - 413.

ولو كنتَ تعتقد إمامتنا لم تَحُلَّ هذا المحلَّ ولم نكن لنبخَلَ عليك بسجلماسة ولا لها عندنا من الوزن ولا للدنيا بما فيها، ولَمَا كنّا نتكلّف في ذلك ما كنّا تكلّفناه من تعبئة أوليائنا في العساكر نحْوَك وإتعاب أنفسنا في تدبير ذلك وإقامته لك. فلو كنت رغبت عَنْ نِيَّةٍ منك في أن تأتمّ بنا لنِلت فضل ذلك وثوابَه وأنتَ وادِعٌ في مكانك آمنٌ في سلطانك بإقامتنا ذلك لك. وإذ قد أنكرت إمامَتَنا وادّعيتَ الإمامة دوننا إلى أن أظفرَنا اللّه بك وأقْدَرَنَا عليك، فماذا يغنيك أن تأتمَّ بنا في صلاتنا وأنت أسيرٌ في أيدينا على ادّعائك مقامنا؟

ابن واسول يرغب في الصلاة وراء المعزّ...

وإن كان الذي أردتَه من صلاتك بصلاتنا ما تبتغي به الفضل، وكان ذلك عقد نيّتك، وأنتَ معترفٌ بإمامتنا منكر لما كنت عليه، نادمٌ راجعٌ عنه، فوالله لَيَنْفَعُكَ ذلك صلّيتَ بصلاتنا أم لم تُصلِّ (ط 103).

وإن كنت إنّما أردتَ أن تُرِيَنَا من نفسك الميلَ إلينا وتتوسّل بذلك إلى ما يُرضينا، فوالله لا يرضينا منك إلاّ ما أرضى اللّهَ (عج) عنك، وإنَّ قلوبَنا لَبِيَدهِ وما يصرفُها إلاّ لمن رضيَ عنه وارتضى عمله وأحبَّ سعادته. فإن أردت منّا ذلك فأخلِصْ لله (عج) فيما بينك وبينه، واعتقد ذلك تجدْ ذلك عنده جلّ ذكره في الآجل، وعندنا بما يجعلُه لك في قلوبنا في العاجل، ودع عنك التزيُّنَ بالباطل.

.. فيجيبه أنّ صلاته وراءه باطلة إن هو لم يعتقد إمامته

(قال): فقال الرسول: فلمّا بلّغته ذلك تحيّرَ ولم يدر ما يقول غير أنّه قال: والله ما هذا إلاّ مِن كلام النُّبُوَّة، وهو ابنُ رسول الله (ﷺ) حقّاً، وهذا من ميراث حكمته.

(قال): وأخبره عنه بعض من كان يجتمع معه ممّن أذن له في ذلك، وفي أن يبسِّطه ويسألَه حوائجَه، أنّه سأل هل عنده من كلام أرسطاطاليس شيء؟ والذي سأله ذلك ممّن يُعْنَى بمثل هذه الكتب.

(قـال) فقلت له: مـا تريـد من كلام أرسـطاطاليس، وأصحـابُك يُنكرونه؟

قال: ينكر ذلك من لا يحسن.

فأدّى هذا القائلُ قوله هذا إلى المعزّ لدين الله (صلع) فقال له المعـزّ (ص): قـل لـه: لعلّك أردت من كتب أرسـطاطـاليس رسالته[146] إلى الاسكندر في الإبقاء على من ظفر به من الملوك، لتأخذ منها ما لعلّك تتوسّلُ به إلينا في الإبقاءِ عليك؟.

72/2

قال الرجل: فبلّغتُه ذلك من قول أمير المؤمنين فبُهت إليَّ وقال لي بعد حين: ما أظنّ من نَحلُهُم النبوّةَ نَحلهُمْ إيّـاها إلاّ من مثل هذا: والله ما عدا ما في نفسي، وما أردت إلاّ هذه الرسالةَ لمثل ما ذكر أنّي أردتُها له. ثمّ ذكر الحديث (ط 104) الذي يُؤثر عن رسـول الله (ﷺ): بُعِثت وفي هـاتين القـريتين - يعني مكّـة والطائف - أربعون رجلاً ظنُّ أحدهم كيقِين غيره[147]. قال: فإذا كان مثل هذا يوجد في سائر الناس فكيف في ذرّيّة النبيّين؟

قال القاضي النّعمان[148] بن محمد: وحضر عيد الفطر وتقدّمه نَوْءٌ عظيم وكثُر الوحل والطين. وذُكر ذلك للإمام المعزّ لدين الله (ص)، وما بالمصلّى منه وما في الطريق إليه من الماء والوحل والطين، وظنّوا أنّه يُصلّي صلاة العيد في المسجد، فقال (ص): يكون من ذلك ما يكون، لا بدّ من قضاء فرض الله (تع) في البراح على مـا أمر بـه جلّ ذكـره وسنّةُ رسـولـه (ﷺ). وذكـر حـديث

المعزّ يصلّي صلاة العيد في البراح رغم الماء والوحل

(146) رسالة أرسطو إلى الاسكندر في السياسة: ذكرها عبد الرحمان بدوي (مخطوطات أرسطو في العربية القاهرة 1959 ص 37 رقم 19) واعتبرها منحولة له.

(147) هـذا الحديث ذكـره النعمان في الـدعائم، 199/1، ولم نجـده في المصـادر المعروفة.

(148) المجالس والمسايرات، 457.

النبيّ (ﷺ) أنّه ذكر ليلة القدر من شهر رمضان فقال: رأيت أنّي أسجد فيها في ماء وطين، وأنّ الناس أمطروا بعد ذلك، فوكف المسجد وصلّى رسول الله (ﷺ)، فانصرف من الصلاة وقد أثّر الطين والماء في جبهته وأنفه لسجوده فيه[149].

وقال المعزّ (ص): وهذا من أقلّ ما ينبغي أن يفعل في ذات الله وأكثر منه، والله لو حَبَوْنَا في هذا الطين حبواً على الرّكب وكان ذلك ممّا يرضي الله عنّا ويقبله مِنّا لفعَلْناه. إنّ رسول الله (ﷺ) يقول: إذا سمعتم داعي آل بيتي فسارعوا إليه ولو حبوا على الثّلج والنار[150]. فإذا كان الله (تع) قد أوجب لنا هذا على عباده ونحن خلق من خلقه قد ابتدَأنا بفضله وأنعَم علينا بإحسانه، فكيف بما يجب له علينا وعلى الخلق؟ جلّ ذكره أن نرخّص فيه أو نتعاظمَ مشقّةً تدخل علينا من أجله! معاذ الله أن نستكبر عن عبادته أو نستحسر[151] من طاعته! (ط 105).

وخرج (عم) وخرج الناس في غد يخوضون الماء والطين فما انصرفوا إلاّ وقد تخضّبوا فيه ، وامتلأت ثيابهم منه، وكان مشهداً يرضي الله من وليّه وممّن ذهب فيه مذهبه إن شاء الله. 73/2

(قال): وكان هذا العيد وابن واسول وابن بكر معتقلان في سقيفة القصر، وكان وصولهما في آخر شعبان وظنّ الناس أنْ سيُقتَلا [نِ] إذا وصلا، فلمّا أبقِيَا قيل: إنّهُما يوم الفطر يُقتلان. فلمّا انصرف (ص) ودخل إلى داخل قصره، أحضرهما إليه، فمثلا بين

(149) رأيت أني أسجد في ماء وطين: ذكره البخاري في كتاب الصوم، باب تحرّي ليلة القدر، 2، وعند مسلم 3/171 - 172.

(150) حديث: إذا سمعتم داعي آل بيتي .. عند ابن ماجه حديثان، 4082 و4084 بلفظ مغاير. وقال الحاكم في المستدرك: حديث صحيح على شرط الشيخين.

(151) استحسر: تعب وكلّ.

يديه ـ وهو قائم على ظهر فرسه والرّمحُ بيده ـ فقبّلا الأرض ووقفا، فقال لهما: أيّهما كان أحسن لكما: أن تكونا اليوم في مثل حالكما هذه بمَعْصِيَتِكما وعداوتكما، أو تكونا اليوم في جملة أوليائنا ومن آئتمّ بنا، فتقضيان فرض ربّكما معنا، أو حيث كنتما على طاعتنا التي افترضها الله ـ تعالى ـ عليكما وعلى سائر خلقه، وأنتما وادعان سالمان آمنان؟

المعزّ يقيم الحجّة على ابن واسول وابن بكر

فلم يفهم عنه ابن واسول ما قاله، وأظنّ الخوفَ والذعر غلب عليه، فقال: بل الذي نحن فيه يا مولانا أفضل. فتبسّم أمير المؤمنين لمّا علِمَ بأنّه لم يفهم عنه. وأظنّ البائس إنّما ظنّ أنّه خاطبَه بمثل ما خاطبه به قبل ذلك. فإنّه (صلع) قال له قبل ذلك في يوم أحضره إليه: والله إنّك في حالك هذه التي أنتَ فيها ـ وإن كنت في الأسر والوثاق ـ لأفضل ممّا كنت فيه من معصية الله بتخطّيك إلى ما تخطّيْتَ إليه، وتسمّيك بما تسمّيتَ به، وإن كرهتَ ما أنت اليوم فيه. فقال: هو كما قال أميرُ المؤمنين (صلع). فأحسبه ظنّ أنّ الخطاب الذي خاطبه به أمير المؤمنين (ص) في هذا المَقام كذلك كان.

فأعرض عنه (ص) لمّا رآه لم يفهم قولَه، وعطف على ابن بكر (ط 106) فقال: أنت يا ابن بكر أمكننا الله منك وأنت على غيّك، فمننّا عليك، وأطلَقْنَاك من أسرك وصرفناك إلى بلَدِك، فما رعَيْتَ الإحسانَ بل غمطت النِّعَمَ وتغلّبت على البلاد دوننا، ودعوت إلى غيرنا[152] وتقول، فيما انتهى منك إلينا: هؤلاء الفواطم[153] ـ

(152) أي: إلى بني أمية بالأندلس.

(153) الفواطم: الأدارسة الحسنيون. يقول ابن خلدون، 47/4: وقدم جوهر بالفاطميين وبأحمد بن بكر ويحمد بن واسول أسيرين في قفصين. وعبارة الفواطم ليس فيها تهجين بالضرورة. وكذلك مصطلح الخوارج، والحوانف عندنا إلخ.

تعني الذين بناحيتك - سَتُرضي أحدَهم بقُلَةٍ من نبيذ وأتْرُجَّتَيْن تُهدي ذلك إليه، وتعني أنّا نحن لا نرضى منك إلّا بالكثير. فلو عقلت لعلمتَ أنّ الرَّاضِي منك بما وصفتَ، مثلُك في الحال أو دونك، وليتَك أقمتَ لنا ظاهراً أو كنت واصَلْتَنا بأترجّة لعلّك كنت تستميلُنا بها كما زعمت أنك استملت من استَمَلْتَه، ولكنّك نابَذْتَنَا وصارَمْتَنَا. ثمّ سارت عساكرنا إليك، فأظهرت أنّك على الطاعة وغلقّت دونهم أبوابَ مدينتك، ولم تخرج إلى عبدنا قائد عسكرنا[154]، وسألك أن تبعثَ بابنك ليكونَ نائباً عنك، فأومأتَ إلى أَسْوَدَ بين يديك، وقلت لرسوله إليك: «لو سألني عشرة من رأس هذا الأسودِ ما أعطيتُه إيّاها!» وتقاتِل عسكرنا، وتقتل أولياءَنا. ثمّ تكتب إلينا أنّه كانت بينك وبين القائد هينمة[155] وتسألُنا أن نُحِلَّك محلَّ الأولياء عندنا. أفترى لو أنّك أسخطتَ بعْضَ نسائك بعضَ السخط فقابلتَها بمثل هذا الذي قابلْتَنا به، أكانت راضيةً منك بمثلِه؟ فإيّانا يا شقيُّ تقابل بمثل هذه المقابلة، وعلينا تجترىء بمثل هذه الجرأة؟

74/2

يقول له (صلع) مثل هذا القول بغضَبٍ، والرمحُ بيده يديره فيها وسنانُه (ط 107) من قِبَل الفاسق ابن بكر، فظَنّ كثير ممّن حضر أنّه سيرسله إليه حتّى لقد تنحّى من كان واقفاً إلى جانبه. فأسكت الخائنُ ودهش، وأكثر ما قدر أن يقول: يا مولاي، أنا عبدك وقد أخطأتُ.

ثمّ عطف عليهما فقال: ما كنتما فاعلَيْن بمن يحلّ عندَكُما محلَّكُما عندي لو أنّ الله أقدر كلّ واحد منكما عليه كما أقدرني

(154) أي: جوهر.

(155) في المخطوط والمطبوع: هنيهة وفي المجالس، 459: هينمة. والهينمة: الصوت الخفي كابتهال المتعبد، ولعله يعني هنا: الاتفاق الضمني أو السري.

عليكما؟ فسكتا. فنظر إلى ابن واسول فقال: قل ـ والله الشاهد على ما في قلبك ـ: ما كنتَ صانعاً في ذلك؟

فقال: ومن أنا حتّى أشبَّهَ بعبدٍ من عبيد أمير المؤمنين (ص)، فكيف به في شيء من فعله؟

ثمّ تفحّج فرس أمير المؤمنين فبال، فتباعد كثير ممّن كان حولَه، وتنحّى ابن واسول قليلاً، وكان قبالته، وقد جرى من بول الفرس نحوه. فقال له أمير المؤمنين: لمَ تأنّفْتَ من بول الفرس؟

فسكت. فقال: قل في ذلك ولا علَيْك، فقد ترى كثيراً من عبيدنا فعل مثل ما فعلت.

حكم لحوم الحيوان وأبواله

فقال: يا أمير المؤمنين، قيل لنا إنّه نَجِس.

فقال: ولمَ قُلْتُم إنّه نجس؟

قال: لأنّه لا يؤكل لحمه، وما لاَ يؤكل لحمه فبوله نجس[156].

فقال له: وكيفَ لا يؤكَلُ لحمُه؟ أَوَلَمْ يبلُغْك أنّه يباع في مجازر المسلمين في كثير من أمصارهم؟

ثمّ نظر إليّ فقال: ما تقول أنت يا نعمان في ذلك؟

قلت: أقول فيه كما قال مواليّ وما رويناه عنهم عن رسول الله (ﷺ) أنّ عليّاً قال: مرّ رسول الله (ﷺ) برجل من الأنصار وبينَ يَدَيْه فرَسٌ له يكيد[157] بنفسه. فقال له

75/2

(156) الشافعي وأبو حنيفة يذهبان إلى أن بول الحيوان مطلقاً نجس. أما مالك فيقيس على لحمه: فما حرّم لحمه، فبوله نجس (بداية المجتهد، 77/1).
ويفهم من جواب ابن واسول أنه سنّي المذهب، أو، إن كان خارجيّاً، فموقفه قريب من موقف أهل السنّة.

(157) كاد بنفسه يكيد ويكود: احتضر وأوشك على الهلاك

رسول الله (ﷺ): آذبحه يضاعَفْ لك أجره بذبحه واحتسابك إيّاه.

فقال: يا رسول الله، ألي منه شيء؟

فقال: نعم. كل وأَهْدِ إلينا إن شئت.

فذبحه وأهدى منه فخذا إلى رسول الله (ﷺ). قال علي (عم): فأكل منه رسول الله وأطعمنا[158].

الفقه الشيعيّ لا يجيز لحوم الخيل إلاّ عند اليأس منها في زينة أو حرب

قلت: وعلى هذا أكثر العامّة يُجيزُونَ ذبح الخيل وأكلَ لحومها. فأمّا أهلُ البيت (ص) فإنّهم يرون ذبح ما عطِب منها ويُئِسَ مِنْ حياته كَهٰذا الذي وُصف أنّ رسول الله (ﷺ) أمر بذبحه لمّا كان يكيد بنفسه، ولا يرَوْنَ ذبحَ الصحيح السالم منها [لقول الله (تع): ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ (النمل، 6) وقوله: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ (الأنفال، 60) فأباحوا ذبحَ ما عطِب منها ويُئِسَ من حياته وأَكْلَ لحمه، بالخَبَرِ، وتوقّفوا عن ذبح السالم الصحيح منها][159]، بالنصّ، لما فيها من عزّ الإسلام وقوّة أهله وزينتهم إذا كانت سليمةً. فإذا عطِبَت ويُئِس منها زال عنها هذا المعنى وحلّ ذبحُها وأكْلُ لحمِها بالحديث، وبقول الله (تع): ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (الحشر، 8)، وقد روي عن رسول الله (ﷺ) في ذلك أخبار كثيرة.

فتبسّم (صلع) وصرف عنان فرسه فدخل من باب الخاصّة إلى

---

(158) الحديث عند ابن ماجه، 3190 و 3191، وعند البخاري: كتاب الذبائح، باب لحوم الخيل، حديثان في الترخيص فيها. وانظر التعليق 3 ص 461 من كتاب المجالس والمسايرات، حيث عرضنا لأقوال المذاهب في لحوم الخيل.

(159) ما بين [ ] ساقط من رواية الداعي إدريس لكلام النعمان، وذلك لالتباس الأسطر عليه أو على الناسخ بسبب تكرر العبارة. وأصلحنا بإرجاع ما سقط، نقلاً عن المجالس، 461.

داخل قصره وقد نُصِبت الموائد للناس، وصرف القيِّمُ على الطَّعام ابن واسول وابن بكر إلى حجرة وقرّب إليهما مائدة فأكلا وصُرِفا إلى مكانهما.

وتحدّث الناس بما كان من أمير المؤمنين إليهما. وقال لي بعضهم: ما ظنَنَّا إلاّ أنّ ابنَ بكر سيقتل.

قلت: فلو قُتِلَ الآن أليس قد مضى بما فيه واستراح ممّا هو بسبيله، وإنْ كان صائراً إلى غضب الله؟ ولكنّ في متعتنا بالنظر إليه وإشهاده مثلَ هذه المشاهد وتقريعه بمثل هذا التقريع إلى أن يرى وليُّ الله فيه رأيَه، أفضلَ البُغية وأبلغ المأمول.

(قال): وكان القائد لـمّا أخذ ابن واسول وأمكنه الله منه، قد عاتب أهل سجلماسة، ثم رأى الصفح عنهم وولّى عليهم والياً منهم وانصرفَ. فوثبوا على ذلك الوالي فَقَتَلُوه وأقاموا مقامَه منتصِر ابن محمد بن المعتزّ[160] وكان أبوه وجدُّه قد وَلِيَا البلد باستعمال أمير المؤمنين، وكانا من أهل الوَلاية.

وكان ابن واسول لمّا تغلب على البلد اعتقل منتصِراً هذا وهو غلام حدَثٌ فأقام معتَقَلا عنده مدّةً. فقدّمه أهلُ البلد لـمّا قتلوا العامِل الذي استعملَه عليهم القائد، ونسبوا إليـه من القبيح مـا زعموا/ أنّه أوجَب قتله، وذكروا أنّ الغوغاءَ والعامّةَ قتلُوه، وذهبوا 76/2

(160) المنتصر بن محمد بن المعتزّ بن ساور المدراريّ: المعتزّ جدّه ولاّه مصالة بن حبّوس سجلماسة سنة 309، فبقي موالياً للدعوة إلى أن هلك سنة 321 قبيل وفاة المهدي. وخلفه ابنه محمّد بن المعتز إلى سنة 331، فخلفه ابنه المنتصر سمكو، وعمره ثلاثة عشر عاماً. فانتقض عليه ابن عمّه محمد بن واسول فخلعه. انظر: البكري، 151، وابن خلدون، 131/6.

ولا نعرف اسم الوالي الذي نصبه جوهر بعد أخذه ابن واسول. وانظر: المجالس، 389 هامش 2.

في تقديمهم هذا الذي قدّموه إلى ما هو عليه من الوَلاية والمحبّة. وقيل إنّه سعى في ذلك وأرسل رسولاً من فَوْره، وأرسل أهلُ البلد وكتبوا إلى أميرِ المؤمنين المعزّ لدين الله (صلع) يـذكرون ذلـك ويعتذرون منه ويصفُون حالَهم. فصرف رسولَهم بأنّه غيرُ قابلٍ ذلك من عـذرهم وأنّهم لا أمَانَ لهم عنـده إلى أن يـأتيَ وجـوهُهم، وسمّاهم، ويأتيَ منتصِرٌ هذا إليه مُحَكِّمِينَ في أنفسهم، فحينئذٍ يرى رأيَه فيهم.

وانصرف الرسول بذلك إليهم فما كان إلاّ مقدار مسافَة وُصُولِهِ إليهم وانصرافه حتّى أتى منتصر هذا الذي قدّموه ومائتا رجل من وجوههم، وهم الذين سمّاهم أميرُ المؤمنين، قد ركبوا طرُق الرّمال والفلَوات خوفاً من أن يصل إليهم أحد دون الباب، حتّى حلُّوا به، فأدخلَهُم أميرُ المؤمنين (صلع). فلمّا مثلوا بين يَدَيْهِ وقَبَّلُوا الأرْضَ وَوَقَفُـوا نظر إليهم نِـظرةَ مُغْضَبٍ وأطرق سـاعة فـامتقَعَتْ ألوانهُم وارتعدت فرائصهم ولم يستطع أحد منهم أن ينـطِقَ بحرف لمَـا داخلَهم من الخوف. فرفع رأسه فقال:

يا أهلَ سجـلماسة، فعلتم ما فعلتم في أيّام المهديّ بالله (صلع) واقتـدر عليكم مرّة بعد أخرى فعفا عنكم وأحسن إليكم لحلوله الذي كان فيكم[161] ومجاورته إيّاكم مدّةَ إقامته فيكم، كما يرعاه من أحلّه الله محلّه من كرم الطباع وحُسن الصنيع، من غير يدٍ كانت لكم عنده ولا فعـل من الجميل تقـدّم لكم إليْه، فصفـح وأحسن (ط 110) وعفا وأجمَلَ، فما رَعَيْتُم ذلك حقَّ رِعايته ولا قُمْتُم بشُكره. ثمّ نعق فيكم ناعقٌ من الشيطان فلبّيْتُمُوه ودعاكم إليه داعٍ فأجبتُمُوه. قام فيكم دعيٌ فيما ادّعاه متوثّبٌ على ما تولاّه قد عرفتم

(161) أي: نزوله بسجلماسة أول دخوله المغرب.

نسبه ودريْتم سببه فَتَغَلَّبَ على ولاية أمركم وتحلّى بالرياء والتصنّع لكم وتسمّى بأمير المؤمنين وإمامِ المسلمين لكم، وأنتم على علم لا تشكّون، ويقين لا تمترون، أنّ ذلك لا يجوزُ له ولا يحِلّ تسليمه لمثله، فسلّمتموه له وأطعتموه وتولّيتُموه واتّبعْتُموهُ ففارقتم جماعةَ المسلمين وخرجتُم من حزب المؤمنين وأحدثتُم حدثاً عظيماً في الدين، وانتهى إلينا من أمركم وأمرِه ما لم يَسَعْنا تركُه والغفلةُ عنه/ لما افترضه الله علينا عزّ اسمه من القيام بحقّه في أرضه وجهادِ مَن صدف عن دينه وغيّر سنّة رسوله وحلّ محلّكم وَمَحَلَّ هذا الفاسق فيكم. فأنهضْنا إليكم جيشاً من أوليائنا وأنصار دولتنا وعبيدنا مع عبد أمّرناه عليهم وتقدّمنا إليه في الإعذار والإنذار إليكم في الإنابة والتّوبة قبل الوقوع بكم. فلم يزَل مع طيّ المراحل نحوَكم يتابع الكتُبَ إليكم مع رسله تأكيداً في الحُجّة عليكم مرّة بالوعد ومرة بالوعيد، وتارة باللين وتارة بالتشديد، يدعوكم إلى الطاعة والنزوع عمّا أنتم عليه من المعصية والضلالة، والقبضِ على عدوّ الله فيكم إن تمادى على ما هو عليه من الغيّ والضّلالَ إن استطعتموهُ، أو البراءة منه وتركه بجانب إن لم تقدِروا عليه. ووصلَت كتُبُه إليكم وأدّى إليكم عنه من اجتاز به منكم. كُلُّ ذلك، و أنتم على باطلكم مُصرّون، وبالفاسق المضلّ لكم متمسّكون، إلى أن حلّت جيوشُنا بقربكم وانتشرت عساكرُنا ببلدِكُم وعاين مَن عاينَها مِن عيون عدوّ الله مِن جمعِها وعتَادها وقوّتها ما أنهاه إليه، وقد علم أنّه لا طاقةَ لكم ولا له بعسكر من عساكِرِها.

77/2

المعزّ يوبّخ وجوه سجلماسة على مؤازرتهم لابن واسول..

فلمّا حلّت بعَقوَتِكُم ونزلت بداركم وأنتم مع الفاسق على ما أنتم (ط 111) عليه، نهض مولّياً عنكم وهارباً متسلّلاً من بين أظهركم. وقد كنتم تقدرُون على أخذه لو قَصَدْتُموه ويمكنكم من ذلك ومن حصاره في داره متى أحببتموه لو أخذْتُم بحظّكم في ذلك

ففعلتموه. لكنّكم أقمتُم مصرّين على طاعته وتولّيه إلى أن نـزع عنكم وأقدَرَنَا الله (عج) بفضله وإحسانه عليه، كعادته الجميلة، بلا صُنع لكم ولا لغَيْركم في ذلك، وأقدرنا عليكم وأمكَنَنا منكم وأنتم على ما أنتم عليه من غيّكم وضلالتكم وما تستوجبون به اجتياحَكم ودَمـاركم، فسار عبـدُنا فيكم بمـا أمَرنـاه به من العفـو والصفح والرحمة، وانصرف عنكم فأحدثْتُم بعده ما أحدثْتُم. فماذا تستحقّون أن يُفْعَل بكم؟

يكلّمهم بهذا الكلام (صلع) كلامَ مغضب. فاصفرّت ألوانهم وتغيّرت وجوهُهم وآرتعدَت فرائصُهم وأفحِم أكثرُهم عن الكلام. وقال من قال منهم قول مذعور دهش: إن يعاقِبْ أميرُ المؤمنين (ص) فنحن أهلُ العقوبة، وإن يعفُ فهو أهـلُ العفو والفضـلِ والرحمة.

78/2 فأطرق (صلع) مليّاً ثمّ دعا بمنتصر بن محمد بن المعتز/ فقرَّبَه إليه وأمرَهُ بالجلوس فقبّل الأرضَ مراراً وشكر لأمير المؤمنين. ثـم عـطف (صلع) على الوَفْـدِ فقال: قـد كنتم تستحقّون أليمَ العذاب والنّكال. ولكنّا لِلّذي جبلَنا الله عليه من الصّفح والعفـوِ والرحمة قد عفَوْنا ما سلَف من ذنوبكم ما استـقمتم وأصلحتم وقد استَعْمَلنا عليكم عبدنا هذا ـ وأومأ إلى منتصر ـ.

.. ويصفح عنهم في النهاية

فقبّل، وقبّلوا، الأرض مراراً وشكروا بما قدروا عليه، وزال ما ظهر عليهم من الهلَع والجزع وأمر (صلع) بصرفهم إلى مـوضع أنزلَهم فيه وخلع على منتصر وحمَلَه، وكذلك فعل بجمـاعةٍ من وجوههم وأمر بإجرَاء النُّزُل عليهم أجمعين وأقـاموا بـذلك مدّة في أرغد عيش وأحسن حال. ثمّ لمّا رأى صرفهم (ط 112) عقد لمنتصر على سجلماسة وعملِها وخلـع عليه خِلَعاً سَنيّة وحمله على عُدّةٍ من

الخيل بسروج مغرّقة[162] ووصلَه بصلات جزيلةٍ وحمَل جميع من قدِمَ معه وكساهم ووصلهم وصرفهم إلى بلدهم بما لم يؤمّلوه ولم يتوهّموه. وكان غاية آمالهم أن يَسلَموا من القتل. فانصرفوا وقد طالت بالشُّكرِ ألسنتهُم ومُلئت فـرحاً قلوبُهم.

* * *

قـال الحسن الأنصاري في تاريخه: «وفي إحدى وخمسين وثلاثمائة، قتل إبراهيم بن أبي يزيد، وأنفذ برأسه إلى الإمام المعز لدين الله (عم)، قتل بأوراس من أعمال باغاية. وكان قد جمع جموعاً ليخرج، فعمل أبو الحسن الموصلي[163] العامل بباغاية عليه حتى قتله.

فتح طبرمين (ذو القعدة 351/ ديسمبر 962)

(قال): وفيها فتحت طبرمين من بلاد الروم، فتحها أبو القاسم علي بن الحسن بن علي بن أبي الحسين في حياة أبيه/[164]».

* * *

وممّا أتى عن القاضي النعمان بن محمد (رضي الله عنه) قال[165]:

ولمّا أراد الإمام المعزّ لدين الله (صلع) أن يطهّر عبد الله،

---

(162) غرّق السرج بالفضة. حلاه.

(163) عند ابن الأثير، 45/7: حسين بن خلف الموصدي، سماه المعز على الخراج قبل رحيله إلى مصر، ولا ذكر لابراهيم بن أبي يزيد عنده ولا عند غيره. فهذا ابنٌ سادس لمخلد ينضاف إلى أحمد وأيوب وفضل ويزيد ويونس.

وهذه المعلومة وردت في هامش المخطوط، على عادة ما ينقل عن هذا المؤرّخ المجهول. ولا يذكر المؤرّخون عاملاً لباغاية بالاسم المذكور هنا، وكذلك لا يذكرون هذا الثائر المقتول سنة 351.

(164) انتهت هنا الإضافة من تاريخ الحسن الأنصاريّ. وإنّ طبرمين بصقلّيّة فتحت «لخمس بقين من ذي القعدة سنة 25/351 ديسمبر 962 (النويري: نهاية الأرب، 370/24) ولكن فتحها تم على يد أحمد بن الحسن بن عليّ الكلبي، وكان عوّض أباه على ولاية صقلية من 341 إلى 358 (ابن خلدون، 209/4). أما أخوه علي، فلم يصر والياً عليها إلّا ابتداء من سنة 359.

(165) المجالس والمسايرات، 556.

ونزار العزيز بالله، وعقيلاً بَنيهِ[166] تقدّم إلى خاصّته وأوليائه وسائر جنده وعبيده وجميع رجاله وكافّة مَن بالحضـرة من سائـر التّجار والصنّاع وعامّة الرعيّة بالمنصورية والقيـروان، وجميع أهـل مدن إفريقيّة وكورها من حاضر وباد، وأمر بالكتب إلى العمّال من لدن برقة وأعمالها إلى سجلماسة وحدودها وما بين ذلك وما حوته مملكته وإلى جزيرة صقليّة ومن بها من طبقات الناس في حضر وبدو، أن يتقدّموا في طهور أبنائهم يوم الثلاثاء أوّل يوم من شهر ربيع الأوّل من سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة إلى انقضاء هذا الشهر، وأمر أن يحمل إلى كلّ بلد من (ط 113) هذه البلدان من الحضرة أموال وخلع تُفرّق على كلّ من طهّر من أبناء المسلمين من خاصٍّ وعامّ.

الإعذار الجماعيّ...

(قال): فكان الذي رأيناه حمل إلى صقليّة من المال خمسين حِمْلاً سوى الخِلع، ومثل ذلك ونحوه إلى كلّ عامل ليفرّقه على أهلّ عمله. وتقدّم (صلع) في طهـور أولادِه/ يوم الثـلاثاء هـذا المذكور، وجلس بنفسه الزكيّة لطهور سائر أهل الحضرة ومن يليها من البوادي، وأمر بضرب سرادقات بساحة قصر البحر حول الماء وبإدخال الصبيان مع من أراد الدخول معهم من آبائهم وأمّهاتهم وعبيدهم وخدمهم، ومن أرادوا أن يطهّروه من عبيدهم. واعتزم على أن يصل الطهور أيّام هذا الشهر كلّه. وذاع في الناس أنّه أمـر (صلع) أنَّ من لم يطهّر ولداً يكون عنده في هذا الطهور ثمّ يطهّره بعد ذلك لمدّة سبع سنين فقد أنف عن فضله، وخالف أمـره. فسارع الناس بأبنائهم وعبيدهم عن كافّتهم. واتّصل به ما أشيع من ذلك، فقال: لقد أحسن من أشاع هذا، وما يتخلّف عنّا في ذلك مَن يحبّ أيّامنا.

79/2

(166) أما البكر من أولاده، وهو تميم الشاعر، فعمره إذ ذاك أربعة عشر عاماً: فقد ولد سنة 948/337.

وكان يجلس (صلع) من وقت الغداة، فلا يزال جالساً وهم يطهّرون ويمرّون بين يديه فيُكْسَوْن، ويوصَلُون لا يخيّب من ذلك منهم شريف ولا مشروف، ولا حرّ ولا عبد، ولا قريب ولا بعيد، ولا حاضر ولا باد. والختّانون في السُّرادقات على الكراسيّ وبين أيديهم المنابر لجلوس الصبيـان، والقوم يمسكونهم في حجورهم ويذرّون الذرارات المُمْسِكَة للدّم على ختاناتهم، ويقفون بالبخور وماء الورد على رؤوسهم يرشّونهم على وجوههم لما يعتريهم من الرَّوْع، والسُّنْدُ بأصناف الملاعب قيامٌ عليهم يُلْهُونَهُم ويصحَبُون من طُـهِّر منهم يزفّون به إلى منزله(167).

وكان الذي أعطاه الخاصّة من الخلَع والصلات على أقدارهم ما يتفاوت ويطول ذكره. وكان الذي أعطاه العامَّةَ من الصلة غير الكسوة: لكلّ صبيّ منهم مائتا درهم (ط 114) إلى مائة وخمسين. وأقلّ ما أعْطِيَ المجهولون من أهل البوادي ونظرائهم وعبيدهم: كلّ صبيّ منهم عشرة دراهم. وكان يطهّر في كلّ يوم من أيّام هذا الشهر منهم من عشرة آلاف صبيّ إلى خمسة آلاف أقلّ ذلك. وأكثر الناس الخوض والحديث في ذلك، وتعاظموه، وأجمعوا في ابتداء الأمر أنّ ذلك لا يتمّ وأنّ الأموال لا تنهض به، وذكروا لكثرة ما رأوه من الخلائق أنّ ذلك لو وصل حولاً لما انقطع الناس ولا أُتِيَ على آخرهم فيه.

80/2 (قال): وكنت فيمَن/ تعاظم ذلـك وتداخلَهُ الإشفـاقُ منه، وعرّضت يوماً بذكر ذلك، فقال لي: يا نعمان، طب نفساً، فقد عزلنا لهذا ما لا نرى أنّا نأتي على نفَقَتِه فيه بأسره. واللّهِ ما هو

---

(167) ذكر المقريزي (اتعاظ، 136) أرقاماً عجيبة في عدد الأطفال المختونين في هذا الإعذار الجماعيّ. والسند هنا هم البهلوانيّون والمهرّجون.

شيء كنّا نُلقي له بالا ولا وجدنا لإخْرَاجِه نقصاً ولا خللاً، وما هُوَ مِمّا كنّا نلتفت إليه من ذخائرنا ولا من ذخائر الآباء (صلع)، وما هو إلّا شيء كان لا يُلتَفَتُ إليه، وكثير ممّن تقدَّمَنا من ملوك الدنيا أنفق مثلَ هذا وأضعافَه في معاصي الله (عج)، وفيما تبقى شناعته عليه.

... إحياء لسنّة الرسول (ﷺ)

وهذا شيء أردنا به وجهَ الله (عج) وإقامةَ فرضه وإحيَاءَ سنّة جدّنا رسوله (ﷺ) ومِلّة خليله إبراهيم (ص). والله مَا أردنا بذلك إلّا الله (عج) والقربةَ بذلك إليه، وما من هؤلاء من يريد بذلك التحبّبَ إلية ولا التزيُّنَ بذلك عنده. وقد عزلنا لذلك مالاً لا بدّ لنا من إنفادِه فيه، ووقّتنا له وقتاً لا بدَّ لنا إنْ عِشنا أن نبلُغَ بِهِ إليه - يريد مدّة هذا الشهر الذي وقّته لذلك (صلع) -.

وكان من صنع الله (عج) له أنّه لمّا كان يوم الأربعاء سلخُ ربيع الأوّل هذا، انقضى جميعُ مَن كان بالحضرة ومن حضر إليه من البوادي، واجتمع ذلك اليومَ من الصبيان زُهاء اثنَيْ (ط 115) عشر ألفاً فطهّروا عن آخرهم، وتلاحق من غد بقايا من بقِيَ من نحو ثلاثمائة، فرآهم المعزّ لدين الله (ص) من منـظر كان لـه، وَقَدْ اجتمعوا بباب القصر، فأمر بتطهيرهم. فانقضى أمر جميع الناس عن آخرهم في الوقت الذي وقّته والحدّ الذي حدّه، حتّى إنّهم لَوْ حُسِبوا وقُسِّموا على تلك الأيّام لما اتّفق أن يكونَ ما هيّأه الله (عج) من فرَاغهم عن آخرهم في الوقت الذي وقّته لهم.

وجرى على ذلك جميع أهل الكـور والبلدان بكلّ وجـه، وأخْرَجَ في ذلك من الأموال والخِلَع والنفقاتِ ما لا يُحصِيه إلّا مَن وقف عليه. وكانت أيّامُ هذا الشهر أيّامَ أعيـادٍ ومسرّاتٍ وأفـراحٍ وهِباتٍ بكلّ وجه وجهة من مملكة أمير المؤمنين (ص) من بدو وحضر، وعمَّهُمْ فضلُه، وتبيّن عليهم أثَرُه، وارتفق به أغنياؤُهم، وانتَعَشَ له فُقَرَاؤُهم، ودخلت المسرّة على أهل كلّ بَيْتٍ منهم.

وكان أثراً جميلاً لم يسبُقْه إليه (صلع) أحدٌ قبلَه، ولا ظنَّ أحدٌ أنَّ أحداً يتّسع له مثله. والحمد لله على ما أولى وليَّه وأنعَمَ به عليه[168].

[أخبار الدعوة بالسِّند]

وكان فتح بالسند لأمير المؤمنين المعز لدين الله (عم). وكان بتلك الجزيرة أحد الدعاة ممن خلط وغيّر، واستجاب على يديه قوم كثير من المجوس، فتركهم على كثير ممّا هو محرّم في الإسلام/ مما يستحلّونه في دينهم. وكان قد بلغ أميرَ المؤمنين المعزّ أمره فاستهاله واستفظعه، تواضعاً لله، وإحياءً لملّة جدّه محمّد رسول الله (ﷺ). وكتب إلى أهل دعوته بالسند برفض ذلك (ط 116) الداعي المغيِّر لدين الله وآعتزاله، لتضييعه الواجبَ عليه من دين الله، من النهي عن المنكر والأمر بالمعروف في أقواله وأفعاله.

81/2

داع بالسند يتسامح في أحكام الدين مع منظوريه..

وأقام الداعي حليم بن شيبان[169] في تلك الجزيرة، لما هو عليه من العبادة والاستقامة، وحسن النيّة وصفاء السريرة. فلم يصل كتاب أمير المؤمنين (عم) إلّا وقد هلك الداعي الذي توانى في ما يجب عليه. وأقام المؤمنون حليم بن شيبان حتى يُؤْذنوا الإمامَ ويُنْهُوا أمرَهم إليه. وقد قصّ ذلك القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه) في بعض ما ألّف حيث قال[170]:

وكان بعض الدعاة بجزيرة نائية في صُقع بعيد يدعو إلى أولياء الله بعد دعاة تقدّموا قَبْلَه في المكان الذي هو فيه، واستجاب لهم قِبلَه وإليه خلقٌ عظيم من أهل تلك الناحية، وعامّةُ أهلها مجوس، ولكن قد كان الإسْلَامُ فشا فيهم قديماً، فاتّصل بأمير

(168) المجالس والمسايرات، 558

(169) قد مرّ الحديث عن حليم بن شيبان داعي السند في ص 233، وتحدثنا عن قضيّة النسب الفاطميّ وعلاقة المهديّ بالقائم، وهو الموضوع الذي طرقه المعزّ في سجلّه إلى الداعي.

(170) المجالس والمسايرات، 477 - 481.

المؤمنين المعزّ لدين الله (ص) أنّ هذا الداعي آخراً أحدثَ فيهم حدَثاً: وذلك أنّه دعا عالَماً كثيراً من المَجوس وهم على دينهم لم يُسلِموا، وتركَهم على ما هم عليه يستحلُّونَ من محارم الله ما كانوا يستحلّونَه، ويعمَلُون ممّا نهى الله عنه ما كانوا يعملونه من نكاحِ ذواتِ المحارمِ، وتناول ما لا يحِلُّ من المشارب والمطاعم، تعدّياً منه لحدودِ الله (تع)، ووضعاً لأمانته عزّ اسمه عند من لا يحِلّ وضعُها عنده، لعاجل دنيا أراد نَيْلَه بذلك منهم، واستكثاراً فيما حسّنه سوءُ رأيه له بهم. ثمّ تعدّى ذلك إلى أن أباح محارم الله (تع) لبعض أهلِ دعوته من المسلمين وغيرهم.

فعظُم على أمير المؤمنين من ذلك ما تناهى إليه، وأكبره، وتبرّأ إلى الله منه، ولعنَه، وأهمَّهُ أمره، وأشغل صدره. وكان قد أنفذ إليه رسلاً من قِبَلِه، وطوى عنه ما هو عليه. وسأل الإمامُ الرُسُلَ عن ذلك، فأعْلَمُوهُ به، وكان فيهم خير، فعرّفهم (صلع) عظيمَ ما (ط 117) ارتكبه من ذلك، فتبرّأوا منه، وتابُوا إلى وليّ الله من اتّباعه على أمره، ودعّاهم وطهّرهم[171].

ثمّ سألهم ومَن بالحضرة من أهل النّاحية غيرهم عن أفضلِ مَن فيهم، فسَمُّوا له/ رجلاً، فكتب له بالعمل على أهل تلكَ الجزيرة وإطْلاعِ من يَثِق به من المؤمنين المخلصين قِبَله على ذلك، واستعمال الحيلة في قتل عدوّ الله المرتدّ عن دينه، المبتدع ما ابتدعه، ونَسْخ بِدْعته وإظهار دين الله على ما أمر الله وأولياؤُه به. وأنفذ أولئك الرسل بذلك وبكتابٍ إليه جواباً عن كتابه، وبما رأى (ص) أن يكتُبَ به إليه. وعرَّفَنا ذلك في الوقت أهلُ خاصّة مجلسه وتفرَّجَ بما اغتمّ به من ذلك إلينا تفضّلاً وتَطَوُّلاً[172].

82/2

فيأذن المعزّ بقتله..

(171) دعّاهم بالتضعيف: أدخلهم في الدعوة أو نصبهم دعاة.

(172) هكذا وردت الجملة في المجالس أيضاً، ص 478، وهي لا تخلو من غموض.

وكنّا نترقّب ممّا نخشى أنّه يحدث عن ذلك في تلك الناحية ترقّبَ الْمُشفِقين، وقلنا: قومٌ تطعَّمُوا المحارم فمـا الذي يـردُّهم عنها، وقد فشت فيهم وصارت ديناً عندهم؟ وكان تخَـوُّفُنا على المكتوب إليه أغلبَ من الرّجاء في هلاك الفاسق المبدّل، غيرَ أنّا نرجع في ذلك إلى الثّقة بالله لوليّه، وأنّه كما عوّده يبلّغه ما يرجوه ويؤمّله. فما كان إلاّ بقدر وصولِ الرسُلِ إلـى المـكان وانصرافهم إذ جاء رسل آخَـرون من تلك الجهة بكتب وأمـانات حمَلوهـا، فأدخلهم (صلع) فقبّلوا الأرض بين يديه، ومرّغوا خُدودَهم تقرّباً إليه، وحمِدوا الله وشكروه على أن بلّغَهم إليه وأدناهم وقرّبهم منه. ويَعُدّ من حضر في مجلسه عنه بحسَب ما يجِب لمكان سرّ إن أخذ معهم فيه، فسألهم عن الحال. فتكلّموا بكلام طويل نسمَعُه ولم نصرف الأسْمَاعَ إليه، تقيّةً من أن يكون ممّا لا ينبغي لنا سماعُه، وننظر إلى وجهه يتهلّل لِمَا يَسْمَعُـه، ويُكثِر من حمد الله حتّى إذا انقضى كلامُهم وانصرفوا التفَتَ إلينا متهلّلاً مستبشراً مسروراً فقال: قد سمعتم كلام القوم؟

قلنا: سَمِعْنَاه ولم نَفْهَمْ.

فقال: نعَم، فاسمعوه: ذكروا أنّ الله (تع) قد كثّر أهلَ دعوتنا وأولياءَنا قِبَلَهُم، وإن كان هذا الفاسق قد بثّ ما بثّه فيهم، فإنّه لم يشتهر عنه كلّ الاشتهار، ولم يكن اطّلعَ عليه إلاّ أهلُ ثِقَتِه ومَن قَرُب منه، وأنّ اللّه (تع) أقْبَلَ بملِكٍ من ملوك أهل الناحية له قوّةٌ ومنَعَة وعُدّة ورجالٌ، فاستجاب إلى الدعوة بمَنْ مَعَهُ، وصار في حزب المؤمنين، وقويَ به أمرُهم وأظهروه، وأعلنوا باسمي وشهّرُوه وكتبوه على الأعْلام، وخطبوا/ به على المنابر، وأنّ ملوك الناحية أنكروا ذلك عليهم، فأقبلوا بجموع عظيمة إليهم لا يحصى عددُها، ولا يبلغ عددُ المؤمنين عُشَيْرَ مِعْشارها. فلمّا رأى الملك المستجيبُ

لكنّ عقاب الله عاجله فخرجت الدعوة مطهّرة منصورة.

83/2

وأصحابُهُ ذلك، اجتمعوا في موضع واحتفروا عليهم خندقاً، فما هو إلّا أن وصل عدوُّهم إليه/ و/ ردموه لكثرتهم ساعةَ وصُولِهم إليه، واقتحموه عليهم، فأمر ذلك الملِك المستجيبُ أصحابَه بالحَملة عليهم مع جماعة المؤمنين، وقد حسُنَت بصيرتُه وخلُصَت نيّته، فقالوا له: على من نحمل وبين أيدِينا عدَد الثرى؟

فقال: لا تنظروا إلى ما بين أيديكم من الملإ، ولكن انظروا إلى السّماءِ، فإنّ مَن عليها معكم، وهو ناصركم ومؤيّدكم! فحملوا حملةَ صِدْقٍ بنيّاتٍ خالصة، وحَمَل جماعتُهم وحمل معهم، فانهزم الملأ بين أيديهم مِن عدوّهم، ومَنَحَهُم اللّه أكتَافَهُم. فقتلوا منهم ما لا يُحصى عدداً، وغنِمُوا من أموالهم وسلاحهم وكُراعهم ما امتلأتْ منه أيديهم، وفرّق اللّه جمعَ عدوّهم، وأقبل النّاسُ ممّن حولهم بالطّاعة لهم والتسليم لأمرهم، فدانت لهم مدنٌ كثيرة، واستعمَلُوا عليها عمّالاً، وأظهروا فيها دعوتَنا، وحازوا لأنفسهم معقِلاً حصيناً بقلعة شاهقة منيعة قطنوا بها (ط 119) واتّخذوها دار هجرة.

والداعي اللعين المبدّل فيهم يعتقدون طاعته لولائِنا ويعظّمون أمره إذ كان يدعو إلينا. فما هو إلّا أن انتهى الرسل الذين حملناهم في أمره إلى أدنى عمل الجزيرة، ولم يبقَ بينهم وبين الموضع إلّا مسيرة شهر حتّى أذن الله (تع) في الفاسق بما أرَدْناه بلا عَنَتٍ ولا تكلُّف، فطرَقَتْه علّة[173] أعجلَه الموتُ فيها عن أن يوصيَ لأحد بمقامِه، ولا أن يُقدّمَ أحداً لمكانه فيكون قد سدّ موضِعَه وقام مقامَه. وكفى الله مؤنته، وبلّغنا في عفافٍ ما أردناه منه بفضله ونعمته، وما عوّدَنَاه من جميل عادته.

(173) في المخطوط والمطبوع: بغلة، وقد قرأنا في طبعتنا للمجالس، 480: طرقته بغلته. ولا يستقيم مع عبارة «فأعجله الموت فيها»، فلذلك غيّرنا «بغلة» إلى «علة».

.. واختار المعزّ داعياً جديداً فوافق اختيار أهل الجهة

84/2

ولمّا هلك عدوُّ الله اجتمع الدّعاة فيمن يقيمونه مقامَه إلى وقت مطالعتنا، فوقع اختيارُهم واتّفاقهم على الرّجل الذي اخترْنَاه وأقمناه وكتبنا إليه، لَمَا أراد الله (تع) من تأليف أمرهم واجتماع كلمتهم وظهور أمرهم على عدوّهم، ليقيموه عليهم ويُرسلُوا رُسُلاً من قِبَلِهم لمطالعتنا بأمرهم. فأكبر الرجلُ ذلك من أمرهم، وقال/ لهم: إذْ قدِ اتّفق رأيكم عليّ فاسمعوا منّي. قالوا: نعم، نسمع ونطيع لك. فاختارَ أربعةً منهم، وقال لهم: تكونون على الجميع، ويكون كلٌّ داع على أهل دعوته، وأكون أنا النافذَ برسالة الجماعة إلى الحضرة. فما أمَر به وليُّ الله امتثلناه، ومن أقامه لنا سمعنا منه وأطعناه.

واختار رجالاً للقدوم معه علينا وقدِم. فلم يسر إلّا بعضَ أيّام حتّى لقيَتْه رُسُلنا، ففرح واستبشر بلقائهم، وسألهم عن الحال، فدفعوا إليه كتابنا إليه، وكُتُبَنَا إلى جماعة الدعاة بما أمرنا به في الخائب. فانصرف إلى مكانه، وبعث القوم الذين كانوا معه بما حمله إلينا[174]، وكتاب المؤمنين الذين وافاه الكتاب من عندهم من أهل الناحية[175].

وتناول الكتابَيْن (صلع) فقرأهما علينا بنفسه إلى آخرهما. فسمعنا من كلام الرّجل في كتابه ما لم نجد فيه لفظةً ساقطة ولا معنًى فاسداً. ووقفنا فيه من جزالة لفظه ومعانيه على ما وثقنا لوليّ اللّه بقيامه له، وذكَرَ (ط 120) مسرّتَه وابتهاجه وما انتهى إليه أمرُ وليّ الله بما أمر به وأحياه من دين الله (تع)، وما كانوا أنكَرُوه ممّا فشا

(174) من الهدايا، أي الواجبات والأعمال وما يجب للإمام من زكاة.

(175) جملة غامضة، وكذلك في المجالس، 481. وكأن الداعي المنتخب حمّل أصحابه رسالتين، واحدة منه هو وأخرى من مرسليه.

عن الخائبِ من تغيير الدّين وتبديل الملّة وارتكاب محارم الله (تع). وذكروا ذلك في كتابهم.

وطالعَ الرجلُ بما يعمل عليه من دعوة مَن كانَ من المجوس إلى دين الإسلام كما يجب، ثمّ الأخذ عليهم بعد أن يُسلِموا كما ينبغي، وشاور في كثير من أعماله وما يجريه من أموره.

وذكر صنماً معبوداً قِبَلَه يحجّ المجوسُ إليه كحجّ المسلمين إلى بيت الله الحرام في كلّ عام: فطالع في كسره وتعفية أثره، وفي أشياء كثيرة ـ يطول بها الكتاب ـ من أمره، واستمدَّ وليّ الله من عِلْمِه واقتبس من نوره ما يعمل به ويذيعه فيمن قِبلَه.

فما ندري كيف نصف ما كان من ابتهاجنا بذلك، وموقعَه من قلوبنا بما أجراه الله منه على يد وليّه ويسّره له، ومنَحه من صنعه فيه. وعوّلْنا على تقبيل الأرض بين يديه، وحمِدنا الله وشكرناه بما قدرنا عليه واستطعناه، وسألناهُ إنجاز وعد وليّه وبلوغنا إليه.

* * *

واشتهر أمر وليّ الله أمير المؤمنين في الآفاق، وخضع له أهل العناد والشقاق، وأُرغم أولو العدوان والنفاق. وانتشرت له الدعاة في جميع الجزائر، وظهر علمه للبادي والحاضر. ولم يزل أمره في سموّ وصعود، وعلوّ يقارنه السعود. / 85/2

* * *

وضعف أمر بني العبّاس، وتغلّب عليهم وزراؤهم، وملك أمرهم أمراؤهم، فصاروا بين مجدّل مقتول، أو مخلوع مسمول، أو مضروب على يده مشوّه بخلقه. وقد ذكرنا أمرَ المقتدر العبّاسيّ ومؤنس الخادم[176]، وما كان من قتل المقتدر على يد (ط 121) مؤنس، وقيام المتسمّي بالقاهر وقتله مؤنساً، وخلع القاهر في اليوم

---

(176) مر هذا في السُّبُع الخامس، ص 217.

الذي استولى فيه مخلد الدجّال على القيروان[177].

استطراد في وصف ضعف خلفاء بني العبّاس..

وبويع بعد القاهر الراضي محمد بن المقتدر، فأقام مستخلفاً في بغداد ستّ سنين وعشرة أشهر وعشرة أيّام، ثمّ مات في شهر ربيع الأوّل من سنة تسع وعشرين وثلاثمائة. وأقيم بعده أخوه المتسمّي بالمتّقي لله إبراهيم بن المقتدر. ثمّ خُلع بعد ثلاث سنين من ولايته وسُمِلَت عيناه لعشر بقين من شهر صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة. وبويع بعده المتسمّي المستكفي بالله، ابن عبد الله المكتفي[178]، فأقام مستخلفاً سنةً وخمسة شهور، ومات في ربيع الآخر سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة.

وبويع بعده المتسمّي بالمطيع لله الفضل بن المقتدر فأقام تسعاً وعشرين سنة، والحلّ والعقد في المُلك لبني بويه، وليس له إلّا اسم ذلك في السكّة والخطبة، وهو مغلوب على أمره مضروب على يده. ومات لثماني ليالٍ بقِين من المحرّم سنة أربع وستّين وثلاثمائة، بعد أن خلع نفسه مكرهاً: وذلك أنّ علي بن أحمد بن بويه الديلميّ [عضد الدولة] أمر رجلاً من الديلم، فرمى به عن سريره[179] وقبض عليه، وبايع بعده لآبنه المتسمّي بالطائع، ابن

---

(177) هذا وَهْمٌ من المؤلف: استولى أبو يزيد على القيروان في سنة الأثلاث. والذي خُلع وسُملت عيناه في هذه السنة هو المتقي (329 - 333)، وقد مرّ خبره مضبوطَ التاريخ ص 279. وسيأتي بعد قليل التاريخ الصحيح لعزل المتقي (صفر 333).

(178) في المخطوط: المكتفي بالله عبد الله المكتفي. والمكتفي هو أبو المستكفي وقد ملك قبل هذا التاريخ (289 - 295). هذا، ولم ينتبه ناشر الكتاب إلى الخطأ، ولم يتساءل عنه.

(179) هنا أيضاً خلط بين خليفتين: فحادثة الدحرجة من السرير وقعت للطائع سنة 381 على يد بهاء الدولة فعوّض بالقادر. وقد تولّى بهاء الدولة الحكم بعد وفاة شقيقه شرف الدولة سنة 379.

=

المطيع، ابن المقتدر. وقبض بهاء الدولة، ابن عضد الدولة، من بني بويه، على الطائع يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، وأكره فخلع نفسه وبايع أبا العباس[180] أحمد بن إسحاق بن المقتدر مكرهاً.

.. وتسلّط أمراء القصر عليهم...

فما زال ذلك دأبهم بين مخلوع ومقتول ومسمول، وتحكّم عليهم الأعاجم، وابتلى الله كلَّ ظالم منهم بظالم، لا يملكون في الملك عقداً ولا حلاًّ، ولا قطعاً في الأمر ولا وصلاً. ولم نقصد ذكرهم فنستقصيَ أوائلهم وأواخرَهم ونأتيَ على ما كان في دولتهم، وإنّما قصَدْنا ما ابتلاهمُ الله (تع) بـه، ممّا يسّر وقضى، وأتاح لأوليائه وبني نبيّه (ط 122)، أئمّة الهدى، وشموس الحقّ/ الطالعة من المغارب، الذين أخبَتَ الله بهم ذكرَ كل مناصب، فتضعضعت دولةُ بني العبّاس، ولم يقم لهم فيها أساس.

86/2

وقوي ملك الروم على الشام، وغزا مَن هنالك من ملوك الإسلام. وأخرج ملك الروم [نقفور] فقاس[181] إلى أقريطش

= أمّا المطيع فقد خلع نفسه سنة 363 بإلحاح من سبكتكين التركيّ فعوّض بالطائع، الذي سيزاح عن سريره سنة 381 (انظر ابن الأثير تحت السنوات المذكورة).

• ولا نعرف عليّ بن أحمد الديلميّ المذكور هنا. وفي الهامش، رسم لقب عضد الدولة، وعضد الدولة لم يسم عليّاً، بل «فناخسرو» ولم يكن ابن أحمد، بل ابن حسن البويهي ركن الدولة (انظر فصل البويهيّين بدائرة المعارف الإسلامية).

(180) في المخطوط: لإسحاق بن أحمد. وفي المطبوع كذلك.

(181) في المخطوط: من تفاس إلى أقريطش، ولا نعرف ميناء بالسواحل البيزنطية يسمى تفاس. فرأينا أن الكلمة محرفة عن اسم القائد الروميّ نقفور فقاس، وهو الذي قاد الحملة على قريطش بأمر من الأمبراطور رومانوس الثاني، فوصل إلى الجزيرة في 15 جمادى الأولى 13/349 جويلية 960 وظفر بها في 15 محرّم 6/350 مارس 961 (انظر رسالة ماريوس كانار عن سيف الدولة الحمدانيّ =

سبعمائة مركب لحربهم. فاستغاثوا ببني حمدان وبكافور الأخشيدي وبالمملّكين على بني العبّاس من بني بويه، فلم يجدوا منهم وليّاً ولا نصيراً، وابتُلوا بالنصارى بلاءً كبيراً، وأشرفُوا على الهلاك، فاستغاثوا بالمعزّ لدين الله أمير المؤمنين (عم).

.. وعجزهم عن حماية ثغور الإسلام

قال القاضي النعمان بن محمد[182]: وقد كان طاغية الروم رغب إلى أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (عم) في الموادعة والصلح وبذل له على ذلك أموالاً، وكانت رغبته في الموادعة مدّة طويلة أو أبديّةً إن وجدَ ذلك. فرأى الإمام لمّا تبيّن له أنّ ذلك خير للإسلام وللمسلمين، وليستجمّوا فيقْوَوْا على حرب المشركين، أن أجابه إلى موادعة خمس سنين[183].

ثمّ اتّصل به بعدَ ذلك، وقبل أن تنقضيَ مُدّةُ الموادعة، أنّه أرسل الدّمستق ـ الذي هو أقرب رجاله درجة إليه وأخصّهم به ـ في عُدّةٍ من السّفن كثيرةٍ وجيوش ثقيلة حتّى أناخ بها على جزيرة أقريطش، وهم في دعوة بني العبّاس.

فلمّا حلّ بهم من ذلك ما لا قوام لهم به، وعلموا أنّه ليس عند بني العبّاس نهضة ولا لهم لديْهِمْ نُصرة، أرسَلُوا مركَباً فيه رجال من قِبَلِهم مع وجه من وجوههم إلى أمير المؤمنين المعزّ لدين الله يستغيثون به ويسألونه استنقاذَهم وإغَاثَتَهُم، فلم يرَ صلوات الله

= ص 800 وهامش 178). وانظر كذلك رسالة الدشراوي، 244 وفصله عن «أقريطش بين بيزنطة والمعز» في الكراسات التونسية، 1959، ص 317.

هذا، وعند ابن الأثير، تحت حوادث 351 (ج 7 ص 5) ذكر مقتضب للحادثة، ولكنه يضيف أن المعزّ أرسل المدد إلى أهل أقريطش فتغلبوا على الروم.

(182) المجالس والمسايرات، 442 - 446.

(183) وقعت الهدنة سنة 346 لخمس سنوات، ولكن الأمبراطور نقضها بهجومه على قريطش.

استنجاد أهل قريطش بالمعزّ

عليه ـ وإن كانُوا تَنَكَّبوا (ط 123) عنه[184] ـ أن يخيّب رجاءهم عنده، ولا أن يسلّمهم للمشركين. فأمر عندما اتّصل به خبرُهم وقبل أن يصلَ إليه رسولُهم، بالأخذ في الأهبة والعُدّة ليكونَ نفوذُ الأساطيل إليهم في أوّل زمان الإمكان. ثمّ قدم الرسول عليه وأدّى عنهم ما أرسلوه به إليه.

فرأى أن ينبذ إلى المشرك عهده كما أمر الله (تع) بذلك في كتابه، إن هو أصرّ على حربهم، وأمر بكتاب في ذلك إليه وأملاه على الكاتب بحضرة من بين يديه بكلام ما سمعتُ أجزلَ ولا أبلغَ منه.

87/2

فقال بعد أن خيّره بين أن يُقلع عن حرب أهل أقريطش/ وبين أن ينبذ إليه عهده ـ كما نبـذ رسول الله (ﷺ) إلى مشـركي العرب عهدهم وأرسل عليّاً ببراءة[185] فقرأها في الموسم عليهم ـ ولقول الله أصدق القائلين: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ (الأنفال، 58) وقوله[186]: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ (يوسف، 52).

ثمّ قال له في كتابه (عم):

«ولا ترى أنّ دعوة أهل أقريطش قبل اليوم إلى غيرنا وقد أنـابوا اليوم إلينا واستغاثوا بنا، ممّا يُوجب لك عندنا تمامَ الموادعة بتركهم إليك وترك اعتراضك فيهم. إنّ امـتناع أهـل الباطل من أهل الحقّ ليس بمزُيلٍ حقّهم وإن تغلّبوا عليه دونَهم، بل هو لهم بتصيير

(184) لأنّهم توجّهوا أوّل ما توّجهوا إلى العبّاسيّين وعمّالهم الإخشيديّين.
(185) أي سورة التوبة، وقد نزلت سنة 9 بعد فتح مكة.
(186) في المخطوط والمطبوع: إلى قوله.. والآيتان من سورتين مختلفتين. والنعمان لم يذكر الآية الثانية.

الله (تع) إيّاه إليهم. فأقريطش وغيرها من جميع الأرض لنا، بما خوّلَنا الله منها وأقامَنا له فيها، أطاعنا منها من أطاع وعصانا من عصى، وليس بطاعتهم يجب لنا أن نملك ولا بعصيانهم وامتناعهم يحِقّ علينا أن نترُك، ولو كان كذلك لكان الأمر إليهم لا لله (تع) الذي خوّلنا ولا لنا، إن شاؤوا أعطَوْنا وإن أحبّوا منعُونا، (ط 124) كلّا! إنّ ذلك لله الذي له ما في السّموات وما في الأرض وهو الذي اصطفانا وملّكنا وأعطانا، ولو كان ذلك للخلق لما وسِعنَا قتالُ من امتنع منهم علينا ولا ردُّ ما انتزعوه بالغصْب من أيدينا إذا أقدَرَنا الله على ذلك وبه قوّانا.

رسالة المعزّ إلى الأمبراطور يهدّده بالحرب..

«فإن قلت أنتَ غيرَ ذلك، وأنت ترى أنّ ما في يديك لك، فقَدْ كان رومانس[187] تغلّب عليك وعلى أبيك من قَبْلك، ثمّ دارت لكما عليه الدائرةُ. فإن رأيت أنّ من احتَجَزَ شيئاً وتغلّب عليه فهو له دون صاحب الحقّ الذي ملَكه، فلم يكن لك ولا لأبيك القيام على رومانس ولا انتزاعُ ما صار إليه من يديه. فهذه سبيل أهل الحقّ عندنا. فإن اعترفتَ لها فقد أنصفت، وإن جهلتَها لم يكن جهلُك إيّاها حجّةً على من عرفها. وعهدُك إن تماديتَ على حرب من أناب إلينا منبوذٌ إليك، فانظر لنفسك ولأهل ملّتك فإنّا مناجزوك وإيّاهم الحربَ بعون الله لنا وتأييده، ولا حول ولا قوّة إلّا به».

(قال): واستمدّ أهلُ أقريطش هؤلاء صاحبَ مصر وهم من أهل دعوةٍ واحدة تجمعهم دعوة آل عبّاس، ومراكبهم بخيرات بَلدِهم وأطعِمتها تَمِير أهلَ مصر، وهداياهُم تصل إلى عُمّالها، فعجز عن نُصرتهم. / وسأل من ينظر لأمير المؤمنين فيما قِبَلَه في أن

88/2

(187) هو رومانوس الأوّل (920 - 944 م/ 308 - 333 هـ) الذي اغتصب الحكم من قسطنطين السابع.

يكتب إليه (صلع) في إغاثتهم واستنقاذهم، وأرسل قوماً كانوا منهم قِبَلَه ليسألوا أميرَ المؤمنين (صلع) ويرغبوا إليه في ذلك. ثمّ أظهر أنّه ينصرهم ورمى بعض مَرَاكب في البحر لمَّا اتّصلَ به إنكار العامّة عليه للتخلّف عن نصرتهم.

فكتب أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (ص) إلى من يكاتبه بمصر جواباً عن كتابه إليه بذلك يخبره أنّه قد أمر بإخراج الأساطيل وأخذ في عدّتها.

. . وإلى الاخشيد لحماية الجزيرة. . .

وكان فيما كتب به إليه أن قُلْ (ط 125) لصاحبك: «إنّ الله ـ سبحانه ـ قد خوّلنَا من فضله وأمدّنا من معونته وتأييده بما نرى أنّا بحَوْله وقوّته ونصره لنا وإظهارنا على عدوّنا نكُفّ أيديَ الكفرة عمّا تطاولت إليه من حرب هذا الصُّقع والإيقاع بأهله. وقد انتهى إلينا أنّك أظهرت الحركةَ إلى الجهاد وإمدادَ هؤلاء القوم بمراكب من قِبَلِك، وأنتَ لعمري بذلك أجدرُ، لقربهم منك واتّصالهم بك وميرتهم بلدَك وكونِهم وإيّاك في دعوة واحدةٍ. ولو أسلمناهُم إليك وقعدنا عنهم لما كان لك ولا لهُم علينا حجّة في ذلك، ولكنّا آثرنا نُصرة أمّة جدّنا محمد (ﷺ) ولم نرَ التخلّفَ عن ذلك وقد رجَوْنا له، وألقَوْا بأنفُسِهم إلينا فيه. ونحنُ لا نحول بينك وبين الجهاد في سبيل الله، ولا نمنعُك من تمام ما أمّلْت منه، فلا يكُن ما آتّصل بك من إنفاذ أساطيلنا يُريثُك عن الذي هممْتَ من ذلك. وإن كنت تخشى على من تبعَثُ به وعلى مراكبك منّا، فلك علينا عهدُ الله وميثاقُه أنّا لا نكون منْهُم إلّا بسبيل خيرٍ، وأنّا نُحِلُّهم محلّ رجالنا، ونجعل أيديَهم مع أيدينا ونشركُهم فيما أفاء الله علينا، ونُقيمُهم في ذلك وغيره مقامَ رجالنا، ومراكبَك مقام أساطيلنا حتّى يفتحَ لنا إن شاء الله، ثمّ ينصرفوا إليك على ذلك أو يكونَ من أمر الله وقضَائه ما هو فاعله. فاعلم ذلك وثِقْ به منّا، ففي تـظافر المسلمين على

عدوّهم واجتماع كلمتهم إعزازٌ لدين الله وكبتٌ لأعدائه. فقد سهّلنا لك السبيل، والله على ما نقول وكيل.

«فإن وثقْتَ بذلك ورأيتَ إيثارَ الجهاد فاعمل على أن تُنفِذَ مراكبَك إلى مرسى تينة[188] من أرض برقة لقرب هذا المرسى من جزيرة أقريطش ويكون اجتماعُهم مع أساطيلنا بهذا المرسى مستهلّ ربيع الآخر (ط 126) بتوفيق الله وقوّته وتأييده ونصره وعَونه.

89/2

«وإلّا ترى ذلك فقد أبلَغْنَا في المعذرة إليك والنّصيحة لك، / وخرجنا ممّا علينا لك. ونحن بحول الله وقوّته وتأييده ونَصره وعَونه مستغنُون عنك وعن غيرك، وعلى عزم وبصيرة في إنفاذ أساطيلنا ورجالِنا وعُدّتنا وما خوّلنا الله إيّاه وأقدرنا عليه ممّا نرى بحوله وقوّته أنّا نبلغ به ما نؤمّ إليه من ذلك ونصمد نحوه. فبالله نستعين، وعليه نتوكّل، وعلى تأييده نعوّل، وهو حسبنا ونعم الوكيل».

.. لكنّ الروم احتلّوها..

فسارع أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (عم) في إخراج الأساطيل وشحنها بالرجال، وصنوف العدّة والأموال، وهو في ذلك ذو جدّ وجهد، إذ أتاه الخبر بأنّ الروم قد ملكت أقريطش، ودخلوا البلد ليلاً عن موافقة مَن خرج منهم مسلّمة فقتلوا ونهبوا ودخلوا الجامع بخيلهم فأحرقوه وحملوا منبره إلى بلد الروم. فاشتدّ على أمير المؤمنين ما حلّ بالمسلمين وما ظهر من تضييع أهل مصر لهم، وهم أقرب إليهم، وما فاته من نصرتهم. وكان ذلك في سنة خمسين وثلاثمائة.

---

(188) في المخطوط: تبنة. وفي تعداد البكريّ، 85 للمراسي بين طرابلس والإسكندريّة، «مرسى تيني» بين درنة وطبرق. وأوضح مترجمه دي سلان، 173 أن مرسى تيني هو المسمّى اليوم «رأس التين». وهو في قبالة جزيرة قريطش.

ولا وجود لطنبة التي ذكرها الدشراوي في رسالته، 246.

.. كما احتلّوا عين زربة على الحمدانيّين...

وفيها خرج الدمستق، وهو أعظم من يكون عند ملك الروم[189]، من الدرب المعروف بـ«حصن الجبل»، فنزل على تلّ موزة»[190] فقاتل أهله وظفر بهم. ودخل البلد فقتل الرجال والنساء والصبيان ورحل عنهم إلى عين زربة[191] فقطع الماء عليهم. واشتدّ بهم الأمر واختلفت عليهم الكلمة، وليس لهم مدبّر. فقطعوا دعوة ابن حمدان حين يئسوا من مادّته لهم، وتناهت عليهم الشدّة. فأرسل الدمستق إليهم بأمير أقريطش فحذّرهم ما حلّ بأهل أقريطش، وأخذ لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ما خلا السلاح، وملَكها.

وكانت قد وقعت حروب كثيرة بين سيف الدولة، علي بن عبد الله بن حمدان صاحب حلب، وبين النصارى من الروم، ووقعات جليلة. وكانت لسيف الدولة شجاعة مشهورة ونجدة مذكورة، وقتال شهر به، وجِهادٌ رُفع قدرُه بسببه. وكان كثير الإعطاء والإنفاق، جميل المحيّا حسن الأخلاق. وكان قد جعل دنانير العطاء كلّ دينار وزن عشرة دنانير، وقصدته الشعراء ومدحته البلغاء، واجتمع ببابه ما لم يجتمع بأبواب الخلفاء من الشعراء المجيدين، والفصحاء المفلقين. وكفاه فخراً يبقى على الأحقاب، ما طوّق أبو

(189) الدمستق لقب عسكريّ، فهو قائد الجيش، وكان للأمبراطور في هذه المدّة دمستقان، واحدٌ لأقاليم الشرق وآخر لأقاليم الغرب. والمعنيّ هنا هو نقفور فقاس الخصم الأكبر لسيف الدولة.

(190) تلّ موزة: ذكره ماريوس كانار في أطروحته عن الحمدانيّين، ص 807 هامش 194 من قرى عين زربة.

(191) عين زربة (ابن حوقل، 167) أو عين زربي (ابن الأثير، 2/7 وياقوت): تعرّض مسكويه (تجارب الأمم، طبعة أمدروز، 190/2) إلى هذه الهريمة النكراء للإسلام في الثغور الشاميّة، وكذلك ابن الأثير. وقال ماريوس كانار (نخب تاريخيّة، 139) إنّ معاملة نقفور فقاس لسكان عين زربة اتّخذت مظهر الحرب الصليبيّة.

الطيّب أحمد بن الحسين المتنبّي في جيد مفاخره، / وعلّق من أطواق المدح الذي استخرج درره من بحر خاطره. 90/2

وأبو الطيّب من الفصاحة بحيث لا يجارى ولا يمارى، وديوان شعره أجلّ من أن يوصف وأكثر اشتهاراً. وقد ذكر أبو الطيّب حروبه ووقعاته، وجهاده للنصارى من الروم وإغاراته. وما زال في الحرب مدّة من السنين حتى كسرته الروم، ولم يجد من خلفاء الدولة العبّاسيّة ناصراً، ولا معيناً ولا مؤازراً. وأسرت الروم ابن عمّه أبا فراس ابن حمدان، فارس الحرب الصنديد، وناظم الشعر المجيد (ط 128). وكان أبو فراس شيعيّاً محبّاً لآل النبيّ من فاطمة الزهراء وأمير المؤمنين عليّ، وهو منشىء القصيدة التي أوّلها:

(بسيط)

الدين مُخْتَرَمٌ، والحقّ مهتضمٌ وفَيْءُ آل رسول الله مقتسم

ومنها:

لا يُطغيَنَّ بني العبّاس مُلْكُهُمُ بنو عليٍّ مواليهم، وإن زعموا[192]

وهي قصيدة معروفة مشهورة. وله في الأسر قصائد تشهد له بالبلاغة، منظّمة على أحسن النظم والصياغة، فيها الجزالة والرقّة، والشهادة بما في قلبه من ألم الغربة والحرقة. ولو قصدنا أن نصف الأشعار لأتينا منها بالغريب القريب، والبديع العجيب، ممّا يروّق ويروق، ويعلو ويفوق. ولكنّا إلى ذلك ما قصدنا، وله ما أردنا، وإنّما أردنا أن نذكر فضل آل الرسول، وما خصّهم الله (تع) به من المكان الخطير الجليل، جرياً على قدر الطاقة، وإن كان شأو مجدهم وفخرهم لا نستطيع أن ندرك من وصفه لحاقه. فأقام أبو

(192) ديوان أبي فراس، صادر، 255.

فراس مدّة من السنين في الأسر، ثمّ فدى نفسه، وأخرجه جند الروم بعد أن ناله عظيم الضرّ. فلم تحسن له بعد ذلك الأيّام، ولم تطل حتى وافاه ريب الحمام.

.. وأخذوا حلب

وقويت الروم على سيف الدولة، وعجزت ملوك بني العبّاس عن القيام معه والنصرة، فجاشت جيوش النصارى عليه، وانساق منهم الشرّ إليه. فلمّا كان سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة، فتحت الروم حلب وانهزم سيف الدولة عنها.

وفي سنة أربع (ط 129) وخمسين وثلاثمائة أخذت الروم المصيصة في النصف من رجب، وبعدها فتحت طرسوس[193]. ولأسيد بن همام المكحول القرشيّ قصيدة يمدح بها كافور الأخشيديّ صاحب مصر ويستنهضه لنصرة الحصون، ويصف ما لحقها من الروم. يقول:

(خفيف)

91/2

شعر ابن مكحول في استنهاض كافور إلى الجهاد

جلَلٌ فادح وخطب كبير بلد الشام ضائع والثغور
أيّ صبر على الذي حلّ بالشا م وبالثغر، تحتويه الصدور؟/
أيّ مصر لكم إذا ذهب الشا م، ولم يبق بالشآم مجير؟
أين أهل التوحيد إن عُدم الغز وُ، ولم يبق للجهاد مشير؟
أين أهل القرآن والعلم بالوحـ ـي؟ فإنّا بنوره نستنير
أين أهل الإيمان يا حجّةَ اللـ ـهِ؟ إلى الشام فالنفير النفير!
قد دعاكم إلى الجهاد خفافاً وثقالاً، عليكمُ مسطور
أمره، فالذي يخالف منكم ما له بالخلاف إلّا السعير

(193) في احتلال المصيصة، انظر: مسكويه: تجارب، 201/2. وفي طرسوس: انظر ياقوت في المادّة.

فثغور الإسلام من بلد الشا م وما فيه للإمام نكير
والإمام الذي تؤمّله الأمّـ ـمَةُ في قبضة المجوس أسير
وابن حمدان للثغور فما فيه لأهل الثغور إلّا الغرور

ويقول فيها:

حلّ عقد الهدى الضلال، وإن لم يبرم العقد حبله مبتور
بمعزّ وناصر وبسيف هلك الدين، واعتدى نقفور (ط 130)
ثائراً بالثغور يسبي الذراريّ آمناً لا يروعه تحذير

يعني بمعزّ وناصر، معزّ الدولة وناصر الدولة ابني بويه، وبسيف، سيف الدولة ابن حمدان. وقصيدته طويلة[194].

فلم يوجد عند كافور نهضة ولا حياطة للثغور، وخلفاؤهم العبّاسيّون مأسورون في أيدي العجم بين مسمول العينين، أو مقطوع غضاريف الأذنين. وحين اشتدّ على كافور الأمر، وعظم الضّرّ، وخاف أن يستولي النصارى على مصر، واصل داعيَ أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (ص)، الذي بمصر، وسلّم لوليّ الله فيما يملكه الأمر، ودخل في عهد الإمام، وأجرى على أمره ونهيه النظام. وكتب بذلك إلى أمير المؤمنين المعزّ، وطلبه النصر على النصارى، واستغاثه أن يستنقذ من المسلمين طوائف لخوف غشم الكافرين حيارى.

فأنهض أمير المؤمنين الأساطيل وشحَنها بالرجال والعدّة والأموال، فوافوا النصارى من الروم، وهم في جموعهم وعساكرهم قد أتوا للزحف على تلك الثغور، فأوقعوا بهم وبأساطيلهم وقعة لم يكن مثلها فيما سلف من الأيّام والدهور، ومنحهم الله نصر الدين

---

(194) لم نقف على ترجمة لأسيد القرشيّ هذا.

وعزّ الإسلام، وافتتحوا قلاعاً كثيرة للروم، وأحرقوا ديارهم مستنصرين بنصر الله الحيّ القيّوم. وأفلت أمير النصارى فصار شارداً، ومرّ على وجهه إذ لم يجد من جنود الله ناصراً ولا عاضداً، وذلك في سنة أربع وخمسين وثلاثمائة[195].

92/2 وقد ذكر ذلك الإمام /المعزّ لدين الله في جوابه لداعي السند حليم بن شيبان[196]، وقد ورد منه كتاب يذكر فيه ما هيّأ الله له في جزيرة السند من النصر، وأظهر لوليّه هنالك من الأمر (ط 131)، وأنّه كسر الأصنام التي كان استأذن الإمام في كسرها، ويسأل الإمام عن مسائل فيما يقيم به الدين ويقطع ما غيّره داعي السوء السالك سبيلَ المعتدين، ويسأل عن أشياء من الفقه والحلال والحرام، وعن مسائل في التأويل الذي جعل الله علمه عند أهل الذكر من إمام بعد أمام. فأجابه الإمام (عم) بسجلٍّ هو معروف مشهور، وفي صفحات الكواغذ مسطور، أوّله:

«باسم الله الرحمان الرحيم.

«من عبد الله ووليّه معدّ أبي تميم المعزّ لدين الله أمير

---

(195) في المطبوع: خمس وأربعين، وفي مخطوطنا، زيد التاريخ في الهامش وانطمست أطرافه فلم نعد نقرأ منه إلّا عبارة: في سنة خمـ. . . وثلاثمائة، ولعلّه تاريخ موافق لما في المطبوع. لكن، اعتماداً على ما سيأتي في رسالة المعزّ إلى داعيه بالسند، وهي رسالة مؤرّخة بسنة 354، وكذلك اعتماداً على رواية ابن الأثير، 12/7، حوادث 353 في فتح رمطة، فضّلنا أن نقرأ: أربع وخمسين كما أثبتنا، لا خمساً وأربعين، لا سيّما وأنّ سياق الأحداث تجاوز سنة 350.

هذا وإنّ رواية الداعي إدريس توهم بأنّ هذا التحرك الفاطميّ كان نحو الثغور الشاميّة.

(196) سبق ذكر حليم بن شيبان (ص 233 و81/2). وقد نشر شتارن هذه الرسالة عن عيون الأخبار في فصله عن «التيارات المارقة زمن المعزّ» (ص 24 من المقال).

المؤمنين إلى حليم بن شيبان، سلام عليك.

رسالة المعزّ إلى حليم بن شيبان...

«فإنّا نحمد إليك الله الذي لا إلاه إلّا هو، ونسأله أن يصلّي على محمّد عبده ورسوله وعلى آله الطاهرين الأخيار.

«أمّا بعد، فإنّ كتابك إلينا كتابُ مَن ترادفت إليه نعم الله جلّ ثناؤه فأسنى منها قسمه، وعظم عنده فضله، فأدأب الشكر عليه، وترادف لديه عطاؤه، فواصل الحمدَ عليه، وآختصّه بلطيف صنعه وجميل كفايته، فبرىء من الحول والقوّة إليه، وتكفّل بنصره، فأداخ له ملوك الأرض وجبابرتها، منتصراً لدينه القويم الذي به أعزّه، وأخذ بحقّه من الظالمين الملحدين في آياته، الصادّين عن سبيل هداه، وتوحّده بما لم يتوحّد به أحداً من كلّ ما يرومه وينتحيه ويصرف أسباب همّته إليه من بلوغ الأمل، والتوفيق في العمل، حتّى آنقاد العدوّ موالياً، والمخالف مؤالفاً، لما بهرهم من دلائل إنجاز وعد الله لنا، ولوائح نصره، وبراهين معجزاته، ومبصرات آياته التي وعد العالمين بإظهارها فقال جلّ من قائل: ﴿ وَقُلْ الحَمْدُ لِلَّهِ، سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ (النمل، 93) وقال: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ (ط 132) حَتَى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ آلـحَقُّ ﴾ (فصّلت، 53). ولم يبق ملك من ملوك المغارب وجبابرتها، والمشارق إلى أقصى حدود المملكة فيها، ومن وراء الصحاري والبراري من ملوك الحبشة إلّا دان بالطاعة وانقاد للمملكة، وافدين إلى باب أمير المؤمنين، وباعثين رسلَهم بألطاف وهدايا، متوخّين أنفَس ما يجدونه منها، راغبين في رضانا، آخذين بحظّهم من/ الطاعة التي حضّ الله (عج) عباده عليها.

93/2

.. يذكر فيها تصدّي الأسطول للروم..

وكان الكفرةُ من الروم على حال من الانقياد لأداء الجزية والوفاء بالعهد حتى نالوا بأرض الشام ما نالوه، ممّا سماعُ أقلّه يفتّ أكبادَ ذوي النهى، ويمتعضُ من مثله أولو البصائر والحجى، ويألم

الأقصى والأدنى، من افتتاح المدن وسبي الذراريّ، وانتهاك المحارم وسفك الدماء، ممّا لا دافع يدفعهم، ولا مانع يمنعهم غاضباً لله[197] جلّ ثناؤه، خائفاً من عقابه في تضييع أمّة رسوله (ﷺ). فأخفرت الكفرة عهدَهم ونكثوا أيمانهم ونقضوا عقدهم، وقادهم حَيْنُهم للزحف إلى بعض ثغور مملكة جزيرة من جزائر البحر[198]، أهلها محروسون بحراسة الله (عج) وجميل نظرنا لهم، وقلّة غفلتنا عن مثلهم، وإن كانوا في بعد ونأي وراء بحر. فتلقّاهم مَن أقمنا لحراستِهَا من الأولياء برّاً وبحراً فأوقعوا بهم وبأساطيلهم وقعات كثيرةً لم يكن فيما سلف من الأزمنة مثلها، ظلّوا بها أحاديث ومُزّقوا كلّ ممزّق، وأخربوا ديارهم وعفّوا آثارهم وافتتحوا قلاعَهم المنيعة من أوّل الزمان. وأفلت ذلك المُشرك المتغلّب المتأمّر عليهم فظلّ شارداً مخذولاً لا يدري على أيّ رجل يعتمد ولأيّ وجه يقصد، قد ألبسه الله الذلّة، كما نبذ العصمة، وأشعره (ط 133) الخيفة وراء الندامة، يصبح خائفاً ويمسي نادماً، وذلك بما قدّمت يداه، وما الله بظلّام للعبيد.

«وأفاء الله على الأولياء من ذخائر المشركين وكراعهم وأسلحتهم بعد أسر وجوههم ما زادهم به قوّة وعزّة، وزاد به المشركين ذلّة ووهناً. ثمّ لا يصدّق بما نال المشركين من ذريع القتل وعظيم الأسر إلاّ من شاهد ذلك وعاينه، إذ الصفة تقصر عنه.

---

(197) في المخطوط والمطبوع: ولا غاضب له إلاّ الله. ولا يوافق سياق الكلام، ودلّنا على القراءة الصحيحة شتارن في فصله المذكور، 24 هامش 5.

(198) يرى شتارن أنّها صقلّيّة وأنّ النصر الآتي ذكره هو فتح طبرمين سنة 351 وأنّ القائد المغلوب الذي ظلّ شارداً هو منويل فقاس صاحب الأسطول البيزنطي. ويضيف: قتل منويل في الوقعة ـ وقعة الحفرة ـ وكأنّ المعزّ لم يعلم بمقتله (الفصل المذكور، 25، هامش 2). وكلّ هذا يؤيّد ما ذهبنا إليه من اختيار تاريخ 354 عوض 345.

«والله نحمد كثيراً، وإيّاه نشكر، وإليه نصرف الرغبة في أن يصل لنا ما منّ به علينا من ذلك ببلوغ الأمل في صلاح بلاده وهداية عباده، وأن يصلّي على محمّد سيّد رسله وخاتم أنبيائه، وعلى عترته المهديّين الأخيار الطيّبين».

ويقول في هذا السجلّ الشريف:

«والذي وصفته ممّا هيّأه الله لكم على من بغى عليكم وزحف إليكم ليزعجكم عن مستقرّكم، وما دار بينكم وبينهم من القتال المهول، إلى أن وهبكم الله النصر وأمدّكم بالمعونة والتأييد، فقتلتموهم أبرحَ قتل، واقتلعتم صنَم القوم، وجعلتم موضعَه/ مسجداً جامعاً، فيا لها نعمةً ما أعظمها! وفضلاً ما أوضحه وأبينه، وأعظم أجره وأبقى فخره! ملأ قلوبنا فرحاً وسروراً، وأرضى الله ربّنا ومولانا، وخررنا له ساجدين حامدين شاكرين، وسألناه أن يجريكم على أمثال ذلك في كلّ أعدائه وأن يقرّ أعيننا بسلامة جميعكم، ويذهب غيظ قلوبكم، ويجمع كلمتكم ويؤلّف قلوبكم. فلمثل هذه المقامات يجب أن ينصرف فكركم، وعليها يتواصل نظركم حتى يجعل الله لكم في إظهار الملّة الحنيفيّة أجلّ أثر، ويكتب لكم فيها السعي المحمود الموصل إلى نعيم الخلد في روح وريحان وجنّة نعيم (ط 134).

94/2

.. ويثني على جهاد الداعي بجزيرته...

«ولقد كنّا نحبّ أن لو تلطّفت في حمل رأس هذا الصنم أو فيما تعمّدته من بعد هذا ويقدركم الله (عج) عليه فتعمل على حمل رؤوسها إلينا، فإنّ لكم في ذلك فخراً باقياً، وتحريكاً لأخوانكم المؤمنين قِبَلَنا، وزيادة في نشاطهم، ورغبة في الاجتماع معكم، للتعاون على إقامة حقّ الله. فقد قرب من إنجاز وعد الله لنا ما بَعُد، والحمد لله كما هو أهله ووليّه».

وقال (عم) فيما ختم به السجلّ الشريف المذكور:

«أنفَذْنا إليك من أعلامنا المنصورة سبعة أعلام تنشرها عند الاحتياج إليها. فما نُشرتْ على المؤمنين بموقف إلاّ زادهم الله به عزّاً وحباهم بنصره، ولا [على] مشركٍ إلاّ أذلّته بعزّها وقهرته بقدرة المنعم علينا بما هو أهله. عرّفك الله ومَن قِبَلك من المؤمنين برَكَتَها وأدالكم على عدوّكم، وشفى غيظ صدورنا بكم وبإخوانكم حتى لا يبقى على الأرض إلاّ مَن يَدين بطاعة الله الأحد، فيكون الدين كلّه لله كما وعد، إنه لا يخلف الميعاد.

«ونحن نخصّك ومَنْ قبلك مِنَ المؤمنين بالسلام الطيّب ورحمة الله وبركاته.

«وكتب يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة (17 سبتمبر 965)، وصلّى الله على محمّد نبيّه وصفوته من بريّته وعلى أبرار عترته، وسلّم كثيراً».

فهذا من خبر ما كان في السند من ظهور رايات أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (صلع) وظهور دعوته وعلوّ سلطانه ومملكته. وذلك مصداق ما روي بالإسناد عن الحنوي عن سلمان وحذيفة اليمان يرفعونه في الرواية[199] إلى أمير المؤمنين عليّ (عم): «إنّ تمام أمر آل محمّد عند ظهور (ط 135) رايات/ تخرج من السند». قال القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه) فيما أتى عنه بعد ذكر هذا الحديث: 95/2

«ودعوة وليّ الزمان قد ظهرت بالسند وغزا أولياؤه بها، وغلب

(199) حذيفة بن اليمان: صحابيّ من غطفان، حالف قوماً من الأنصار فنسب إلى اليمن. شهد أحداً ومعظم الفتوحات (أسد الغابة رقم 1113).

داعيه هناك على صاحب مملكة السند فقتله، وكان على المجوسيّة، وقتل رجاله، وهدم الصنم الذي كانوا يعبدونه، وجعل الهيكل الذي كان فيه مسجداً جامعاً، وعزّ سلطانه، وذلك بحول الله وقوّته، يشهد بإنجاز وعده لأوليائه، على ما جاء في الخبر من ظهور رايات السند إذ قد ظَهَرَتْ راياتُ السندِ في دعوة أولياء الله هناك، وعزّ أهلها، وظهر سلطان وليّ الزمان»[200].

[خروج القائد جوهر إلى مصر][201]

الحالة بمصر بعد وفاة كافور...

وأمّا أمر مصر وخروج القائد جوهر المعزّيّ إليها وما هيّأه الله لوليّه وابن نبيّه من فتحها والاستيلاء عليها، فإنّها كانت مصر قد صار ملكها للإخشيديّة والخطبة فيها والدعوة للخلفاء العبّاسيّة. فلمّا مات الإخشيد، وله ولدان صغيران، صار ملك مصر وأمرها إلى عبده الأستاذ كافور، وكان خصيّاً. فملك أمرها وهو خادم لسيّديه أنوجور وعليّ ٱبنَي الإخشيد. وكان الحلّ والربط، والتقديم والتأخير إليه دونهما. ثمّ نزل بهما الموت فخلص الأمر لكافور، وعقد له المطيع العبّاسيّ على مصر دون الإخشيديّة. فهدى الله كافوراً إلى ولاية الأئمّة من أهل بيت الرسول وطاعة أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (عم). فأُخذ عليه العهد على يدع الداعي لأمير (ط 136) المؤمنين بمصر ودخل في الدعوة وكاتب أمير المؤمنين بالطاعة له والعمل بأمره[202].

(200) لم ترد رسالة المعزّ إلى داعي السند ولا تعليق النعمان عليها في المجالس والمسايرات، وإنّما ورد فيها حديث مطوّل عن الداعي الزائغ والصنم المعبود، دون ذكر السند ولا أسماء الأشخاص، فلذلك نستغرب أن يحيل ناشر هذا السبع السادس إلى ص 374 ج 2 من نسخة المجالس التي يقول إنّه يملكها.

(201) ورد هذا العنوان في هامش مخطوطنا.

(202) انتساب كافور إلى الدعوة وهم من الداعي إدريس. فالمؤرّخون لم يذكروه، بل نقلوا مراسلات أنصار المعزّ إليه يدعونه إلى التريّث حتى يزول «الحجر الأسود»، أي كافور (النجوم الزاهرة، ج 72/4). ويقول القفطيّ (هامش =

فأمره أمير المؤمنين بالابتداء في العمارة بالقاهرة. فخرج إلى حيث رسم له الإمام[203]، فوجد فيه أساس بناء قديم فشرع في عمارته وأخذ في البناء. ثمّ أتته الوفاة وهو في أوّل العمارة. وبلغت وفاته أمير المؤمنين فترحّم عليه وتوسّل إلى الله (تع) في المغفرة له[204].

واجتمعت الإخشيديّة والكافوريّة أعوان مصر حين وفاة كافور الأستاذ فعقدوا الولاية في مصر وأعمالها لأحمد بن عليّ بن الإخشيد، وعمره يومئذٍ إحدى عشرة سنة، على أن يخلفه ابن عمّ أبيه الحسن بن عبد الله بن طغج [، وعلى أنّ تدبير الرجال والعساكر إلى شموأل[205] الاخشيديّ، وتدبير الأموال إلى جعفر بن الفرات الوزير، وكافور لم/ يدفن. ثمّ أخرجوه إلى قبره يوم الثلاثاء لعشر بقين من جمادى الأخرى[206] سنة سبع وخمسين وثلاثمائة. ومدّة ملك الأستاذ كافور لمصر إحدى وعشرون سَنة وشهران وعشرون يوماً، كان الأمر له من هذه السنين بعد وفاة ابني سيّده سنتين[207] وأربعة أشهر وتسعة أيّام.

96/2

= الكامل، 66/7) إنّ أمّ المعزّ هي التي دعت ابنها إلى إرجاء غزو مصر إلى ما بعد وفاة كافور، اعترافاً لكافور بجميله: فقد أكرمها حين مرّت بمصر إلى الحجّ.

ثمّ أنّ ابن هانيء شاعر المعزّ لا يتحفّظ في التهكّم بكافور «العبد اللئيم نجاره» (القصيدة 47، صادر 322):

.. وللعزّ في مصر يُرَدُّ سريرُه إلى ناعب بالبين ينعق أسحم

(203) شروع كافور في بناء القاهرة خرافة أيضاً. ففي الاتّعاظ، 158، أنّ الذي شرع في بنائها هو جوهر، في موضع اختاره له المعزّ.

(204) توفّي كافور «يوم الأربعاء لعشر بقين من جمادى الأولى 357» (اتّعاظ، 138 وولاة مصر، 297).

(205) شمول أو شموأل: استخلفه الحسن بن عبيد الله على دمشق فكاتب جوهراً وورد عليه سنة 360 فأكرمه (اتّعاظ، 173 و 179).

(206) رأينا منذ حين أنّه توفّي في جمادى الأولى.

(207) في المخطوط: سنتان.

.. وتطاحن الاخشيديّين والكافوريّين..

ودعي بعد موت كافور لأحمد بن عليّ [بن] الإخشيد[208] على المنابر بمصر والشام والحرمين، ومن بعده للحسن بن عبيد الله ابن طغج[209]].

وثارت القرامطة بالشام واضطرب أمر مصر وقبض الحسن بن عبيد الله على الوزير جعفر بن الفضل[210]. واجتمع الأولياء وجماعة من وجوه أهل مصر معهم فكتبوا إلى أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (عم) يستدعونه [لـ] بإنفاذ العساكر إليهم، ويذكرون له قوّة الروم والإفرنج من النصارى والمشركين، وقيام القرامطة بالشام وضعف أهل الإسلام ويستغيثون به ويستصرخونه.

وكان القائد جوهر قد اعتلّ علّة عظيمة أشفى فيها على الهلاك ويُئس من بُرءِه. فقال أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (عم) «لا تغتمّوا لأجله ولا تخشَوا عليه، فإنّه سيبرأ من علّته ويفتح الله مصر على يديه». فعوفي القائد من علّته تلك، وكان (ط 137) برءُه أوّل أمارات الفتح وبشارات النصر. وقد ذكر القاضي ابن خلّكان في تاريخه قال: «كان المعزّ يقول لعليّ بن النعمان: أنت قاضي مصر». قال ابن خلّكان: «فوافق ذلك المقدور، وكان ذلك من المعزّ استشرافاً للأمر ورجاءً له». ولم يعلم ابن خلّكان أنّ ذلك من علم النبـوّة، وممّـا وُرث عن أميـر المؤمنين عليّ (عـم) عن رسول الله (ﷺ) ممّا نبّأه به الروح الأمين عن ربّ العالمين، فقد قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عم): «ما من فئة تهدي مائة

(208) كان عند وفاة أبيه عليّ بن الإخشيد لا يتجاوز الحادية عشرة، فلذلك استبدّ كافور بالحكم.

(209) الحسن بن عبيد الله بن طغج صاحب الرملة: وليها من 321 إلى وفاة كافور سنة 357، وعاد إلى الشام سنة 358. والفقرة بين [ ]، من: وعلى أنّ تدبير... إلى هنا، ساقطة من المطبوع.

(210) هو الوزير ابن الفرات (308-391): استوزر لابني الأخشيد أنوجور وعليّ، ثمّ لكافور. وهو الذي سهّل دخول جوهر إلى مصر (انظر عنه دائرة المعارف الإسلاميّة).

وتضلّ مائة إلاّ وأنا أعرف قائدها وسائقها وناعقها». وذلك العلم متوارث بين ذرّيّته وباق في عترته. ولن يخلي الله أرضه ممّن يقوم بحجّته.

وحين وردت وفاة كافور إلى الإمام المعزّ وكتبُ الأولياء ووجوهِ أهل مصر، أخذ في تجهيز العساكر وجمعها، وقدّم القائد جوهراً عبده على جميعها. فبرز جوهر إلى رقّادة. قال الحسن بن زولاق في «سيرة جوهر»[211]: «فخرج جوهر القائد في أكثر من مائة ألف، وبين يديه أكثر من ألف ومائتي صندوق من المال في سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة. (قال): وكان أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (عم) يخرج /إلى جوهر في كلّ يوم ويخلو به. وأمره أن يأخذ من فنون الأموال ما يريد، زيادة على ما أعطاه».

97/2

.. تدعو المعزّ إلى تجهيز جيش لفتحها..

وقال صاحب سيرة الأستاذ جوذر مولى الأئمّة (صلع): «وحين (ط 138) تصرّف مولانا في إخراج العساكر إلى المشرق، واحتاج إلى الإنفاق في ذلك، اقتضت أمانة الأستاذ جوذر ذكرَ ما توفّر عنده من حسن نظره في شيء باعه من الخزائن، واستخراجَ بقايا الأموال مع ما أضاف إلى ذلك من مال نفسه عملاً وتقرُّباً. وكان مبلغ ذلك مائة ألف دينار من الذهب، وآثنين وعشرين ألف درهم[212] بعث بذلك إلى مولانا المعزّ لدين الله صلوات الله عليه، فأجابه مولانا عن جواب كتاب كتبه إليه في شرح ذلك بما هذه نسخته:

يا جوذر، سلّمك الله! وقفنا على ما ذكرته، فنسأل الله أن

---

(211) الحسن بن زولاق (306 - 386) المؤرّخ المصريّ. انظر دائرة المعارف الإسلاميّة. وفي الفصل أنّ «سيرة جوهر» المنسوبة إليه في الكتب الإسماعيلية قد تكون جزءاً من كتاب له في سيرة المعزّ

(212) في المخطوط: واثنان وعشرون، والتصحيح من السيرة، 92، موافقة للنحو.

يهبك من رضاه وحنانه ومغفـرته مـا يستغرق أملك، وأن يحسن إليك، وأن يحسن منّا جزاءك ويكشف ضرّك حتى تشاهد معنا حجّ بيت الله الحرام ظاهراً كما حججته باطناً، وترى في مخازننا من الأموال الحلال ما يكون لنا في جمعه الأجرُ عند الله، والخِزي لأعدائنا في الدنيا، فمـا يعبد الناس غير الجمـادِ. والذي يلزمنا من الإخراج فهو والله شيء لو كان من ماء البحر لما كان عجباً، ولا يتوفّرُ علينا، بل الكلّ أعوان على التمزيق والإخراج، وقد توصّلنا[213] فيما لا يمكننا التقصير عن بلوغ الغاية فيه. فأسأل الله أن يتقبّلَهُ منّا، ويجعله لوجهه خالصاً. وبقاء هذا الذي ذكرته من الأمـوال عندك مع ما تقرّبتَ به، قبل الله سعيك وأجزل من رضاه حظّك، [فكن] أوفَرَ وأحوط عليه من غيرك فَأَبْقِه عندك إن شاء الله».

.. فجمع الأموال...

وركب أمير المؤمنين (عم) يوماً إلى المعسكر وجلس في فازة جوهر، وجوهر قائم بين يديه، وقال (عم) للمشايخ الذين أخرجهم مع القائد جوهر (ط 139): والله لو خرج جوهر بسوطه وحده لفتح مصر، ولتدخلُنّ إلى مصر آمنين بالأردية تسلّمون على أهل مصر، ولينزلَنّ جوهر في خرابات آبـن طولون ويبتني مدينة القاهرة تقهر الدنيـا!.

ثمّ تقدّم المعزّ لدين الله إلى جوهر بالمسير فرفع من غده. وخرج إليه أمير المؤمنين إلى رقّادة، ووقف على فرسه، وقد رُفعت فازة جوهر والخيم، فوقف جوهر بين يديه، وهو على فرسه مكبّاً عليه يسارّه. ثمّ/ التفت المعزّ إلى أولاده فقال: «ودّعوا جوهراً!» فنزلوا ونزل أهل الدولة لنزولهم فودّعوه. فلمّا فرغ الوداع، قبّـل جوهر يد أمير المؤمنين ورجلَه وحـافرَ فـرسه. ثمّ قـال له أميـر

98/2

.. وأمّر جوهراً على الجيش الفاتح

(213) هذه قراءة السيرة، 92 - 93. وفي المطبوع: تدخلنا. وفي المخطوط: توحّلنا.

المؤمنين: «اركب!» فركب فرساً ووقف راكباً، وأمير المؤمنين يوصيه ويحدّثه، وهو على فرسه وجوهر راكب، طويلاً. ثمّ وقف أمير المؤمنين وقال له: «سر». فحوّل القائد وجهه يريد العسكر.

ورجع أمير المؤمنين إلى قصره، ونزع الخلعة التي كانت عليه وأنفذها إلى جوهر، إلاّ السراويل والخاتم. وكان خروج القائد من إفريقيّة يوم السبت رابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة (6 مارس 969).

وقال محمّد بن هانىء الأندلسيّ يمدح القائد جوهراً، ويذكر توديعه وتشييعه ويصف الجيش من قصيدة[214] طويلة:

(طويل)

شعر لابن هانىء في وصف جيش الفتح

رأيتُ بعيني، فوقَ ما كنتُ أسمعُ، وقد راعَني يومٌ، من الحشر، أرْوَعُ

غـداةَ، كأنّ الأفْقَ سُـدَّ بمثله، فعادَ غروبُ الشمس من حيثُ تطلعُ

فلم أدْرِ، إذ سَلّمتُ، كيف أُشَيِّعُ؛ ولم أدرِ، إذ شَيَّعتُ، كيف أُوَدِّعُ

وكيف أخوضُ الجيش، والجيشُ لُجّةٌ، وإنّي، بمن قد قاده، الدهرَ، مُولَع

5 وأينَ، ومالي، بين ذا الجمْعِ، مَسْلَكٌ، ولا لجوادي، في البسيطة، موضع

ألا إنّ هذا حَشدُ من لم يذُقْ له، غِرارَ الكرى، جَفنٌ، ولا باتَ يهْجَعُ . . .

ومنها:

فلا عسكرٌ، من قبلِ عَسكرِ جوهرٍ، تخُبُّ المطايا فيه، عَشْراً، وتوضِع

10 تسيرُ الجبالُ الجامداتُ بسَيرِهِ، وتسجُدُ من أدنى الحفيفِ وتركع

إذا حلَّ في أرضٍ بناها مَدائناً، وإن سارَ عن أرضٍ ثَوَتْ وهي بلقع . . .

ويقول فيها:

إلى أنْ تبدَّى سيفُ دولةِ هاشمٍ، على وجههِ نورٌ من الله يَسْطَع

(214) القصيدة 27 من طبعة زاهد عليّ. صادر، 192

20 كأنَّ ظِلالَ الخـافقاتِ، أمـامه، غمـائمُ نصـر الله، لا تَتَقَشَّـع
كأنَّ السيوفَ المُصْلَتاتِ، إذا طَمَتْ على البَرِّ، بحرٌ زاخِرُ الموجِ ، مُترَع
كـأنّ أنـابيبَ الصِّعـادِ أراقمٌ تَلَمَّظُ، في أنيـابها السمُّ مُنقَـعُ
كأنَّ العِتاقَ الجُرْدَ، مجنوبةً له، ظِباءٌ، ثَنَتْ أجيادها، وهي تُتلِع
كأنَّ الكُماةَ الصِّيدَ، لمَّا تَغَشْمَرتْ، حواليْه، أُسْدُ الغِيلِ ، لا تتكعكع
25 كأنَّ حُماةَ الرَّجْلِ ، تحت رِكابه، سُيـولُ نَـداهُ، أقبَلَتْ تتـدفَّـع
كأنَّ سِراعَ النُّجْبِ، تُنشَرُ يَمْنَةً على البِيدِ، آلٌ، في الضحى، يترفَّع
كأنَّ صِعابَ البُختِ، إذ ذُلِّلَتْ له، أُسارى مُلوكٍ، عضَّها القِدُّ، ضُرَّع
/كأنَّ خلاخيلَ المطايا، إذا غدتْ تَجاوَبُ، أَصْداءُ الفَلا، تترَجَّـع
99/2
يُهَيِّـجُ وَسـواسُ البُـرينَ صَبـابـةً عليها، فتُغرى بالحنينِ، وتُولَـع
30 لقد جَلَّ من يَقتادُ ذا الخلقَ كلَّه، وكلٌّ له، من قائم السيفِ، أطوَع
تَحُفُّ به القُوَّادُ، والأمـرُ أمرُه، ويَقـدُمُـه زِيُّ الخِـلافـةِ أجمَـع
ويَسحَبُ أَذيالَ الخِلافةِ، رادِعاً، به المسكُ، من نشرِ الهُدى، يَتَضوَّع
له حُلَلُ الإكرام ، خُصَّ بفضلها، نسائجَ، بـالتِّبرِ المُلَمَّـعِ ، تلمع
بُـرودُ أميـرِ المؤمنينَ بُـرودُه، كساه الرِّضى منهنَّ ما ليس يُخْلَع
35 وبين يـديـه خَيلُه بسُـروجِـه، تُقـادُ، عليهنَّ النُّضارُ المُـرصَّـع
وأعـلامُـه مَنشُـورةٌ، وقِبـابُـه، وحُجَّـابُهُ تُـدعى لأمـرٍ، فتُسـرع
مليكٌ، ترى الأملاكَ دونَ بساطِهِ، وأعناقُهم مِيلٌ إلى الأرض، خُضَّع
قِياماً على أقدامِها، قـد تَنَكَّبَتْ صـوارمَها، كـلٌّ يُطيـعُ ويَخضع
تَحِلُّ بيوتُ المالِ ، حيثُ يَحِلُّه، وجَمُّ العـطايا والـرِّواقُ المُرفَّـع
40 إذا ماجَ أَطنابُ السُّرادقِ بالضُّحى، وقامت، حواليه، القَنا، تَتزعزَع
وسَلَّ سيوفَ الهند، حول سريره، ثمـانـون ألفـاً: دارعٌ ومُقَنَّـع
رأيتَ مَنِ الدنيا إليـه مَنُوطَـةٌ، فيَمضي بما شاءَ القضاءُ، ويَصدَع. . .

وقال أيضاً من قصيدة[215] وقد رجـع من تشييع العسكـر،

(215) القصيدة 46 من طبعة زاهد عليّ. صادر، 308.

وأنشدها بحضرة أمير المؤمنين (عم) ـ ويعتذر لتخلّفه عن المسير (طويل): (ط 142)

فشيَّعْتُ جيشَ النصر تشييعَ مُزمِعٍ، ووَدَّعْتُهُ توديعَ غيرِ مُصارِم
وقد كِدْتُ لا أَلوي على مَن تركتُه، ولكنْ عَداني ما ثنى مِنْ عزائمي
ولو أنَّني اسْتأثرتُ بالإذنِ، وحدَه، لَسِرْتُ، ولم أحْفِلْ بلومةِ لائم
15 طَربْتُ إلى يومٍ أُوَفّيه حَقّهُ، لِيَعْلَمَ أهلُ الشعر: كيف مُقاومي
أصَبُّ إلى مِصْرٍ، لساعةِ مَشْهَدٍ، يَعَضُّ لها غُيّابُها بالأباهِم
فإنْ لم أُشاهِدْ يومَها مِلْءَ ناظري، أُشاهِدْهُ مِلْءَ السمْعِ، مِلْء الحيازم
وقد صَوَّرَتْ نفسي لِيَ الفتحَ صورةً، وشامتْه لي من غيرِ نظرةِ شائم
كذاك، إذا قام الدليلُ، لذي النُّهى، على كونِ شيءٍ، كان ضربةَ لازم
20 على أنَّني قَضَّيْتُ بعضَ مآربي، وأقرَرتُ عيني بالجيوشِ الخَضارم
وآنَسْتُ، من أنصارِ دولةِ هاشمٍ، جَحاجحةً، تَسْعى لدولةِ هاشِم
ويَمَّمتُ، في طُرْقِ الجهادِ، سبيلَهم، لأصْلى، كما يَصْلَونَ، لفحَ السَّمائم
فللّه ما ضَمَّ السُّرادِقُ، والتقَتْ عليه ظلالُ الخافقات الحوائم
25 فثَمَّ مصابيحُ الظلام، وشيعةُ الـ ـإمامِ، وأُسْدُ المأزِقِ المُتَلاحِم

100/2

/وفي الجيش مَلآنٌ بهالجيشُ، باسطٌ يَدَيه بقِسطاسٍ، منَ العدلِ، قائم
مُدبّرُ حربٍ، لا بخيلٌ بنفسه عليها، ولا مُستأثِرٌ بالغنائم
ولا صارفٌ راياتِه عن مُحارِبٍ، ولا مُمْسِكٌ معروفَه عن مُسالم
وللصّارخِ الملهوفِ أوّلُ ناصرٍ، وللمُتْرَفِ الجبّارِ أوّلُ قاصم...

* * *

رِضاكَ، ابنَ وحي اللهِ، عنه، فإنَّه رَعَى أولياءَ اللهِ رَعْيَ السوائم
إذا اختلفوا في الأمرِ، ألَّفَ بينهم طبيبٌ بأدواءِ النفوسِ السّقائِم
35 فلا رأيُه في حالةٍ يَتْبَعُ الهوى، ولا سَمْعُه مُسْتَوقِفٌ للنّمائم
جَزَتْه جوازي الخيرِ عنهم، فإنَّه سَقاهم بشُؤبوبٍ، من العدلِ، ساجِم
فقد سارَ فيهم سيرةً لم يَسِرْ بها، من الناسِ، إلاّ مثلُ كعبٍ وحاتم
أفاءَ عليهم ظِلَّ أيّامِكَ، التي زُهِينَ بأيامِ العُلى والمكارم

وماغالَ جيشَ الشَّرق، قبلك، غائلٌ، ولا سِيَّما بعدَ العطايا الجَسائم
40 وبعدَ صِلاتٍ ما رأى الناسُ مثلَها، ولا حُدِّثوا في السّالِف المُتقادم . . .

* * *

45 فلا يسألَنِّي مَنْ تخلَّفَ عَنهُمُ، فيَقْرَعَ، في آرائه، سِنَّ نادم
لعَمْري! هُمُ أنصارُ حقٍّ، وكلُّهم، من المجدِ، في بيتٍ رفيعِ الدعائم
لقد أظهروا، من شكرِ نعمةِ ربِّهم وقائِدِهم، ما لستُ عنه بنائم
وإنيَ قد حُمِّلتُ منهم نَصائحاً كرائِمَ، تُهْدى عن نفوسٍ كرائم
إليك، أميرَ المؤمنينَ، حَمَلْتُها ودائعَ، كالأموال، تحتَ الخواتم
50 شَهِدْتُ، بما أبْصَرتُه وعلِمْتُهُ، شهادةَ بَرٍّ، لا شهادةَ آثِم
فقُمْتُ بها عن ألسُنِ القومِ خُطبةً، إذا ذُكِرَتْ لم تُخْزِهِم في المواسم

وسار جوهر بعساكر أمير المؤمنين وجيوشه حتى انتهى إلى برقة، فلقيه عاملها من قبل أمير المؤمنين أفلح الناشب مترجِّلاً ماشياً، وكان أمير المؤمنين قد تقدّم إليه بذلك.

قال ابن حوقل[216] البغداديّ: «برقة بالفتح: مدينة وسيطة بين مصر والقيروان (ط 144) بَرِّيَة بحريّة جليلة ذات مال جمّ وضروب تجارة. وشراب أهلها من برك يستنقع فيها ماء المطر. ذات كور عامرة في بقعة فسيحة، مسيرة يوم في مثله. ويحيط بالبقعة جبل من سائر جهاتها، وأرضها حمراء التربة، وثياب أهلها حمراء أبداً، يعرفون بذلك. وحولها بربر كثير».

وكان أفلح من برقة قد وطّأ البلاد واستعمل الجهاد لمن خالف أمير المؤمنين (عم) من البربر وغيرهم، ومن يلي مصر من القبائل كبني قرّة وسواهم من الأعراب. وفي ذلك يقول محمّد بن هانىء من قصيدة مدحه بها[217]: 101/2

(216) صورة الأرض، 69 مع اختصار كبير.
(217) قصيدة 55، صادر، 369.

(كامل):

بك دانَ مُلْكُ المشرقين وأهلُه، وأنابَ بعد النكثِ والخُلْعان...

40 فبعزمك انهدَّت قُوى أركانِها؛ وبقُربك امتدَّت إلى الإذعان

شعر له أيضاً في مدح أمير برقة

وَطَّأتَ، بالغاراتِ، مركبَ عِزِّها، والجيشَ، حتى ذَلَّ للرُّكبان

فإليكَ يُنسَبُ، حيث كنتَ، وإنما فخر الصَّلِيِّ لِقادحِ النِّيران

عَصَفَتْ، على الأعرابِ، منك زعازعٌ، سَفَكَتْ دمَ الأقرانِ بالأقران

ما قَرَّ أعينُ آلِ قُرَّةَ، مذ سُقوا، بك، ما سُقُوه من الحَميمِ الآني

45 وقبيلةً قَتَّلْتَها، وقبيلةً أثكَلْتَها بالبَرْكِ في الأعطان

أَخْلى البُحَيرةَ، منهمُ، والبِيدَ ما خَسَفَ الصَّعيدَ بشِدَّةَ الرَّجفَان

فشغَلتَ أهلَ الخَيمِ عن تطنيبها، وأسَمْتَهم شَرْداً مع الظُّلمان

وسَمَتْ إلى الواحاتِ خَيْلُكَ، ضُمَّراً، حتى انتهَتْ، قُدُماً، إلى أُسْوان

ووردت الأخبار إلى مصر بمسير جوهر في الجيوش المعزّيّة، والجنود والعساكر المغربيّة، فبهتوا وهلعوا. واتّفق وجوههم وأمراؤهم، فحضر جعفر بن الفضل الوزير[218] ـ وكان الحسن بن عبيد الله بن طغج قد أطلقه وقلّده أمر مصر وعاد إلى الشام ـ فشاور جعفر بن الفضل الجماعة، فكلّهم رأى المراسلة إلى جوهر بالصلح والأمان، ولم يختلف في ذلك منهم اثنان. فعندها طلبوا الشريف أبا جعفر مسلم بن عبيد الله الحسينيّ[219] أن يكون رسولهم إلى القائد، ومتوسّطاً بينهم وبينه في الصلح، فأجابهم إلى ذلك وشرط أن يكون معه الشريف إبراهيم بن أحمد الحَسَنيّ الرّسّي وأبو الطيّب عبّاس ابن محمّد العبّاسيّ[220] والقاضي بمصر أبو طاهر محمّد بن

(218) هو جعفر بن الفرات. انظر الاتّعاظ، 147 هامش 2.

(219) الشريف أبو جعفر العلوي، من نسل الحسين السبط ومن أشراف مصر ووجوهها. ويدعى «النشّابة». انظر النجوم الزاهرة ج 4 ص 3.

(220) أو الهاشميّ كما سيرد في عهد جوهر.

أحمد[221]. فطلبهم جعفر بن الفضل وأمرهم بالمسير إلى جوهر مع الشريف مسلم بن عبيد الله الحسينيّ. وكتب ابن الفضل الوزير كتاباً إلى جوهر القائد بما يريد، وكتب الجماعة كذلك. وسار مسلم فيمن معه إلى القائد في يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة (7 جوان 969)، فوصلوا إلى القائد وهو بترّوجة[222]. فأدّوا إليه ما به أُرسلوا (ط 146)، فأجابهم بما طلبوا وأسعفهم بجميع ما سألوا، وكتب لهم كتاباً هذا فصّه[223]:

عقد الأمان من جوهر لأهل مصر

«باسم الله الرحمان الرحيم.

«هذا كتاب من جوهر القائد الكاتب عبد أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (صلع) لجماعة أهل مصر والساكنين بها من غيرها[224].

«إنّه ورد من سألتموه الترسّل إليّ والاجتماع معي وهم:

الشريف أبو جعفر أطال الله بقاءه.
وأبو إسماعيل الرسّي أيّده الله.
وأبو الطيّب الهاشميّ أيّده الله،
والقاضي / أعزّه الله[225].

102/2

«فذكروا عنكم أنّكم آلتمستم كتاباً يشتمل على أمانكم في أنفسكم وأموالكم وبلادكم ونعمكم وجميع أحوالكم، فعرّفتُهم ما نفذ به أمر مولانا (عم) وحسن نظره لكم، لتحمَدوا الله على ما

---

(221) هو القاضي أبو طاهر الذهليّ.

(222) ترّوجة: انظر عنها تعليق المرحوم الشيّال في الاتّعاظ، 148، هامش 1.

(223) أورده المقريزيّ في الاتّعاظ، 148، بلفظ مغاير أحياناً وزيادة ونقصان، ونبّه إلى الاختلاف كلّما دعت الحاجة.

(224) في الاتّعاظ: أهل مصر الساكنين بها من أهلها ومن غيرهم، وهو أوضح.

(225) يضيف المقريزيّ: أبو جعفر أحمد بن نصر.

أولاكم وتشكروه على ما حباكم، وتدأبوا فيما يلزمكم، وتسارعوا للطاعة المفضية بالسلامة لكم. وهو أنّه (صلع) لم يكن إخراجُه لهذه العساكر المنصورة والجيوش المظفّرة إلّا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم، إذ قد تخطّفتكم الأيدي، واستطال عليكم المشرك، وأطمعته نفسه بالاقتدار على بلادكم في هذه السنة والتغلّب عليكم والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله في غيركم من أهل بلدان المشرق، وتأكّد عزمه واشتدّ كلَبُه. فعاجله مولانا وسيّدنا المعزّ لدين الله (عم) بإخراج العساكر المنصورة، وبادره بإنفاذ الجيوش المظفّرة ليقاتله دونكم ويجاهدَ عنكم وعن كافّة المسلمين ببلدان المشرق، الذين عمّهم الخزي وغلبتهم الذلّة واكتنفتهم المصائب وتتابعت لديهم الرزايا واتّصل عندهم الخوف، وكثرت استغاثتهم وعظم ضجيجهم وعلا صياحهم فلم يُغثْهم إلّا من أرمَضَهُ[226] أمرُهم وأمضّه حالهم وأبكى عينه ما نالهم وأسهره ما حلّ بهم: وهو سيّدنا ومولانا أمير المؤمنين (صلع). ورجا بفضل الله وإحسانه لديه، وما عوّده وأجراه عليه، أن يؤمّن مَن استولى عليه الوهل، ويُفرخَ روع من لم يزل في خوف ووجل، وآثر إقامة الحجّ الذي تعطّل وأهمل العباد فروضه وحقوقه، للخوف المستولي عليهم[227]، إذ لا يأمنون على أنفسهم ولا على أموالهم وقد أُوقعَ بهم مرّة بعد أخرى فسفكت دماؤهم وابتزّت أموالهم، مع اعتماد ما عاد به صلاح الطرقات[228] ونفي الفساد عنها وقطع عيث العائثين فيها، ليَتطرّق الناس وينبسطوا وليختلفوا بالأطعمة والأقوات، إذ كان قد انتهى إليه انقطاع طرقاتها ومادّتها بالخوف، وإذ لا زاجر

---

(226) أرمضه الأمر: أوجعه وأحرقه.

(227) في الاتّعاظ، 149 لخوف المستولي عليهم.

(228) في الاتّعاظ، 149: مع اعتماد ما جرت به عادته من صلاح الطرقات.

للمعتدين، ولا دافع للظالمين، ثمّ تجويدِ السكّة وصرفِها إلى العيار الذي عليه السكّة الميمونة المنصوريّة[229] المباركة، وقطعِ الغشّ منها، إذ كانت من الثلاثِ الخصال التي لا ينبغي لمن ينظر في أمور المسلمين إلّا إصلاحها واستفراغ الوسع فيما يلزمه/ منها.

103/2

«[وعرّفتهم] ما أوعز به سيّدنا ومولانا أمير المؤمنين (عم) إلى عبده من بسط العدل وإظهار الحقّ وحسم الظلم وقطع العدوان ونفي الأذى ورفع المؤن، والمساواةِ في الحقّ وإغاثة المظلوم ودفع الظلوم وإيثار الحقّ والتقريب والإشفاق وجميل النظر وكريم الصحبة ولطيف العشرة، وافتقاد الأحوال، وحياطة أهل البلد في ليلهم ونهارهم، وحينَ تصرّفِهم في أوان ابتغاء المعاش حتّى لا تجري أمورهم إلّا على ما لمّ شعثهم وأقام أودهم وأصلح بالهم (ط 148) وجمع قلوبَهم وألّف كلمتَهم على طاعة وليّ الله مولانا وسيّدنا أمير المؤمنين (صلع)، وما أمر به مولانا من إسقاط الرسوم الجائرة التي لا يرتضي إثباتَها عليكم، وأن أجريَكم في المواريث على كتاب الله (عج) وسنّة نبيّه (ﷺ)، وأضعَ ما يؤخذ من تركة موتاكم لبيت المال من غير وصيّةٍ به من المتوفّى[230] ولا استحقاقٍ يصيّره إلى بيت المال، وأن أتقدّم في رمّ مساجدكم وتزيينها بالفرش والإيقاد، وإعطاء مؤذّنيها وقوّمتها ومن يؤمّ الناس فيها أرزاقهم وأدرّها عليهم ولا أقطعها عنهم، ولا أدفعها إلّا من بيت المال، لا بإحالة على من يعطى منهم[231].

(229) في المخطوط: المنصورة، والإصلاح من الاتّعاظ، والعيار المقصود هو الدينار المنصوريّ الذي ضربه المنصور بعد فراغه من ثورة أبي يزيد.

(230) في المخطوط: من المتوفّى به، وهو تأخير ثقيل. والمعنى: يحجّر ضمّ مال التركات إلى بيت المال إذا لم يترك الميت وصيّة في ذلك، والجملة بعد غامضة.

(231) في الاتّعاظ، 151: لا بإحالة على من يقبض منهم، والجملة تبقى على غموضها.

«وعندما ذكر عبد أمير المؤمنين (صلع) ما ضمّنه كتابه هذا [لـ] ـمن ترسّل عنكم، أيّدهم الله وصانهم أجمعين على طاعة مولانا وسيّدنا أمير المؤمنين، ذكروا أنّكم ذكرتم وجوهاً آلتمستم ذكرها في كتاب أمانكم، وذكرتُها إجابة لكم وتطييباً لأنفسكم. بل لم يكن لذكرها معنى، ولا في نشرها فائدة، إذ كان الإسلام سنّة واحدة وشريعة متّبعة: وهي إقامتُكم على مذهبكم ومذاهب المسلمين، وأن تُترَكوا على ما كنتم عليه من أداء الفروض في العلم والاجتماع عليه في مساجدكم وجوامعكم، وثباتكم[232] على ما كان عليه سلف الأمّة[233] من الصحابة (رضي الله عنهم) والتابعين بعدهم وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم، وأن يَجريَ فرض الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقنوت لياليه[234] والزكاة والحجّ والجهاد، على ما أمر الله (تع) في كتابه وفرضَه (ط 149) محمّد (ﷺ) في سنّته، وإجراءُ أهل الذمّة على ما كانوا عليه.

«ولكم أمان الله التامّ الدائم المتّصل الشامل الكامل المتجدّد المتأكّد على مرور الأيّام وكرور الأعوام، في أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم، قليلكم وكثيركم، وعلى أن لا يعترض/ عليكم معترض ولا يتجنّى عليكم متجنّ ولا يتعقّب لديكم متعقّب، وعلى أنّكم تصانون وتحفظون وتحرسون، ونذبّ

104/2

(232) في المخطوط: وقبائلكم، ولا معنى له ما دام يخاطب أهل الفسطاط ومدن مصر. والإصلاح من الاتّعاظ ومن المطبوع.

(233) في مخطوطنا: الأئمّة، والصواب ما جاء في الاتّعاظ، إذ يريد جوهر تألّف قلوب السنّة بمصر، فلا يفرض عليهم من أوّل وهلة عقائد آل البيت، وذاك ما توضّحه بقيّة الالتزامات منه.

(234) أي صلاة التراويح، ومعلوم أنّ الشيعة يمنعونها.

عنكم ونمنع منكم، ولا ننزل على أذاكم ولا نساعد أحداً من الأعداء عليكم، ولا في الاستطالة على قويّكم فضلاً عن ضعيفكم، وعلى أن لا أزال مجتهداً فيما يعمّكم صلاحه ويشملكم نفعه ويتّصل بكم خيره وتتعرّفون بركته وتغبطون منه بطاعة مولانا وسيّدنا أمير المؤمنين (صلع).

«ولكم الوفاء بما ألزمت به نفسي وأعطيتكم إيّاه من عهد الله وغليظ ميثاقه وذمّته وذمّة أنبيائه ورسله وذمّة الأئمّة موالينا آباء مولانا أمير المؤمنين، وذمّة مولانا وسيّدنا أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (ص) وذمّة عبده ومملوكه.

«على أنّكم تُظهرون طاعة مولانا وسيّدنا أمير المؤمنين (ص) وتصرّحون بها وتعلنون بالانصراف إليها، وتخرجون إليّ وتسلّمون عليّ وتكونون بين يديّ، إلى أن أعبر الجسر وأنزل في المناخ المبارك، وتحفظون وتحافظون من بعد على الطاعة، وتثابرون عليها، وتسارعون إلى فروضها، ولا تخذلون وليّاً لمولانا وسيّدنا أمير المؤمنين (ص) ولا تنصرون له عدوّاً وتقيمون على ما عوهدتم عليه وتلزمون ما أمرتم به.

«وفّقكم الله وأرشدكم أجمعين!

«وبخطّ جوهر كان هذا الأمان في شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، وصلّى (ط 150) الله على محمّد وآله أجمعين».

وكتب القائد جوهر أيضاً بخطّه:

«قال جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين المنتظرين إلى يوم الدين: كتبت هذا الأمان على ما نفذ به أمر مولانا وسيّدنا أمير المؤمنين

(ص). وعليّ الوفاء بجميعه لمن أجاب من أهل البلد وغيرهم، على ما شُرط فيه.

«والحمد لله ربّ العالمين، وحسبي الله ونعم الوكيل، وصلّى الله على محمّد النبيّ وآله الطيّبين».

وكتب جوهر بخطّه بالتاريخ المذكور وكتب الشهود خطوطهم، وهم:

الشريف أبو جعفر مسلم بن عبد الله بن طاهر الحسينيّ.
والشريف أبو إسماعيل إبراهيم بن أحمد الحسنيّ الرّسيّ،
وأبو الطيّب العبّاس بن أحمد الهاشميّ،
والقاضي أبو طاهر محمّد بن أحمد،
وابنه أبو يعلى محمد بن محمد،
وأبو بكر محمّد بن مهلّب،
وأبو محمّد عمرو بن الحارث المالكيّ.

105/2 وأكرم جوهر نُزل الجماعة/ وكانوا في ضيافته. وكان يتلقّى الشريف أبا جعفر إذا جاء إليه، ويخرج معه إذا انصرف من عنده إلى أن يركب.

أتباع الإخشيد ينقضون الصلح..

وكانت الإخشيديّة والكافوريّة بعد مسير الرسل إلى القائد جوهر قد ندِموا على الصلح وعزموا على القتال وأخذوا في تعبئة العساكر وأخرجوا مضاربهم. واتّصل بالشريف مسلم والجماعة الذين معه، وهم عند القائد جوهر، انتقاض الصلح وما عزم عليه أهل مصر من القتال، فكتموا عن القائد خوفاً من أن يعتقلهم وبادروا إلى توديعه. فأجازهم وخلع عليهم وحملهم (ط 151) وأعطى كلّ واحد منهم عشرة آلاف درهم.

وبلغ القائدَ جوهرا بعد انصرافهم انتقاضُ الصلح، فسار فلحق بالجماعة بمحلّة حفص[235] فقال لهم: «بلغني أنّ القوم قد رجعوا عمّا سألوكم، فرُدّوا عليّ خطّي!

فرفقوا به وداروه وقالوا: إذا يُظفرَك الله وينصرَك!

فقال للقاضي أبي طاهر: مسألة!

قال أبو طاهر: ما تقول؟

فقال له القائد: ما تقول فيمن أراد أن يشقّ مدينة مصر ويجعلها طريقاً لجهاد المشركين فمنعوه؟ أيجوز له أن يقاتلهم؟

قال القاضي: نعم.

فقال القائد: هات خطّك! وضحك.

فقال القاضي: إذن يكفيَك الله!

وكانوا قد خافوه فودّعهم وانصرفوا عنه آمنين.

.. ويتأهّبون لقتال جوهر..

ووصل الشريف أبو مسلم ومن معه إلى مصر[236] لسبع خلون من شعبان سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة. فركب إليه الوزير جعفر بن الفضل، واجتمعت عنده الإخشيديّة والكافوريّة وغيرهم. فقرأ عليهم السجلّ الذي كتبه القائد، وأوصل إلى كلّ واحد جواب كتابه بما أراد من الأمان والإقطاع والولاية، وأوصل إلى أبي الفضل الوزير كتابه بألطف كتاب يخاطب به الوزراء.

ولمّا قرأ عليهم الشريفُ السجلّ، امتنعوا من الصلح، فقال نحرير: «ما بيننا وبينه إلاّ هذا السيف!» وتكاثرت الإخشيديّة والكافوريّة ودخل أتباعهم وضاقت الدار بهم، وتحاوروا مليّاً ثمّ قالوا: «إنّا لا نقاتل إلاّ بأمير!» فأمّروا نحرير شويزان عليهم، وهو

(235) في المخطوط والمطبوع: محلّة فحص، والإصلاح من الاتّعاظ، 185.

(236) أي الفسطاط.

الأصغر، ونحرير الكبير ممّن سلّم بالإمارة عليه[237]. واستخانوا أبا الفضل الوزير فخرج عنهم وخرج عنهم الشريف مسلم. ثمّ إنّ الشريف مسلماً ردّ خطّ جوهر (ط 152) على ما شرط عليه.

106/2

وأخذ القوم في تعبئة العساكر ثمّ/ ساروا عسكراً بعد عسكر إلى الجيزة والجزيرة، وتتابعت العساكر بالدروع والجواشن والسلاح. ونزل نحرير بالجزيرة وحفظوا الجسور. وابتدأ القتال بالجزيرة في اليوم الحادي عشر من شهر شعبان، وأسر رجال وأخذت خيل من عسكر القائد جوهر. ولمّا ضبطوا الجسر مضى القائد جوهر إلى منية الصيّادين[238]. فلمّا خافت الإخشيديّة والكافوريّة أن يعبروا من المخاضة، نصبوا مزاحم بن رائق[239] لحفظ المخاضة، فانصرف ابن رائق وترك المخاضة. فثارت الكافوريّة والإخشيديّة إلى المخاضة يوم الأحد وتركوا مفلحاً الوهبانيّ[240] وكانوا في قوّة من العدد والعدّة. وكان مسيرهم إلى المخاضة يوم الأحد للنصف من شعبان (4 جويلية 969) فحصلوا بمنية شلقان. فلمّا رآهم القائد جوهر قال لأبي الفضل جعفر بن فلاح: «يا جعفر، لهذا اليوم أرادك أمير المؤمنين المعزّ لدين الله!» فعبر جعفر بن فلاح وهو في مركب ومعه الرجال خوضاً حتى خرجوا إليهم[241]. فوقع بينهم القتال وتلاقى الرجال وتفانى الأبطال، فقتل

.. فيعبر إليهم جعفر بن فلاح الكتاميّ..

---

(237) لعلّة نحرير اللأزغلي أبو الحسن غلام الإخشيد (العيون والحدائق، 409/9 وكتاب الولاة والقضاة، 269).

(238) في الاتّعاظ، 155 وهامش 2: منية شلقان.

(239) مزاحم بن محمّد بن رائق: سيولّيه جوهر على بعض أعمال الوجه البحريّ (اتّعاظ، 167 وهامش 1 و2) ولعلّه كافأه بذلك على تركه المخاضة بدون حراسة.

(240) مفلح الوهبانيّ: لا نعرفه.

(241) المشهور عند المؤرّخين أنّ جعفر بن فلاح عبر النهر عرياناً في سراويل سابحاً، =

خلق من الإخشيديّة وأتباعهم، وانهزمت الجماعة في الليل ودخلوا إلى مصر إلى دورهم فأخذوا ما قدروا عليه. وأنهب نحرير شويزان المؤمّر عليهم من حضره داره وما فيها ثمّ سار غداة الاثنين سادس عشر من شعبان فارّاً إلى الشام. وأمّا نحرير المسمّى الكبير فإنّه قُتل بتلك الوقعة في المخاضة.

وأصبح الناس على خوف شديد. وخرجت حرم الإخشيديّة والكافوريّة من دورها حافية ماشية. وجاء أبو محمّد الروذباري عامل الخراج[242] وأبو محمّد الفرغاني[243] وسائر الناس فزعين جزعين، يهرعون إلى الشريف مسلم الحسينيّ فآنسهم وقال: «إنّا قد لقينا هذا الرجل ـ يعني جوهراً القائد ـ وإنّا قد وثقنا بعقله وحلمه». فسألوه أن يكتب إلى القائد في إعادة الأمان إليهم. فكتب إليه (ط 153) الشريف مسلم يهنّئه بالفتح ويسأله إعادة الأمان كما طلبوا. ثمّ سألوه أن يزيد كتاباً غير ذلك ففعل، وأرسل رسولاً آخر على نجيب، وجلس الناس عند الشريف مسلم ينتظرون الجواب. ثمّ جاءت جماعة من أهل مصر كانوا خرجوا إلى القائد جوهر فأمرهم بأمان الناس، وأرسل معهم رجلاً من عيون رجاله ومعه بند أبيض مكتوب عليه/ اسم أمير المؤمنين المعزّ (عم) وبين يديه الأجراس، يؤمّنون الناس ويمنعون من النهب، فلم ينهب ولم يغصب على أحد

.. فينهزمون...

107/2

= لا في مركب ولا في موكب (الاتّعاظ، 155) وعن هذا القائد الكتاميّ، انظر رسالة موسى لقبال: دور كتامة، 485.

(242) الروذبارزيّ في عبارة القضاعي التي نقلها حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطميّة، 300، هامش 2. وقد تولى الخراج لجوهر. ولا ندري ما هي علاقته بصالح بن عليّ الروذباري الذي سيخدم الحاكم الفاطميّ أو ابنه «عميد الدولة» الذي خدم الظاهر (اتّعاظ، 275).

(243) أبو محمّد الفرغاني: لا نعرفه كذلك.

شيء. وهدأ الناس وفتحوا دورهم وحوانيتهم وقامت الأسواق كأنّها لم تكن فتنة.

ولمّا كان آخر النهار ورد الجواب من القائد جوهر المعزّيّ إلى الشريف مسلم مع رسوله فقرأه مسلم لنفسه ثمّ جهر بقراءته على الناس وهو ما هذا فصّه:

.. ويعطيهم جوهر أماناً آخر

«باسم الله الرحمان الرحيم. وصل كتاب الشريف أطال الله بقاءه وأدام عزّه وتأييده وتمكينه، يهنّىء بما هيّأه الله من الفتح المبارك. وهو، أيّده الله، المُهنّأ بذلك لأنّها دولته ودولة أهله، وهو المخصوص بذلك[244].

«وأمّا ما سأل من الأمان وإعادة الأمان الأوّل، فقد أعدت إليه ما طلب، وجعلتُ إليه عن مولانا وسيّدنا أمير المؤمنين (ص) أن يؤمّن الناس بما شاء كيف شاء. وقد كتبت إلى الوزير بالاحتياط على دور الهاربين إلى أن يدخلوا في الطاعة، وفيما دخلَت فيه الجماعة.

«ويعمل الشريف أيّده الله على لقائي يوم الثلاثاء لسبع عشرة تخلو من شعبان بجماعة الأشراف والعلماء وأهل البلدان إن شاء الله» (ط 154).

فلمّا قرأ الشريف كتاب القائد على الناس فرحوا واطمأنّوا وانصرفوا متأهّبين للقائه، وزال عنهم من الخوف ما عراهم. وقال رسول الشريف الذي أرسله إلى القائد، للشريف: «إنّي وجدت عند القائد رأس نحرير الكبير ومبشّر، وبلال الطنبائيّ، و يمن الطويل في طشت فضّة، ورؤوساً كثيرة مطروحة في ناحية الفازة». ولم يكن صحّ للشريف من قُتل ومن نجا.

(244) لأنّه حسينيّ، فهو فاطميّ أيضاً، هكذا يستدرجه جوهر.

ثمّ خرج يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان، الشريف مسلم الحسينيّ وأبو الفضل جعفر بن الفضل الوزير وجماعة أهل مصر إلى الجيزة. فلمّا اجتمعوا مع القائد جوهر نادى مناديه: «ينزل الناس كلّهم إلّا الشريف والوزير!» فنزل الناس كلّهم وسلّموا على القائد واحداً واحداً، وأبو جعفر أحمد بن نصر يعرّفه بالناس(245)، ومسلم الحسينيّ عن يمينه، وأبو الفضل الوزير عن يساره، وهم على دوابّهم، حتّى سلّموا عن آخرهم.

ودخل القائد جوهر المعزّيّ مدينة مصر يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شهر شعبان، أحد شهور سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة (6 جويلية 969). وابتدأ الناس بالدخول منذ زوال الشمس فعبروا الجسور بالدروع والجواشن، ودخلت القباب/ والمحامل والرايات. ودخل وجوه العسكر بالأردية يسلّمون على الناس كما وعدهم أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (ص) يوم وداعهم له. ودخل بين يدي القائد جوهر ألف ومائتا صندوق من المال.

108/2

دخول جوهر إلى الفسطاط

ثمّ دخل القائد جوهر بعد العصر، وبنوده بين يديه وطبوله، وعليه قميص ديباج مثقّل. وشقّ المدينة ونزل في مناخه(246) ثمّ اختار موضع القاهرة المعزّيّة(247) وأخذ في بناء سورها وتحصينها. وأقام العسكر يدخل سبعة أيّام من أوّل يوم الثلاثاء إلى آخر يوم (ط 155) الاثنين. وكان فتحاً عظيماً أتاحه الله لوليّه المعزّ لدينه، وقضى سبحانه ببسط يده وتمكينه، وجعله على خزائن الأرض كما

(245) أحمد بن نصر: لعلّه داع بمصر، وسيذكر من جديد في ص 127 عند دخول المعزّ إلى القاهرة.

(246) «المناخ السعيد»: انظر تعليق المرحوم الشيّال في الاتّعاظ، 152 هامش 1.

(247) وبهذا يسقط كلام إدريس السابق في أنّ كافوراً هو الذي بدأ بناءها (ص 95).

جعل يوسف بن يعقوب عليها. والله يمكّن لمن يشاء من أوليائه في الأرض ويزويها عمّن يشاء منهم، اختباراً لعباده، ليميّز بعضهم من بعض عدلاً منه وفضلاً وإيثاراً، وابتلاء سبحانه واختباراً. والحمد لله على ما أولى وعافى وابتلى، وله الآخرة والأولى، وهو الفاعل لما يشاء.

وأزال القائد جوهر أمر بني العبّاس عن مصر وأعمالها، عن المنابر والسكّة والبنود والرسوم، بعد أن قام أمرهم فيها مائتي سنة وخمسا وعشرين سنة وثمانية أشهر، لأنّ صالح بن عليّ بن عبد الله ابن العبّاس دخل إلى مصر للنصف من ذي الحجّة سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وكان قتل مروان بن محمّد الأمويّ آخر ملوك بني أميّة ببوصير لسبع ليالٍ بقين من ذي الحجّة من تلك السنة. ولم يزل في مصر أمر بني العبّاس حتى قطعه جوهر القائد. وأزال لبس السواد في الخطبة، وتلك سنّة بني العبّاس.

ولمّا كان من غد يوم دخول القائد جوهر، أمر عليّ بن الوليد[248] قاضي عسكره ومعه الشرط، وبين أيديهم أحمال الأموال على البغال، فطافوا بها والمنادي ينادي (ط 156): «من أراد الصدقة فليأت!» ففرّقوا تلك الأموال في الصدقات وجاؤوا إلى المسجد الجامع العتيق ففرّقوا الصدقات فيه أيضاً.

وأقرّ القائد جوهر الوزير أبا الفضل جعفر بن الفضل على وزارته، وكان يركب إلى القائد جوهر كلّ يوم في مناخه.

وفي الجمعة لعشر بقين من شعبان سنة ثمانٍ وخمسين، ركب جوهر[249] إلى المسجد الجامع العتيق لصلاة الجمعة. وقام الخطيب

---

(248) الإشبيليّ، حسب المقريزيّ، اتّعاظ، 165 وفيما يلي (ص 113).

(249) في مخطوطنا: جعفر بن جوهر. وفي المطبوع: «ركب جعفراً (هكذا) بن الفضل بمعيّة القائد جوهر». والإصلاح من الاتّعاظ، 162 - 163.

على المنبر وعليه ثياب بيض[250] فخطب/ ودعا لأمير المؤمنين المعزّ لدين الله (ص) فقال في الخطبة الثانية[251]:

109/2

أول خطبة جمعة بجامع عمرو يدعى فيها للمعزّ

«اللهمّ، صلِّ على عبدك ووليّك، ثمرة النبوّة وسليل العترة الهادية المهديّة، عبد الله الإمام معدّ أبي تميم المعزّ لدين الله أمير المؤمنين، كما صلّيت على آبائه الطاهرين وأسلافه المُنتَجَبين، الأئمّة الراشدين. اللهمّ، ارفع درجته، وأَعْلِ كلمته، وأوضح حجّته، وآجمع الأمّة على طاعته، والقلوب على موالاته، واجعل الرشاد في موافقته، وورِّثه مشارقَ الأرض ومغاربها، وأَحْمِدْه مبادىء الأمور وعواقبها، فإنّك تقول، وقولك الحقّ: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ ٱلأَرْضَ لِلّهِ يَرِثُها عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (الأنبياء، 105). فقد امتعض لدينك ولما انتُهك من حَريمك، ولما درس من الجهاد في سبيلك، وانقطع من الحجّ وزيارة قبر رسولك (ﷺ) فأعدّ للجهاد عدّته، وأخذ لكلّ خَطب أُهبته، فسيّر الجيوش لنصرك وأنفق الأموال في طاعتك وبذل المجهود في رضاك، فارتدع الجاهل وقصر المتطاول.

«وانصر اللهمّ جيوشه التي سيّرها، وسراياه التي انتدبها لقتال المشركين وجهاد الملحدين والذبّ عن المسلمين وعمارة الثغور والحرمين وإزالة الظلم والنهم وبسط العدل (ط 157) في الأرض. اللهمّ، اجعل راياته عالية مشهورة، وعساكره مؤيّدة منصورة، وأصلح به وعلى يديه، واجعل لنا منك جُنّة واقية عليه، إنّك الفعّال لما تريد».

---

(250) فقد ترك السواد شعار العبّاسيّين، واسم الخطيب في الاتّعاظ، 163: هبة الله بن أحمد، خليفة عبد السميع بن عمر العبّاسيّ.

(251) يضيف المقريزيّ: «فلمّا بلغ إلى الدعاء، قرأه من رقعة». فالأمر جديد عليه ولعلّ الرقعة وصلت إليه من جوهر

الدينار المعزّيّ وأمر القائد بنقش سكّة الدينار المعـزّيّ، وكان في الـوجه الواحد:

لا إلاه إلّا الله محمّد رسول الله

أرسله ﴿بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة، 33).

عليّ خير الوصيّين ووزير خير المرسلين

وفي الوجه الآخر:

دعا الإمام معدّ لتوحيد الإلاه الصمد

المعزّ لدين الله أمير المؤمنين

ضرب هذا الدينار سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة

وأمر القائد جوهر بالنظر في الخراج، وجلس بنفسه للمظالم يوم السبت. وكان يحضر مجلسه أبـو الفضل جعفـر بن الفضل الوزير، والقاضي أبو طاهر محمّـد بن أحمد، وجمـاعة الشهـود والفقهاء. وأقرّ جوهر القاضيَ أبا طـاهر على مـا كان عليـه من القضاء، وجعل مع كلّ مصريّ من الشهود مغربيّاً.

110/2 وبادر القائد جوهر حينَ استولى على مصر/ بالكتابـ[ـة] إلى أميـر المؤمنين المعزّ لـدين الله (عم) يبشّره بـالفتح، وأنفـذ إليه الرؤوس. وكتب أبو جعفر مسلم الشريف الحسينيّ، وأبو الفضل جعفر بن الفضل الوزير. وكتب جعفر بن فلاح إلى أمير المؤمنين يبشّره أيضاً بالفتح، فوصل كتاب جعفر بن فلاح قبل كتاب القائد جوهر فسرّ أمير المؤمنين وقال للرسول: «اكتمه!» ثمّ وافى كتاب القائد جـوهر وانتشـر الخبر. وجلس أميـر المؤمنين (عم) للناس مجلساً عامّاً بالمنصوريّة فهنّأه الناس وأنشد الشعراء بين يديه. فمن ذلك قول محمّد بن هانىء (طويل)[252]:

(252) القصيدة 22 من طبعة زاهد عليّ، صادر، 131

قصيدة ابن هانىء في فتح مصر

تقولُ بنو العبّاس: هل فُتِحَتْ مِصْرُ؟ ... فقُلْ لبني العباس: قد قُضِيَ الأمرُ!

وقد جاوزَ الاسكنـدريَّةَ جَـوهرٌ، ... تُطالعهُ البُشرى، ويَقْدُمُـه النصرُ

وقـد أوفدتْ مصـرٌ إليه وُفُـودَهـا، ... وزِيدَ، إلى المعقودِ من جِسْرها، جسر

فما جاء هذا اليومُ، إلاَّ وقد غَدَتْ ... وأيديكُمُ منها، ومن غيرها، صِفْر

5 فلا تُكثِروا ذِكرَ الزمانِ الذي خلا، ... فذلك عصرٌ قد تقضّى، وذا عَصْر

أَفي الجيشِ كنتم تَمْتَرُونَ؟ رُوَيْدَكم! ... فهذا القَنا العرَّاصُ والجحفلُ المَجْر

وقد أشرَفتْ خيلُ الإلاهِ طوالعاً، ... على الدين والدُّنيا، كما طَلَعَ الفجر

وذا ابنُ نبيٍّ الله يـطلُبُ وِتْرَه، ... وكان حَرٍ أنْ لا يَضِيـعَ له وِتْـر

ذَرُوا الوِرْدَ، في ماءِ الفُراتِ، لخيله، ... فلا الضَّحْلُ منه تَمنعونَ، ولا الغَمر

10 أَفي الشمسِ شكٌّ أنها الشمسُ، بعدما ... تجلَّتْ عِياناً، ليسَ من دُونها سِتر؟

ومـا هي إلاَّ آيـةٌ بعـد آيـةٍ، ... ونُذْرٌ لكم، إنْ كان يُغْنيكم النُّذر

فكونوا حصيداً خامدين، أوِ ارْعَوُوا ... إلى مَلِكٍ، في كفِّه الموتُ والنشر

أطيعُوا إماماً للأئمَّـة، فاضـلاً، ... كما كانتِ الأعمالُ يَفْضُلُها البِرُّ

رِدُوا سـاقياً لا تَنـزِفُونَ حِيـاضَهُ ... جَمُوماً، كما لا تَنزِفُ الأبْحُرَ الذُّرُّ

15 فإن تَتْبَعُوه، فهو مولاكمُ الـذي ... له برسولِ الله، دونكمُ، الفخر

وإلاَّ، فبُعْـداً للبعيـدِ، فبينَـه ... وبينَكُمُ مـا لا يُقَـرِّبُـه الـدهـر

أَفي ابنِ أبي السِّبْطينِ أم في طليقِكم ... تنـزَّلتِ الآياتُ، والسُّـوَرُ الغُرُّ؟

ويقول فيها:

فقد دالتِ الدنيـا لآلِ محمَّدٍ، ... وقد جرَّرتْ أذيالَها الدولةُ البكر

111/2

وردَّ حقـوقَ الطالبيِّينَ مَن زكتْ ... صنائعُه في آله، وزكا الـذُّخر/

35 مُعِزُّ الهُدى والدين، والرَّحِمِ التي ... به اتَّصلَتْ أَسبابُها، وله الشُّكر

مَنِ انْتاشَهُمْ في كلِّ شرقٍ ومَغْربٍ، ... فبُدِّلَ أمْناً ذلك الخوفُ والـذُّعْر

فكـلُّ إمـاميٍّ يجيءُ، كـأنّمـا ... على يدهِ الشِّعْرى، وفي وجهه البدر. .

إلى أن قال:

فبَشِّرْ بهِ البيتَ المحرَّمَ، عاجلاً، ... إذا أوجفَ التَّطوافُ بالناس، والنَّفر

وها، فكأنْ قد زارهُ، وتَجانَفَتْ   به، عن قصور المُلك، طَيْبةُ والسُّرُّ

55 هل البيت، بيتُ الله، إلاّ حَريمُه،   وهل لغَريب الدَّار، عن داره، صبر؟

منـازلُـه الأولى اللَّواتي يَشُقْنَـه،   فليس له عَنهنَّ مَعْدًى، ولا قَصْر

وحيثُ تَلقّى جَدُّهُ القُدسَ، وانتَحَت   له كلماتُ الله، والسِّـرُّ والجَهْر

فإن يَتَمَنَّ البيتُ تلك، فقد دَنَتْ   مواقيتُها، والعُسْرُ من بعدِه اليُسر

وإن حَنَّ من شوقٍ إليكَ، فإنَّه   ليَوجَدُ من رَيَّاكَ، في جوِّه، نَشر

60 ألستَ ابنَ بانيه، فلو جئتَه انجلتْ   غواشيه، وابيضَّتْ مناسكُه الغُبْر

حبيبٌ إلى بطحاءِ مكَّةَ موسِمٌ،   تُحيِّي مَعَـدّاً فيه مكَّـةُ والحِجْـر

هناك تُضيءُ الأرضُ نوراً، وتلتقي   دُنُوّاً، فلا يَستَبعِدِ السَّفَرَ السَّفْـر

وتَدري فُروضَ الحجِّ من نافِلاته،   ويمتازُ عندَ الأمَّـةِ الخيرُ والشَّـرُّ

شهِدتُ، لقد أعزَزتَ ذا الدينَ عزَّةً،   خَشِيتُ لها أن يَستَبِدَّ بـه الكِبْر

65 فأمضيتَ عَزماً، ليسَ يَعصيك بعدَه،   من الناس، إلاّ جاهلٌ بك مغترُّ

أُهَنِّيكَ بالفتحِ ، الذي أنا ناظِـرٌ   إليه بعَينٍ، ليسَ يُغْمِضُها الكُفْر. . .

فذاكَ بيانٌ واضـحٌ عن خليفةٍ،   كثير سِواهُ، عنـد معروفـهِ، نَزْر

رضِينا لكم، يا أهلَ مصرٍ، بدولةٍ   أطاع لنا، في ظلِّها، الأمنُ والوَفْر

لكم أُسوةٌ فينا قديماً، فلم يكنْ،   بأحوالنا عـنكم خَفاءٌ ولا سَتـر

89 وهل نحنُ إلاّ معشرٌ من عُفاتِهِ،   لنا الصافناتُ الجُردُ والعَكَرُ الدُّثْر

ومنها:

فيا مالكاً، هَديُ الملائكِ هَديُه،   ولكنَّ نَجْـرَ الأنبيـاءِ لـه نَجـر

ويا رازقاً من كَفِّـه نَشَأ الحَيـا،   وإلاّ فمِن أسـرارِها نَبَـعَ البحـر

ألا إنَّمـا الأيَّـامُ أيَّـامُـك التي   لك الشَّطرُ من نَعْمائها، ولنا الشَّطر

95 لك المجدُ منها، يا لك الخيرُ والعُلى،   وتَبقى لنـا منهـا الحَلوبـةُ والـدَّرُّ

لقد جُدْتَ، حتى ليس للمال طالبٌ،   وانفقتَ، حتى ما لِمُنْفِسةٍ قَدْر. . .

وَدِدْتُ لجيلٍ ، قد تقدَّمَ عصرُهم،   لو استأخروا في حَلبةِ العُمر، أو كرُّوا

ولو شَهِدوا الأيَّامَ، والعيشُ بعدهم   حَدائقُ، والآمالُ مونِقةٌ، خُضْر[253]

---

(253) لم يتبع الداعي إدريس في نقله ترتيب الأبيات في الديوان، وقد أعدنا ترتيبها وفقاً لطبعة زاهد عليّ.

وقال عليّ بن عبد الله التونسي[254] يخاطب أمير المؤمنين (عم) ويذكر القائد جوهراً، من قصيدة:

شعر لعليّ بن عبد الله التونسيّ . . .

(كامل)

وإنِ اْعتلى حسنُ الثناء بجوهرٍ فلقد كرمتمُ قائداً ومَقُودا
بدرٌ يسير بأنجمٍ وغضنفرٌ يجترّ في أَجَم الرماح أُسودا
صان الخلافة باذلاً من دونها رأياً على جلّ الخطوب سديدا
/ومكايداً جاشت أمام جيوشه فتركْنَ رُكنَ عُداتِه مهدودا

112/2

5 فإذا مضى الخَطِّيّ في آثارها لم يَلقَ إلاّ مَشْرَعاً مورودا (ط 161)
وإذا الأئمّة عدّدَتْ أسيافها لم يُلفَ إلاّ الأوّلَ المعدودا
وإذا كريم الطبع قرّبه منَ الشانين، كان من المَعاب بعيدا
ذو النيّة الخلصاء يصفو مذهبا ويطيب أعراقاً ويكرُمُ عودا
والله قدّم وعدَه لوليّه فتنجّزوا بعِداكمُ الموعودا
10 والخيل حافية إذا لم تنتعِلْ في وسط مَرْتِكُمُ[255] النجيعَ جسيدا

وقال عبد الله بن جعفر السمرقنديّ[256] من قصيدة طويلة أوّلها (طويل):

. . ولعبد الله بن جعفر السمرقنديّ في الموضوع نفسه

ألا فليُقرَّ الله عينَ الهُدى، فَكَمْ جَلَبْتَ بها من نِعمة لشَكورها
لئن خَبَّرَتْ عن أرض مصرٍ فإنّها إلى الأرض تومي سهلِها ووُعورِها
فبورك للإسلام في نَيل ثأره وهنّئتِ الدنيا بعَدل أميرها
فشدّت عُرى الإسلام بعد انفصامها وردّت عواري الملك من مستعيرها
5 وقام بحق الله في الخلق قائمٌ أنار سبيل الحقّ بعد دثورها

(254) لا نعرف عليّ بن عبد الله التونسيّ، وكنّا افترضنا أنّه عليّ الإياديّ، ولكنّ الداعي إدريس سبق له أن ذكر الإياديّ باسمه (ص 461) فحجّتنا ضعيفة.

(255) المَرت: الأرض الجرداء والمفازة.

(256) ولا نعرف هذا الشاعر السمرقنديّ أيضاً.

ولمّا فشا طغيانُ مصرٍ وأكثرت نـوادبُهـا من وَيلهـا وثُبـورهـا
فجاء مُشيحا قِـدحُها غيـرَ فائـز ومرّت عليها بـارحات طيـورها
وقابلتِ النعمى بكفرٍ فـأصبحَت وقد دارت البؤسى بأكناف دورها
غـداةَ أبت إلاّ نِفـاقـاً عصابـةٌ أصاخت إلى ضِلّيلها وغـرُورها
10 رأت أنَّ قطعَ الجسر وصلُ حياتِها فقصَّر ذاك الرأيَ باقي قصيرها[257]
وصادمهـا من جوهر صَلدُ صخرة فقضّ من الأعداء صُلدَ صخورها
وأجرى بحارَ الجيش فوق بحارِها ونـابت له آراؤه عن جُسـورهـا
(ط 162) وماشعرَوا إلا به وسط دارهم فأكْرِمْ بها من روضة وغديرهـا!
ففـرّقهم أيـدِي سَبَـأٍ فكـأنّهُمْ حصيـدٌ رمتـه جـذوةٌ بسعيـرهـا
15 كأنّ رقابَ القوم والهامُ وسطها حروفٌ بدت للشكل بين سطورها
فقل لبني العبّاس: شيموا سيوفَكم فقِـدماً عصيتُمْ ربّكم بصـدورها
ولِيتُمْ أمـورَ النـاس شـرّ ولايـة فبـدّلتمُ معـروفَهـا بنكيـرهـا
فـإن قلتُم: إنّـا قتلنـا أميّـةً بتبـديل غـاويها وكفـر كَفـورهـا
فـإنّا وجـدناكم تسيـرون بعدهـا بـأقبحَ من منهـاجهـا ومسيـرهـا
20 سفكتمْ دمـاً قلتم: طلبنا بثأره وهل يُدركُ الأوتارَ كُفْرُ وَتُورِها؟[258]
دمٌ من كِـرام لا تُطَلُّ دمـاؤهـا ولا تعدل الدنيا هلاكَ صغيرها[259]
ولا بدّ أن تُسْقَوا بكأس سُقِيتُمُ بها من يدَيْ مجتثِّها ومُبيرِها[260]

---

(257) الإشارة إلى الجسر واضحة وقد أطنب المؤرّخون في الحديث عن الجسر المعقود على النيل. أمّا عجز البيت فغامض، ولعلّ فيه تضميناً للمثل المعروف: لأمر ما جدع قصير أنفه، وإلى الحكاية المتعلّقة بالزبّاء وجذيمة بن الأبرش (مجمع الأمثال رقم 1250).

(258) كفّ وتورها في المطبوع، وقراءتنا ظنّيّة، على اعتبار وتُور جمعاً لوتر بمعنى الثأر، فيكون المقصود إذا ترجمنا الاستفهام بمعنى النفي: لا يؤخذ بالثأر إذا كُفرَتْ، أي نُسِيَت وأهملت، الذحول. فبنو العبّاس تناسَوا الثأر الواجب لقتلى العلويين، فليس لهم إذن أن يزعموا أنّهم ثاروا من بني أميّة.

(259) طلّ الدم بالبناء للنائب: هدر ولم يؤخذ بثأره.

(260) اجتثّ الشيء: قطعه من أصله. وأباره: أهلكه. والمعنى غامض هنا أيضاً، =

/ألا سلّموا تلك العواري فإنّها وإن رغمت آنافكم لمعيرها! 113/2

ولمّا كان آخر يوم من شهر شعبان من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، ركب القاضي أبو طاهر لطلب الهلال على ما جرت به عادتهم، فلم يره. وأصبح القائد جوهر أوّل يوم من شهر رمضان صائماً، وجماعة أهل عسكره. ثمّ ركب القاضي لرؤية الهلال لشوّال فلم يره، وكان ركوبه في جمع عظيم على عادته. وأصبح القائد جوهر مفطراً، فأقام صلاة العيد في عسكره(261) وخطب عليّ بن الوليد الإشبيليّ قاضي عسكره، فصلّى في خطبته بعد حمد الله (تع)، على النبيّ وعلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وعلى فاطمة والحسن والحسين والأئمّة، ولعن ظالمهم وخاذلهم، ودعا لأمير المؤمنين المعزّ لدين الله، وذكر جوهراً فقرّضه.

تلطّف جوهر في إدخال الطقوس الشيعيّة..

وأصبح أهل مصر إلى المصلّى يصلّون فيه صلاة العيد فصلّوا لأنفسهم، وصلّى بهم رجل هاشميّ يعرف بابن زبرج. وكان معهم في الصلاة القاضي أبو طاهر وخلق كثير. فأنكر جوهر على القاضي ذلك(262)، فاعتذر إليه فقبل عذره وأمسك عن القول.

.. كالاعتماد على الحساب في الأهلّة..

واستأمن نحرير شويزان الذي كان أُمّر بمصر فأمّنه جوهر.

= وفهمُنا له على هذا النحو: ستشربون كأس المنيّة، منّا نحن الفاطميّين، كما شربتموها من بني أميّة حين كانوا يضطهدون آل البيت عامّة، أي عبّاسيّين وشيعة معاً.

(261) في الاتّعاظ، 165: أفطر جوهر على عدد - أي على الحساب - بغير رؤية. ومعلوم أنّ الفاطميّين يراوحون بين الأشهر القمريّة، شهراً ذا 29 يوماً وشهراً ذا 30، ورمضان له دوماً ثلاثون يوماً.

(262) أنكر عليه مسايرة أهل الفسطاط في الاعتماد على رؤية الهلال مع أنّه أصبح من بطانة جوهر بعد أن أقرّه على منصب القضاء. فجوهر، لئن لم يحمل العامّة على أن يتركوا الرؤية ويركنوا إلى الحساب، يطلب من خادمي الدولة الجديدة أن يلتزموا بطقوسها.

وفي يوم الجمعة لثماني ليالٍ خلون من ذي القعدة أمر القائد جوهر بالزيادة في الخطبة: «اللهمَّ، صلِّ على محمّد المصطفى وعليّ المرتضى، وعلى فاطمة الزهراء البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول، الذين أذهب الله عنهم الرجسَ وطهّرَهم تطهيراً. اللهمَّ، صلِّ على الأئمّة الطاهرين آباء مولانا أمير المؤمنين».

.. والصلاة على الأئمّة

وعيّد القائد جوهر عيد النحر، وأقيمت الخطبة باسم مولانا أمير المؤمنين المعزّ لدين الله، والصلاة عليه وعلى آبائه والدعاء لهم. ونحر القائد وفرّق الضحايا على سائر الناس وأطعم الناس في مضربه وأكل معهم. ومدحته الشعراء وأجزل لهم العطاء. وتكاملت الإخشيديّة والكافوريّة المستأمنة بمصر فصاروا أربعة عشر رئيساً ومعهم من العسكر خمسة آلاف. ورووا عن مسلم بن عبد الله الحسينيّ أنّه ما سمع قطّ بمستأمنة في العِدّة مثلهم، ولكن عمّهم النحس والخذلان فما أخذوا الأمر وهو مقبل، ثمّ عادوا بعد أن أدبر عنهم. وذلك أنّه بلغ القائدَ عنهم كلام ساءه منهم.

ثمّ توفّي ولد جعفر بن فلاح فحضر القائد جوهر الجنازة وحضر معه أكثر (ط 164) الناس وحضرت الإخشيديّة والكافوريّة/ وانصرفوا عن الجنازة مع القائد جوهر. فقال لهم القائد: «قد جاء كتاب مولانا ومولاكم بما يسرّكم، فسيروا لتنظروا إليه وتقفوا عليه». فساروا معه فاعتقلهم في ساعة واحدة، وهم:

114/2

نحرير شويزان.

وفتك الخادم الأسود[263].

---

(263) فتك الخادم وأبو منحل: من قوّاد الكافوريّة الذين طردهم الإخشيديّون من مصر فاستنجدوا بالحسن بن عبيد الله بن طغج والي الرملة فقال: لا أحارب ابن عمّي. فمالوا إلى فاتك الإخشيديّ - أو فاتك الهيكليّ كما في الاتّعاظ، 166، =

ودويّ الصقلبيّ[264].

جوهر يعتقل رؤوس المقاومة

وحكل الإخشيديّ

ولؤلؤ الطويل.

وأبو منحل[263].

ومفلح الوهبانيّ.

ومتلغي التركيّ.

وفرج البجكمي، وغيرهم[265].

وكان ذلك لخمس بقين من ذي الحجّة آخر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة (8 نوفمبر 969). وأقاموا عند القائد معتقلين ستّة أشهر في مضربه حتى سيّرهم إلى أمير المؤمنين (عم) كما نذكره. وكان القائد يرسل إليهم في كلّ غداة بالطعام ومع الظهر والعشاء، ويدخل إليهم في كلّ ليلة ويتحدّث معهم ويعدهم عن أمير المؤمنين بكلّ جميل.

ووردت هديّة من أمير المؤمنين إلى القائد جوهر سنة تسع وخمسين وثلاثمائة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من المحرّم (غرّة ديسمبر 969) وهي: خمسة وستّون بغلاً تحمل مالاً، وسبعون حماراً بأحمال محزومة. وفي شهر صفر من هذه السنة وافى عسكر المغرب إلى القائد جوهر، ومعهم خيل من أنعام أمير المؤمنين لعبده القائد

= أو فاتك الهندي عند الذهبيّ (هامش الكامل حوادث 357) - فقاتلوا جعفر بن فلاح فغلبهم وأسرهم وسيّرهم إلى جوهر.

فينبغي إذن التمييز بين فاتك «غلام ملهم» وفتك الخادم، كما فعل المقريزيّ، 171.

(264) دوي الصقلبي: دري الخازن في الاتّعاظ، 171.

(265) ينضاف إلى هؤلاء: الحسن بن عبيد الله بن طغج، والحسن بن جابر كاتبه، وابن غزوان القرمطيّ وفاتك الهندي/ الهيكليّ غلام ملهم (الاتّعاظ).

جوهر. ووافى أيضاً بعد ذلك[266] عسكر من المغرب ومعهم أموال محمولة على الجمال (ط 165).

مسير جعفر بن فلاح إلى الشام

وأنفذ القائد جوهر جعفر بن فلاح في عسكر عظيم وعدّة قويّة، وذلك في شهر صفر من سنة تسع وخمسين وثلاثمائة[267] وقد غلبت القرامطة على الشام واستولوا على الرملة، وقد انضاف إليهم الحسن بن عبيد الله بن طغج، ابن عمّ الإخشيد[268].

وفي يوم الجمعة لثمانٍ خلون من شهر ربيع الأوّل من هذه السنة[269] صلّى جوهر القائد صلاة الجمعة في جامع أحمد بن طولون في عسكر كثير. وخطب عبد السميع بن عمر[270] وذكر أهلَ بيت رسول الله (ﷺ) وذكر فضائلهم ومدح جوهراً ودعا له، وجهر في القراءة بـ«باسم الله الرحمان الرحيم»، وقد أمر جوهر بالجهر بها والإعلان فيما يُجهر به من الصلاة. وقرأ الخطيب بسورة الجمعة وسورة المنافقين في صلاة الجمعة. وأذّن المؤذّن في جامع ابن طولون بـ«حيّ على خير العمل»، وأمر جوهر بالنداء به في جميع

الطقوس الجديدة: الحيعلة والجهر بالبسملة

---

(266) الأمداد العسكريّة من المغرب كانت في دفعتين على الأقلّ: بقيادة سعادة بن حيّان ثمّ بقيادة الحسن بن عمّار الكلبيّ فاتح رمطة (انظر ترجمة سيرة جوذر: الهوامش 265، 294، 462، وكذلك رسالة موسى لقبال، 474).

(267) عند ابن الأثير، 36/7 حوادث 358 وكذلك عند الذهبي في هامش الكامل، أنّ الوقعة بين جعفر بن فلاح وفلول الإخشيديّين بقيادة الحسن بن عبيد الله بن طغج، ابن أخي الإخشيد، دارت بظاهر الرملة في ذي الحجّة 358. ويقول المقريزي، اتّعاظ، 173: في النصف من رجب سنة تسع. وكان قبيل ذلك (ص 170) أرّخ إرسال الأسرى إلى إفريقيّة بـ 17 جمادى 2 سنة 359.

(268) هو ابن عمّ أحمد بن عليّ بن الإخشيد، الطفل المولّى على مصر، ولكنّه حفيد محمّد بن طغج.

(269) في الاتّعاظ، 169، كان حضور جوهر هذه الجمعة يوم 8 جمادى 1 سنة 359.

(270) عبد السميع بن عمر العبّاسيّ: سيقره المعزّ على إمامة الجامع ممّا يدلّ على أنّه سرعان ما عمل بالشعائر الجديدة (انظر الاتّعاظ، 170 و196).

الأمصار والبلدان. وجهر محمّد بن الحسن بن حنيف بـ «باسم الله الرحمان الرحيم» في الجامع العتيق على كُره ومضض، وكان مالكيّاً[271]. ولمّا مدح عبد السميع القائد جوهر في خطبته ودعا له، لامه/ جوهر على ذلك وقال له: «ما هذا رسم موالينا».

115/2

وأمر القائد جوهر في المواريث بالردّ على ذوي الأرحام[272] وأن لا يرث مع البنت أخ ولا أخت ولا عمّ ولا ابن أخ. ولا يرث مع الولد ذكراً كان أو أنثى إلاّ الزوج والزوجة والأبوان (ط 166) والجدّة، ولا يرث مع الأمّ إلاّ من يرث مع الأب والولد. فعُمل بذلك في مصر وأعمالها، وذلك مذهب أهل البيت (صلع) والحجج فيه طويلة كثيرة. وقد أتى القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه) في ذلك بما هو شفاء للصدور وجلاء للقلوب، وليست الحجّة إلاّ على من أنصف وأقرّ بالحقّ حيث وجد واعترف، لا على من جاحد وكابر وعاند.

توريث ذوي الأرحام

ولقي جعفر بن فلاح القرامطة والحسن بن عبيد الله بن طغج بالرملة وقد عبّؤوا وأعدّوا واستعدّوا، فوقع بينهم قتال شديد كانت الدائرة فيه على القرامطة ومن والاهم، فولّوا منهزمين وأمكن الله منهم فقتل منهم خلق عظيم وأسر أبو غزوان القرمطيّ والحسن بن عبيد الله بن طغج جميعاً، واستولى جعفر بن فلاح على الرملة. وورد بذلك الخبر إلى القائد جوهر في شهر ربيع الآخر سنة تسع وخمسين وثلاثمائة فسرّه ذلك. ووصلت الأسرى إلى القائد جوهر لسبع خلون من جمادى الأولى والقرمطيّ اللعين والحسن بن عبيد الله في قبّة مكشوفة ومعهما جماعة من الأسارى، فوقفوا عند

(271) لا نعرف هذا الإمام المالكيّ.

(272) في أحكام المواريث عند الشيعة الإسماعيليّة، ينظر المجالس والمسايرات، 97 هامش 3، ففيه الإحالات إلى دعائم الإسلام وغيرها.

منية الأصبغ[273] نحواً من خمس ساعات واجتمع النـاس لينظروا إليهم، وجعلوا يسبّونهم. ثمّ أنزلوا إلى مضرب القائد جوهر وأدخلوا إلى المعتقلين أصحاب نحرير شويزان (ط 167).

وفي دخول القائد جوهر إلى مصر، وما كان من جعفر بن فلاح بالشام يقول مقداد بن حسن الكتاميّ:

(الطويل)

شعر للمقداد الكتاميّ في فضائل كتامة

ونحن جلبنا الخيل شعثاً ضوامرا ... من الغرب تجتاب المفاوز أشهرا

عليهـا الكتاميّـون من آل حِميَرٍ ... ومن لفّ لفّ الجيش من آل بربرا

نهزّ الرماح السمرَ ما كان ذابلاً ... طويلاً، ومربوعَ الأنابيب جحدرا

إذا ما نزلنا منزلاً، حَشَدَ الدجى ... إلينـا نجومَ الليـل فيـه عسكـرا

كتـائب لا تـألـو النبيّ حفيـظةً ... لهـا، وعليّـاً والمعـزّ وجـوهـرا

ثمانون ألفاً يلبسون إلى الوغى ... ملابس حزم خِلْعَـةً وسَنَوَّرا[274]

يحفّون طَوعَ الأمر أروعَ يعتلي ... إلىَ النصر ميمونَ النقيبـة أزهرا

تِلاد الملوك الصِّيدِ من آل هاشم ... صغيراً، ومولاها كبيراً مؤمَّرا[275]

تلبّس للحرب المغيرةَ وآرتـدى ... إلى الحرب بُرْداً نَثْرَةً وتأزّرا[276]

10 أخـو الحـزم إمّـا استقبـل النُّجـحَ مُـورِداً ... عليـه، وإلاّ استـأنفَ النُـجـحَ مُصِـدرا/

116/2

إذا زَبَنَتْـهُ الحـرب رَدَّ بَعَـاعَهَـا ... عليها، وألقى هضبةً وتوعّرا[277]

---

(273) منية الأصبغ: شرقيّ الفسطاط عند ياقوت، وهي في خريطة روفن فست ناشر الكنديّ، تقع على الضفّة الشرقيّة من النيل في اتّجاه دمنهور.

(274) ملابس الخلعة: لباس الزينة. والسنوّر: ما يلبس من السلاح كالدروع ونحوها.

(275) تِلاد القوم: هو الذي وُلد فيهم أو نشأ بينهم. فجوهر ينتمي إلى الأسرة منذ الصغر.

(276) المغيرة: الخيل المُقدِمة على القتال، وتلبسها الفارس: التصق بها. والنثرة: الدرع الليّنة.

(277) زبنته الناقة: منعته من الحلب. والبَعاع: ماء السحاب والمتاع عامّة وهنـا: شدائد الحرب.

تورّع أن يدعُوه في خلَواتها بنو دينه، إلاّ الحكيمَ المدبِّرا
نفت بعده الأملاكُ كلَّ غنيمة خلت، وانتقَوْه الجوهرَ المتخيَّرا
إذا اعترك الخطبُ انتضى في سواده
عقيقةَ رأي كالشهاب فنوَّرا
15 سما فحشا ما بين مصرٍ وبرقةٍ رئالا وآسادا ضراغمَ هُصَّرا[278]
كما اعتصم الطود المقطَّم ليله يؤمُّ إلى الجُند الذي قد تمّصرا
فما برحوا فيها حصيداً فإنّهم همُ جلبوها كدرة الوجه م[ـمـ]ـطرا[279]
(ط 168) وهم تركوا أن يأخذوا الأمرَ مُقبلا
فنكّب عنهم أزورَ الجَنب مُدبِرا
فما ابتكروا إلاّ نعاماً مشرّداً إلى الشام أو هاما بمصرَ مكسّرا
20 ولمّا نفى عنها القذى وأدالها من الجَدب فاستهدى لها العيشَ أخضرا
رمى كلَّ ثغر من فضاها بصخرة وسوّم تسويماً إلى الشام جعفرا
فسل أيَّ رأس من كتامة جحدرٍ يدحرج مَن في الشام هاماً مطيّرا
أقام بها سوقا من الضرب في الطلى
فناجز ما بين الفرات ودمّرا
فلا تَكْذِبَنْ، لست الغداةَ بواجد بأنصرَ من قومي رجالاً وأصبرا[280]

وأنفذ القائد جوهر بهديّة إلى أمير المؤمنين (عم) لسبع عشرة مضت من جمادى الأولى. وخرج الناس للنظر إليها، وفيها إحدى وعشرون قبّة على النوق: فمنها خمسة مذهّبة، وواحدة مرصّعة بالجوهر، القبّة وجهاز الناقة الذي عليها، والباقي ديباج وديبقي.

---

(278) الرئال: أولاد النعام، ولعلّها: رعال، الكوكبة المتقدّمة من الخيل.

(279) في المطبوع. كره الوجه مطبراً وقراءتنا لمخطوطنا تخمينية نظراً لتداخل الحروف وانطماسها.

(280) لا نعرف قائل هذه الأبيات في تمجيد الكتاميّين والفخار بالمغاربة البربر أعوان الدولة.

إرسال الأسرى إلى إفريقيّة

وخمسون فرساً مسرجة ملجمة وخمسون ناقة مزيّنة. ونيّف وخمسون جملاً. وعلى النوق والجمال أحمال محزومة وأقفاص مشدودة وطرائف وطيور. وسار جعفر بن جوهر[281] مع تلك الهديّة إلى المنصوريّة، وسيّر أبوه معه الحسنَ بن عبيد الله بن طغج ونحريرا وسائر الأسارى من الإخشيديّة والكافوريّة. فلمّا خرجوا من البحر وانتهوا إلى البرّ (ط 169) حُلّت عنهم القيود وأركبوا الخيول والجمال بالمحامل. فحين انتهوا إلى أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (صلع) برّهم وأكرمهم وأعطاهم بالقيروان ما يحملهم وأسكنهم دوراً بالقيروان حسنة، وأباح لهم فرشاً وزينة.

وفي شهر رجب من سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، أخرج جوهر القائد مائة وخمسين ألف درهم وأمر بتفريقها على الضعفاء والمساكين وقال: هـذه صدقة من مَوْلانا أمير المؤمنين، من عين مالـه.

117/2

وثار زنبر الأخشيديّ في شهر شعبان من هذه السنة/ (جوان 970) بناحية من نواحي مصر وحشد وكبس الفرما[282] فأخذ واليها من قبل جوهر ودعا للمطيع العبّاسيّ وكتب اسمه على بنوده. فراسله القائد جوهر بالشريف أبي القاسم يحيى الحسينيّ[283] ونهاه وعوّذه فلم يقبل وأبى إلاّ تماديا وإصراراً على الفساد والبغي، والعناد والغيّ. فأنفذ القائد جوهر بالعساكر برّاً وبحراً، وكان زنبر قد كبس

---

(281) جعفر بن جوهر: لا ذكر لهذا الابن في كتب التاريخ، ما عدا ابن حمّاد، 46. وإنّما المعروف من أبناء القائد هو الحسين بن جوهر الذي سيكون له شأن في الدولة مع الحاكم خاصّة.

(282) الفَرَمَا بثلاث فتحات: تقع على البحر شرقيّ تنيس في اتّجاه العريش. انظر ابن حوقل، 149.

(283) لعلّه أخو الشريف مسلم.

صهرجت[284] وانتهبها. فأمر القائد جوهر بنهب دوره بمصر وقبض على صهره عليّ بن نصر السرّاج وأخذ منه له ودائع. وشفع فيه مسلم بن عبيد الله الشريف الحسينيّ فأطلقه إكراماً له. ثمّ إنّ زنبراً عاد وانتهب ضياعاً من أسفل الأرض[285]. وواقعته عساكر القائد جوهر بصهرجت فانهزم، وتتبّعته العساكر فقتلوا كثيراً من أتباعه ومضى على وجهه إلى تنيس، وركب البحر المالح يريد الشام ثمّ إلى بلد الروم. وأُخذ لزنبر بنود فأدخلت إلى مدينة مصر منكّسة. وأنفذ القائد جوهر أسطولاً بالرجال والسلاح في طلب زنبر وكان قد أخذ من دمياط جماعة من المغاربة ليقتلهم فمنعهم منه أهل دمياط (ط 170) وحاربوه. فتوجّه في البحر يريد الحمام[286] فأخذ في الحمّام هو وجماعة من أتباعه وغلمانه وقيّدوا. وورد الخبر إلى القائد بذلك فولّى أعمال زنبر رجلاً يسمّى إبراهيم بن أحمد.

تمردّ زنبر الاخشيديّ بصهرجت

ولمّا كان في ابتداء شهر رمضان ترك الناس رؤية الهلال إذ لم يتبيّن لهم وصاموا بصوم القائد جوهر وأفطروا بفطره بعد أن حضر دعاة أمير المؤمنين الذين بمصر وأحضروا القضاة والفقهاء وناظروهم وتلوا عليهم قول الله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الذِي أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى وَالفُرْقَانِ. فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾ (البقرة، 185). وقامت الحجّة عليهم أنّ وفاء العِدّة ثلاثون يوماً وأقرّوا بذلك. وعيّد القائد جوهر عيدَ الفطر وخطب الخطباء بذكر الأئمّة

مناظرة بين فقهاء مصر ودعاة الشيعة في الأهلّة

(284) صهرجت تقع على ثمانين كم في الشمال الشرقي من القاهرة بين طنطا والمنصورة.

(285) أسفل الأرض مصطلح القدامى لمنطقة دلتا النيل، أي أراضي الوجه البحريّ

(286) الحمّام أو ذات الحمّام.

من آل محمّد وإشهار فضلهم. وانصرف الناس مع القائد جوهر إلى قصر القاهرة المعزّيّة المعمور بها فأكلوا معه وأجاز الناس فأحسن إليهم.

وفي أربع عشرة خلت من شهر شوّال (20 أوت 970) وافى زنبر أسيراً مع الموكّلين به، واجتمع الناس لإشهاره وهو على جمل ومعه جماعة من أتباعه. وأحضر إلى مقام القائد وعنده القاضي/ أبو طاهر والوزير أبو الفضل، فقال القائد لزنبر: أيّ شيء حملك على الخلاف على أمير (ط 171) المؤمنين؟

118/2

قال: هذا عمل هذا- وأشار إلى غلام يدعى نجيباً.

فقال نجيب: لا والله، ما لي في هذا شيء!

فأمر بهم القائد جوهر إلى الاعتقال فما زالوا فيه إلى سنة ستّين في شهر ربيع الآخر، وهلك زنبر.

تغلّب جعفر بن فلاح على دمشق

وفي سنة تسع وخمسين وثلاثمائة افتتح جعفر بن فلاح مدينة دمشق بعد أن قاتل قتالاً شديداً حتى غلب المتغلّبين وهزمهم فولّوا مدبرين، وانصرفوا في الأرض تائهين. وهرب القرامطة، ومنهم من ركب البحر إلى الروم. وأقام جعفر بن فلاح الخطبة بآسم أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (عم) في دمشق وأعمالها، وأمر بالنداء في الأذان بحيّ على خير العمل، ووردت الأخبار بذلك إلى القائد جوهر في ذي الحجّة آخر شهور تسع وخمسين وثلاثمائة[287].

قال ابن حوقل البغداديّ: دمشق أجلّ مدينة بالشام، في

---

(287) دخل جعفر بن فلاح دمشق مرّتين وأقام الخطبة للمرّة الأولى في محرّم 359 (ابن الأثير، 36/7) غير أنّ الشريف أبا القاسم الهاشميّ ألّب عليه أهلها بسبب اعتداءات الكتاميّين فأخرجوه ولم يعد إليها إلاّ في المحرّم 360.

أرض وسط بين جبال تحدق بها ومياه كثيرة وأشجار متّصلة وزروع ممتدّة تعرف بالغوطة عَرضها مرحلة في طول مرحلتين، ومخرج مائها من نبعة تعرف بالفِيجَة[288]، أوّل خروجه [ارتفاع] ذراع في [عرض باع] ثمّ يجري في شعب تتفجّر فيه العيون.. ويجري الماء في عامّة دورهم وسِككهم وحمّاماتهم.. وليس في الإسلام مثل جامعها حسناً وبناءً ورخاماً وذهباً بوجه من الوجوه. هذا قول ابن حوقل[289].

.. وحمص وسلميّة...

وأخرج جعفر بن فلاح تازروف[290] في عدد وعدّة فبلغ إلى حمص فافتتحها ودان الناس فيها لأمير المؤمنين المعزّ لدين الله (عم). ودخل تازروف سلميّة فأتاه أهلها بخطّ الإمام المهديّ بالله (ص) برفع الخراج عنهم متى مُلكت بلادهم، فكتب تازروف إلى جعفر بن فلاح فكتب إليه جعفر: «ارفع الخراج عنهم ولا يلزموا به!» ففعل تازروف لهم، على ما خطّه المهديّ بالله (عم) لهم.

وفي هذه السنة في ذي الحجّة، وافى عشرون جملاً موقّرة من متاع وكسوات ومال؛ للحرمين، من أمير المؤمنين المعزّ لدين الله إلى القائد جوهر.

.. وتقدّمه لتخليص أنطاكية من الروم

وكتب ابن فلاح إلى جوهر يستأذنه في تسيير عساكر إلى أنطاكية للغزو، وهي في أيدي النصارى من الروم فأذن له القائد بذلك فندب عبد الله بن عبيد الله (ط 172) الحسينيّ أخا مسلم وأنفذ معه غلامه فتحا وأعطاهم مالاً كثيراً وسيّر معهم من دمشق عساكر عظيمة فساروا في نحو من عشرين ألفاً ونزلوا على أنطاكية وحاصروا

(288) الفيجة بالكسر: هي مخرج نهر بردى حسب ياقوت.
(289) نقل مختزل عن كتاب صورة الأرض، 160 - 161 والإضافاتُ منهُ والتصويبُ.
(290) لم نهتد إلى معرفة هذا القائد من أعوان الكتاميّ.

من فيها وضيّقوا عليهم حتى أشرفوا على فتحها. ثمّ جاءت عساكر الروم بما لا قبل لهم به فخافُوا على مَن معهم من جيوش المسلمين فانصرفوا إلى دمشق.

وكثرت مؤنة جعفر بن فلاح وانبسطت عطاياه وصلاته إلى مصر وإلى المغرب، وعظم سلطانه وخافته الروم وخافه صاحب بغداد. ودانت البلاد لأمير المؤمنين المعزّ لدين الله (عم) وخُطب له بالحرمين وفي السند مع انتشار ملكه في جميع الغرب إلى أقصى نواحيه وفي مصر والشام، ودعاته في جميع الجزائر ظاهرون ومستترون، ودان الناس بمعرفة فضله ووضح للخلق عظيم محلّه/. 119/2

* * *

المعزّ يعيّن ابنه عبد الله إماماً مستودعاً...

وأراد أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (عم) أن يقيم حجّة من أولاده يستودعه أمر الدنيا والدين، ويجعله وليّ عهد المسلمين. وكان ولده الإمام العزيز بالله نزار بن معدّ في حدّ الطفوليّة[291]. فأقام ولدَه عبدَ الله بنَ المعزّ واستودعه الأمر حتى بلغ ولده نزار العزيز بالله أشدّه، وفوّض إليه عهده.

وكان الأمير عبد الله بن المعزّ ذا فضل عظيم ومقام كريم، إلّا أنّ (ط 173) الإمامة لم تكن فيه بل صارت بعد المعزّ إلى ابنه نزار (عم). قال منصور الكاتب الجوذري فيما ذكر من تشريف الأئمّة لعبدهم جوذر الذي كان على أيديهم خلاصه وعتقه، وإخلاصه وسَبقُه: «قد تقدّم ذكرنا ما كان من إكرام القائم بأمر الله صلوات الله عليه وتشريفه للأستاذ جوذر بإفراده واختصاصه بأخذ العهد عليه

(291) ولد نزار بالمهديّة سنة 344، فعمره في هذه الآونة يزيد على خمسة عشر عاماً وهي سنّ لا تحول دون ولاية العهد. ولعلّ هذا التبرير من مؤرّخي اسيعة محاولة لإخفاء الحزازات التي تحدث في الأسرة الحاكمة عند كلّ تعيين. ومعلوم أنّ البكر من أولاد المعزّ هو الشاعر تميم، وقد عيّن فيما قبل ثمّ عزل. انظر الهامش 467 من ترجمة سيرة جوذر ففيه معلومات ضافية.

للمنصور بالله صلوات الله عليه وأنّ الأستاذ كتم ذلك سبع سنين ثم فعل به ذلك الإمام المعز لدين الله صلوات الله عليه بأن أخذ عليه للأمير عبد الله مفرداً بالمهدية في السفرة التي حمل المال منها فكتم الأستاذ ذلك عنه حسب ما أمر به سبعة أشهر، ثم إنّ مولانا صلوات الله عليه أخذ بعد سبعة أشهر، على غيره مثل محمد بن علي ومحمد بن الحسن وعسلوج بن عسكر وغيرهم(292)، واستكتمهم ذلك. وكان الأستاذ إذا تقرّر عنده علم وليّ العهد لم يلتفت بعد الإمام إلّا إليه حتى إنّه كان يقول في كثير من الأوقات من حيث يسمعه الإمام: «إنّما هو الله مفترض الطاعة، والإمام في عصره بعد أبيه، ومن أشار إليه من ولده وجعله وليَّ عهده. والباقي كلُّهم لهم المودّة في القربى لا غيرها». فلمّا خرج مولانا عليه السلام إلى المهديّة لشدّ ما بالخزائن من الأمتعة ثم رجع مولانا عليه السلام إلى (ط 174) دار ملكه واحتاج الأستاذ أن يتحرّك من المهديّة أمر مولانا صلوات الله عليه أولاده وإخوته بالخروج للقائه وجميعَ رجال الدولة، ولم يَحُدَّ مولانا عليه السلام [للأستاذ] كيف يُسلّم على الأمراء أولادِه ولا مَن يقدّم منهم ولا من يؤخّر، وكان مولانا عليه السلام مشغولَ الضمير: كيف يكون سلامه عليهم؟ وكانت أعين العوام ذلك الوقت تنظر إلى ولد مولانا عليه السلام الأكبر وهو تميم. فلما قرب منهم الأستاذ عمِل على ما في نفسه من إقامة الحق وإفراد من خصه الله به: فقصد الأميرَ عبد الله صلوات/

.. ويستكتم جوذراً سرّ التعيين

120/2

---

(292) محمّد بن الحسين في المخطوط، والإصلاح من السيرة، 139. وهو محمّد بن الحسن بن عليّ الكلبيّ (انظر الهامش 373 من ترجمة ماريوس كانار للسيرة).

وعسلوج قد يكون، حسب كانار (هامش 469)، «عسلوج بن الحسن الدنهاجيّ الكتاميّ» الذي خدم المعزّ ثمّ العزيز فالحاكم بمصر وانظر رسالة موسى لقبال في الفهرس أمّا محمد بن عليّ، فلا نعرفه.

الله عليه فقبّل الأرض بين يديه ثُمّ قبّل ركابه. وكان من حَنَفِ الأمير عليه ما كاد أن يسقطَ له عن سرجِه من التواضع. ثم ركب الأستاذ فلم يلتفت إلى غيره ولا سلّم على أحد سواه، فوقعت في قلوب أولئك خجلة، ونظر الناس من هذا إلى أمر عظيم، فمنهم من يصوّب رأيه فيما فعله ومنهم من يخطّئه، فلما اتصل بمولانا عليه السلام فعله وما كان منه من ذلك سُرّ سروراً عظيماً وقال:

«لم يزل جوذر موفّقاً مذ كان!».

ثم لمّا وصلوا وانصرف الأستاذ بعد السلام على مولانا عليه السلام ولم يخاطبه على ذلك آشتدّ ذلك على أهل القصر من الحرم، وأومأوا إلى جوذر بلوائم عظيمة تَشُوبها حِدّة[293]. ولمّا وقف الأستاذ على ذلك من فعلهم أدركته نفسه إذ لم يخاطبه مولانا عليه السلام على ذلك بشيء، فكتب رقعة إلى مولانا صلوات الله عليه يصف ما كان وأنّه قصد بذلك إفراد صاحب الحقّ دون غيره إذ لا يسعه في دينه غير ما فعله ويصف (ط 175) ما حلّ عليه من أهل القصر وغيرهم من أصحاب الآراء الفاسدة. فلمّا وقف أمير المؤمنين (عم) على رقعته صرف إليه الجواب، وهذه نسخته:

«يا جوذر، سلّمك الله! والله ما محلّك عندنا إلا المحلّ الذي أحللت نفسك لاتّباعك رضى مواليك ولأنك لم تخلط بهم غيرهم، وبذلك أسعدك الله في دنياك وأخراك، وقد كان لك في تقبيل أيديهم كفاية عن تقبيل الأرض، فما نميزك، علم الله، منهم إلا بما يخصّ الله به من اختصّه منهم. وقد أجبت من ذكرت عليه[294] واعتذرت أنا عنك بأنّك قد سلّمت على الجميع أوّلاً بما

---

(293) في السيرة، 140: تنبو بها جدوده.

(294) هذه رواية السيرة، 140. أمّا مخطوطنا، ففيه: وقد حسب من ذكرت عليك. والعبارة تبقى غامضة.

ذكرتَ من تقبيلك الأرض. وقد وفّقك الله فما تبالي مَن ساءه أو سرّه. أتمّ الله عليك النعم ووهب لك السلامة والعافية إن شاء الله».

المعزّ يعلي شأن عبد الله وليّ عهده

ثمّ إنّ أمير المؤمنين (عم) نوّه باسم ابنه عبد الله بن المعزّ ورفع قدره وأعلى ذكره وجعله صاحب حضرته، والقيّم بأمور دعاته، والسائس لجميع أهل مملكته. وقد كان المعزّ لدين الله نوى الهجرة إلى الديار المصريّة. ووافق ذلك خلاف مخرمة بن محمــد بن خزر[295] في جهات البربر وجبل أوراس، واستمال رعـاع الناس وبغى في أطراف المملكة وثار معه الذعّار وأهل الفساد والمريدون للبغي في البلاد، وأراد أن يحيي ما مات بموت الدجّال مخلد بن كيداد. فأراد المعزّ لدين الله (عم) أن يقطع من الفساد دابره، ويتبع بأوّله آخره، ويدير على الذين بغوا في/ الأرض سوء الدائرة، سيّما مع ما أزمع عليه من الهجرة، لئلّا يعمّ ذلك المغرب، ويختلّ أمر المملكة ويضطرب (ط 176). فخرج أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (عم) بنفسه، ومعه ابنه عبد الله بن المعزّ، في عساكر عظيمة وجنود كثيفة وعدّة قويّة، لطلب الثائر المعروف بأبي خزر، وصلاح أمر المغرب. وكان خروجه (عم) لسبع بقين من شهر شوّال في سنة 358 (8 سبتمبر 969). قال منصور الكاتب الجوذري: «ولمّا اعتزم مولانا على الخروج في طلب الثائر المعروف بأبي خزر أمر الأستاذ بالخروج إلى المهديّة لإحكام ما بالخزائن التي بها، وشدّ الأمتعة إلى المشرق، وخاض الناس وأكثروا من القـول بأن الأستـاذ هو المستخلف على إفريقية[296]، وكتب إلى مولانا صلوات الله عليه

121/2

(295) هكذا في المخطوط والمطبوع، ولم نعثر قطّ على اسم مخرمة هذا. وسيأتي بعد قليل كنية هذا الثائر: أبو خرر. وتمرّد أبي خزر ذكره ابن الأثير، 35/7 وابن وخلدون، 48/4 تحت سنة 358.

(296) هذه الإشاعات تدعم الخبر السابق، من أنّ المعزّ كان ينوي مغادرة المغرب منذ استيلاء جوهر على مصر، أي منذ شعبان 358.

يعرف ما اتصل به من ذلك، ويرغب إليه في أن لا يفارقه، إذ السعادة مقرونة بنظره إلى وجه أمير المؤمنين، فوَقَّع إليه على ظهرها:

«يا جوذر، وقفنا على رقعتك هذه، هذا شيء يقوله الجهّال من الناس، ومن لا يعلم ما نحن فيه، ولا والله ما رأينا هذا فيك لوجوه، أوّلها: أنّا نحبّ أن لا ندّخر عنك نعم الله عندنا وأن تكون مُشاهِدَها. والثانية: أنك لست ممّن نستثقله فيجب الراحة منه. والثالثة: كبر سنّك في طاعة الله وطاعتنا. والرابعة: أنّك لا تجد من يصفو لك على ما تريد من فساد أطماع الناس وطباعهم الآن، فأنت لا تجد معيناً ولا عضداً، ولا من يقوم بين يديك فضلاً عن غير ذلك. فلا تحدّث نفسك بما يضعف قلبك، فوالله ما تركناك ههنا إلا شفقة عليك ورحمة لك، ونحن نعلم أنّك لو كنت غائباً عنّا لمثل هذه الغاية لم تكن من الأحياء إلى اليوم، فطب نفساً، فلن تزايلنا حتى تقضي حجّك وتزور قبر جدّنا محمد صلى الله عليه بفضل الله علينا وعليك، فوحقّك ما أملنا فيك في سرّنا إلا كالذي ذكرنا وأزيد من الخير والجميل، ونحن نتوخّى لأهل هذا الزمان من نرجوه لهم ويصلحون له إلى أن نبلغ المراد، ويرينا الله وجه الصواب، وليتنا نجد فيمن نتركه ههنا مثل نيّتك وحدبك على دولتنا، والله يخير لنا ويختار بحوله وقوّته إن شاء الله».

ولمّا أن خرج مولانا صلوات الله عليه في سفره إلى بسكرة[297] وتوجّه الأستاذ إلى المهديّة، اجتاز أمير المؤمنين بعين

(297) لم تذكر المصادر خروجاً إلى بسكرة من المعزّ. ففي ملاحقته لأبي خزر سنة 358 لم يتجاوز باغاية. ولعلّ المؤلّف ـ أو المصدر الذي ينقل عنه ـ يعني الوجهة التي نواها المعزّ عندما عزم على مطاردة الثائر، ومعلوم أنّ ثوّار زناتة يلجؤون إلى الصحاري والرمال كلّما كبستهم الجيوش النظاميّة (انظر ترجمة السيرة، التعليق 371).

تعرف بعين كسرى[298] فوقف عليها، وذكر الأستاذ وقال:

«ذكر الله جوذرا بخير، فإنّه كان يسرّه الوقوف على هذا الماء والشراب منه، هلمّوا جراراً خضراً!

122/2 فأُتي بها، وملئت بين يديه/ وختمت، وأنفذها، وكتب معها رقعة إلى محمد الكاتب[299] نسختها:

«يا محمد! ابعث إلى جوذر سلّمه الله بتوقيعنا هذا تعرّفه أنّا ذكرناه بعين كسرى، ذكره الله بالرحمة والعافية، وأنّا أمرنا أن يملأ له بين أيدينا من رأس العين حملان ماء، وأنفذناهما إليه، وبعثنا إليه أيضاً بخمسة دنانير من السكّة المباركة المضروبة بمصر على آسمنا[300] بفضل الله وعظيم امتنانه ليراها ويتبرّك بها، وأرجو أن يمدّ الله في عمره حتى يحجّ معنا ونعطيه ممّا يضرب لنا ببغداد، وقد أكمل الله لنا الآمال. وعرّفه ما نحن عليه من السلامة (ط 178) وتتابع النعم وما معنا من الجموع التي يستعملها الله فيما يرضيه على إرغام أعدائنا حيثما كانوا فليطب نفساً، فما نلنا إلّا كلّ خير يسُرُّه الله به، والحمد لله كثيراً كما هو أهله»[301].

التغلّب على أبي خزر

ثمّ سار أمير المؤمنين (عم) من فوره بعساكره تلك حتى

---

(298) عين كسرى: لا ضرورة أن تكون هذه العين قرب بسكرة كما فهم ماريوس كانار في تعليقه المشار إليه آنفاً، بل قد تكون في أيّ موضع بين القيروان وباغاية، نهاية تحرّك المعزّ. ونحن نفترض أنّها تقع بقرية «كسرى» الجبليّة على 16 كم في الجنوب الشرقي من مدينة مكثر. فهي إذن في أحواز القيروان، كما يؤيّده «وقوف جوذر على هذا الماء وشربه منه» وهو وقوف متكرّر على ما يظهر.

(299) هو محمّد بن عثمان، أحد كتّاب الأستاذ جوذر (السيرة 97 وترجمتها، هامش 103).

(300) هي الدنانير التي وصفها المؤلّف في ص 109 من هذا السبع.

(301) سيرة جوذر، 110 - 111.

استأصل المفسدين وقطع آثار الملحدين، وأمكنه الله من الفاسق مخرمة[302] بن محمّد بن خزر فقتله في وقعة عظم بأسها واشتدّ مراسها، وقتل معه من أتباعه خلق عظيم، فخمدت الفتنة وقرّت، وهابت الأعداء وفرّت، واطمأنّت القلوب واستقرّت.

ورجع الإمام (عم) إلى المنصوريّة موفّقاً منصوراً، مؤيّداً محبوراً. وطيف بالرؤوس في جميع البلدان، وأنفذ منها إلى مصر ليرغم أولي الشنآن، وتَطْمئِنَّ قلوبُ أهل الإيمان.

قال الحسن بن إبراهيم بن زولاق: «وفي شعبان من سنة ستّين وثلاثمائة، وردت رسل أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (عم) برأس مخرمة بن محمّد بن خزر[303] ومعه ثلاثة آلاف رأس من أصحابه، فطيف بهم في مدينة مصر والقاهرة، ومعهم شيخ على نجيب يتكلّم عليه وعليهم ويسبّهم».

وفي يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة من شعبان [360] - 9 جوان 971[304] قرىء على منبر الجامع العتيق كتاب المعزّ لدين الله (عم) إلى القائد جوهر بخبر مخرمة بن محمّد بن خزر وأصحابه، وفي الكتاب الوصيّة بأهل مصر.

---

(302) يتواصل ذكر مخرمة المجهول. ولعلّ المؤلّف وهم في الاسم والتواريخ معاً: فثائر 358 - أبو خزر - لم يقتل، بل تاب وأناب في ربيع الثاني 359 فقبل المعزّ توبته «وأجرى عليه الرزق» (ابن الأثير، ج 7 ص 35). أمّا ثائر 360، فهو محمّد ابن الخير بن خزر، ولم يقتله المعزّ، بل انتحر حين كبسه بلقين بن زيري في محلّته (ابن الأثير، 43/7) وكان ذلك في 17 ربيع الثاني 360 (الاتّعاظ، 180 وابن خلدون، 49/4). والرؤوس الواصلة إلى القاهرة في كلام ابن زولاق الآتي هي بدون شكّ رؤوس محمّد بن الخير وأصحابه.

(303) لا ندري هل ذكر اسم مخرمة حقّاً عند المؤرّخ المصريّ.

(304) أضرب الداعي إدريس عن بقيّة أخبار سنة 358، وانتقل إلى أخبار سنة 360، ولعلّ تشابه الأسماء والكنى والألقاب، أبي خزر وابن خزر، هو الذي أوقعه في هذا الوهم وفي الاختصار المخلّ.

وقال ابن هانىء الأندلسيّ يمدح أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (صلع) ويصف الوقعة ويذكر (ط 179) الأمير عبد الله بن المعزّ فيها، من البسيط[305]:

قصيدة ابن هانىء في التشفّي من آبن خزر

كدأبِكَ ابنَ نَبيِّ اللهِ لم يَزَلِ ... قتلُ الملوكِ ونقلُ المُلكِ والدُّوَلِ
أَينَ الفِرارُ لِباغٍ أنتَ مُدْرِكُه، ... لأمِّه، مِلءُ كفَّيها، منَ الهَبَلِ
هَيهاتَ يُضْحِي منيعٌ منك مُمتنِعاً، ... ولو تَسَنَّمَ رَوقَ الأعصَمِ الوَعِلِ
/ولو غدا بخُلوبِ اللَّيثِ، مُدَّرِعاً، ... أو باتَ بين نُيُوبِ الحيَّةِ العُصَلِ (123/2)
5 أَمَّا العدُوُّ، فلا تَحفلْ بمَهلَكِه، ... فإنَّما هو كالمحصورِ في الطِّوَلِ
وأيُّ مَستَكبِرٍ يَعيا عليك، إذا ... قُدتَ الصعابَ، فلا تسألْ عن الذُّلُلِ
خافُوكَ، حتى تَفادَوا من جَوانِحِهم، ... فما يُناجُونَها من كثرةِ الوهَلِ
ما يَستَقِرُّ لهُم رأسٌ على جَسَدٍ، ... كأنَّ أجسامهم يَلعَبنَ بالقُلَلِ
هذا المُعِزُّ، وسيفُ اللهِ في يدِهِ، ... فهل لأعْدائِه باللهِ من قِبَلِ؟
10 وهذه خَيْلُه غُرّاً، مُسَوَّمَةً، ... يَخْرُجنَ من هَبَواتِ النقْعِ كالشُّعَلِ
إذا سَطا، بادَرَتْ هامٌ مصارِعَها، ... كأنما تتلَقَّى الأرضَ للقُبَلِ...

ويقول فيها:

أَردَتْ سُيُوفُكَ جِيلاً من فراعِنةٍ، ... لم يَفْتَؤُوا لقديمِ الدهرِ كالجَبلِ
20 هُمُ استَبَدُّوا بأسْلابِ الليوثِ، وهم ... جَزُّوا نواصِيَ أَهْلِ الخَيمِ والحُلَلِ
من عهدِ طالوتَ، أو من قبله، اضطرمت ... تَغْلي مَراجِلُهم غيظاً على المِلَلِ
لقد قَصَمْتَ مِن ابنِ الخَزْرِ طاغيةً ... صَعْبَ المقادةِ، أَبَّاءً على الجَدَلِ
إذ لا يزالُ مُطاعاً في عَشيرَته، ... تُلقَى إليه أُمُورُ الزَّيْغِ والبَجَلِ

(305) القصيدة 43 في طبعة زاهد عليّ، وص 275 في طبعة صادر وتسبقها عبارة مقتضبة في الديوان. يمدح المعزّ ويذكر أسر ابن الخزر. وليس في القصيدة ما يشعر بالأسر، بل نفهم من البيت 22: «لقد قصمت من ابن الخزر طاغية...» أنّ الثائر قد قتل: فهو بلا ريب محمّد بن الخير المنتحر في ربيع 2 سنة 360.
هذا، وقد خلط المرحوم زاهد عليّ شارح الديوان بين أبي خزر ـ ثائر سنة 358 التائب ـ ومحمّد بن الخير (مقدّمة تبيين المعاني، 44 - 45)، وهو معذور، إذ قد خلط الداعي إدريس أيضاً.

بمخلوب

ولو غدا بمخلوب الليث مدّرعاً ∴ او بات بين ثنيّي الحية الصُّلل

كالمحصور — اما السيوف فلا تحفل بمتركه ∴ فانما هي كالمنخول في المطلول

يعلو — واي مستكبر يثنيه عليك اذا ∴ نافقت الصعاب فلا تسأل عن الأَلل

قد تحاموا وازوروا خافوك حتى تقادموا من جوانبهم ∴ فما يابونها من كاشح الى خلل

ما يستقر لهم رأس على جسد ∴ كأن اجسامهم يلتقين بالقلل

هذا المعز وسيف الله في يده ∴ فهل لأعدائه بالله من قِبَل

وهذه خيله غراء مسومة ∴ يخرجن من ذبوات النقع كالشعل

اذا سطا بادرت هام مصارعها ∴ كانما تلتقي الادنى للقبل

(و يقول فيها)

لم يفتاوا — اذ دنت سيوفك جيلا من خراعنة ∴ لم تفتان قديم الدهر كالعيل

استبد به الخزر — هم استبدوا باسلاب الملوك وهم ∴ جزوا نواصي اهل النيم والحلل

من عهد طالوت او من قبل اصرمه ∴ تغلي مراجلهم غيظاً على الملل

صعب — ابن الخزر

لقد قصمت من الخزري طاغية ∴ صعب اللقاء اباء على الجدل

اذ لا يزال مطاعا في عشيرته ∴ تلقى اليه امور الزيغ والبخل

يقضي — يكاد يقضي مقادير السماء اذا ∴ رأى بعينيه بين الخيل والابل

حسمت منه قديم الداء متصلا ∴ بالجاهلية لا بالدين هو لك

الورقة 123/2 (قصيدة ابن هانئ).

جاء من الرمل — المنبر

من منبر الرسل والحق المبين ومن ∴ صاحب الآية والكفار بالرسل

ومن جبابرة الدنيا الذين خلوا ∴ وأنزل الله فيهم وحيه فتلي

(ويقرأ فيها)

قد حركت ... من نار ومن ... ∴ ... بالأمر ...

من الأمين الحزيم ... ∴ إذا ... الشرق ... منعلم ...

من صفر الشرق والأعداء ... ∴ ... الأمر ...

وطبق الأرض ... ∴ ... والسهل والجبل

وأورثت ... ∴ ... بأن تمل

(ويقرأ فيها)

فقد توطد أمر الملك ... ∴ ... مستقل

لما ... عبد الله ... ∴ إذ ... الأمر ...

عرفته ... الله عارفة ∴ فأنتم ... منفعل

وللخيار ... فضل الوحي ... ∴ ... الأمر على ... تعل

مستهد ... الله ... ∴ ... الأول

وأن ملكا ... ∴ بابن الإمام لملك غير منتقل

لو نازع النجم ... ∴ أو نازل ... لم يحل

قد ... من ... ∴ ... الأهل

الورقة 123/2 (قصيدة ابن هانىء).

يكادُ يَعصِي مَقاديرَ السَّماءِ، إذا رَمَى بعينيه بين الخيلِ والإبـل

25 حَسَمْتَ منه قديمَ الداءِ، مُتَّصِلاً بـالجاهليّـةِ، لاهٍ بالعِـدى هَـزِل

من جاحِدي الدِّينِ والحقِّ المُنيرِ، ومِن عادي الأئمّةِ، والكُفّـارِ بالـرُّسُل

ومِن جَبابرَةِ الدنيا، الذينَ خَلَوا، وأَنزَلَ اللهُ فيهم وَحْيَهُ، فتُلِي...

ويقول فيها:

قـد قَرَّ كُـرسيُّ عَدنـانٍ ومنبرُهـا بفاتِحِ المُدْنِ قَسْراً، مؤمِنِ السبُل

45 مَنْ لا يرى العَزمَ عَزماً يُستقاد له، إذا جِبالُ شَروری منـه لم تزَل

مَنْ صَغَّرَ المَشْرِقَينِ الأعظمينِ إلى مَنْ فيهما، من مَليكِ الأمر، أو بطَل

وطَبَّقَ الأرضَ، من مِصرٍ إلى حَلَبٍ، خيلاً ورَجْلاً، ولفَّ السَّهْلَ بالجبَل

وأُورِدَتْ خيلُه ماءَ الفُراتِ، فما صدَرْنَ حتى وصَلْنَ العَلَّ بالنَّهَل...

ويقول فيها:

65 فقد تَوطَّدَ أمرُ المُلْكِ فيه، وقد نَـدَبتَ نَدْبـاً إليه، غيـرَ مُتَّكِـل

لمّا شَدَدتَ، بعبدِ الله، عُروَتَه، أَعززتَ منه مصونَ العِرضِ، لم يَذِل

عَرفتَ، في كلِّ صُنع الله، عارِفةً، فمـا تَهُمُّ بفعـلٍ غيـرِ مُنفَعِـل

ولاختِيارِكَ فَضلُ الوَحيِ، إنَّك لا تأتي المَآتيَ، إلّا من عَلٍ، فَعَل

مُستهـدِياً بـدليـلِ الله، تَتبعُـهُ، وقـادحاً لـزنادِ الحِكمـةِ الأوَل

70 وإنَّ مُـلكـاً، أَقَـرَّ اللهُ قُبَّتَـه بابنِ الإمامِ، لَمُلْكٌ غيرُ منتقِل

لو نازَعَ النَّجمَ ما أعياه مَنزِلُه؛ أو نازَلَ القَدَرَ المقدورَ لم يُهَل

قد فِئتَ، من بَرَكاتِ الأبطَحيِّ، إلى ما لا يَفِيءُ إليه الظِّلُّ في الأصل

/تَوالتِ الباقياتُ الصالحاتُ له، تَـوالِيَ الدِّيَمِ الـوكّافَـةِ، الهطل 124/2

أَلَيس، أَوَّلَ ما ساسَ الأمور، أَتتْ، عَفواً، بما كانَ لم يَحسبْ، ولم يَخَل

75 فالفَتحُ من أوَّلِ النُّعمى به، ولَهُ عَواقِبُ في بني مَروانَ عن عَجَل

بريحِهِ أَرْدَتِ الهيجا بني خَزَرٍ، وباسمِهِ استظهَرتْ في الغَزوِ والقَفل

فإن تَـكِلْهُ إلى ماضي عزائِمِه، تَكِلْهُ، منها، إلى الخَطِّيَّةِ الذُّبل...

وفيها يقول:

83 الآنَ لَذَّتْ لنا مِصرٌ وساكِنِها، وللسَّوابحِ، والمَهْرِيَّةِ الذُّمُل
ما مَكْثُنا، معشرَ العافين، إنَّ لنا، في البَين، شغلاً عن اللذَّاتِ والغَزَل
85 فَلَيتَنا قد أَرَحْنا هَمَّ أَنفُسِنا، أوِ استراحَتْ مطايانا من العُقُل
لِيَعْقِدِ التاجَ، هذا اليومُ، مفتخراً، إن كان تُوِّجَ يومٌ سائرُ المَثَل
أَلاَ تَخِرُّ له الأيامُ ساجدةً، إذْ نالَ مَكرُمَةً أَعْيَتْ، فلم تُنَل
تَكَنَّفَتْهُ المساعي، فهو يَرفُلُ، من وَشْيِ الربيعِ ووَشْيِ المجدِ، في حُلَل
89 فيه الربيعان: من فصل الربيع، ومن وقائع النصر، تشفي من جَوى الغُلَل

القراطة يكتسحون الشام

وسار القرمطيّ اللعين أبو طاهر الحسن بن أحمد الأعصم[306] إلى (ط 182) الشام في جيوش عظيمة من العرب والعجم، ومنهم أتباعه القرامطة. وهذا اللعين الأعصم هو من قوم سليمان بن الحسن[307] الذي دخل مكّة في سنة سبع عشرة وثلاثمائة، وخُطب له فيها، ووثب إلى الحجر الأسود فضربه بعمود من حديد حتى ثلمه وقال: «إنّك حجر لا تضرّ ولا تنفع!»، كفراً وعناداً، وبغيا في

---

(306) الأعصم: هو-الحسن بن أحمد بن/ أبي سعيد/ بن بهرام الجنّابي، وكنيته أبو محمّد وأبو عليّ وأبو سعيد على السواء، والغالب أبو محمّد وأبو سعيد كما جاء في النجوم الزاهرة، 59/4.
وكنية «أبو طاهر» محوّلة عن زعيم آخر من رؤوس القرامطة هو أبو طاهر سليمان، وهو عمّ الأعصم.
توفّي الأعصم بالرملة سنة 366، وفي مخطوطنا يسمّى دائماً «الأغشم»، وفي المطبوع يتأرجح الناشر بين الأغمشيّ والأغتم والأغشمي والأغنم والأعصم.

(307) الأعصم هو ابن أخي سليمان: فسليمان وأحمد أخوان، ابنا أبي سعيد الجنّابي الذي أظهر الدعوة القرمطيّة بالبحرين سنة 283.
وأبو طاهر سليمان هو الذي اتّخذ مدينة الأحساء - المؤمنيّة - داراً للهجرة، ومنها انطلقت حملاته على العراق والشامّ وطريق الحاج. مات أبو طاهر سنة 332.

الأرض وفساداً[308]. فتوجّه اللعين أبـو طاهـر إلى دمشق، وفيها جعفر بن فلاح. فخرج إليه جعفر بن فلاح وكان عليلاً، مجاهداً محتسباً نفسه في الله يرجو الظفر أو الشهادة، وقد صار أهل الشام عليه مع القرامطة. فقُتل في ذلك الحرب جعفر بن فلاح شهيداً رحمة الله عليه ورضوانه. ودخلت القـرامطة دمشق فغلبـوا عليها وحازوها.

فيقتلون جعفر بن فلاح..

وبلغ خبر قتل جعفر بن فلاح إلى القائد جوهر في ذي القعدة من سنة ستّين وثلاثمائة، وكانت شهادتـه لثلاث ليـالٍ بقين من شوّال/ 22 أوت 971[309]. وسارت القرامطة إلى الرملة وفيها سعادة ابن حيّان[310] عاملاً للقائد جوهر فحازوا الرملة. وانحاز سعادة عنهم إلى موضع يسمّى يافا فتحصّن فيه. وساروا إليه فحاربوه وخاطبوه من وراء الحصن أن يسلم إليهم الموضع ويخرج إليهم، وبذلوا الأمان له، فقال لهم سعادة بن حيّان: «إنّما أنا عبد مأمور».

.. ويحاصرون سعادة بن حيّان في في الرملة...

فلمّا أعياهم أمره توجّهوا إلى مصر بعساكر جمّة قد اجتمعت لهم من الشام/ (ط 183)، وما والاها من القرامطة والأغتام، الذين لا يعرفون فضل الإسلام، ولا يميّزون بين الحلال والحرام. وانتهى أمرهم إلى جوهر القائد فحفر حول القاهرة خندقاً وبنى عليها باباً

125/2

---

(308) دخول أبي طاهر مكّة كان في 7 ذي الحجّة 317 فانصرف إلى البحرين بالحجر الأسـود وأرجعه سـة 339 بطلب ملحّ من المنصـور الفاطميّ (انـظر التنبيه والإشراف للمسعودي، 338 وابن خلدون، 4/88 - 90 ودائرة المعارف الإسلاميّة في فصول: الجنّابيّ، الحسن الأعصم، قرمطيّ).

(309) في الاتّعاظ، 178 و 249: لستّ خلـون من ذي القعدة 360.

(310) سعادة بن حيّان: هو قائد مغربيّ ـ ولعلّه كتاميّ ـ أرسله المعزّ مدداً لجوهر «في جيش كبير في جمادى الثانية 360» فسمّاه جوهر والياً على الرملة ولكنّه لم يثبت أمام حملات القرامطة فعاد إلى مصر. ومات في محرّم 362 (اتّعاظ، 179 - 180 و 183).

كبيراً وجعل عليها بابين كانا على ميدان الإخشيديّ. وبنى جوهر القنـطرة على الخليج المعـروف بخليج أميـر المؤمنين[311] وفرّق السلاح على الرجال من المغاربة والمصريّين.

وركب القائد يوم النحر من سنة ستّين وثلاثمائة في جيوش عظيمة وصلّى صلاة العيد وعاد إلى قصره ونحر وفرّق الضحـايا ووهب الناس وأحسن إليهم.

وفي آخر ذي الحجّة من هذه السنة (أكتـوبر 971) كبست القرامطة الفرما[312] وقاطعوا أهلها على مال وأخـذوا عاملهـا عبد العزيز بن يوسف.

.. ويحملون على القاهرة..

وفي شهر المحرّم أوّل سنة إحدى وستّين وثلاثمائـة، أنفذ القائد عدّة مراكب فيها الميرة لسعادة بـن حيّان وهو بيافا.

وأقبلت عساكر القرامطة في شهر صفر من هذه السنة إحدى وستّين حتى بلغت عين شمس. واستعدّ القائد جوهر لقتالهم لعشر بقين من صفـر (12 ديسمبر 971) وغلّق أبـواب القـاهـرة وضبط الداخلين والخارجين. ثمّ برز القائد جوهر لحرب القرامطة وأخرج

---

(311) هي القناة التي أمر بحفرها عمر بن الخطّاب.

(312) مرّ التعريف بالفرما في التعليق رقم 279. وفي الاتّعاظ، 181 أنّ المدينة التي حصرها القرامطة هي القلزم. والقلزم كانت تقع في مكان السويس الحاليّة، حسب ما جاء في تعليق المرحوم الشيّال، وقد نبّهنا أيضاً إلى أنّ عبد العزيز آبن يوسف أمير القلزم ـ أو الفرما ـ هو الذي مدحه المتنبّي لأنه ساعده على الإفلات من كافور وعبد العزيز هذا مذكور في المقطوعة التي تبدأ بهـذا البيت:

جـزى عَرَبَـا أمسَتْ بِبُلْبَيْسَ ربُّهـا بمسعـاتهـا تقـرَرْ بذاكَ عيـونُهـا

وذكر بلبيس في البيت يرجّح أنّ حملة القرامطة كانت على القلزم لا على الفرما، لأنّ بلبيس أقرب إلى مدينة مصر ـ القاهرة.

مضاربه وخرج معه الشريف مسلم الحسينيّ وسائر الأشراف العلويّين، وخرجت الرعيّة لمعاضدة جوهر.

وجاءت القرامطة يوم الجمعة مستهلّ ربيع الأوّل (22 ديسمبر 971) فزحف القائد جوهر لقتالهم، واشتدّ القتال ولم يتخلّف عن القائد جوهر أحد من وجوه المصريّين وذوي بأسهم. وبرز المغاربة إلى القرامطة وعظم القتال فقتل جيل من الفريقين. وعادوا إلى القتال يوم السبت، وأمسى الناس متكافئين وباتوا على (ط 184) المصافّ وما زالوا في القتال. ثمّ أصبح الناس غداة يوم الأربعاء فوقع بينهم قتال شديد واشتدّ البأس، وصبر الناس، وانهزم الأعصم اللعين ورجع إلى الشام، وانتصرت عليه عساكر الإمام، وأعزّ الله الإسلام. وعاد جوهر ظافراً منصوراً، مؤيّداً محبوراً.

.. فيردّهم جوهر

وجاءته الأخبار من الصعيد أنّ عبد العزيز بن أهيج[313] قد نافق ودعا إلى إمامة بني العبّاس وكتب اسم المطيع على بنوده. فأنفذ إليه القائد جوهر أربعين مركباً بالرجال والسلاح، وجعل عليها رجلاً من وجوه من معه يسمّى بشارة[314] وأنفذ في البرّ تازروف[315] لقتال ابن أهيج أيضاً في عساكر عظيمة فاستولى على الصعيد. وفرّ ابن أهيج إلى بغداد مستخفياً وترك جميع ما حازت يده فغنم وجِيءَ إلى جوهر القائد به وبرؤوس/ كثيرة من أصحاب ابن أهيج فطيف بها في أعمال مصر.

جوهر يخمد ثورة بالصعيد

126/2

(313) عبد العزيز بن هيج الكلابي في الاتّعاظ، 183 - 184 وأضاف أنّه سلخ وصلب في جمادى 1 سنة 362.

(314) في الاتّعاظ، 185: بشارة النوبي.

(315) مرّ بنا (ص 118) اسم هذا القائد، ولم يضبطه المرحوم الشيّال فقرأ: فأنفذ بأزرق في البحر... (ص 183).

ثمّ أخرج القائد جوهر ابن أخيه إبراهيم، ومعه أبو محمّد[316] في عساكر عظيمة وعدّة وعديد، إلى الشام لحرب القرامطة.

* * *

رحيل المعزّ إلى مصر

وتحرّك أمير المؤمنين المعزّ لدين الله صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، للهجرة إلى مصر. فكان خروجه من المنصوريّة يوم الاثنين لثمانٍ بقين من شهر شوّال من سنة إحدى وستّين وثلاثمائة[317] بعد أن جمع من الأموال ما لم يسمع بملك جمع مثله، ورحّلها صحبته، وخلّف ما لا غناء فيه[318]. وسار في هيئة عظيمة وعدّة، وجيوش جمّة وجنود مستعدّة. وقد أمر بالدنانير من الذهب فسبكت سبائك وطبع اسمه عليها وجعل حمل كلّ جمل سبيكتين.

واستعمل على المهديّة والمنصوريّة والقيروان ومدن (ط 185) إفريقيّة وما ينضاف إليها من الغرب أبا الفتوح بلكين بن زيري بن مناد الحميَريّ الصنهاجيّ. وبلكين يسمّى يوسف ولكن قد شهر اسمه بلكين. وقد ذكرنا [ما كان] لأبيه زيري بن مناد، مع الإمام المنصور بالله (ص) من الجهاد، أيّام مخلد بن كيداد. وأوصى أمير المؤمنين (عم) يوسف بن زيري عامله على الغرب وبلاد إفريقيّة بما أراد وجعل جميع الولاة في الغرب من تحت يده، وألزمهم جميعاً طاعته. وكان [بلكين] من خلصاء أوليائه وصفوة أهل ولايته.

وهاجر مع المعزّ من أولاد المهديّ بالله (عم): أبو عليّ

---

(316) لا نعلم أخا لجوهر، ولا نعرف أبا محمّد.

(317) في المخطوط والمطبوع: من شهر شعبان، ولا يوافق يوم 21 منه يوم اثنين والتصويب من وفيات الأعيان في ترجمة المعزّ الاثنين لثمان بقين من شوّال. وكذلك من الاتّعاظ، 186.

(318) في مخطوطنا: ما لا غناء عنه.

أحمد، وأبو طالب موسى آبنا عبد الله المهديّ بالله (عم) وأربع نسوة من بنات الإمام المهديّ، وكانت وفاتهم جميعاً بمصر.

ومن أولاد الإمام القائم بأمر الله (عم): جعفر وعبد الجبّار، آبنا محمّد القائم بأمر الله، وأربع نسوة من بنات القائم، وكانت وفاتهم جميعاً بمصر.

وأخوة المعزّ: حيدرة وهاشم[319]، آبنا إسماعيل المنصور بالله، وخمس أخوات لهم، وبمصر كانت وفاتهم جميعاً.

ومن أولاد أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (عم) عبد الله (رضي الله عنه)، وتميم الشاعر، والإمام نزار العزيز بالله (صلع) وعقيل، أبناء المعزّ لدين الله.

وهاجر معه كثير من أمرائه ودعاته وأعيان دولته. وكان في الهجرة معه القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه) وجميع أولاده، واستخلف بأمر المعز في أعمال إفريقيّة والمهديّة وجميع الغرب، القاضي أحمد بن القاسم بن أبي المنهال/. وكان القضاة في جميع الغرب من تحت يد القاضي أحمد بن القاسم.

127/2

الأستاذ جوذر يصحب المعزّ في هجرته..

وهاجر جوذر الأستاذ مع المعزّ لدين الله (عم) وجاءته الوفاة بمدينة برقة على ما نذكره. قال منصور الجوذري[320]: ولمّا اعتزم مولانا عليه السلام على الحركة إلى الشرق، جرت بين الأستاذ وبين الأمير عبد الله قدّس الله روحه مكاتبات كان يؤثر فيها حقّه حسب

---

(319) للمعزّ أخوان آخران ماتا بإفريقيّة: طاهر أبو جعفر، وأبو عبد الله الحسين (اتّعاظ، 133).

(320) يبدأ هنا نقل مطوّل من سيرة الأستاذ جوذر، 141 - 147، مع اختلاف طفيف في العبارة.

فعل آبائه الطاهرين. وكان أوّلَ كتاب كتبَه إليه الأستاذ كتابٌ يذكر فيه رسمه من البغال التي كان يحمل عليها أثقاله في الأسفار مع مولانا صلوات الله عليه. فصرف إليه الجواب [بدعاء] وهو:

«سلّمك الله وأتمّ نعمته عليك، وزاد في امتنانه عندك، وبلّغك من رضى وليّه مولانا وسيّدنا صلوات الله عليه، أملَكَ وأملَنا لك عنده وفضلَه، ورزقك الحجّ معه إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر جدّنا محمد عليه السلام، إنّه كريم منّان، عظيم الفضل والإحسان. أمّا بعد فإنه انتهى إلينا كتابك بعد تشوّق شديد ـ يعلم الله ـ منّا إليك. ووقفنا منه على ما حمدنا الله عز وجل وشكرناه على امتنانه علينا بسلامتك وصحّة بدنك وسألناه ضارعين إليه راغبين في الزيادة لك من فضله وإحسانه. وقد عرضنا كتابك على مولانا وسيّدنا صلوات الله عليه، فلمّا وقف عليه وقّع إليك بخطّ يده المباركة الكريمة في أسفله بما أنت تقف عليه، فقد أنفذناه إليك. وحسبنا الله ونعم الوكيل».

ووصل الكتاب وفي أسفله توقيع من أمير المؤمنين (عم) هذه نسخته:

«يا جوذر! سلّمك الله، أقرأنا عبد الله، سلّمه الله، كتابك وسؤالك إيّاه التذكرة في أمر البغال التي تقدّم لك الرسم بأخذها من الاصطبل. وتخوّفت أن نكون لكثرة أشغالنا وما بنا من الحاجة إليها ننساك أو نسلمك. فلا أوقف الله إليك يوماً نسلمك إلى نفسك في أحوال دينك ودنياك! فوالله، لو لم يَكن إلاّ ما نؤثرك به على أنفسنا لفعلنا ذلك ولم نتأخّر عنه. فطب نفساً وقرّ عيناً بما خوّلك الله ووهبك من رضانا ـ أدامه الله لك».

وخرج مولانا ـ صلوات الله عليه ـ متوجّهاً إلى المشرق ـ فأطلق له البغال التي للأحمال وبغال العمّاريّات أيضاً، منها واحدة

كان هُو يركبها بنفسه آثره ـ صلى الله عليه ـ بها، وفعل فيه وفي أصحابه من الجميل وسعة العطايا ما لا يوصف. / ولمّا وصل إلى موضع يعرف بأجدابية وقد آستحكمت عليه العلّة قال لي: «لقد اشتقت إلى النظر إلى وجه مولانا ـ عليه السلام ـ وأراني ضعيفاً ولا أقدر أثبت على قدميّ لترهّل عرض لي فيهما». فسألته التقدّم قبله والاجتماع بالأمير عبد الله وليّ عهد المسلمين ـ صلوات الله عليه ـ في ذلك. فأذن لي، فمضيت واجتمعت به ـ عليه السلام ـ ووصفت حاله وعظيم شوقه إلى مولانا ـ صلوات الله عليه ـ وإليه. فعرّف مولانا، ورجع إليّ بالجواب وقال لي: «يأمرك مولانا ـ صلى الله عليه ـ أن تقدم به إلى هذا الموضع» وأشار إلى القبّة التي كان يتغدّى فيها بالفازة المباركة ثم قال: «وقِفْ به وهو في العمارية ولا تُنْـزله [منها]»!

128/2

.. فيعتلّ بأجدابيّة..

وحذّرني من إنزاله وخوّفني عقوبة مولانا عليه السلام في ذلك. فرجعت إلى الأستاذ وعرّفته بما كان، ففرِح لذلك وقويت نفسه. ثم وصلتُ به إلى الموضع الذي رُسم لي. فلمّا حلّ به قال لي: «أنزلني» فاعتذرت إليه أنّ الموضع الذي يريده ذو غلق وسبيلنا أن نقف بالعمّاريّة حتى يُفتح الموضع. فقبل ذلك مني. ووقفت العمّارية على بغلة وهو جالس فيها. فما شعرنا بشيء حتى خرج مولانا المعزّ لدين الله ـ أمير المؤمنين صلوات الله عليه ـ وعليه عمامتُهُ وهو منتعل، فأدخل نفسه ـ صلوات الله عليه ـ في جوف العمّارية، وضمّه إلى نفسه ضمّ الأخ للأخ والصديق للصديق. فنظر إليّ الأستاذ عند ذلك نظرَ مَن أنكر عليَّ تركه في العماريّة. فقال له عليه السلام: لا سبيل عليه، فبأمرنا عمل.

.. فيعوده المعزّ في عمّاريّته

ثم أقبل عليه السلام على الأستاذ وسأله عن حاله وقال:

لا تضعف نفساً، فإن الله يمدّ في عمرك وينسىء في أجلك حتى تشاهد معنا فضل الله الذي خَوّلْناه من ديار الظالمين (ط 188).

فقال له الأستاذ: «يا مولاي، والله، ما لعبدك حال يستوجب بها ما فعلتَه فيه لأنّي عبدٌ صقلبيٌ أعجميٌ لا خصلة لي أمتّ بها، إلّا أنّي عبدكم المستضيء بنور هدايتكم». فقال له:

لا تفعل يا جوذر، إن الله - عز وجلّ - قد فرض طاعتنا فجعلها رَغبة ورَهبة. فأنت ممن أطاع الله فينا رغبة لا رهبة. أوَ نسِيتَ كلّ إنسان وتمتّعه في داره، من الصقالبة الذين كانوا معك في أعصار مواليك الأئمّة الطاهرين، ورضاك أنت بالكون في ذلك البيت الذي كان يقرب من الخلاء بقصر مولاك الإمام القائم بأمر الله؟ لم تختر ما اختاره/ غيرك من نعم الدنيا، لكن أراد الله بك السعادة أولاً وآخراً.

129/2

ثم نظر إلى محمد بن عثمان الكاتب، وكان واقفاً معنا، وأشار بقود الدابّة والانصراف تخفيفاً عن مولانا - صلوات الله عليه - ممّا كلّف نفسه الكريمةَ من الوقوف على قدميه - صلى الله عليه - فلمّا رآه مولانا - عليه السلام - قال له:

قف يا محمد، ودعه، فإنّ في نظره إلينا راحة قلبه.

ثم قبّل الأستاذ الأرض وقبّلنا، وانصرفنا. فمن ذلك اليوم ما رأى مولانا عليه السلام. وكأنها كانت وقفةَ الوداع.

ثم لمّا وصلنا إلى الموضع الذي يعرف بمشلية[321] بالقرب من برقة زاد به أمر الضعف وصعوبة الأمر من العلّة. ومع ذلك فكان

(321) مشلية أو مثلية برقة: لم تذكرها كتب الرحلات التي بين يدينا.

ذهنه صحيحاً لم يتغيّر عليه من عقله شيء، دعاني فقال: «نحن ندخل برقة، وهي بلد كبير، وبه بعض أهل المشرق، سيّما [مع] وصول ابن نصر[322] إلى مولانا ـ صلى الله عليه ـ فيما يقال، واسمنا من الدولة الطاهرة كبير بإعزاز مولانا عليه السلام لنا، والواجب أن نجمّل عسكرنا بالعُدّة والسلاح الشاكي والزيّ الحسن (ط 189) حتى يكون دخولنا تامّاً بهيّاً. فاكتب إلى الأمير عبد الله ـ صلى الله عليه ـ تعرّفه بذلك، وتسأله سؤال مولانا عليه السلام بإنفاذ شيء من السلاح والعدّة زيادة على ما عندنا، وتعرّفه أني أحبّ الوصول إلى القصر المبارك بهذا الزيّ، لكن لا أستطيع النزول على قدميّ، وصعُبَ عليّ الأمر فيما كان من فعل مولانا ـ عليه السلام ـ بأجدابية. وأخشى أنّي متى وصلت يقول من يحسدنا على فضل مولانا عليه السلام أنّي إنما تعرّضت بوصولي هذا ما كان من فعله، ونحو هذا القول من الكلام».

جوذر، رغم مرضه، يهيّىء زينة العسكر

وختم الكتاب وأنفذناه مع نجّابٍ كان معنا فكان الجواب من الأمير عبد الله ـ صلى الله عليه ـ يقول:

«سلّمك الله، وأتمّ نعمته عليك، وتابع آلاءه لديك، ومنع فقدك، وقضى لك بالحج إلى البيت الحرام مع مولانا عليه السلام. انتهى إلينا كتابك ـ سلمك الله ـ ووقفنا على جميعه من بعد أن وقف عليه مولانا ـ صلى الله عليه ـ وقبّلنا له الأرض. وهو يردّ

(322) في المخطوط: والمطبوع: سيما وصول... فأضفنا «مع» ليستقيم الكلام. وابن نصر: لعله أبو جعفر أحمد بن نصر أحد الدعاة بمصر، وهو الذي انضمّ إلى وفد المتفاوضين مع جوهر عند دخوله مصر. ونراه مع المعز يعرّف الخليفة بوجوه رعاياه الجدد عند خروجه إلى المصلّى (اتّعاظ، 148 و193). وجوذر «المغربيّ» «يستحي أن يظهر جند المغاربة لابن نصر «الشرقيّ» في مظهر غير مبهج.

عليك أفضل سلام الله وأطيبه. وأمر - لا زال أمره عالياً مكرّماً معظّماً - بالكتاب إليك بتعريفك - سلمك الله - أن أمره نفذ إلى نصر الخازن ببعثه الجمال وصدراً كثيراً من السلاح [مـ]ـمّا حدّ له وهو يصل إليك إن شاء الله. فاعمل/، قال لك - صلى الله عليه - على الوصول إلى الحضرة المباركة أيّ يوم يتهيّأ لك وأردت الوصول فيه، ويكون وصولك إلى باب القصر المبارك في عمّاريّتك على رسم ما فعلته في أجدابية بأحسن زيّ، ولا تأخذ على نفسك في هذا الباب في أمر العمّاريّة شيئاً، فليس فيه شيء تأخذه ولا يؤخذ عليك كما قلت، فخروجنا إليك - قال لك عليه السلام - في (ط 190) أجدابية ليس أنت كلّفتناه فتأخذ فيه على نفسك أمراً، بل نحن فعلناه من ذات أنفسنا رغبة في افتقادك ومشاهدة حالك. وهب الله لك أتمّ العافية وأكمل الصحّة والسلامة بفضله. فاعمل ما حدّدناه لك. قال - صلى الله عليه - وأبشر بما رزقك الله من رضاه - عز وجلّ - عنك، ورضى وليّه - عليه السلام - الذي لم يجر هذا لأحد غيرك في العصر الذي أنت فيه، ومحقوق أنت بذلك فاحمد الله واشكره تستوجبْ المزيد منْ جميل عطائه وجزيل فضله وامتنانه. والله أسأل حراسة نعمه عندك وتتابعها لديك ومرادفة آلائه عليك بأجمل سلامة نرجوها لك وأفضل صحّة نؤمّلها، بمنّه وفضله والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

130/2

وكان هذا التوقيع آخر توقيع وصل إليه من الإمام ووليّ عهده - عليهما أفضل السلام - ووصل نصر إليه بالعدّة إلى الموضع المذكور وفرّق ذلك السلاح على الرجال، وزاد به أمر الضعف والعلّة ولم يقدروا أن يصلوا به إلى القصر، فدخل مدينة برقة إلى الدار التي أخليت له فنزل بها، ومضيت إلى مولانا - عليه السلام - فعرّفته بوصوله. فقال: كيف حاله؟ قلت: يا أمير المؤمنين -

صلوات الله عليك ـ هو ضعيف جداً، ومع هذا فهو يشتهي الموت حتى كأنه يعاين الموضع الذي يصير إليه فاشتاق نحوه». فقال:

إلـى موضعه في رحمته وقرب مواليـه، صلوات الله عليهـم أجمعين!

ثم التفت إلى من كان واقفاً بين يديه، وكان الأمير عبد الله ـ عليه السلام ـ من الوقوف وإسحاق بن موسى وغيره من السودان الخدم. وكان ذلك بعد الفراغ من المائدة، فقال[323]:

هذا جوذر المسكين، والله إنا لنحصي ما وصل منه إلى آبائنا الطاهرين من قبل وإلينا من بعدهم تقرّباً وعملاً لوجه الله فيكون ذلك فوق المائة ألف دينار بلا إقطاع ولا ضياع كثيرة (ط 191).

ثم دفع إليّ ـ صلوات الله عليه ـ تفّاحات كانت في يده وقال لي:

131/2 «أوصلها إليه/، وقل له: هذه وصلت إلينا من مصر، وأرجو الله أن يحييك ويصحّ بدنك حتى تشاهدها معنا».

فقبّلت الأرض وانصرفت وبلّغت الحكاية التي كانت منـه.

العلّة تشتدّ بجوذر.. فقبّل الأستاذ الأرض وحمد الله وأكثر من شكره، ثم أخذ معي في الحديث فما زال على ذلك وهو في صحّة عقله إلى آخر الليل، فحال على أمره. ثم أصبح به الأمر وهو لما به من النزع، ثم قضى عند صلاة الظهر ـ رحمه الله ورضي عنه. وحمل في الليل من مدينة

---

(323) في السيرة، 147، يجري المعزّ مقارنة بين «ميسور الكبير» وجوذر، في نهم ميسور وتكالبه على حطام الدنيا، وقناعة جوذر وتفانيه في خدمة الأئمّة. وقد حذف الداعي إدريس الفقرة الخاصّة بميسور، ولعلّه تذكّر أنّه ترحّم عليه كثيراً حين قتل في مواجهة أبي يزيد (انظر ص 283).

برقة إلى القصر الذي كان به مولانا ـ عليه السلام ـ بموضع يعرف بمياسر. وأمر صلوات الله عليه بغسله، وحضر لذلك القاضي النعمان بن محمد ومحمد بن عثمان الكاتب وأنا، وصلى عليه بالغدوّ، ودفن بالموضع عند مسجد بهذا القصر المذكور».

.. فيقضي نحبه ببرقة

* * *

وسار أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (ص) حتى دخل الإسكندريّة لستّ بقين من شعبان سنة اثنتين وستّين وثلاثمائة[324].

وصول المعزّ إلى الإسكندريّة...

قال ابن خلّكان في تاريخه[325]: «وركب من الإسكندريّة ودخل الحمام، وقدم عليه بها قاضي مصر ـ وهو أبو طاهر محمد بن أحمد ـ وأعيان أهل البلاد، وسلّموا عليه، وجلس لهم عند المنارة وخاطبهم بخطاب طويل يخبرهم فيه أنّه لم يرد دخول مصر لزيادة في ملكه ولا لمال، وإنما أراد إقامة الحق والحج والجهاد وأن يختم عمره بالأعمال الصالحة، ويعمل بما أمر به جدّه ﷺ، ووعظهم وأطال حتى بكى بعض الحاضرين، وخلع على القاضي وبعض الجماعة وحملهم، وودّعوه وانصرفوا ثم رحل منها في أواخر شعبان.

(ط 192) ونزل يوم السبت ثاني شهر رمضان المعظّم على ميناء ساحل مصر بالجيزة، واجتمع به الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات ـ المذكور أوّلاً ـ وأقام المعزّ هناك ثلاثة أيام، وأخذ العسكر في التعدية بأثقالهم إلى ساحل مصر. ولمّا كان يوم الثلاثاء لخمس خلون من شهر رمضان المعظم من السنة، عبر المعزّ النيل.

---

(324) أي: 26 ماي 973. وهو التاريخ الذي ذكره ابن حمّاد، 44 وابن خلّكان. فالرحلة دامت قرابة السنة الكاملة، لذلك قال صاحب الوفيات: «ولم يزل في طريقه يقيم بعض الأوقات في بعض البلاد أيّاماً ويجدّ السير في بعضها»، وقد رأينا مثالاً من مكوثه في الطريق ببرقة عند وفاة جوذر.

(325) يعني وفيات الأعيان، والفصل منقول من ترجمة المعزّ رقم 727.

قال حيدرة بن محمد بن إبراهيم صاحب السيرة الكتاميّة[326]:

.. ثمّ إلى القاهرة (5 رمضان 9/362 جوان 973)

«ولمّا وصل الإمام المعزّ (عم) وسار من الجيزة إلى مصر على الجسر، لم يمشِ معه أحد راكباً غير القاضي النعمان وعسلوج بن الحسن من وراء ظهره[327]، وسائر الناس ماشون بين يديه».

قال ابن خلّكان:

132/2

المعزّ يدخل القاهرة دون المرور بالفسطاط

«ودخل القاهرة، ولم يدخل مصر، وكانت قد/ زيّنت له، وظنّوا أنه يدخلها، وأهل القاهرة لم يستعدّوا للقائه لأنّهم بنوا الأمر على دخوله مصر أولاً، ولما دخل القاهرة دخل القصر وكلّما دخل مجلساً منه خرَّ ساجداً لله تعالى، ثم صلّى ركعتين وانصرف الناس عنه».

فاستقرّ أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (ص) في قصره بالقاهرة المعزّيّة يوم الثلاثاء لخمس مضت من شهر رمضان سنة اثنتين وستّين وثلاثمائة (10 جوان 973). قال ابن خلّكان: «وهو الذي تنسب إليه القاهرة المعزّيّة، لأنّه بناها[328] القائد جوهر له [يوم الجمعة لثلاث عشرة بقين من المحرّم سنة ستّين وثلاثمائة][329].

---

(326) صاحب السيرة الكتاميّة: قال بوناوالا إنّه عاش في مدّة الحاكم الفاطميّ، ولم يزد.

(327) عسلوج بن الحسن الدنهاجي أبو عليّ:. أحد رجالات كتامة، وهو الذي سيجعله المعزّ والياً على الأموال مع يعقوب بن كلّس (انظر الهامش 292 أعلاه، وترجمة سيرة جوذر، هامش 469 واتعاظ الحنفاء، 196 و198 - 199).

(328) في المخطوط والمطبوع: لأنه الذي بناها القائد جوهر له.

(329) ما بين [ ] لا يوجد في ترجمة المعزّ عند ابن خلّكان. وظاهر أنّه مقحم، وأنّه كلام مخلوط، فلا يعقل أن يكون جوهر بني القاهرة في يوم واحد. هذا، على أنّ المصادر تقول إنّه بدأ في تخطيطها منذ شعبان 358 (اتّعاظ، 162).

وفيما زكره أبو بكر جهور بن عليّ بن جهور الهمدانيّ[330] رحمه الله قال:

«قال ابن حوقل البغداديّ: القاهرة استحدثها جوهر الكاتب لأمير المؤمنين المعزّ لدين الله (عم) وقد ضمنت من المحالّ والأسواق والحمّامات والدور الحسان والقصور المشيّدة، على اقتصارها، ما لا يكون في غيرها. وبها ديوان، وجامع حسن (ط 193) وبها من الرجال والفرسان والخيل ما يعجز عنه كثير من البلدان[331]».

وقال ابن خلّكان[332]: «إنّ الشريف ابن طباطبا لقي المعزّ لدين الله وقال له: النسب يا مولانا؟ فوعده إلى يوم. واجتمع فيه الناس. (قال ابن خلّكان) فاخترط السيف وقال: هذا نسبي! وبذل الدنانير وقال: هذا حسبي! فقالوا: سمعنا وأطعنا».

ونقول: إنّ هذا من القول الفاسد، والكلام الغثّ البارد. وأنّى يكون ذلك ونسبه المعروف المشهور من شجرة النبوّة ودوحة الوصاية وفرع الإمامة؟ وإنّما ذلك للعناد والشقاق، إذ لم يجدوا فيه مطعنا ولا مغمزاً، فجاؤوا بهذا القول ومخرقوا هذه المخرقة التي لا تنفق على ذوي العقول، ولا يقبلها إلاّ كلّ جهول. وكيف، والشريف الرضيّ، على جلالته عندهم، يخاطب بني العبّاس ويقول:

---

(330) في المخطوط والمطبوع: جمهور. . وقد مرّ بنا (ص 476 هامش 221) اسم أبي بكر جهور الوادعيّ في نقل عن ابن حوقل .كذلك. ولعلّه أحد المؤرّخين اليمنيّين المتأخّرين الذين ينقل عنهم الداعي إدريس. وربّما كان هو المقصود بالواقدي في ص 139 الآتية، وإن كان بوناوالا وإيفانوف يسمّيانه علي بن حنظلة، لا جهور بن عليّ.

(331) صورة الأرض، 138، مع زيادة «على اقتصارها» وهي غير مفهومة، ومع نقص كثير.

(332) في ترجمة عبد الله بن طباطبا.

(خفيف)

ما مقامي على الهوان لديكم وبمصر الخليفة الفاطميّ
من أبوه أبي ومولاه مولا ي، إذا ضامني البعيد القصيّ؟[333]

وذلك لإكرام الأئمّة (عم) للحسنيّين والحسينيّين حتى ارتفع شأنهم وعظم عند (ط 194) العبّاسيّين مكانهم، بعد أن كانوا في الدولة الأمويّة والعبّاسيّة يُقتلون ويطردون ويُحبسون، وبأنواع القتل والعذاب يُتوعّدون، فأُنقذوا بعد ظهور المهديّ بالله (صلع) من الذلّة، ورُفعوا حيث كانوا/ حتى صاروا في الناس كالنجوم والأهلّة.

133/2

المناظرة المزعومة مع علويّ مصر خرافة مغرضة

ومن أراد أن يعرف نسب الأئمّة (صلع) وفضلهم، وفرعهم الشريف وأصلهم، فليقرأْ كتاب «المصابيح في الإمامة» للداعي حميد الدين[334] فإنّ فيه شفاء الصدور وجلاء القلوب، والحجّة الواضحة التي لا يدفعها إلّا من دفع الحقّ بعد بيانه، وأنكر ضياء الشمس عند عيانه، ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ (الصفّ، 8) ويصدّوا عن سبيله رعاع الأمّة من أشكالهم وأشباههم، والله (تع) قد وعد بتمام النور وقال في كريم كتابه: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ، وَلٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (الحجّ،

---

(333) في هامش المخطوط، رواية أخرى للبيت الأوّل موافقة لما في ديوان الشريف الرضيّ (صادر، 576/2).

ما مقامي على الهوان، وعندي مِقوَل صارمٌ وأنفٌ حميّ

والبيت الثاني، وهو الرابع في المقطوعة بالديوان:

ألبس الذلّ في ديار الأعادي وبمصر الخليفة العلويّ

والمقطوعة لها أحد عشر بيتا، ولها قصّة في علاقة أسرة الشريف الرضيّ بالخلفاء العبّاسيّين وخاصّة بالمحضر الذي طلب من الشريفين توقيعه للطعن في نسب الفاطميّين.

(334) الداعي حميد الدين الكرمانيّ (من أهل القرن الخامس) صاحب كتاب «راحة العقل». والرسالة المشار إليها هنا عنوانها (بوناوالا، 98) : المصابيح في إثبات الإمامة.

46). نسأل الله العصمة وأن يثبّتنا على ولاية الأئمّة، الذين أتمّ الله بهم الدين وأكمل النعمة.

فصار أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (عم) في دارّ ملكه، وقرار عزّه في القاهرة المعزّيّة، وسكنها واستوطنها وجعلها له داراً، وتبوّأها قراراً، وأمور المملكة موطّدة، وأسبابها مؤكّدة، والإسلام خافقة بنوده، قائمة دعائمه، والإيمانُ ثابت عموده (ط 195)، ظاهرة مراسمه، وله (عم) ملك مصر والشام والحرَمَين وإقامة الخطبة في جميع ما يضاف إلى هذه من الكور والأمصار، وتحت راياته الحجّ إلى بيت الله الحرام للوافدين من الأقطار، وله ملك إفريقيّة والمغرب واطرابلس وسجلماسة وبرقة وصقلّيّة، وقد ظهرت دعوته وانتشرت دعاته في الجزيرتين السنديّة والهنديّة، ولم تكن دعوة معدومة في جميع الأقاليم، منها ظاهرة، ومنها في السّتر والتقيّة.

وترك القاضي أبا طاهر محمّد بن أحمد بن عبد الله على القضاء بمصر، على ما أبقاه عليه القائد جوهر، وهو يرجع في جميع أحكامه إلى القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه) ويعرض عليه قضاياه، وينفّذها على ما ينظر فيه ويراه. وأقام عبدَ الله ابن ثوبان[335] ينظر بين المغاربة في القضايا والأحكام ويوردها عن أمر القاضي النعمان في الاتّساق والانتظام. فلمّا توفّي عبد الله بن ثوبان صرف القضاء بعده إلى القاضي الأجلّ عليّ بن النعمان[336]

---

(335) في الاتّعاظ، 191، اسمه: أبو سعيد عبد الله بن أبي ثوبان وفي كتاب رفع الأصر (ذيل كتاب الولاة والقضاة للكندي 587): عبد الله بن محمّد بن أبي ثوبان، وذكر في ترجمته أنّه قدم مع المعزّ فولّاه النظر في المظالم، وكانت له أحوال ومنافسات مع القاضي أبي طاهر الذهليّ.

(336) له ترجمة أيضاً في ذيل الولاة والقضاة، 589، أضافه المعزّ إلى القاضي الذهليّ ثمّ عوّضه لمّا هرم أبو طاهر وعجز.

فجرت الأمور على أحسن العوائد، وانتشرت بيمن معزّ دين الله في الدين والدنيا الفوائد.

قال الحسن بن جعفر الأنصاريّ في تاريخه[337]: «وكان الأندلسي محمّد بن الخير[338]/ قبل خروج المعزّ لدين الله (عم) إلى مصر قد خالف في سنة ستّين وهرب في أربعة آلاف غلام أكثرهم يركب الخيل، من المسيلة إلى فاس (ط 196) وبلاد زناتة، وركب البحر إلى الأندلس. فكتب المعزّ إلى زيري بن مناد الحميريّ، وكان يجاور ولايته «أنِ آطلُبْه حيث تعلَم مستقرّه!» فسار زيري خلفه إلى بلاد زناتة على نحو شهرين من عملها، وتردّى زيري عن فرسه فقتل، رحمة الله عليه ورضوانه، وطائفة ممّن معه، والمعزّ يومئذٍ بالمنصوريّة. ولمّا صار إلى مصر، كتب إلى ابنه يوسف بن زيري بعد أن ولّاه مملكته بالمغرب «أن آطلبْ ثأرك من زناتة واجتهد أن تلقاه يوم كذا وكذا!». وكان محمّد بن الخير لمّا قتل زيري ظنّ أن ليس في ولده مثلُه، فجمع زناتة. وسبقه يوسف بن زيري في سبعة آلاف فارس وأربعين ألف راجل فصبّحه يوسف. وكانت امرأة محمّد ابن الخير حسنة الصورة فلبست ثيابها وتطيّبت وأخذت حليتها ووقفت في نحو ألف امرأة من جواريها وبنات عمّها ونساء زناتة

134/2

رجوع إلى مقتل زيري بن مناد وانتحار محمد ابن الخير

(337) عن الحسن الأنصاريّ، انظر أعلاه، ص 497 الهامش 243.

(338) هنا خلط بسقط أو حذف: محمّد بن الخير مغراويّ زناتيّ وليس أندلسياً. وإنّما الأندلسي هو جعفر بن حمدون ابن الأندلسيّ صاحب المسيلة، فهو الذي شقّ عصا الطاعة في وجه المعزّ لمّا رأى حظوة زيري وابنه عنده، فالتحق بزناتة وشجّع محمّد بن الخير على التمرّد، وشهد الوقعة التي قتل فيه زيري في رمضان 360/ أو في ربيع الثاني (انظر ابن الأثير، 47/7. وكذلك دراسة ماريوس كانار عن أسرة بني حمدون، ص 44 من الفصلة) ثمّ لمّا خاف أن تتنكّر زناتة له، هرب بأمواله وخدمه وأهله إلى قرطبة. وعليه، فالقراءة الصحيحة للنصّ تكون: وكان ابن الأندلسيّ جعفر بن حمدون قد حالف محمّد بن الخير الخ.

وجعلت تحرّض بعلها، وفعل مَن معها من النساء في تحريض قومهنّ فِعلَها. فقصد محمّد بن الخير البنود وقتل مَن تحتها. وكان عامل المعزّ، يوسف بن زيري، قد كمن له فخرج يوسف في كمينه فهزم أصحاب ابن الخير، فحين رأى الهزيمة في أصحابه جعل سيفه في حلقه فإذا به صريعاً وقال: «بيدي لا بيدك يا يوسف!» فقيل إنّ يوسف بن زيري أدركه وبه رمق فقال له: «أنا يوسف» وأخذ سلَبه وسيفه، وكان السيف عظيماً. وأصبح يوسف فجمع رؤوس زناتة فأدارهم على السيف وبسط على رؤوسهم بساطاً وجلس عليه ومن معه وأكل خبزاً وقال: «ما فعل أحد كذلك!» وطيف برأس محمّد بن الخير ورؤوس قتلى زناتة في الأعمال، وبعث يوسف بها إلى القاهرة وطيف بتلك الرؤوس في أعمال مصر ونواحيها»[339].

ثمّ إنّه قويت أيدي القرامطة في الشام وجاء اللعين أبو عليّ[340] الحسن بن أحمد بن بهرا المكنّى بالأعصم القرمطيّ، وقد أجابه كثير من العرب والعجم من الساعين في فساد شريعة محمّد (ﷺ)، وهو يطوي البلاد طيّاً، ويأتي من المنكرات شيئاً فريّاً (ط 197) حتّى دنا/ من القاهرة المعزّيّة ووصل إلى سيول الطواحين[341] في جمادى الأولى سنة ثلاث وستّين وثلاثمائة. فخرج أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (عم) ومعه ولده الأمير عبد الله (رضي الله عنه) وجميع أنصاره وجنوده من أهل المغرب وأهل مصر في

135/2

انهزام الأعصم القرمطيّ على أبواب القاهرة

(339) هذا النقل يوضح ما قلناه في ص 122 هامش 302 بشأن الخلط بين أبي خزر ومحمّد ابن الخير. وحكاية الوليمة على رؤوس القتلى متداولة من السفّاح العبّاسيّ إلى محمّد عليّ المصريّ، ويرويها ابن الأثير بفظاعة مغايرة: جُعلت الرؤوس حجراً للأثافيّ ونُصبت عليها قدور وطبخ فيها!

(340) في المخطوط: أبو طاهر، وفي النجوم الزاهرة، 59/4 أنّ كنيته أبو محمد وأبو عليّ كما رأينا.

(341) سيول الطواحين: في الشمال الشرقيّ من بلبيس.

سنة ثلاث وستّين وثلاثمائة، فجرت بينه وبين القرمطيّ اللعين وقائع كثيرة وحروب عظيمة مشهورة. وكان وليّ عهـد المسلمين الأمير عبد الله بن المعزّ في بعض تلك الحروب خرج لقتالهم عن أمر أبيه (عم) فهزم القرامطة، وقطع عسكره منهم ألف فارس فقتلوا، وأسروا منهم ألفَ إنسان. ووصل الأمير بهم إلى مخيّم أبيه، وولّى القرمطيّ منهزماً، وأنـزل الله على وليّه المعـزّ نصره من السمـاء، وكانت هزيمـ[ـتُـ]ـهُ في شعبان من سنة ثلاث وستّين وثلاثمائة (أفريل - ماي 974).

وقد أتى عن القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه) في كتاب «مؤازرة التأويل لتعبير الرؤيا»[342] حيث قال: «ومنها ما رأى المعزّ لدين الله (ص) قال: رأيت فيما يـرى النائم ليلة الثـلاثاء لليلتين خلتا من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وستّين وثلاثمائة كأنّي جالس على مكان من الأرض عالٍ أشرف على قتال يكون أمامي وأنظر إلى حملاته (ط 198) وراياته، وبين يديّ سيـوف أصحاب رسول الله (ﷺ) إذا بجماعة من الناس تفوق الناسَ مناظرهم حسناً وكمالاً، وزينة وبهاء، فسلّموا عليّ وجلسوا حولي. وجلس أحسنهم منظراً وأفضلهم صورة ورائي، وأنا لا أعرف في الوقت إلّا الإمام المنصور بالله (صلع) فإنّه يبتسم إليّ ويشير كالمنبّه على حال القوم. وأقرب من كان عن يميني رجل ربع أسمر فقال: «ما بال هـذه السيوف بين يديك؟

فقلت: هـذه سيوف أصحـاب رسول الله (ﷺ) أخـرجتهـا وجمعتها أضرب بها وجوه الكفرة آخراً كما ضرب بها بين يدي رسول الله (ﷺ) أوّلاً.

---

(342) سبق ذكر هذا الكتاب في مؤلّفات النعمان بعنوان: تأويل الرؤيا (ص 32/2).

ثمّ قام، فقلت: من أنت؟

رؤيا للمعزّ تبشّره بالنصر على القرمطيّ

فقال: أنا جدّك عليّ بن أبي طالب.

فقلت: مولاي؟

فقال المنصور: مولاك ومولاي.

ثمّ قلت: هذه الصيحة التي قال الله (تع): ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (يٓس، 29).

فقال: نعم، هو كذلك.

قلت: فيوم كاليوم الذي نودي فيه من أعنان السماء:

لا سيف إلاّ ذو الفقار، ولا فتى إلاّ عليّ[343]

فتبسّم (عم) ثمّ مدّ يده إلى السيف ذي الفقار القديم. حينئذٍ قلت: قد زالت الشبهة في السيف. فتناوله وتقدّم/ فضرب رأس اللعين الأعصم، فحمدت الله وشكرته بما هو أهله.

136/2

ثمّ قام من الجماعة رجل تامّ، فقلت: من أنت؟

فقال: أنا عمّك حمزة.

فقلت: سيّدي، أسد الله وأسد رسول الله.

فتبسّم ثمّ مدّ يده وفيها سيفه فهممت آخذه وقلت: يا عمّ، هذا سيفك الذي لا يضرب به إلاّ أنت؟

قال (ط 199): نعم.

فتقدّم فقطع بضربة واحدة ثلاثة رؤوس وأخذ الثلاثة، إخوان الأعصم.

---

(343) لهذا البيت شأن كبير عند الشيعة، وقد قيل «إنّه سُمع من السماء يوم أُحُد» وبه سمَّوا عليّاً «سيّد الفتيان» (ابن أبي الحديد، شرح النهج، 3/1) والبيت مذكور في سيرة ابن هشام.

ثمّ قام منهم جعفر الطيّار (عم) فتقدّم وضرب فقتل كثيراً. ثمّ لم يزل يقوم واحد بعد واحد، يستمّى ويتقدّم إلى أن قام آخرهم رجل قلت له: من تكون؟

فقال: أنا أبو موسى الأشعريّ.

قلت: ما لك في السيوف سيف، ولا أريد أن أدخلك في شيء من هذا الأمر[344].

قال: ولم؟

فتبسّم القوم وضحك رجل كان ورائي جالساً. فلتفّت لأنظر إليه وقلت: من أنت يا مولاي؟

قال: أنا جدّك رسول الله.

فالتفتّ لأقبّل الأرض بين يديه، فرفع وجهي على حجره فعانقني فقلت: يا رسول الله، الحمد لله الذي جعل لي حظّاً في نصرتك.

فقال: الحمد لله ربّ العالمين، ثلاث مرّات. فانتبهت بعد أن أتي على قتل الفسقة أجمعين، وأنا معانق رسول الله (ﷺ) مسرور به».

فهذه رواية القاضي النعمان بن محمّد (رضي الله عنه). ثمّ كان الأمر كما رأى المعزّ: فلم تزل جنود الله تتبع الفاسقين الطاغين حتّى أجلوهم عن الشام وأخرجوهم من أعماله. وقتل الأعصم بعد أن كاتبه[345] أمير المؤمنين المعزّ واحتجّ عليه وأراه آيات الله جلّ

---

(344) في هذا التحفّظ إزاء أبي موسى صدى لموقفه في التحكيم وغضب الشيعة بعده.

(345) هي رسالة المعزّ إلى الحسن القرمطيّ التي أوردها المقريزيّ في الاتّعاظ، =

وعلا، فأبى إلاّ عتوّا في الأرض واستكباراً، وبغياً على عباد الله وإصراراً، وأراح الله منه العالمين، ونصر عليه أمير المؤمنين.

وعاد إلى دار عزّه وقرار ملكه، وقد تمهّدت له البلاد، ودان له العباد، وأصلح الله به الفساد، وشمَل عدله، وعمّ فضله، وأظهر (ط 200) الله على يديه برهان الحقّ الذي هو أهله.

* * *

وكانت وفاة القاضي النعمان بن محمّد بن حيّون التميمّي رحمة الله عليه بمصر سلخ جمادى الأخرى سنة ثلاث وستّين وثلاثمائة (27 مارس 974). والحمد لله ذي الطّول والأنعام، القائل: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلَالِ وَٱلإِكْرَامِ ﴾ (الرحمان، 26 - 27). وقد ذكرنا من فضل القاضي النعمان/ بن محمّد (رضي الله عنه) وتأليفاته وتصنيفاته ما يشهد بفضله وعلوّ مقامه عند أولياء الله وسنا محلّه.

137/2

وفاة النعمان..

.. وعبد الله وليّ العهد

وتوفّي الأمير عبد الله بن المعزّ (رضي الله عنه) في أيّام أبيه المعزّ لدين الله (عم) وكان ذلك في إقبال عيد[346]. ففي ذلك يقول أمير المؤمنين المعزّ لدين الله:

(منسرح)

نحن بنو المصطفى ذوو محن أوّلُنا مبتلىً وآخرُنا

= 251 - 265، وقد كان جواب الأعصم: وصل كتابك الذي كثر تفصيله، وقلّ تحصيله، والجواب ما تراه.

ولم تذكر المصادر أنّه قتل، بل قيل إنّه وصل إلى الشام مريضاً فمات.

(346) توفّي الأمير عبد الله سنة 364 (انظر ترجمة سيرة جوذر، هامش 455 و467) ولا ندري أيّ عيد يعني المؤلّف، وتزداد الحيرة إذا فهمنا بيت المرثية الثانية: في أوان هو الشتاء... على ظاهره. فعيد الفطر كان يوم 14 جوان 975 وعيد الأضحى يوم 21 أوت، وليس هذا فصل شتاء.

عجيبــة في الأنــام مِحنتُنــا صــادقُنــا نــالهــا وبــاقــرُنــا
يفــرح هــذا الــورى بعيــدهمُ ونحن أعيــادُنــا مــآتمنــا[347]

وقال أخوه تميم يرثيه، نضّر الله وجهه:

(خفيف)

كــلُّ حيّ إلى الفنــاء يـصيــرُ والــليــالــي تَـعِــلّةٌ وغُــرورُ
وإلى الله يـرجـع المَلْكُ والمُلْـ ـكُ، ويُفضِي الأميـر والمأمـور
وإذا لم يكن من المــوت بدٌّ فـطويـل الحيــاة نَزْرٌ حقيــر
أيَّ خَـطْبٍ أرى وأيُّ مُصـابٍ دهم النـاس صَـرفُـهُ المحذورُ؟
5 كيف لا تأثِر المصائب في النفـ ـس على من هو النفيس الأثِير؟ — رثاء تميم لأخيه عبد الله
وكـذا الـرُزْءُ بـالعـظيم عـظيم وكــذا الـرزء بالحقيـر حقيـر
كيف لم تسقط السماء على الأر ض ولم تَهـوِ شمسُها والبدور؟
يوم مات الأمير بل يوم مات الـ ـصَّبر فيه بل يوم مات السرور
يوم بُلَّ الثـرى عليه من الـدّمـ ـع وقُدّت على القلوب الصدور
10 يــوم حُـطَّت عمــائم وأذاعت سِـرَّهــا فـيــه أدْؤرٌ وخُــدورُ
يوم أبكى العيون حتى بكاهُ الْـ ـأسَدُ الـوَرْد والغـزالُ الغَـرِيـر
وسمعتُ الـزفيـر وهــو صُرَاخ ورأيت الــدمــوع وهي بحــور
في أوانٍ هــو الشتـاء فـأمسى بلهيب الأنفــاس وهْــو هجيــر
شيَّعت نعشَــه مــلائكــة الـلـ ـه وروَّتــه رحــمــة وطــهــور
15 بمقــام غـابت وجـوهُ التعـزّي عنه والحزنُ والأنـامُ حضـور
قَبـروا شخصــه ووارَوْا سنــاه وتــولَّــوا والـقــابِـرُ المـقبــور
كم نصيــر لــه هنــاك ولـكن ليس من سَوْرة الحِمام نصيـر

(347) أفادنا ناشر الكتاب أنّ هذه الأبيات هي للعزيز في الحقيقة، رثى بها ولداً له، ولكنّه لم يحل إلى مرجع نتثبّت به.

لــو تُـركنــا إلى الفـداء فَـداهُ من يـد الموت عـالمَـون كثيرُ
وسـيــوفٌ ومـثـلُهـنّ عـبـيـد ورمـاحٌ ومـثـلهــنّ عَـشِـيــر
20 قـدّس الله رُوحـه وضـريحـاً حلَّه ذلـك السَّنَـا والنـور[348]

138/2 وكان الإمام نزار بن معدّ، العزيز بالله بن المعزّ لدين/ الله (صلع) قد استكمل خلال الفضل والكمال، وارتقى إلى أعلى الدرجات، حائزاً من المناقب وجميع الخلال. فنصبه أبوه إماماً بعده، وولاّه أمره وعهده، وفوّض إليه حلّه وعقده. ونصّ عليه في محضر من كبراء دعاته وأهل دعوته وعيون أمرائه وأهل مملكته. وكتب بذلك إلى دعاته في جميع الأقطار، وأعلن بالتوقيف على مقامه والإشهار.

المعزّ يعيّن نزاراً وليّاً للعهد

وكان مُقام المعزّ لدين الله (صلع) في القاهرة المعزّيّة حتى أحكم عقد الخلافة، واطّردت أمور الدعوة، وثبتت قواعد المملكة في الشرق والغرب، وقضى الله على كلّ معاند بالظفر والغلب. ثمّ لحق بآبائه الطاهرين ووافاه كما وافاهم ريب المنون، كما قال الله (تع) في كتابه الكريم: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ (الزمر، 30). وكانت وفاته صلوات الله عليه ورحمته وبركاته ورضوانه يوم الجمعة الحادي عشر من ربيع الآخر، وقيل الثالث عشر منه، من سنة خمس وستّين وثلاثمائة (17 ديسمبر 975) (ط 203). وكانت إقامته في الخلافة مذ توفّي المنصور بالله (عم) وصارت الإمامة إليه ثلاثة وعشرين عاماً وخمسة أشهر وعشرة أيّام، منها مقامه بمصر: سنتان وسبعة أشهر وأربعة أيّام. وكان مقام جوهر في مصر إلى أن وصل (عم) أربع سنين وتسعة عشر يوماً.

وفاة المعزّ

وممّا قيل في مراثيه قول الأمير تميم بن المعزّ من الخفيف[348]:

---

(348) ديوان تميم بن المعزّ الفاطميّ، 147 ثمّ 57.

كيف لا تَعْـدَمُ الجُسومُ القلوبَـا وتَـرى نَضْـرة الـوجـوه شُحُـوبَـا
مَن يُعَـزِّى الجيادَ أم من يُسَلِّى مجلسَ الملك والسّـرير الكئيبـا
فقـدوا بعـدَك القلوبَ اللّواتي شَقُّهـا واجبٌ فشقّـوا الجيـوبـا
وامُـعـزّاه! وامُـعـزّاه حـتـى يغتدي الدمعُ بالـدماء خضيبـا!
5 فليَـذُقْ غيـريَ الحيـاةَ فـإنّي لا أرى للحيـاة بعـدَكَ طيبـا

وقيل: إنّما كانت وفاة المعزّ (ص) بالبَهْنَسى[349]. قال ابن ماكولا[350]: «قرية بهنسى من قرى مصر. وكان معه وليّ عهده والخليفة من بعده العزيز بالله (عم)، فأخبره أنه يموت في ليلته تلك، وأوصاه بما أوصاه، ودخل إلى محراب المسجد ببهنسى، فقضى نَحبه بعد أن قضى صَلاة المغرب. وكان فيما أوصى ولده الخليفة من بعده أن يحمله إلى القاهرة المعزّيّة وأن يدفنه بها. فكتم العزيز بالله وفاته وحمله إلى /القاهرة فدفنه بها».

139/2

وقيل إنّه حمل توابيت (ط 204) المهديّ بالله، والقائم بأمر الله، والمنصـور بالله، صلوات الله عليهم، إلى القـاهرة، وفيهـا أجسادهم الشريفة، فَدُفِنت هناك. وكذلك قيل إنّ توابيت الثلاثة الأئمّة المستورين حملت إلى هناك ودفنت. وقد أوردنا ما ذكـره الواقديّ[351] من أنّ أئمّة الظهور حملوا رأس الإمام الحسين بن عليّ (صلع) إلى القاهرة فواروه بها، صلوات الله عليهم ورضوانه وبركاته

---

(349) عند ابن خلدون، 51/4: توفّي بعسكره ببلبيس وهو متجهّز لقتال القرمطيّ.
(350) ابن ماكولا عليّ بن هبة الله العجليّ (تـ 486): مؤرّخ بغداديّ (انظر دائرة المعارف الإسلاميّة وأعلام الزركليّ).
(351) الواقدي صاحب المغازي والسير (تـ 207) لا يمكن أن يذكر أئمّة الظهور ـ الفاطميّين ـ ولا القاهرة. وإنّما ذكر المؤلّف اسم الواقديّ في السبع الرابع، 96 حين نقل خبراً عن استعداد الحسين للقتال بعد منصرفه من القادسيّة، وهذا يستقيم تاريخيّاً.
=

وتحيّاته، إذ قال الواقديّ في «خصائص الأئمّة»[352]: «إنّ خلفاء مصر نقلوه من باب الفراديس إلى عسقلان[353] ثمّ نقلوه إلى القاهرة المعزّيّة، وله مشهد عظيم يزار».

فصلوات الله عليهم وبركاته ورضوانه، والحمد لله ربّ العالمين على ما أولانا من ولايتهم، وعرّفنا من فريضة طاعتهم. ونسأل الله أن يجعلنا ممّن دخل سفينتهم فنجا من طوفان الضلالة. وصلّى الله على رسوله الذي اختاره، و[على] آله وسلّم عليهم أجمعين. وحسبنا الله ونعم الوكيل، ونعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

جاء في آخر مخطوطنا:

قد تمّ هذا الكتاب بعون الله ومادّة وليّه في وقت سيّدنا ومولانا أبي محمّد عبد القادر نجم الدين نجل الداعي الأجلّ الأوحد سيّدنا

= ولم يقرن حبر نقل رأس الحسين إلى القاهرة باسم الواقديّ، بل اكتفى - ص 129 من السبع الرابع - بقوله: قال صاحب «خصائص الأئمّة». فهل التبس عليه - أو على الناسخ - اسم الوادعي باسم الواقديّ كما نفترض في التعليق الآتي؟

(352) عند إيفانوف: الأدب الإسماعيليّ، 74 - 75 وفي دليل بوناوالا، ص 162 - 163، ذكر داع ومؤلّف إسماعيليّ متأخّر يسمّى عليّ بن حنظلة الوادعيّ (تـ 1229/626) وينسب إليه كتاب منظوم شعراً بعنوان «سمط الحقائق». فلعلّه هو صاحب حقائق الأئمّة الذي نقل عنه الداعي إدريس في السبع الرابع وهنا، وإن كان المنقول لا يمتّ إلى الشعر.

(353) باب الفراديس هو أحد أبواب جامع الأمويّين بدمشق، وكان بقربه مقبرة باب الفراديس التي قيل إنّ رأس الحسين دفن بها. وقيل أيضاً إنّ الوزير بدر الجماليّ نقل الرأس إلى المشهد الذي ابتناه بعسقلان سنة 491، ثمّ نقل الرأس إلى القاهرة سنة 548 خوفاً من زحف الصليبيّين أن يعبثوا به، وبنى عليه المشهد المعروف الآن سيدنا الحسين (انظر ياقوت في مادّة دمشق، ودائرة المعارف الإسلاميّة في فصول: عسقلان، دمشق، الحسين).

ومولانا طيّب زين الدين، أطال الله بقاءه إلى يوم الدين، بخطّ الحقير المحتاج إلى رحمة الله العليّ الكبير هبة الله ابن الشيخ الفاضل غلام حسين ابن الشيخ الفاضل الأجلّ ميا صاحب عيسى بهاء ابن حبيب بهاء ساكن رنيالة غفر الله ذنبه بمحمّد وآله.

سنة 1265 هـ. برتلام

القاهرة فدفنه بها وقيل انه حمل تابوت المستنصر بالله والقائم
بامر الله والمنصور بالله صلوات الله عليهم الى القاهرة وفيها
اجسادهم الشريفة فدفنت هناك وكذلك قيل ان توابيت
الثلثة الائمة المستورين حملت الى هناك ودفنت وقد اوردنا
ما ذكره الواقدي من ان الائمة الظاهرين [illegible] حملوا راس

في خصائص الائمة ان [illegible] ذكرناه مختصر

الامام الحسين بن علي صلوات الله عليه الى القاهرة [illegible] صلوات
الله عليهم وبركاته ورضوانه وتحياته اذ قال الواقدي
في خصائص الائمة ان خلفاء مصر نقلوه من باب الفراديس
الى عسقلان ثم نقلوه الى القاهرة المعزية وله شأن عظيم
من ان فصلوات الله عليهم وبركاته ورضوانه والحمد
لله رب العالمين على ما اولانا منه من ولايتهم ومعرفتنا
في بغية طاعتهم ونسال الله ان يجعلنا ممن دخل سفينتهم
فنجا من طوفان الضلالة وصلى الله على رسوله الذي اختاره
الله عز وجل واله وسلم عليهم اجمعين وحسبنا الله ونعم الوكيل ونعم
المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

الورقة 139/2 من السبع السادس: نهاية أخبار المعز.

ذكر جمل من أخبار ما كان في أيام الإمام العزيز بالله بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله معز دينه بأوليائه وحججا عليهم خلفائه في الأرض

بعد أنبيائه وصلى الله على محمد رسوله المصطفى وخاتم أنبيائه وأوليائه

وعلى وصيه علي بن أبي طالب وعلى الأئمة الطاهرين من أبنائه

الذين فرض الله لكل واحد منهم في عصره [illegible] ثم ذكر

في هذا الجزء ما كان في أيام الإمام العزيز بالله نزار أمير

المؤمنين ابن المعز لدين الله معد ابن إسماعيل صلوات الله

عليهما وعلى آبائهما الطاهرين الأكرمين ولما انتهت الإمامة في

الخلافة إلى أمير المؤمنين الإمام نزار أبي المنصور العزيز بالله

ابن معد المعز لدين الله ثم قام بأعبائها ونهض بإقامة

شريعة جده محمد صلى الله عليه وآله وإعلائها وحفظ نواحي المملكة و

إبانة معالمها ونشر الدعوة وإحياء أمرها [illegible] بالفعل الآتي

من آبائه وأمضى لكل جبار [illegible] وآبائه [illegible]

والده الإمام المعز لدين الله ثم سلام الله عليه وكان يكتب

اسمه ويكنى بولي عهد المسلمين وابن أمير المؤمنين حتى كتب إلى

الورقة 139/2: بداية أخبار العزيز.

فهـارس الكتـاب

الأرقام تحيل إلى ورقات المخطوط المعتمد، وهي أرقام مثبتة في الطرّة.

والرقم المسبوق برقم 2/ يحيل إلى السبع السادس الذي يبدأ بأخبار المعزّ لدين الله.

ولا نعتبر في الأسماء عبارات = ابن، أبو، بنو، ولا أداة التعريف = فأبو عبد الله يأتي في عبد الله، وابن ماكولا في ماكولا، وبنو واسين في واسين.

فهـــرس القـــرآن

— ي —

فهـرس الحـديـث

فهـرس الأمثـال

المثل	المرجـع	الصفحة
(أمر لا ينادى وليده)	مجمع 4526	213
(بيدي لا بيد عمرو)	زهر الأكم 208/2	134/2
(الحـرب خدعـة)	مجمع 104/6	73
(المرءُ عدوٌ ما جهل)	شرح نهج البلاغة 941/5 رقم 7530	
(من سرّه بنوه ساءته نفسُه)	مجمع 4017	11/2
(هيهات لا يخفى القمر)	مجمع 4600	5
(وقد أعذر من أنذر)		61

فهرس القوافي

فهـرس أعلام النـاس والمفـاهيم والفئات

(أ)

أولاد أبي يزيد:

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ك)

(ل)

(م)

فهرس الأماكن

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

فهرس الكتب الواردة في المتن
(دون اعتبار «كتاب» أو «رسالة»)

مراجع التحقيق

1 ـ بالعربيّة:

- ابن الأبّار: الحلّة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، جزءان، القاهرة 1963.
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تصحيح عبد الوهاب النجار، 9 مجلّدات، القاهرة 1356.
- إدريس عماد الدين: عيون الأخبار، السبع الرابع، نشر مصطفى غالب، بيروت 1973.

  السبع الخامس، نشر مصطفى غالب، بيروت 1975.

  السبع السادس، نشر مصطفى غالب، بيروت 1984.

  مقتطفات، نشر الدشراوي، تونس 1979.
- الأشعري: مقالات الإسلاميّين، تحقيق محمد محيـي الدين عبد الحميد، القاهرة 1950.
- الأعظمي: (محمد حسين)، الحقائق الخفيّة عن الشيعة الفاطميّة والاثني عشريّة، القاهرة، 1970.

  عبقرية الفاطميين، بيروت، 1960.

(ب)

- البرقيّ: (أحمد)، كتاب الرجال، طهران، 1342.
- البغدادي (عبد القاهر): الفرق بين الفرق، تحقيق محمد محيـي الدين عبد الحميد، القاهرة، ؛ د. ت.
- البغدادي (عبد المؤمن): مراصد الاطّلاع على أسماء الأمكنة

والبقاع، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة 1955.
- البكريّ (أبو عبيد): المغرب في ذكر بلاد إفريقيّة والمغرب، بغداد د. ت.
نفسه، طبعة باريس 1965 مع ترجمة دي سلان.

(ت)

- ابن تغري برديّ (أبـو المحاسن): النجـوم الزاهـرة، طبعة دار الكتب، القاهرة، 1933.

(ج)

- [جعفر الحاجب]: سيرة جعفر الحاجب، نشر إيفـانوف، مجلة كلّية الآداب، القاهرة، 1936.
- الجوذريّ (منصور العزيزي): سيرة الأستاذ جوذر، تحقيق محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة، القاهرة د. ت.

(ح)

- حسن (حسن إبراهيم): تاريخ الدولة الفاطميّة، القاهرة، 1964.
- حسن (علي إبراهيم): تاريخ جوهر الصقلـيّ، القاهرة، 1933.
- حسين (محمد كامل): في أدب مصر الفاطميّة، القاهرة، 1970.
- الحلّي (الحسن بن يوسف): كتاب الرجال، تحقيق محمد صادق بحر العلوم، النجف، 1961.
- ابن حوقل: صورة الأرض، بيروت، 1979.
- ابن حيّان: المقتبس، الجزء الخـامس، تحقيق بدرو شـالميتا، مدريد، 1979.

(خ)

- ابن خلدون: العبر، في 7 أجزاء، بيروت 1979.

(د)

- ابن الديبع (عبد الرحمان): قرّه العيون بأخبار اليمن الميمون،

تحقيق محمّد بن عليّ الأكوع الحوالي، القاهرة، 1970.
- ابن أبي دينار: كتاب المؤنس، نشر محمد شمّام، تونس، 1976.

(ز)

- الزاوي (طاهر أحمد): ولاة طرابلس من بداية الفتح العربيّ إلى نهاية العهد التركيّ، بيروت، 1970.
- أبو زكريا: كتاب سير الأئمّة، تحقيق إسماعيل العربيّ، بيروت، 1982.
- زمبور: معجم الأنساب والأسر الحاكمة في التاريخ الإسلاميّ، القاهرة، 1951.

(س)

- ابن سمرة الجعديّ: طبقات فقهاء اليمن، تحقيق فؤاد السيّد، القاهرة، 1957.
- السيوطيّ: الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، بيروت، د. ت.

(ش)

- ابن شهراشوب: معالم العلماء، النجف، 1961.

(ط)

- الطالبي (محمد): الدولة الأغلبيّة، تعريب المنجي الصيّادي، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت 1985.

(ع)

- عبد الرحمان (عفيف): الشعر وأيام العرب في العصر الجاهليّ، بيروت، 1984.
- ابن عبد المنعم الحميريّ: الروض المعطار، تحقيق إحسان

عبّاس، بيروت، 1975.
- **ابن عذاريّ**: البيان المغرب، نشر بروفنسال وكولان، ليدن، 1951.
- **أبو العرب/ الخشنيّ**: طبقات فقهاء إفريقيّة، نشر ابن أبي شنب، الجزائر 1914.

(غ)

- **الغزالي**: فضائح الباطنيّة، نشر قولدزيهر، ليدن 1916.

(ف)

- **الفقي** (الحبيب): التأويل، أسسه ومعانيه في المذهب الإسماعيليّ، تونس، د. ت.

(ق)

- **ابن قيّم الجوزيّة**: أعلام الموقّعين، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، د. ت، 4 أجزاء.

(ك)

- **الكندي**: كتاب الولاة والقضاة، تحقيق روفن ڤاست، ليدن 1912.
- **لقبال** (موسى): دور كتامة في تاريخ الدولة الفاطميّة، الجزائر 1979.
- **لويس** (برنارد): أصول الإسماعيليّة، تعريب خليل أحمد الحلو وجاسم أحمد الرجب، القاهرة، د. ت.

(م)

- **المالكيّ** (أبو بكر): رياض النفوس، تحقيق البشير البكوش، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1981 - 1984 (3 مجلدات).
- **ابن المجاور**: صفة بلاد اليمن، نشر لوفقرين، ليدن 1954.

- مجهول: كتاب العيون والحدائق، تحقيق عمر السعيديّ، دمشق 1973.
- المراكشي (عبد الواحد): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، نشر محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة 1949.
- المسعودي: التنبيه والإشراف، نشر عبد الله الصاوي، القاهرة 1938.
مروج الذهب، تحقيق شارل بلاّ، بيروت، 1966.
- المقريزيّ: اتّعاظ الحنفاء، تحقيق جمال الدين الشيّال، القاهرة، 1948.
- المقريزي: المقفّى، مخطوط باريس 2144.
- المنقري: وقعة صفّين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، 1365.
- الميلي (مبارك): تاريخ الجزائر في القديم والحديث، قسنطينة 1932.

(ن)

- الناصري السلاوي: كتاب الاستقصاء، الدار البيضاء، 1954.
- النعمان بن محمّد (القاضي): افتتاح الدعوة، تحقيق وداد القاضي، بيروت، 1970.
افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، تونس 1975.
المجالس والمسايرات، نشر كليّة الآداب، تونس، 1978.
- النويري: نهاية الأرب، الجزء 24، تحقيق حسين نصار، القاهرة 1983.

(هـ)

- الهمداني (الحسن بن أحمد): الإكليل، تحقيق محمد بن علي الأكوع، ج 1، 1963.
تحقيق لوفقرين، ج 2/1، 1954، 1965.

- صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، الرياض، 1974.
- **الهمدانيّ** (حسين بن فيض الله): الصليحيّون والحركة الفاطميّة في اليمن، القاهرة 1955.

(ي)

- **اليمانيّ** (عبد الواسع): تاريخ اليمن (فرجة الهموم)، القاهـرة، 1346.
- **اليوسيّ** (الحسن): زهر الأكم في الأمثال والحكم تحقيق محمد حجّي ومحمد الأخضر، الدار البيضاء، 1981.

2 - بغير العربيّة:

- **Abdulwahab** H. -H.: Contribution à L'Histoire de L'Afrique du Nord et de la Sicile; Centenario di Michele Amari. II, Palermo, 1910.
  Atlas archéologique de la Tunisie.
- **Canard** (Marius): L'autobiographie d'un chambellan du Mahdi Ubaydallah, Hesperis. 1952.
  Vie de l'Ustadah Jawdhar, Alger.
- **Dachraoui** (Farhat)· Le Califát fatimide au Maghreb, Tunis 1981.
- **Diehl** (Ch.): L'Afrique byzantine, Paris 1896.
- **Fagnan** (Edmond): Nouveaux textes relatifs à l'Afrique du Nord et à la Sicile; Centenario di Michele Amari Palermo 1910.
- **Feki** (Habib): Les idées religieuses et philosophiques de l'ismaélisme fatimide, Tunis 1978.
- **Gateau** (Albert): La Sīra de Jaʿfar al-Ḥājib; Hesperis 375-396.
- **Gsell** (Stéphane): Atlas archéologique de l'Algérie, Paris 1911.
- **Hamdāni** (Abbās): Some aspects of the history of Libya during the Fatimid period, 1968.
- **Idris** (H.R.): La Berbérie Orientale sous les Zirides, .Paris 1922.

- **Ivanow**(W.): Ismaili Literature, Tehran 1963.
- **Le Tourneau** (R.): La Révolte d'Abu Yazīd; Cahiers de Tunisie 1953.
- **Lézine** (Alexandre): Mahdiya, Paris 1965.
- **Lévi - Provençal** (E.): Histoire de l'Espagne musulmane, 3 volumes, Paris, 1950.
- **Ponawala** (Ismail K.): Bibliography of Ismaili Literature, Malibu (California) 1977.
- **Stern** (S.M.): Heterodox Ismailism at the time of Muʿizz, B.S.OS. 17-1955.
- **Talbi** (M.): L'Emirat aghlabide, Paris 1966.
- **Talbi** (M.): Études d'Histoire Ifriquiyenne, Tunis 1980.

الفهرس التفصيليّ للمواضيع
(عناوين الطرّة)

[خروج القائد جوهر إلى مصر]

فهرس الخرائط

دار الغرب الإسلامي / الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) ـــ الحمراء ـــ بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 ـــ ص ب. 113-5787 بيروت ـــ لبنان

الرقم 68 /2000/ 8/ 1985

التنضيد : كومبيو تايب للصف الطباعي الالكتروني

الطباعة: مؤسسة جواد ـــ بيروت

ʾIdris ʿImād al-Din
(m. 872/1468)

ʿUyūn al-ʾAẖbār

(Chronique des califes fatimides au Maghreb)

Texte établi et annoté par

Mohammed Yalaoui



Dār al-Gharb al-Islāmi
1985